شرح العقيدة الواسطية

الدرس الأول: التوحيد وأقسامه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

حيا الله هذه الوجوه الطيبة، نسأل الله جلَّ في علاه أن يديم علينا وعليكم هذا الخير ما حيينا أبداً، نسأل الله في عليائه أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يجعلنا ممن يتعلم ليتعبد وينشر ذلك بين الناس. اليوم إن شاء الله سنفتتح كتاباً عظيماً جليل القدر جداً، يحوي لنا ويحمل لنا كل اعتقاد السلف بأسره، الذي لا نجاة إلّا فيه ولا سداد في الفهم إلّا بفهمهم، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنهم الطائفة التي على الحق وأنهم الفرقة الناجية حقاً، وأنهم الذين كتب الله لهم السعادة في الدنيا وفي الآخرة. بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأصل الحديث افتراق الأمم معروف في كتب السنة بأسرها.

قال -صلى الله عليه وسلم-: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، قالوا: من يا رسول الله؟).
هذه جاءت في روايات ثلاثة، جمعت لنا شتات الأمر.

قال: (الجماعة)؛ فالجماعة هنا بعضهم أخذها بأنها السواد الأعظم من الناس وهذا ليس بصحيح، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق)؛ "طائفة" يقللها، وإلّا فالكثرة ما ذكرت إلّا مذمومة.

ولذلك لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها قالوا؟ أو من قلةٍ نحن يا رسول الله؟ قال: لا، إنكم اليوم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل). ولذلك لمّا قال: (الجماعة) طلبنا ما معنى الجماعة؟ نريد نفهم ما الجماعة؟ من الجماعة؟ كيف الجماعة؟

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في روايةٍ أخرى قال: (هم ما كانوا على ما أنا عليه اليوم وأصحابي)؛ إذاً رد الأمر في النجاة وفي الفلاح والسداد أنهم كانوا على ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- في زمانه والأصحاب الأخيار، وابن مسعود لمّا أراد أن يفسر الجماعة قال: أنت الجماعة إن كنت على الحق ولو كنت وحدك.

فالحق بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً قد أمر الأمة بأسرها أن تنتهج هذا النهج وأن تسير على نفس الدرب عندما قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)، ولذلك الله جلَّ في علاه بيّن أن خيرية الآخرين بالنسبة للأولين أن يدعوا الآخرون للأولين وأن يسيروا على دربهم، (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر:10].

الغرض المقصود بأن هذا الكتاب العظيم حوى لنا وجمع لنا جميع اعتقاد السلف الذي لابد أن يكون عليه المرء، حذو القذة بالقذة. خيرية الإنسان تعرف بالاستمرار، ليست الهمة أن الإنسان يأتي في أول شهر تراه ليل نهار صباح مساء يعطي همة كالنار ويشتعل، بعد ذلك ينام مع النائمين وينتهي، أبداً ما كان هذا دأب السلف أصلاً. شيمة طالب العلم الحرص والمداومة. كان الإمام الزهري يقول: أنا ما كتبت سوداء في بيضاء (لشدة الحفظ)، كان يقول: لا أعدو (لا أتجاوز) ثلاثة أحاديث في اليوم والليلة؛ من أجل الاستمرارية يتقن الحفظ ويستمر.، فطالب العلم الحق هو الذي يعض بالنواجذ على ما منّ الله عليه بمثل هذه المجالس. نبدأ الكلام اليوم إن شاء الله في الكلام على جمل من الأهمية بمكان.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أمّا بعد فهذا الجزء الأول للتعليق على كتابٍ في أصول الاعتقاد.

قال الإمام -رحمه الله-: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا

شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- تسليماً مزيداً.

هذه المقدمة من روائع البيان لإمامنا الذي جمع جملاً من العقائد السلفية واعتقاد السلف، وهو الاعتقاد الذي به النجاة، وهو الاعتقاد الذي فيه حق العلم والتعرف الصحيح على الله جلَّ في علاه وعلى صفات ربنا جلَّ في علاه. أقول أولاً العلماء يتكلمون في هذا الباب يقولون بأن الدين ينقسم إلى أصول وفروع -إذا صح التعبير-، وإلّا لا انقسام لو قلنا بذلك، فالأصل الأصيل والركن الركين من العلم هو العلم بالله.

العلم علمان: علم بالله، وعلم بأمر الله ونهيه؛ وأعظم العلوم على الإطلاق وأشرف العلوم على الإطلاق العلم بالله جلَّ في علاه، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى. والعلم بالله هو أعظم العلوم على الإطلاق، وهو الذي من أجله تشمر ساعد الجد والاجتهاد، ومن أجله تتنافس مع الآخرين، ومن أجله تسرع مقبلاً إلى ربك جلَّ في علاه من المسرعين الصالحين الصادقين المصدقين المخلِصين المخلَصين.

الغرض المقصود غاية الكون أو قضية الكون الكبرى، الغاية العظمى من خلق الخلق هو توحيد الله جلَّ في علاه، ولا يكون ذلك إلّا بحسن التعرف على الله جلَّ في علاه. قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل:36]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، هذه هي غاية الخلق، الحكمة من الخلق. وهي قضية الكون الكبرى، والله جلَّ في علاه ما خلق الخلق إلّا لها، ولذلك يقول الله جلَّ في علاه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء:25]. (فَاعْبُدُونِ) في أكثر من آية، قال فيها ابن عباس: فيوحدون؛ يعني لا بد من توحيد الله جلَّ في علاه.

وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث معاذ -رضي الله عنه وأرضاه-، الحديث الذي في الصحيحين: (كنت رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله (أدباً منه)، فسكت ساعة (لجذب الانتباه). قال: يا معاذ، ثم سكت ساعة. يا معاذ، ثم سكت ساعة، ثم قال: أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً). فأصل الأصول وهو أصل العلوم هو توحيد الله جلَّ في علاه، وهو الغاية من الكون.

العلماء من المتأخرين -لا من المتقدمين والعلم عند المتقدمين أصالةً- جمعوا علم المتقدمين، وحاولوا قدر الإمكان أن يجعلوا هذا العلم بطريقةٍ تسهل على الطالب أن

يطلِّع عليها وأن يتعلمها، فقسموا التوحيد. طبعاً لا إنكار، هذا التقسيم ليس تقسيم بدعي بحال من الأحوال، وليس التقسيم مخالف للسلف، هو كلام السلف مضمناً.

لمّا أنا أتكلم مثلاً عن مسألة سد الذرائع، ائتوني بأحدٍ من الصحابة قال بسد الذرائع تصريحاً؟ لا يوجد. قلنا مفهوم المخالفة، ائتوني بصحابي قال ومفهوم المخالفة وعرّفه وبيّن ما فيه؟ هل تجدون؟ إذاً أصلاً مسألة ضم العلوم أو العلم الأساسي في كتاب وإبرازه في نقاط هذا كلام من عمل المتأخرين، لأنهم اهتموا بالمصطلحات.

فلذلك قسم العلماء التوحيد (غاية الخلق في التوحيد)؛ التوحيد هنا:

- توحيد الإلهية (هذا توحيد العبادة توحيد الله بأفعال العباد)،

- توحيد الربوبية (لا بد أن تفرد فيها: خلق ملك تدبير رزق تشريع)،

- يضم هذا وذاك الأسماء والصفات.

هذه العلاقة علاقة تضمُّن، العلاقة هذه مع هذه العلاقة استلزام.

الغاية من الخلق هو توحيد الله؛ قال: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ) [الذاريات:56-57]، وهنا يقول الله جلَّ وعلا: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) يعني إلّا ليوحدون. وهذه غاية الكون الكبرى، لذلك أي أحد يلتفت عن هذا ولو كان بحراً في أي العلوم خاب وخسر.

أنت ترى أذكياء العالم ورفعاء الناس في التفكير ذلوا لمّا أخطأوا الطريق؛ الجويني، الغزالي، الرازي، وهؤلاء أفذاذ العالم كما قال ابن تيمية: هؤلاء أفراد الناس في الذكاء، ومع ذلك لمّا ضلوا في هذه الأبواب زلت أقدامهم. وكان يبكي الجويني وتعرفون من الجويني وكم هو في العلم؟ الجويني نفسه يقول: والله ما قلدنا الشافعي ولا نقلد أحداً، وافق اجتهادنا اجتهاد الشافعي.

الجويني يبكي ويقول: ليتني أموت على عقيدة عجائز نيسابور؛ بسبب الخراب العقلي الذي توسع في غير محله، لأن المسائل العقلية مسائل تخضع لدائرة الشرع، فعلم الكلام بحرٌ لا ساحل له، وهذا بحرٌ من الفتن ومضلات الفتن. لذلك أبو بكر ابن العربي المالكي يقول: شيخي (على شيخه الغزالي) لج في بحر الفلسفة فأراد أن يخرج فما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فالأصل في ذلك هو أن الشرع يقدم في هذا الباب، ومن ضل في هذا الباب هذا الذي خاب وخسر.

فهنا هذا الكتاب يجمع لنا هذه العقائد في ربنا جلَّ في علاه على أنواع ثلاثة؛ فالتوحيد "توحيد الله جلَّ في علاه" هو إفراد الله جلَّ في علاه، فإفراد الله: العلم الخبري (توحيد الربوبية والأسماء والصفات)، والقصد الطلبي (توحيد الإلهية).

فنقول بأن التوحيد "توحيد الله جلَّ وعلا" وهو غاية الكون، كما بينا قبل ذلك التقسيم للتقريب، ما في أحد في الأولين قسّم هذا التقسيم ولا قال به، لكنهم قالوا به دون التقسيم؛ يعني هم قالوا به وبيّنوه، والقرآن نطق بهذا التقسيم، بل القرآن نطق بالعلاقة بين هذا التقسيم:

- عندما قال الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:21]، (اعْبُدُوا رَبَّكُمُ) ذكر الربوبية ثم ختمها بالإلهية (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ما قلنا الإلهية توحيد العبادة

- سورة المؤمنون: (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) [المؤمنون:86-87]، بعد ما يذكر الربوبية يختمها بالإلهية.

◆ والقسم الأول "توحيد العلم الخبري": وهذا هو الأصل وهذا المقصد الأسمى، الأصل هو العلم أن تعلم وتعتقد لأن الجوارح لا تتحرك إلّا باعتقاد صحيح، والاعتقاد لا يكون إلّا بالعلم. فهذا الأصل أن تعلم، ثم بعد ذلك المقصد تظهر الثمرة؛ قال الله: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) ثم الثمرة جاءت (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) [محمد:19]، هذا الأصل وهذا المقصد.

إذاً التوحيد الأول: توحيد العلم الخبري؛ أن تعتقد، والاعتقاد هو المحرك لأن القلب محرك للجوارح. قال الله جلَّ في علاه مبيّناً ذلك: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ)، لأن الذي خلق والذي رزق والذي أعطى والذي منع هو المستحق للعبادة.

■ التوحيد الأول (الجزء الأول في العلم الخبري): توحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية هو أن تفرد الله جلَّ في علاه بذلك، لأنه الأصل في التوحيد. الأصل في التوحيد هو الإفراد، يجب أن تفهم ذلك، وإلّا فالشرك مهلكة أيّما مهلكة، لا نجاة لمشرك بحال من الأحوال، قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48].

عجبٌ عجاب؛ سمعت شيخاً دكتور وكان يشرف عليّ أيضاً في رسالة الماجستير، قالوا له: هناك من يتشدد ويقول التهنئة للكفار لا تجوز، قال: لو سمحت قف، وقف المذيع. قال له: عندي ملاحظة في سؤالك، فقلت جيد الرجل يعني سيبيّن له المسألة بالتفصيل. قال: لا تقل كفار قل غير المسلمين. الله سمّاهم في الكتاب هكذا ويرد على الله ما يريد!! يعني انتهى الموضوع، القضية انتهت انماعت. ولذلك أنا أقول لا بد أن تفهم في هذه المسائل، حتى تعرف ما لك وما عليك وكيف تنجو وكيف يهلك الهالكون؛ (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) [الأنفال:42].

التوحيد الأول هو توحيد الربوبية؛ وتوحيد الربوبية: هو إفراد الله جلَّ في علاه بالاعتقاد، بأن الخلق كله لله وما أحد مع ربه جلَّ في علاه في الخلق بحال من الأحوال. الخلق كله لله كما قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]، وقال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، والله جلَّ في علاه قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق:38].

وأيضاً من الخلق: خلق أفعال العباد، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانعٍ وصنعته)، ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]. وفي ضمن هذا الاعتقاد ردٌ على القدرية؛ القدرية الفرقة الضالة التي تقول بأن كل إنسان خلق أفعال نفسه، جعلوا كل إنسان خالق مع الله جلَّ في علاه ونفوا أيضاً العلم.

الله جلَّ وعلا قال: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)، ولذلك ابن عمر يقول: حتى الكيس والعجز خلقه الله جلَّ في علاه. لمّا أنكرت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- واستدركت على عمر بن الخطاب -وليس بمستدرك-، أنه قال: إن الله ليعذب الميت ببكاء أهله عليه، قالت: وهم عمر، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إنه ليعذب وإنهم ليبكون). يعني في حالة كونه يعذب هم في بكاءٍ، لا يعذب بالبكاء، واستدلت بقول الله جلَّ وعلا: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) [فاطر:18]، وافقها ابن عباس قال: وقلت أنا: هو الذي أضحك وأبكى.

فكل فعلٍ من أفعال العباد خلقه الله، وينسب للعبد فعلاً واكتساباً؛ من المصلي؟ زيد، من الذي أكل أو شرب؟ زيد، من الذي نام؟ زيد. من الذي خلق فعل النوم؟ الله، من الذي خلق فعل الصلاة؟ الله. فينسب لله خلقاً وإيجاداً، وينسب للعبد فعلاً واكتساباً.

إذاً هنا توحيد الربوبية:

- الخلق: أولاً إفراد الله بالخلق؛ ولا يرد علينا قول الله جلَّ في علاه: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون:14]، لأنه فرق. هذا إنصاف؛ حتى الله جلَّ وعلا لم يبخس للعبد حقه وسمّاه خالقاً عندما صنع، وهنا الفرق بين خلق الله وخلق العبد: خلق الله على كمال فعله، وخلق العبد على العجز والنقص.

خلق العبد غايته أن يحول من صورة إلى صورة: حديد يجعله سيارة، خشب يجعله باباً، حديد يجعله كاميرا، فهذا يسمّى خلق. لكن من الذي أوجد الحديد؟ من الذي أنزله؟ من الذي أوجد العقل ليفكر؟ من الذي جعل اليد لتفعل؟ الله جلَّ في علاه. فخلق الله إيجاد

من عدم، وخلق العبد هو تحويل من صورة إلى صورة. فخلق العبد يسمى صنعة، لكن الله جلَّ وعلا يخلق ويوجد من عدم سبحانه جلَّ في علاه.

● الملك: إفراد الله بالملك (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة:2-4]، (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الملك:1]. هنا الآية فيها لفتة لمّا قال: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، مع أنه مالك يوم الدين ومالك الدنيا ومالك كل شيء في كل وقت، وطبعاً قراءتان: مالك وملك -لا ندخل في الفقه-. بينما أقول لِمَ أضاف الملك ليوم الدين فقط، مع أنه هو مالك كل شيء في كل وقت؟ لأنه لا يستطيع أحد ينازعه، (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) [طه:108].

اليهودي يدخل على النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول: يا محمد، إن الله يحمل الثرى على ذه والجبال على ذه والأنهار على ذه، وقال: ويهزهن ويقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أنا الملك، فابتسم النبي -صلى الله عليه وسلم- مقرّاً لما قال اليهودي.

الغرض المقصود بأن الإضافة ليوم الدين لأنه لا أحد ينازع، ولا أحد يقول بأنه ملك، وإلّا في الدنيا كثير ممن نازع؛ النمرود ماذا قال؟ إبراهيم يقول: ربي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت، ينازع في الربوبية الكذاب الخبيث. لذلك نحى إبراهيم -عليه السلام- دون المجادلة التي فيها السفسطة، قال: (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) [البقرة:258]. أعجب منه فرعون عندما قال: أنا ربكم الأعلى، والشيطان لمّا دق عليه وقال: من بالباب؟ قال: يا خبيث تدّعي الربوبية ولا تعرف من بالباب. الغرض المقصود بأنه الادعاءات في الدنيا موجودة، كلٌ يدّعي والله يمهل لحكمةٍ عنده سبحانه جلَّ في علاه. أمّا في الآخرة (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)، لذلك قال: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ).

● التدبير: شؤونك، شؤون الدنيا بأسرها؛ ما من نملة تسير إلّا بتدبير الله جلَّ في علاه، ما من طيرٍ يضرب بجناحيه إلّا بتدبير الله جلَّ في علاه، ما من موجة تلاحق موجة في البحر إلّا بتدبير الله جلَّ في علاه، ما من نفسٍ يصعد أو يدخل أو يخرج إلّا بتدبير الله جلَّ في علاه. أرأيت ماذا قال الله جلَّ في علاه؟ (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125].

الله جلَّ في علاه يدبّر كل شيء، كما قال الله جلَّ في علاه: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) [السجدة:5]. فالله يدبّر شؤون الخلق، مالك كل شيء ومدبرٌ لكل شيء؛ ما ضحك المرء، ما بكى المرء، ما

طعم المرء، ما شرب المرء، ما نام ما قام إلّا بتدبير الله جلَّ في علاه، فهو يدبّر شؤون الكون سبحانه جلَّ في علاه.

لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه)؛ يعطي أقواماً ويمنع آخرين، يعز أقواماً ويذل آخرين، يميت أقواماً ويحيي آخرين، هذا من تدبير الله جلَّ في علاه. قال: (يرفع القسط ويخفضه، حجابه النور (في رواية: حجابه النار)، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). وما من شيءٍ إلّا في الكتاب، (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39]. إذاً تدبير كل شيء من الله جلَّ في علاه، لذلك لا تعبأ بما يحدث ولا تعبأ بدولة الباطل.

سؤال: في لوحين أو كتابين؟

نعم، في كتاب للملائكة وكتاب في اللوح؛ أما اللوح المحفوظ لا يتغير فيه ولا يتبدل شيء، أمّا كتاب الملائكة قد يتغير، لأن عمر كان يطوف ويبكي ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً، ويقرأ: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ) -أي في صحف الملائكة- (وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) -الذي لا يتغير فيه شيء-.

فتدبير كل شيءٍ من الله جلَّ في علاه، إذاً لا بد أن ترى عجباً في هذا التدبير؛ إن الله لطيفٌ يخفي الأشياء في أضدادها، هذا عند التفقه، أن تتفقه كيف يتصرف من فوق العرش وتتفقه كيف تتعامل مع من فوق العرش، هذه بناء العقيدة الصحيحة.

أنظر كيف دبّر الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في مسألة الخروج من مكة، الطف ما تكون؛ تعلمون أنه اشتد الأمر على النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى حبسوه في الشعب ومن معه وتآمروا عليه، لا طعام لا شراب لا مناكحة. واشتد الأمر على النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي صابر محتسب يقول: (ولو انفردت (*) ما تركت ما أنا عليه)، ثم اجتمعت كلمتهم بقتل النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أنظر إلى تدابير الله جلَّ في علاه وكيف يخفي الأشياء في أضدادها، جعل اليوم الذي أرادوا أن يقتلوه هو اليوم الذي يخرج فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، والشبيبة يقفون على الباب ويقوم النبي -صلى الله عليه وسلم- ويخرج ويأخذ بحفنة التراب ويلقيها عليهم ويقول: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) [يس:9]. كيف مر النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

ليس عجباً أن يكون ذلك للنبي، العجب كل العجب أن يكون في آحاد أمته؛ كان القرطبي يقول في حديث: (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم)، يقول: بأن هذا الذكر من قاله إلّا وقد حفظه الله جلَّ في علاه، كما قال

النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الباب. يعني لا تقوله صباحاً إلّا حفظك الله إلى المساء، وما تقوله مساءً إلّا حفظك الله إلى الصباح. يقول: طلبني الجيش الشرطة، فلمّا طلبوه جاءوا خلفه، فقال: (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم). قال: فمروا من أمامي لا يرونني وأنا أقف أتعجب، هم مروا ما أوقفوني ما أخذوني. فسبحان ربي العظيم، المسألة تحتاج إلى يقينٍ في الله جلَّ في علاه، فتدابير كل شيء بيد الله جلَّ في علاه.

أما رأيت كيف أنهم تحزبوا وتألبوا وقد أحكموا الحصار على النبي في غزوة الأحزاب، وأرادوا استباحة البيضة. كيف ردهم الله جلَّ في علاه خائبين لم ينالوا خيراً برجل؟ وكان الرجل منهم كان كافراً يريد كما يريدون قتل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فغيّر الله قلبه في ثوانٍ معدودة، ثم قام فذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: مرني فائتمر بأمرك، قال: (خذِّل عنا القوم)، فردهم وقلب هؤلاء على هؤلاء، حتى وصف الله جلَّ وعلا: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْرًا) [الأحزاب:25].

فعلمنا بأن تدابير الله، فعل ذلك الله بهم ليميز الخبيث من الطيب؛ تمايز الصفوف، وزيادة الأجر، ومعرفة المعادن (الذهب الخالص من المزيف). ماذا قال الله جلَّ في علاه؟ بيّن لنا حال الصفين؛ قال المنافقون حال الحصار: (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) [الأحزاب:12]، وقال أحدهم عندما ضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- الكدية وقال: (الله أكبر، أعطيت الكنزين)، قال: محمد يبشرنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقضي حاجته خالياً من الخوف. لا يصدقون الله جلَّ وعلا، فعل ذلك بهم ليميز بين الصفين.

وحال المؤمنين كيف وصفه الله بنفس السورة؟ قال: (قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) [الأحزاب:22]. أرأيتم الله جلَّ في علاه يدبّر كل شيء وله في كل شيءٍ حكمة، إنه حكيمٌ عليم يضع الشيء في موضعه. قد يوقعك في المعصية وتنغمر فيها من أجل أن يكسر قلبك، فينكسر القلب ويخضع لربه سجدة لا يقوم بعدها أبداً فتنجو بها، وقد يودي بكثيرٍ من الناس بالطاعات إلى النيران، ليس عجباً، وهذه من تدابير الله.

أما مر الرجل من بني إسرائيل (وكان مطواعاً) على رجل (وكان عاصياً)، يقول المطواع للعاصي: اتق الله، خلي بينك وبين المعاصي، والآخر يقول: خلي بيني وبين ربي. يأتيه اليوم الثاني فيقول: اتق الله واترك المعصية، فيقول: خلي بيني وبين ربي، مالك ولي. في اليوم الثالث قال: والله لا يغفر الله لك أبداً، نصّب نفسه رباً مع الله. هنا عندنا مآخذ:

- المأخذ الأول: أنه قنطه من رحمة الله جلَّ في علاه، وهذا جهلٌ مركب، ولا يقنط من رحمة الله إلّا القوم الكافرون.

- الثاني: نصّب نفسه رباً؛ نحن لسنا أرباباً لا نحاكم الناس على أننا أرباب، لا، نحن من النصح والرحمة فقط ولسنا أرباباً.

فلما قال ذلك، ماذا قال الله جلَّ في علاه؟ قال: (أكنت بي عالماً؟ أكنت على ما في يدي قادراً؟ عذبتك وغفرت له).

تدابير الله جلَّ في علاه؛ قد يمهد لك المعصية تنغمر فيها، حكمة بليغة، حتى ترجع مكسوراً باكياً خاضعاً، ثم تتلاوم وتقول: أبدل الشكر أعصي وأجحد؟ فتبكي. فلعل بكاء بدمعة عين تذرف منك تنجو بها عند ربك جلَّ في علاه، لعله من انكسارٍ حقيقي لقلبك فتسجد سجدة خاضعاً لربك فتكون من أعظم العباد قرباً من ربك جلَّ في علاه، له في ذلك حكم سبحانه جلَّ في علاه. قال علماؤنا: خلقٌ وملكٌ وتدبير ورزقٌ.

● الرزق: والرزق بيد الله جلَّ في علاه، وهذه التي أتعبت كثير منا ومن غيرنا، يعني لو كان المرء صالح الاعتقاد مع الله جلَّ في علاه ما عاش مثل ما عاش الذين يعيشون اليوم في دنيا الناس.

الرزق بيد الله جلَّ في علاه وهو مضمونٌ لك؛ ابن القيم ضرب بأروع الأمثلة عندما قال: خلق الله الكون بأسره بما فيه من رزق لك، وخلقك أنت، له فانشغل بما خلقت له ولا تنشغل بما خلق لك. قال الله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ) [الذاريات:22-23]، لذلك الأعرابي لمّا سمع (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) وقف انتبه، ثم الله جلَّ وعلا قال: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، قال: من حمل الجبار على القسم، إذا قال فعل، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40].

لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين، أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلَّها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب)، وفي الطبراني بسند صحيح قال: (إن الرزق ليسع خلف المرء كما يسعى الموت خلفه).

● التشريع: هذه الربوبية هذه الآن، لا أحد يستطيع أن يشرّع مع الله جلَّ في علاه، ولذلك قلنا من أخطر ما يقع فيه المبتدع أنه ينصِّب نفسه مع الله مشرّعاً. قال الله جلَّ في علاه: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]؛ تشريع، قال الله جلَّ في علاه: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21].

هذه الربوبية "العلم الخبري"؛ وهذا كلّما اعتقدت، كلّما تحركت إن علمت أن الرزق بيد الله جلَّ في علاه تفرغت للعبادة وما أخذت إلا بالسبب اليسير في الرزق، وهذا الذي

قاله الحسن البصري، قال: علمت بأن رزقي بيد ربي ولن يذهب لغيري فاطمئن قلبي. فانشغل بالعبادة. بل العبادة رزقٌ آخر؛ لأن الرزق رزقان: رزق قلوبٍ ورزق أبدان، وأعظم الرزق الذي يؤتاه المرء رزق القلوب: المحبة، الإنابة، الرغبة، الخشية، القرب من الله جلَّ في علاه.

■ الجزء الثاني في العلم الخبري: الأسماء والصفات؛ أن تفرد الله جلَّ في علاه، تعتقد بأن لله أسماء حسنى وصفات علا سبحانه جلَّ في علاه، وهذا الذي سنتكلم فيه إن شاء الله تفصيلاً في الكتاب.

سريعاً الأسماء الحسنى لله جلَّ في علاه هي أسماء حسنى "فُعلى"، وهي توقيفية؛ لا يصح لأحدٍ أن يسمي الله باسمٍ إلّا أن يكون قد ورد في الكتاب أو ورد في السنة، لا يجوز لك أن تسمي الله بأي اسم قط إلّا بما جاء في الكتاب أو في السنة. أمّا قول أحمد: يا غياث المستغيثين، وقول الشافعي: الجاعل ما في الأرض كذا وكذا؛ نقول: هذا خبر وليس اسماً، يخبر عن الله، خبر عن الله جلَّ في علاه.

وأسماء الله جلَّ وعلا كلها حسنى لأنها أعلام وأوصاف؛ علمٌ على ذات الله، وتتضمن صفة من صفات الكمال، فهي على الذات وعلى الصفة بالمطابقة، وعلى الصفة وحدها بالتضمن.

- الاسم تقول: "الله" يدل على الذات المقدسة (ربك الخالق الرازق)، ويدل على الصفة الإلهية مطابقةً (تطابق عندك في اللغة)، وتدل على الصفة فقط تضمناً؛ "الله" اسم من أسماء الله يتضمن صفة كمال، هي الصفة الإلهية.

- "الكريم" اسم من أسماء الله يدل على الذات المقدسة، وعلى الصفة التي تضمنها الكرم (على الذات المقدسة والصفة مطابقةً)، ويدل على الصفة فقط؛ الكرم تضمناً مع الذات تضمناً أيضاً

ويستلزم بعض الصفات الأخرى.

فأسماء الله جلَّ وعلا كلها أعلام وأوصاف، وهذا يدلك على أن الدهر ليس اسماً من أسماء الله، لأنه لا يتضمن صفة؛ جامد ليس مشتقاً، الدهر جامد، وأسماء الله كلها مشتقة "أعلام وأوصاف".

وصفات الله جلَّ في علاه: أن تعتقد بأن لله صفات كمال، وهذه صفات تقسم إلى قسمين: صفات ثبوتية وصفات منفية؛ وهذا تطبيق لمّا سيأتي، كل الكتاب يتكلم عن هذا.

🔷 صفات ثبوتية: هي التي ثبتت بالكتاب والسنة أو إجماع أهل السنة، يعني القاعدة أننا لا نثبت لله إلّا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- أو الإجماع.

سؤال: ليس من أسماء الله، هذا حديث صحيح قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تسبوا الدهر، فإني أنا الدهر) لكن أنت اقرأ السياق ستعرف، قال: (لا تسبوا الدهر، فإني أنا الدهر، أقلِّب الليل والنهار)؛ فالدهر هنا المقصود به الأيام والليالي، الأيام والليالي من فعل الله ليس اسماً لله.

إذاً الصفات الثبوتية ثبتت لله؛ كقول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، ثبت لله السمع والبصر في الكتاب. وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث)، وصف الله بالرحمة الآن. فثبتت بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة أيضاً في ذلك، هذه الثبوتية.

🔷 والسلبية: هي التي نفاها الله عن نفسه في الكتاب أو السنة أو إجماع أهل السنة؛ يعني لا يصح أن تنفي شيئاً لم ينفيه الله.

لو قلت لك لله أذن؟ نعم لله أذن؟!! لا، أخطأتم في المرتين: أثبتم فأخطأتم ونفيتم فأخطأتم. عند الإثبات لا يكون إثباتاً إلّا بكتاب وسنة، وعند النفي لا يكون نفياً إلّا بكتاب وسنة. فالشيء الذي لم يأتِ النفي عن الله فيه لا تنفيه، اسكت، قل: لا أعلم، الله أعلم. قد تكون ثابتة ولا أعلم، قد تكون منفية ولا أعلم، اسكت، بالذات في الأمور الغيبية لا سيما ما يتعلق بالله لا تتكلم إلّا بنص كتاب أو سنة أو إجماع أهل السنة.

الله ينام؟ لا ينام، لأن الكتاب قد ذكر ذلك، ولأن السنة ذكرت ذلك؛ قال الله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255]، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له إن ينام).

فالصفات المنفية: هي التي نفاها الله عن نفسه في كتابه، أو نفاها عنه رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سنته، أو أجمعت الأمة على النفي لأن الإجماع لا بد أن يكون مستنداً لكتابٍ أو سنة، وتسكت عن ذلك.

🔷 الصفات التي بين بين وهي صفات المقابلة (صفات ثبوتية سلبية): ما معنى ثبوتية سلبية؛ بأنها ثبوتية من وجه، سلبية من وجه.

ما حكم الصفات الثبوتية؟ ما وصفها؟ كيف هي؟ الصفات الثبوتية: هي التي ثبتت لله، هي صفات كمال؛ ثبتت فكانت كمالاً، انتفت فكانت نقصاً. عندما تنتفي هي نقص، عندما تثبت هي كمال.

عندما أقول صفات ثبوتية سلبية: إذاً هي كمالاً من وجه، نقص من وجه. فحينما تكون نقصاً فهي سلبية منفية، عندما تكون كمالاً أثبتها لله، كالكيد، كالخداع؛ (خَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) [النساء:142]، الخداع مقابل الخداع كمال هنا. لذلك عمر بن الخطاب

قال: لست بالخب، ولا الخب يخدعني؛ أي لا أعامله بمعاملته، وهنا الكمال. هنا رد الكيد إلى النحر، هذا هو الكمال. مثل ذلك الكيد؛ (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* وَأَكِيدُ كَيْدًا) [الطارق:15-16].

قال الله جلَّ في علاه: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال:30]، (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا) [النمل:50]؛ فإذاً هنا كان المكر من وجه كمالاً ومن وجه نقص. عند النقص لا يتصف الله به، فلا يقال عن المكر إطلاقاً؛ المكر المطلق نقص، الكيد المطلق نقص، الخداع المطلق نقص، لكن المقابلة كمال. الخيانة نقص من كل وجه، إذاً هي سلبية، ولذلك الله جلَّ وعلا قال: (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) [الأنفال:71].

هذه هي صفات الله، هذا الجزء الذي هو القسم العلمي الخبري المهم جداً أن تتقنه، يرتبط بالجزء الثاني الذي هو المقصد من الخلق "وهو توحيد العبادة"، الذي هو توحيد الله بأفعال العباد. هذا توحيد الله بأفعاله هو (يقصد الشيخ قسم الأسماء والصفات)، أمّا توحيد الله بأفعال العباد؛ أن تفرد الله بالعبادة: بالصلاة بالنذر بالطواف بالحج.

تفرد الله بالعبادة، العبادة لا تكون ألّا لله. هذا مقتضاه "لا إله إلّا الله"، والمعنى لا معبود بحقٍ إلّا الله، هو أن تفرد الله وحده جلَّ في علاه بالعبادة. العلاقة بينهما علاقة تضمن واستلزام؛ لو قلت الرب اسم يتضمن صفة الربوبية، والتضمن علاقة تضمن واستلزام. توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية؛ لذلك الله جلَّ وعلا دائماً يبيّن أن الحجة مقامة على مشركي العرب باللزوم: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزمر:38]، (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزخرف:87]. فانظر هنا الآن، الله جلَّ وعلا جعل الإقرار منهم بربوبية الله: بالخلق والرزق والإعطاء والتدبير، ثم قال لهم: يلزمكم بعد الإقرار بالربوبية أن تأتوا بالإلهية، لكنهم جحدوا قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5].

لذلك الله جلَّ وعلا -وهذه في الإسرائيليات- يبيّن لك العلاقة أيضاً؛ قال: إني والإنس والجن في نبأٍ عظيم، أخلق ويُعبد غيري (والمعنى أنني ما دمت أنا الذي خلقت، فلا بد أنا أُعبَد وأفرد بالعبادة)، أرزق ويُشكر سواي (والشكر عبادة صرفوها لغير الله جلَّ في علاه)، خيري للعباد نازل وشرّهم إليّ صاعد).

فالأصل أن الربوبية تستلزم الإلهية، من أقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالإلهية؛ ما دمت قد اعتقدت أن الذي خلقك وأن الذي ملكك وأن الذي أحياك ويميتك هو الله، وجب أن تعبده وحده لا شريك له. عندما تضيق بك الضوائق من تدعو من أجل أن يرفع الله عنك البليات؟ الله.

وفي أكثر من آية الله يقيم الحجة على المشركين بذلك؛ (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) [النحل:53-54]، عجبٌ عجاب إذا مسكم الضر التجأتم إخلاصاً!! وهذا مشركو العرب أفضل ما يكونون، يعني في زمننا حتى ما أحد مثلهم، لأنهم لمّا تلاعبت بهم الأمواج وصفهم الله وصفاً دقيقاً: (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [العنكبوت:65]، فنجاهم سبحانه جلَّ في علاه، فمن دعا مخلصاً ينجيه. لكن الآن يدعون غيره سبحانه جل في علاه، وهذا كما قلنا فوارق في هذا الباب.

ما دمت تعلم أن الملك بيد الله، فعليك أن تفرد الله بالعبادة والالتجاء لله وحده سبحانه جلَّ في علاه، هذا ملخص الكلام على المقدمة؛ التوحيد، وأن توحيد الله توحيد العلم الخبري والتوحيد القصدي الطلبي. فقال المصنف بعد ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم؛ وهذه من روائع البيان مقدمة لهذا الكتاب، وإن شاء الله نبدأ في شرحه الدرس القادم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثاني:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع الواسطية وأصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهذا الكتاب من أمتع الكتب التي صنفت في هذا الباب ووجوباً ولزاماً، بل فرض عين على كل طالب علم أن يحفظ هذا المتن، أو قل يعلم ما في المتن ويتقن ما فيه ويعمل به. هذا وجوباً، بل هذا فرض عين على كل طالب علم أن يعلم ذلك حتى يستوي اعتقاده، فإنه لا نجاة إلّا بالاعتقاد الذي كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان عليه أصحابه الكرام.

وهذه جمل اعتقاد هؤلاء قد جمعها شيخ الإسلام، لا سيما وأن تعلموا سبب تأليف هذه الرسالة؛ أن الرجل جاءه من واسط، وهو يبيّن له أنه قد انتشرت البدع والمخالفات في الاعتقاد في محله، فجمع له جملاً عظيمة من اعتقاد أهل السنة والجماعة وسمّاها الواسطية.

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً، وأشهد أن محمد عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم- تسليماً مزيداً.

اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة؛ هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره.

- الكلام على البسملة والحمد

ابتدأ المصنف ابتداءً كما قلنا، وهذه أكررها دائماً أن هذه من روائع البيان، وهو يبدأ بالبسملة؛ في بعض النسخ أنه بدأ بالحمدلة، وبعض النسخ بدأ بالبسملة، وفي الحالتين هذه من روائع البيان.

أولاً البداءة بالبسملة فهذا اقتداء بكتاب الله جلَّ في علاه، لأن كتاب الله يبتدئ بالبسملة. وقلنا بأن البسملة على خلافٍ بين العلماء؛ هل هي آية من كتاب الله جلَّ في علاه مستقلة؟ أو آية من كل سورة؟ أو جزء من الآية فقط في السورة؟ هذا على الأقوال:

- أمّا المالكية فيرون بأن البسملة هي جزء من آية فقط، ولا يرونها من القرآن، يرونها أنها جزء من آية في سورة النمل (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) [النمل:29-30]، هنا المالكي يحتج بهذا.

- وأمّا الأحناف يرون بأنها آية من القرآن، وهذا الراجح الصحيح الذي لا محيد عنه، وأنها آية من القرآن لكنها آية فاصلة بين السور؛ وهذا مستند ما قاله ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- بأنهم كانوا يعرفون انقضاء السورة بنزول البسملة، يعني بنزول

البسملة يعرفون أن السورة هذه انقضت وتفتتح بعد ذلك سورة أخرى، والحق بأن هذه دلالة واضحة التي احتج بها الأحناف.

ويعضد ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (سورة ثلاثون آية حجت عن صاحبها في القبر)، هذه السورة قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- هي سورة الملك؛ سورة الملك إن عددت الآيات، وأنت تعد الآيات دون البسملة تجدها تصل إلى ثلاثين آية من غير البسملة، هذه فقط التي نقول حجة الأحناف على الشافعية.

◆ أمّا الشافعية فيرون أن البسملة آية من الفاتحة وآية من كل سورة؛ آية من الفاتحة، وعندهم دليل في ذلك لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أم الكتاب والسبع المثاني هي الفاتحة)، قال: (وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها)؛ فهذا تصريح بأن البسملة آية من سورة الفاتحة.

وهو يقول إنها آية من جميع السور لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث أنس أنه قال: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- متهللاً مستبشراً (يعني يبتسم يضحك)، فسألته، فقال لي: (نزلت عليّ آنفاً سورة) ثم ذكر: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، هذه فيها دلالة أن البسملة إحدى آيات السورة. فلذلك قال هي آية من كل سورة، لولا حديث سورة الملك لقلنا إنها آية من كل سورة، لكن الحق أنها آية من الفاتحة وأنها من القرآن وأنها فاصلة بين السور، وهذا الراجح الصحيح في هذا.

فهنا من روائع البيان ابتدأ شيخ الإسلام بالبسملة اقتداءً بكتاب الله جلَّ في علاه، وعملاً بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه قال: (كل أمرٍ ذي بال (يعني له أهمية وشأن) لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر)، في رواية: (لم يبدأ به بالحمد لله فهو أجذم).

والحق بأن هذا الأمر جلل، هذا الأمر فيه تصنيف يتكلم فيه عن وصف الله جلَّ في علاه، وعن أسماء الله الحسنى وعن صفاته العلى، بل عن الاعتقاد السبب الرئيس الذي يدخل الناس الجنة أو يدخل أهل الإسلام الجنة. فاعوجاج وانحراف الاعتقاد يجعل الإنسان على المهلكة، وهو على شفير هلكة إن حاد عن طريق السلف في الاعتقاد، يعني أضلته الطرق وزلت الأقدام في مسألة الاعتقاد فهو على شفير هلكة، لا يرجى له النجاة التامة.

ولذلك ابن تيمية قال: اعتقاد الفرقة الناجية؛ كأنه يقول: وأنه لولا هذا الاعتقاد لما نجت، يعني من حاد عن هذا الاعتقاد ليس من الناجين. وطبعاً هو لا يجزم بذلك، المسألة يتكلم على أن من انحرف عقدياً فيرجى له إن شاء الله المغفرة، لكن هو في خطرٍ عظيم لأنه قد اعتقد في ربه ما لم يعتقده النبي ولم يعتقده الصحابة الذين تربوا على يد النبي -صلى

الله عليه وسلم-. وهذه مسألة ليست بالهينة، لذلك دائماً كنا نقول إن بوابة العلم الصحيحة هو إتقان العقيدة، إتقان الاعتقاد.

خاب وخسر من لم يربِ نفسه اعتقاداً أولاً، في أنه لو يتبحر في الفقه كما تبحر وصار فحلاً من فحول الأصول والفقه وهو منحرف عقدياً هذا على شفير هلكة، قد يشرك وهو لا يدري أنه أشرك. يعني لو يعتقد أن توحيد الربوبية هو التوحيد، وأن فقط التوحيد التام عندك أن تعلم أنه لا قادر على الاختراع إلّا الله، معنى ذلك أين توحيد الإلهية؟ ولذلك التهاون الشديد في توحيد الإلهية بسبب هذا الاعتقاد. فلا بد من فهم هذه المسألة لأنها مسألة عزيزة، لا بد من إتقانها ولا بد من الاهتمام بها.

الغرض المقصود هو لمّا يقول بسم الله الرحمن الرحيم اقتداءً بالكتاب أو السنة، فنقول الأمر الذي أقبل عليه أمرٌ جلل؛ فإنه يكتب اعتقاد أهل السنة والجماعة، فإنه يصف الله جلَّ في علاه، فلذلك قلنا لا بد من الإتقان في هذا الباب.

قال: بسم الله الرحمن الرحيم؛ "الباء" للاستعانة، وهنا تقدر، والتقدير يكون حسب السياق. فهو بسم الله الرحمن الرحيم وهو يصنف، يكتب؛ معنى ذلك أنه يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، هذه استعانة، أستعين بالله في كتابة هذه الرسالة، فكأنه استعان بالله جلَّ في علاه في كتابة هذه الرسالة.

"الله"، الجار المجرور؛ تعلمون بأن أهل اللغة يفهمون ذلك: تقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم يفيد الحصر والقصر. و "الله" اسم من أسماء الله جلَّ في علاه، وهو اسم الله الأعظم الله. ولا بد أن تعلم بأن أدلة كثيرة جاءت على إثبات أن اسم "الله" هو الأعظم لأمور كثيرة:

- الأمر الأول: أكثر اسم ذكر في الكتاب هو الله.

- كل الأسماء تضاف إلى الله على أنها صفات، ولا عكس؛ تقول: الله الكريم، الكريم صفة إلى الله. الله الرحمن، الله الرحيم، الله الجواد، كل هذه صفات لهذا الاسم العظيم. وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب في سور ثلاثة البقرة وآل عمران وطه)؛ فإن نظرت الاسم المشترك في الثلاثة (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)، فالله هو الاسم الأعظم

بسم الله الرحمن الرحيم؛ "الرحمن" اسم من أسماء الله الحسنى، وقلنا أسماء الله جلَّ في علاه كلها أسماء الله كلها مشتقة، ومعنى مشتقة يعني تتضمن صفات كمال. ولذلك قلنا الدهر ليس اسماً من أسماء الله، لأنه جامد غير مشتق. ف"الرحمن" اسم من أسماء الله جلَّ في علاه، من الأسماء الحسنى، يتضمن صفة الرحمة. واعلموا أن الرحمن إذا

انفرد دخل تحته الرحيم، والرحيم كذلك، وإذا اجتمعا فالرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل.

◆ ف"الرحمن" صفة ذات تعم كل الخلائق؛ الحيوانات، الحيتان في البحار، النحل (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) [النحل:68] إلى آخر الآيات، أيضاً النمل. كل المخلوقات تنزل تحت رحمة الله جلَّ في علاه كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، وأن الله أنزل من السماء مئة رحمة يتراحم بها كل الخلق، فالغرض المقصود الرحمن صفة ذات تشمل البر والفاجر والكافر والمؤمن والتقي النقي.

◆ وأمّا الرحيم فهي خاصة، هي صفة فعل خاصة بالمؤمنين؛ قال الله جلَّ وعلا: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) [الأحزاب:43]، فالرحيم خاص بالمؤمنين.

إذاً الرحمن الرحيم صفة ذاتٍ وصفة فعل، اسمان جليلان. ابن القيم في روائع ما كتب في المدارك وفي غيره قال: الاسم (من أسماء الله جلَّ في علاه)، اسمٌ وهو من الأسماء الحسنى يتضمن صفة كمال، قال: فإذا انضم الاسم لاسم زاد الكمال كمالاً. كان الكمال زيادةً على الكمال كمالاً؛ فلما يقول: الرحمن الرحيم، هذه زيادة كمال على الكمال.

ولذلك أنت عندما تتوسل إلى الله جلَّ في علاه في دعائك راجياً ربك، فأنت تتوسل، ومن الأدب أنك عندما تتوسل باسم من أسماء الله أن يكون مناسباً للحال الذي تدعو به؛ يعني لما أنت أذنبت وعصيت الله جلَّ في علاه كما نذنب جميعاً ونستغفر الله على ذلك، فترفع يدك وتقول: يا جبار يا منتقم اغفر لي!! هذا سوء أدب، هذا سينتقم منك.

فأنت إذا أصالة إذا كان كذلك، فهذا اسمه الجهل وسوء الأدب عند التوسل. فأنت من الأدب مع الله عند التوسل بأسماء الله الحسنى أن تأتي بالاسم المناسب لحالك وللوصف الذي تتعبد به لربك جلَّ في علاه، فأنت إذا أردت المغفرة تقول: يا غفور اغفر لي، يا رحمن ارحمني، يا رحيم ارحمني. يا رزاق ارزقني، إذا كنت تريد الرزق. يقول العلماء: ومن الأدب أن تكثر من الأسماء توسلاً، وكل ذلك تفتح لك الأبواب "أبواب القبول" عند الله جلَّ في علاه.

قال: بسم الله الرحمن الرحيم؛ وقلنا هذا من روائع البيان وأنه يستعين بربه جلَّ في علاه ليفتح الله عليه عندما يكتب في هذه المسألة الجليلة المهمة وهي مسألة الاعتقاد. لا سيما ابن تيمية كان رجلاً له ما له من العبادات، ابن القيم يقول: وكان شيخنا يأتي من الفجر إلى الضحى أو إلى قبل الزوال فيذكر الله جلَّ في علاه ذكراً محضاً، فلمّا سألوه على ذلك قال: هذه غدوتي هذا زادي هذه قوتي، إن لم يكن لا أستطيع العيش، فيذكر الله جلَّ في علاه.

ولذلك لمّا كان ذكّاراً لله، وكان قدماً إلى طلب العلم كان يذهب إلى مسجدٍ مهجور، يقول ابن القيم: كان فيمرغ نفسه في التراب ويقول: يا معلم إبراهيم علّمني، ويا مفهم سليمان فهمني. وكذلك الله جلَّ وعلا قدّمه على كثير. نسأل الله أن يغفر لنا وأن يجعلنا من الشاكرين وأن يعلمنا وينفعنا وأن ينفعنا بما علّمنا ويجعلنا ممن يتعلم ليتعبد وينشر ذلك بين الناس.

ثم ثنّى بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي أرسل رسوله؛ قال: الحمد لله، وهنا دقة فهم الإمام في هذا الباب. الحمد مطلقاً يحبه الله جلَّ في علاه، وهو من أجلّ العبادات. نحن عندنا: الحمد والمدح والشكر، هنا عندما يقول: الحمد لله، يدخل الثلاثة تحتها. عندما يقول مصنف: الحمد لله، إذاً الحمد هنا سيتضمن المدح والشكر، لكن إذا اجتمعوا الثلاثة الفوارق تأتيك.

أولاً لا بد أن أقول الحمد من أجلّ العبادات ومن أحب العبادات إلى الله جلَّ في علاه، لذلك أنت ترى الله جلَّ في علاه قد مدح أنبيائه وأصفيائه بهذه الصفة عندما قال عن نوح -وهو من أولي العزم من الرسل وهو أول رسول-: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) [الإسراء:3]، وقال عن إبراهيم: (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ) [النحل:121]. وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- من أعظم العباد شكراً لله جلَّ في علاه، عندما قام يصلي لله جلَّ في علاه حتى تورمت قدماه، فقالت عائشة: يا رسول الله، ألم يغفر الله لك؟ (نقص في الدرس).

- المراد بالرسول وبالهدى ودين الحق

ولم يترك عباده في حيرةٍ، بل أرشدهم وأحسن إليهم وقد أكرمهم بإرسال الرسل هدايةً للعالمين وهدايةً للحائرين، بل ورحمةً للعالمين كما قال الله جلَّ وعلا: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء:107]. فهو يقول: الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله؛ فحمد الله على إرسال الرسل، وهذه نعمة من أجلّ النعائم، (فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس:58].

والرسول: هو كل من أوحي إليه بوحيٍ يتعبد به وينشره بين الناس ويبلِّغه، لأن الرسالة ارتبطت بالبلاغ، قال الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) [المائدة:67].

والنبي على قولين:

- القول الأول: بأن النبي هو من أوحي إليه بوحيٍ لنبيٍ سابق يتعبد به ويبلِّغه؛ يعني النبي يكون برسالة غيره من سبقه من الأنبياء يبلِّغها، ويكون دعوة إلى الله جلَّ في علاه، ويتعبد بها. لكن ليست له شريعة خاصة به، ولا وحي خاص به، ولا كتاب خاص به، هو يبلِّغ كتاب نبي قبله سبق.

يستدلون على ذلك بآيات، وأيضاً بحديث بني إسرائيل؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، إذا هلك نبي يخلفه نبي)، وكلهم كانوا على شريعة موسى -عليه السلام- حتى جاء عيسى فنسخ بعض الأحكام، قال: (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [آل عمران:50]، وقال الله جلَّ وعلا: (مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) [الصف:6]، فكان رسولاً.

فقالوا إذاً الفرق بين النبي والرسول؛ بأن الرسول له شريعة خاصة به، كتاب نزل عليه، وأمّا النبي هو بكتاب نبي سابق. وهذا يعني كلامٌ فيه وجاهة والأدلة عليه ظاهرة، لكن يرد عليهم إيراد لا يستطيعون دفعه؛ ألا وهو آدم كان نبياً، آدم ما كان رسولاً، أي نبي سبق وأي رسولٌ سبق وأخذ الكتاب بعده؟ لا يوجد.

◆ لذلك نحن نقول الآن بأن الصحيح عند الجمهور بأن العلاقة بين الرسول والنبي: كل رسول النبي ولا عكس، وأن الرسول هو من أوحي له بشرعٍ يتعبد به ويبلِّغه، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67]. وأمّا الأنبياء يتعبدون، وقد يتطوعون في الدعوة لكن ليس لازماً عليهم الدعوة، فإن قالوا يوسف دعا ودعا إلى ربه قال: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف:39].

قلنا كل نبيٍ ذكر في القرآن فهو رسول؛ يعني لا تضربوا لنا الأمثال بموسى، بيعقوب، أو بيوسف، أو بهارون. كل نبيٍ ذكر في القرآن فهو رسول، والدلالة في قول الله جلَّ في علاه: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) [نساء:164]؛ (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ) أين؟ في القرآن. إذاً كل ما ذكر في القرآن فهو نازل تحت قوله: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ)، فكل من ذكر في القرآن فهو رسول.

لو قلتم هارون؟! قلنا هارون كان مشتركاً مع موسى -عليه السلام-، والدلالة على ذلك في الاشتراك قال: (وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) [طه:29-32]، تصريحاً الآن قال: (وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)، (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ) [طه:36]، الغرض المقصود بأن كل نبيٍ ذكر في القرآن فهو رسول. لذلك يرى أن أجلّ النعائم على الأمم أنه أرسل رسولاً لينفي عنهم الجهل والجهالات، وليرحمهم دخولاً في التوحيد.

قال: الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ "أرسل رسوله" والإضافة إلى الله جلَّ في علاه هي إضافة تشريف، هذه الإضافة فيها فائدتان:

الفائدة الأولى: وهي أن النبوة غير مكتسبة بل هي هبة واصطفاء، وهذا رداً على هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون، الفلاسفة الذين يقولون بأنها قد تكتسب. والصحيح أنها لا تكتسب، قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) [الحج:75].

الفائدة الثانية: الإضافة إضافة لله جلَّ في علاه، لأن الله شرّفه أنه صار رسولاً وواسطة بينه وبين عباده. لذلك ابن عيينة بسند صحيح قال: أفضل الناس على الإطلاق خير الناس على الإطلاق الواسطة بين رب الناس وبين الناس، من الأنبياء والمرسلين والذين يحملونه بعدهم؛ فخير الناس على الإطلاق الواسطة بين رب الناس وبين الناس.

قال: الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ والهدى هو الهداية بالهدى، هو طريق الهداية. والهدى هنا المقصود به العلم، لأنه لا يكون هدىً بحقٍ إلّا بعلم؛ لأن أصل الهدى بمعنى الحق، والهدى بمعنى الطريق المستقيم، والهدى بمعنى الشرع القويم، كل ذلك لا يكون إلّا بالعلم.

فأرسله بالهدى "بالعلم"، لذلك أنت ترى قال الله جلَّ في علاه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) [العلق:1-4]. فالهدى طريقه لا تصل إليه إلّا بالعلم، فالهداية لا تكون إلّا بالعلم، لذلك قال الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال:29]؛ والفرقان ما تفرّق به بين الهدى وبين الردى، بين طريق الحق وطريق الضلال، لذلك قال: أرسل رسوله بالهدى "بالعلم".

ودين الحق؛ هي العبادة الحق، هي إفراد الله بالعبادة، قال: (بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) [التوبة:33]. ودين الحق هي الشريعة "شريعة الإسلام"، ويمكن أن يقال الهدى والعلم والدين هو أصل العلم هو الإسلام، لا سيما وأنه قال: ودين الحق. فيمكن أن نقف معه أن كل دين مدّعى غير دين الإسلام فهو على الباطل، وهذا حق، بل لا بد أن نفهم أمراً واضحاً جليّاً؛ الدين واحد لا متعدد، لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خير الأديان الحنيفية السمحة)، يعني خير العبادات لأن الدين يأتي وله معاني:

- قد يكون الدين يأتي ومعناه الجزاء؛ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة:4]، افعل ما شئت كما تدين تدان فيكون بمعنى الحساب.
- والدين يأتي ويكون بمعنى التعبد؛ (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) [آل عمران:19]، يعني التعبد بشريعة الإسلام، تكون بمعنى العبادة.
- وقد يأتي الدين ويقصد به أصول الاعتقاد وأصول الديانة.

◆ يأتي الدين بمعنى الأحكام؛ قال: (كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ) [يوسف:67]، فيوسف -عليه السلام- أخذ في الأحكام لمّا قال لهم: أرأيتم لو كان كاذباً؟ فقالوا له: عندنا أنه يؤخذ عبد له، فأخذه في دين الملك، يعني في حكم الملك "في الأحكام".

إذاً قال: أرسل رسوله بالهدى، والهدى كما قلنا هو العلم، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (مثل ما بعثني الله به) ثم ضرب المثل على الأصناف الثلاثة من الناس:

- الذي أخذ العلم فتعلمه وفقه العلم فتعبد به ونشره بين الناس،

- والذي حبس العلم الذي يحمل (نضّر الله امرئ سمع مقالتي فوعاها فحفظها فأدّاها كما سمعها)،

- وأمّا الثالثة التي هي قيعان أرض لا تنبت الكلأ ولا تجمع الماء، هذا الذي لا خير فيه، لا له في العير ولا له في النفير.

قال: الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله؛ وقلنا بأن الدين واحد لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الأنبياء إخوةٌ لعلات، دينهم واحد وشرائعهم شتى). لمّا يقول الله جلَّ في علاه: (وَدِينِ الْحَقِّ) [التوبة:33]، وقلنا بأن هذا معناه الشريعة والتعبد.

ليظهره على الدين كله؛ يعني لينسخ بها جميع الشرائع السابقة، لذلك من رأى ومن قال (ممن قال من بعض الطوائف) أنه يجوز للإنسان أن يخرج على شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويتعبد بشريعةٍ أخرى كالخضر مع موسى فإن هذا قد كفر، لأنه بذلك كذب برسالة النبي، ورسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- ناسخة لجميع الرسالات، وأناط النبي -صلى الله عليه وسلم- قبول الإيمان بقبول الشريعة.

عندنا أحاديث في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (والذي نفسي بيده ما سمع بي من يهودي ولا نصراني هذه أمة الدعوة ثم لم يؤمن بالذي جئت به)، ما قال: بي، قال: (بالذي جئت به). (ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار)؛ (ثم لم يؤمن بالذي جئت به) هي الشريعة التي جاء بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار).

ولمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمر بن الخطاب فوجد معه صحيفة التوراة، فقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، وهذا التصريح قد جاء به الكتاب عندما قال الله جلَّ في علاه: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران:81-82].

قال: ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً؛ لأن الله جلَّ في علاه هو الذي يشهد الحق والصدق والإخلاص، وأن الله جلَّ في علاه لا تخفى عليه خافيه، وأن الله جلَّ في علاه قد أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وشهد له بذلك، يعني شهد للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه الرسول الحق وأنه جاء بدين الحق. كيف شهد له بذلك؟

السؤال: قال: الحمد الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً؛ قد شهد الله جلَّ في علاه بصدق محمد وبرسالته، وشهد له بأنه الرسول الحق وجاء بالحق ودين الحق، كيف الشهادة؟ شهد له بذلك بالقول وبالفعل والإقرار؛ الله جلَّ وعلا قال: (لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ) [النساء:166]، إقرار الآن، شهد له بالرسالة، وشهد له أنه أنزل عليه هذا الكتاب الكريم الذي أظهره على باقي الكتب، وأيضاً شهد له بانتصاره. لو كان كاذباً، لو كان مدعياً، هل يستمر وتستمر دعوته؟ ماذا الذي حدث؟

مسيلمة أما ادّعى بأن جبريل يأتيه عندما أنزل الله جلَّ وعلا: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) [العصر:1-2]، ذهب عمرو بن العاص إليه فقال له: أُنزل عليّ البارحة كما أنزل على محمد، حتى عمرو بن العاص لمّا قال هذه الأبيات الشيطانية، قال له: ماذا تقول؟ قال: إنك تعلم أنني أعلم أنك كذّاب.

والله جلَّ وعلا كذّبه في أفعاله؛ لمّا أتوا به كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يأتيه الصاحب الجليل تنزل عينه على خده بعد المعركة، أخذها ووضعها مكانها فيقول: أرى بها أفضل مما كنت أرى بالثانية. ومحمد بن مسلمة لمّا قتل اليهودي وركبته كسرت، مسح عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- فشفاه الله جلَّ في علاه بذلك. فأتوا لهذا الخبيث اللئيم مسيلمة الكذاب بالطفل الصغير، يعني الولد كان في قراع، فيه بعض العيب، شعر يخرج، فمسح عليه فأضاع كل ما على رأسه من شعر. تفل في البئر هذه جعلها كدورة، كأنها يعني نخاعة الحناء، فالله جلَّ وعلا يبيّن كذبه في ذلك. الأسود العنسي نفس الأمر.

لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- مكّن الله له ولدعوته، لذلك لمّا قال لابنته: (لا تبكي، لا بأس على أبيكِ بعد اليوم، والذي نفسي بيده لا يترك هذا الدين بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل). ولمّا ضرب الكدية قال: (الله أكبر، أعطيت الكنزين الأحمر والأصفر)، وقد كان قال لسراقة: (كيف أنت وقد ألبسك الله سواري كسرى؟)، وقد فعل. قال عمر: أين سراقة؟ جاء فألبسه سوار كسرى، ثم أخذه بعد ذلك منه، قال: ما ملّكك، ولكن قال تلبس، لبست، هات هذا غنيمة للمسلمين. الغرض المقصود أنه قد

حقق الله له ذلك، وهذه شهادة من الله جلَّ في علاه على صدق رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم-.

- معنى الشهادتين

لذلك قال -وهذا من دقة فهم الإمام-: وكفى بالله شهيداً، وأشهد أن لا إله إلّا الله؛ هذا التوحيد الذي لا نجاة إلّا به، "أشهد أن لا إله إلّا الله". والشهادة هنا لا بد أن تفهم فارق بين أن يقول "لا إله إلّا الله، محمد رسول الله" ويقول "أشهد أن لا إله إلّا الله، محمد رسول الله"، ما الفرق بينهما؟ الفرق بين أن تقول "لا إله إلّا الله، محمد رسول الله" وأن تقول "أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمد رسول الله"؟

الشهادة تكون بالقلب، هذه إجابة سديدة لكن تحتاج إلى توضيح أكثر. أهل القرآن يفهمون أكثر، أنا سأقول لكم الآية لأوضح لكم ما أريد، قال: (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [الزخرف:86]. الحق الفرق بينهما أن "لا إله إلّا الله" يدخل بها المرء الإسلام، قد ينقذ نفسه في الدنيا، يحمي عرضه ودمه وماله. أمّا لينجو بها في الآخرة لا تكون إلّا بشروطها، فلا بد فيها من العلم والشهادة بالعلم؛ أن يعلم ما معنى "لا إله إلّا الله"، وأن يأتي بالتوكل واليقين والإخلاص والمحبة... إلى آخر الشروط. (شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)؛ دلالة على أنه يعلم "لا إله إلّا الله"، ولذلك الله جلَّ وعلا ما قال: قل "لا إله إلّا الله فقط"، قال: (فَاعْلَمْ)؛ فالشهادة دالةٌ على العلم، هذه للنجاة في الآخرة (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) [محمد:19].

و "لا إله إلّا الله"؛ يعني لا معبود بحقٍ إلّا الله. وقد قال بعضهم: "لا إله إلّا الله" يعني لا قادر على الاختراع إلّا الله؛ أسقط الألوهية الآن، حصر التوحيد في الربوبية. الحق أن المقصود الأسمى هو توحيد الإلهية، "لا إله إلّا الله" يعني لا معبود بحقٍ إلّا الله جلَّ في علاه؛ النذر، الذبح، تقول: (إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام:162].

وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده، توحيد لله جلَّ في علاه، مع أن "أشهد أن لا إله إلّا الله"؛ النفي والإثبات، تثبت الحصر والقصر، الإلهية في الله وحده سبحانه جلَّ في علاه، لذلك من أركان التوحيد نفي وإثبات وولاء وبراء. أشهد أن لا إله إلّا الله وحده (وحده للتأكيد) لا شريك له (وهنا "لا شريك له" تأكيد للوحدانية) إقراراً به وتوحيداً.

قال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ وهذا أيضاً الأدب الجمّ مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه جمع له بين المنزلتين، وهو من أشرف المنازل، جمع له بين العبودية وبين الرسالة. وهذا لنفي، أي نفي؟ ليل نهار تقولون "أشهد أن محمداً رسول الله" هذه للنفي؟!! نفي الغلو؛ الذين يقولون إنه من نور، الذين يقولون بأنه يحيي

الموتى، الذين يقولون إنه يرزق الجنين في بطن الأم. عبد الله هو عبدٌ ليس برب يعبد، هو عبد يعبد، لذلك قال الله جلَّ في علاه: (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) [النساء:172].

فهو عبدٌ يعبد الله جلَّ في علاه، وهذه المنزلة هي أشرف المنازل -كما قلنا-، وشرّفه الله بها في جليل المحافل والمنازل؛ عند المعجزة شرّفه بالعبودية، قال: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ) [الإسراء:1]، إضافة تشريف الآن. عند التحدي والتعجيز، قال: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) [البقرة:23]. عند الوحي، قال: (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ) [النجم:11]. عند الدعوة إلى الله "أعظم المقامات"، قال: (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) [الجن:19].

قال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ بعدما نفى الغلو، علم أن هناك ممن لا يعرف قدر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ممن يتهجم على رسول الله؛ كالأعرابي الذي قال: أعطني ليس من مالك ولا مال أبيك، ولهذا الخارجي الضال عندما جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول له: اعدل فإنها قسمة لا يراد بها وجه الله. فلذلك قال: ورسوله؛ له منزلة فوق البشر، هو بشر عبد كالبشر، يعبد كما تعبدون كما قال: (إنما أنا بشرٌ مثلكم، أنسى كما تنسون). وهنا رسول، يعني أرفع منزله بأنه صار واسطة بين الله وبين عباده، لتعلم كيف توقره وتعزره وتنصره. (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ)، (وَتُسَبِّحُوهُ) [الفتح:9] هذه لله وحده.

لذلك قال الله جلَّ في علاه: (لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا) [النور:63]؛ ومن التوقير لمّا سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- رجل يقول: يا أبا القاسم! قال: لبيك، قال: ما أقصدك يا رسول الله. هذا كأنها فيها نوع سوء أدب مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلذلك منعهم، قال: (تسمّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)، هذا من باب التوقير للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

لذلك قال: وأشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال: وسلم تسليماً مزيداً؛ لأن الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- من أفضل العبادات، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بها النبي -صلى الله عليه وسلم-. لذلك الفقهاء اتفقوا بأن الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- واجبة ولو مرة واحدة؛ (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب:56].

وأفضل الأوقات في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- هي: الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الأذان ينال المرء به الشفاعة، الصلاة في صلاة الجنازة في

التكبيرة الثانية، الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في التشهد الأوسط والتشهد الأخير؛ على خلافٍ بين الفقهاء على مسألة الركنية والوجوب والاستحباب، وطبعاً الاتفاق بين الأئمة أنها مستحبة في التشهد الأوسط، لكنها واجبة عند الشافعي في الأخير.

أيضاً الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- عند الدعاء؛ فإن الدعاء مرهون، موقوف بين السماء والأرض حتى بالثناء على الله "الثناء الحسن" والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثم قال: اعتقاد الفرقة الناجية؛ سنبيّن إن شاء الله هل الفرقة الناجية هي الطائفة المنصورة أم لا؟ أم الخلاف بينهما؟ ومن أين أتى ابن تيمية قال: اعتقاد الفرقة الناجية، ما الفرقة؟ أهذه جاءت من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة). فهو هنا الآن قال: إذاً كل الفرق في النار، هناك فرقة ناجية. كأنك تسأل والفرقة الناجية؟ قال: أصل اعتقادها نجاةٌ لهم، وأصل الاعتقاد سنبيّنه إن شاء الله في الدرس القادم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثالث:

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفا، وبعد إخوتي الكرام:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه. قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: أمّا بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة في أهل السنة والجماعة؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره.

هنا المصنف صدر الباب -كما قلنا- بأنه جمع لنا جملاً عقائدية من الأهمية بمكان، تجمع لك عقيدة أهل السنة والجماعة، تجمع لك العقيدة النقية التي بها ينجو المرء، التي بها يقابل ربه جلَّ في علاه، لا يرى نفسه على حيدةٍ بينه وبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا الصحابة الكرام. فهذه هي عقيدة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذه هي عقيدة الصحابة الأخيار الكرام.

وقد بيّنا أن هذه الجمل من الأهمية بمكان، لأن الحيدة عن مثل هذه الاعتقادات فيها ما فيها من الانحراف، وفيها ما فيها أيضاً من عدم التوفيق. وأنا رأيت من الأماجد لم يوفّق في مثل هذه المسألة، وقد وسّع المسألة وهوّن فيها وقال: وهذه مسألة يصح فيها الخلاف ويسع فيها الخلاف، مثلها مثل مسألة الوضوء من لحم الجزور، مثلها مثل مسألة قراءة الفاتحة في الصلوات خلف الإمام، هل تتعين أو لا تتعين؟ ووسّع في ذلك، ولم ينضبط في قوله. وهذا قولٌ باطلٌ من أصله، وهذا قولٌ لم يوّفق فيه صاحبه، ونسأل الله جلَّ وعلا أن تنغمر هذه الزلة في بحر حسناته وبحر علمه، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعل ذلك أمامنا عياناً، أن نعلم أن هذه من عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه.

مهما علا الشأن، مهما كان الإتقان، فممكن للإنسان ألّا يستوعب وأن يزل ولا يتسع علمه لأمور الله جلَّ وعلا إن أغلقها أغلقها، ولا يمكن أن تفتح، وإن فتحها فتحها الله جلَّ في علاه، ولا تفتح إلّا به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. قال: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:56]، والحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين: (قال الله تعالى: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه).

ـ الفرقة الناجية

فشيخ الإسلام هنا يقول: أنا جمعت لك جملاً من اعتقاد السلف، فقال: فهذا اعتقاد؛ بعد ما قال للتنبيه وأيضاً جذب الانتباه: أما بعد؛ للالتفات وللتنبيه. أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية؛ وهنا إضافة الاعتقاد إلى الفرقة الناجية، وكأنه يقول: وهذه العصابة، وهذه الطائفة التي نجت وأنجاها الله جلَّ في علاه بصحة المعتقد.

قال: اعتقاد؛ والاعتقاد في اللغة: هو الربط والشد، وفي الاصطلاح: هو ربط القلب على توحيد الله جلَّ في علاه، وأركان الإيمان الستة التي قالها النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل عن الإيمان.

قال: هذا اعتقاد الفرقة الناجية؛ هنا نقف معها طويلاً في هذا الباب، هو سمّاها الفرقة الناجية، وبعد ذلك قال: المنصورة. يعني هنا الآن وصفها ووسمها بصفةٍ أولى، قال: الفرقة الناجية؛ أولاً هو قال: فرقة، والفرقة هذه دلالة على التقليل، ولذلك هذا يدلك على ضعف الحديث الذي قال فيه السواد الأعظم، لأنك تقول إن النجاة في اعتقاد السواد الأعظم يعني يدخل معهم العوام أو غير العوام في هذا الباب، وهذا ليس بصحيح، بل ما من حديثٍ وما من آيةٍ إلّا وهي تمدح القلة لا الكثرة. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة)؛ قال: (افترقت اليهود على واحد وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة

كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق هذه الأمة على ثلاثةٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة).

لذلك هو قال: اعتقاد الفرقة؛ والفرقة: هي الطائفة؛ والطائفة -كما قلنا- فيها إشارة على التقليل. قال الله جلَّ في علاه: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) [التوبة:122]. فقال: الفرقة؛ قلنا الفرقة هنا فيها التقليل، وهذا التقليل بأنهم قد ارتبطت قلوبهم على العقيدة النقية، عقيدة النبي وعقيدة الصحابة، ولأنهم أيضاً قد شدوا على قلوبهم بأواصر المحبة في الله جلَّ في علاه. وهذا لا يمنع وقوع الخلاف بينهم، فيقع الخلاف؛ وخلافٌ يسع، وخلافٌ لا يفسد للود قضية، وهذه في المسائل الاجتهادية.

أمّا في مسائل الاعتقاد فلا اختلاف فيها، وما وقع من خلافٍ في مسائل الاعتقاد كان اختلافاً في التطبيق لا في التأصيل؛ سمّها فروعاً، سمها تطبيقاً، سمّها ما تسميها، لكن لا بد أن تعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا اختلاف في اعتقاد السلف بحال من الأحوال. وما عنّ في السلف من بعض الأمور التي يحسبونها اختلاف -كما في مسألة رؤية النبي لربه جلَّ في علاه-، هذا ليس اختلاف في الاعتقاد. الجميع على التأصيل مجتمعون؛ وما هو التأصيل؟ هل يرى الله في الآخرة أو لا يرى؟ يرى. اجتمعوا على ذلك أم تفرقوا؟ اجتمعوا جميعاً، فالتأصيل متفقٌ عليه، مجمع عليه.

ثم جاءت جزئية من جزئياته، فرد من أفراد هذا التأصيل، وهي مسألة هل النبي يراه في الدنيا أم لا؟ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- له خصوصية، هذه المسألة: هل يراه في الدنيا أم لا؟ لا سيما وأن موسى طلب هذا الطلب: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ)، الآن الممكن موجود. إذاً الرؤية غير مستحيلة فصح فيها النقاش. الرؤية غير مستحيلة، ممكنة، علّقها الله على الممكن قال: (انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ) [الأعراف:143] ... إلى آخر الآيات.

فهي ممكنة ليست مستحيلة، لذلك عنّ الخلاف بينهم هل رآه أم لا. لا سيما وأنه قد التبس على بعض الرواة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سئل: رأيت ربك؟ قال: (نور أنّى أراه)، صُحِّف على الرواة: (نور إنّي أراه)، وهذا كلام ابن تيمية. أمّا في الصحابة ابن عباس يرى أنه رآه، لكن عائشة؛ انظر لعائشة والزجر والاستدراك، دخل عليها مسروق أبو عائشة فقال: يا أمّ! أما رأيت أنهم يزعمون أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- رأى ربه؟ قالت: لقد قفّ شعري مما قلت (ارتجفت)، ثم قالت: أين أنت من ثلاث، من زعمهن فقد أعظم الفرية على الله.

انظر الزجر وصل أعظم، وهذا الكلام ينقل عن ابن عباس، هي لا تتكلم في شخص ابن عباس، ولذلك عندما يقال لها ابن عباس ماذا ستقول؟ تعظيماً وتبجيلاً ترجمان القرآن. لكن هي تتكلم على تفنيد القول، وهذا الذي لم يفهمه بعض الأفاضل.

تلميذ وشيخ، الشيخ زلّ في مسألة، التلميذ يرد عليه، هو يحسب أن هذا تنقيص منه. لو جعلها بميزان العلم والعدل ما كانت، لكن هو -سبحان الله- الشيطان لا بد أن يأخذ حظاً من القلوب، والعلم الباهر يمنع التناحر، هي مسألة لا بد من الرد عليها.

أما رأيتم كيف الحرب الضروس التي شنها الإمام مسلم على مسألة اللقيا والمعاصرة، ولذلك ذهب بعض العلماء لمّا نظر لهذه السيوف الحادة والرماح والأسنة، فقال: لا ما يقصد البخاري، لا يمكن يقصد البخاري، لا يمكن بهذه الحرب يقصد البخاري شيخه، وهو الذي قبّل يديه وقال: دعني أُقبِّل يديك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدّثين، لا يبغضك إلّا حاسد. فقالوا: معقول؟ نعم معقول وعلى البخاري، لِمَ؟ هو حفاظاً على السنة، لأنه قال: لو الناس أخذوا بقول البخاري ماذا سيحدث؟ كثير من السنة سيضيع. هذا تأويل من هنا ومن هنا، والحق مع البخاري وليس معه هو.

أنا أقصد في أنه يعظِّم البخاري، لكنه يُضعِّف القول، وهذا الذي فعلته عائشة: لقد قفّ شعري مما قلت، ثم قالت: من زعم أن محمداً قد رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. واستدلالها كان ليس بسديد، والله يقول: (لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) [الأنعام:103]، لأن نفي الأعم لا يستلزم نفي الأخص، وهي تستدل بالأعم، لأن هنا الدليل أعم من الدعوة، أصولياً لا يقبل الاستدلال بمثل هذا.

لكني أشير -حتى لا أتوسّع- على أن ما وقع بين الصحابة ليس اختلافاً في التأصيل، إنما هو في التطبيق أو في جزئيات آحاد، أفراد من كلية عامة متفق عليها. ومع ذلك وقع منهم الخلاف الفقهي، موجود، أرأيت ما قاله أبو بكر لعمر؟ قال: والذي نفسي بيده لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عناقاً (أو عقالاً) كانوا يؤدونه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم عليه. هناك رواية ليست تصح أنه قال: أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟ لم تصح، ولكن يمكن يستأنس بها هنا.

وهذا في الحوار والمناقشة من أجل الوصول إلى الحق في الخلاف الذي يسع، الخلاف الاجتهادي، في استنباط الحكم من الدليل. أمّا بالنسبة للعقيدة لا، لا اختلاف بينهم. لذلك هو لمّا قال: اعتقاد، ربطنا القلب عليها؛ لا تبديل ولا تغيير.

وهنا يقول: الفرقة؛ يقللها ليست كثيرة، (فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ) [التوبة:122]، والدلالة على أنها فرقة بهذه الآية، والدلالة على أنها طائفة بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين)، كما سيأتي. قال: اعتقاد

الفرقة الناجية؛ الفرقة الناجية: هي الفرقة التي تكتب لها النجاة. طبعاً إذا قلت الفرقة الناجية هي نجت والفرق الأخرى؟ لا تنجو؟ كافرة؟ نظر في هذا، الوقوف مع هذا الباب.

الفرقة الناجية: هي المقصود بها التي تنجو من أول وهلة، من أول مرة، من أول ساعة، من أول دقيقة، ما أراك في عرصات يوم القيامة ربنا يدخلها الجنة من أول وهلة. فهي تدخل الجنة من غير سابقة عذاب ولا حساب، هذه الفرقة نجت من العذاب، نجت من الحساب نجت، هي فرقة ناجية. وطبعاً كلام الإمام ابن تيمية لا يكون هكذا، هؤلاء العلماء أجلّاء ربطوا أنفسهم بالعلم. إذاً هو الصحيح في ذلك نقول بأنه الفرقة الناجية التي نجت حقاً على اعتقاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وهي تنجو لأول وهلة.

والفرق الأخرى؟ لأنها حادت عن الكتاب والسنة تستحق العذاب، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كلها في النار). إمّا أن تقول: بأن هذه الفرق الاثنين وسبعين كلها كافرة، وإمّا أن تقول: لا، الأصل أنه قال: (تفترق أمتي)؛ أضاف الأمة له، فهي دلالة على الإسلام لكن أيضاً يدخلها ما يدخلها من أصحاب الفرق الكبرى، ومنهم من كفّرهم العلماء كالجهمية -معروف هذا الباب-، والرافضة هؤلاء أخبث خلق الله.

فالحاصل بأنه قال: الفرقة الناجية؛ التي تنجو وكتب الله لها النجاة لا تكون إلّا بما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-. فابن تيمية كان يستقي الجمل التي كتبها من الكتاب والسنة، ما يحيد. وكما قلت كان أعجوبة الزمان الإمام ابن تيمية، يحفظ المسند ما أحد حفظه في عصره، لذلك هذا حدا بالذهبي أن يقول: حديثٌ لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث.

فهو استقاها من قوله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وستفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة)، لذلك قال هي ناجية. فإذاً هي نجت، الوحيدة التي نجت. فهذه الفرقة الناجية التي لمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: من هي يا رسول الله؟ قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)؛ لا تبديل ولا تحريف. قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)؛ أي يوم؟ يوم النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال، يعني ما كان على اعتقادي أنا، المسألة ليست مسألة زمان، اعتقادي أنا واعتقاد الصحابة الذين تربوا على يدي أنا، (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

فهنا قال: الفرقة الناجية، ثم قال: المنصورة؛ طبعاً إذا قال: الطائفة المنصورة، هي الطائفة التي نصرها الله جلَّ في علاه، والله لا ينصر من كان معوجّاً في اعتقاده بحال

من الأحوال، إلّا إذا كانت في مظلمة عنده هذا أمر آخر، لكن الأصل أن النصرة لا تكون إلّا لأهل الهداية التامة الكاملة.

فهنا قال: الطائفة الناجية المنصورة؛ والمنصورة هذه ما تؤخذ إلّا من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين (لأن الظهور نصرة الظهور والنصرة)، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)، قال: (هذا إلى يوم القيامة). ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) [الصف:14]؛ أيدناهم نصرةً عليهم.

إذاً الطائفة الناجية، قال: المنصورة؛ إذاً وصفها بوصفين:

١- الوصف الأول أنها ناجية، وهذه النجاة نجاةٌ في الدنيا ونجاةٌ في الآخرة:

نجاةٌ في الدنيا من ضلال المعتقد، حفظها الله جلَّ في علاه وحماها ربنا جلَّ في علاه، وهذا لا يكون لهم إلّا بقوة التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. أبداً لا يمكن أن يحفظ عليهم الإيمان والاعتقاد في القلب إلّا بشدة التحرّي والتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأنها نجاة كما قال الزهري: سفينة النجاة سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). ليست النجاة هنا نجاة البدن، النجاة هنا هي نجاة المعتقد، ليبقى إلى آخر يومه ثابتاً عليه فيموت ويلقى ربه به؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102].

فهي ناجية هنا في الدنيا وناجية في الآخرة؛ وأمّا النجاة في الآخرة فهي النجاة من المهالك نجاة من النيران، فهي تدخل الجنة مستبشرين متهللين فرحين بجوار رب العالمين سبحان جلَّ في علاه. فوصفها الوصف الأول أنها ناجية؛ اعتقاد الفرقة الناجية.

٢- قال: المنصورة؛ المقصد هنا المنصورة في الدنيا، وهذه النصرة عامة. المعنى السديد في هذا الباب، لأن الأيام دول، لا يمكن أن يفهم من المنصورة أنها على الدوام منصورة، لأن الله جلَّ وعلا قال: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران:140]، لا يمكن تجد استقراراً.

البعير الذي كان يركبه النبي -صلى الله عليه وسلم- كان سريعاً لا يسبقه شيء، فلمّا سبق حصل الهم والغم على الصحابة، فبيّن لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ما اكتمل شيء إلّا لا بد إلى نقصان. وهذا الذي أبكى عمر بن الخطاب عندما نزلت الآيات: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]، لِمَ بكى؟ قال: ما اكتمل شيء إلّا ونقص، هذه سنة كونية.

لذلك قال الله جلَّ وعلا: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران:140]، قال: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) [آل عمران:155].

فالحاصل منصورة، يعني مآل أمرهم إلى النصرة. ولذلك الأمة الآن أين هي؟ أين نصرته؟ أين الأمة الآن؟ الأمة في ذيل الأمم، ومع ذلك نستبشر أنها ستتقدم الأمم بأسرها يقيناً، ما يمكن أن نقول إن هذه المسألة فيها ما فيها، لا سيحدث يقيناً. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بشِّر هذه الأمة بالرفعة والسنا إلى يوم الدين)، بل قال في الرواية الأخرى: (بشِّر هذه الأمة بالسنا والتمكين إلى يوم الدين)، إلى قيام الساعة، فمآل الأمر إلى هذه الأمة.

فيكون المعنى أنها منصورة: يعني هي منصورة في غالب أحوالها، ومنصورة في مآلها. وطبعاً إذا قلنا في مسألة النصرة المعنوية، منصورة فكراً؛ الأفكار المتضاربة، الأفكار المبتدعة والضالة التي تراها يميناً ويساراً، ترى هذه الطائفة التي ثبتت على ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان عليه الصحابة، هي التي تطفو على السطح وهي التي تغلب كل هذه الأفكار.

لذلك ابن تيمية يقول بأن الفيء وأن الخمس، قال: أفضل ما يُنفق فيه في أهل العلم، قال: لأن أصحاب الثغور ليس الأمر عندهم على الاستمرار؛ حفظ الثغور وينتهي الأمر، أمّا ثغر العلم فلا يتوقف بحال. البدع تأتي تتراً والمتهوكون كثر، وأيضاً الذين يهرفون بما لا يعرفون أكثر من هؤلاء. أنت ترى الآن الذي يقول المهدي، والثاني يقول إنه نبي، الدجال خارج علينا بخيله ورجله ليل نهار. فكل هذه البدع وهذه المنكرات لا يتصدى لها إلّا المتقن من طلبة العلم، لذلك ثغر الإسلام دائماً لا يكون محفوظاً إلّا بأهل العلم، بل ورب العزة النصرة أصالةً في الثغور الأخرى لا تكون إلّا بأهل العلم، كيف ذلك؟ لأنه لا يمكن أن يكون خالصاً لربه جلَّ في علاه الذي به تكون النصرة، والتي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما يبعث السرية يوصيهم بتقوى الله في أنفسهم، وإلى غير ذلك من الوصايا.

فالمسألة كلها لا بد أن تكون منضبطة بضابط الشرع في كل أحوالها، لا بد أن تكون منضبطة بضابط الشرع. فالنصرة المعنوية والنصرة الحسية في الدنيا تكون لهذه الطائفة التي تمسكت بكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الله جلَّ وعلا له شؤون في عباده، له حكم، ممكن أن يؤخر ذلك لهم لأمورٍ أخرى ما يعلمها إلّا الله جلَّ في علاه.

قال: الناجية المنصورة إلى قيام الساعة؛ في قوله: المنصورة إلى قيام الساعة، أيضاً هذا استنباط، لتعلم كيف هذا الرجل لا يتكلم من عند نفسه، هو عنده في كل لفظة قد

أتى بها دليل في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تأتي الساعة، وهم على ذلك). فإذاً قال: إلى قيام الساعة؛ والصحيح الراجح في المعنى إلى قيام الساعة، يعني إلى قرب قيام الساعة. المعنى الصحيح في هذا إلى قرب قيام الساعة لأدلة كثيرة منها:

- أولاً قبض العلم، الأدلة جاءت متوافقة متوافرة متضافرة على قبض العلم؛ قال: (يرفع العلم ويظهر الجهل)، قال: (وإن الله لا يأخذ العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء).

- من ذلك أيضاً فشو الجهل يدل على ذلك، من هذا الباب الصريح في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ولا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق)، وشرار الخلق لا يمكن أن يكونوا من الطائفة المنصورة بحال من الأحوال.

فالمعنى هنا إلى قرب قيام الساعة، يعني قبل حلول العشر آيات، وهذا الصحيح. ولذلك عيسى -عليه السلام- سيكون مع أهل الإيمان، ويُخرِج الله يأجوج ومأجوج، ثم يأوي بهم إلى جبل الطور، ويدعو فيقضي الله عليهم، ثم يعيشون سنين معدودة ثم بعد ذلك تأتي الريح تحت آباط المؤمنين فتقبض كل مؤمن، كل مؤمن تقبضه ولا يبقى إلّا شرار الخلق، نعوذ بالله من الخذلان.

إذاً إلى قيام الساعة؛ معنى ذلك إلى قرب قيام الساعة.

٣- هو قال: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، بوصف الدقيق قال: أهل السنة والجماعة. أنظر إلى هذا العطف، أليس هذا هو الوصف الثالث؟ فكأنه قال: الطائفة المنصورة، الطائفة الناجية هم أهل السنة والجماعة حقاً. إذاً السائل عن أهل السنة والجماعة نقول له: ارجع لما أصّل، تعرف من هم أهل السنة والجماعة عنده حتى، إذا كان هذا موافق السلف أم لا؟ عندهم الطائفة المنصورة، هم الطائفة الناجية، هم الفرقة الناجية التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الذين كانوا على ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

فقال: أهل السنة والجماعة؛ قال: أهل السنة، قف عندها وضع تحتها خط. أهل السنة؛ فهم ما نجوا إلّا بالسنة، ما كانت لهم النصرة إلّا بالسنة ورفع السنة. لذلك ترى بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أرشد الأمة مثلما أرشدها بالعض بالنواجذ على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى في الخلافة النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (نبوةٌ ورحمة (كلها رحمة)، ثم خلافة على منهاج النبوة ورحمة). ما الذي جعلها رحمة؟ الذي جعلها رحمة أنها على منهاج النبوة، وكلما تباعدت عن منهاج النبوة كلما كانت

مشقة ليست رحمة ظاهرة. قال: (ثم خلافة على منهاج النبوة)؛ ومنهاج النبوة: التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

لذلك قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإنه من يعش منكم فسيرى بعدي اختلافاً كثيراً)، فكأنهم يقولون: ما تعظنا؟ بِمَ توصي؟ فقال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). لذلك قال: أهل السنة التمسك بالسنة.

والتمسك بالسنة واجبٌ أصلٌ أصيل لا نجاة إلّا به، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي). ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحيا سنةً من سنتي قد ماتت فله أجرها وأجر من عمل بها)، وقال الله جلَّ في علاه: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36]. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى)، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى).

فالذي يسعى لإيقاف أهل السنة، والذي يسعى لإيقاف من ينشر السنة دعك منه، هو في النار أو في الجنة، أنت الآن تسعى لغلق باب ينشر به السنة، كيف وصفك عند ربك الآن؟ دعك منه هو الآن الشخص كشخص دعه في النار، يلقى في النار، يدخل الجنة. أنت لست رباً أصالة، لكن أنت الآن إذا كنت ممن يتسبب في غلق سنة، في إغلاق باب تنشر به السنة، فأنت عند ربك مسؤول في الصد عن سبيل الله. ولو لبس عليك الشيطان ليل نهار صباح مساء في أي شيءٍ آخر، فأنت مغرور مغبون لأنك ساعدت على غلق باب السنة.

والسنة هي النجاة، لذلك قال: أهل السنة والجماعة؛ ما معنى الجماعة؟ أنا ممكن أقول أهل السنة والجماعة لأهل الاجتماع وهذا حق، لأنهم لمّا نجوا، لمّا كانوا على النصرة اجتمعوا. وهذه دلالة واضحة جلية من كلام حذيفة، بأن أهل السنة لا بد أن يجتمعوا. السنة جمعتهم؛ فإن وجدتهم على اجتماعٍ فهم في سنة، وإن وجدتهم على فرقةٍ فهم في بدعة. وهذا ليس من كلامي حتى ما يقال أيضاً هذا فهمك، دعنا من فهمك، هذا كلام حذيفة قال: السنة تُجمِّع والبدعة تُفرِّق.

لذلك القنابل الانشطارية؛ خمسة ثم سبعة ثم تسعة ثم ثلاث عشر ثم أربعة عشر. هذا مبتدع اليوم، غداً مبتدع، بعده مبتدع، والذي بعده. هذه المصيبة الكبرى التي نعيشها، قنابل انشطارية. وهذا التفرّق دلالة واضحة على البدعة، ليس من كلامي، هذا من كلام حذيفة قال: السنة تُجمِّع والبدعة تُفرِّق.

ولذلك قال: أهل السنة والجماعة؛ الاجتماع، فما جمعهم إلّا السنة، فاجتمعوا على السنة. فهذه من صفاتهم، أنهم مجتمعون على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإن وجدت منهم التفرق والتشرذم، اعلم أنهم ليسوا على السنة، اعلم أنه قد دخل الهوى، دخلت البدعة ففرقت.

وإذا أخذنا مفردة الجماعة فقط لتعريفها، فالجماعة قد عرّفها العلماء؛ من الجماعة؟ ابن مسعود بيّن ذلك وإسحاق وابن المبارك، قال: الجماعة العلماء. هم العلماء، وهذا الصحيح، بهم تعرف السنة. بعضهم قال: أهل الأثر، هذه هي الجماعة. لكن أوفق الأقوال قول ابن مسعود: الجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك؛ الجماعة أن تكون على الحق، والحق هو الكتاب والسنة، ما حقٌّ إلّا الكتاب والسنة، فلذلك قال: الجماعة أنت إن كنت على الحق ولو كنت وحدك. لذلك قالوا: يا ابن مسعود! إن إبراهيم كان أمة، فقال: إن معاذاً كان أمةً. يراجعونه لِمَ؟ لأنه كان على الحق، على الكتاب والسنة، وكان أمةً حقاً يدعو إلى الله جلَّ في علاه.

فهنا قال: أهل السنة والجماعة؛ فقد اجتمعوا على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا مقصد من مقاصد الشريعة، والاجتماع والالتفاف حول السنة، والائتلاف والمحبة، وأيضاً التوافق دون التنافر دون اختلاف، هذا الأصل في الجماعة. ولذلك قال عمر بن الخطاب -وهذا بسند صحيح وإن كان مرفوعاً ضعيفاً-: (الفرقة عذاب، من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة).

ولذلك نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الفُرقة، وأيضاً الله جلَّ وعلا نفّر الأمة بأسرها عن الفُرقة قال: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال:46]، قال الله جلَّ وعلا: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران:105]. لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول تحلق الدين).

حدثت مشادة بين الأنصاري والمهاجري فلطمه، فصفعه المهاجري، فقام الأنصاري فقال: يا للأنصار! فقام أيضاً المهاجري فقال: يا للمهاجرين! قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أبدع الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة). لذلك قال أبي لمّا اشتد على الرجل الذي دعا بالفرقة وبالجاهلية: اعضض كذا، ثم قال: قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رأيتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا). فهنا الجماعة التي اجتمعت على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا معنى الجماعة، لذلك قال: أهل السنة والجماعة. وكما قلنا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال بذلك، قال: (تطاوعا ولا تختلفا)، وقد أمر بالاجتماع دون الافتراق.

قال: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة، وهو هنا الآن يبدأ يبيّن هذا الاعتقاد، بعدما شوّق، بعدما قال: هذه هي الجماعة، بعدما قال: إذا أردت أن تأتسي، تأتسي بهؤلاء. وهؤلاء ليسوا شخصاً، أهل السنة والجماعة ليست عباية فمن لبسها فكان أهل السنة والجماعة، فلا بد أن ينزل تحتها الناس. لا، هذا وصفٌ، من انطبق عليه الوصف صار منهم، ومن حاد عنه ينتقص منه، بقدر ما حاد عنه فهو وصف، فمن نزل تحت الوصف كان منهم.

- الإيمان بوجود الله والأدلة عليه

فقال: وهو الإيمان بالله؛ أول الاعتقاد: اعتقاد أهل السنة والجماعة الإيمان بالله جلَّ في علاه، وأصل الإيمان التصديق. قال: أصل اعتقاد هؤلاء الإيمان بالله، وأصل الإيمان التصديق، كما قال الله جلَّ وعلا: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [يوسف:17]. وهو التصديق المقرون بالإذعان والتسليم. ويأتي في الاصطلاح؛ فيتعدى بنفسه، فيتعدى بالباء، ويتعدى باللام، وكلها متلازمة. إذا تعدى بنفسه فهي الثمرة، وإذا تعدى بالباء يلزمه التعدي باللام:

- يتعدى بنفسه فيكون بمعنى الأمان؛ (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش:1-4]، فيكون بمعنى الأمان، وهذا حقٌ لأنه ثمرة الإيمان. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا إيمان لمن لا أمانة له)، إذاً الإيمان ثمرته الأمان.

- ويتعدى بالباء ويكون بمعنى التصديق، (آمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله)؛ يعني آمنت، صدقت بأنه مرسلٌ من قبل ربه، وصدقت برسالته وشريعته. (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) [البقرة:285]، صدقوا بذلك.

- وباللام (وهذا أصل الإيمان هنا الآن) بمعنى الاتباع والانقياد، وهذا لازم للباء. اللام لازمٌ للباء، لا يمكن لباءٍ أن تكون بدون اللام، تقول: آمنت له؛ يعني انقدت له. قال الله جلَّ وعلا: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) [العنكبوت:26]، يعني اتبعه واحد فقط من كل الأمة هو لوط. والإيمان بالرب والإيمان بالرسول يستلزم الانقياد للرب والانقياد للرسول؛ (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبياً ورسولاً)، كلها انقياد واستسلام.

فمن زعم إيماناً به، لا بد أن نرى منه إيماناً له. فإن لم نجد إيماناً له، قلنا كذّب فعلك زعمك، لأن الإيمان به يستلزم الإيمان له، الانقياد. أنت تؤمن بأنه رسول، إذاً أذعن لِما أتى به من الشرائع واعمل بها.

فقال: الإيمان بالله؛ ولا يستتم الإيمان بالله جلَّ في علاه إلّا بأمور ثلاثة:

- الإيمان بوجود الله جلَّ في علاه.
- الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه، الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى.
- الإيمان بإلهية الله جلَّ في علاه.

ويهيأ إليّ أنني فصلت القول فيها عند بداية الكتاب، يبقى لنا الكلام فقط على الإيمان بوجود الله جلَّ في علاه، لأنه لا يمكن للإنسان أن يصدّق الشرائع التي نزلت ويقول هذه من الله جلَّ في علاه ولا يؤمن بوجوده، الإيمان بوجود الله يدل عليه الانقياد. لا لا ما يدل على الإيمان بوجود الله.

كيف تستدل على وجود الله؟ الصحيح أن نقول الله جلَّ وعلا يعرف: أولاً الإيمان بوجود الله بالشرع، الإيمان بوجود الله بالعقل، الإيمان بوجود الله بالحس، الإيمان بوجود الله بالفطرة. النظر لآيات الله جلَّ في علاه الأصل فيها أنها تأتي بالعقل.

- الإيمان بوجود الله في الشرع، بيّن ذلك، قال الله: أنا الخالق وأنا الرازق وأنا المدبر. قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]، وقال: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5] فأبلغك بأنه على العرش استوى. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه)، سبحانه جلَّ في علاه، فالشرع قد دلك على وجود ربك جلَّ في علاه.

لذلك أنكر الله على من أنكر على وجوده، قال: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) [الطور:35]، عند العقلاء الإجابة مستحيل، ما في شيء إلّا لا بد أن يكون من أوجده. (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)؛ هذا ارتقاء في المناظرة الآن في إقامة الحجة، أنت أصلاً تقول: لا شيء يوجد إلّا بموجد، فنقول: أنت أوجدت نفسك؟ لا بد أن يقول لا.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) [الطور:35-36]، هل هناك أحد يستطيع أن يقول بذلك؟ ما في أحد يستطيع أن يزعم ذلك. قال الله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) [الذاريات:22]، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، وجود الله جلَّ في علاه بالشرع.

- وبالعقل: بالنظر إلى آيات الله جلَّ في علاه، هذه الآيات الباهرة القاهرة تدل على وجود الله جلَّ في علاه. أعرابيٌ ليس له علم، لكن عنده شيء من النظر، قال: إن الأثر ليدل على المسير، وإن البعر يدل على البعير، فسماءٌ ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج لتدل على اللطيف الخبير؛ استدل بذلك.

الأعرابي الآخر كان أقوى نظراً؛ عندما قيل له: كيف عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بالغِيَر. أنت ترى التقلبات التي تحدث؛ رجل يبكي تراه يضحك في نفس الوقت، النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا قال؟ قال: (يضحك ربنا من عباده يقنطون مع قرب غِيَره) يبكون ويقنطون الآن. أول ما ينزل المطر ماذا ترى؟ كلهم أمل، بعد ما قطع اليأس أحبال الحياة عندهم، ترى أن الأمل قد انفتح على آخره عندما وجدوا المطر، وهذا من فضل الله جلَّ في علاه. ولذلك ابن عباس قال: وهو الذي أضحك وأبكى، فهذه دلالة على عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه.

بالنظر؛ ولذلك أمر الله جلَّ في علاه: (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) [الأعراف:185]، كل ذلك الآيات هذه آيات باهرة على وجود الله جلَّ في علاه عقلاً بالمقدمات والنتائج.

ست أطباء كانوا في الجامعة اتصلوا بي، هؤلاء يعني ملاحدة، الإلحاد انتشر في الجامعات عندنا في مصر شديد جداً. ائتوني بهم فجاءوا، وأنا أول شيء تكلمت به، الولد كان ذكياً جداً، قلت له: إذا دخلت أنا الآن على البنج أو الطاولة هذه، الدكتور دخل أو ما دخل، الطلبة دخلوا فوجدوا على السبورة كلام مكتوب، ماذا تستفيد؟ وماذا تفهم وتعقل عندما تجد كلاماً مكتوب على السبورة ودخلت أنت وما في أي أحد؟ ما ارتضى يجيب. قلت له: أجب الآن، أنا ما أتركه يحيد، شددت عليه فما حاد. قال هذه دلالة على أن هناك من كتب. قلت له: أنت الآن أوجدت نفسك؟ الطبيعة أوجدتك؟

طبعاً غلبت حجته بفضل الله جلَّ في علاه، لكن ماذا قال لي؟ أعجب ما سمعت منهم قالوا لي: تريدنا نؤمن؟ قلت: نعم، قال: نرى ما رأى إبراهيم ثم نؤمن. هذا إيمان منهم أولاً أنهم آمنوا أن إبراهيم حصل معه هذا أصالةً، فهي المسألة مسألة شيطنة، ومسألة كأنهم يعني يرون أنفسهم في ذلك والهوى في هذا الباب.

العقل لا بد أن يذعن بوجود الله جلَّ في علاه، وهذا الذي حدث مع أبي حنيفة؛ عندما جاءه قوم من الكفرة، وقال: دعوني الآن أنا مشغول هذه مسألتكم مسألة يسيرة، قالوا: وما شغلك؟ قال: سفينة تعبئ البضاعة وتسير وحدها دون ربان في المياه ثم بعد ذلك ترسى في المرسى وتفرغ البضاعة وتمشي. قالوا: دون قائد؟ قال: دون قائد، قالوا: هذا لا يمكن، يعني هذا جنون، الذي قال لك هذا مجنون. قال: أنتم تقولون على السفينة وتقولون مجنون، وهذا الكون بمراميه الشاسعة؛ شمس وقمر ونجوم وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج تجعلونها دون خالق، فآمنوا وأسلموا. فالعقل يدل على وجود الله جلَّ في علاه.

- وأيضاً الفطرة، فأنت مجبول.

أنا أعلم أمريكية كانت كافرة، ولكن كانت كلّما تدخل مكان للكفرة يصلون فيها ينازعها شيء وتبكي، ما تعرف لِمَ. لكنها كانت حكت لي حكايةً ظاهرة كيف مسألة الإسلام، قالت: كانت تشتد عليّ المسائل تنزل عليّ تتراً بلايا فما أجد في نفسي الانفراج إلّا وأنا ساجدة، وما أعرف أن هذا السجود. قالت: فاشتد عليها البلاء في مرةٍ فألقيت نفسي في الأرض ووضعت رأسي، بكت فقالت: فوجدت انفراجاً شديداً. بعد ذلك علمت أن هذا وضع يحبه جداً المسلمون، فسألت عنه فعلمت أنه السجود وأسلمت، وحسن إسلامها بفضل الله جلَّ في علاه.

فالحق أنها الفطر مجبولة؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خلقت عبادي حنفاء (يميلون إلى التوحيد عن الشرك)، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن الدين)، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه). وعند بعض العلماء والمحققين يرى بأنه الكلام هنا بمسألة الفطرة على الإسلام على خلاف بين العلماء، لسنا بصدد التفصيل فيه.

لكن الفطرة السليمة، وهذه التي حدت بهذا الأعرابي إلى أن يغلب الجويني لما قال الجويني: كان الله ولم يكن شيئاً (يعني لا عرش ولا شيء)، وهو الآن على ما كان عليه؛ يعني ما في شيء (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5]، وهو الآن على ما كان عليه. فالأعرابي قال: دعنا من الفلسفة والسفسطة، قال: أنت دلني، كلّما وجدت في نفسي شيء أريد أن أدعو أرفع يديّ إلى السماء. من أين أتت هذه؟ أنت ممكن تجد واحد يرفع يده إلى الأرض؟ يجعل يده هكذا خلف أذنه؟ لا تجد أحد يفعل ذلك، إذا أراد أن يدعو يرفع يديه إلى السماء، الفطرة توجهه إلى السماء. ماذا قال الجويني؟ وقف أمامه معظّماً، ضرب على رأسه وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني. ماذا أفعل؟ مسألة مسلمة في هذا الباب.

- والحس أيضاً يدل على وجود الله، كم وكم من داعي دعا وفوراً استجاب الله له. كما ترى في الاستدلال بهذا على ما جاء في الاستسقاء؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يخطب الجمعة ودخل رجل فقال: يا رسول الله هلكت الأموال والعيال فادعُ الله لنا. أنس يقول: أن السماء ما فيها أي غيم، ما في أي قطرة. قال: فرفع النبي -صلى الله عليه وسلم- يديه فدعا، فوجدنا السحاب قد أظلت الناس فأمطرت أسبوعا كاملاً. وهذه من علامات النبوة، دعا فاستجاب له، قال: ما نزل إلّا والمطر يتحادر من بين لحيي النبي -صلى الله عليه وسلم-. حتى جاء الرجل في الأسبوع الثاني ماذا قال؟ هلكت الأموال والعيال من كثرة المطر (ليس من قلة المطر)، قال: (اللهم حوالينا ولا علينا)، وكانت كذلك، وهذه من علامات النبوة.

الحس بذلك يدل على وجود الله جلَّ في علاه، هذا معنى الإيمان بالله. ونكمل إن شاء الله في الدرس القادم لأن الوقت قد انتهى.

إجابة سؤال: الطائفة المنصورة؛ النصرة الحسية والنصرة المعنوية، أن ينتصر على أعدائه، والنصرة الفكرية، أيضاً الانقياد والتسليم.

إجابة سؤال: هم يدّعون أنهم أهل السنة ويفترقون، أحسنت أن قلت يدّعون، عندهم بعض الخلل، ولو كانوا أهل السنة حقاً لاجتمعوا، لأن السنة تجمّع ولا تفرّق، البدعة التي تفرّق. أرأيت ما قال ابن تيمية على النصارى، قال: ما جلسوا تسعة إلّا خرجوا عشرة؛ وهكذا أهل البدع يكونون كذلك.

لذلك أنت ترى كل أهل البدع؛ لمّا ترى الروافض، كم من الفرق التي توالدت من هذه الفرقة التي هي أخبث من اليهود والنصارى؟ الجهمية، كم وكم من الفرق؟ المعتزلة؟ كم وكم؟ فالبدعة تفرق دائماً.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا اله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الرابع: - الإيمان بالملائكة وبالكتب وبالرسل

- الإيمان بالبعث بعد الموت

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفا، وبعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع بوابة العلم، وبوابة العلم هي حسن الاعتقاد، ومع هذا الكتاب الجليل، نسأل الله جلَّ وعلا أن ينفع به وأن ييسر لنا إتمامه. ومن صدق الله صدقه الله؛ كم وكم من كتب لا يتصور المرء أن تنتهي وأنهاها الله جلَّ في علاه، كم وكم من الأبحاث التي يطول النفس فيها ومع ذلك من صدق الله في الطريق وصل إلى نهايته بفضل الله جلَّ في علاه. فلعل الله جلَّ في علاه ييسر لنا إتمامه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا ممن يتعلّم ليتعبد وينشر ذلك بين الناس.

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

قال الشيخ -رحمه الله تعالى-: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة؛ الإيمان بالله وملائكته.

هذا الاعتقاد يعرِّفه الآن، فكأنك تنتبه تنتظر للاعتقاد، ما الاعتقاد؟ فقال: الاعتقاد الإيمان بالله، ما عقد عليه القلب المرء المكلف قلباً. قال: الاعتقاد هو؛ يعرِّفه الآن ويبيّن لك ما هو الاعتقاد، وما أدري كيف التواني على مسائل مثل هذه؟! وكيف التفريط في مسائل مثل هذه؟! من فعل ذلك فهو مغبون مغبون مغبون، هذه جمل نقية رائعة من اعتقادات السلف.

قال -رحمه الله-: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بقدر خيره وشره. إذاً قال: هو الإيمان بالله؛ الاعتقاد، اعتقاد أهل السنة والجماعة، اعتقاد الفرقة الناجية، اعتقاد الفرقة الظاهرة أو الطائفة الظاهرة على الحق إلى يوم الدين، هو أنهم يعتقدون بالإيمان، يؤمنون بالله. وهذا فصّلناه أمس وتكلّمنا عنه، بعدما بيّنا صفات وسمات الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وأيضاً الظاهرة على الحق، وهم أهل السنة والجماعة.

قال: الإيمان بالله وملائكته؛ عطف عليه، الإيمان بالله والإيمان بالملائكة. والإيمان بالملائكة يستلزم من ذلك الاعتقاد الجازم بأن الله جلَّ وعلا له خلق هذا الخلق، هم الملائكة، وهم من الغيب. الإيمان بالملائكة من جملة الإيمان بالغيب، وإيمان المرء مرهونٌ بإيمانه وتصديقه بالغيب؛ لأن أصل الإيمان أن تصدِّق بما أخبر الله به جلَّ في علاه، وأن تصدّق بما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فالإيمان بالله جلَّ في علاه يستلزم الإيمان بكل الغيوب؛ الإيمان بلوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، بما أخبرك الله به، ولذلك هو ذكر كل الإيمانيات هنا، يذكر فيها مسائل الغيوب مع المسائل التي قد شاهدها الناس ورأوا منها ما يكون غيباً، وما يكون منها من دلائل النبوة على الرسالة والكتب.

قال: والإيمان بالملائكة. والإيمان بالملائكة: الاعتقاد أنهم خلق من خلق الله جلَّ في علاه، (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم:6].

أصل الملائكة من الألوكة، والألوكة من الرسالة، وأصل الرسالة سفارة، هي من الملك، والملك واسطة بين الله وبين الرسول البشري، والبشري رسولٌ إلى البشرية وواسطة بين الله وبين جميع البشر، لكنه لا يكون مباشرةً مع الله جلَّ في علاه، بل الله جلَّ في علاه جعل بيننا وبينه الواسطة ألا وهو الملك. الملائكة رسل، وهم أوائل الرسل، وهم واسطة بين الله وبين الرسول البشري.

قال ورقة ابن نوفل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: هذا الناموس الذي جاء لموسى -عليه السلام-؛ واسطة بين الله وبين الرسول البشري، والرسول البشري يكون واسطة بين الله وبين جميع الخلق أو إلى أمته خاصة، لكن بواسطة وهي الملك. (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) [الحج:75]، قال الله جلَّ وعلا: (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) [فاطر:1].

فالملائكة من الألوكة، من الرسالة. وأصل الإيمان بها؛ الإيمان مجملاً والإيمان تفصيلاً:

١- أمّا الإيمان مجملاً: هو أن تؤمن بأن الله جلَّ في علاه خلق خلقاً من نور وسمّاهم الملائكة، وهم أعبد خلق الله لله جلَّ في علاه، وهم أقرب خلق الله لله جلَّ في علاه، وهم أشرف خلق الله جلَّ في علاه. تؤمن بذلك إجمالاً، بالملائكة، لأن الله جلَّ وعلا قال: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ) [البقرة:285].

هذا الإيمان، لا يصح إيمان العبد إلّا بذلك؛ فمن يقول لا يكون هناك ملائكة هذه خيالات، فهذا كافر، من لم يؤمن بوجود الملائكة فهو كافر. ويؤمن بأنهم خلق من خلق الله جلَّ في علاه، ومن آمن بوجود الملائكة ونسبهم بنات لله جلَّ في علاه فهو كافر، لأن الله واحدٌ أحد سبحانه جلَّ في علاه.

فهم خلقٌ من خلق الله جلَّ في علاه، عبادٌ من عباد الله جلَّ في علاه، قال لهم كونوا فكانوا، وخلقهم الله من نور كما صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (خلق الله الملائكة من نور، وخلق آدم مما علمتم، وخلق الجان من نار). وهذا عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه؛ خلقٌ لطيف، وهذا الخلق الله جلَّ وعلا منحه قوة أن يتصوّر ويتحول، وهذا كمال، لأن هذه من صفة الله جلَّ في علاه، لأن الله يتصوّر. الحديث في الصحيحين في الشفاعة: (يأتيهم على الصورة التي لا يعرفونها، فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لست بربنا)، في رواية في الصحيح: (فيتحول فيأتيهم على الصورة التي يعرفونها).

هذا كمال، وهذه من صفات الله جلَّ في علاه التي نؤمن بها دون تكييف. النبي نفسه قال ذلك حتى ما أحد يتكلم من أين أتينا نحن بهذا الكلام، هذا في الصحيحين في البخاري ومسلم. وأيضاً في سنن الترمذي بسند صحيح قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رأيت ربي في أحسن صورة). إذاً الله قد يأتي المكلّف في المنام بصورة حسنة أو بصورة أحسن، قال ابن تيمية في هذا الباب: وكلٌ على درجة إيمانه؛ من علا إيمانه يأتيه على الصورة الأحسن، ومن كان الإيمان موجوداً لكنه ليس بالعلو كمثال الأول يأتيه بصورة حسنة.

فالملائكة الله جلَّ وعلا أعطاهم قوة أن يتشكلوا، يتصوّروا. لذلك كان جبريل يأتي على صورة دحية الكلبي، وهو كان أشبه الخلق به أصالةً قبل أن يأتي على صورته كما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-. والحديث ظاهرٌ صحيحٌ جداً كما شرحنا في الترمذي؛ قال: (رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر). لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التمسوا الرجل)، فقالوا: لم نجده، قال: (أتعلمون من هذا؟ هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم).

ملك الموت لمّا جاء لموسى تصوّر على هيئة بشر، أنت تحسب أن موسى يصفعه على وجهه وهو في صورة ملك. تعلمون يقيناً بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوتي قوة فوق قوة موسى -عليه السلام-، ولذلك لمّا جاء هذا ركانة الذي قال: أنا لا يصرعني إلّا نبي، صرعه النبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاث مرات. لمّا قال علي بن أبي طاب: كان إذا حمي الوطيس احتمينا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. لمّا رأى جبريل قال: ذعرت رعبت، ذهب إلى خديجة، قال: دثروني دثروني، زملوني زملوني؛ ما استطاع أن يتحمل.

فهو جاء لموسى على صورة رجل، وإلّا فلِمَ صفعه موسى؟ وحق له أن يصفعه في أمر الشرع؛ دخل بيته فوجد أجنبي في بيته، التفسير الوحيد هذا سارق، هذا متعدي، فصفعه ففقئ عينه. لمّا رجع لربه قال: أرسلتني لرجل لا يريد الموت، فأعاد عليه عينه، ثم رجع إلى موسى -عليه السلام- قال: إن ربك يأمرك أن تضع يدك على متن ثور بكل شعرة لك سنة، قال: وماذا بعد؟ قال: الموت أيضاً، قال: إذاً الآن. ما من نبيٍ إلّا خُيّر واختار الرفيق الأعلى.

وإيماناً بالملائكة أيضاً بأن الملائكة هم أعظم وأرفق الخلق ببني البشر من المسلمين، فهم يستغفرون للمؤمنين؛ (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) [غافر:7]، وأيضاً هم أعظم الخلق نصيحة لبني البشر. ولك أن تفهم ذلك بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- على بني البشر: (للملك لمة، وللشيطان لمة، ولمة الملك إيعادٌ بالخير (يوزع في قلبه الخير)).

حديث أبي هريرة؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (سليمان -عليه السلام- يقول: لأطوفن الليلة على مئة امرأة)، (وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) [الرعد:38]. فالمتهوكون البله السفهاء يجعلونها مسبة، كثرة النساء للرجل، ويجعلونها منقصة وهي كمالٌ فوقه كمال، دلالة على الرجولة والفحولة والعقولة هذا إذا صح التعبير يعني، والسياسة هكذا. فقال: (لأطوفن الليلة على مئة امرأة، كلٌ منهن تأتي برجل يجاهد في سبيل الله)، هذه النية التي إذا سبقت ارتفع الرجل وارتقى إلى المعالي، (فقال له الملك: قل إن شاء الله)؛ هذا السبب والسبيل الذي يوصلك إلى ما تمنيت، والأجر موجود.

(قال: قل إن شاء الله، فنسي، فأتت امرأة واحدة من المئة امرأة بقطعة لحم فقط)؛ الله تعالى أراه القدرة ليست بيد أحد. لكن أنا أريد الشاهد: (قال له صاحبه) في رواية أبو هريرة، في رواية أخرى قال: (قال له الملك: قل إن شاء الله).

ولذلك ترى هناك ملائكة أيضاً تؤمن بهم الله جلَّ وعلا خلقهم حفظة البشر فيما لم يُقدّر عليهم؛ تمشي تجد نفسك أمام سيارة الصدام سيكون قريباً، تنتبه ينتبه، تسمع، رجل يأخذ رجل بيدك، كل هذا ممن خلقهم الله جلَّ وعلا حفظاً لك فيما لم يُقدّر عليك. وسورة الرعد شاهدة بذلك: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [الرعد:11]، يعني هؤلاء بأمر الله يحفظونه مما لم يُقدّر.

وتؤمن بالملائكة أنهم أعبد خلق الله لله، يلهمون التسبيح كما نلهم نحن النفس، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس بها من موضع اصبع إلّا وملك راكع أو ساجد يسبح لله جلَّ في علاه). هذه العبادة، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول في البيت المعمور؛ البيت المعمور كما قال ابن كثير: هو فوق الكعبة، لو نزل نزل عليها، وهذا في السماء السابعة. لمّا رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- إبراهيم -عليه السلام- أسند ظهره للبيت المعمور، يجلس وحوله الأطفال، فقالوا: أطفال المسلمين؟ قال: وأطفال المشركين؛ خدم لأهل الجنة.

فقال: (يدخل البيت المعمور سبعون ألف ملك في كل يوم وليلة، يطوفون فيه لا يرجعون إليه إلى يوم القيامة). تعرف ما معنى هذا؟ في كل يوم سبعون ألف! كم سبعون ألف يدخلون إلى يوم القيامة؟ في كل يوم سبعون ألف، والسبعون ألف غير السبعين ألف!! سبعون ألف يدخلون يطوفون تعبداً لله. أنت ما تحسب نفسك إذا كنت أنت انفردت وأنفقت المال وذهبت تطوف بالكعبة أنك العابد، هناك خلق ما خلقوا إلّا لعبادة الله جلَّ في علاه. سبعون ألف يطوفون يخرجون لا يرجعون إليه إلى يوم القيامة، كم وكم من سبعين ألف يدخلون يتعبدون لله جلَّ في علاه؟!!

وهناك حملة العرش لا بد من الإيمان بهم؛ وحملة عرش هؤلاء الذين يحملون العرش ويسبحون بحمد ربهم سبحانه جلَّ في علاه تعبداً. وتعلمون حملهم للعرش، والله جلَّ وعلا استوى على العرش، استواء الله على العرش كمال يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته. أي عبدٍ لو استوى على عرشه أيهما يحتاج إلى الآخر؟ العرش يحتاج للرجل؟ فالرجل هو الذي يحتاج إلى عرشه، لو سحبته من تحته ماذا يحدث؟ يقع يسقط. العرش يحتاج إلى الله جلَّ في علاه، كل الخلق أفقر ما يكونون إلى الله جلَّ في علاه سبحانه جلَّ في علاه. هناك الملائكة الذين يطوفون حول العرش ويسبحون بحمد ربهم سبحانه جلَّ في علاه.

هناك ملائكة تؤمن بهم إجمالاً؛ الذين يسيحون من الأرض، هذه التخصصات تؤمن بأن هناك ملائكة يسيحون في الأرض، يطوفون بالأرض يلتمسون هذه المجالس. اللهم ثبتها لنا يا رب العالمين، اللهم أدمها علينا ما حيينا يا رب العالمين، اللهم لا تمكن أحداً منا ولا منها بحق لا إله إلّا أنت، اللهم آمين، اللهم آمين. لعل الله يكشف عن قلب مخلص منكم فيكون صادقاً في دعائه، فيقبل منه هذا الدعاء فيثبت لنا هذا الخير ما حيينا أبداً، ولا يمكِّن أحد من هذه المجالس بحال من الأحوال. اللهم آمين يا رب العالمين، اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، اللهم كن معنا وأنت أرحم الراحمين.

الملائكة يطوفون فيلتفون حول مجالس العلم، هم يجلسون هذه حياتهم، حياتهم أن يجلسوا في هذه المجالس ويكتبون بالأسماء الذين يجلسون، وهؤلاء الذين يجلسون الله جلَّ وعلا يذكر أسمائهم ذكراً بالثناء الحسن عليهم في الملأ الأعلى. هل رأيتم أفضل من ذلك وأجود من ذلك؟ كيف أنت وأنت تجلس هنا تركت إخوانك وخلانك وتركت كل شيء، ممكن الاستفادة تكون قليلة أو تكون بعيدة أو تكون كبيرة، الغرض أنك المستفيد الأول بالثناء عليك في الملأ الأعلى.

أنت تذكر باسمك واسم آبائك في الملأ الأعلى، الملائكة يعرفونك وإن جهلك أهل الأرض، وهذا الذي فهمه عمر بن الخطاب عندما قالوا له: مات فلان وفلان، وهو في فجيعة، ثم قال: من آخر، قالوا: مات فلان أنت لا تعرفه، قال: وما ضره!! رب عمر يعرفه؛ أنا لا أعلمه، رب عمر يعلمه. طبعاً لا يصح أن يقال الله يعرفه، هذا من باب الخبر؛ قال: رب عمر يعلمه، هذه تكفي. فتكون أنت معروف من أهل السماء؛ لذلك علي بن أبي طالب كان يقول: أنتم تمشون على الأرض بأجسادكم واجعلوا الأرواح في السماء.

كن معلوماً في أهل السماء، ودعك من أهل الأرض. ما يفعلون؟ لا شيء، لا مدحهم يرفع، ولا ذمهم يسقط. لمّا دخل الأعرابي على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له: أعطني فإن مدحي زين -شعري رائع يسمعه الجميع وذمي شين-، فابتسم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له: (ذاك الله)؛ المدح الزين حقاً من الله، والذم الشين حقاً هو من الله، لا يملك لك شيئا ابن آدم.

لكن الملائكة هؤلاء -كما قلنا- يحبون أهل العلم ويحبون مجالس العلم. (فيقولون: بغيتكم)؛ يلتفون حولهم، يكتبون أسمائهم ويصعدوا يعرجون إلى ربهم جلَّ في علاه، إلى آخر الحديث. في السؤال عندما يقول: (أنا اعيذهم مما استعاذوا به من النار، واشهدوا أني قد غفرت لهم، ولهم الجنة. فيقول الملك: ربي فلان جاء لحاجة ما جاء للعلم، فقال الله جلَّ في علاه: هؤلاء القوم هم لا يشقى بهم جليسهم)؛ هذه شفاعة.

والإيمان بهؤلاء الملائكة الذين خصّهم الله فقط لأهل العلم فقط، هناك ملائكة خصهم الله جلَّ وعلا ليستغفروا لأهل العلم؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أهل السماء وأهل الأراضين، حتى الحيتان في البحر، حتى النملة في جحرها لتستغفر لمعلم الناس الخير). اللهم اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم فإنك أنت الأعز الأكرم، اللهم آمين يا رب العالمين.

٢- والإيمان أيضاً بالملائكة على التفصيل: كالإيمان بالرسول، بالناموس كما يقولون، بالوحي، الإيمان بجبريل -عليه السلام- باسمه وبوظيفته؛ جبريل -عليه السلام- موكّل بالوحي؛ لمّا قال ورقة ابن نوفل: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى -عليه السلام-. ما الفرق بين الناموس ووزنه؟ ناموس ووزنه جاسوس؛ الناموس هو ناقل الخير حامل سر الخير، والجاسوس الشر.

ولذلك المتجسس فاسق أصالةً، والمتجسس طبعاً ضرره عظيم في هذا الباب كما تعلمون؛ قال: (وَلا تَجَسَّسُوا) [الحجرات:12]. أمّا الناموس صاحب السر "سر الخير"، كما فرّق بينهما الإمام النووي. سر الخير وهو جبريل -عليه السلام-، وجبريل هو الواسطة بين الله وبين الرسل، وهو حامل الوحي، وهو الذي أتى بالقرآن للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والذي كان يأتي يُعلِّم النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلاة وإلى آخر ما جاء من الأحاديث، فالإيمان بجبريل واجبٌ طبعاً.

تعلمون أن جبريل عدو اليهود -لعنة الله عليهم-، لأنهم يقولون بأن جبريل ينزل بالأوامر افعل ولا تفعل، هم يريدون يناموا ويأكلوا ويشربوا وانتهى الموضوع، استغفر الله. الروافض أخس من اليهود؛ اليهود يكرهون جبريل من أجل أنه يأتي افعل أو لا تفعل، الروافض يكرهون جبريل على أنه خائن، يقولون بأن جبريل خان الأمانة، ألعن من اليهود والنصارى.

الغرض المقصود بأن جبريل -عليه السلام- هو أمين الوحي، وقد بيّن الله جلَّ في علاه بأنه أفضل الملائكة على الإطلاق؛ (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) [التكوير:19-20]، وقال الله جلَّ وعلا لبيان التفضيل: (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ)؛ كل الملائكة عموم الآن، وبعد العموم خصص بالقول: (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا) [القدر:4]. وإن كان في اختلاف على مسألة الروح، لكن جماهير السلف يقولون الروح المقصود بها جبريل؛ (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:193-195].

وتؤمن بإسرافيل؛ وإسرافيل هو الموكّل بالقرن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وأصغى ينتظر أن يؤمر فينفخ في الصور). وميكائيل؛ الموكّل بالقطر، بالرزق، وله أعوان. وأيضاً الإيمان بملك الموت؛ وملك

الموت طبعاً له أعوان يأتون للميت يقولون: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةَ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) [الفجر:27-28]، فيعاونونه على قبض الروح ويأخذون منه الروح ويصعدون ويعرجون بها إلى السماء.

والإيمان بمنكر ونكير؛ أصحاب السؤال في القبر، هذا صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم-. والإيمان أيضاً بالملك الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله أذن لي أن أتحدث عن ملك ما بين شحمة أذنه إلى عاتقيه مسيرة خمسمائة سنة)، الخيل يضرب فيها ما دام من هنا لهنا فقط، خفقان الطير ثم هذه ما معناها؟ خفقان الطير أسرع من الخيل، خمسمائة عام كيف يكون خلقه؟ سبحان ربي. لذلك قال: لا تتفكر في ذات الله، تفكر في خلق الله؛ ولن تصل، لن تستطيع أن تصل.

والإيمان بالملائكة خزنة النار؛ وصفهم الله وصفاً دقيقاً: (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحريم:6]، هم الذين يقرعون ويقولون: (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان:49]، وأيضاً يسألونهم تقريعاً وتوبيخاً: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ) [الملك:8-9].(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) [الزخرف:77]؛ ونحن نؤمن باسم الملك الذي من خزنة النار، الذي وصفه الله جلَّ وعلا وسمّاه لنا.

فهنا من باب الإيمان بالغيوب؛ أي ملكٍ يُكفر به، كفر بكل الملائكة، كما قال الله جلَّ وعلا: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:105]. فكل ما ثبت لا بد من الإيمان به، لأن الأصل في ذلك أنك لو كنت مؤمناً بالله آمنت بما أخبر الله به، وقد أخبر الله بهذا، فلا بد تؤمن بجميع ما أخبر الله به سبحانه جلَّ في علاه.

قال: الإيمان بالله وملائكته وكتبه؛ وهنا أخّر الرسل على أساس أنها جاءت بالآية، قال الله جلَّ في علاه في ختام سورة البقرة: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ) [البقرة:285]. فهو كان من بديع التصنيف ألّا يحيد عن نفس الترتيب الذي رتبه الله جلَّ في علاه.

قال: وكتبه؛ والإيمان بالكتب هي كل الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء، الإيمان بها يتضمن أمرين:

الأمر الأول: الإيمان بها كاملةً قبل أن تحرّف؛ نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور وصحف موسى وصحف إبراهيم، كل ما نزل من الكتب السماوية نحن نؤمن بها جميعاً. وطبعاً هذه الكتب جميعاً اتفقت واختلفت، ما معنى "اتفقت واختلفت"؟ اتفقت في أصول الديانة كلها تدعو للتوحيد، واختلفت في الشرائع (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) [المائدة:48].

وشريعتنا ناسخة لجميع الشرائع، ومن لم يقل بذلك كفر؛ فمن قال بأن من له أن يحيد عن شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- كما حاد موسى عن الخضر أو الخضر عن موسى، هذا كفرٌ مستقل. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده ما سمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الأنبياء إخوةٌ لعلات، دينهم واحد -وهو التوحيد الإسلام-، وشرائعهم شتى). ما من نبي إلّا وهو جاء بالإسلام؛ ماذا قال يوسف -عليه السلام-؟ (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف:101]. وموسى وعيسى كل جاء بالإسلام، هو توحيد الله جلَّ في علاه الأصل في ذلك. واختلفت الشرائع؛ وشريعتنا هي الشريعة الناسخة.

فالإيمان بكتب الله جلَّ في علاه هي الإيمان بكل الكتب التي أنزلها الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) [الحديد:25]. فهنا نقول بأنه أنزل على داوود الزبور ونؤمن بالزبور، أنزل على موسى التوراة ونؤمن بالتوراة، وأنزل على عيسى -عليه السلام- الإنجيل ونؤمن بالإنجيل، وأنزل على موسى صحف أخرى، وأنزل على إبراهيم -عليه السلام- صحف. نؤمن بكل ما جاء من الكتب، نؤمن بها جميعاً، لكننا نعلم بأن هناك كتب قد حُرّفت، وقد بيّن الله جلَّ في علاه التحريف.

والخلاف بين العلماء في مسألة التحريف؛ والتحريف قد يكون التحريف الكلمي اللفظي أو التحريف المعنوي. أمّا التحريف فهو ثابت والإجماع عليه؛ قال: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) [النساء:46]، وفي آية أخرى: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) [المائدة:41].

لمّا جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- اليهود وقالوا: يا رسول الله زنا فلان بفلانة، قال: ما تجدون في التوراة في حكم الزنا؟ قالوا: الجلد والتحميم؛ يجلد ويركب على حمار أجلَّكم الله معكوساً، ويحمم الفحم، هذا يكون عليه من باب التنكيل. هم طبعاً قالوا: اذهبوا لهذا الرسول، فإن آتاكم بما تقولون فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا. فعبد الله بن سلام قال: إنهم قوم بهت، مرهم أن يأتوا بالتوراة. فأتى بالتوراة وقرأ، وهو يقرأ جاء إلى آية الرجم فوضع يده عليها. فجاء عبد الله بن سلام ضربه، قال: يا لكع (يا لئيم) أخِّر يدك. أخَّر يده فقرأها، فوجد آية الرجم، فرجمهما النبي -صلى الله عليه وسلم-. فالتحريف ثابت بقول الله جلَّ وعلا: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) [المائدة:41]، لكن هل التحريف كلمي أو التحريف معنوي؟

ابن تيمية يقول بأن التحريف معنوي في هذا، والصحيح أنه كلمي ومعنوي؛ قال الله جلَّ وعلا: (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) [التوبة:9]، جعلوه خلفهم ظهريّاً، الآيات

أظهرت ذلك. هذا التحريف، نحن لا نؤمن بالكتب المحرَّفة، نؤمن بأصل الكتب التي لم تحرَّف؛ التوراة التي لم تحرَّف، الإنجيل الذي لم يحرَّف، نحن نؤمن بها جميعاً. وإلّا لو لم تكن تحرف لآمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، سطِّرت في التوراة وسطِّرت في الإنجيل صفات النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قال: هو هو، يعني إقرار هي صفاته. (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) [البقرة:146]، وفوق ذلك فقال: هو هو؟ قال: هو هو، قال: وماذا تفعل؟ قال عداوته إلى يوم الدين. هذا بالضبط ألعن من أبي جهل عندما قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، نعوذ بالله من الخذلان.

فالإيمان بكتب الله جلَّ في علاه بأن نؤمن بجميع الكتب التي أنزلها الله جلَّ في علاه، ونعلم أن أشرف الكتب على الإطلاق هو القرآن، وهو خاتم الكتب، وهو الحاكم على الكتب كما قال الله جلَّ في علاه: (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) [المائدة:48].

إجابة سؤال: هو من باب المناظرة وإقامة الحجة عليهم، لا يقول في كتبكم قال عيسى. أصالةً ما بين أول رجل يروي الإنجيل وبين عيسى -عليه السلام- أربعمائة عام، يعني بحور من الكذابين موجودين، بحور لا تنتهي. ولذلك شرف هذه الأمة في سندها المتصل. فلا بد أن يكون ذكياً، أيضاً يكون عالماً. المشكلة كل الذين يحاوروا هؤلاء ما عندهم علم، ضعاف، يعني شبهة واحدة يسقط، وهو ممكن يتكلم في الإسلام بالشرك. ولذلك لا يصح لأي أحد أن يتصدى ويتصدر لأهل الكفر مناظراً وهو لا يتقن عقيدته الصحيحة، لا يجوز ولو كان من أتقن الناس في التسع مئة وأربعين لغة. لا تقول لي متقن اللغة ولا بد أن يتصدر، وأنه متقن في اللغة. لا بد يتقن عقيدته، وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية؛ قال: لا يخوض غمار هذا إلّا من أتقن عقيدته أولاً. شبهة واحدة تضيع عنه كل شيء.

وأنا قلت لكم في أخ كان إمام المسجد وكان متصدر للناس، وذهب إلى بعض هؤلاء الضلال الخوارج في العقول، هؤلاء أضل الفرق الخوارج، وذهب يناظرهم. ولأنه ما عنده شيء من العلم المتقن، وهم يتقنون. أهل بدعة هؤلاء شياطين، لِمَ أنا قلت شياطين؟ لأن الشيطان يصبر صبراً عظيماً على ما هو فيه من الباطل، هم نفس الأمر، ليل نهار يحفظون الشبه والكلام. فلو أنت غير متقن أذابوك، تنهال. الرجل كان إمام المسجد، وكان منتفش يمشي كالطاووس، المئة خلفه، والمئة بعد ذلك معه. هو إمام المسجد وحافظ القرآن، لكن ما عنده علم، ولذلك الالتباس بين شبيه العالم بالعالم مهلكة أيّما مهلكة.

فجلس معهم ساعة، قال: والله أين أنتم؟ لِمَ لم نسمع عنكم؟ الحق كله معكم. وانتهى وضاع وضيّع، وكما قلت لكم قبل ذلك أنه ذهب إلى امرأته فقال لها: لملمي ثيابك على

أمك، فسخ العقد بيننا، أنتِ كافرة. لِمَ؟! يا ابن الحلال، وبكاء وعويل. قال: أنا رأيت الحق، قالت: اعرض عليّ الحق. وطبعاً هي لا تريد حق ولا حاجة، اعرض عليّ الحق، قالت له: لا والله الحق معك، أنا معك، كلهم كفرة، المهم أنا وأنت مع بعض. ضيّعها وضاعت، فالحاصل أنه لا يصح أن يتصدر وهو غير متقن للعلم.

والآن لمّا يطلع رجل يقول لك: ما في حاجة اسمها نسخ في القرآن، ما في شيء اسمه رجم في القرآن. ويطلع الذي يناظروه كلهم ضعاف، وهو يشلفط وجه هذا ويطحن في هذا، لِمَ؟ فلا بد للإنسان الذي يتصدر أن يكون عالماً، ولا يناظر إلّا أن يكون متقناً في أمر عقيدته.

أنت تعلم أنه لمّا يقول: عندكم عيسى قال لنا، يقول: في كتابكم المزعوم قال عيسى، وإلّا هو أيضاً يكون كذّاباً لو نسبه لعيسى -عليه السلام- نسبة الصحة، أين السند لذلك؟ يعني هو نفسه أنت ممكن تنكر عليه لمّا يقول: قال عيسى. نقول له من أين أتيت بأنه قال عيسى هذا؟ من أين تعرف أنه قال عيسى؟

هذا الرد على ابن تيمية أن هذا كان تحريف لفظي أيضاً، ليس تحريف معنوي فقط. والله جلَّ وعلا قال: (وَقُولُوا حِطَّةٌ) [البقرة:58]، قالوا: حنطة، وفي رواية قالوا: حبة في شعيرة. الغرض المقصود بأن الإيمان بالكتب التي لم تحرَّف، الإيمان بجميع الكتب.

قال: ورسله؛ يعني الإيمان بالرسل، هذه من أعظم ما تكون. الإيمان بالرسل، بجميع الرسل، تؤمن بهم إجمالاً، وتؤمن بهم تفصيلاً. أمّا إجمالاً في قول الله جلَّ في علاه: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ) [النساء:146]، أين؟ في الكتاب، فكل ما ذكر في الكتاب هم رسل.

أمّا إدريس؛ جماهير المفسرين يقولون أن إدريس قبل نوح، فقال: أنت تقول كل من ذكر في القرآن فهو رسول، إدريس أين الرسالة التي أرسل بها؟ كلام صراحة ليس بالهين طبعاً. هذا الرجل له مآرب أخرى، في خط خفي يمشي خلفه. طبعاً هو كلامه مهدوم لأن المحققون قالوا: الأسدّ في هذا الباب بأن إدريس ليس قبل النوح، وضعّفوا كل ما جاء من الآثار أنه قبل نوح، وأنه بعد نوح. هم يقولوا الجد السابع أو السادس لنوح وهذا ليس بصحيح، كل هذا ليس بصحيح. إذاً فهي تبقى القاعدة على ما هي عليه أنه رسول، لكنه ما جاء قبل نوح، بل هو بعد نوح في هذا.

فالغرض المقصود تؤمن بجميع الرسل التي قال بها الله جلَّ في علاه: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) [النساء:146]، وتؤمن أيضاً بأن الله جلَّ وعلا فاوت بين درجات الرسل، وجعل أفضل الرسل على الإطلاق هم الخمسة

من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله جلَّ وعلا في آيةٍ واحدة؛ قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ) [النساء:163]، أمّا في سورة الأحزاب ذكر الخمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والنبي -صلى الله عليه وسلم-. الله ذكرهم الله جلَّ وعلا خمسة، فهم من أولي العزم من الرسل.

وأيضاً تؤمن بالمفاضلة بينهم، بأن الله فضّلهم، وفضّل إبراهيم عليهم بأنه اتخذه خليلاً، واتخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- خليلاً، وتعلم بأن خاتمهم وأفضلهم وسيدهم هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، يوحى إليه قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)، وقام فصلى بهم ليلة الإسراء.

لكن يرد علينا إشكال؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)، عندما قال: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ) [البقرة:260]. قال: (ورحم الله لوطاً إنه كان يأوي إلى ركنٍ شديد)، قال: (ولو كنت مكان يوسف -عليه السلام- لأجبت الداع) عندما قال: (ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) [يوسف:50]، هذه فيها دلالة أنه لا يرى فضلاً له عليهم، وأيضاً ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تفضّلوني على يونس بن متّى).

أولاً في كلامه على إبراهيم -عليه السلام- ولوط ويوسف المسألة يسيرة، لكن الكلام في التصريح قال: (لا تفضّلوني على يونس بن متّى)؛ الصح التوجيهات الثلاثة:

- التوجيه الأول هو بأن هذا قبل أن يوحى إليه.

- التوجيه الثاني أنه نهاهم عن التفضيل، حتى لا يكون المسألة فيها من باب النزاع بين الأنبياء في هذا الباب، كما حدث مع موسى ومع محمد؛ لمّا الأنصاري ذهب إلى رجل من اليهود فقال: ورب موسى، قال: وتقسم بموسى!! قال: ورب محمد، فصفعه على وجهه لأنه يفاضل بين الأنبياء.

- الثالث هذا تعليمٌ وتأديبٌ، لا يكون التفضيل فيه التنقيص من المفضول، فيه الكلام على التبيين برفعة الفاضل دون التنقيص من المفضول، فنهاهم عن ذلك، فهذا التوجيه الثالث.

ولكن في الحق أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل، وهذا الذي يرثه العلماء، كيف ذلك؟ لأن من الحكمة ألّا يفضّل العالم على عالم بهذا، بأن ينتقص من الآخر، هذا سوء أدب أصالةً، ونظرة دون، وإلّا فالجميع ورثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والجميع وكلاء للنبي -صلى الله عليه وسلم-. لكننا نفاضل عندما نريد الأعلم حتى نتقن منه

العلم، لأن الأصل بأن من علامات الساعة أنك لتأخذ العلم عند الأصاغر، تطلب العلم عند الأكابر.

وأيضاً عند الرجوع على الراجح الصحيح أصولياً، لو في محلة فيها علماء وجوباً لا بد من الرجوع للأعلم، وإلّا يأثم، من رجع إلى من دونه في العلم، يأثم بذلك. وإن كان بعض الأصوليين ومنهم الشنقيطي يرجح ذلك أنه المهم يذهب لعالم، (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل:43]، لكن ما تفعل في قول الله جلَّ وعلا: (لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ) [النساء:83]؟ يرجع إلى الأعلم إذا وجد الأعلم، لا يصح له أن ينزل إلى الأدنى. يمكن أن يستفيدوا من ذلك بحديث العسيف؛ هو ذهب والنبي موجود؟! قلنا المسافات، وأيضاً الرجل كان متعجلاً في الفتوى في هذا الباب. لكن إن كنت مستطيعاً لا بد أن ترجع إلى الأعلم.

الغرض المقصود نقول التوجيهات الثلاثة أنه قبل أن يوحى إليه، وقد أوحى إليه أنه سيد الخلق أجمعين، وقالها لا رياء ولا سمعة، حاشاه ثم حاشاه ثم حاشاه بأبي هو وأمي، بيان لفضل الله عليه قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)، وهذا قد فضّله الله جلَّ وعلا تكريماً له في الشفاعة كما سنبيّن.

ومن أعظم الإيمان بالرسل والإيمان بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، والكفر بمحمد كفرٌ مطلق كفر مستقل، ومن قال بأن الإيمان بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- اختياراً لا إجباراً كفر، هذا كفر مستقل، الذي يقول إنه مخير بأن يؤمن به أو لا يؤمن به كفر مستقل. يا جماعة الخير من قال: آمنت بمحمدٍ وهو الرسول وأعظم الرسل وهو خاتم الأنبياء لكن يسمح لي أن أخرج عن شريعته، يكفر. أنا ما أدري!! والله ذهول!! الذي يستمع لأناس يقولون بأن الإيمان بمحمد اختياراً، ويقولون أنت لو قلت كافر جرأة كبيرة، أي جرأة؟! أنت بهذا ستصلى ناراً تلظى. فالنبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قال: هو أعظم الرسل وأنا اؤمن به وهو رسالته عامة، يقول: ولكن شريعته لا تلزمني. يكفر بالكتاب وبالسنة، كذّب فعله زعمه.

قال الله: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا فاصل في الخطاب: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمم يهودي أو نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت به) ما قال: بي، (بالذي جئت به) لأن به مسلّمة أنه يؤمن به، قال (بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار). (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)، هو آمن بالشريعة لكن لا يريد يتحاكم، يرى التخيير. (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو خاتم الرسل؛ (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [الأحزاب:40]، طبعاً هو ما قال: خاتم الرسل. العلماء يقولون هذه لفتة عظيمة بلاغية، لأنه ختام الأنبياء من باب أولى يكون خاتم الرسل. قلنا إن كل رسول نبي، فلو ختم الأنبياء فمن باب أولى يكزن قد ختم الرسل.

جاءنا رجلٌ مهووسٌ مخبول، قال: هو خاتم النبيين وليس بخاتم الرسل، وقال: أنه رسول. ميرزا غلام هذا، تعلمون البهائية القاديانية كله على صفٍ واحد، يزعمون الرسالة في غير النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا كله كفر.

الأصل أن يؤمن بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- بأنه خاتم الرسل، ولا يرد علينا ظهور عيسى بعده، لأن عيسى في الزمان قبله ليس بعده، وعيسى -عليه السلام- ينزل بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-. القاعدة العامة: الأصل في الترتيب البعث (الإرسال)؛ من بعث أولاً عيسى أم محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ عيسى -عليه السلام-. إذاً الخاتم هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، نزول عيسى هذا نزول تبعي، فسينزل تابعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

والدلالة على ذلك حتى لا يأتي غير ذلك خلط على أبواب عقول المؤمنين؛ بأن عيسى -عليه السلام- لمّا ينزل واستوت الصفوف، والمهدي سيصلي، قام المهدي فرأى عيسى -عليه السلام- على جناح الملك فعرفه بصفاته التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فقدمه فقال: لا صلِّ بالناس إمامكم منكم، تكرمة الله لهذه الأمة.

ولذلك العلماء يقولون: من تفضيل الله لأمة محمد على جميع الأمم أنه صلّى خلف آحاد الأمة فيها نبيان هم من أعظم الأنبياء قدراً عند الله جلَّ في علاه: محمد وهو سيدهم، وعيسى -عليه السلام- وهو من أولي العزم من الرسل. محمد صلى خلف عبد الرحمن ابن عوف لمّا جاء متأخراً بعدما أصلح بين حيين، وصلّى في آخر عمره خلف أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-. والمهدي يصلي خلفه عيسى -عليه السلام- تكرمة لهذه الأمة.

وعيسى ينزل بشريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وليست هذه نسخاً. أخطأ من قال من النبلاء أن هذا نسخ، ليس بنسخ. مسألة قبول الجزية ومسألة إعادة قبول إلى الإسلام هذه شريعة مؤقتة، حكم مؤقت وتوقيته عند نزول عيسى -عليه السلام-، وقاله النبي -صلى الله عليه وسلم- وأقره بذلك، فهي من شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: والبعث بعد الموت؛ واعتقاد أهل السنة والجماعة كل ذلك الغيوب، والإيمان بالبعث بعد الموت. والبعث بعد الموت ثابتٌ بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، البعث بعد الموت وهذا في جميع الأديان إذا صح التعبير، كلٌ يؤمن بالبعث بعد الموت إلّا

هؤلاء المتهوكون الذين يؤمنون بالتناسخ من أخبث خلق الله الروافض. مسألة معلومة هم مفسوخين العقل والجسد والبدن وكل شيء، وحتى عندهم انفصام في الشخصيات، الصحيح الراجح بذلك الجميع يؤمنون بالبعث والنشور.

وهو ثابت؛ قال الله جلَّ في علاه: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) [التغابن:7]، قال الله جلَّ وعلا مبيناً إنكار على هؤلاء الذين يقيسون قياساً باطلاً: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) [يس:78-79]، قال الله جلَّ في علاه مبيناً ذلك جلاءً: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء:104].

لا بد من البعث، ولذلك السنة ثابتة في هذا الباب؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تحشرون حفاةً عراةً غرلاً غير مختتنين، قالت عائشة: حفاةً عراةً؟ قال: نعم، قالت: وينظر بعضهم لبعض؟ قال: الأمر أهول من ذلك يا ابنة الصديق).

والبعث قد أراه الله جلَّ في علاه لبعض عباده في الدنيا، ولا تقل خاص بالأنبياء، بل للبشر. أمّا في الأنبياء فقد أراه الله جلَّ في علاه لإبراهيم وهو السائل: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا) [البقرة:260]. هذا الذي رأى البعث بعد النشور، يقال أنه جعل الرأس في مكان في رأس جبل، وجعل البدن في مكان، هذا إخلاف الطير، ثم يدعو الطير يأتيه كل رأس تذهب إلى نفس البدن.

كما أن الله جلَّ وعلا يأمر السماء تمطر في آخر الزمان، تمطر مطراً كالمني فتنبت الأجساد من عجب الذنب الذي لا يبلى في القبر، فتقوم كهيئتها، وتذهب كهيئتها بكلية ما فيها، وتذهب مهرولة إلى الله جلَّ وعلا مسرعة، سبحان ربي العظيم، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40].

وأراه الله جلَّ في علاه لأصحاب الكهف، أماتهم الله ثم بعثهم، ولمّا بعثوا قالوا: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا * وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) [الكهف:19-21].

وأيضاً في سورة البقرة؛ انظر إلى الشياطين، الشيطان يلبسهم التاج، الرجل قتل عمه هو يريد الإرث. أنت قتلت عمك اكتفي بذلك، وخذ الإرث وانتهى موضوع. لا، يريد زيادة؛ قتل عمه وألقاه على المدينة وقام يبكي يقول: موسى!! عمي عمي، ويريد الدية،

يعني يريد الزيادة في هذا الباب. فموسى -عليه السلام- لمّا حدث هذا، الله جلَّ وعلا أمر أن يأتي ببقرة فلما أتى بالبقرة، (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) [البقرة:73]، فقام فقال: قتلني ابن أخي، ومات بعد ذلك. ماذا حدث باليهود بعد ذلك؟ كفرٌ فوق كفر.

يا أخي في أكثر من هذه الآية العظيمة، أن الله جلَّ وعلا أنقذهم في البحر بعد ما انشق، الطريق وكان سالكاً لهم، ودخل فرعون، حتى موسى خاف ضرب بالعصى، لا هذا الأمر ليس لك (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا) [الدخان:24]. حتى أمامهم، أمام الأعين غرق. اللهم لا تفتنا وأنت أرحم الراحمين، اللهم لا تفتنا وأنت أرحم الراحمين. بعدها بلحظات مروا على قوم يعبدون إلهاً غير الله، صنماً، فقالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. كفرٌ مبين بعد الآية العظيمة التي رأوها، فتنةً عظيمة سقطت بهم. الغرض المقصود هذا البعث بعد النشور، أراهم الله ذلك.

والرجل؛ (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) [البقرة:259].

فالبعث بقدرة لله جلَّ في علاه، وهذا البعث يدلك على البعث كما قال ابن كثير: العقل يوافق على ذلك أو يقر بذلك. لأننا نجد أن مظلوماً مات مقهوراً مظلوماً ولم يؤخذ حقه، أين يذهب الحق وهو حكمٌ عدل؟ فلو كنا نؤمن أنه عدل، إذاً لا بد أن يرجع الحق لهذا الرجل، إذاً لابد أن نؤمن بأن الحق سيعود له في مكانٍ آخر في زمانٍ آخر، لأنه يأبى عدل الله جلَّ في علاه ألّا يصل الحق لأهله.

والدلالة على ذلك صريحة؛ عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب وهو يرى عنزتين ينتطحان: (أتدري لِمَ ينتطحان؟ فقال: الله أعلم، وإن الله جلَّ وعلا سيقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء)، عدل. فابن كثير يقول: بالعقل بأنك تؤمن بالميعاد، بأن المظلوم الذي مات مقهوراً دون رد المظلمة له، لا بد أن يكون هناك مكان آخر وميعاد آخر وزمان آخر ترد فيه الحقوق. لذلك قالت عائشة: ثلاثة دواوين، منها ديوانٌ لا يتركه الله أبداً، هو ديوان المظالم. إذاً فالبعث والنشور ثابتٌ في الكتاب والسنة وبالإجماع، كما قال الله جلَّ في علاه: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء:104].

قال: والإيمان بالقدر؛ نقف عنده.

القدر هذا من أمتع أبواب العلم، لمن رق قلبه ورق طبعه، واستطاع أن ينظر بدقيق الإتقان مع حسن الظن واليقين، ومعرفة الكمالات لله جلَّ في علاه يتقن هذا الباب. لأن هذا باب دحض مزلة، ما أدخل عقله عبدٌ فيه بحال من الأحوال إلّا وضل، ومن آمن

به إيماناً حقاً كان من أسرع الناس طاعة ومن أعظم الناس ثباتاً على الحق ومن أرضى الناس عن الله جلَّ في علاه. لذلك أنت ترى أبو بكر يقول يعلنها صراحةً: ما ازددت اجتهاداً إلّا بعدما تعلمت أبواباً من القدر. لِمَ؟ لأنه قال: (كلٌ ميسرٌ لما خلق له). لمّا تجد نفسك الله خلقك في قالب وأنت لا تخرج عن هذا القالب، فتحسن الظن بالله جلَّ في علاه، فتقول هذا القالب الذي خلقني الله له، فتسرع فيه وتبقى عليه ثابتاً، وأيضاً فيها الرضى عن الله جلَّ في علاه.

أولها ما أسسه عمر، وآخرها ما فهمه عمر (عمر الأول غير عمر الثاني)؛ أولها ما أسسه عمر بن الخطاب قال: لا أبالي أصبحت على نعمة أم بلية، فكلٌ له عبادة، أنا عبد، فكل ما يعتريني هناك عبادة صبرٌ أو شكر. وعمر بن عبد العزيز ماذا قال؟ قال: أصبح هواي في قدر الله، أنا ما أتمتع إلّا ما اختاره الله لي، لأنه ما اختار لي إلّا الخير. انظر بالله عليك أين نحن من هؤلاء؟ نحن أشباح بلا أرواح، وصلوا إلى هذا كيف؟ هذه القلوب. لذلك نقول دائماً حتى في الإيمان المسألة دائرةٌ على نقاء القلب ورقة الطبع. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس: الإيمان بالقدر خيره وشره

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفا، وبعد:

إخوتي الكرام بوابة العلم إتقان العقيدة، لا سيما وإن كانت الحاجة إلى عقيدة السلف ماسة. اختلط الحابل بالنابل، وأصبحت عقيدة أهل البدعة والضلالة هي عقيدة أهل السنة والجماعة، والعكس بالعكس. ولا أحد يعرف أين العقيدة النقية الصافية التي كان عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان عليها الصحابة الكرام.

لذا وجب ضرورةً إظهار هذه العقيدة، لأن هذا المعتقد الذي به النجاة والذي به التمكين، ولأن الله جلَّ وعلا لا يرضى عن العبد حتى يكون على مثل ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وما كان عليه الصحابة الكرام، نسأل الله أن نكون جميعاً من هؤلاء. لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال: (تفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار (جزماً الآن) إلّا واحدة)، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: (الذين ما أنا عليه اليوم وأصحابي)، فنسأل الله أن نكون كذلك.

والإمام مالك كان يقول: لن يصلح هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها؛ لا يمكن بحال من الأحوال إلّا أن تسير على نفس النهج، لا سيما وأن هذا الكلام كلامٌ متينٌ رصين، وعلماؤنا لا يأتون بهذه الحكم إلّا بعد الاستقاء من الآثار، لأنهم يلزمون أنفسهم بآثار النبي -صلى الله عليه وسلم-. لذلك ترى الحكم التي تخرج منهم كلها مستقاة من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يؤخذ من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء).

فنسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلنا من هؤلاء، وأن يثبتنا على الحق، وأن يميتنا على الإسلام، وأن يثبت الإيمان في قلوبنا، وأن يغفر لنا الزلات والسقطات والهنات.

نبدأ في الكتاب الذي بين أيدينا في شرح اعتقاد السلف:

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه. قال الشيخ -رحمه الله تعالى-: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره.

قوله: والإيمان بالقدر خيره وشره؛ كأنه يقول: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة، الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة، الذين هم على مثل ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وما كان عليه أصحابه الكرام الإيمان بالقدر خيره وشره.

والحق بأن الإيمان بالقدر أمرٌ جلل، ولأنه دحض مزلة، ومن خاض غماره وأدخل عقله زل وضل، وقد زلت فيه أفهامٌ كثيرة وضلت فيه أقدامٌ كثيرة. القدر هو من الغيوب، والأصل في الغيوب الاستسلام؛ قال الله جلَّ في علاه: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) [البقرة:3]. ولذلك قال علماؤنا: الغيب سرٌ من أسرار الغيب لا يعلمه ملك مقرب ولا نبيٌ مرسل، فهو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه.

إذ القدر هو قدرة الله؛ فقدرة الله جلَّ في علاه أنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، قدرة الله أنه كتب ذلك ولا يحيد أبداً فعل العبد عن كتابة الله جلَّ في علاه. (أخرج كتاباً فقال: هؤلاء من أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء ذرياتهم، ثم أجمل على ذلك، لا زيادة ولا نقصان. وأخرج كتاباً في شماله وقال: هذا كتاب بأسماء أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء ذرياتهم، ثم أجمل على ذلك. فرغ ربكم من العباد).

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في جنازةٍ ومعه عصا ينكت بها، فقال الرجل: يا رسول الله أرأيت ما نعمل الآن أهو فيما مضى وانقضى أم هو فيما يستقبل؟ يعني الأمر أنف؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا فيما مضى وانقضى)، قال: ما

العمل؟ إذاً يتكل كل واحدٍ منا على كتابه الذي قد انقضى ومضى، قال: لا. وهذا ارتباط السنن الكونية تبين لك ذلك في هذا الباب.

لذلك أقول من آمن حقاً بالقدر كان أشد الناس اجتهاداً في عبادة الله جلَّ في علاه، فالقدر ليس مدعاةً للتكاسل ولا التقاعس. فقال: يا رسول الله أفنتكل على كتابنا؟ قال: (لا اعملوا، فكلٌ ميسرٌ لما خلق له).

وهذا ربط الغيب بما أنت فيه، كأنك تقول من سنن الله الكونية أنه إذا وفق لك الطاعة وقد يسر عليك أبواب الطاعة وفتح عليك أبواب الطاعة فأنت الذي خلقت لهذه الطاعة. لذلك أنت لا تستغرب ولا تتعجب بأن بعض علمائنا الذين يقولون بأن العالم الفلاني هذا عبدٌ خلقه الله له، خلق لله، لذلك لا يرى شيئاً في حياته إلّا ما كان لله.

ابن تيمية يقولون ما كان يعرف الفرق بين الدرهم والدينار، يتكفله أخوه، ما يعرف شيئاً، هو ليس بالحياة، جسده في الحياة وروحه في السماء، ما يعيش إلّا لقال الله قال الرسول. لذلك أنت ترى لاقى ما لاقى من الشدة واللأواء، ولاقى ما لاقى من أعدائه، ولم يعبأ بشيء بل زادهم نكايةً عندما قال: ماذا يريد أعدائي بي؟ أنا جنتي في قلبي، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن سجنوني فسجني خلوةٌ بربي، وإن نفوني فنفي سياحة، جنتي في قلبي. هو ما يعيش إلّا لله جلَّ في علاه، لذلك كان من أجمل ما قيل في ترجمة الإمام ابن تيمية أنه قال: عبدٌ خلقه الله له. فالحاصل بأن القدر مدعاة للعمل والاجتهاد في العمل.

فالقدر قدرة الله جلَّ في علاه، وأن الله جلَّ في علاه قد كتب مقادير الخلائق من قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، وهذه لها أدلة؛ قال الله جلَّ في علاه: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، مكتوب. قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، "كل" نص في العموم.

لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج آدم موسى، حج آدم موسى، حج آدم موسى)؛ وهذا الحديث فيه فوائد جمة، بدع من الفوائد. (قال موسى -عليه السلام-: أنت آدم؟ أنت أبو الأنبياء؟ أنت أبونا الذي أخرجتنا من الجنة؟ فقال له آدم -عليه السلام-: أنت موسى؟ موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أنت الذي اصطفاك الله برسالته وخط لك التوراة بيده؟ قال: نعم، قال: أرأيت أن الله جلَّ وعلا قد كتب عليّ ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: اللهم نعم)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينها: (فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى).

المعاني في هذا الباب بأن آدم -عليه السلام- احتج بالقدر، وقال: تلومني على أمرٍ قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فأقرّه موسى، فلمّا

أقره موسى كانت الحجة مع آدم، فاحتج آدم بالقدر، وكانت له الحجة في ذلك على أن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

لا يمكن أن يصح أن يقال بأن موسى -عليه السلام- لامه على المعصية. أقول لكم أولاً اللوم على المعصية لا يكون إلّا من أجل الشرع، انتصاراً للشرع، لكن لوم الشخص على المعصية مع التثريب هذا ليس من دأب الصالحين، فضلاً عن أن يكون من الأنبياء والمرسلين.

النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد، ولا يثرّب) تعرفون معنى "ولا يثرّب"؟ يعني لا يحقّر لا يقبّح، قال: (ولا يثرّب). فإن زنت المرة الثانية: (فإن زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرّب)، ثم قال: (فإن زنت الثالثة فليجلدها الحد ولا يثرب)، قال: (فليبعها ولو بظفير من حبل).

هذا ليس من فعل الصالحين، وأيضاً يأثم من عيّر بمعصية قد تاب منها العبد، يأثم من عيّر أخاه بمعصيةٍ قد تاب منها. وهنا آدم -عليه السلام- مجزوم به أنه تاب؛ قال الله جلَّ وعلا: (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) [البقرة:37]. العلماء يقولون جزماً بأنه بعد التوبة نزل منزلةً عند ربه فوق المكانة التي كان عليها قبل أن يعصي ويتوب، وهذه حكم من الله لمن يقع في معصية ليتوب منها. فما كان لموسى أن يعاتب على المعصية بحال من الأحوال.

لكن ابن القيم استخلص أمراً جللاً في هذا الباب، قال: القاعدة عند أهل السنة والجماعة أن الاحتجاج بالقدر على المعايب لا يجوز؛ يعني أنا أقول أنفذ إرادة الله جلَّ في علاه، إذا احتج بالقدر على المعصية هذا فعل الجبرية. ماذا قال الله جلَّ في علاه؟ (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) [الأعراف:28]. نحن ننفذ إرادة الله جلَّ في علاه بالجبر. فلذلك قال: لا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ المعايب لا يحتج بالقدر عليها.

وابن تيمية قال: ويستثنى من هذه القاعدة إن تاب منها؛ إن تاب منها له أن يحتج بالقدر، كتبها الله عليه، قال: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا مدركٌ ذلك لا محالة). فإذا تاب منها وجهة النظر هنا، لِمَ؟ هو هذا إذا اعترف الآن نفذ هرب نجا من الجبر، هو اعترف أنه الفاعل، هذه معصية مني، أنا فعلت. وانكسر قلبه فتاب، فلمّا تاب له أن يقول كتبها الله عليّ، حتى أنا الفاعل لكن الله قدّرها لأنه لا يكون في الكون إلّا ما قدّره الله جلَّ في علاه.

فإذاً (حج آدم موسى)؛ في هذا دلالة على ما نحن فيه وبصدده، بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة.

وأصرح من ذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنه لمّا خلق الله القلم قال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)؛ كتب كل شيء، والقرآن، كل شيءٍ مكتوب في اللوح المحفوظ. فالقدر هو تقدير الله جلَّ وعلا لمقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة.

أصل الإيمان بالقدر وأسه وأساسه وركنه الركين محض التسليم؛ (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم-)، "من رضي بالله رباً" هو الركن الركين هنا في هذا الباب. إذاً الأصل في هذا الباب هو القول الصحيح والسديد بأنه لا يمكن للإنسان أن يستتم له الإيمان بالقدر إلّا بعد التسليم التام لله جلَّ في علاه، هذا محض اليقين في الله، بأنه القادر وأنه القوي الجبار وأنه ما أراده كان وما لم يرده لا يكون، هذا الأصل.

ويستتم أيضاً الإيمان بالقدر عندما تؤمن بأربع: بالكتابة والعلم والإرادة والخلق؛ علم فكتب فأراد فخلق. هذه المراتب الأربعة التي لا يستتم الإيمان بالقدر إلّا بها. علم فكتب فأراد فخلق، هذه نسقٌ واحد يجعلك تتقن الباب.

١- علمٌ: بأن الله جلَّ وعلا يعلم كل شيءٍ، من قدرة الله كل شيء يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

- يعلم ما كان، وقص علينا ما كان، كل ما كان؛ قال: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [البقرة:43]، وقص علينا ما حدث مع نوح وقوم عاد وثمود، قص علينا كل ما كان.

- وما يكون؛ الله جلَّ في علاه قد أوحى به إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم-، إمّا في الحال وإمّا في المآل. لمّا ضرب الكدية النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا قال؟ (الله اكبر أعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض، كنوز كسرى وقيصر)، طبعاً المنافقون ماذا قالوا؟ يستهزءون يقولون: محمد يبشرنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقضي حاجته خالياً آمناً، وهم كان قد أحيط بهم إحاطةً محكمة، لكن الذين آمنوا ماذا قالوا؟ (قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) [الأحزاب:22].

لكن أخبر بما سيحدث وحدث، قال لسراقة وهو خلفه يريد الفوز بالمئة ناقة: (يا سراقة كيف أنت وأنت تلبس سواري كسرى؟)، وهذا خبر من النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما يكون. قال لابنته: (لا بأس على أبيك بعد اليوم، والذي نفسي بيده لا يترك هذا الدين بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل).

وما يكون على الغيب في الزمن البعيد، في زماننا نحن؛ أجلى شيء ترونه قد أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم- في زمننا هذا الفتن، من أجلى ما كان الدجاجلة كذابون

أفاكون، وليس العجب من كذبهم، العجب ممن يصدق الكذب؛ خرج هذا المهدي، والثاني ويخرج، وبعده يخرج، يعني المسألة الآن الكذب ظاهر. وفيها قال -صلى الله عليه وسلم- في مسند أحمد: (بين يدي الساعة سنون خداعة، يصدّق فيها الكاذب ويكذّب فيها الصادق، ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين، وينطق الرويبضة. قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة). وانتهى الموضوع هنا، هذه مطبقة في هذا الباب، فأخبر بها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بخلافة العباسيين، أن الخلافة ستكون في العباسيين، وقال للعباس كذلك، والناس تكون فيهم، وقد كان. وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً بما سيحدث من فتح القسطنطينية، ومحمد الفاتح فعل ذلك بفضل الله جلَّ في علاه. فالغرض المقصود كل ما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما يكون هذا على علم الله جلَّ وعلا، على ما يكون.

- وما لم يكن لو كان كيف سيكون؛ هذا من الممكنات والمستحيلات:

♦ من الممكنات ما يحدث في الدنيا، شيءٌ لم يحدث ولو حدث صوّرته كيّفيته، أخبرنا بها الله جلَّ في علاه تصدقونه؟ (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، سبحانه جلَّ في علاه. ماذا قال الله جلَّ في علاه عن المنافقين؟ قال الله جلَّ وعلا: (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) [التوبة:46]، هنا الآن يأتي الشاهد: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة:47]؛ هنا ما لم يكن لو كان كيف سيكون، هذه في الممكنات.

في الممكنات أيضاً في الآخرة؛ (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:27-28].

هذا مقياس لنا الآن؛ أنا أتكلم عن نفسي، كنت في ضيقٍ، فأنا بحثت تفريج الضيق، هذا لا يكون إلّا بأن ترجع رجوعاً تاماً فترفع يديك وتبكي وتنكسر: يا رب هذه المعاصي لا أعود، والله لا أعود، لو السيف على رقبتي لا أعود. بعدها بساعة انفرجت المسألة، بعدها بساعة المسألة عادت فوق ما كانت. هذا يعلم الله به حال الإنسان، يعني لولا أن يوفقه الله جلَّ في علاه لسبل النجاة وطريق النجاة لا ينجو. لذا تذكر دائماً (يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني لنفسي طرفة عين).

♦ وفي المستحيلات طبعاً قال الله جلَّ وعلا: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22].

٢- والثاني الكتابة؛ والكتابة طبعاً تعلمون إجمالاً ليس تفصيلاً، الكتابة كتابات:

◆ كتابة اللوح المحفوظ: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، ولذلك قال: (وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39]. الكتابة التي في اللوح المحفوظ "أم الكتاب" لا تبديل فيها ولا تغيير، ما كتب انتهى، وهذا الذي قال فيه عبد الله بن عمرو بن العاص: (خرج علينا النبي -صلى الله عليه وسلم- بكتابين قال: (كتاباً عن يمينه) هذا كتاب بأسماء أهل الجنة) خلاص انتهى، هذا مكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل، والقرآن مكتوب في اللوح المحفوظ.

◆ والكتابة العمرية: هذه الكتابة في صحف الملائكة؛ (أي رب الرزق؟ أي رب العمل؟ أي رب شقي أم سعيد؟ أي رب ذكر أو أنثى؟)، هذه تكتب وتكتب الصحائف أيضاً فيها.

◆ والكتابة العامية: هي في ليلة القدر، قال الله جلَّ وعلا: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [الدخان:4]. ابن عباس قال: في ليلة القدر يعرف الحاج ويعرف الميت ويعرف المولود، وكل شيءٍ يخط في ذلك في هذا العام، يخط في ليلة القدر.

◆ والكتابة اليومية: هي كتابة عندما يلتقي الملائكة في الصباح في الفجر وفي العصر، فيلتقون فيكتبون ويصعدون، (يعرج الذين باتوا فيكم إلى الله جلَّ في علاه).

وكل هذه الكتابات نابعة من كتابة اللوح المحفوظ؛ (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجاثية:29]. ولكن هناك فارق بين هذه الكتابات وكتابة اللوح المحفوظ؛ الفارق أن كتابات اللوح المحفوظ لا تتبدل بحال، وكتابات الملك قد تتبدل لقوله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رام (من أراد) أن ينسأ له في عمره ويبارك له في رزقه فليصل رحمه)، كأنه يكتب في صحف الملائكة بعمر معين، وبصلة الرحم يزداد.

والدلالة على أن هناك صحف يتبدل فيها الكتابة، أجلى الأدلة على ذلك داوود -عليه السلام-، هذا أجلى الأدلة على أن هناك كتابات تتغير. ظاهرة جداً: الله جلَّ وعلا مسح على ظهر آدم فأخرج ذريته، فقيل له: هؤلاء ذريتك، فنظر فوجد رجلاً بين عينيه نور، أعجبه هذا النور. ولذلك الأحاديث جاءت مصرحة به عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أعبد أهل الأرض لله جلَّ في علاه هو داوود). لذلك النبي قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: (صم يوماً وأفطر يوماً، هذا صيام داوود)، ثم قال: (لا فضل بعد ذلك). لأنه قال: (أفضل القيام قيام داوود، وأفضل الصيام صيام داوود).

فقال آدم: كم عمره؟ قالوا: ستون، قال: أعطوه من عمري أربعين. ومكتوب هنا الآن في الصحف كم؟ قال: أعطوه أربعين من عمري، فأخذ أربعين. إذاً مكتوبة في اللوح المحفوظ مئة، لكنها في صحف الملائكة مكتوبة ستون، فتبدلت أو ما تبدلت؟

وهذا الذي فقهه عمر؛ لمّا طاف عمر بن الخطاب بالبيت وبكى وقال: اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً (يعني في صحف الملائكة) فامحها واكتبني عندك سعيداً، ثم قرأ ليبين هذا الفقه الراقي عنده: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39]؛ (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ) في صحف الملائكة، (وَيُثْبِتُ ۚ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)، فيمحو ما يشاء ويثبت في صحف الملائكة، وعنده الذي لا تبديل فيه في أم الكتاب. هذه هي مسألة الكتابة.

٣- علم فكتب فأراد؛ وإرادة الله إرادتان: إرادة كونية وإرادةٌ شرعية

🌱 والإرادة الكونية لها ضابطان:

◆ الضابط الأول: أنها عامة، ومعنى قولي "عامة" يعني فيما يحبه الله وما لا يحبه الله. يعني يقدر ما لا يحبه؟ نعم يقدر ما لا يحبه، كيف؟ قلنا لأن ما لا يحبه تقديراً يؤول إلى ما يحبه سبحانه جلَّ في علاه. الإرادة الكونية تعم؛ عامة فيما يحبه الله كالتوحيد والصلاة ولصيام والحج، وما لا يحبه الله كالسرقة والقتل والكفر. هو لا يحبه فكيف يقدره؟ قلنا لأنه سيؤول إلى ما يحبه.

السؤال: دليلٌ واحد يثبت أنه قد يقدر ما لا يحب لأنه سيؤول إلى ما يحب؟

في التفصيل قال الله جلَّ وعلا: (وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي)، هذا الحديث عش معه واعلم كيف لو اعتليت هذه المكانة عند ربك كيف تكون، قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بأحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، بصره الذي يبصر به، يده التي يبطش بها، رجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)، الشاهد سيأتي (وما ترددت في شيءٍ أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته).

تصريح أم تلميح هنا؟ تصريح بالكره الآن، قال: (يكره الموت (العبد الصالح)، وأنا (الله المتكلم سبحانه جلَّ في علاه) أكره مساءته) قدر عليه ما يكره الآن، الشاهد قلنا (يكره الموت وأكره مساءته).

إذاً يكره لأنه سيقدر عليه الموت؛ قال: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ) [آل عمران:144]، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) [الزمر:30]، كتب عليه

الموت. أقول الله قدر على كل إنسان الموت، إذاً قدر عليه الموت وهو يكره ذلك، إذاً كتب الله ما يكرهه، قدر ما يكره.

الحكمة "العلة": لأن ما قدره وهو يكرهه يؤول إلى ما يحبه. فإن سألتموني وكيف يؤول ما يكرهه الله جلَّ وعلا إلى ما يحبه الله جلَّ في علاه؟ أقول لك: هو قال: (يكره الموت وأكره مساءته) لابد له من ذلك، الموت هنا يذهب بالمرء إلى أين؟ إلى لقاء الله، وإذا كان إلى لقاء الله وكان مؤمناً تقياً نقياً إلى أين يدخل؟ الجنة، بجوار من؟ النبي، يرى من؟ يرى الله جلَّ في علاه. إذاً الآن آل إلى ما يحب أم لا؟

لمّا يرى العبد المؤمن لحظة من لحظات الجنة يفكر في الدنيا وما فيها ولو كان ملك الدنيا بأسرها؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يؤتى بأفقر عبدٍ من أهل الجنة فيؤخذ ويغمس غمسة في الجنة، فيقول الله جلَّ في علاه: يا ابن آدم أمر بك بؤسٌ قط؟ أرأيت بؤساً قط؟ يقول: والله ما مر بي بؤسٌ قط وما رأيت بؤساً قط)، غمسه فقط في الجنة. اللهم ارزقنا جميعاً الجنة يا رب العالمين. (وأمّا الكافر فيؤخذ فيغمس في النار، فيقال: أمر بك نعيمٌ قط أرأيت نعيمٌ قط؟ يقول: والله ما مر بي نعيمٌ قط ولا رأيت نعيماً قط)؛ يؤول إلى ما يحب الله أم لا يؤول؟ يؤول.

إذاً هنا الإرادة الكونية هو تعميم المسألة أن الله يقدر كل شيء ما يحب وما لا يحب، ولأن ما لا يحب يؤول إلى ما يحب، حتى الشيطان سيؤول خلقه إلى ما يحب. ما هو الذي يحبه الله من الشيطان؟ الشيطان خير أم شر؟ كيف يؤول الشيطان إلى الخير؟ ليميز الله به بين الخبيث وبين الطيب. إذاً تقديره لما يكره لأنه يؤول إلى ما يحب، هذا الضابط الأول.

◆ الضابط الثاني: يقع لا محالة، الإرادة الكونية تقع لا محالة، ما أراده الله لابد أن يكون؛ (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء:16]، ما أراد الله لابد أن يكون في القضاء، (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) [فصلت:12]. لا مرد لا رد لقضاء الله، إذاً لابد أن يقع.

وهذه تسمى المشيئة.

وأما الإرادة الأخرى هي الإرادة الشرعية، ولها ضابطان أيضاً:

◆ هي خاصة ليست عامة، خاصة فيما يحبه الله جلَّ في علاه؛ الطاعة، الصيام، الصدقة، التوحيد، فقط في هذا تكون الإرادة الشرعية.

◆ والضابط الثاني مهم جداً: قد تقع وقد لا تقع، تركها الله (فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) [الكهف:29]، (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [الإسراء:23]. قد يقع وقد لا يقع، هذه الإرادة الشرعية.

٤- علم فكتب فأراد فخلق؛

وهذه قدرة الله وربوبية الله جلَّ وعلا؛ (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) [الحشر:24]، (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]. وهذه بالذات ردٌ على القدرية، الذين يقولون بأن الله لم يخلق أفعال العباد. وقال الله جلَّ وعلا: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)، "كل" نص في العموم، يدخل تحتها أفعال العباد، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96].

قال: الإيمان بالقدر خيره وشره؛ طبعاً هو أضاف الخير للقدر والشر للقدر.

عندنا إشكال هنا من شيخ الإسلام ابن تيمية، قال: الإيمان بالقدر خيره وشره. القاعدة عند أهل السنة والجماعة أنه لا يجوز إثبات نسبة الشر لله، هنا ابن تيمية أتى بها قال: الإيمان بالقدر خيره وشره، أخطأ أم لا؟ لا ما أخطأ، جاءت الرواية بذلك وإن كانت هذه الرواية فيها ضعف لكن الرجل يحذو حذو النص؛ قال: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره).

في قوله: خيره وشره؛ نسبة الخير للقدر صحيحة ليس فيها ثمة شيء. الحاصل هنا بالنسبة لمسألة القدر مسألة ليست بالهينة، الخير ينسب للقدر لأن القدر فعل الله، قلنا قدرة الله، فعل الله، وفعل الله كله كمال، كله خير. (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف:180]، ففعل الله كله كمال سبحانه جلَّ في علاه.

فيصح أن تقول القدر خيره، لكن الإشكال في شره؛ مع أننا نعتقد أن الله قد خلق الشر لكن لا ينسب الشر لله جلَّ في علاه، الشر هنا للمقدور لا للقدر، في المخلوق لا في الفعل، في المفعول لا في الفعل. الشيطان شر أم لا؟

حينما يكون فعلاً لله فهو خير لأن فعل الله كمال، لذا لا بد أن تعلم ما قدره الله عليك في كل الأحوال فهو خير، دعك من الشر الذي يصيبك به، هذا نسبي إضافي، لكن كفعل فهو كمال. فيكون الشر في المفعول، في المقدور، لا في الفعل، لأن الفعل فعل الله كله كمال. إذاً الشر للشيطان، لا في خلق الشيطان، خلق الشيطان كمال لأنه فعل الله، أما الشيطان ذاته فشر. قال الله جلَّ في علاه: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَٰهِ

النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) [الناس:1-4]، نسب الشر لمن؟ للوسواس، فالشر أصلاً ينسب للمفعول لا للفاعل.

إذاً نفهم في قوله: والإيمان بالقدر خيره وشره؛ يعني الخير هو الخير على العموم، ينسب لله جلَّ في علاه، لأن فعل الله كله خير سبحانه جلَّ في علاه. وأمّا الشر فهو للمفعول، للمقدور.

وقد بيّن الله جلَّ في علاه أن الأدب مع الله جلَّ في علاه، وإن كنت تعلم بأن الله قدر الشر وخلقه ضمناً مع الخلق عموماً، فإن نظرنا له، ننظر له بعينين؛ فإن نظرنا له بعين الفعل قلنا كمال لأنه فعل الله جلَّ في علاه، وإن نظرنا بعين الأثر (المفعول، المقدور) قلنا فيه الشر، ولكن ليس شراً محضاً، فيه شرٌ يؤول إلى خير.

وهذا أدبٌ جم أدبنا به الله جلَّ في علاه في كتابه؛ فأدبنا إبراهيم -عليه السلام-، وأدبنا النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأدبنا بعد ذلك من هم أفقه منا الذين هم أحسن مردوداً منا، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا جاءه وفد الجن وقرأ عليهم سورة الرحمن، قال: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن:13]، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما لي أرى الجن أحسن مردوداً منكم؟). قال: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، قالوا: ما من شيءٍ من نعيمك نكذب ربنا، فقال: (هذا أحسن مردوداً منكم). والأثر فيه ضعف، لكن أدبونا أيضاً بهذا الأدب.

إبراهيم ماذا قال؟ (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [الشعراء:78-80]، فهو نسب كل أفعال الخير له، وبعد ذلك لمّا جاء عند المرض قال: وإذا مرضت أنا، من باب أنه لا ينسب الشر لله جلَّ في علاه.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- علّمنا ذلك بأدب جم، عندما قال: (والشر ليس إليك)؛ لا ينسب إليك الشر بحال من الأحوال. أيضاً الخضر -سواء قلنا ولي أو قلنا نبي والراجح أنه نبي- أيضاً أدبنا بهذا الأدب، ماذا قال؟ عند الشر قال: (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) [الكهف:79]، وعند الخير نسب الخير لله جلَّ في علاه قال: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) [الكهف:82]. وأيضاً الجن قالوا ذلك؛ قالوا: (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ)، لم يسمَّ فاعله من الأدب، (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) [الجن:10]، فعند الرشد نسبها نسبةً صريحة لله جلَّ في علاه.

إذاً نسبة الشر لله جلَّ في علاه لا تجوز، وليس من الأدب وإن كان الله جلَّ في علاه قد خلق الخير والشر عموماً، ولكن عند الأدب أن تنسب الخير كله لله جلَّ في علاه، وإن قلت بالشر فيما لم يسمَّ فاعله كما قال إبراهيم: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ).

عندنا إشكال واحد بعد هذه القاعدة التي بيّناها من فعل إبراهيم -عليه السلام- والجن والنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في دعائه: (اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، واصرف عنا شر ما قضيت)، وأيضاً في الدعاء الآخر استعاذ من سوء القضاء وشماتة الأعداء. فإذاً عندنا الآن دليلان فيهما الإشكال؛ أنه قال: (واصرف عنا شر ما قضيت)، وقال: (أعوذ بك من جهد البلاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء)، فكيف نجيب عن هذا الإشكال؟

إذا أفردنا الكلام على القدر، أين الفرق؟ قال: (واصرف عنا شر ما قضيت)؛ يعني شر المقدور، شر المقضي. وسوء القضاء أي سوء المفعول، الأثر فقط، أما فعل الله كله كمال.

يبقى لنا شيء أخير وهو أن الركن السادس "ركن الإيمان بالقدر"؛ أن القدر داعياً للعمل، القدر ليس داعياً للكسل. لذلك قال أبو بكر: والذي نفسي بيده ما ازددت اجتهاداً إلّا بعد تعلم القدر.

انظر نوع فقه القدر ما قاله ابن عباس؛ عندما قال: (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [الأعراف:44]، ثم ذكر الله الصنفان: صنف أهل الجنة وصنف أهل النار، والصنف الثالث أهل الأعراف، لمّا نظروا إلى أهل الجنة قالوا: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) ثم قال: (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) [الأعراف:46]. هذه نسبة قدر، لأن ابن عباس نظر إلى القدر ففهم قال: لولا أن الله أراد أن يدخلهم ما طمّعهم فيها. هذه نسبة القدر في هذا الباب.

فالنظر للقدر ترى كيف أوزع الله في قلبك للطريق الذي تسير فيه، لذلك قلت لكم الفقيه هو الذي ينظر في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، فقال: لولا أن الله أراد أن يدخلهم ما طمّعهم فيها. والحق أن مآل أهل الأعراف إلى الجنة، فالقضاء والقدر داعيةٌ للعمل، لأنك ترى بأن الله جلَّ وعلا قد خلقك لشيءٍ وهو يسيرك على هذا الشيء.

أنت تركت بلدك ودفعت مالك، وأنت الآن تتحمل المشقة وتقرأ وتكتب وتأتي الدروس وتصلي وتقرأ ولك ورد من القرآن، كأن الله خلقك لهذا، فعض بالنواجذ على ما أنت فيه. نعمة وأي نعمة، وهل هناك نعمة تداني هذه النعمة؟ اللهم ثبت لنا هذا الخير ما حيينا أبداً، وإن أردت بقومٍ فتنةً فاقبضنا إليك غير مفتونين، اللهم عجل لنا بالقبض غير مفتونين يا رب العالمين إن أردت بقوم فتنةً يا أرحم الراحمين.

فإن وجدت ذلك فاعلم أن الله جلَّ وعلا قد يسر لك ذلك فتزداد اجتهاداً فيها، والدلالة على ذلك في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب لمّا رأى عمر ابن الخطاب ورأى أبا بكر، فقال لعلي بن أبي طالب: (أترى هذين هما سيدا كهول أهل الجنة، فقال علي: يا رسول الله أفلا ابشرهم؟ قال: لا). إن كانت لعوام الناس إذاً فيتكلوا، خلي الناس والعمل، لأنهم لا يفقهون هذه المسألة فقهاً عالياً. أمّا كانت في علي وفي عمر وأبو بكر يزدادون اجتهاداً لا يقفون البتة. وهذا الذي كان من أبي بكرٍ كما قلت أنه ازداد اجتهاداً بعدما علم أبواب القدر، لأن أبواب القدر المتقن في أبواب القدر ينظر نظرين ما هما؟

أنا سأقول لكم شيئاً لن تروه في أي كتب، النظر في القدر نظران: نظرٌ في الماضي ونظرٌ في المستقبل؛

- النظر في الماضي التسليم التام؛ وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن مت على غير ذلك فأنت في النار.
- ونظر المستقبل؛ (اعملوا فكل ميسرٌ لما خلق له).

وهذا الذي يجعلك في القدر تسير سيراً سريعاً إلى ربك جلَّ في علاه، تسلم بما مضى، وتحسن الظن في المستقبل.

بهذا نكون قد ختمنا هذا الباب لأنه من الأهمية بمكان لذلك أطلنا فيه.

إجابة سؤال: ابن عباس قال: القدر نظام التوحيد؛ فمن زعم إيماناً ولم يؤمن بالقدر فقد كذب فعله زعمه. إن شاء الله نكون بهذا وفينا الكلام عن القدر إجمالاً لا تفصيلاً لكنها من الأهمية بمكان. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السادس: الإيمان بما وصف الله نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا بفضل الله وبمنه وكرمه علينا مع الدرس العقيدة، وقد بينا قبل ذلك بأنه إتقان العلم مرهونٌ بالعقيدة، ومن استوت عقيدته صح فقهه وصحت طريقته، ومن انحرف عقدياً فلن تجد له سبيلاً. نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يعتقد اعتقاد النبي -صلى الله عليه وسلم- واعتقاد الصحابة الكرام. مع هذا الكتاب العظيم وهو عمدة في الباب وهو كتاب الواسطية:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،

قال المؤلف -رحمه الله-: ومن الإيمان بالله، الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصف به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

هذا ما قاله الإمام -رحمه الله تعالى-، يقول: ومن اعتقاد الفرقة الناجية، ومن اعتقاد السلف والطائفة المنصورة التي لا تزال ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة، بأنهم من اعتقادهم أو من إيمانهم الإيمان بالله جلَّ في علاه. قال: ومن الإيمان بالله جلَّ في علاه؛ و "من" هنا للتبعيض، لأننا قلنا بأنك في الإيمان بالله جلَّ في علاه: تؤمن بوجود الله، تؤمن بأسماء الله الحسنى، تؤمن بصفات الله جلَّ في علاه، تؤمن بربوبية الله، تؤمن بإلاهية الله جلَّ في علاه. فلذلك هو قال: ومن؛ و "من" هنا للتبعيض.

ومن الإيمان بالله جلَّ في علاه الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه؛ وهذا إشعارٌ لك بأن صفات الله جلَّ في علاه لا يمكن أن تكون إلّا توقيفية، وأنه لا يصل العبد إلى صفة من صفات الله جلَّ في علاه إلّا بما قاله الله جلَّ في علاه عن نفسه، بوصفه لنفسه، فالعقل لا مدخل له في ذلك. لا سيما وأن الأمر على الغيب؛ أنت لم ترَ الله، ولا جاءك أحدٌ قال أنه رأى الله ليصف لك صفات الله جلَّ في علاه، أو ليخبرك عن صفات الله جلَّ في علاه. فالأمر محض غيبٍ، والغيب لا تأخذه إلّا من الوحي.

لذلك قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ومن الإيمان بالله؛ الإيمان بما وصف به نفسه؛ هو الذي وصف به نفسه، وأنت لا تصف ربك جلَّ في علاه إلّا بما جاء عنه بالوصف سبحانه جلَّ في علاه في كتابه. فإذاً لابد أن نعلم بأن صفات الله جلَّ في علاه لها حدٌ، هنا الآن بالإشعار الذي بينه المصنف بأنها توقيفية، لأنه قال: في كتابه.

حتى لمّا ثنّى، ثنّى بأنه "ما وصفه رسوله"؛ والرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يرَ الله وهذا على التحقيق، كما قلنا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يرَ الله جلَّ في علاه لا في المعراج ولا غير المعراج، لم يرَ الله جلَّ في علاه. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- جازماً بذلك: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)، وهو ينزل تحت الخطاب، فهو لم يرَ الله، وإن رجّح الحافظ كلام ابن عباس وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى ربه جلَّ في علاه مرتين.

الصحيح الراجح أنه لم يرَ الله، لأن المستمسك له هو حديث: (نور إني أراه) مصحّف، والصحيح الراجح (نور أنّى أراه)، والدلالة على ذلك الرواية الأخرى المجلّية للمعنى، هذه الرواية قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رأيت نوراً) ويقصد بذلك الحجاب. فلم يرَ الله جلَّ في علاه، وفي قوله: (إنكم لن تروا ربكم) ينزل هو تحت الخطاب -بأبي هو وأمي-، كما بيّنا الخطاب للنبي خطابٌ للأمة، وخطاب من النبي للأمة ينزل تحته في هذا الخطاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)؛ فإذاً هو لم يرَ الله فلن يخبرنا عن صفات الله إلّا بما أخبره الله عن صفاته وحياً، فيكون الأمر الأصيل في هذا الباب بأن صفات الله توقيفية، وهي لا تكون إلّا بالكتاب والسنة. والعقل لا مدخل له في ذلك بحال من الأحوال، وإن كنا نرى بأن العقل في هذا يمكن أن يدرك بعض المجملات دون التفصيل. لذلك يقول الله جلَّ في علاه منكراً على من وصفه بما لم يصف به نفسه ولا رسوله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]، هذا من الكبائر، وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36].

في قوله: بما وصف الله به نفسه في كتابه؛ لو سردت الكتاب، وأنتم إن شاء الله من طلبة العلم الذين لا يفارقون كتاب الله جلَّ في علاه، عندما تقرأون الورد وتذهبون من أول الكتاب إلى آخر الكتاب ختاماً لكتاب الله، ستجد بأن الله جلَّ في علاه نوّع الصفات التي وصف بها نفسه؛ أثبت ونفى وجمع بين إثبات ونفي، وترى ذلك في كثيرٍ من الآيات كما سنبيّن.

فلمّا نقول أثبت إذاً له صفات ثبوتية أثبتها لنفسه، وفي صفات نفاها عن نفسه، وهناك صفات أثبتها ونفاها، يعني في حينٍ أثبتها وفي حينٍ نفاها.

وهذا يجمّل لك التصور الصحيح للكلام على صفات الله في الآيات كما سنبيّن بأن من صفات الله جلَّ في علاه ما ثبتت وأثبتها الله لنفسه، وهذه الصفات ثلاثة أنواع:

١- الصفات الثبوتية: وهي الصفات المعنوية (أهل الكلام يسمّونها معنوية)، وهي الذاتية الأزلية الأبدية التي لا تنفك عن الله بحال من الأحوال:

- كالعزة؛ (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) [الصافات:180].

- وكالحياء؛ قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً) [البقرة:26]، (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) [الأحزاب:53].

- كالحياة؛ في قول الله جلَّ في علاه: (الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) [آل عمران:1-2]، والحي اسم من أسماء الله يتضمن صفة الحياة.

الصفات المعنوية كما سنبين إن شاء الله في الإثبات.

وصفات أخرى، وهي صفات لا تنفك عن الله أيضاً، أزلية أبدية، صفات خبرية لا مدرك للعقل فيها بحال من الأحوال، الخبر هو الذي يجعلك تصف الله بها؛ كالعين، كاليد، كالساق.

إن شاء الله سنفصّل، أجمل فقط عندما تقرأ القرآن كيف تجد إثباتاً ونفياً.

٢- في النفي أيضاً تجد (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق:38]؛ (وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) هذا نفي. (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255].

٣- والصفات الثالثة ثبوتية سلبية: أثبتها لنفسه حيناً ولم يثبتها في حين آخر، هي صفات المقابلة.

الصفات الثبوتية التي ثبتت لله، أثبتها الله لنفسه في الكتاب، كمال من كل وجه.

الصفات التي نفاها عن نفسه هي نقص من كل وجه.

الصفات التي أثبتها ونفاها؛ فهي حين أثبتها كانت كمالاً، وحين نفاها كانت نقصاً.

الصفات التي أثبتها لنفسه كمالاً، والصفات التي أثبتها ونفاها كمال ونقص؛ كالمكر، ما قال بأن الله ماكر -حاشاه سبحانه جلَّ في علاه-، ولا أطلق على نفسه المكر، لا تجد مكراً أسند لله جلَّ في علاه إلّا مقابل لمكر الكافرين. قال الله جلَّ في علاه: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) [آل عمران:54-55]؛ لأنهم مكروا بعيسى وأرادوا صلبه وقتله، فمكر الله بهم فألقى الشبه على غيره،

لذلك كانوا في حيرة دائمة متعالية عندما قالوا: الوجه وجه عيسى والجسد ليس جسد عيسى!! اختلط الأمر عليهم.

لذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) [النساء:157]، واحتاروا واختلط الأمر بينهم، منهم يثبت ومنهم لا يثبت، حيّرهم الله جلَّ وعلا، فمكر بهم الله جلَّ في علاه. الآن فيها لفتة عظيمة علمية، فيها أمران: هم الآن يشكون في قتله، لا ينفون ولا يثبتون، لها وجهان من الفضل ما هما؟ فيها فائدتان:

- الفائدة الأولى أنه مكر بهم، ومن مكره بهم جعلهم في حيرةٍ عظيمة.

- الفائدة الثانية ليكتبوا عند ربهم أنهم قتلوه، يثبت عند الله جلَّ في علاه أنهم قتلوه فيبوئون بذنبه، وهذا من تمام المكر بهم. فهم بحق كتبوا عند ربهم أنهم قتلوه، وفي حقيقة الأمر أنهم لم يقتلوه. وهذا أيضاً يعضد لك مسألة العزم؛ أن العزم أصلاً يحاسب عليه المرء، وهم بالفعل صلبوا وقتلوا الشبيه، ما قتلوا عيسى -عليه السلام-، ولذلك كتبهم الله جلَّ وعلا أنهم قتلة لعيسى -عليه السلام-. اليهود قتلة عيسى -عليه السلام-، كتبوا عند ربهم بذلك، هم ما قتلوه حقيقة، ذنباً قتلوه.

زيدٌ دخل ليسرق اللؤلؤة الثمينة، ويعلم الخزنة، دخل وبعدما دخل أغلق عليه الباب، وحدث الإنذار، فتح أراد أن يأخذ اللؤلؤة ما استطاع، فقال يهرب أفضل من أن يعاقب، فهرب ولم يأخذ اللؤلؤة، يكتب سارقاً عند ربه أم لا يكتب؟ الآن هو عزم بقلبه وبالفعل على السرقة وحال دونها حائل، يكتب عند ربه سارقاً أم لا يكتب؟

هم فعلوا ذلك ذهبوا وألبوا عليه هؤلاء أهل الكفر (أهل الروم)، وأتوا به وجاءوا إلى مكانه ليقتلوه، فالملك أخذه على جناحه وصعد إلى السماء، فألقي الشبه على من معه أو ألقي الشبه على من معهم (على الروايتين)، فأخذوه حقيقةً وصلبوه حقيقةً. إذاً كتبوا عند الله قتلة أم لا؟ العزم هنا، ولذلك قال: (فإن لم يعملها فاكتبوها له حسنة) خذ التفسير قال: (تركها من جرّاي)، فهنا في فعل خير الآن الذي قلبها إلى حسنة. فهنا نقول مكروا ومكر الله.

وأيضاً في قوله جلَّ وعلا: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) [الطارق:15-17]. وإلّا فأنت لا ترى كيد الله جلَّ في علاه عندما قال: (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف:182]، (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) [الأنعام:44]، الأمر ظاهر في هذا الباب.

إذاً عندنا في صفات الله جلَّ في علاه عندما تتصفح القرآن تجد أن الله أثبت لنفسه صفات، ونفى عن نفسه صفات، وأثبت ونفى بصفات المقابلة. إذاً هذه أنواع صفات الله جلَّ في علاه، وإن سردت القرآن تجد من ذلك الكثير:

◆ الصفات الثبوتية:

١- الصفات الذاتية:

- قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]؛ أثبت لنفسه السمع وأثبت لنفسه البصر سبحانه جلَّ في علاه، وهذه كلها صفات الكمال. والسمع والبصر من الصفات الذاتية، لا تنفك عن الله جلَّ في علاه، أزلية أبدية.

- وقال الله جلَّ في علاه أيضاً في صفاته: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) [الفاتحة:1]، وذكر الأسماء يتضمن الصفات كما قلنا، ويتضمن صفة الرحمة سواء الذاتية أو الفعلية؛ الرحمن صفة ذات، الرحيم صفة فعل، (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) [الأحزاب:43].

- وأيضاً من ذلك في قول الله جلَّ في علاه: (وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [فاطر:14]؛ وهذا أيضاً على عمق العلم في هذا الباب أنه يجتمع مع العلم اللطيف والخبير.

٢- الصفات الخبرية:

- وأيضاً قال الله جلَّ في علاه مثبتاً له الصفات الأخرى (هذه الصفات الخبرية)؛ قال الله جلَّ في علاه: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، فأثبت لنفسه اليد، ويد الله تليق بجلاله وكماله سبحانه جلَّ في علاه. ولذلك هو بيّن الله جلَّ في علاه في هذا: (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) [يس:71]، قال الله جلَّ في علاه: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [يس:71]. فأثبت لنفسه صفة اليد سبحانه جلَّ في علاه، بل أثبت يدين، وكما ورد في السنة بأن الله جلَّ في علاه يوصف باليد.

فإذاً القرآن وصف الله جلَّ وعلا بأن له يد سبحانه جلَّ في علاه، فنصف ربنا بما وصف الله به نفسه وأي محرّف أي مؤوّل، أي منكرٍ نقول له قولاً واحداً أأنت أعلم أم الله؟ الإجابة الله، إذاً انتهى، لِمَ تدخل عقلك أنت في هذا الباب؟

- قال الله جلَّ في علاه عن سفينة نوح: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]، وقال الله جلَّ في علاه لموسى -عليه السلام- (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه:39]، وقال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48]، فأثبت لنفسه العين سبحانه جلَّ في علاه.

- وأثبت لنفسه الساق، قال الله جلَّ في علاه: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) [القلم:42].

وهذه الصفات تسمى الصفات الخبرية، الصفات هنا لا مدرك للعقل فيها بحال من الأحوال.

٣- والصفات الثالثة التي أثبتها لنفسه هي الصفات الفعلية؛ الصفات الفعلية هذه هي صفات يتصف الله بها حيناً ولا يتصف بها حيناً لأنها تتعلق بالمشيئة، يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. وقد تتعلق بالأسباب، وقد لا تتعلق بالأسباب، وفي الغالب أنها تتعلق بالأسباب.

- هذه الصفات جاءت في الكتاب أيضاً كما قال الله جلَّ في علاه: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ) [الزخرف:55]، ما كان الانتقام إلّا بعد الغضب، (فَلَمَّا آسَفُونَا) يعني بعدما أغضبونا، فهي متعلقة بالمشيئة. وهي أيضاً تتعلق بسبب الآن، لمّا أخذوا بسبب غضب الله جلَّ في علاه غضب عليهم، ولو غضب الله عليهم انتهى الأمر، إذا أراد الانتقام فلا رد لانتقام الله جلَّ في علاه.

- أيضاً قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، وهذا أيضاً من الصفات الفعلية لأنها تتعلق بالمشيئة، لأن الله جلَّ وعلا يحب المؤمنين ويبغض الكفار.

- وأيضاً أثبت لنفسه الكره وهي من صفات الفعل؛ (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) [التوبة:46]، أثبت الله لنفسه ذلك.

فهذا بالكتاب من الصفات التي أثبتها لنفسه.

◆ صفات منفية؛ وهناك صفات نفاها الله عن نفسه:

- كما قال الله جلَّ وعلا: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255].

- وأيضاً قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق:38].

وأيضاً الرد على هؤلاء الملاعين شر خلق الله، هم وأذنابهم من الروافض، اليهود ينسبون لله النقائص وهؤلاء الخبثاء الروافض ينسبون لله النقائص. حتى في أصول الفقه (في مسألة النسخ) هم يقولون بالنسخ، المعتزلة أرفع منهم درجة، المعتزلة هم أهل بدع يقولون لا نسخ، لأن النسخ يستلزم البداء، البداء تبدى لله كان وما كان. لكن الروافض يقولون هناك نسخ، وأثبتوا التبدي لله، يعني ما كان يعلم وعلم، وسمّوه قبل ذلك بالنقص ثم اكتسب كمالاً. أفراخ، نسل واحد، الأصل واحد "عبد الله بن سبأ".

فاليهود كيف وصفوا ربهم؟ بالنقص قالوا (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)، الله ماذا قال؟ (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64]، لذلك قال الله: (وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ) [البقرة:245]، إذاً نفى الله عن نفسه صفات النقص سبحانه جلَّ في علاه.

وأيضاً نفى عن نفسه قال: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) [يس:78]، كأنه استبعد ذلك قال: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) [يس:79]، فهذه الصفات التي ثبتت لله جلَّ في علاه.

هناك آداب بهذه الصفات أدبنا بها الكتاب، ما زلنا مع قول: الإيمان ما وصف به نفسه، هل حدنا عن الكتاب بشيء؟ كلها في الكتاب، والآداب أيضاً في الكتاب:

- من آداب أهل السنة والجماعة عند وصف الله بالإثبات لا بد من التفصيل، هذه آداب تتأدب بها مع ربك جلَّ في علاه، عندما تصف ربك بالإثبات تفصّل لأنه مدح وكمال، وتمدح في ذاته لترى كيف الله جلَّ في علاه يفصّل في ذلك، يفصّل في الإثبات سبحانه جلَّ في علاه.

- وعندما تصف ربك بالنفي لابد أن تجمل؛ وزاد الطحاوي من مليح ما قال في ذلك: أنك لو دخلت على أمير من الأمراء فقلت له: ما أروعك، أنت لست بزاني، أنت لست بسارق، أنت لست بكذاب، أنت لست بأعور، أنت لست بأحول. ماذا سيفعل فيه؟ لن يمر إلّا وتطير رأسه لأن هذا فيه سوء أدب، هذا تنقيص. لكن لو قال له: أنت الكمال لك ولا نقص فيك بحال، أنت جوادٌ كريم، أنت ذكاءٌ مفرط، أنت بهاءٌ. فالرجل يصعد إلى السماء بذلك ويعطيه من الذهب واللؤلؤ وما شابه سواء كان صادقاً أو كاذباً، ولله المثل الأعلى. أنت إذا أثبت ففصّل، أمّا في النفي فلابد أن تجمل أدباً.

- وأيضاً من الأدب الآخر عند النفي لا يصح إلّا بإثبات كمال الضد، ولِمَ؟ هذا أيضاً في القرآن، لا تجد نفياً قط إلّا وصاحبه كمال الضد لأننا نقول صفات الله كمال، فعندما ننفي لا بد أن يكون هناك كمال، لأن النفي المحض لا كمال فيه، فلا بد من إثبات كمال الضد. لذلك أنت ترى في القرآن نفس الأمر (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255]؛ نفى عن نفسه السنة والنوم لكمال حياته وكمال قيوميته سبحانه جلَّ في علاه.

فإذاً النفي لا بد أن يكون نفياً مجملاً مع إثبات كمال الضد؛ قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق:38]، هنا النفي لكمال قدرته خلق، والخلق لا بد أن يكون بقدرة سبحان جلَّ في علاه، لكمال قدرته فما يصيبه من إعياءٍ ولا تعب ولا لغوب سبحانه جلَّ في علاه. لذلك قال: (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ

الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة:255]، ولا يؤوده ولا يثقله لأنه عليٌ عظيم سبحانه جلَّ في علاه، فالنفي لا بد فيه من إثبات الكمال.

قال: الإيمان ما وصف به نفسه في كتابه؛ الكتاب المقصود به القرآن، وأطلق عليه الكتاب لأمور:

الأمر الأول أنه مكتوب في اللوح المحفوظ، لأن (الله جلَّ وعلا أول ما خلق القلم قال: اكتب، قال وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، وما هو كائن يوم القيامة هو أن الله أوحى إلى نبيه بهذا القرآن، فالقرآن مكتوب في اللوح المحفوظ.

وأيضاً هو مكتوب في الصحف التي بين أيدينا، لا سيما إن كان على الرسم العثماني فيما وصل إلينا بذلك على مسألة التواتر، فلذلك كان مكتوباً، فهو مكتوب في السطور وأيضاً محفوظ في الصدور، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ.

هناك كتابات أخرى:

- كتب الله كتاباً خاصاً هو عنده فوق العرش: (رحمتي سبقت غضبي).

- والله كتب التوراة بيده سبحانه جلَّ في علاه.

قال: وبما وصفه به رسوله؛ هنا إضافة الرسول لله جلَّ في علاه إضافة تشريف، رفعه الله جلَّ وعلا عن البشر بالرسالة. والرسول كما قلنا هو نبي وزيادة، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- هو خاتم الرسل، لذلك هو أعلم الناس بالله، هو أعلم الأنبياء بالله، وهو أعلم الأنبياء بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وسيتم له العلم يوم القيامة بأن الله يوحي إليه بأسماءٍ أخرى وصفات أخرى يتمدح أو يتم بها الثناء على الله جلَّ وعلا وهو ساجد عندما قال: (أستأذن على ربي، فيؤذن لي فأخرّ ساجداً، فأحمده بمحامد علمنيها الآن)؛ الآن وهو ساجد أتته هذه المحامد، هذه دلالة أن لله أسماء لا عدد لها ولا إحصاء، ولا تحصى بحال من الأحوال. فالرسول -صلى الله عليه وسلم- رفعه الله عن البشرية بالرسالة، ورفعه عن الرسل بأنه سيد الأولين والآخرين.

قال: وبما وصفه رسوله في سنته؛ وهذه دلالة واضحة جداً على أن هذه السنة أيضاً وحي، أين وجه الدلالة من قول المصنف: ورسوله؟ لأن الصفات من الغيب لا ندركها، ولا هو يدركها -بأبي هو وأمي- إلّا إذا رأى الله. هل رأى الله؟ لا، إذاً لا يخبرنا إلّا عن وحي.

وجاء أيضاً في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- بإثبات صفات الله جلَّ في علاه بأنواعها الثلاثة.

بإثبات: بالقول أثبت لله جلَّ في علاه ونفى عن الله؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً)، هذه صفات سلبية نفاها عنه، (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) [الأعراف:7]، نفى عن الله الصمم والغيب. ولذلك أنت ترى قال: (سمع الله لمن حمده)، قالت عائشة: سبحان من وسع سمعه الأصوات، يخفى عليّ بعض حديثها، فأنزل الله جلَّ وعلا: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) [المجادلة:1]. (أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً)، فالله جلَّ وعلا شهيد قال: (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ)، هذا نفي الآن.

قال: (إنما تدعون سميعاً بصيراً) فأثبت لله السمع والبصر، وقال: (إن الذي تدعون لهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)، وهذا أيضاً صفة القرب أثبتها لله جلَّ في علاه، ونحللها بعد ذلك بالصفات الذاتية والفعلية، وأيضاً الصفات السلبية.

وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم- من الصفات القولية: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، ويحتج بها الإمام أحمد بن حنبل على أن الكلمات الله هي صفة من الصفات، لأنه أضاف الكلام لله، والمضاف لله نوعان:

١- إضافة معاني: عزة الله، رحمة الله، قدرة الله.

٢- إضافة أعيان: الكعبة بيت الله مستقلة بذاتها؛ عيسى روح الله.

إضافة الأعيان إضافة مخلوق للخالق، كل الخلق مخلوق لله جلَّ في علاه فلِمَ هذا؟ للتشريف، زيادة تشريف، (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) [الشمس:13]، عيسى روح الله. وأما المعاني فهي إضافة صفة للموصوف: كلمات الله.

لذلك قال: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)؛ أثبت الكلام لله جلَّ في علاه، وأيضاً في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (هذا حديث سبب نجاة ابن تيمية): (يحشر الله الأولين والآخرين فيناديهم)، والنداء لا يكون إلّا بصوتٍ وحرف، قال: (فيناديهم بصوتٍ) فالله يتكلم بصوت.

لذلك القاضي لمّا سمع ابن تيمية قال: أنت تشبّه، فقال له: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يحشر الأولين والآخرين فيناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب)، قال القاضي: رد علي ما قلت، فقاله مرة ثانية، قال: من قال لك؟ قال: الرسول، قال: قم لا شيء عليك. إذاً الله يتكلم بصوت، قال: (يناديهم)، وهذا في صحيح مسلم، (يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب).

وفي النفي ترى بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، حجابه النور (في رواية: حجابه النار)، لو كشفه لأحرقت

سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)؛ إذاً هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أثبت لربه صفات ونفى عنه صفات.

قال: بغير تحريفٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيل؛ هذا إن شاء الله نفصله في الدرس القادم.

إجابة سؤال: نقول: (سمع الله لمن حمده)، وهذا يبين لك نوعاً من أنواع السمع وهو سمع الإجابة، يثبتون السمع يقولون هذا من الصفات المعنوية التي قد أثبتها العقل، من السبع صفات التي يثبتونها يثبتون السمع والبصر والحياة.

إجابة سؤال: التأويل ليس مرفوضاً كليةً وليس مقبولاً كليةً، إن دلت عليه القرائن نعمل بها، لولا حديث أبي سعيد الخدري في قول الله جلَّ وعلا: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) [القلم:42] لقلت أن هذه الآية لا تدل على ساق الله، وورد عن ابن عباس وإن كان السند ضعيف قال: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ) شدة هول الموقف. كشفت الحرب عن ساقها معروف، لكن ما الذي جعلنا أن نثبتها صفة؟

حديث أبي سعيد الخدري قال: (فيأتيهم فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، يقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لست بربنا، فيقول: بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: اللهم نعم، فيكشف عن ساقه فيخرون سجداً). هنا أضاف الساق إثباتاً لذات الله جلَّ في علاه. فالتأويل وارد بشرط ما هو؟ القرائن.

عروة لمّا قال له: ما أرى حولك إلّا أوباشاً من الناس أو قال: أشواباً (أخلاطاً) سيفرون عنك عما قريب، ماذا قال ابو بكر؟ قال: نحن نفر عن رسول الله، ثم قال كلمة أشد ما تكون عند العرب، هي قريبه من قوله: (فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا). هم لمّا يسبون أحد يذكرون اللات، فكلمة شديدة قال له هذه الكلمة، فعروة يعني ما استطاع يتحمل، فقال: من القائل؟ قالوا: أبو بكر، فقال لأبي بكر: لولا يد لك عندي ما كافأتك بها لرددت عليك. ما معنى "لولا يد لك"؟ يعني إحسانه، من أين عرفت ذلك؟ تأويل، القرينة تؤول، حملتنا على التأويل. إذاً نحن لا نرد التأويل كليةً ولا نقبله كليةً، فإذا جاءت القرينة أثبتت لنا أن المراد من قوله هذا، قلنا به. سبحانك ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

العقيدة الواسطية

الدرس السابع: وصف الله لا يتجاوز القرءان والسنة من غير تحريف ولا تعطيل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وكفى وسلامٌ على عبده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد:

إخوتي الكرام ما زلنا مع أشرف العلوم على الإطلاق، وشرف العلم يُعرف من شرف المعلوم، وليس أحدٌ أشرف من الله جلَّ في علاه بالكلام على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، والكلام على العلوم التي بها غذاء الروح والتي يكون المرء قد تذوق بها طعم الإيمان. فإن القلب إن تعرَّف على الله حق التعرُّف أنس به، وخضع له وانكسر قلبه انكساراً فيه سجدة لا يرتفع بعدها أبداً، يكون من أعبد القلوب لله جلَّ في علاه.

وكما قلنا هذا حقاً بوابة العلم، بوابة العلم اتقان العقيدة، والانحرافات العقدية تؤثِّر لزاماً في الانحرافات الفقهية. نسأل الله تعالى أن نكون على عقيدة السلف التي جعل الله بها النجاة وجعل الله بها السداد والفلاح والفهم والرشاد، كما بيّن ذلك علماؤنا، وكما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قال: (افترقت اليهود على واحدٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وقال: افترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة. قالوا: من يا رسول الله؟ من هذه التي تنجو من الثلاثة وسبعين فرقة؟ فقال: الذين كانوا على ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

وأصل ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- هو صحة الاعتقاد، وأصل ما سار عليه على هذا الدرب هم الصحابة الكرام على اعتقاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى نهجهم نسير. لذلك قلنا بأن الطائفة المنصورة وأن السلف، إن نظرنا إلى الحقبة الزمنية فهم القرون الخيرية الثلاثة. وإن نظرنا للمنهج فكل من انتهى بهذا المنهج وكل من اعتقد بهذه العقيدة فهو من السلف، ومآله مع السلف ويحشر مع السلف، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يحشرنا مع نبينا والصديقين والشهداء والصالحين.

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

شرح كتاب العقيدة الواسطية لمؤلفه -رحمة الله عليه- حيث قال:

ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ. بل يؤمنون بأن الله سبحانه وتعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11].

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ولا يُلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيّفون ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه وتعالى لا سمي له ولا كفء له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره.

الكلام هنا على اعتقاد السلف واعتقاد الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، كما بيّنا قبل ذلك بأنهم يصفون الله بما وصف به نفسه سبحانه جلَّ في علاه في كتابه، على قول الله جلَّ في علاه: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) [الصافات:180]، وقول الله جلَّ في علاه: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، وقول الله جلَّ في علاه: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]. فهي يدٌ حقيقية، وهذه اليد الحقيقية هي تليق بجلال الله وكمال الله وعظمة الله وبهاء الله. وهي عينٌ حقيقية تليق بجلال الله وكمال الله وعظمة الله جلَّ في علاه، قال: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه:39].

وعزة الله جلَّ في علاه من الصفات الذاتية، وفي قول الله جلَّ في علاه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5] من الصفات الفعلية التي بيّنا تفصيلها الأسبوع الماضي. ووصف رسوله -صلى الله عليه وسلم- ربه بالصفات، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً)، فأتى بالصفات السلبية والصفات الثبوتية.

وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله إذا أحب عبداً)، من الصفات الفعلية. (إن الله إذا أحب عبداً نادى في السماء أن يا جبريل إني أُحب فلان فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء فيحبونه، ثم يكتب له القبول في الأرض)، يعني عند أهل الصلاح فقط.

فالغرض المقصود بأن الكلام في مسائل الاعتقاد هي مسائلٌ عزيزة، مسائلٌ مهمةٌ، جديرٌ بكل طالب علم أن يتقن هذه الأبواب وألّا يتساهل فيها. فنقول بأن المصنف قال: بما وصفه رسوله من غير تحريف، كأنه يقول: وانتبه، أنا ألفت الانتباه فانتبه، فإن عقيدة السلف في هذا المضمار وهذا الأمر أمرٌ جلل. لأنهم يصفون الله بما وصف به نفسه سبحانه جلَّ في علاه، وبما وصفه رسوله -صلى الله عليه وسلم-، بقيودٍ وشروطٍ حتى نقون بأننا حقاً على اعتقاد السلف.

قال: من غير تحريف، وهنا ألفت الانتباه إلى دقة نظر الإمام -رحمه الله تعالى-، فإنه لم يقل من غير تأويل، ولكن قال: من غير تحريف. فهذه من دقة النظر ودقة القلم أيضاً، وضع الشيء في موضعه أو في محله، لأنه يعلم بأن حقيقة الأمر أنه هذا ليس تأويلاً، إنه تحريف كما سنبيّن.

لذلك نقول بأن التحريف: قد يكون لفظياً وقد يكون معنوياً، والتحريف اللفظي غير متواجد. وشيخ الإسلام نفسه يرى بأن التحريف في الأمم السابقة كن معنوياً لا لفظياً، والصحيح الراجح أنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه لفظياً ومعنوياً، لكن هو من منهجه كان يرى بأن التحريف كان تحريفاً معنوياً فقط. ونحن نقول بأن التحريف اللفظي في أمتنا غير متواجد، لأنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً بالنسبة للكتاب أو بالنسبة للسنة، حتى في هذا الباب التحريف الحق الذي نراه هو التحريف المعنوي، ليس التحريف اللفظي.

التحريف المعنوي الأصل فيه هو التأويل، والتأويل على ثلاثة مراتب، حتى نبيّن هذه المسألة تنجلي ونعلم أي الكلام الذي يقصد ابن تيمية في مسائل التحريف. فالتأويل على مراتب ثلاثة:

١- التأويل كما قال علمائنا يأتي ويُقصد به ما يؤول إليه حقيقة الأمر، كقول النبي -ﷺ- (قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر). فهناك وصف الله جلَّ في علاه في الجنة فيها فواكه، فيها الموز، فيها العنب. فأنت تعلم الآن لكن عندما ترى حقيقة الأمر تعلم المفارقة، ولذلك ابن عباس قال: ليس ما بين الجنة والدنيا إلّا الأسماء، اتفاق في الأسماء فقط. فحقيقة الأمر لا تكون بعد ما تشاهد، أنت ترى عين اليقين ثم بعد ذلك تدخل فتأكل فيكون حق اليقين، ولذلك الله جلَّ في علاه بيّن لنا فيما يؤول إليه الأمر.

هم يسمعون ليل نهار بأن عقاب الكفر النار، (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) [الكهف:29]، وهذا ليس بالتخيير كما يفهمه البله السفهاء. ليست هذه الآية على التخيير، هذه الآية على التهديد. البله السفهاء يقولون حرية الاعتقاد!! الله تعالى ما خلق الخلق ليتحرروا من عبادته، بل خلق الخلق لتكون في رقبتهم رقة العبودية له، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:51]، قال ابن عباس: إلّا ليوحِّدون.

فالآية أصالةً للتهديد، لا للتخيير على ما يقولون في هذا الباب. فيكون العقاب بعد ذلك العقاب فيها على نار جهنم، يقول الله جلَّ في علاه بما يؤول إليه الأمر: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:27-28].

ولذلك ترى بأن الله تعالى قال: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) [الأعراف:53]، فهنا الآن يروا تأويله الذي عليه حقيقة الأمر، وهذا لا يعلمه إلّا الله جلَّ في علاه. ما أحد يستطيع أن يزعم أنه

يعلمه بحال من الأحوال، لا نبي مرسل ولا ملك مقرَّب في هذا الباب يعلم حقيقة الأمور هذه إلّا الله الذي قدَّرها وكتبها سبحانه جلَّ في علاه.

ولذلك قال الله جلَّ في علاه في مطلع سورة عمران: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) [آل عمران:7]، قف. حين قلنا حقيقةً أن تؤول إليه قف هنا، لا يعلم تأويله إلّا الله. لا تصف، ما يصح الوصف ولا يجوز، لأنه ما أحد يعلم تأويله، إذا قلنا على تؤول إليه حقيقة الأمر.

٢- أمّا المرتبة الثانية فهي التفسير، التأويل هنا بمعنى التفسير، على ما قاله ابن عباس إن التفسير على مراتب أربعة:

- يوجد مرتبة العامة بأسرها تعرفها، وهذا رد على هؤلاء الأغبياء الذين يقولون بأن الله خاطبنا بما لا نعقل، كأننا نقول لو عقلنا ذلك يكون كفراً. نعوذ بالله من الخذلان.

- ومرتبة التفسير التي لا يعلمها إلّا الخاصة الذين اطلعوا على الآثار.

- وهناك تفسير يعلمه أهل اللغة الذين أتقنوا أبواب اللغة.

عامةً بالنسبة للتأويل بمعنى بالتفسير بقول النبي عندما احتضن ابن عباس فقال: (اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل)، فالتأويل بمعنى التفسير. ولذلك ابن عباس كان يقرأ الآية في قوله جلَّ في علاه: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) [آل عمران:7] يصل، والعطف هنا اشتراك، يعني الراسخون في العلم يعلمون تأويله. فكان يقول عن نفسه: وأنا ممن يعلم تأويله، وهو ترجمان القرآن. وهذه غير مقصودة عندنا في الباب.

٣- الثالثة وهي المهمة، لأن التأويل هنا هو ما جاء فيه وتمسك به هؤلاء الذين حرَّفوا الكلمة عن مواضعه، وهو صرف اللفظ عن ظاهره. هذه المرتبة الثالثة، هذا الذي نحن بصدده الآن الذي عبَّر عنه ابن تيمية بأنه تحريف. وهذا له مراتب ثلاثة، أو قل الطوائف الذين ينظرون إلى التأويل: غلو وجفو ووسطية عدول (ونحن بصدد الوسطية العدول):

♦ الأول: هناك في الغلو ممن يقول بالتأويل بلا دليل:

وطبعاً الطائفة التي تصدَّرت الباب في هذا هم أخبث خلق الله الروافض، هؤلاء الذين يأتون بالآية يقولون هذه دلالة على إمامة علي بن أبي طالب، الآية لا من بعيد ولا من قريب تتكلم عن مثل هذا. يأتون أيضاً على قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً) [البقرة:67]، تعلمون ما يقولون، فنتأدب نحن ولا نتكلم، لعنة الله عليهم

صباح مساء، اللهم أنزل عليهم لعناتك وسحائب اللعائن ليل نهار. ونسأل الله جلَّ في علاه أن ينتقم منهم على ما يفعلونه ويقولون في الصحابة الكرام وفي أمهات المؤمنين.

وهذا الغلو في صرف اللفظ عن ظاهره بالتأويل هذا، هذا كفرٌ مستقل. لأن هذا يسمّى تلاعب، لا دليل لهم عليه. لمّا يقول: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً) [البقرة:67]، قالوا فلانة، ما الدليل على ذلك؟ لا يوجد. فهو كذَّب الله، ما أوّل الان، لو أوّل لا بد له من مسوّغ، هذا تلاعب بكتاب الله.

كفرٌ لأنه بهذا يكذِّب الله جلَّ في علاه، يتلاعب بكلام الله جلَّ في علاه، (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:14]. هم قالوا عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، هذا كفرٌ مبين هذا، هذا كفر مستقل بهذا. هذا تلاعب محض في هذا الباب، هذا تلاعب محض من كلام الله جلَّ في علاه، وقد قال الله تعالى: (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:14]. هذا يدخل من باب الاستهزاء، والاستهزاء ليس به ثمة إقامة حجة ولا إزالة شبهة. قال: ما نرى مثل إخواننا أرغب بطوناً ولا أجبن عند اللقاء. كلام سيل الركب، مسامرة السفر. وماذا قال؟ ما أكثر عليهم النبي، (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) [التوبة:65-66]. فالمسألة هي كفر مستقل إذا قال بذلك.

♦ والثاني: التأويل الذي له دليل، ولكنه ليس صريحاً، ليس مسوّغاً لهم في التأويل. عنده دليل، لولا الدليل الذي عنده لكفر. عنده دليل وعدم وضوح الدليل، ليس صريحاً، لو ما لا دليل لوضعناه في مصفّ الروافض. وبالمثال يتضح المقال؛ كأن يأتي إلى قول الله جلَّ في علاه: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ) [الزخرف:55]، "فَلَمَّا آسَفُونَا" يعني فلمّا أغضبونا. قال: لا الله لا يغضب، الغضب هذا غليان العروق وانتفاخ الأوداج، لا، هذا معناه إرادة العقاب.

نقول لهم: أين المسوّغ؟ قالوا: يوهم التشبيه. فطبعاً ما أتوا بدليل صريح، عندهم بعض المسوّغات لهذا. تقول: قال الله تعالى: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، يقولون: قدرة الله فوق قدرتهم. لأنهم يقولون اليد تأتي بقدرة، يقولون ضرب بيدٍ من حديد يعني بقدرةٍ وبقوةٍ قوة بطش. يعني عندهم مسوّغٌ من اللغة، وهذا ليس بصريح.

ولابد أن نقول لننصف لِمَ ما وضعناهم في مصفّ الروافض؟ لأننا نقول بحق أننا نبحث عن مراد الله، وأنت مأمور شرعاً أن تبحث عن مراد الله. ولذلك الشافعي كان يقول: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. فأنت تبحث بالأدلة على المسألة المهمة التي يكون فيها الوصول إلى غلبة الظن بأن هذا هو مراد الله جلَّ وعلا. فهم يزعمون أن مراد الله هو ذاك، ونحن نزعم غير ذلك. هم الآن بما أتوا من التأويل، هذا التأويل الذي أتوا به له

مسوّغ. لذلك قلنا لمّا لم تكن المسوّغات عندهم صريحة وواضحة، قلنا هذا هو التحريف بعينه. إذا لم يكن له مسوّغٌ ظاهرٌ واضحٌ صريحٌ، فهذا التحريف.
قال الله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، قالوا "اسْتَوَى" بمعنى استولى.
ما عندكم؟ قالوا عندنا بيت من لغة العرب تثبت ذلك:
استوى بشر على العراق *** من غير سيفٍ ولا دمٍ يراق
وطبعاً هو البيت لنصراني أصلاً ليس من العرب، ليس من العرب أصالةً. لذلك نحن نقول نحن ندين الله أن العرب على الوضع لأن اللغة العربية على الوضع، وضعها الله جلَّ في علاه، ليست على الاستراح، هي على الوضع.
فهو يقول الآن أنت تجعل هذا البيت حاكم على القرءان؟ دعك من ذلك الآن، أنت قلت:
استوى بشر على العراق *** من غير سيفٍ ولا دمٍ يراق
نحن معك الآن، هنا استوى بشر على العراق بمعنى استولى. ونحن نقول بذلك لأن السياق والسباق واللحاق بيّن ذلك، السياق من المفسرات. قال: من غير سيفٍ ولا دمٍ يراق، دلالة واضحة جداً السياق هنا، دلت الدلالة هنا على أن المعنى في الاستواء هو الاستيلاء.
وأين هذه الدلالة، أين هذا هذه المسوّغات في الآية: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]؟ بل لوازم ذلك كفر، يعني لو أنت محصّت النظر وأنت لا تلتزم باللوازم، هو أصلاً من قال بذلك لا يلتزم باللوازم، نحن الآن نوضّح فقط.
نقول أنت عندك حتى السياق لم تصل إليه، اللوازم على هذا كفر. معنى ذلك أن الله جلَّ في علاه استولى على شيءٍ إمّا أن لم يكن ملكاً له وإمّا أن كان ملكاً له فسُلِب ثم استرده، وفي الحالتين كفر لأنه وصف لله بالنقص ولا يستحق أن يكون رباً من يكون مغلوباً، فقلنا إذاً هذا تحريف. تسمّونه تأويلاً، تسمّونه جمالاً، تسمّونه روائع، سمّيه كما شئت لأن النبي قال: (يأتي زمان على أمتي يشربون الخمر ويسمّونها بغير اسمها). فإذاً هذا التحريف، أمّا الآخر للروافض الخبثاء الباطنية الذين يقولون (**) ظاهر وباطن هذا كفر مستقل.

طالب يسأل: التأويلات يعني يفلت منها المجتهد إمّا شرعية أو لغوية؟
الإجابة: طبعاً لا بد إن كان في مسوّغ، والمسوّغ ما بالقرائن، والقرائن إمّا أن تكون شرعية وإمّا أن تكون لغوية وقد تكون عرفية. فتكون هذه مسوّغات معتبرة، لها اعتبار وهذا الاعتبار الذي جعلها لا تتجرأ على تكفيره بها. ولمّا يقول معنى اليد معناها النعمة، عنده مسوّغ من اللغة؛ "لولا يدٌ لك عندي ما كافأتك عليها". أمّا الثاني هذا الذي أضل من بعير أهله، هؤلاء الذين كما قلنا يقولون بالظاهر والباطن للقرآن، هذا الذي نسمّيه إذاً تحريف. وهذا الكلام ليس على طريق السلف وسنبيّن.

إذاً هناك تأويلٌ له مسوّغٌ، لكن المسوّغ ليس صريحاً وليس دقيقاً وليس صحيحاً. لو قلنا أيضاً، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله ينزل ثلث الليل الآخر إلى السماء الدنيا)، ينزل؟ نعم ينزل. من الذي وصفه بالنزول؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- بالوحي، وصفه أعلم الخلق به أنه ينزل: (إن الله ينزل ثلث الليل الآخر إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داعٍ فستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستشفٍ فأشفيه؟)، يأتي السامع فيقول: تنزل الملائكة. أين المسوّغ الآن؟!

أنا أقول لك: الملائكة في كل سماء تعبد الله جلَّ في علاه، الملائكة الذين يعرجون والذين يصعدون، إذا صح التعبير. فمن أتيت أنت في الليل الآخر الملائكة تنزل؟!! أين المسوّغ؟ ألم يقل النبي: (الذين باتوا يعرجون فيكم)؟ ألم يقل الله تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر:10]؟ من الذي يرفع العمل الصالح، أليست الملائكة الذين يتعاقبون فيكم ويتقابلون في الفجر والعصر؟!
(ينزل ربنا)، قالوا تنزل رحمته!! وهناك لوازم شديدة لا يتقبلونها وهي: تنزل الرحمة، تقول إذاً الرحمة لا تنزل إلّا في ثلث الليل الآخر!! ما في رحمة، يقتلون بعضهم البعض إلى ثلث الليل الآخر. وبعدها تنزل الرحمة ثم الرحمة هي التي تقول: هل المستغفر فأغفر له؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟!! المشكلة الكبيرة أننا لو قلنا بالتأويل الآخر (تنزل الملائكة)، يعني المَلَك يغفر؟! ويأخذ بالذنب ويغفر؟! هذا هو يصبح لازم، والمَلَك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.
وهذه اللوازم التي لا يستحضرونها، وهي اللوازم التي تبيّن بطلان هذا التأويل. لذلك قلنا تأويلٌ ليس بتأويل، بل هو تحريف. أرأيت العالم النبيل، ينقّي لك العقيدة، يقول لك هذا ليس اعتقاد السلف أبداً، وسنبيّن. إذاً هذا لا يسمّى تأويلاً، هذا يسمّى تحريف. التأويل على ما جاء عن أهل السنة والجماعة، وهو التأويل الذي له مسوّغ.

♦ الثالث: التأويل الذي جاء وفيه مسوّغ صريح يبيّن مراد الله جلَّ في علاه.

وهذا فيما جاء عن علمائنا الذين قالوا في قول الله جلَّ في علاه: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) [البقرة:115]، مع الوجه هنا ذكر تصريحاً مضافاً إلى الله جلَّ في علاه، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف، لكن هو قال: (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) يعني: فثمَّ جهة الله، القبلة.

فحول قالوا في ذلك، التفسير باللازم، ما الذي ألجأه أن يفسر باللازم؟ (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) [البقرة:115]، فهو هنا كان الذكر بأسره كان على القبلة، السياق والسباق كله في الكلام على القبلة. وهنا (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) في السفر، كأنه قال: وفي السفر في كل اتجاه هذه القبلة، وقد ورد الأثر بذلك.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في السفر إذا صلى، كما في حديث أنس قال: (حيثما توجهت به راحلته). فصحّ لنا أن نقول وجاز لنا أن نقول (فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)؛ ثمَّ جهة

الله، لأن التفسير موجود، السياق مفسرٌ مبيّنٌ للمراد، فهذا التأويل الصحيح. وهو التأويل الآن، لم نرفضه كليةً، ولم نقبله كليةً.

أيضاً لو ضربنا مثال على ذلك:

- (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]، ليس فيها تأويل، هي إثبات للعين حقيقةً مع إثبات اللازم. ما الذي ألجأنا نفسر باللازم؟ السياق، وهنا هذا الدليل المسوّغ لنا في التأويل.

- قالوا الجمع للتعظيم، هذا صحيح: (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) [يس:71]، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ) [الحجر:9]. ولذلك كان يتمسك بها النصارى يقول بالجمع، قلنا الجمع هنا للتعظيم.

أنا أقول الحق في هذا الباب، نقول آية صريحة جداً، قال الله جلَّ في علاه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [المجادلة:7]. السياق والسباق هنا جعلنا لا نقول بأن المعية هنا تستلزم الاختلاط، فنقول هنا المعية هنا على قول السلف الصحيح هي معية العلم. لأنه السياق مفسِّر لذلك؛ صدّر الباب بالعلم وختم بالعلم، فالمعية هنا معية العلم.

إذاً لا بد أن نقول بأن التأويل الذي قالوا بأنه تأويل هو تحريف، لذلك قال: اعتقاد السلف من غير تحريف، كما بيّنا على أمثلة التحريف. لذلك لنا أن نقول: وحال السلف مع النصوص الإثبات مع عدم التحريف، ونضرب بالأمثلة التي حرَّفها الآخرون:

- قال الله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، قالوا استوى بمعنى علا.
- وأيضاً قال الله جلَّ في علاه: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، قالوا هي يدٌ تليق بجلال الله وكمال الله، سبحانه جلَّ في علاه.
- (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14] أثبتوا العين بها.

هذا فعل السلف، وهذا ظاهرٌ لك حال السلف مع النصوص. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لجابر: (يا جابر، أتعلم أن الله قد كَلَّم أباك كفاحاً؟) كيف اعتقد جابر؟ هل أوّل وقال كلامٌ نفسي أو قال هذا كلام مخلوق؟ ماذا قال؟ قال: (كَلَّم أباك)، ففهم منها جابر بأن الله قد أكرم أباه وأن أباه قد سمع كلام الله جلَّ في علاه. (قال: ما تريد؟ قال: أن أُردّ إلى الدنيا فأُقتل في سبيلك).

لمّا دخل اليهودي قال: يا محمد، إن الله -يوم القيامة- يحمل الثرى على ذا ويحمل الجبال على ذا ويحمل الأرضين على ذا، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبتسم مُقِراً. قال

المتهوّكون يبتسم مُغضباً مُنكراً، يعني لابد أن تكون مجنوناً حتى تقبل مثل هذا الكلام. وابن مسعود نفسه يقول: بأنه أقرّ بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبيّن على عظمة الله (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:14]. فالصحابة جميعاً لما سمعوا ذلك قبلوها بلا تحريف.

إذاً يصفون الله بما وصف به نفسه في كتابه وصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم- من غير تحريف، وكما قلنا بأن هذا التحريف جناية عظيمة على الآيات وعلى الأحاديث (على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-)، وفيها لوازم ثلاثة:

- التحريف هذا معنى ذلك بأنهم يحرّفون الكلم عن مواضعه.

- الثاني بأنهم يُجهّلون النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأنه معنى أنهم يأتون بشيءٍ ولم نرَ بأن النبي قد تكلم به ولا أتى به كأنهم يجاهلون يُجهّلون النبي -صلى الله عليه وسلم- ، أو أنه لم يبيّن ووظيفته البلاغ مع البيان. (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) [النحل:44]، ولم يبيّن، وهذه جناية على الشرع.

- وأيضاً فيها تجهيل للصحابة، لأنه من اللازم لذلك التجهيل للصحابة، لأنهم لا يعقلون ذلك ولا يعرفونه.

قال: من غير تحريفٍ ولا تعطيل.

التعطيل في اللغة معناه الترك، قال: (وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ) [الحج:45]؛ متروكة خالية. والمراد بالتعطيل هنا عدم إثبات الأسماء ولا الصفات: وقد يكون تعطيلاً كلياً بعدم إثبات الاسم والصفة؛ لا كريم ولا كرم، لا قدير ولا قدرة، لا عليم ولا علم. نعوذ بالله من ذلك. وهل يتصور عند العقلاء ذاتاً دون أوصاف؟ أبداً.

يقولون محمد مر: كان أسمر؟ كان أبيض؟ كان طويل. بالفطرة تتكلم بهذا، من غير الممكن تتعرى عن الصفات. أو التعطيل الجزئي؛ بإثبات الاسم ويفرّغونها من الصفة، يقولون كريم لكن بلا كرم، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع.

قال: من غير تعطيل. فأهل السنة والجماعة لا يعطِّلون، يثبتون لله الأسماء ويتعبدون لله بها. وهذا هذا الإثبات المطلوب أصالةً، وهو إثباته مع إثبات حقيقته، مع التعبُّد به لله جلَّ في علاه، وأن يظهر أثره على العبد. ويثبتون الصفات ويتعبدون لله بها، يتوسلون بها وهذا تعبُّد. كما قال الله جلَّ في علاه: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) [الصافات:180]، فيصفون الله بالعزة. وبالرحمة، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً يقول: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين).

والناس بالنسبة للتعطيل أيضاً طوائف ثلاثة:

١- تعطيل محض وهذا فعل الجهمية، الذين يعطِّلون الاسم والصفة، إنكار الأسماء والصفات. والجهمية عند أكثر أهل العلم من المتقدمين أنهم كفرة، وإن كان ابن تيمية يقول: علماؤهم دون العوام، ويقولون يحتاجون إلى إقامة حجة وإزالة شبهة. لكن تعلمون ابن المبارك وابن عيينة وأحمد يكفرّونهم كثيراً ظاهراً في هذا الباب.

(يرجى الانتباه أن الشيخ ذكر الطائفة الثالثة ثم عاد للثانية)

٢- تعطيل المعنى؛ هذا نوع تعطيل عند المفوّضة، هذا نوع تعطيل عند المفوّضة، هؤلاء الذين يفوّضون المعنى والكيفية، وهؤلاء شر خلق الله في هذا الباب بعد الجهمية. ما معنى ذلك؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله إذا أحب عبداً نادى في السماء أن يا جبريل إني أُحِب فلاناً فأَحِبه).

فيقولون هنا الحب إذا سألناهم إن الله أحب فلاناً العبد التقي النقي، يقولون "أحب: همزة وحاء وباء"، هذا الذي نعرفه عنه. ما معنى أحب؟ المحبة كالتفاح لا تستطيع أن تفسِّرها، محبة الله جلَّ وعلا أمرٌ يستشعره الإنسان، وإذا أحب الله العبد رفعه وأكرمه. هم يقولون لا نعرف عن الحب هذا إلّا الهمزة والحاء والباء فقط، بلا معنى، فقط حروف انضمت لبعضها خرجت كلمة اسمها أحب.

هذا تعطيل الآن، الطائفة الثانية هي التي عطلتها، لم تجعل لها معنىً حقيقياً. تعطيل المعنى يعني يثبتها؛ يثبت القدرة، ما القدرة؟ يقول لك: قاف دال راء تاء مربوطة. العزة، يقول: عين زاي تاء مربوطة. ويقولون بأن هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة، التفويض، وسنبيّن إن شاء الله. فهؤلاء المفوّضة فوَّضوا المعنى والكيفية، يعني إذا فوَّض المعنى فقد فوَّض الكيفية، وتفويض الكيفية ممدوح غير مذموم، كما سنبيّن.

٣- وتعطيلٌ من نوعٍ آخر وهو إثبات الصفة على غير وجهها، على غير حقيقتها المراد منها، على غير وجهتها. الجناية هنا أن المفوّضة فرغتها عن المعنى، أمّا المؤوّلة جعلوها بمعنىً آخر غير المراد. يعني هم ارتقوا عن المفوّضة بأنهم جعلوا لها معنى، قالوا الكلمة لها معنى لكن حادوا عن المعنى المراد الحقيقي. أحب: أراد الثواب، أسِف: أراد العقاب، نزل: نزلت رحمته، جاء ربك: رحمة ربك. يعني الله لا يجيء، هم يقولون ذلك. فأوَّلها جعلوا لها معنىً غير المعنى المراج، هذا التجني هنا، وهذا نوع تعطيل.

ما العلاقة بين التعطيل والتحريف هنا؟ بينهما عموم وخصوص، يتفقان في مسألة إلغاء المعنى المراد وإتيان بمعنى آخر غير مراد. اليد: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، قالوا قدرة الله فوق قدرتهم، هذا نوع تعطيل، عطَّل المعنى الحقيقي وأتى بمعنى آخر.

(تلخيص لما سبق) 👇👇👇

الوقوف هنا مع التعطيل الذي نتكلم عنه:

١- التعطيل الأول (التعطيل الكامل): وهو إنكار الاسم والصفة. هذا التعطيل التام، التعطيل المحض.

٢- التعطيل الثاني هو تفريغ الاسم عن معناه، التعطيل هنا إلغاء المعنى المراد من الصفة، وهذا الذي يسمونه تفويضاً. وقالوا هذا التفويض هو عقيدة أهل السنة والجماعة، واستدلوا على ذلك بشبه ما ورد بسند صحيح عن ابن عيينة قال: أمِّرُوها كما جاءت. وعن الزهري وعن ابن عيينة قال: قراءتها تفسيرها، يعني عندما يقول الله جلَّ في علاه: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]، قال: قراءتها تفسيرها، ما تسأل عنها. قال الله جلَّ وعلا: (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) [يس:71]، قال: قراءتها تفسيرها، أمِّرُوها كما جاءت، لا تسأل، فهو يقول هنا الآن هذا هو التفويض التام، وورد عن أحمد كلام شبيه بهذا.

ولو أخذت بأصل الكلام عن السلف أنهم كانوا حقاً يفوّضون، لكن كانوا يفوّضون الكيفية لا المعنى. وأصل ذلك في قول مالك، رأس الباب، وإن كانت هذه المسألة أصالةً رووه حديثاً موضوعاً أو ضعيف جداً، وهو ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

انظر العجب! الكلام هذا أصله كلام ربيعة، ليس كلام مالك، الله تعالى ألصقه بمالك، طارت به إلى الآفاق لتعظيمه الأثر. لأن ربيعة وإن كان هو شيخ مالك وله ما له من الفضل، كان يميل للرأي. وأما مالك كان يلصق نفسه بالأثر، فانظر من التصق بالأثر كيف يكون، علو الذكر بالأثر.

فمالك قال: الاستواء معلوم غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. "الاستواء معلوم" يعني معلوم في اللغة، نعلم المعنى، فهو أسس لنا أنه لم يفوّض المعنى، عَلِم أنه علا. قال: والكيف مجهول، ولا بد أن نقف هنا. إذا قلنا بتفويض الكيف، لا يمكن لذاتٍ إلّا أن تكون لها صفة، لا تتعرى ذات عن الصفات. ولا يمكن أن تثبت صفة بلا كيفية، لا يمكن من صفةٍ تثبتها إلّا ولها كيفية.

والكيفية على حالين:

- كيفية ظهرت لنا وعلمناها بوصفٍ أو برؤيةٍ أو بخبر الثقة.
- وكيفية غابت عنا.

أمّا الكيفية الأولى فلا بد أن نقول بها وننظر بها ونفصِّل القول فيها، وأما الثانية التي غابت عنا لا بد أن نؤمن بها ولا نسأل عنها. وكيفية صفات الله ثابتة، فلله يد، كيف؟!

هذا غيب، يعني لها كيفية؟ نعم. يتكلم الله، له كيفية؟ نعم صفة الكلام لها كيفية. إذاً كل صفة لها كيفية لا بد، لكن هذه الكيفية غيب ومحض إيمان العبد أن يؤمن ويُسلِّم للغيب. ماذا قال عن وصف المؤمنين؟ (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة:3]، لذلك الصحابة قالوا نفوّض الكيفية.

لذلك لمّا قال الإمام مالك: والكيف مجهول، ما قال غير موجود، ما قال لا يوجد كيف. وفي رواية أخرى قال: والكيف غير معقول، يعني موجود لكن غير معقول لا نعلمه.

فهنا الإيمان محض التسليم، الله يجيء؟ نعم يجيء، كيف يجيء؟ الله أعلم لأنه غيب، هي صفة ذكرها كفيتها لا نعلمها غابت عنه. فلمّا غابت قلنا سلمنا لله، ومحض الإيمان (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة:3]. فأصَّل لنا الإمام مالك بأن المعنى لا يفوَّض، والكيف هو الذي يفوّض.

فوافقنا المفوّضة في تفويض الكيفية، وهذا هو الممدوح لأنه غيب. أمّا المعنى فلا، لأن من اللوازم أن الله خاطبنا بما نعقل، بل الله كلمنا لنعلم بمعنى نفهمه، (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:192-195]، "مُبِينٍ" ظاهرٌ جلي يُعرف. فإذاً خاطبنا بما نعقل، فلا نفوّض المعنى، لكننا نفوّض الكيفية. هذا منهج أهل السنة والجماعة، لا تعطيل، وتفويض الكيفية ليست تعطيلاً، أمّا التعطيل أن يفوض المعنى ويفوض الكيفية.

٣- ومن نوع التعطيل كما قلنا أيضاً التحريف.

فإذاً قال: من غير تحريفٍ ولا تعطيل. عامةً هذه الأصل في هذا الباب، فإننا نقول إذا كانوا قد قالوا كلاماً فيه البهتان والزور بأن "علم السلف أحوط وأسلم، لكن علم الخلف أحكم وأعلم"، هذا قول المجانين.

واعتذر عن هذا، هذا لأن الذي يتجنّى على مثل السلف، لا يصح له أن يقول بمثل هذا. معنى ذلك أنه يجهّل السلف، ومن جَهَّل السلف فهو جاهل، من جَهَّل الصحابة كأبي بكرٍ وعمر وعثمان فهو جاهل. لا نقبل منه هذا الكلام، نقول جهَّلت الأماجد فأنت جاهل. فعلم السلف ترى الإتقان والتطبيق وهم على تربية النبي لهم، فعلم السلف أعلم وأحكم وأحسن وأسلم وأحوط. وعلم الخلف إن لم يسيروا بعلم السلف فهم أضل، بالتصريح بالتلميح.

أنت الآن تضلل لي أبا بكر وعمر وعثمان وعلي، فكيف أقبله منك؟ ما أقبل منك ذلك.

الآن انظر في كل حال نرى غلو وجفو، والوسطية العدول هم أهل السنة والجماعة. ما بين الإنكار المحض وبين التفويض المحض، وما بين الإنكار الجزئي بالتعطيل، أهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء.

هذه النجاة، عندما يسألك ربك عن اعتقاد واعتقاد عزم القلب هنا عقدت عليه، عندما يسألك تقول قد قلت في كتابك وقد قال رسولك: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]. الثاني يقول قد قال فلان وفلان، الله تعالى كيف سيرد عليه؟ فمن الأسلم ومن الأعلم؟ إذ العلم فقط في الكتاب والسنة، لا علم إلّا في الكتاب والسنة. نقف عند هذه ونسأل الله أن يثبّت لنا هذه ما حيينا أبداً. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

العقيدة الواسطية

الدرس الثامن: ـ وصف الله لا يتجاوز القرءان والسنة من غير تكييف ولا تمثيل

ـ قول المصنف: "فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه"

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وكفى وسلامٌ على عباده الذين اصطفى لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد:

إخوتي الكرام ما زلنا بفضل الله بمنه وكرمه علينا، اللهم أدم علينا هذا الخير ما حيينا يا رب، اللهم أدم علينا هذا الخير ما حيينا أبداً، اللهم أدم علينا هذا الخير ما حيينا أبداً، اللهم لا تسلط علينا أحداً بذنوبنا، ومن لا يخافك فينا ولا يرحمنا. ونسأل الله ألّا يمكن أحداً من هذه المجالس بحال من الأحوال، وألّا يوقفها بحال من الأحوال، ونسأل الله أن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، نصرةً لدين الله جلَّ في علاه ونشراً لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ما زلنا مع أشرف العلوم على الإطلاق، وشرف العلم يُعرف من شرف المعلوم، وليس أحدٌ أشرف من الله جلَّ في علاه أبداً. فالشرف شرف العلم يُعرف من شرف المعلوم، والله جلَّ في علاه ليس أحدٌ أشرف منه، سبحانه جلَّ في علاه.

فأن نتعرف على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وعلى ربوبية الله جلَّ في علاه، هذا الاعتقاد إذا استقام، استقام العمل ولأنه يستلزمه، ولأن المقصود الأسمى هو العمل،

المقصود الأسمى هو التوحيد الإلهية. لكن لن يصل الإنسان إلى توحيد الإلهية إلّا بتوحيد الربوبية، العلاقة بينهما علاقة استلزام، فالمنهج العلمي الاعتقادي يستلزم المنهج العملي.

وإن كان المقصود الأسمى هو العمل، وإلّا فالاعتقاد كان موجوداً فلمّا اعوَّج ولم يكن على استقامته الصحيحة لم يكن العمل، لذلك قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5]. فنسأل الله جلَّ في علاه أن ييسر لنا إتمام هذا الكتاب الماتع، ونسأل الله أن يجعلنا وإيّاكم ممن يحرص حرصاً جديداً على هذه المجالس، أدام الله علينا وعليكم هذا الخير.

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد: فهذا مجلسٌ جديد في التعليق عبى كتابٍ في أصول اعتقاد السلف رحمهم الله.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصف به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ. بل يؤمنون بأن الله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يمثِّلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سميّ له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى.

ما زلنا مع اعتقاد الفرقة الناجية والطائفة المنصورة الظاهرة على الحق إلى يوم الدين، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

وقال: إن من اعتقاد الطائفة الناجية والفرقة فهذه الظاهرة على غيرها بأنها تصف الله بما وصف الله به نفسه في كتابه، وبما وصفه رسوله في سنته. وقلنا هذا هو بجلاء اعتقاد السلف، وهذا الاعتقاد الذي به النجاة، وهذا الاعتقاد الذي به الظهور على الجميع لأن النبي قد ربّى أصحابه على ذلك، فكانوا يعتقدون بعد الدليل، هنا الاعتقاد نابع من الدليل. وقلنا البون الشاسع والفرق الواسع بين علم الأعلم والأسلم والأحكم والأتقن السلف مع علم الخلف هو أن السلف كانوا يستدلون ثم يعتقدون، يرتبون الاعتقاد على الدليل لأنه هذه أمور الغيب وقفوا عندها لا حيدة، لا يستطيعون تجاوز ذلك بحال من الأحوال.

هذا الأصل في هذا الباب، وقد ضربنا على ذلك أمثلة كثيرة، لأننا قلنا بأن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يتحركون قدماً تعبُّداً إلّا بعد اعتقادٍ صحيح عند الدليل. (لمّا

دخل أبو رزين على النبي ﷺ، قال له: أو يضحك ربنا؟ فقال: نعم، فقال: إذاً لن نعدم من ربٍ يضحك خيراً). رتب بعدما اعتقد، وهذا كان على إثر الدلالة، فكان الأمر على الدليل.

فلذلك هم يصفون الله بما وصف الله به نفسه، ومن هنا قلنا بأن صفاتٍ الله توقيفية، وبأن أسماء الله توقيفية أيضاً كما سيأتي. وبما وصفه رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وقد ضربنا الأمثلة على ذلك.

أمّا في الكتاب فكما قال الله جلَّ في علاه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، وأمّا في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال النبي: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه). فأثبت ونفى؛ "إن الله لا ينام" صفات سلبية، وهذه لإثبات كمال الضد، وبعدما نفى أثبت قال: (يرفع ويخفض)، وهذه من صفات أفعال الله جلَّ في علاه.

الغرض المقصود بأن هذا اعتقاد السلف، فقالوا بإثبات صفات الله جل في علاه في الكتاب، وإثبات صفات الله جلَّ في علاه في السنة أو بإجماع أهل السنة. ولأن الإجماع لا بد أن يكون له مستند (الدليل)، والمستند إمّا كتاب وإمّا سنة، فرجع الأمر كله على ما قاله وأصَّله شيخ الإسلام هنا على أن الاعتقاد السديد هو أن تصف الله جلَّ في علاه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ثم قال: من غير تكييفٍ ومن غير تعطيلٍ، وهذا شرحناه أمس بالتفصيل. ثم قال: ومن غير تكييف، التكييف هنا أيضاً اعتقاد السلف أنهم بعد ما يثبتون، يثبتون بغير تكييف. لا بد أن نفهم مسألةً مهمةً هنا عند قولهم من "غير تكييف"، لا بد أن تقول هم هنا ما نفوا التكييف، ما ألغوا التكييف، في قولهم من غير تكييف ليس إلغاءً لوجود التكييف، المعنى ليس هذا إلغاءً للكيفية. هو إثبات الكيفية، يعني في كلامه من غير تكييف، وإن كان هنا ليس ثمة الدليل على ذلك.

يعني قلنا "من غير تحريفٍ" أو "من غير تعطيل" استقاها من الأدلة، وهنا "من غير تكييف" ليس هناك ثمة تصريح على المنع من التكييف، لكن هو مستنبط من الأدلة التي جاءت. بل قد أقول هو مصرَّح به في الأدلة: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11] يعني قد وقد، لأننا نقول بين التمثيل والتكليف علاقة اتفاق وافتراق؛ فكل ممثلٍ مكيف ولا عكس. لكن نقول من غير تكييف، هناك دليل على ذلك. يعني البعض يقول بأن هذا ليس عليه دليل تصريحي، أي أن يأتي ابن تيمية بهذه اللفظة "من غير تكييف". قلنا "من غير تمثيل" مصرح بها: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]. أيضاً "من غير تعطيلٍ"، قلنا بمسألة التعطيل.

التكييف هنا قد جاء في بعض الروايات النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تتفكروا في ذات الله، وتفكروا في خلق الله، فإن الله لا تصل إليه فكرة)، وقد حسَّنه بعض المتأخرين. فهنا الآن لمّا يقول: (لا تتفكروا في ذات الله)، هذه فيها دلالة واضحة جداً أن المسألة هنا على مسألة التكييف.

فهنا عندما يقول شيخ الإسلام: من غير تكييفٍ، ليس إلغاءً للكيفية، ليس نفياً للكيفية، هو إثبات للكيفية لكن مع إثباتها هي مجهولةٌ بالنسبة لنا، هذا الذي أراد أن يقوله. يقول مع إثباتها فهي مجهولةٌ لنا، نثبتها مع اليقين بأنها موجودة لكننا نجهلها لأنها من الغيب.

ما معنى التكييف؟ التكييف هو أن صور كيفية للصفة؛ مثلاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- (في الترمذي بسند صحيح): (رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أعلم. فوضع يده على صدري). من الذي وضع يده على صدره؟ الله.

قال: (فوضع الله يده على صدري حتى وجدت برد أنامله)، وصف الله باليد أولاً، وبعدما وصف الله باليد وصفه بالأنامل، قال: (فوضع يده على صدري، فوجدت برد أنامله، فقلت: في الدرجات والكفَّارات). عَلِم، لمّا وضع الله يده على صدره عَلِم، سبحانه جلَّ في علاه، فبعد ذلك أجاب. لكن الآن نقول بأن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- تصريحاً قال: (فوضع يده على صدري حتى وجدت برد أنامله).

هنا يأتي الرجل يقول يد وأنامل فيكيّفها، يكيّف الأنامل ويأتي لها هيئة فيتخيل هيئة معينة، هذا معنى التكييف.

فالتكيف أعمّ من التمثيل؛ التكييف هو إمّا أن يجعل لها مثلاً أو لا يجعل لها مثل، فهو في الذهن يكيّفه يهيئ الصورة يتصور صورة معينة لهذا. وهذا ضلالٌ مبين، بل قد يكون كفراً. أولاً "من غير تكييف" كما قلنا لهذا الحديث، الأمر الثاني التكييف لصفةٍ من صفات الله جل في علاه هو تكلُّفٌ وتقدُّمٌ بين يدي الله ورسوله.

والمكيِّف لصفةٍ من صفات الله جلَّ في علاه سواء جعل لها مثلاً أم لم يجعل لها مثلاً، هو نازلٌ تحت قول الله جلَّ في علاه: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]، وأيضاً هو نازلٌ تحت قول الله جلَّ في علاه: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36].

فأنت الآن تتكلم عن الله سبحانه وتعالى، وعن صفات الله جلَّ في علاه، فالأصل هنا نقول كل صفةٍ من صفات الله جلَّ في علاه لا بد أن تكون لها كيفية. لأن العقلاء اتفقوا على أنه لا ذات بلا صفات، ولا صفات بلا كيفية. لا يمكن أن تجد صفة بلا كيفية؛ يعني أنت لو قلت محمدٌ كريم، سأقول لك وكيف كرمه؟ يقولون كالسيل الجرار، لا

يمشي إلّا ويعطي يميناً ويساراً، يُعطي قبل أن يُسأل. محمد فصيح، وكيف فصاحته؟ النظم والنثر وأنت تصف الكثير.

ما يمكن أن تجد صفة إلّا ولها كيفية، وصفات الله لها كيفية لكنها من باب الغيب. وما دامت من باب الغيب فالديانة والاعتقاد الصحيح هنا أن أُسَلِّم، وأن أقول آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله.

فحينما أسمع قول الله جلَّ في علاه لموسى: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه:39]، تثبت العين لله جلَّ في علاه. لكن كيف العين؟ الإجابة السديدة عند معتقد أهل السنة والجماعة هو أن يقول للعين كيفية، لكني لا أعلم، هي من الغيب فآمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم-. هذا معنى التكييف. إذاً "من غير تكييفٍ"؛ فاعتقاد السلف أنهم يثبتون الصفة بغير تكيف مع عدم نفي التكييف.

ولذلك يأتي كلام مالك هنا المشهور الذي أثبتناه أمس بأنه كلام ربيعة، بل هو كلام أم سلمة. لكن الله جلَّ وعلا كرامةً لمالك وشدة تحريه للسنة، طار بها المطار نسبةً لمالك، لمّا سأله الرجل ودخل وقال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، فقال الرجل: كيف استوى؟ الرجل هنا لا ينكر الصفة، أثبتها وبحث عن الكيفية. إذاً أول الأمر أنه أثبت الصفة عندما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، ما أوَّلها. لكن هو يبحث عن كيفية الاستواء، هيئة الاستواء. قال: كيف استوى؟

اشتد الأمر على مالك حتى علاه (***)، ثم قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب. "الإيمان به" معناه أثبت أمرين: أولاً إثبات الكيفية ووجودها، وأثبت أن محل الإيمان أن تؤمن به على أنه من الغيب. قال: والإيمان به واجب، معنى ذلك فيها فائدة مهمة جداً عقدياً، لمّا يقول: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب.

قلنا أفاد فائدتين: الفائدة الأولى وجود الكيفية، الفائدة الثانية وجوب الإيمان بها.

ماذا نستفيد من وجوب الإيمان بها؟ التسليم للغيبيات، وهو لمّا يقول: والإيمان به واجب، معناها نفيها نفي للإيمان. وهذا الذي يجعلنا نقول بأن الذي ينفي الكيفية مفوَّض، لأنه فوَّض المعنى وفوَّض الكيفية فألغى الكيفية، وإلغاء الكيفية إلغاءٌ للإيمان. لأن الذي نفى المعنى من باب أولى ألغى الكيفية، فهذا من أنواع التعطيل الذي ينافي الإيمان. فانظر درر كلام الإمام مالك، قال: الاستواء معلوم (يعني في اللغة) والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

(ينزل ربنا ثلث الليل الآخر)، وأنت تعرف البدع كثيرة جداً في هذا الباب، النزول بالذات. كيف نزل؟ وهذا سؤال شف السؤال عنَّ لبعضهم من المتأخرين وقالوا: والسؤال بدعة لا نبحث عنه. ينزل ويخلو منه العرش؟!! هذا السؤال عن كيفية!! يعني لمّا يسأل هذا السؤال: أو ينزل ويخلو العرش؟! هذا السؤال بدعة.

وأسلم ما فيه أن تكف عنه، وإن كان فيه إجابات سنبيّنها. لكن السؤال عندما يطرح: أينزل ويخلو منه العرش؟ هذا التكييف. ولذلك أسلم ما قال ابن تميمة (وهذا كلام إسحاق بن راهويه): ينزل ويخلو منه العرش، لأنني أثبت (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وأثبت أيضاً أنه ينزل، وانتهى. وهنا سلمت وبرئت الذمة بأنني أدور مع الشرع حيث دار، ولذلك نقول ليس ببعيد لأن الله تعالى على كل شيءٍ قدير. ولذلك الذي يقول بالله ما ينزل، ما تقول بأن السماء تظله أو تُقِلُّه، كل مخلوقٍ يحتاج إلى الله.

إذاً التأصيل العام "من غير تكييف"، وهذا اعتقاد السلف بأنهم يثبتون الكيفية، ولكن يثبتون أيضاً أنها من الغيب الذي لا بد من التسليم له. فيثبتونها بقوله الاستواء في اللغة معلوم، والكيف مجهول وهو يثبته، والإيمان به وبوجوده وأعلم أنه غيب، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. فلذلك سلم للصحابة الكرام، وسلم للسلف الأماجد، سلم اعتقادهم في صفات الله جلَّ في علاه أنهم أثبتوها بغير تكييف. وما جاء عن السلف في قولهم: أمِرُّوها كما جاءت؛ يعني أمِرُّوها بعد علم المعنى بها كما جاءت ولا تبحثوا عن الكيفية. (لا تتفكروا في ذات الله ولا في صفاته، فإن الله لا تصله فكرة).

الألباني حسَّن الحديث، بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله أذِن لي أن أحَدِّث عن ملك ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه خفقان الطير كذا وكذا من السنين)، كذا وكذا من سنين طيران ولم يصل من شحمة الأذن إلى العاتق، أحد يصف لنا هذا الملك؟ لا تستطيع.

النبي -صلى الله عليه وسلم- رُعِب، قال: (دثِّروني دثِّروني، زمِّلوني زمِّلوني)، لِمَ؟ لمّا سئل قال: (سمعت صوتاً، أنظر يميناً لا أرى، يساراً لا أرى. فنظرت إلى السماء فوجدت الملك الذي كان يأتيني في غراء على كرسيٍ بين السماء والأرض).

صِف الكرسي بين السماء والأرض وهو كان جالس عليه؟ لا تستطيع. قال: (له ستمائة جناح)، أحد يعرف يصِف جناح واحد؟ بإبعاد الوصف قال: يَسُدُّ بجناحه الأفق. لا تستطيع أن تصف ملكاً، خلقاً من خلق الله جلَّ في علاه، فكيف بصفات الله العظيمة. لذلك نكل التكييف لله، وأنت لن تصل إليه بحال من الأحوال، فما عليك إلّا التسليم والإيمان كما فعل السلف الكرام.

قال: من غير تحريفٍ ولا تعطيل ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

قال: ومن غير تمثيل، وهذا أبدع فيه المصنف لأنه أتى باللفظة التي جاء بها القرآن. لأن الله جلَّ في علاه قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]، والكاف هنا الكاف زائدة وغير زائدة؛ معنى زائدة يعني في الإعراب، وغير زائدة لأنه لا يوجد في القرآن شيء زائد، هذه جاءت للتأكيد بهذا الباب. بأن الله تعالى لا سميّ له، لا نظير له، لا ند له سبحانه جلَّ في علاه.

قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، لذلك قال: من غير تمثيل. والتمثيل هو أن يقول صفة الله مثل صفة زيد، مثل صفات عمرو، مثل صفات كذا. وهؤلاء هم المجسمّة، الذين غالوا في الإثبات، جعلوا المسألة فيها مطابقة. أولاً في التمثيل؛ هم يقولون يد الله مثل يد زيد، عين الله كعين عمرو، نزول الله إلى السماء الدنيا كنزول محمد من كرسيه على الأرض. فإذاً هؤلاء مثَّلوا، هذا هو التمثيل.

والتمثيل يفارق التشبيه؛ التمثيل فيه مطابقة تامة لجميع الصفات، كاليد باليد. لا يخلو منه شيء، كل جميع الصفات منطبقة مطابقة تامة. التشبيه ممكن يكون مطابقة في أغلب الصفات، لا في كل الصفات. يشبِّهه في كل شيء إلّا لون العينين، زيد نراه توأم لعمرو، قال: الولد منطبق إلّا لون العين مثلاً أو إلّا الطول، هذا أطول من ذاك. هذه المشابهة، أمّا المماثلة الجميع. ففرق بين التمثيل والتشويه -كما قلنا-؛ التمثيل مطابقة تامة، وأما التشبيه في أغلب الصفات. والشرع جاء بالتمثيل: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

وهنا الصحابة الكرام لا ينكرون القدر المشترك بين الصفات؛ تقول إن الله وصف نفسه باليد ووصف باليد، إن الله وصف نفسه بالسمع والبصر ووصف عباده بالسمع والبصر كما سنبيّن. فهنا نظر طوائف أهل الإسلام لمثل هذا، لأن الله جلَّ وعلا قال: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، وقال الله جلَّ في علاه: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) [الإنسان:1-2]. قالوا سمع وسمع، التساوي في الاسم.

فالطوائف تنظر هنا:

- بعضهم قال تعطيل، قالوا لو قلنا "سميع وبصير و"سميع وبصير" إذاً لا سمع ولا بصر. لِمَ؟ فراراً من التشبيه أو التمثيل كما يقولون.

- وأما الآخرون قالوا "سمع وبصر" و"سمع وبصر"، المساواة. فقالوا سمع الله كسمع عمرو، وبصر الله كبصر عمرو.

وسنبيّن ضلال الفرقتين.

- وأمّا أهل السنة والجماعة الوسط العدول، قالوا نثبت سمعاً وبصراً لله، ونثبت سمعاً وبصراً للخلق، ولا ننفي قدراً مشتركاً. لماذا؟ لو لم يكن هناك قدر مشترك لا يمكن أن نقول بقول مالك: الاستواء معلوم.

ففي صفة السمع سنقول: والسمع معلوم، من أين علمت؟ تقول: القدر المشترك علمني. إذاً معنى أن أقول لا بد في قدر مشترك هذا الذي يؤدي به إلى إتقان إدراك المعاني، ثم نقول وهذه صفة تليق بجماله وكماله وبهائه وعظمته، وهذه الصفة تليق بعجزي وضعفي (على الإنسان). فنقول إذاً القدر المشترك لا ننفيه، نثبته، ومع وجود القدر المشترك ندرك به المعارك مع البون الشاسع والفصل الواسع ولا قياس، إلّا القياس الأولوي في هذا الباب (وهذا طبعاً له ضوابط كما سيأتي).

هذا نظر أهل السنة والجماعة، لذلك قالوا: نحن نقول التساوي في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى. سميعٌ بصير: لله سمع ولزيد سمع، لله بصر ولزيد بصر، لكن هذا التساوي في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى. فسمع الله (والأدلة تثبت ذلك) يليق بجلاله وكماله، وسمع العبد يليق بضعفه وعجزه.

وهذه لك الحديث الظاهر الجلي الذي يثبت لك الفوارق هذه وأنت تجريها على جميع الصفات بعد ذلك، منها:

حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- تجلس في الغرفة والنبي -صلى الله عليه وسلم-، دخلت عليه خولة -رضي الله عنها وأرضاها- تشتكي من زوجها، تقول: نذرت له بطني وكنت له كذا وكنت له وكنت له وكنت له، ثم طلقني. طبعاً كان في الجاهلية الظهار ينزل منزلة الطلاق، طلقها يعني ظاهر منها. وهي تشتكي، وغرفة عائشة أشبار، قالت: كنت أنام أمد رجلي يصلي ورجلي بيني وبينه، فإذا أراد أن يسجد غمزني. فقالت: إني في ناحية البيت وخولة تشتكي زوجها ويخفى عليّ بعض حديثها.

طبعاً ليست مسألة سراً بينها وبين النبي -صلى الله عليه وسلم-، هي تتكلم، وأنت تعلم الذي ينفعل عندما يشتكي، كانت تتظلم يعني صوتها لا بد يكون مرتفع. ومع ذلك خفي على سمع عائشة بعض الكلمات. تتصورون!! ثم قالت: سبحان من وسع سمعه الأصوات، إنها تتحدث ويخفى عليَّ بعض حديثها، فأنزل الله من فوق سبع سماوات: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ) [المجادلة:1]. هذا سمع الله، لذلك سمع الله يسمع كل شيء، لا تختلف عليه اللغات، ولا تختلط عنده الأصوات. كل شيء، كم من واقفٍ داعي؟ كم من متضرع؟ كم من متذلل؟ كم من راجٍ لربه جلَّ في علاه؟

وأنت تتخيل هذا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد ثم سألوني فأعطيت كل واحدٍ

مسألته)، يعني سمع الجميع وأجاب الجميع. زاد من عظيم قدرة الله أن النبي بيّن للسائل، قال: (إن الحساب كحساب رجل واحد)، حساب الجميع الخلق كحساب واحد، كما يرزقكم جميعاً.

هذه المسألة دالّة على عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه. إذاً هنا السمع وهنا السمع، وهنا أظهر الفرق بين السمع والسمع. قالت: سبحان، تتعجب. سبحان الذي وسع سمعه كل الأصوات، إن المرأة لتشتكي زوجها ويخفى عليَّ (أنا بجانبها ملتصقة قريبة من الاتصال) بعض حديثها فأنزل الله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ) [المجادلة:1].

إذاً الاشتراك في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى بحال من الأحوال، وأيضاً القدر المشترك الذي يعنيني بأنني أدرك به المعاني لا يستلزم التساوي من كل وجه.

وأضرب مثلاً آخر وأنت بعد ذلك تجريه على الجميع: أضرب مثلاً آخر في البصر، قد أثبت الله بصراً لنفسه، (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قال بالسمع والبصر فعل ذلك أشار بإصبعه على العين وعلى الأذن. ما معنى ذلك؟ يعني هل ممكن لنا أن نشير على الصفة بإشارة النبي؟ لا ما يجوز.

وإشارة النبي كيف نوجهها؟ إشارة النبي -صلى الله عليه وسلم- حيثما أشار نشير فقط، غير ذلك لا يجوز بحال من الأحوال. هنا إشارة النبي ما كانت إشارة للعين أو الأذن، إشارة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت للسمع والبصر، لمّا أشار أشار للمعنى. فأنت لمّا تشير للصفة تعرف المعنى، هنا يأتي المشترك.

وصف الله نفسه بالبصر، ووصف عباده بالبصر. فانظر إلى البون الشاسع والفرق الواسع بين البصرين؛ أمّا بصر الإنسان لا يتعدى أمتار، بل قل ضعف الإنسان بلغ إلى المدى، لأن موسى -عليه السلام- بعدما شنَّف آذانه بسماع كلام الله جلَّ في علاه فإنه تشوَّق لما هو أعلى من سماع الصوت. أراد الرؤية: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا) [الأعراف:143] الجبل ما استطاع، فكيف البصر؟ (وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا) [الأعراف:143]. لذلك يوم القيامة قال: (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [ق:22]، هذا بصر الإنسان.

انظر إلى بصر الرحمن سبحانه جلَّ في علاه، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، حجابه النور) وفي رواية: (حجابه النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه -أنوار وجهه سبحانه جلَّ في علاه- ما انتهى إليه بصره من خلقه).

وبإجماع الأمة أن بصر الله ينتهي لجميع خلقه، لذلك لا تواري عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً ولا جبلٍ ما في وعره ولا بحرٍ ما في قعره. لذلك قال الله لموسى مطمئناً: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [طه:46]، ما يخفى عليه شيء.

إذاً مسألة التمثيل هنا حتى نتكلم في الطوائف الثلاثة:

- أهل السنة والجماعة الوسط العدول قالوا القدر المشترك نثبته ونؤمن به، وبه ندرك المعاني، ونقول (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11].

- والطوائف الضالة المبتدعة منهم من قال وغالى في الإثبات فقال: بصرٌ كبصر، عينٌ كعين، يدٌ كيد. والرد عليهم أنهم خالفوا القرءان والواقع والفطرة والسنة.

والأمر الثاني أننا نقول إذا قلتم بهذا القول فأنتم خالفتم الواقع، لأنه الاشتراك في الاسم لا يلتزم الاشتراك في المسمى. للإنسان يد، وللقرد يد، وللأرنب يد -أجلَّكم الله-، وللحمير يد، وللإبل يد. كلها يد، هل تستوي في المعنى؟ هل يد القرد كيد الأرنب؟ هل يد الأرنب كيد البعير؟ هل يد البعير كيد الحمار؟ لا، لا تستوي. إذاً التمثيل كفرٌ وضلال، لذلك قال نُعيم بن حمّاد (شيخ البخاري) قال: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر.

- أمّا الآخرون فرُّوا من التشبيه إلى التعطيل، فقالوا لو قلنا يدٌ ويد عينٌ وعين سمعٌ وسمع، إذاً التشبيه. والتشبيه كفرٌ فنفر من الكفر إلى الإيمان. ما الإيمان عندكم؟ قالوا التعطيل، لا سمع ولا بصر، عبدوا عدماً، وكلٌ في ضلال.

وكما مشينا في أكثر من كتابٍ وأكثر من شرح بأننا نرى دائماً أهل السنة والجماعة ينظرون بعينين جميلتين، وأهل البدعة والضلال ينظرون بعينٍ عوراء، كلٌ منهم ينظر لطرف فقط. أما أهل السنة والجماعة ينظرون بعينين جميلتين، هذا معنى "ولا تمثيل".

قال -رحمه الله تعالى-: بل يؤمنون بأن الله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]، "بل يؤمنون" هنا بمعنى: بل يعتقدون بأن الله جلَّ في علاه ليس كمثله شيء. ومع أنهم يقِرُّون أو يؤمنون بالقدر المشترك عند التساوي في الاسم، بأن الله جلَّ وعلا أثبت لنفسه صفات، وأثبت لعباده صفات، وإن استوت الصفات في الاسم فهو فيها قدر مشترك، فإنها كما قلنا لا يمكن أن تكون المماثلة بحال من الأحوال.

ولذلك قال على ضوء قول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. وهنا الآية عظيمة جداً، أرست لك قواعد السلف بأنك تثبت، وهذا الإثبات بغير تمثيل.

تثبت السمع والبصر، لكن بغير تمثيل. لذلك قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، هو أتى بها في موضع الإثبات، قال: نحن نثبت وهذا الإثبات بغير تمثيل مع الاستواء في الاسم. لأن القاعدة عند العلماء الاستواء في الاسم لا يستلزم الاستواء في المسمى (في المعنى).

قال -رحمه الله-: بل يؤمنون بأن الله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه، لأنه سبحانه لا سميّ له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى.

طبعاً عندما يأتي بهذا الكلام بعد الإثبات بالآية لها معنى، يقول: وإنهم يؤمنون بصفات الله جلَّ في علاه على ضوء قول الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. قال: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ما المعنى الذي أتى به؟ أردف هذا الكلام بعد الاستدلال بالآية على أن اعتقاد السلف في صفات الله جلَّ في علاه على ضوء ما قال الله بالإثبات مع عدم المثلية. فقال: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، قد أردف هذا الكلام بعد الاستدلال بالآية. التوقيف طبعاً هذه الإجابة الأولى، والإجابة الثانية؟

السؤال: ابن تيمية أراد أن يقول إنهم يؤمنون بصفات الله جلَّ في علاه على ضوء ما قاله الله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11] إثباتٌ بلا تمثيل. ثم أردف فقال: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه. هو الآن قال: واعتقاد السلف أنهم يؤمنون بصفات الله جلَّ في علاه على ضوء قول الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، والمعنى إثبات صفات الله جلَّ في علاه مع نفي المثلية، ثم أردف: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه.

الإجابة: هذا مبطنٌ في الرد على أهل البدع، معنى ذلك أنه يقول وقد أثبت السلف صفات الله جلَّ في علاه مع نفي التمثيل، ولم يجرهم كما جر أهل البدع إلى نفي صفات خشية التمثيل. هنا كأنه لمّا أردف ذلك أراد لك أن تتقن بيقين بجلاء: انظر سلامة المعتقد عند أهل السنة على ضوء الآية، لمّا سلّموا عقولهم وقلوبهم بالإيمان بالآية مشوا على نفس ما أرسته الآية بإثبات الصفة مع نفي التمثيل. قال: ولا نلجأ إلى ما يلجأ به أهل البدع والضلالة كما قال المصنف هنا الآن. كما ألجأ ذلك أهل البدع والضلالة أنهم قالوا لو أثبتنا مثّلنا، إذاً لا بد من الفرار بالتعطيل. فقال: وإنا لنفعل مثل ما فعله البدع بالفرار من التمثيل بالتعطيل فنفوا الصفة.

تعطيلهم صفة؛ قالوا إذاً لا سميع ولا بصير. فمنهم من غالى وقال: لا سميع ولا سمع، لا بصير ولا بصر. ومنهم قال: هو سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، خوفاً من التمثيل.

فقال: لا، نحن سنثبت ونفر من التمثيل لأنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، وننفي التمثيل. أمّا أنتم فلمّا أثبتتم التمثيل، فررتم منه بالتعطيل. لذلك قال: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، هؤلاء هم أهل السنة والجماعة.

أمّا أهل البدع والضلالة حتى لا يقعوا في التمثيل فرُّوا من التمثيل إلى النفي والتعطيل، هو في الحقيقة أنه كيَّف فشبَّه ففرَّ. أنت لو تتخيله الآن، المعطِّل جلس يسمع قول الله جلَّ وعلا: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، قال: سمعٌ، وإن العبد سميعاً بصيراً. إذاً ماذا فعل؟ سمع كسمع، بصر كبصر، فلمّا شبّه قال: هذا كفر، ففرّ إلى التعطيل. هو ليس مطالب ولا بد أن يقف الى قول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، هو كان لا بد عليه أن يقف أمام الآية معظِّماً، لكن لمّا ارتكزوا على عقولهم وقعوا في هذه الظلمات.

ولذلك هذا الذي يبين لك الفوارق البعيدة بين السلف وبين الخلف؛ الخلف لم يعتمدوا على كلام الله ولا كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- فضلُّوا وأضلُّوا.

الخلف لم يرتكزوا على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فضلُّوا وأضلُّوا، وأمّا السلف قد وقفوا وقوفاً تاماً معظِّمين موقِّرين كلام الله وكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: إذاً سنثبت الصفة، وهذه الصفة نثبتها على ضوء قول الله جلَّ وعلا: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). لذلك قال: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه.

لذلك ترى الجميع من الصحابة يصفون الله بالضحك، بل يعملون به، قال: إذاً لن نعدم خيراً من ربٍ يضحك. الجميع يصفون الله جلَّ في علاه بالكلام.

والجميع من الصحابة باتفاق يصفون الله بالعلو؛ لما دخل ابن عباس -رضي الله عنه- على عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- فقال لها: أبشري، أنت حبيبة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنت زوج النبي في الدنيا والآخرة، قد أنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات. أثبت أمرين: أثبت الكلام وأثبت العلو بأن الله فوق العرش، طبعاً علو الذات.

وعمر بن الخطاب تمشي خولة تقول: إيهٍ يا عمر كنت في مكة عُميراً وصرت عمر، ثم جئت إلى المدينة فصرت أمير المؤمنين... وأخذت تعظ فيه. فقام الرجل قال: أتدرين من تكلمين؟ قال: دعها، ألا تعرف من هذه؟ هذه خولة التي سمع الله كلامها (أثبت السمع الآن) من فوق سبع سماوات (وأثبت العلو لله جلَّ في علاه).

لا ينفون عن الله صفة من الصفات، وهم الذين رووا لنا حديث: (ضحك الله لرجلين أحدهما يقتل الآخر فيأخذ بيد أخيه ويدخل الجنة)؛ فضحك الله لهما أو منهما، قاتل ومقتول والاثنين في الجنة؟ المفروض قاتل ومقتول في الآخرة خصومة. فضحك الله، وطبعاً فسّر ذلك النبي أن الأول كان كافراً والثاني دخل تحت الوغى ناصراً لدين الله

فقُتل من بيد الكافر، والكافر أسلم فدخل الجنة، الاثنين دخلوا الجنة. فضحك الله، والجميع من الصحابة يصفون الله بالضحك ويرون مثل هذا الحديث.

يصفون الله بالعجب، لا ينفون. وكل هذه الصفات هي التي أتعبت الخلف. عجب، الضحك!! أدخلوا عقولهم. الصحابة جميعاً يصفونه وصفاً دقيقاً (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. قال: عَجِب ربكم من صنيعكم اليوم. أيضاً يسمعون قول الله جلَّ في علاه ولا يعارضون، ولا يقولون إذاً يحتاج إلى مشي والمشي يحتاج إلى... أعوذ بالله.

كل ذلك هم أوتوا من هنا، سمعوا قال الله جل في علاه: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر:22]. المشكلة عندهم أنهم كيَّفوا مجيء الله جلَّ في علاه ففرُّوا، كيف تجيء جهنم؟ الحديث الصريح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (جهنم لها سبعون ألف زمام، لكل زمام يجره سبعون ألف ملك). تذكروا آنفاً، قلنا ملك من شحمة الأذن إلى العاتق خفقان الطير، وسبعون ألف ملك يجرون زماماً واحداً. كيف تأتي النار؟ كيف مجيء النار؟ لا أحد يتصور، لا أحد يستطيع أن يكيَّف. فلذلك نحن نقول التسليم (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). قال: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر:22].

إذاً قال: فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، وهذا الاعتقاد الذي به السلام أو به السداد وبه القرب من الرحمن سبحانه جلَّ في علاه.

أما تصورتم قول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما علت الأصوات هم يريدون استجابة دعاء فرفعوا الأصوات، فقال النبي: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً) هنا الآن أثبته، عند النفي نفى مع إثبات كمال الضد أدباً. (لا تدعون أصمّاً) فالله سميع بصير. لِمَ ننفِ عن الله جلَّ في علاه الصمم؟ قولوا للكمال سمعه، سبحانه جلَّ في علاه.

(لا تدعون أصمّاً ولا غائباً)، (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) [الأعراف:7]، قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد:4] إحاطةٌ بعلمه إحاطة الربوبية.

قال: (لا تدعون أصمّاً ولا غائباً)، فسلَّموا، (إنما تدعون سميعاً بصيراً)، قال: (إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته). هذا الذي أريده معكم الآن، نقف عندها، الصحابة يتصوَّرون والصحابة العربية سليقة. فقال: (إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)، هل قالوا كيف وقد قال الله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]. هل عارضوا هذا بذلك؟ آمنوا بالقرب وهذا قرب الخاص لا تجده للكفار بحال.

لذلك لا تجد القرب يوصف به الله إلّا مع المؤمنين، هو يقول على الجميع (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد:4] لكن مع المؤمنين القرب. وهذ اللفتة العلمية، قال الله: (إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56]، أخذها المؤوّلون (يقصد الآية) والمفروض لغةً على السياق: إن رحمة الله قريبةٌ من المحسنين، قالوا أرأيتم! إذاً معنى الرحمة هنا إرادة الثواب.

وكانت لهم، مع أنها في الناحيتين ليست لهم لأن قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56] معناها الله قريبٌ من المحسنين برحمته، فيكون هنا قربٌ خاص بالرحمة. (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) [الأحزاب:43]، فالمعنى أنه قريبٌ من المؤمنين برحمته، هذا قربٌ خاص.

لذلك لا يمكن أن تجد القرب أبداً موصوف به الله تعالى إلّا للمؤمنين، وهذا القرب قرب سمع وهو السمع الخاص، قرب سمع الإجابة. لأن السمع: سمع عام يسمع الجميع لا تختلف عليه لغات، وسمعٌ خاص وهذا السمع الخاص للمؤمنين، وأخص منه للأنبياء والمرسلين.

سمعٌ خاص لسمع الإجابة، كقولٌ النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سمع الله لمن حمده)، ما معنى سمع وهو يسمع الأصوات كلها؟ يعني استجاب فيكون هذا سمع اسمه خاص، وهو سمع إجابة.

ولذلك انظر قال الله جلَّ وعلا: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) [البقرة:186] قريب لمن؟ عبادي، وقال عبادي هنا الإضافة إضافة التشريف ولا تقال إلّا في المؤمنين. (قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة:186]. لذلك قال: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً). ثم قال: (إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)، هذا معنى فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه.

قال: ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه. فهنا عدم تحريف الكلم، كما قلنا التحريف تحريفان: تحريف لفظي، وتحريف معنوي. والمقصود هنا بالتحريف تحريف معنوي، تحريف المعنى. (يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة:64]، قالوا إذاً نعمتان وهذا تعطيل كما بيّنا.

فيقول: ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، وهذه فيها دلالة واضحة على أمرين: الأمر الأول اعتقاد السلف أسلم، والأمر الثاني أن المعطِّلة أو المؤوّلة أو المحرّفة بأدق الألفاظ فيهم شبه من اليهود. لأن اليهود يعطِّلون وقد قال عنهم الله تصريحاً: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ) [النساء:46]، وهذا فيه تحريف الكلم عن مواضعه.

قال: ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته. الإلحاد هو الميل، والإلحاد في أسماء الله جلَّ في علاه له صور خمسة. من صور الإلحاد (سأطرح عليكم هذه الصورة والبحث فيها لا بد أنتم تأتون بها الأسبوع القادم): الاشتقاق من الإلحاد، عدَّ العلماء المحققون أن من قال بأن الاشتقاق في أسماء الله جلَّ في علاه وصفاته من الإلحاد. تعرفون ما معنى الاشتقاق؟

ينزل تحت قول الله جلَّ في علاه: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف:180]. الاشتقاق أن تشتق اسماً من صفة، نوع اشتقاق الآن. قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5] تسمي الله المستوي. (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ) [الأنفال:30] حاشا لله لكن هم يقولون بذلك ويقولون الاشتقاق بما يليق بالله يكون على الكمال والبهاء والعظمة.

وهم يستدلون بأدلة على أن ابن مسعود دعا وتوسل بأسماء الكتاب لم يأتِ بها والسنة لم تأتِ بها، فما هي إلّا اشتقاق. والأئمة أحمد والشافعي، لأن أحمد كان يقول في دعائه: يا غياّث المستغيثين. أين الاسم هذا في الكتاب والسنة؟ فهم يستدلون بذلك.

نقول إن هذا من باب الخبر لا من باب التسمية والتفصيل سيأتي، هذا لأنه ينسب لله جلَّ في علاه: أسماء، صفات، أخبار، أفعال أخبار. فيكون هذا من باب الخبر لا من باب التسمية، تفصيله سيأتي إن شاء الله في باب الإلحاد في أسماء الله جلَّ وعلا.

سؤال: سؤالي عن الكيفية أو نفيها، إذا نظرنا للنبي عليه الصلاة والسلام لمّا كان يعلمهم في أفعالهم: صلُّوا كما رأيتموني أصلي، فنظروا إلى هيئته وكيفيته.

الجواب: نعم ورمقوا الكيفية لأنها منظورة. لذلك نحن نقول الكيفية لا نبحث وراءها بدليل السمع وبدليل العقل. بدليل السمع كما قلنا، لأنه من باب أنك تقفُ ما ليس لك به علم. قد قال الله تعالى: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]، (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36]. ومن باب العقل نقول أي كيفيةٍ تريد أن تحدَّث عنها لك سبل ثلاثة لها:

- الأول أن تراها عيناً، وهذا غير موجود، في صفات الله غير وارد. حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يرَ ربه في الدنيا.

- الأمر الثاني أن يأتيك الوحي بذلك، وهذا أبعد ما يكون.

- الثالث أن يكون قد أخبرك الصادق المصدق بها، وهذا لم يكن.

إذاً الأبواب الثلاثة لمعرفة الكيفية مغلقة، لا تستطيع أن تصل. إذاً هو كانوا يرمقون كيفية السجود الركوع، ولذلك (خذوا عني مناسككم)، (صلُّوا كما رأيتموني أصلي).

سؤال: كيف أستطيع القول إن في الغيبيات كانوا يُسلِّمون؟

الجواب: وهذا محض الإيمان، أنهم في الغيبيات ُسلِّمون. وكما قلت لكم دائماً نبراسنا كلام الشافعي: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

السؤال: صحة حديث: (أتَاني الليلةَ ربِّي تباركَ وتعالى في أحسنِ صورةٍ)

الجواب: هذا حديث صحيح كالشمس، وبها نقول يجوز رؤية الله في المنام لآحاد المسلمين. والله يأتي للمؤمن في منامه بصورة على قدر إيمانهم، ويأتي للذي هو أعلى إيماناً بصورةٍ فوق الصورة. قد يأتيه بصورةٍ حسنة وقد يأتي الآخر بصورةٍ أحسن، لأنه قال: (أتاني ربي في أحسن صورة)، فيها دلالة قد يأتي لمؤمنٍ بصورة حسنة ويأتي لمؤمن آخر بصورةٍ أحسن. وهذا ليس فيه تكييف للصفة لتفهم، لأن كلما تقول يراه في المنام؟ يرى الصفات؟ يذهب بذهنه إلى تكييف الصفة. هذا لا مدخل لك فيه.

لا ليس مخصوصاً، إذاً أصل عدم التخصيص أو نقول ائتنا بدليل التخصيص. أحمد بن حنبل قال إنه رأى ربه، عبد القادر الجيلاني رأى ربه. عبد القادر الجيلاني قال: رأيت ربي فقال لي: يا عبد القادر إني أسقطت عنك التكاليف. قال: اخسأ عدو الله. فقالوا: كيف عرفته؟ قال: لأن الله قال لنبيه: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [الحجر:99]. عرف أنه الشيطان وليس بربه.

السؤال: ابن قتيبة يقول: إن العرب تقيم المثل مقام النفس، ليس كنفسه شيء، لكنه قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). هو كان ممكن يقول: ليس كهو شيء. مثلاً نقول: مثلك لا يبخل، وأنت لست ببخيل. مثلك لا يبخل؛ أي أن السبب لبخلك ممتنع. السبب لمثلية الله ممتنع.

الجواب: اسمها إيغال في توصيل المعنى أنه سبب المثلية غير موجود. فهذا اسمه إيغال في إثبات عدم المثلية لأن السبب غير موجود. المفروض نقول هذا الكلام فيه بعض النظر في القدر المشترك، إلّا نقول من العرب أن القدر المشترك أيضاً لا يستلزم السبب، فهو في النهاية سيرجع إلى تأكيد عدم المثلية. قال الله جلَّ وعلا لنبيه: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]؟ الإجابة لا، لا نعلم له سميّاً.

سؤال: يجوز رؤية النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

الجواب: نعم، يجوز أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى ربه، والمسلمون يجوز لهم ذلك.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك ربنا وأتوب إليك.

العقيدة الواسطية

الدرس التاسع:

ـ أنواع الإلحاد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار، ثم أما بعد الإخوة الكرام:

ما زلنا مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى والكلام على الربوبية، وهذه هي أشرف العلوم على الإطلاق. يعني هذه المحاضرات هي أشرف العلوم على الإطلاق، وشرف العلم يعرف من شرف المعلوم وليس أحدٌ أشرف من الله جلَّ في علاه. وما زلنا مع هذا الكتاب الماتع وهو نقاوة ما كتب في هذا الباب وهو ضم لنا جمل اعتقاد أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية الطائفة المنصورة.

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أما بعد فهذا مجلسٌ جديد في التعليق على كتاب في أصول اعتقاد السلف -رحمهم الله تعالى-.

قال الشيخ -رحمه الله-: ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيّفون، ولا يمثّلون صفاته بصفات خلقه. لأنه سبحانه لا سميّ له ولا كفو له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من خلقه. ثم رسله صادقون مُصدَّقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال سبحانه وتعالى: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الصافات:180-182].

في قول المصنف -رحمه الله-: ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، قد تكلمنا عنه تفصيلاً. قال: ولا يلحدون في أسماء الله وآياته، إذاً الآيات عندنا: آيات كونية وآيات شرعية. فالكلام هنا على الإلحاد ينقسم أو ينزل إلى القسمين: الآيات الكونية والآيات الشرعية. أما في قوله: ولا يلحدون في أسماء الله جلَّ في علاه، أصل الإلحاد الميل، ومنه اللحد، (اللحد لنا والشق لغيرنا)، فأصل الإلحاد هو الميل، واصطلاحاً هو الميل بأسماء الله جلَّ في علاه عما يجب لها.

الإلحاد كبيرةٌ من الكبائر إن لم يكن كفراً، قد قال الله تعالى :(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف:180]، قال: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف:180]. والإلحاد في أسماء الله جلَّ في علاه له أنواع:

١- أعظم هذه الأنواع وهي أن يسمّي الله جلَّ وعلا بغير ما سمّى به نفسه، وهذا من فعل الكفرة الفجرة. فهذا من فعل الفلاسفة، فهم يسمون الله جلَّ وعلا بالعلة؛ العقل الفعال أو العلة الفعالة، وهذا كفرٌ مبين.

ولذلك ابن تيمية يعني يقول كلام من ذهب، يقول: ابن عربي وابن فارض وابن سينا، هؤلاء أخذوا مسوح وعقول الفلاسفة وألبسوها لحى الشرعية، هذا الذي فعلوه في هذا الباب. فهم هنا تراهم يقولون بوحدة الوجود ويقولون مسألة الإتحاد والحلول، ويقولون بها، وأنت ترى قائلهم لما قام قال: ما في الجبة إلّا الله. قال ذلك! المجنون لا يقول بذلك. الثاني يقوم ويقول: سبحاني سبحاني. الثالث يقول: ليت شعري لا ندري من الرب من العبد. هذه ليست تخريف، يعني لو قيل لأحد تحامق لا يستطيع أن يصل إلى مثل هذا بحال من الأحوال.

فالغرض المقصود بأن الإلحاد في أسماء الله جلَّ في علاه هو أن يسمّي الله بغير ما سمى به نفسه. فطبعاً هناك عندنا في مصر مثلاً أصحاب الطرق يقولون: أبو خيمة زرقاء، يطلقون اسماً على الله وهذا إلحاد. نحن قلنا الأسماء الأصل فيها أنها توقيفية، قال الله جل في علاه: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف:180]، وقال الله

جلَّ وعلا: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36]، وقال :(وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]، فالأصل في ذلك بأن أسماء الله توقيفية.

فلا يستطيع أحد أن يسمّي الله بغير ما سمّى به نفسه. أنت لو جئت لإنسان اسمه أحمد فقلت له: يا زيد! يا عمير! ما يرد عليك. وإذا رد يقول لك: إما إنك تستهزأ وإما إنك تسيء إليّ. المهم الغرض المقصود أن المسألة الإنكار عليه يكون شديداً، هذا في البشر، فكيف برب البشر؟ واليهود والنصارى أيضاً؛ النصارى يسمّون الله جلّ وعلا الآب، بغير ما سمّى به نفسه، فهذا نوع إلحاد.

نوع الإلحاد أن تسمّي الله جل في علاه بغير ما سمى به نفسه، وهذا تقدم بين يدي الله ورسوله، وهذا الإنسان فيه على خطر عظيم قال الله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36]. هذا أول نوع من أنواع الإلحاد في أسماء الله جلَّ في علاه بأن يسمّي الله جلَّ في علاه بغير ما سمّى به نفسه، وهذا فيها أمران:

- الأمر الأول: الجهل بالله. وأنت مأمور شرعا أن تعلم عن الله جلَّ في علاه وتتعرف على الله حق المعرفة، قال الله جل في علاه: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) [محمد:9].

- والثاني: فيه الجرأة على الله جلَّ في علاه، وهذه أعظمها. اللهم اغفر يا رب، اللهم إنا ننتهك لك حرمات ولنا الزلات والسقطات، والله ليست جرأة على الله جلَّ في علاه ولكن هي من باب غلبته شهوته والله يعذره، نسأل الله جلَّ في علاه أن يغفر لنا جميعاً الزلات والسقطات والهنات.

٢- النوع الثاني من أنواع الإلحاد أن ينكر أسماء الله جلَّ وعلا الذي سمّى به نفسه. الأول إثبات اسم ليس باسمه، والثاني أن ينكر أسماء سمَّى بها الله نفسه؛ هذا نوع إلحاد، وهذا أيضا فيه تقدم بين يدي الله ورسوله، وهذا أيضا فيه الجرأة على الله جل في علاه. كيف ينفي ما أثبته الله جل في علاه لنفسه؟

وهؤلاء الجهمية وولاة الجهمية نفوا أسماء الله جلَّ وعلا كليةً، عندهم علّة عليلة يقولون كثرة الأسماء تدل على تعدد الذوات، وهذا خطب عشواء من الجهل.

أنت لك أن تقول محمد كريم فصيح بليغ ذكي شجاع مقدام، كم صفة الآن؟ سبعة، هل أصبح محمد محمدات الآن أم محمد واحد؟ وغباؤهم هذا أودى بهم إلى ذلك. فهم الشبهة التي عندهم يقولون إن التعدد في الأسماء سيكون تعدد في الذوات، وتعدد الصفات سيكون تعدد في الذوات، والله جلَّ وعلا قال: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) سرد الأسماء بأسرها، والله جلَّ وعلا أعلم بنفسه سبحانه جلَّ في علاه.

٣- النوع الثالث من الإلحاد بأنه يعطل الاسم، يثبته ولكن يعطله. تعطيل الاسم بنفي الصفة التي يتضمنها؛ يقول سميع، بصير، عليم. لكنه يقول عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، نعوذ بالله هذا كفر مبين. هذا إثبات الاسم مع تعطيله، والتعطيل بنفي الصفة التي يتضمنها، والصفات التي يستلزمها؛ مثلاً لما نقول الغني، الغني اسم من أسماء الله هذه الأسماء لا بد أن تعلم أنها مشتقة ليست جامدة، لذلك نقول إن الدهر ليس من أسماء الله جل في علاه لأنه جامد.

وقلنا لأن هذه الأسماء أسماء مشتقة تتضمن صفات كمال، وإن كانت تتضمن صفة كمال فهي تستلزم صفات أخرى، كمال. يعني قل اسم الله الجواد يتضمن صفة الجود، إذاً بما أنه يتصف بصفة الجود فلا بد أن يكون غنياً ولا بد أن يكون حياً ولا بد أن يكون قادراً، كلها صفات تستلزم الجود.

فهنا أصالة مسألة الكمال في الأسماء بأن هذه الأسماء مشتقة، وأنها تتضمن صفات كمال وتستلزم صفات أيضا كمال. فهم إذا عطَّلوا ذلك يكونوا قد ألحدوا في أسماء الله جلَّ في علاه، يقولون سميع بلا سمع قدير بلا قدر كريم بلا كرم، فلا بد أن نقول الحي القيوم، يقولون بلا حياة؟ يلزمهم أم لا؟ يلزمهم لكنهم لا يقولون بذلك. فهذا نوع إلحاد في أسماء الله جلَّ في علاه ونحن مازلنا مع الآية: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف:180].

٤- النوع الرابع: إثبات الأسماء لكن على وجه التمثيل، لذلك هو عقّب المصنف هنا وقال: لا سميّ له على سبيل التمثيل. يعني هو سمّى نفسه: (سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، وسمّى الإنسان: (سَمِيعًا بَصِيرًا) [الإنسان:2]، قال الله جل في علاه:(إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، وقال عن الإنسان: (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) [الإنسان:1-2].

فهم يقولون سمع كسمع، وبصر كبصر، ويقولون كل الأسماء على أساس التمثيل، اسم السميع لله كاسم السميع لزيد، هذا نوع عظيم من الإلحاد. النوع الذي سبق أخف منه وطئاً، أما هذا على التمثيل فهذا تنقيص، لذلك الإمام نُعيم بن حماد قال: من شبَّه الله بخلقه فقد كفر.

٥- النوع الخامس، هو عدم توقير أسماء الله جلَّ في علاه، لذلك قال الله جلَّ وعلا: (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]. هذا النوع من الإلحاد يدخل تحته الكثير من عدم التوقير، مثلاً:

- يتوسلون بالاسم على غير الحال الذي يتوسلون به؛ يعني لمّا يقول: يا جبار اغفر لي، أو يقول: يا منتقم اغفر لي، هذا نوع فيه عدم توقير لأسماء الله جلَّ في علاه. نحن قلنا أصل الإلحاد هو أن يميل بها عما يجب لها، هذا نوع إلحاد.
- من أنواع الإلحاد أيضاً اشتقاق أسماء الآلهة الباطلة من أسماء الله جلَّ في علاه، مضاهاة. فيجمع هذا النوع من الإلحاد عدم توقير أسماء الله جلَّ في علاه. (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) [النجم:19-20]. هذا نوع إلحاد وهو شديدٌ جداً في هذا الباب.

وقوله: لا يلحدون في آيات الله، قلنا آيات الله هي: الآيات الكونية والآيات الشرعية.

الآيات الكونية في العالم العلوي والعالم السفلي؛ العالم العلوي لو نظرت إلى السماء تجد كل الآيات الكونية: ترى الشمس والقمر والنجوم والسحاب، وترى السماء كيف أنها كالسقف بغير عمد.

قال الله تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس:38-40]. وأيضاً قال تعالى: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [النحل:16]، قال الله جلَّ وعلا: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ * إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) [الصافات:1-6].

١- وهم ينظرون إلى ذلك يقولون الطبيعة خلقته، هذا نوع إلحاد في آيات الله جلَّ في علاه، أن ينسبوا الخلق لغير الله.

٢- ومن نوع الإلحاد فيها الغلو فيها؛ بأن يعتقد فيها بأنها مشاركة لله جلَّ في علاه في الربوبية. كما في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (صلى بنا عليه الصلاة والسلام، فقال: ماذا قال ربكم؟ قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ وكافر، فمن قال: مُطرنا بفضل الله برحمته فهذا مؤمن بالله كافرٌ بالكوكب. ومن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا كافرٌ فهذا مؤمنٌ بالكوكب كافرٌ بالله)، فهذا نوع إلحاد.

٣- ومن نوع الإلحاد أيضاً إنكار خلق الله تعالى، إنكار المعجزات نوع إلحاد لآيات الله جلَّ في علاه، لأن ما من نبيٍ إلّا ورزقه الله الآية التي على مثلها أقرَّنا الأمة بأنه نبي؛ كالآيات التي رزقها اللهُ جلَّ في علاه موسى عليه السلام كالعصا، (وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) [النمل:10]، والآية الأخرى: (أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) [القصص:31]. وأيضاً قول

الله جلَّ في علاه مبيّناً هذه الآيات على اليد، قال في الآية: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) [طه:22-23].

هذه الآيات نوع الإلحاد فيها هو مسألة إنكارها، ففرعون أنكر العصا؛ العصا ألقاها موسى أمامه صارت حية أمامه وأنكرها، وأتى بالسحرة، والسحرة لم ينكروا، السحرة لمّا وجدوا الأمر على الأمر حقيقي خرُّوا سُجَّداً وسبحوا بحمد ربهم وما استكبروا.

وهذه هذا نوع الإلحاد إنكار هذه الآيات المرئية، أو نسبتها الخلق لها هذا نوع إلحاد، أو عدم نسبتها لله أنها غير مخلوقة لله خلقتها الطبيعة هذا نوع إلحاد. والآيات الشرعية أيضاً، قال: لا يلحدون في آياته. نوع الإلحاد في الآيات الشرعية: هو تحريف الكلم عن مواضعه، ونوع الإلحاد أيضاً تحريف الصفات لأنها آيات الشرعية. إذاً نفس الأوامر والنواهي في الشرع، وأيضاً الصفات.

قال: ولا يكيّفون، وكما بيّنا أن التكييف أنه يجعل كيفية لصفة الله جلَّ في علاه؛ كصفة اليد، صفة الأنامل، صفة العين، صفة الساق، صفة الرِجل، يجعل لها كيفية. فقال: أهل السنة والجماعة لا يكيّفون، أهل السنة والجماعة لا يلحدون في الأسماء ولا يكيّفون الصفات. طبعاً هو لمَّا ذكر الأسماء ذكر بعد ذلك الصفات، قال: ولا يكيّفون صفات الله عز وجل.

وقد نبهت أنا ولفت الانتباه إلى "ولا يكيّفون"، لا بد أن تعرف من وجهين، أن يؤمن بها على وجهين: الأول في هذا الأمر إثبات الكيفية، كلمة "ولا يكيّفون" ليس معناها أنهم ينكرون الكيفية. "ولا يكيّفون" هم لا يتصوُّرون الكيفية مع إثباتهم لها، هم يثبتون كيفية لكنهم مع الإثبات لا يتصوُّرونها. بهذا معنى "ولا يكيّفون": لا ينفون الكيفية بل يثبتونها. وكلام مالك ظاهرٌ في ذلك، مالك قال: الاستواء في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. إذاً هم يثبتون كيفية لكنهم لا يتصوَّرونها، لا يعبِّرون عنها، هم يقولون الكيفية موجودة لكنها غيب والإيمان بها واجب.

ولا يكيّفون ولا يمثِّلون صفاته بصفات خلقه. "ولا يمثِّلون" كما قلنا وهذا الأمثل في الكلام على التمثيل، بأنه يجعل صفات الله جلَّ وعلا مثل صفات مثل صفات خلقه، وقد قال نُعيم ابن حماد: من شبّه الله بخلقه فقد كفر. وكما قلنا الواقع يكذب ذلك، لأن القاعدة التي تكلمنا عنها: "التساوي في الاسم لا يستلزم التساوي في المسمى".

قلنا للأرنب يد، للقرد يد، (أجلَّكم الله) للحمير يد. هل يد الحمار كيد الأرنب؟ هل يد القرد كيد الإنسان؟ هل حقاً نقول هذه اليد تسوي اليد؟ أبداً. الاشتراك في الاسم لا يستلزم أبداً التساوي في المعنى، لذلك لما نقول :(إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، والله

تعالى يقول عن الإنسان: (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) [الإنسان:2]، فهنا الاسم وإن كان قد اشترك فلا يستوي المعنى بحال من الأحوال.

قال: ولا يمثِّلون صفاته بصفات خلقه. لأنه، "اللام" للتعليل. لأنه سبحانه، صدَّر بالتسبيح والتنزيه. لأنه سبحانه لا سميّ له ولا كفو له ولا ند له، كلها متعاطفات تثبت لك الأصل الأصيل في هذا الباب: توحيد الله في الأسماء والصفات، وأنه واحدٌ في أسمائه، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في ذاته، سبحانه جلَّ في علاه. لذلك قال: لا سميّ له ولا كفو له ولا ند له، والأدلة على ذلك كثيرة: قال الله جلَّ في علاه: (رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]، الإجابة لا. (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) الاستفهام هنا بمعنى النفي فلا سميّ له، لا أحد يساميه لا أحد يدانيه سبحانه جلَّ في علاه، فهو متفردٌ بالخلق متفردٌ مستحقٌ بالعبادة سبحانه جلَّ في علاه. وقد قال الله جلَّ في علاه: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4].

وفي قوله: لا سميّ له ولا كفو له ولا ندّ له، يدل على كفر من جعل له سميّاً، وعلى كفر من جعل له نداً. ولذلك قال الله جلَّ في علاه فيمن جعل له الأنداد معنوياً، جعل له الأنداد في المحبة، قال الله جل في علاه منكراً عليهم: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) [البقرة:165]، ولذلك عقّب بالتهديد: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ) [البقرة:165].

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل عن أكبر الكبائر قال: (أن تجعل له ندّاً وهو خلقك)، ما خلقك إلّا هو سبحانه جل في علاه. إذاً لا ندّ له ولا سمي له سبحانه جلَّ في علاه، حتى في أفعاله لا ند له ولا سمي له. لذلك لا بد أن نوحده سبحانه جلَّ في علاه في الربوبية والأسماء والصفات، فضلاً عن الإلهية التي هي قضية الكون الكبرى.

- أقسام القياس

قال: لا سميّ له ولا كفو له ولا ندّ له. ولا يقاس بخلقه سبحانه تعالى، كما قلت هو صدَّر المسألة بالتسبيح في كل مسألة تكلم فيها إذا كان الكلام سيوهم غير ذلك فهو يسبِّح، أو يوهم التشبيه أو يوهم النقص فهو يسبِّح لله جلَّ في علاه تنزيهاً وتقديساً لله جلَّ في علاه. فيقول: ولا يقاس سبحانه تعالى بخلقه. القياس ثلاثة:

١- قياسٌ شمولي وهو اشتمال الأفراد، جميع الأفراد ينزلون تحت هذا القياس هو القياس الشمولي. يعني لو قلت صفة الكرم مثلاً قياس شمولي، صفة الحياة شمولي، يعني كل ما يتصف بهذا ينزل تحت القياس الشمولي.

ليس على الله على هذا القياس بحال من الأحوال، لأنه لا سواء، ولأن الله جلَّ وعلا كما صدَّرنا الباب لا سميّ له ولا ند له، ولأننا قلنا جميع الصفات التي نصفها الله بها تحت قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11].

٢- والقياس الثاني قياس المثيل، ألحق النظير بالنظير كما قال عمر بن الخطاب. قياس المثل، قياس المثيل، وهذا لا يمكن لله جلَّ في علاه.

٣- القياس الثالث هو قياس الأولوي، طبعاً تعرفون أصولياً القياس الأولوي بأن العلّة في الفرع تكون متمكنة أكثر من الأصل لقوله كما:(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) [الإسراء:23]، إذاً الضرب من باب أولى لا يجوز.

هنا حقاً بين الله وبين عباده قياس الأولى، القياس الأولوي. وهذه تؤتى قاعدة، وطبعاً كما قلنا القواعد ليست كلية، القاعدة: "كل كمالٍ يتصف به المرء فالله أولى به لأنه خالق هذا الكمال". فإن قلت الكلام في الإنسان كمالٌ، الخرس والصمم نقص لا يعرِب عما في صدره، فالكلام إن كان في الإنسان كمالٌ ففي الرحمن فوق الكمال من باب أولى.

تقول العلو كمال كعلو الهمة كعلو الخلق كعلو المكانة كعلو العمل، العلو كمال، هذا الكمال نقول إن كان العلو في الإنسان كمال فهو في الرحمن من باب أولى. يعني لو كان الكلام في الإنسان يتكلم هذا كمال، فكلام الله تعالى فوق هذا الكمال من باب أولى يتصف الله به، أما القدر المشترك معناه التساوي في الاسم يعني لا بد من اسم مشترك حتى ندرك المعاني. فهنا القياس هو القياس الأولوي في هذا الباب.

ثمرة هذه القاعدة أنت ممكن تثبت بعض الصفات لله جلَّ في علاه من الصفات الفعلية، ولكن هناك الصفات الخبرية لا مدخل للعقل فيها بحال من الأحوال، يعني قد تقول بأنه قد ثبت علو الله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة. أما شيء أنه يكون ثبت في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والعقل، فتقول لهم بعد ما تثبت الآيات والأحاديث علو الله جل في علاه: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5]، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أعتقها) لأنها أشارت إلى السماء، نقول: والعقل يصدق ذلك لأن العلو في الإنسان كمال فإذاً ففي الرحمن من باب أولى.

ولذلك قال: لا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى، "سبحانه" كما قلنا مفعول مطلق: يسبِّح سبحان، وفيها تنزيه الله جلَّ في علاه عن كل نقص وعن كل عيبٍ سبحانه جلَّ في علاه. ولكن هذه القاعدة ليست كلية بحال من الأحوال؛ يعني أنت تقول عدم وجود الولد في الإنسان ليس كمالاً، هو بالنسبة للرحمن كمال.

قال الله تعالى قال: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) [مريم:85-94]، لذلك قال: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4].

فالقاعدة كما قلنا يعني الإنسان يحتاج إلى الطعام والشراب، وهذا نقص فيه، وهو كمالٌ في الله جلَّ وعلا. الله الصمد الذي يصمد إليه عباده في حوائجهم، وعن ابن عباس قال: إذ لا يحتاج إلى طعام ولا إلى شراب. ولذلك أنت ترى الجني الشيطان لمّا مرّ بالإنسان، دخل من فمه وخرج من دبره، فقال: إنك أجوف إنك لضعيف. لذلك الله جلَّ وعلا الصمد، سبحانه جلَّ في علاه.

قال: فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه. فهنا بعد ما ذكر الصفات وذكر مسألة الإلحاد وأنكر الإلحاد قال: فإنه سبحانه أعلم بنفسه، وهذه قاعدة مهمة جداً للرد على أهل البدع. يعني في قوله: فإنه أعلم بنفسه هذه قاعدة للرد على أهل البدع، لأن أهل البدع إذا أطلقوا اسماً على الله لم يأتِ الشرع به أو أطلقوا له صفة لم يأتِ الشرع بها، فنقول لهم: أنتم أعلم أم الله؟ الإجابة: الله! يعني نقول: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14] أثبت الله لنفسه علماً، فيأتي المُنكِر فينكر ويحرف العلم عيناً؛ فيحرف العين مثلاً ويقول بها الرعاية بلازم الصفة. فنقول له: الآن أنت أعلم أم الله؟

فابن تيمية قعَّد قاعدة بذلك بقوله: فإنه سبحانه أعلم بنفسه. ما دام هو أعلم بنفسه هو الذي أخبرنا بأنه يستوي: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، ما دام هو أعلم بنفسه هو الذي أخبرنا بأن له عين، ما دام أعلم بنفسي فهو الذي أخبرنا بأن له يد، وله رجل وله ساق.

سبحانه جلَّ في علاه، فهو أعلم بنفسه. ولو كان كما تقولون أنتم أنه ليس مراداً لقلنا النبي بيّن أنه مراد، وأنتم لستم بأعلم من رسول الله أيضاً لأن علم النبي -صلى الله عليه وسلم- من علم الله جلَّ في علاه يوحى إليه. فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وهو أعلم بعجز الإنسان وضعف الإنسان وجهل الإنسان، وأيضاً يعلم بما يستوعبه الإنسان. لذلك نزل عليه القرآن باللغة التي يفهمها، قال الله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:192-195].

قال: وأصدق قيلاً، وإن قول الله هو الحق هو الصدق، قال الله جل وعلا: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً) [النساء:122]. قال: وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً. وهذه أيضا فيها ما فيها من القوة على الرد على أهل البدع كيف؟ قال: وأحسن حديثاً، فيها تقعيد في الرد على أهل البدع؛ إذا قلنا إنه أحسن حديثاً

معناها أننا نقول بأن تأويلكم تأويلٌ باطل، والله جلَّ وعلا قد أتم البيان وكان أحسن حديث.

ولذا نقول لو كان حقاً لبيّنه الله جلَّ في علاه، لو كان حقاً لبيّنه رسول الله. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

العقيدة الواسطية

الدرس العاشر: الرسل صادقون ومُصدَّقون

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عبده الذين اصطفى، لا سيما الأمين المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المتكملين الشرفا، وبعد:

إخوتي الكرام، ما زلنا مع أشرف العلوم على الإطلاق، وشرف العلم يُعرف من شرف المعلوم، وليس أحدٌ أشرف من الله جلَّ في علاه. في هذا الكتاب الماتع الذي يجمع لنا جملاً من عقائد السلف:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، أمّا بعد: هذا مجلسٌ جديد في التعليق على كتاب في أصول اعتقاد السلف -رحمهم الله تعالى-. قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: ثم رسله صادقون مُصدَّقون؛ بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون. ولهذا قال سبحانه وتعالى: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الصافات:180-182]. فسبّح نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب. وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمَّى به نفسه بين النفي والإثبات.

وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، من اعتقاد الفرقة الناجية، ومن اعتقاد الفرقة الظاهرة المنصورة الظاهرة، أظهرها الله جلَّ في علاه على الجميع لأنهم تمسكوا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: ثم رسله صادقون مُصدَّقون، الرسل جميعاً قد اصطفاهم الله جلَّ في علاه على جميع الخلق، وما اصطفاهم الله جلَّ في علاه إلّا وقد حباهم بجميع أو بكمالات الصفات البشرية؛ قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) [الحج:75]، وقال الله جلَّ في علاه لموسى -عليه السلام-: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه:39]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) [طه:41]. فالله جلَّ في علاه

لا يصطفي الرسل من البشر إلّا من كملت لهم الصفات والسمات العليّة، ولذلك ترى بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- مدحه الله في كتابه بأعظم ما مدح العليّة حين قال الله جلَّ في علاه: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4].

فهم صادقون، والصدق أجلى وأفضل ما يتصف به المؤمن، ولذلك قال ابن تيمية: والصدق صفة من صفات المؤمنين والكذب من صفات المنافقين، لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن المرء ليصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً، وإن الصدق ليهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة. وإن الكذب ليهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، ولا يزال المرء يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً).

فمن صفات المرسلين أنهم صادقون، ولذلك ترى بأن الجميع من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اتفقوا على صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- ولذلك اتبعوه. وهو الذي قال عندما دخل عليه هذا الخارجي الضال المضل الجاهل، دخل ينظر للنبي -صلى الله عليه وسلم- ويقول: يا محمد اعدل فإن هذه قسمة لا يراد بها وجه الله، وهذه صفات الخوارج وهي الطعن في أعراض الأخيار. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟).

وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أراني ربي جلَّ في علاه البارحة بيت المقدس)، (أسري بي إلى بيت المقدس). جلس النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول ويحدِّث أنه كان البارحة في بيت المقدس، فجاء أبو جهل فقال: ما تقول يا ابن أخي؟ قال: أقول كنت البارحة في بيت المقدس. فلمّا قال ذلك، أبو جهل ابتسم وأراد أن يهتبلها فرصة، فقال: لو سمعت لك قومك تقول بما تقول لي الآن؟ قال: نعم. شهد أنه رأى أبا بكر، فقال: أرأيت ما قال صاحبك؟ قال: ما قال، قال: يقول إنه البارحة كان في بيت المقدس، ونضرب أكباد الإبل شهراً ذهاباً وشهراً إياباً. قال: أقال ذلك؟ قال: نعم. قال: صدق، ثم قال: إني أصدقه فيما هو أرقى من ذلك، أصدقه أنه يأتيه الخبر من السماء.

وأيضاً فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال لخزيمة، قال: (شهادة خزيمة بشهادة رجلين)، من أجل ذلك. لأنه تبايع مع يهودي درعاً أو سيفاً فبعدما اتفق تراجع اليهودي، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: اشتريت منك، قال: ائتني بشاهد يشهد على ذلك. فجاء خزيمة بن ثابت فقال: أشهد النبي قد اشترى منك. فتعجب النبي وقال: يا خزيمة إنك لم تشهد! يعني لم تحضر الواقعة كيف تشهد؟ قال: يا رسول الله، إني أصدقك أن جبريل ينزل لك من السماء، أفلا أصدق في بيعٍ بينك وبين يهودي؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: (شهادة خزيمة بشهادة رجلين).

لذلك قال الله جلَّ وعلا مسليّاً نبيه -صلى الله عليه وسلم- لأنه كان يضيق صدره جداً أن يكذِّبوه، وهو الملقب بالصادق الأمين، فقال الله تعالى: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) [الأنعام:33]، فهو صادقٌ.

ولذلك لمّا جاءه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لامني أهل مكة أن أكتب وراءك من كل شيء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اكتب والذي نفسي بيده ما يخرج من هذا إلّا الحق)؛ أي الصدق. ولذلك حتى ممازحة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت صدقاً، لا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا يأتي للناس من النساء ويقول: (تصدقن فإني قد رأيتكنّ أكثر أهل النار)، يأتي مدعي لا يفقه شيئاً يهرف بما لا يعرف، فيقول النبي كان يمزح. لو كان يمزح النبي، كان يمزح صدقاً. النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يتكلم إلّا صدقاً، فهو صادقٌ؛ صادقٌ في التبليغ، صادقٌ في البيان -بأبي هو وأمي-، وقد أتم البلاغ وأتم البيان.

ولذلك قالت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: أين أنت من ثلاث، من أتى بهن فقد أعظم على الله الفرية؛ من قال بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كتم شيئاً يبلغه قد أعظم على الله فرية، ولو كتم شيئاً لكتم قول الله جلَّ في علاه: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ) [الأحزاب:37]، أوحى الله له أنه سيتزوج زينب وهي ما زالت تحت زيد بن حارث، قال الله: (فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) [الأحزاب:37].

الرسل صادقون مصدِّقون ومُصدَّقون، فالرسل شيمتهم الصدق. قال: ثم رسله، وهذا على جميع الرسل: فإن موسى، فإن عيسى، فإن نوحاً عليهم السلام وإبراهيم كلهم صادقون. ولا يرد علينا ما جاء حديث إبراهيم -عليه السلام- عندما قال: (إني كذبت في جنب الله كذبات ثلاث) هذه لا ترد علينا، فكل الرسل صادقون، ولا أحد فيهم يكذب. ولو قلنا بأن المسألة على الضرورة الرسل لا يكذبون، قد يكون التعريض كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل: من أين أنتم؟ قال: (نحن من ماء). فهنا إبراهيم -عليه السلام- عندما يقول: (كذبت في حق الله ثلاث كذبات)؛ إن وقفت ونظرت إلى الحق ليس فيها كذب، لكن هي في أذن السامع فهم شيئاً وأراد إبراهيم شيئاً، وهذا من باب التعريض.

التعريض ممدوح عن الكذب. ما هي الثلاث؟

١- لمّا كسر الأصنام، قال: (فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ)، هنا ليست بكذب، سياق القرآن يبيّن لك ذلك. قال: (فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) [الأنبياء:63]، إذاً تعلق على المستحيل فما كذب. الحاصل أنها ليست كذبة بحال من الأحوال، هو أوهمهم وهم

أغبياء، وما من كافر إلّا وغباؤه مستحكم مطبق عليهم. فارقٌ بعيد بين المكر وبين الفراسة، إذا كان الله تعالى يهب للمؤمنين.

٢- والثانية؛ قال: يا أختي. في النمرود لمّا طلبها، فإبراهيم قال: ما أحد على الإسلام إلّا أنا وأنتِ، لو قلت أنتِ زوجتي قتلني. طمع فيها، وهو طمع فيها وهو يعلم إبراهيم وهي تعلم يقيناً بأن الله يحميها. فقال: أنا قلت أنا أخوكِ، وهذه ليست بكذبة، يجمعهما إخوة الإسلام. طبعاً لمّا ذهب، جاءت المعجزة، الله لم يحفظها فقط بل حفظها وأعطاها هدية لتكون لها عاقبة بعدها. يعني أهداها بهاجر، وهاجر أتت بإسماعيل، التي هي تأتي بإسحاق لأنها غارت جداً وما احتملت فرفق الله بها فحملت على كبر السن، انظر كيف كافئها الله على هذه المكافآت. فهي تمتمت ودعت ربها جلَّ في علاه، كل ما يأتي ينقبض عنها.

الدنيا بأسرها لا تتحرك إلّا إذا حركهم الله. ولا تسكن إلّا إذا أسكنهم الله جلَّ في علاه. ولذلك العقيدة هي قالب حياة الإنسان، لو استطاع أن يملأ قلبه بحسن التعامل مع الله جلَّ في علاه البشر لا يساوون شيء أمامه. دخل ابن تيمية على قازان، قال: لملموا ثيابكم الرجل سيقتل، الدماء ستتناثر. دخل قال له: يا كافر يا ابن الكافرة، واشتد عليه شدةً لمّا قال له: أنت تدعي الإسلام وتقتل لأهل الإسلام، ثم بعد ذلك قال: عندك أسرى لا بد أن تتركهم، فتركهم. فقالوا لابن تيمية: ماذا فعلت؟ وكيف تكلمت؟ قال: لا شيء غير أنني نظرت إلى ربي وإلى السماء فوجدته كالفأرة أو أقل. والرجل معه السلاح ومعه الحرس، كل شيء معه.

كما جاء الرجل بسيفه يشير إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: من يحفظك مني؟ من يعصمك مني؟ قال: الله. فسقط السيف، الغرض المقصود أنقذه الله جلَّ في علاه وما كان كاذباً.

٣- الثالثة: (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) [الصافات:88]، بأني لو قلت إن هذا ربي فأنا سقيم. وهذه كانت من باب المناظرة، وليس من باب الكذب. هذا اسمه الطريق الجدلي في باب المناظرة، تنزل مع الخصم ليقتل حجتهم.

إذاً الرسل كلهم صادقون، ولو اتهم أحدٌ نبياً بأنه كاذب فقد كفر كفراً يخرج من الملة، فالرسل كلهم صادقون. قال: ثم رسله جميعاً، وهذا طبعاً من بديع التصنيف أنه قال بكل الرسل، لأنه لا بد أن تعلم أن العقيدة في رسولٍ كالعقيدة في جميع الرسل، والتكذيب برسول أو الكفر برسول كفرٌ بجميع الرسل. قال الله تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:105]، (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:123]؛ ورسولٌ واحد الذي أتاهم. إذاً وهم صادقون ومُصَدَّقون؛ مُصدَّقون يعني يجب على الأمة تصديقهم، ولا بد من تصديقهم، وتكذيب رسولٍ واحد كفر.

ولذلك أنت ترى الذين يقولون بأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- ليس بنبي كفرة، والذين يقولون هو نبي لكن للأميين كفروا، كذّبوا. النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وبعث كل نبيٍ لأمته خاصة، وبعثت أنا للناس عامة وكافة)، فمن كذّب ذلك وكذّب النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد كذّب جميع الرسل، وقد كفر بذلك. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا)، قال: (والذي نفسي بيده ما سمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار).

فلذلك لا بد من تصديق الرسل، فهم مصدَّقون، يجب على الأمم تصديق الرسول. ولذلك النبي -كما قلنا- كان يدعو الأمم بأسرها، ليست أمة واحدة بل دعا الناس كافة؛ وبعث للنجاشي، بعث إلى مقوقس مصر، بعث إلى كسرى، بعث إلى قيصر. فهو قد أرسله الله جلَّ في علاه للناس كافة، ولذلك قال: (وكان كل نبي يبعث في أمته خاصة، وبعثت أنا للناس كافة).

وقد أمر الله جلَّ وعلا جميع الأنبياء بتصديق النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك عيسى -عليه السلام- ينزل آخر الزمان تصديقاً لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وتابعاً له. كما قال الله جلَّ في علاه: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران:81-82]. لذلك لمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمر بن الخطاب فوجد بيده صحيفة من التوراة، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني).

قال: ومُصدَّقون، يعني الأمم تؤمر بتصديقهم وهم مُصدَّقون، فالله تعالى أمرهم وبعثهم برسالته وصدَّقهم على ذلك. والدلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أتم البلاغ والبيان، قول الله جلَّ في علاه: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) [الحاقة:44-47]. حدث ذلك؟ ما حدث، إذاً دلالة أنه لم يتقول على الله الأقاويل، وهذا تصديقٌ له. ومن التصديق له الله تعالى قد نص في كتابه على التصديق له، قال: (لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ) [النساء:166]، (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) [الفتح:29] ووصفهم وصفاً دقيقاً.

وقال منكراً على اليهود والنصارى لأنهم لم يؤمنوا به، قال: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) [القرة:146]. لذلك لمّا حيي بن أخطب قال: هو هو؟ قال: والله هو هو. الملاعين، قال: والله هو هو، قال: وما بعد؟ قال: عداوته إلى يوم الدين. لا فرق بينه

وبين أبي جهل الذي قال: (اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ) [الأنفال:32]، يعني ما نريد هداية. أرأيت؟ حقد وحسد على النبي -صلى الله عليه وسلم-. وقال الله تعالى: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113]، وأيضاً لمّا قال الله جلَّ وعلا: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۘ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [المنافقون:1]، فهذا التصديق لرسالة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ومن ذلك ما حباه الله جلَّ في علاه للأنبياء بالمعجزات المصدقة لهم، يأتونهم بأمرٍ لا يستطيعه البشر بحال من الأحوال. ماذا قال موسى لفرعون؟ قال: (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ* قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) [الشعراء:30-33]. ولذلك العصا لمّا انقلبت حية أمام السحرة، آمنوا وأسلموا جميعاً، قال الله تعالى: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) [الشعراء:46-49]. خذ الأقوى منها، قال: (إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) [غافر:26]، موسى سيبدل دينهم ويواصل في الأرض الفساد!! وفرعون سينصح لهم ويكون ناصحاً أميناً!! هذا المنطق، لذلك خرُّوا سجداً عندما رأوا هذه الآيات العظيمة.

عيسى -عليه السلام- أمامهم؛ يمسح على المريض فيبرأ بإذن الله، الطير يشكله من الطين فينفخ به فيكون طيراً بإذن الله. كل هذه معجزات أمام هؤلاء، ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) [النمل:14].

النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطاه الله جلَّ في علاه ومنحه من المعجزات ما منحه؛ أول المعجزات التي كانوا يطلبون الصفا ذهباً، فقال الله جلَّ وعلا: أجعل لهم الصفا ذهباً، ومن كفر منهم فأعذبه عذاباً لا أعذبه أحد. فقال: لا. خاف النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن أعطاه المعجزة، قال الله جلَّ وعلا: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) [القمر:1-2]. يقال إن جبل في مكة اسمه جبل كبيس كان بين الفلقتين، وفي الصحراء رأوه رأي العين شطر القمر، آية من الآيات وجحدوا بها. والله تعالى قال: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) [الحجر:14-15]، الإجابة جاهزة في هذا الجحود. لكن الله تعالى منحهم هذه المعجزات من أجل أن يصدقهم على رسالتهم.

فقال: ثم رسله صادقون ومُصدَّقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون. هنا هذه مباينة، وهذا من دقة التصنيف. لمّا ذكر الرسل كأنه قال: وانتبهوا، بعدما بيّن لكم أنهم صادقون ومُصدَّقون، فما قالوه على الله هو الحق والصدق. لمّا يقول الله جلَّ في علاه: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]، ويبلِّغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا هو الحق والصدق. لمّا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ثلث الليل الآخر)، هذا هو الحق والصدق. لمّا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فأخذت الرحمة بحجزة الرحمن)، وتقول هذا مقامٌ (**) بك، هذا حقٌ وصدق.

كأنه قال: انتبه! تكلمت معك عن الأنبياء لتعلم أن ما قالوه عن الله هو الحق والصدق؛ مباينة، وهؤلاء المحرِّفون خالفوا ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-. فما قالته الرسل على الصدق، وما قاله هؤلاء على الكذب والباطل. دقة النظر في التصنيف أراد أن يبين لك المباينة، وبضدها تتبين الأشياء. لما يأتي موسى، يقول آدم -عليه السلام- له: (أنت موسى بني إسرائيل، اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وخط لك التوراة). آدم -عليه السلام- يصف الله بالكلام، يصف الله باليد، وموسى يقرّه بذلك، ويأتي نبينا فيثبت ذلك لله جلَّ في علاه. فمن حرف فليس بصادق، والأنبياء لهم الصدق في ذلك.

قال: وبخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، وهذه رد على من قال في مسألة الاشتقاق. قال: بخلاف الذين يقولون عليهم ما لا يعلمون، فلا علم لهم بذلك. من أين أتيتم بهذا؟ أين علمكم بهذا؟ أأنتم أعلم أم الله؟ أأنتم أعلم أم رسول الله؟ أأنتم أعلم أم صحابة رسول الله؟ لذلك هو يقول: بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون. هم قد قالوا ونسبوا لله صفات لم يتكلم الله بها ولم يصف الله بها نفسه، عندما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ينزل ربنا)، فالله ينزل. يقولون لا ينزل. يقول الله تعالى: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر:22]، ويقولون يجيء رحمته وغيرها على التأويلات التي ليس لها ثمة الدليل. فهنا يقصدهم بذلك "بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون".

والذين يقولون ما لا يعلمون على الله جلَّ في علاه تلزمهم لوازم، وهذه اللوازم هم لا يلتزمون بها، لو يلتزموا بها تكون المسألة معضلة كبرى. من هذه اللوازم أنهم يزعمون بأن الله خاطبنا بما لا نعقل، وهذا تكليفه بما لا يطاق. يقول الله جلَّ في علاه: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه:39]، (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]، ماذا نفهم نحن من هذا؟ علمنا بأن لله عين، وهذه من اللغة التي خاطبنا بها الله جلَّ في علاه. لمّا يأتي أحد يقول إنها ليست العين، هي رعاية مثلاً والكلأ، فمعنى ذلك أنه يزعم بأن الله خاطبنا بما لا نعقل.

من لوازم هؤلاء المؤوّلون أنهم يزعمون بأن الله خاطب الأمة بأسرها بما لا تستطيع فهمه، وهذا تجد ضمنه تكذيب لقول الله جلَّ في علاه: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

[الشعراء:192-195]؛ "مُبِينٍ" أي ظاهرٌ لائح، الكل يعلمه. فإذاً هذه دلالة على اللازم الباطل الذي هم لا يلتزمون به، لكن في هذه أزعم أنهم يلتزمون به. هم يقولون ذلك، يقولون كلمنا الله بما لا نعقل. يعني هذه هي المصيبة أنهم يقرون بهذا اللازم الباطل.

من اللوازم أيضاً اتهام النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمرين: بأن النبي يقرأ ما لا يعقل، أو أنه يقرأ وينقل ما يعقل ولكنه كتم بيانه، لأنه يجب عليه البيان. لو قلنا حتى أن الله خاطبنا بما لا نعقل، على النبي وجوباً أن يبيّن لنا أن نعقل. لأن الله تعالى قال: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا وإني قد أوتيت القرآن ومثله معه بياناً)، والدليل على ذلك لما قرأ الله جلَّ وعلا: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:82].

لمّا قال: (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)، قام الصحابة قالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم الناس؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس ذاكم، أما سمعتم الحكيم وهو يقول لابنه: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13]). لمّا احتاج الأمر بيان، بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أتم البيان. لذلك لمّا قال لهم: (هل بلغت؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم فاشهد)، على البلاغ والبيان. فلازم ذلك بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قصّر في ذلك، لازم ذلك أيضاً تجهيل الصحابة وأنهم استعجبوا القرآن ولم يطلبوا البيان، وهذا تجهيلٌ للصحابة. وهذا لازم هؤلاء "بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون".

وبضدها تتبين الأشياء، فهم يقولون على الله ما لا يعلمون. اليهود كذلك كما قال الله جلَّ وعلا في سورة البقرة: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ) [البقرة:78]، هزاً كهز الشعر، كأنه يقرأ لا يعقل شيء. لو لم يكن رداً عليهم في هذه اللوازم الباطلة إلّا بآيةٍ واحدة لكفى؛ قال الله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ) [محمد:24]، لو كان أنزله ونحن لا نعقل كيف يأمرنا بالتدبر؟ اذاً قد أصابنا مرتين: خاطبنا بما لا نعقل ثم كلفنا بما لا نستطيعه. بأن نعقل ما لا نعقل، أو نتدبر ما لا نعقل. هذا هدم لكلية الدين، فلذلك لا بد أن تعلم بأن النجاة كل النجاة فيما كان عليه النبي العدنان والصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

ولهذا؛ يعني لأجل كماله وجلاله وبهائه وعظمته سبحانه جلَّ في علاه، وتسبيحه يعني تنزيهه عن كل نقص. ولهذا قال سبحانه وتعالى: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الصافات:180-182]. قال: (سُبْحَانَ)، سبّح نفسه جلَّ وعلا تنزيهاً وتقديساً، فسبحان الله عمّا يقول هؤلاء الظلمة الكفرة الفجرة علواً عظيماً. (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64]. (قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ) [آل عمران:181] ...إلى آخر الآيات.

وأيضاً النصارى قد ادعوا لله الولد تنقيصاً، (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم:88-95]، سبحانه جلَّ في علاه، فلذلك سبّح نفسه عن النقص وعن العجز.

وقد قال اليهود: فإنه لمّا خلق السماوات والأرض تعب فارتاح يوم السبت، نعوذ بالله من الكفر. قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُّغُوبٍ) [ق:38]، سبحانه جلَّ في علاه. وقال أيضاً هؤلاء المتهوّكون ونسبوا لله النقص: يد الله كيد زيد، والآخرون قالوا لا سميع ولا سمع ولا بصير ولا بصر. لذلك نزّه نفسه عن قول هؤلاء الكفرة الفاجرة، تعالى الله علواً كبيراً. نزّه نفسه فقال: (سُبْحَانَ)، تسبيح كما قلنا تنزيه، أن الله تعالى له الكمال المطلق.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ) وهذه أيضاً من أعظم ما تراه فضلاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا من باب التشريف والتكريم والرفعة في المكانة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- . (سُبْحَانَ رَبِّكَ)، أضاف الربوبية، أين منبع التشريف هنا عندما أضاف الربوبية لمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم؟ إضافة الربوبية للنبي -صلى الله عليه وسلم- هنا مصدر تشريف للنبي، كأن الله جلَّ وعلا يقول للخلق أجمعين: انظروا إلى عظيم ربوبيتي في خلقي لهذا.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- به استنارت الدنيا بأسرها، به استقامت الدنيا بأسرها، به أنعم الله على الحجر والشجر والحيوان والدواب وكل الخلق كانوا في أمان عندما كان النبي -صلى الله عليه وسلم-. حتى لمّا كان في وسط الكفرة، قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الأنفال:33]. فهنا إضافة الربوبية لبيان عظيم فضل ومكانة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، لذلك ما أقسم الله في كتابه بعمر أحد ولا بحياة أحدٍ قط إلّا بحياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، (لَعَمْرُكَ)؛ أي وحياتك يا محمد. ليس لأحدٍ إلّا لرسول الله، قال: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر:72].

انظر هنا يقول: (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)، سبحان ربك أنت يا محمد. فعظيم الربوبية يتجلى في عظيم خلق محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-؛ أعبد أهل الأرض لله، أعز أهل الأرض بالله، أذل أهل الأرض لله. مكّن الله له ونشر دعوته ونصره على أعدائه ونصر

أمته، وفيه آخر الزمان سينصر أمته. (بشِّر هذه الأمة بالرفعة والسنا والتمكين إلى يوم الدين)، منصورة هذه الأمة ومقدّمة مهما حدث.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ)، إضافة الموصوف لصفته، وهذه معهودة. فالعزة صفة من صفات الله جلَّ في علاه، ولا بد أن تقول هنا بمعنى رب الدار، يعني صاحب الدار. ولذلك ابن عباس رأى رجل يصلي وكان كان يقسم برب المصحف، قال له: ماذا تعني برب المصحف؟ قال المصحف هو القرآن كلام الله. قال: وما رب القرآن؟ قال: القرآن كلام الله. لأنها تحتمل "رب القرآن" أي خالق القرآن، أو "رب القرآن" إضافة الموصوف للصفة يعني المتكلم بالقرآن. فلمّا بيّن له تركه ابن عباس.

فالعزة صفة من صفات الله، وهي من صفات الذات، (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) من النقص كما حدث من اليهود ومن النقص كما حدث من النصارى ومن الجهمية والمعتزلة. قال: (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). الوقت قد انتهى نقف عندها لنبيّن إثبات الصفة، كيف تثبت الصفة، والصفات توقيفية كما أن الأسماء توقيفية.

العقيدة الواسطية

الدرس الحادي عشر: فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون

قال المصنف -رحمه الله-: فسبّح نفسه عمّا وصفه به المخالفون للرسل، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب. وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمَّى به نفسه بين النفي والإثبات. فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وقفنا بالشرح إلى قوله: فسبّح نفسه عمّا وصفه به المخالفون، ولذلك قال: هو سبحانه؛ "سبحان" هو مفعول مطلق، يسبّح سبحان، والتسبيح معناها التنزيه. وهو تنزيه الرب الجليل، سبحانه جلَّ في علاه، عمَّا ادعاه أهل الكفر وأهل الضلال بوصف الله جلَّ في علاه بما يتنزه الله عنه، وتعالى الله علواً كبيراً عظيماً عن قول هؤلاء الكافرين. كمثل قول اليهود والنصارى في التنقيص من قدر الله جلَّ في علاه، مع أنهم يعلمون ذلك؛ اليهود (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) [المائدة:64]، والله جلَّ وعلا أنكر عليهم بكتابه وقال: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64]. لذلك قال: هو سبحانه، ينزه الله جلَّ في علاه. اليهود (قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

[آل عمران:181]، وهذا أيضاً فيه وصف لله جلَّ وعلا بالنقص، وسبّح الله ونزّه الله نفسه عن ذلك.

وأيضاً النصارى قالوا بأن عيسى -عليه السلام- ابن الله، نعوذ بالله من الخذلان. وعيسى نفسه قال: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) [المائدة:72]. وقال الله جلَّ في علاه: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم:88-95]. والنبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين: قال الله تعالى: يشتمني ابن آدم، وقال: يؤذيني ابن آدم؛ وفيها أنه نسب الولد لله جلَّ وعلا. قال: أنا الواحد الأحد، سبحانه جلَّ في علاه، لم يلد ولم يولد، سبحانه جلَّ في علاه.

فهؤلاء أفراخ اليهود والنصارى، هؤلاء الجهمية وهؤلاء المعتزلة الذين ينسبون النقص لله جلَّ في علاه، فإنهم يقولون بأن الله لم يخلق أفعال العباد، والعباد كلهم خلقوا أفعال أنفسهم، جعلوهم جميعاً خالقين مع الله جلَّ في علاه. أيضاً مع نسبة النقص لله جلَّ في علاه؛ فقد نسبوا لله الظلم، والفرقة التي نسبت الظلم هي الجبرية، يقولون: إن الله جلَّ وعلاه قد خلق العباد وجبرهم على أفعالهم، فكيف يحاسبهم؟ هم الذين قالوا: رماه باليم مكتوف اليدين، ثم قال إياك إياك أن تبتل بالماء. وهذا الخبيث التعيس البئيس صاحبهم بشر المريسي، هو الذي سمع قول الله جلَّ في علاه في إبليس: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]. قال: لو كنت مكانه لقلت: أنت، محامي إبليس.

لا بد أن يكون هذا الباب ظاهر عند الإخوة، أنا دائماً أقول بوابة العلم إتقان العقيدة. فالحاصل في هذا الباب نسبة النقص لله جلَّ في علاه، لذلك قال: وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمَّى به نفسه؛ الصفة والاسم، بينهما عموم مخصوص، ما العلاقة بين الاسم والصفة؟ كل اسم يتضمن صفة، والمعنى: أقول بأن العلاقة بينهما كل اسم صفة ولا عكس.

وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، ولأننا نقول بأن أسماء الله جلَّ في علاه أعلام وأوصاف، فكل اسم صفة ولا عكس. والمعنى بأنك تقول بأن الاسم لا بد أن يتضمن صفة ويستلزم صفات أخرى، مثلاً إذا قلت "الحي" فهذا اسم من أسماء الله يتضمن صفة الحياة، تستلزم القدرة ويستلزم الاستواء ويستلزم المحبة ويستلزم الغضب. لكن كيف؟ لأنه حي، ولأنها صفة كمال يستلزم ذلك وهي أنه ما من حيٍ إلّا أن يكون فعّال. فهو ما دام حيّاً فهو فعّال؛ فهو يحب ويعطي ويمنع ويستوي، وينزل ويجيء.

فإذاً أسماء الله جلَّ وعلاه أعلام وأوصاف، كل اسم يتضمن صفة ويستلزم صفات أخرى. لذلك قال: بما قد جمع فيما وصف وسمّى نفسه، وهذه فيها دلالة واضحة جداً على مسألةٍ يلفت إليها الانتباه شيخ الإسلام. ماهي؟ هنا كلام ابن تيمية والله يوزن بالذهب، قال: وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفي والإثبات، هنا يلفت الانتباه لمسألةٍ مهمة. ما هي؟ هذا يلفت الانتباه أن الأسماء والصفات توقيفية، فلا يصح أن يقال بأن الأسماء مشتقة. هذا لا يصح، وهذه نوع إلحاد، من اجتهد به فقد أخطئ ولا يصح. والسلف لم يقولوا بالاشتقاق، وإن نقل عن بعضهم ما يوهم ذلك فهذا وهم. وهذا سبيل التصريح في مسألة الاشتقاق؛ فالأسماء والصفات توقيفية، وهذا أمرٌ مهمٌ جداً.

لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أراد أن يلفت الانتباه إلى ذلك: بأنه سمّى نفسه ووصف نفسه، فهي ليست المسألة مسألة اشتقاق. وأيضاً المسألة الثانية من الأهمية بمكان وهي في قوله: بأنه وصف نفسه وسمّى به نفسه في الكتاب أو في السنة أو إجماع أهل السنة. قال: بين النفي والإثبات؛ في هذا الباب على أنه توقيف. وهنا نلفت الانتباه للمسألة الثانية، أنه لا يصح نفي صفة من صفات الله جلَّ في علاه، ولا ردها إلّا بدليل. لذلك الكلام الموهم الذي لا ندري ما يقال به، لا يصح رده فقط ولا يصح قبوله مطلقاً. وأيضاً إن جاءت صفة لم نرَ في الكتاب نفياً لها، ولم نرَ في السنة نفياً لها، التوقف فيها هو الأولى.

ولذلك إذا قال قائلٌ: له أذن، فما عليك إلّا أن تقول: توقف، اسكت. من نفى فقد تجاسر، ومن قبل فقد تجاسر، لأن الأسماء توقيفية والصفات توقيفية، قد يكون لله أو قد يتصف الله بذلك. أنت الآن لو تكلمت بالقبول، تقدمت بين يدي الله ورسوله. لو تكلمت بالإنكار تقدمت بين يدي لله ورسوله. في هذا الباب ما عليك إلّا ألّا تدخل، لذلك قال: بين النفي والإثبات؛ فلا تنفي إلّا ما نفاه الله ونفاه رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولا تثبت إلّا ما أثبته الله وأثبته رسوله -صلى الله عليه وسلم-. وهذه مسائل دقيقة جداً، لذلك ترى الإمام ابن تيمية يلفت الانتباه إليها بأهمية، ولذلك أقول هذه مسائل لا يصح هذه المسائل السكوت عنها أو التهاون في أن تتعلمها.

قال: وقد جمع فيما وصف وسمّى به نفسه بين النفي والإثبات، وقلنا التوقيف الدلالة عليه قول الله جلَّ وعلا: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36]، وقول الله جلَّ في علاه :(وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]. ولذلك قال: الله جلَّ وعلا قد جمع بين النفي والإثبات؛ قال في النفي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]، وقال: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:4]، وقال: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255]،

وقال الله تعالى: (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) [البقرة:255]. وقال أيضاً: (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) [ق:38]، قال: (وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) [الأعراف:7]، فهذا كله في أبواب النفي.

وفي أبواب الإثبات؛ قال: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، قال:(وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:18]، قال: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ) [الإخلاص:1-2]، وأيضاً قال: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]. فهذه دلائل واضحة جداً على أن مسألة النفي والإثبات التي قال بها شيخ الإسلام، قال: قد جمع بما وصف به نفسه وسمّى به نفسه وبين النفي والإثبات، وهذه مهمة جداً. وتستطيع أن تقول هذه هي الطريق الأصيل في سير أهل السنة والجماعة في المعتقد، لهم عينان جميلتان؛ فإنه يثبت حين الإثبات دون تشبيه، وينفي حين النفي بالتدليل بإثبات كمال الضد.

لذلك العلماء يقولون هنا آداب من القرآن قد بيّنها الكتاب في مسألة النفي ومسألة الإثبات؛ أمّا في الإثبات فلابد من التفصيل. والتفصيل لأن الكمال كل الكمال لله جلَّ في علاه، لذلك قال: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) [الأعراف:180]، وأيضاً عدد الله صفات الكمال له في كتابه، قال:(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) [البروج:14-16]. فعند الإثبات يعدد صفات الكمال، وعند النفي ينفي مجملاً.

والنفي الإجمالي هنا أدب، لأنه ليس من الأدب أن تعدد النفي، لأن النفي نقص فليس من الأدب أن تعدده. ولذلك كان الإمام الطحاوي في شرح الطحاوية يقول: لو دخل الوزير أو العامل على الأمير وقال له: أنت لا يدانيك أحد، أنت لست بكذاب أنت لست بسارق أنت لست بزاني، لا بد أن يعزره لأن هذا سوء أدب، كأنه فيه من التلويح أن هذا نقص. فلذلك قال: أنت من الكمال بمكان لا نقص فيك ولا عيب.

إذاً عند النفي الإجمال، وقد يكون النفي على التفصيل لا الإجمال في حال استثنائية، ما هي؟ عند المناظرة. ما الدليل على ذلك؟ (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) [مريم:88-92]. فعند المناظرة يجدر بذلك التفصيل للرد على المخالف في هذا، لكن الأصل عند النفي لا بد من الإجمال وهذا الأدب.

ومن الأدب الثاني بعد الإثبات بالتفصيل والنفي بالإجمال؛ فعند النفي لا بد من إثبات كمال الضد. وهذا أدبٌ جم لا بد أن يتأدب به طالب العلم إذا أثبت لله جلَّ في علاه، فإذا نفى لا بد من إثبات كمال الضد. وإثبات كمال الضد تراه في الكتاب، قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255]، إذا سألت لِمَ لا تأخذه سنةٌ ولا نوم؟ لكمال الحياة وكمال القيومية.

قال الله جلَّ في علاه:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) [ق:38]، ما مسه من لغوب التعب والإعياء، لِمَ؟ لكمال قوته وقدرته التي ذكرها في خلق السماوات والأرض في ستة أيام. وأيضاً في قوله جلَّ في علاه: (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة:255]، لا يؤوده حفظهما، لِمَ؟ لأنه العلي العظيم، (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) [البقرة:255] لِمَ؟ لأن علمه أحاط بكل شيء ولا يحاط به شيء أو يحاط به علم. لذلك قال: بين النفي والإثبات.

قال: فلا عدول لأهل السنة والجماعة عمّا جاء به المرسلون، لقد فصلت القول في شرح الوسطية في القول على أهل السنة والجماعة، ومن أهل السنة والجماعة، وصفات أهل السنة والجماعة وتكلمنا عنها. هو يقول: فلا عدول؛ أي لا يجوز ولا يصح ولا يجدر بالإنسان أن يفعل ذلك، لأنه لو فعل لهلك. لأن طريق أهل السنة والجماعة هو سبيل النجاة، وطريق أهل السنة والجماعة هو سبيل التمكين، وطريق أهل السنة والجماعة هو سبيل رضوان الله جلَّ في علاه. اشترط الله للأعمال شروطاً للقبول، واشترط الله لتقديم هذه الأمة شروطاً للتقدم، ويكون له مطلق القيادة والسيادة والريادة؛ من عدل عنها لا يستطيع، من حاد عنها لا يستطيع أن يصل لأن الله جلَّ وعلا أناط المسببات بالأسباب، والنتائج مرهونة بالمقدمات.

لذلك هو يقول: فلا عدول لأهل السنة والجماعة عمّا جاء به المرسلون. أولاً فلا عدول لنا عن أهل السنة والجماعة، يعني من ممكن نفهم شيخ الإسلام ابن تيمية جزئيات. فلا عدول لأحدٍ عن أهل السنة والجماعة، لأن أهل السنة والجماعة هم الذين قد أوصى بهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم الذين قد أوصى بهم الله جلَّ في علاه. وما أوصى بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم). ما أوصى بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (يغرس الله لهذه الأمة غرساً يستعملهم في طاعته)، ولرضوانه ولنصرة دينه، هؤلاء هم أهل السنة والجماعة.

فقال: لا عدول لأهل السنة والجماعة عمّا جاء به المرسلون، فإذاً منهاج أهل السنة والجماعة هو الأثر. ولذلك قالوا: الصراط المستقيم هو الذي جاء في الكتاب المبين، وأن أهل السنة والجماعة ما صح لهم أن يكونوا من أهل السنة والجماعة ولا قادة للناس إلّا بتمسكهم بما جاء به الأنبياء والمرسلون. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإنه من يعش بعدي فسيرى منكم اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار).

فلا عدول بحال من الأحوال، لأن العدول انحراف، ولأن أهل السنة والجماعة اعتقادهم هو اعتقاد النبي -صلى الله عليه وسلم-، اعتقادهم هو اعتقاد الرعيل الأول. فقد اعتقدوا في ربهم الاعتقاد الصحيح؛ أثبتوا، وحين أثبتوا فصّلوا، ونفوا، وحين نفوا أجملوا مع إثبات كمال الضد. فلذلك أنت ترى بأنهم أخذوا أيضاً على الصفات على ظاهرها دون تحريفٍ ودون تشبيهٍ ودون تأويل، وعند التنزيه لم يعطِّلوا بل أثبتوا كمال الضد. هذا منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان عليه الصحابة الكرام.

لذلك قال: فلا عدول لأهل السنة والجماعة عمّا جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم. لأن ما جاء به المرسلون من رب العالمين هو الصراط المستقيم، ولا نجاة إلّا بالصراط المستقيم. لذلك أمرنا الله جلَّ في علاه في اليوم خمس مرات أن ندعو الله جلَّ في علاه (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) [الفاتحة:6-7]. فإذاً الصراط المستقيم الحق هو الإسلام، وما من نبيٍ إلّا وجاء بالإسلام، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الأنبياء إخوةٌ لعلّات، دينهم واحد (هو الإسلام هو التوحيد) وشرائعهم شتى). فهذا الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، وهذا هو الصراط المستقيم.

هذا الصراط المستقيم موحد، صراط واحد. وفي هذا الصراط ولو كان فيه شعب لكن هو ضمن الصراط على الخلاف الفقهي، الخلاف الذي يسع، أمّا لو نظرنا بعين الاعتقاد فلا اختلاف في الاعتقاد. أهل السنة والجماعة لا يختلفون في الاعتقاد، عند التأصيل لا اختلاف، عند التطبيق قد يقع الاختلاف لكن عند التأصيل لا اختلاف في حال من الأحوال عند أهل السنة والجماعة في الاعتقاد فهو صراطٌ واحد. وفي الفقه هو صراطٌ واحد لكنه متسع ويحدث فيه خلاف سعة من الله جلَّ وعلا، ويسع الخلاف إلّا أن يكون الخلاف محسوماً أو يكون الخلاف غير الصراط، هذا لا يمكن أن يكون من الصراط بحال من الأحوال. والصراط المستقيم ما جاء به المرسلون -كما قلنا- هو الإسلام.

الله جلَّ وعلا أفرد الصراط وجمع السبل، قال: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) [الأنعام:153]، صراط واحد ثم السبل جمعها. لذلك العلماء يقولون أبواب الضلالة كثيرة متشعبة، والحق واحد، وهذا من الأدلة التي يستدلون بها أهل الأصول على أن الحق واحد غير متعدد. النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث ابن مسعود: خط خطاً وقال: (هذا الصراط المستقيم، وخط على جنباته خطوطاً، قال على كل خط: كل سبيل من هذه السبل شيطان)، ولذلك الله جلَّ وعلا قال: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) [يوسف:106]، وأيضاً قال الله تعالى ذاما الكثرة: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [الأنعام:116].

ولذلك الصراط واحد وأمّا أبواب الضلالة فهي كثيرة وكثيرة. ولا يغرنّ المرء قلة السالك في الطريق الواحد، المرء لا بد أن يسير على هذا الطريق الذي رسمه النبي -صلى الله عليه وسلم- ورسمه بعده الصحابة الكرام ثم التابعون، ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. لأننا وقفنا عند قوله: فلا عدول لأهل السنة والجماعة عمّا جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم. فالصراط المستقيم جاء بدل منه: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ فالصراط هنا بدل الصراط الأول. والمعنى: أي الطريق المنعم عليهم الذين قد رضي الله عنهم.

وهنا قال: أنعم الله عليهم، أيضاً فيها لفت الانتباه لمسألةٍ مهمةٍ جداً، من عقدها في قلبه فاز وحاز الفضائل، أهمها بأن الفضل بيد الله جلَّ في علاه، وأن من فضّله الله ومن قدّمه الله لا يتأخر، ومن مكّنه الله له لا يمكن أن يعاوده أحد. فقد قال الله جل في علاه: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، وأيضاً قد قال الله تعالى: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) [الحديد:3]؛ وأولية الله لكل شيء، فهو الذي ابتدأ النعم التي أتتك.

ولذلك في الحديث القدسي قال الله تعالى: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلّا نفسه). كأنه يؤسس سبحانه جلَّ في علاه -إذا صح التعبير- للمكلف أن يعقل هذه النقطة العظيمة التي تجعله من ألزم الناس بالافتقار لله جلَّ في علاه، والخضوع والمسكنة. وإلّا فأصل الاعتقاد تنمية القلب وتربية النفس، فأصلها أن تعلم بأن الأولية المطلقة لله جلَّ في علاه، فيزال عن قلبك العجب والكبر والنظر إلى النفس والغرور. كل ذلك ممتنع، لأنه كلما جاءك هاجس الكبر أو هاجس الغرور ترتقي تشمخ بأنفك تمشي كالطاووس، تتذكر بأن الله جلَّ وعلا هو الذي ابتدأ لك هذه النعائم، فتفر وترغم الأنف ويخضع القلب بل وتخضع النفس ويسجد القلب، وسجود القلب سجود رفعة له عند ربه جلَّ في علاه.

لذلك قال: أنعم الله عليهم، وهذه فيها فائدة كبرى عظمى بعد هذه الفائدة التي بينتها. قال: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الفائدة الثانية هو إنعام الله يدوم ولا ينقطع، ولأن الله شكور إذا اصطفى عبداً لشيءٍ وهيأه له فأنعم عليه به، فإنه يجعل له سياجاً حتى لا تؤخذ منه هذه النعائم بحال، لأن هذه من الله جلَّ في علاه. قال: أنعم الله عليهم من النبيين، والله جلَ وعلا إذا اصطفى عبداً للنبوة لا يسلب منه النبوة، وإذا اصطفى عبد عبداً للصديقية لا يمكن أن يسلبها منه، وكذلك الشهداء والصالحين.

إذا قيل وإذا رأيت الرجل قد أتى بأسباب السلب، وما أسباب السلب؟ أسباب السلب ذكرها الله في الكتاب، قال الله جل وعلا: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال:53]. هم لا لا يغيرون ما بأنفسهم، لكن لهم الزلل والتعدي والزلات والسقطات والهنات، هذه في إطار أن الله جلَّ وعلا: إما أن يلهمه الطاعات الماحيات، وإمَّا في دائرة النعمة فيحافظون على النعمة بالأفعال التي يكون بها شكر النعمة لأن ثبوت النعائم بشكرها، فيلهمهم الله شكر النعمة ويبقى الميزان في هذا الباب.

بل وإذا كانت كما قلنا السيئات أو الزلات فإن الله شكور، لا يجعل الله جلَّ في علاه من انبرى وقد أوقف نفسه لربه جلَّ في علاه كمن تلاعب ولم يفعل ذلك لله جلَّ في علاه، لا يستويان. والله شكور، لا يمكن أن يضيع عبداً قد باع نفسه لله جلَّ في علاه، وعاش أمداً ودهراً يعمل لدين الله جلَّ في علاه. فإن كانت له سقطات أو زلات فإن الله جلَّ في علاه يجعل له الماحيات، أو يجعل الله جلَّ في علاه له الشكران والصالحات التي تغطي على هذه الزلات، وهذا من الله جلَّ في علاه.

فإذاً في قول المصنف -رحمه الله تعالى-: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الفائدة الثانية العظمى في هذا الباب ألا وهو أنه إذا أنعم على عبدٍ نعمةً لا يزيلها سبحانه جلَّ في علاه، ولو اجتمع من بأقطارها لإزالتها فإنها لن تزول، وأصلها الشكر عليها لقول الله جلَّ في علاه قال: (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم:7].

قال: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهذه دلالة الاقتران لها فوائد كثيرة جداً. منها: أولاً قرب هذه المنازل من الاقتران عندما قال: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فالنبوة هي التي هي هبة من الله جلَّ في علاه وليست مكتسبة رداً على الفلاسفة، قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) [الحج:75]، سبحانه جلَّ في علاه.

وأمّا الصديقية فهي درجة بعد درجة النبوة، وقال العلماء بأن أعلى الدرجات والمقامات هو مقام الصديقية بعد النبوة لأنه قد بلغ المرتقى الأعظم. وقد قال علماؤنا: لا يصل المرء إلى الصديقية إلّا بعد درجات، وأعلى هذه الدرجات كمال الإخلاص مع كمال الانقياد. لا تكون الصديقية إلّا بعد كمال الإخلاص مع كمال القيادة، وأنت ترى ذلك جليّاً في صديق هذه الأمة في سيد الصديقية؛ الإمام الخليفة الراشد وهو أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه-. قد قال علماءنا: سلم الأمر أو أساس الأمر هو المبالغة بالتصديق.

وقد ضرب لنا أبو بكر -رضي الله عنه- أروع الأمثلة في ذلك؛ عندما جاء أبو جهل للنبي وكان قد قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: كنت البارحة في بيت المقدس. قال: ماذا تقول؟ أعد عليّ ما قلت. قال: كنت البارحة في بيت المقدس، قال: أنت في بيت المقدس البارحة واليوم بين أظهرنا؟ قال: نعم. فسكت الخبيث وقال له: لو أتيتك بقومك تقول ذلك أمامهم؟ فذهب وحسبها مأخذاً على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء أبو جهل إلى أبي بكر قال: أرأيت ما يقول صاحبك؟ قال: وما يقول صاحبي؟ قال: يقول بأنه كان البارحة في بيت المقدس واليوم بين أيدينا، ونضرب أكباد الإبل شهراً ذهاباً وشهراً إياباً وهو بين أظهرنا وبين أيدينا اليوم. قال: أقال ذلك؟ قال: نعم، قال: صدق. مبالغة في التصديق.، فسلم الصديقية من هذا. قال: صدق، وإني والله لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك.

ثم كمال الإخلاص لله، تعلم ما كان من أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه- وهو معه مهاجراً ويقول: أتذكر الطلب فأكون خلف النبي -صلى الله عليه وسلم-، أخاف العدو من الأمام فأكون أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-. ويقول للنبي -صلى الله عليه وسلم- : لو مت أنا مات رجل من الأمة، وأمّا أنت فأنت رحمةٌ للعالمين، أو كما قال رضي الله عنه وأرضاه. فقهٌ وإخلاص؛ ومن شدة إخلاصه أنه قدّم عمر عليه وأبي عبيدة ابن الجراح، وقال: أختار لكم أحد الرجلين، فقال: كيف نتقدم وفيكم من مثل أبي بكر؟ وإخلاص أبي بكرٍ تراه أنه قال له أبوه: لو كنت استقويت ببعض من أعتقتهم يكونون لك سنداً لكان خيراً لك، قال: وما فعلت ذلك لسندٍ وإنما الأمر لله. وهذا كله من باب السير الذي يتسامح في أسانيده.

فالحق بأن أبو بكر ضرب أروع الأمثلة في كمال الإخلاص لله جلَّ في علاه واليقين وحسن الظن بالله، عندما أتى بكلية ماله وقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله. ولذلك عمر لمّا سمع ذلك ماذا قال؟ قال: أنت لا تسبق والله لا أسابقك مرة ثانية.

وضرب أروع الأمثلة في كمال الانقياد، أتراه قد حاد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قيد أنملة؟ وصلح الحديبية شاهد يبيّن لك البون الشاسع والفرق الواسع بين منزلة أبي بكر ومنزلة عمر بن الخطاب، عمر ما استطاع أن يتحمل وكل الصحابة كذلك. لمّا أمرهم بالحلق والتحلل ما سمعوا له، عمر ابن الخطاب يقول: ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال له: أما قلت لي أنني سأطوف بالبيت؟ قال: نعم، هل قلت لك اليوم؟ قال: لا. قال: (أنت تأتي البيت وتطوف، أنا رسول الله ولن يخذلني الله). لمّا ذهب عمر إلى أبي بكرٍ، قال له أبو بكر: الزم غرزه، إنه رسول الله، ولن يخذله الله.

كمال المتابعة تراها تنجلي عندما جاء عمر بن الخطاب وألح على أبي بكرٍ لخلع خالد، له ما له من الاجتهاد في هذا الباب، يشكر على اجتهاده. لكن يتمثل أبو بكر بالنبي؛ خالد قتل من قالوا: صبأنا، صبأنا. طبعاً كان هذا اجتهاد أخطأ فيه، لأنه يدعوهم إلى الإسلام وهم يقولون: صبأنا، صبأنا؛ والمعنى العرب تعرف أن الصابئ هو الذي خرج من دينٍ إلى دين، كأنهم قالوا خرجوا من دينهم إلى الإسلام. لكنه حسب أنهم يجحدون وأنهم يصرون على ما هم فيه من الكفر، فقالوا: صبأنا، فقتلهم. فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- مغضباً وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد، اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد، اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد). هل عزله؟ ما عزله، وقال: (سيف من سيوف الله سلَّه الله على أعداء الله). لذلك لمّا قتل ابن نويرة وتزوج امرأته، وقال عمر لأبي بكر: اخلعه الآن، قال: لا والله، لا أغمد سيفاً سلّه الله وسلّه رسول الله على أعدائه.

لذلك كان أبو بكر أرجح ذهناً بتمام المتابعة، فقال: والله لأقطعن عن الروم وساوس الشيطان بخالد، وقد كان. لذلك بكى عمر بن الخطاب وقال: إن أبا بكر كان أعلم بالرجال مني. نزيد على سيدنا وعلى إمامنا وعلى أمير المؤمنين وعلى الوزير الثاني بعدما نقر بما قال، ونزيد عليه ليس استدراكاً، ولكن يفتح الله، نزيد عليه بل وتمام المتابعة. ليست الفراسة في الرجال فقط، بل قد نقول أوتي الفراسة في الرجال بتمام المتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

اللهم اجعلنا من أشد الناس تمسكاً بالسنة، اللهم اجعلنا من أعظم الناس نشراً للسنة، اللهم جعلنا من أعظم الناس تعظيماً للسنة. فكمال الإخلاص مع كمال المتابعة تورث الصديقية، وتكون هذه المنزلة العظيمة منزلة الصديقين.

قال: والشهداء، والشهداء أعظم الناس منزلةً عند الله، وهم أقسام كما قال علمائنا. أقسام الشهداء ثلاثة:

١- قسمٌ وهو أعلى وأرقى وأسمى درجات الشهادة، وهي الشهادة التي تكون في المعركة بين أهل الإسلام وأهل الكفران تحت راية ولي أمر حتى يكون الأمر على الصحة في ذلك، فيكون بهذا شهيداً من أرقى درجات الشهادة. لذلك عمر بن الخطاب نظر فوجد أعلى المنازل النبوة، ليس بنبي، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو كان نبيٌ بعد لكان عمر). ثم قال: وأرقى المنازل بعده الصديقية، وهو ليس بذلك، ما وصل إلى ما وصل إليه أبو بكر. ثم قال: وأرضاها بعدهم الشهادة، فطلب من الله الشهادة، فكان شهيداً.

واعلم أخي الكريم منّ الله على النبي بالنبوة والشهادة، لمّا قال لعائشة ولغيرها: (ما زلتُ أجدُ منَ الأُكْلَةِ الَّتي أكلتُ بخيبرَ، فهذا أوانُ قطعَت أبْهَري)، فكان شهيداً. وأبو

بكر كذلك لأنه أكل معه، وعمر كان شهيداً حقاً وقد قتل لكن ما كان شهيد المعركة، فأعظم الشهادة شهادة المعركة.

٢- وبعدها الشهيد الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما تقولون في الشهيد فيكم؟ قالوا: القتل في سبيل الله، قال: إن شهداء أمتي إذاً لقليل؛ المبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغرق شهيد، والمرأة تموت بجمعٍ شهيدة). فإذاً كل هذه من شهداء الأمة لكنهم يغسَّلون ويكفَّنون ويصلى عليهم هذا الفارق بينهم، للفوارق بين المنزلة.

٣- والثالث هو الشهيد الذي في الدنيا ليس شهيد الآخرة، شهيد الدنيا هو الذي يموت في المعركة لكن يكون غالّاً، أو يكون قد تعدّى وهو في المعركة، أو قتل نفسه كالذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هو في النار)؛ قالوا: ما رأينا رجلاً يقاتل كما قاتل هذا، قال: (هو في النار). فلمّا قال أحدهم: أنا صاحبه، رآه أخذ ذبابة سيفه فاتكأ عليها فقتل نفسه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أشهد أني رسول الله).

وأيضاً لمّا قالوا على مولى النبي -صلى الله عليه وسلم-، العبد الذي غلّ شملةً وجاءه سهم الغار، فقالوا: نِعْم الشهيد هو، قال: (لا والله، إن الشملة التي أخذها من الغنائم تشتعل ناراً عليه في قبره). هذا ليس بشهيد، هو الصحيح أن نقول إنه قتيل.

قال: والشهداء والصالحين، والصالح هو الذي غلبت حسناته على سيئاته، فكانت الطاعات أكثر من المعاصي، هذا يكون صالحاً. قال: وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص. قول المصنف: وقد دخل في هذه الجملة؛ يقصد الجملة التي قبلها. وهذه أيضاً تردنا إلى تأصيلٍ مهم جداً في مسائل الأسماء والصفات، والمصنف والله كأن بين عينيه الكتب التسعة وينتقي ويأتي يكتب المتن.

قال: وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه، هذه الجملة تؤكد لنا تأصيلاً معيناً في باب الاعتقاد؛ هذه دلالة على أن اعتقاد السلف، لأن الرجل كان يصف لكم اعتقاد السلف وينقل لكم اعتقاد السلف، بأن الصفات توقيفية، صفات الله جلَّ في علاه توقيفية، لا تعدو الكتاب أو السنة أو إجماع السنة. لذلك قال: ما وصف الله به نفسه، أي وصف الله به نفسه في الكتاب أو في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك). أو في إجماع أهل السنة والجماعة، لأن ابن تيمية في الأصول أصّل أصلاً جميلاً جداً فقال: الإجماع أن الأمة لا تجتمع على ضلال، ولأن الإجماع لا يكون إجماعاً إلّا وهو مستند إلى دليل.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثاني عشر:

- الكلام على سورة الإخلاص

قال: وصف به نفسه، قلنا وصف الله جلَّ في علاه: وصف به نفسه في كتابه أو في سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- أو في إجماع أهل السنة، وكما قال ابن تيمية: الإجماع لا يكون إلا بمستند، يعني من السنة، علمه من علمه وجهله من جهله.

قال: في سورة الإخلاص، وهي سورة الصمد، سمّيت هذه السورة لأنها أخلصت في صفات الله جلَّ في علاه لأنها هي خالصة في الكلام على الصفات، وهذه من أعظم السور. لذلك فضل هذه السورة عظيم لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) عشر مرات بنى الله له بيتاً في الجنة (أو قصراً في الجنة)، فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله ﷺ، فقال: الله أكثر وأطيب). وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بأن سورة الإخلاص وهي (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن).

إذاً قال: في سورة الإخلاص، سمّاها الإخلاص وهذه فيها دلالة على أنها من أعظم السور. ولذلك قال الصاحب الجليل عندما كان مسافراً وكان أميراً عليهم على السرية، فكان يصلي بهم يبتدئ ب(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ويختتم ب(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ). في القصة الأخرى أن آخر كان يصلي به فيختم بسورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، فلما سألهما النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: أحبها فيها صفة الرحمن، قال: (أحبك الله لحبك لها). والحق أن أقول سبيل الإخلاص كثرة قراءة سورة الإخلاص.

وقال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنها تعدل ثلث القرآن). العلماء يقولون في تفسير هذا القول بأنها "تعدل ثلث القرآن"، لأن القرآن: إمّا توحيد وإمّا أحكام شرعية وإمّا قصص عن قصص الأولين؛ فالتوحيد يتكلم عن الله جلَّ وعلا وأسمائه الحسنى وصفاته العلا والربوبية. (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قد اختصت بهذا وهي خالصة في صفات الله جلَّ في علاه، لأنه لو ذكر الإلهية فالإلهية تتضمن الربوبية، ولو ذكر الربوبية فالربوبية تستلزم الإلهية، وذكر فيها الأسماء والصفات (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4].

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، الإلهية أحد، الأحادية في الثلاثة: هو أحدٌ في ذاته سبحانه جلَ في علاه. أحدٌ في صفاته ليس ند له (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]؟ كلا، تعالى الله علواً كبيراً عما يقول الظالمون. وأحدٌ أيضاً في ربوبيته سبحانه جلَّ في علاه، ليس رب مع

الله جلَّ في علاه. إذاً (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) الأحد الثلاثة. (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ)؛ الصمد ربوبية، لأن الصمد هو الذي صمد له عباده في حوائجهم، قالوا الذي لا جوف له يعني هو الغني الغنى المطلق. وأنت طبعاً الفقر وصف لك ذاتي والغنى وصفٌ له ذاتي.

قال: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4]، هذه أسماء وصفات، والله جلَّ وعلا له أسماء وصفات. إذاً هذه مسألة واضحة جداً في هذا الباب، لأن (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) كانت هي قسم التوحيد بأسره لأنها أتت بأقسام التوحيد الثلاثة: الربوبية، الأسماء والصفات، وأيضاً الإلهية وهي الأصل فيها الإلهية. فإذاً كلها مذكورة في سورة الإخلاص، لذلك قال: (تعدل ثلث القرآن)، والثلث الآخر هو القصص قصص الأولين وهو عبرة لمن يعتبر وكانت تسلية للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم-، والأحكام الشرعية؛ كالطلاق والنكاح وأيضا التجارة وغير ذلك من الأحكام التي ذكرها الكتاب.

قال: سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن، كأن سائل يسأل وما هي؟ قال هي: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4]. الحديث أخرجه الإمام الترمذي عن أُبيّ، بأن سبب نزول هذه السورة العظيمة (سورة الإخلاص)، بأن المشركين جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: انسب لنا ربك، أعوذ بالله. فأنزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4]، وهذا أخرجه الترمذي. وهم لمّا قالوا: انسب لنا ربك، كانوا يسألون عن حقيقة الله، يعني كأنهم يقولون ما حقيقة ربك؟ فدلّهم على ربه جلَّ في علاه بأسمائه الحسنى وبصفاته العلا، سبحانه جلَّ في علاه.

وقد نقول بأنه ما سئل النبي إلاّ وقد أجيب وحياً، لذلك قال: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى) [البقرة:222]، (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ) [البقرة:219]. وهنا قاعدة، لمّا قالوا انسب لنا ربك، قال الله تعالى متولياً الرد عن نفسه قال: قل يا محمد: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4].

فالله أحد سبحانه جلَّ في علاه، منفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته، لا ند ولا نظير له، لا شبيه له لا سمي له. لذلك قال الله جلَّ في علاه آمرا جبريل أن يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم- ويسأله لِمَ تأخرت علينا؟ قال له: (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) [مريم:64]، يصدِّر الربوبية ليعلم ولأن تصدير الربوبية في أول الأمر تعظيم القدر لله، وفيها إرغاب وإرهاب تعظيم الربوبية في الأول قال: (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ

لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) [مريم:64]، ثم قال: (رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...) إلى أن قال (الشاهد): (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65].

وأيضا قال الله جلَّ في علاه مُنكراً على هؤلاء الرعاع هؤلاء الخبثاء هؤلاء الكفار الفجار، الذين جعلوا أنداداً لله قال الله جلَّ في علاه: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ) يعني الكفرة، (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [البقرة:165]، وهذه تقتضي بأن وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم- وظيفة عظمى.

هذه السورة تبيّن لنا أيضاً وتجلي لنا وظيفة النبي، الحق أن أقول بأن وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم البلاغ، "يا محمد قل". إذاً وظيفتك أن تنقل وتبلّغ، "قل" هذه بلاغ، هذا هو الأصل في هذا الباب، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- مُبلّغ عن الله جلَّ في علاه وقد قال الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) [المائدة:67].

وبهذه الآيات وبهذه السورة العظيمة فيها الرد القاطع على هؤلاء المبتدعة الضالة من الجهمية والمعتزلة، الذين لا يثبتون صفات الله جلَّ في علاه، وهذه السورة تثبت صفات الله جلَّ في علاه. لا سيما بأن هذه السورة جاءت بالإثبات وجاءت بالنفي، وعلمتنا كيف الأدب عند الإثبات والأدب عند النفي، (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، (اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) نفى بإجمال، الله جلَّ وعلا واحد إذاً هو (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ).

فهو أتم البيان في الاعتقاد والتعبد لله جلَّ وعلا بهذا الاعتقاد، بصفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة لله جلَّ في علاه من الصفات الثبوتية، وأيضا الكلام على الصفات السلبية المنفية عن الله جلَّ في علاه إجمالاً (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)، وهو الواحد الأحد. لذلك فإن الله جلَّ وعلا بيّن أن أعظم الكفر وأعظم الشرك هو أن يُنسب لله الولد، لذلك اليهود يوم القيامة الذين يقولون ننتظر ربنا عزيراً كذا، نسبوه لله ولداً، قال: كذبتم (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ) [المؤمنون:91]. ولمّا أيضاً قال ابن الأكثم: النصارى الذين قالوا ننتظر ربنا عيسى كذا، نسبوه ولداً لله، فقال الله: كذبتم (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ) [المؤمنون:91].

لذلك الرد القاطع جاء (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) [مريم:88-93]. وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، يقول لي الولد. وأنا الواحد الأحد). هذا آخر ما يقال في

هذه المسألة نقف عندها بإذن الله، نقف عند قوله: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) بيان نفي الشبيه والنظير والسمي لله جلَّ في علاه.

ـ أعظم آية في الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه والحاضرين والمستمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـرحمه الله-: وما وصف به نفسه في أعظم آيةٍ في كتابه حيث يقول: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [سورة البقرة:255]، وقوله سبحانه: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الحديد:3]، وقوله سبحانه: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان:59]، وقوله: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:18]، (الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) [التحريم:3]، (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) [سبإ:2]، (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ) [الأنعام:59].

في قوله: وما وصف به نفسه في أعظم آيةٍ في كتاب الله، هنا حتى في السياق يثبت لك ويبيّن لك المصنف كيف عنده من العلم ومن الإتقان في هذا الباب. قال: وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله، كأنه قال: وعِظَم الآية يعرف من أنها اعتنت بصفة الله جلَّ في علاه، بوصف الله جلَّ في علاه.

وأعظم آية في الكتاب "آية الكرسي"، لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي ابن كعب قال: ما أعظم آية معك؟ فقال له: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، فضرب على صدره وقال: (ليهنئك العلم أبا المنذر، ليهنئك العلم أبا المنذر). وهي أعظم آية حقاً لأنها جمعت بين اسمين عظيمين؛ فالبعض يقول إنها جمعت اسم "الله" الأعظم، وقد قال بعضهم "الحي القيوم" هو الاسم الأعظم. والحق أنه "الله" هو الاسم الأعظم، وذكرت في غير ما موضع من كتاب الله جلَّ في علاه.

وأيضاً ضمنت صفات الله صفات الجلال والكمال والبهاء والعظمة لربنا جلَّ في علاه، وأيضاً هي تكلمت عن قوة الله وقدرة الله وعن صفات الله جلَّ في علاه الفعلية والثبوتية بل وأيضاً الصفات السلبية.

لذلك قال: وما وصف به نفسه، وهذا اعتقاد أيضاً السلف الصالح هؤلاء الأخيار الأبرار، وهؤلاء هم عدول أهل السنة والجماعة، فقال: حيث يقول الله تعالى: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ)، ما وصف الله به نفسه

في هذه الآية العظيمة وهي آية الكرسي وهو يقول: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) هنا الكلام على التوحيد، وهذه أعظم قضية في الكون، أو هي قضية الكون الكبرى، وهي القضية العظمى التي من أجلها الله جلَّ في علاه خلق الخلق وأنزل الكتب وأرسل الرسل وخلق الناس فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير. قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل:36]، قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56].

هذه دلالة واضحة جداً على أن أعظم آية في هذا الباب هو هذه الآية العظيمة، وهذه في سورة البقرة وهي آية الكرسي، لأنه صدّر الباب فيها بقضية الكون وهي توحيد الله جلَّ في علاه. ومن أجله خلق الله الخلق وأنزل الكتب وأرسل الرسل، ومن أجل توحيد الله جلَّ في علاه أقام الحجة على جميع الخلائق. النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول كما في الصحيحين: (الله جلَّ وعلا يأتي برجلٍ من أهل النار فيقول له: أرأيت لو كانت الدنيا بأسرها لك ذهباً أو فضة أكنت مفتدياً بها من هذا العذاب؟ قال: اللهم نعم، قال: طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، طلبت منك أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلّا الشرك). لذلك قال: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ).

طبعاً ضل أهل البدع والضلالات، قالوا بأنه لا قادر على الخلق والاختراع إلّا هو سبحانه جلَّ في علاه. والصحيح أن قول الله (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) يعني لا معبود بحقٍ إلّا هو، إلّا الله سبحانه جلَّ في علاه. وهذا المقصود الأسمى لذلك مشركو العرب آمنوا بالربوبية وإن كان فيهم بعض الشرك، لكنهم قالوا كما بيّن الله جلَّ وعلا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5]، فهم أشركوا بالله جلَّ في علاه ما لم ينزل به سلطاناً.

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)؛ هنا الحي اسم من أسماء الله جلَّ في علاه يتضمن صفة من صفات الكمال، والصحيح أن هذا الاسم كما قلنا يتضمن صفة الحياة، وهذه الصفة تستلزم جميع الصفات لأنه ما دام حياً فهو يكون مريداً يكون متكلماً يكون نازلاً يكون جائياً سبحانه جلَّ في علاه، يكون فرحاً والفرح صفة من صفات الله جلَّ في علاه، يكون ضاحكاً سبحانه جلَّ في علاه، يكون غاضباً. ولذلك بعض العلماء يقولون "الحي القيوم" اسمان عظيمان، قال ابن القيم: كل اسم يضاف إليه اسم آخر فهو كمالٌ إلى كمال، لكن هذان الاسمان قال فيهما بأنهما اسم الله الأعظم لأنه في غير ما موضع من كتاب الله جلَّ في علاه ذكرهما الله جلَّ في علاه.

قال: (الْحَيُّ) وهو اسم من أسماء الله ويتضمن صفات كمال، ويستلزم صفات أخرى هي أكثر الصفات يستلزمها هذه الصفة. قال: (الْقَيُّومُ)؛ و"القيوم" هو اسم من أسماء الله جلَّ في علاه ويتضمن صفة القيومية، المعنى هو القائم بنفسه سبحانه جلَّ في علاه.

والقائم بنفسه تفيد إفادةً عظيمة، قالوا لازمها الاستغناء التام كمال الغنى، هو أصالة أنا أقول قائمٌ بنفسه هذا كمال الغنى يعني لا يحتاج لأحدٍ من خلقه، كمال الاستغناء إذا قلنا بذلك أنه القائم بذاته قائم بنفسه سبحانه جلَّ في علاه، لا يحتاج لأحدٍ من خلقه بل كل الخلائق تصمد إليه حاجةً، قال الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ) [فاطر:15].

فإذاً القائم بنفسه وهو المقيم لغيره سبحانه، وهذه دلالة واضحة جداً على أن الجميع يحتاجون إلى الله جلَّ في علاه، قال الله: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) [الرعد:33]، وأيضاً قول الله جلَّ في علاه: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر:21]، وقال الله جلَّ في علاه: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ) [السجدة:5]. ولذلك يقول ابن تيمية: والفقر وصف لي ذاتي والغنى وصفٌ له ذاتي، سبحانه جل في علاه. وهذا أصلٌ أصيل في هذا الباب، الاعتقاد، هذا اعتقاد مهم جداً لطالب العلم هل يعتقد بأن الله جلَّ وعلا له الغنى الكامل سبحانه جلَّ في علا؟ وأن الله استغنى عن العباد؟

لذلك أنا أرى عجب عجاب!! الإسلام لا يحتاج لأحد، الإسلام دين الله جلَّ في علاه فلا يحتاج لأحد، نحن أحوج ما يكون إليه. فترى الناس تترفع عن مجالس العلم، تترفع عن العلم، تترفع عن العمل للدعوة، كأنه لمّا يفعل ذلك هو الذي يمنّ على الله بالعمل. والحق كما قال الله جلَّ في علاه مبينا هذه الفرية العظيمة عند هؤلاء المنافقين: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ) [الحجرات:17]، فالمنة العظمى من الله جلَّ في علاه، وإن الجميع أفقر ما يكونون لله جلَّ في علاه، والله الغني الحميد.

(الْحَيُّ الْقَيُّومُ)؛ القائم بنفسه، المقيم لغيره، سبحانه جلَّ في علاه. وهذا أيضاً من معنى اسم الله "الصمد"؛ يصمد إليه الجميع في حوائجهم، ففيها دلالة واضحة جداً على كمال الغنى لله جلَّ في علاه. وأيضا يدل على كمال الرحمة والعطاء. فالله جلَّ في علاه يعطي لكنه يعطي بقدر، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر:21]. الحديث الضعيف يدل على ذلك، بسند ضعيف لكن المعنى صحيح: (إن من عبادي من لو أغنيته لفسد حاله وإن من عبادي من لو أفقرته لفسد حاله)، فهو يعطيه بالحكمة سبحانه جلَّ في علاه. (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)؛ والقيومية في ذلك كما قلنا بأنها تدل على كمال الغنى.

قال: (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)؛ هنا الأول أثبت صفات الكمال فأتى بالصفات الثبوتية، وهذه الصفات الثبوتية جاءت ضمناً بإثبات الأسماء (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ). العلاقة أو السياق نفسه يثبت لنا فائدة عظيمة جداً في جملتان مهمتان: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، وهي أنه وهو المعبود وحده المستحق للعبادة لكمال الصفات وكمال الذات سبحانه جلَّ في علاه.

فلذلك قال: وهو المتفرد بالوحدانية سبحانه جلَّ في علاه، وأيضا فيها إشعار وبيان لعلاقة الربوبية بالإلهية "الملازمة"، فإذا قلنا إفراد كمال الله جلَّ في علاه: العطاء المنع الإحياء الإماتة، كمال الربوبية يلزم من ذلك أن يفرد في العبادة لأنه عندما صدَّر الباب وقال: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) يعني الله هو المعبود وحده لا تصرفوا عبادةً إلّا له. ثم قال: لأن له الكمال المطلق والبهاء المطلق والعظمة المطلقة سبحانه جلَّ في علاه، وله كمال الربوبية وصفات الكمال والجلال والعظمة.

صفة ثبوتية ثم بعد ذلك أتى بالصفات السلبية أيضاً، ولأنه المتفرد بالعطاء والمنع، المتفرد بالخلق الإحياء والإماتة، المستحق لأن يفرد بالعبادة قال: بأن له الكمال، فنفى عنه كل النقص. قال: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)؛ "السِّنَة" هي النعاس وهو النوم الخفيف، والنوم هو ثقل الرأس. والحق بأنه لمّا قال: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) بيّن لك الصفات السلبية كيف تعتقدها وكيف تكون؛ الصفات السلبية هو أن تنفي عن الله جلَّ في علاه ما هو نقصٌ، وتثبت له كمال الضد.

فعند قول الله جلَّ في علاه: (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)، فإن سألت لِمَ؟ قلنا لإثبات كمال الضد هو كمال القيومية والحياة، لأن نوم المستغرق موت. قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) [الزمر:42]، فهنا قال بكمال الحياة، وأيضاً "السِّنَة" بكمال القيومية سبحانه جلَّ في علاه، لأنه لا يحتاج لنوم ولا لشيء سبحانه جلَّ في علاه.

فإذاً هنا بيّن لنا الله جلَّ في علاه أدب من الآداب المهمة جداً عند نفي الصفات عن الله جلَّ في علاه، نفي صفات النقص هو أنك إذا كنت تنفي فلابد أن تثبت كمال الضد، لأن النفي المحض نقص لا كمال فيه، والله جلَّ في علاه له الكمال المطلق سبحانه جلَّ في علاه. لذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يرفع القسط ويخفضه)، وهنا هذا حديثٌ مهمٌ جداً أيضاً يبيّن لك مسألة النفي مع تعداد الكمالات، إثبات كمال الضد.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ويُرفع عمل النهار قبل الليل، حجابه النار، (وفي رواية: حجابه النور) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، له ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً سبحانه جلَّ في علاه).
فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يثبت لنا هنا تعداد صفات الكمال لله جل في علا مع نفي

النقص عن الله، وهذا كما قلنا الصفات السلبية الأصل فيها إذا نفيت هذه الصفات لابد من الأدب أن تثبت كمال الضد، لأن النفي المحض لا كمال فيه، والكمال المطلق لله جلَّ في علاه.

قال: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)، فالمُلْك لله جلَّ في علاه. وهنا بعد ما قال: وهو المستحق بالإفراد بالعبادة، عدد لنا كمالات الربوبية: (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)، هو المالك الحق سبحانه جلَّ في علاه. لذلك يقول يوم القيامة: (أنا الملك أنا الملك، أين الجبارون؟ أنا الملك أنا الملك أين المتكبرون؟) وهذه فيها دلالة على كمال الملك لله جلَّ في علاه.

قال: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، هذه أيضاً فيها تتمة لشرح ما سبق، كيف؟ الحق ينظر فيها نظر آخر؛ كمال ربوبية الله جلَّ في علاه تأبى أن يشفع أحد عنده إلّا إذا أذِن له، ما أحد له عند الله جلَّ في علاه كلمة. ولذلك لما قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: نستشفع الله عليك، فقال: (أو تدري ما الله؟!). فكمال الربوبية هنا في هذا الباب لأنه لا شفيع عنده إلّا بإذنه سبحانه جلَّ في علاه، ولا يكون إلّا برضاه لأن الكون كونه والعبيد عبيده والملك ملكه، سبحانه جلَّ في علاه يتصرف به كيفما يشاء. قال: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، فهنا رأينا بأن الله جلَّ وعلا بيّن الشرط الأصيل في قبول الشفاعة، أولاً نفى الشفاعة وأثبتها؛ يعني لا شفاعة إلّا إذا أذِن.

ففيها دلالة واضحة جداً على إثبات الشفاعة وإثبات الشرط فيها وهو الإذن للشافع بأن يشفع، والآيات الأخرى أثبتت الشرط الثاني وهو قوله جلَّ في علاه: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ) [الأنبياء:28]؛ فيكون الإذن وأيضاً الرضا. وقد جمعهما في سورة النجم، قال: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) [النجم:26]. مسألة الشفاعة تكون: على الإذن وعلى مسألة الرضا. وهذه الشفاعة أيضاً لها الحظ والنصيب الأوفر لنبينا -صلى الله عليه وسلم- كرامةً له، بياناً على كرامة النبي -صلى الله عليه وسلم- على الله جلَّ في علاه، ومكانة النبي عند الله جلَّ في علاه، وأنه أكرم الرسل على الله جلَّ في علاه.

قال: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)، هنا عدد صفات الكمال. يعني هنا أيضاً نبين لك بأن المصنف هنا كان دقيق النظر عندما أتى بالآية، والآية فيها ما فيها من الكلام عن الإثبات بالتعداد، التفصيل عند الإثبات، وعند نفي أجمل، ومع الإجمال إثبات كمال الضد. قال: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)؛ والمعنى بأن العلم كل العلم لله جلَّ في علاه، وسعة علم الله أنه أحاط بكل شيء علماً كما قال الله جلَّ وعلا: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، سبحانه جلَّ في علاه.

وأيضاً فإن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، الغيب كله لله كما قال الله جلَّ وعلا: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65]. والملائكة أنفسهم عندما قال الله جلَّ في علاه: (أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا) [البقرة:31-32]، لذلك قال: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ).

من طلب العلم وأراده لا يأخذه إلّا من الله، فعليه أن يبتهل ويدعو الله جلَّ في علاه حتى يُرزق هذا العلم، ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقوم من الليل ويدعو الله جلَّ وعلا أن يعلمه الله جلَّ في علاه وأن يهديه إلى ما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، سبحانه جلَّ في علاه. فحديث الخضر ظاهر جداً؛ لمّا وقف على السفينة فوجد العصفور على السفينة ينقر نقرةً في اليم أو في البحر، فقال لموسى: أنا على علمٍ علمنيه الله جلَّ في علاه لا تعلمه، وأنت على علم علمكه الله جلَّ في علاه لا أعلمه، وعلمي وعلمك بالنسبة لعلم الله جلَّ في علاه كهذا العصفور عندما أخذ من البحر وكل ذلك بإذن الله.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) وهذا نكرة بسياق النفي تفيد العموم والتأكيد على ذلك، أنهم لا يعلمون شيئاً إلّا إذا علّمهم الله سبحانه جلَّ في علاه. والله يعلم الأوعية التي تستوعب هذا العلم، القلوب أوعية فإن كانت صالحة للعلم صب الله فيها العلم صباً، وإن كانت القلوب فيها الدغل والحقد والحسد ليس فيها النقاء لا يمكن أن تكون محلاً للعلم. قال: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) وهذا إثبات المشيئة لله جلَّ في علاه وأنها حاكمة وأنها عامة.

قال: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ). طبعاً تعلمون أهل البدع والضلال ينفون كل هذه الصفات، يعني الجهمية والمعتزلة وأيضا الأشاعرة: الأشاعرة يحرّفونها وأمّا المعتزلة والجهمية ينفونها، ولذلك قالوا الكرسي هنا المقصود به العلم. (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ)، قالوا علمه وسع السماوات والأرض. ونسبوا ذلك لابن عباس بهتاناً وزوراً، ابن عباس لم يقل ذلك.

الصحيح الراجح بأنه كرسي، وهو كرسي حقيقي قد وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفاً دقيقاً، وصف النبي السماوات والأرض بالنسبة للكرسي كإبرة في فلاة. وهذا من وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد جاء عن ابن عباس موقوفاً وإن كان ابن عباس كان يأخذ من أهل الكتاب لكن ليس بالإكثار، فلذلك هذا في حكم المرفوع. عندما قال: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يُقدِّر قدرَه إلّا الله).

(الكرسي موضع القدمين)؛ يعني قدمي الله جلَّ في علاه، معنى ذلك السماوات والأراضين المرامي الشاسعة هذه بأسرها كإبرة في فلات بالنسبة للكرسي، والكرسي موضع القدمين. يا لله على عظمة الله سبحانه جلَّ في علاه، (والعرش لا يُقدِّر قدرَه إلّا الله والله جلَّ وعلا فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه). فهو كرسيٌ حقيقي، والكرسي كما قال ابن عباس موضع القدمين. والكرسي وسع السماوات والأراضين دلالة على عظمة خلق الله جلَّ في علاه، وكل ما ترى من إخبارك في كتاب الله أو في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- على عظيم خلق الله فهو من باب أولى إخبار عن عظمة الله جلَّ في علاه، فهو إخبارٌ باللزوم إخبارٌ على عظمة الله جلَّ في علاه.

لذلك قال: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)، يعني ولا يثقله حفظهما سبحانه جلَّ في علاه. (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا)؛ ولا يثقله حفظهما ولأنه جلَّ في علاه على كل شيءٍ قدير، ولأن خلق الله جلَّ في علاه كلام ما بين الكاف والنون "كن فيكون"، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)، لذلك قال: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) وهذه قاتلة للشيطان.

قال: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)؛ الله جلَّ وعلا ابتدأ بالتوحيد وختم بالعلو والعظمة. ما المناسبة بين صدر الآية وعجز الآية؟ هذه فيها النفرة من الشرك، عَلِيّ، تعالى الله عن كل شرك سبحانه جلَّ في علاه فهو الواحد الأحد، تعالى عن أي شرك حتى ولو كان من الشرك الأصغر. فهو يبيّن لك هنا علو الله جلَّ في علاه، وطبعاً وهذا علو الله العلو المطلق، علو القهر وعلو المكانة وعلو الشأن وعلو الذات فهو عالٍ على جميع خلقه، وهناك علو خاص وهو العلو على العرش (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5]. وتعالى الله جلَّ في علاه عن الشرك، قال الله جلَّ في علاه: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه). نعوذ بالله من الشرك، نعوذ بالله من الشرك.

لذلك الإمام الشافعي يقول: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء، ولأن الشرك ليس فيه النجاة خلا الشرك، يعني لو كل ذنب أقابل فيه الله جلَّ في علاه أهون عليّ من أن أقابله بالهوى. نعوذ بالله. لمّا يُصَدِّر التوحيد يقول لك هو أعلى، تعالى عن الشرك سبحانه جلَّ في علاه. لذلك جعل أعظم الثواب مع تكامل التوحيد، ولذلك أعلى الناس درجة هو من أكمل التوحيد، (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:82]. لذلك ابن تيميه يقول: وتمام الأمن والهداية على كمال التوحيد، فتعالى الله عن كل شرك.

لذلك قال (وَهُوَ الْعَلِيُّ) وهذا اسم من أسماء الله جلَّ في علاه يتضمن صفة العلو، والله جلَّ وعلا عليّ بذاته سبحانه جلَّ في علاه. فلله علو القهر (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) [مريم:93-94]، وعلو الشأن سبحانه جلَّ في علاه (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]، وعلو الذات فإن الله عالٍ على كل خلقه سبحانه جل في علاه ولمّا خلق العرش علا عليه (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5] هذا علو خاص.

قال: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) العظمة المطلقة لله جلَّ في علاه، عظيم في ذاته، عظيم في صفاته، عظيم في أفعاله سبحانه جلَّ في علاه، عظيم في أفضاله سبحانه جلَّ في علاه. فالعظمة المطلقة لله، لذلك من نازع الله في العظمة فإنه قد وقع في الكبيرة التي يمكن أن يقع فيها بالشرك ويخرج فيها من الملة، كالمتكبر الذي يتكبر وينازع الله جلَّ وعلا في صفة الكبر.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه حافظ ولم يقربه الشيطان حتى يصبح. فضل هذه الآية أن من قرأها لم يزل عليه من الله حافظ، وهذه أصله في حديث (أن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- كان عاملاً على الصدقة فجاءه الجني فسرق تمراً، عندما مسكه أبو هريرة قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما فعل صاحبك البارحة؟ فقال: قال لي عندي عيال اتركني، فتركته. قال: كذبك وسيعود، وعاد إلى المرة الثالثة، قال له: دعني وأقول لك شيئاً، فقال له: إذا أخذت مضجعك فاقرأ آية الكرسي فلا يزال عليك من الله حافظ بها، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: صدقك وهو الكذوب).

وحفظ الله جلَّ في علاه للعبد المسلم بهذه الآية أن الشيطان يفر من ذكر الله جلَّ في علاه، لا سيما وأنه بيَّن صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة لله جلَّ في علاه.

قال: (وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، فالله جلَّ في علاه يحفظ عباده المؤمنين كما قال الله جلَّ في علاه: (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ) [الأنبياء:42]، سبحان ربي العظيم. فلذلك الآية هذه من أعظم الآيات نفعاً، وعلى الإنسان قبل أن ينام لا بد أن يقرأ مثل هذه الآية، وإذا قرأها كان عليه من الله حافظ يحفظه الله جلَّ وعلا من الهوام، يحفظه الله من الجن من الإنس من شياطين الجن وأيضا من شياطين الإنس، لأنها جمعت صفات الله جلَّ في علاه.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثالث عشر: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)

قال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان:59]، ما مناسبة الأمر وتعلقه بالاسم المذكور في الآية؟ التوكل معناه تفويض الأمر، ولا بد أن يفوض الأمر لمن توفرت فيه صفات الكمال القوة والقدرة والعزة والحياة، وأيضاً السمع والبصر، فهنا كمال الربوبية به يكون هذا الذي يستحق أن يلتفت القلب إليه وأن يفوض له الأمور.

ولذلك الله جلَّ في علاه قال: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق:3]، " حَسْبُهُ" يعني كافيه، يعني الله يكفيه. لذلك إبراهيم -عليه السلام- عندما أوثقوه وأضرموا النار وألقوه في النار ماذا قال؟ في صحيح البخاري قال ابن عباس -صلى الله عليه وسلم-: حسبي الله ونعم الوكيل، كلمة قالها إبراهيم حين ألقوه في النار، وقالها أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- حين (قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [آل عمران:173]، فماذا قال الله جلَّ وعلا؟ (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ) [آل عمران:174]. لكن لمّا ألقوا إبراهيم في النار ويقال إن جبريل جاء وقال: تحتاج لشيءٍ؟ قال: أمّا لك فلا، ثم قال: علمه بحالي يغني عن مقالي، (وهذا لم يصح). لكن هو الحق أنه قال: (حسبي الله ونعم الوكيل)، فكفاه الله جل وعلا، (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) [الأنبياء:69].

فالتوكل لغةً: معناه التفويض أو كمال التفويض، يقول وكلت أمري إلى فلان أي فوضته. وحقيقة ذلك شرعاً واصطلاحاً: صدق اعتماد القلب على الله، التوكل صدق اعتماد القلب على الله جلَّ في علاه في جلب المنفعة او دفع المضر، ساق ذلك التوكل ما هو؟ يعني التوكل يعتمد على ماذا حتى نصل به إلى صدق اعتماد القلب على الله جل في علاه في جلب المنفعة أو دفع المضرة؟ صدق اعتماد القلب على الله جلَّ في علاه في جلب المنفعة ودفع المضرة واستحضار معية الله كل هذا يأتي بحسن الظن بالله واليقين بالله، لا يأتي حسن الظن إلّا بعد التصديق ثم بعد التصديق وحسن الظن يأتي اليقين.

وهذه الثلاثة هي ساق التوكل لأن التوكل هو من أجل العبادات القلب فلا يصل إليها المرء إلّا بعد المراتب الثلاث:

- التصديق ولذلك قال الله جلَّ وعلا: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً) [النساء:122]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:187]. فأنت تصدِّق، ما الذي جعل أبا بكر -رضي الله عنه- يفعل ويأتي بكلية المال إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ التصديق وهذه تلمحها في قوله: تركت لهم الله ورسوله. لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً قال: (من ترك ضيعةً فعليّ، من ترك مالاً فهو لوارثه).

أول هذه المراتب التصديق، فصدق الاعتماد على الله جلَّ في علاه في جلب المنفعة ودفع المضرة، التصديق أولاً بكل ما وعد به الله جلَّ في علاه لأنه إذا قال صدق وإذا

وعد وفى وأوفى سبحانه جلَّ في علاه. ويصدِّق بأن الله جلَّ في علاه له الكمال المطلق والبهاء المطلق والعظمة المطلقة والجبروت، وله القوة والرزق كله بيده، والملك ملكه والكون كونه والعبيد عبيده.

- التصديق أصالةً يصل بالإنسان بعد ذلك إلى حسن الظن بالله جلَّ في علاه، لأنه يصدق بأن الله جلَّ في علاه قال إذا رفعت يديك سأجيبك، (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة:186]. فإن صدّقت بذلك كنت صادق الفعل معه وصادق القول وصادق النية وصادق القول وصادق الدعاء، فإن صدقت الله يصدقك.

- فالتصديق بعده يأتي حسن الظن بالله جلَّ في علاه ثم يترتب عليه بعد ذلك المرتبة المهمة جداً وهي اليقين مرتبة اليقين، وطبعاً اليقين على مراتبه الثلاثة:

المرتبة الأولى هي المقصودة في الدنيا، صدق اعتماد القلب على الله جلَّ في علاه في جلب المنفعة ودفع المضرة. وهذا حدث مع الصحابة رضوان الله عليهم وصدقوا الاعتماد على الله جلَّ في علاه، جاء الأحزاب وأحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم إحاطة محكمة كأنها (.) الأمة الإسلامية التي تقطعت في المدينة.

وهذا الذي حدث، قال المنافقون: (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) [الأحزاب:12]، حتى لمّا ضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- الكدية، لمّا قال له سلمان على الخندق وحفر معهم، وهو يحمل بأبي هو وأمي، الكدية اعترضت طريق الصحابة ما استطاعوا لها تحريكاً، فضربها النبي -صلى الله عليه وسلم- ضربةً شعت نوراً ثم قال: (الله أكبر، أعطيت الكنزين). قام المنافقون يستهزئون -أعوذ بالله حاشاه- فقالوا: يعدنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقضي حاجته خالياً.

لكن ماذا قال المؤمنون هنا؟ وصل التصديق بهم إلى هذا اليقين قالوا: (هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) [الأحزاب:22]. فماذا حدث؟ الثمرة جاءت، تصديقهم بذلك أثر على الفعل، الثمرة جاءت ما أخّرها الله جلَّ وعلا بل عجّل بها: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) [الأحزاب:25]، فوقى الله المؤمنين شر القتال، حفظهم من ذلك بل غنّمهم بعد ذلك من أخلف الوعد وملّكهم ديارهم وأبناءهم؛ بنو قريظة هم الذين هم الذين تواعدوا معهم. ولذلك (قال جبريل: خلعت اللامة؟ قال: ما خلعت اللامة، قال إلى أين؟ قال: بني قريظة). ولذلك لمّا رُمِيَ سعد بن معاذ في كاحله قال: لا تمتني حتى تقر عيني ببني قريظة، لأنهم خانوا العهد والوعد.

الغرض المقصود بأنهم قالوا ذلك، وأيضا قالوا لمّا جاء الآتي وقال لهم أبو سفيان يعد لكم العدة، فقال الله جلَّ وعلا واصفاً ما حدث مع الصحابة: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) [آل عمران:173-174]. فإذاً هنا التوكل على الله جلَّ في علاه هو صدق الاعتماد القلب على الله في جلب المنفعة ودفع المضرة، وكلٌ بحسب إيمانه ويقينه في ربه جلَّ في علاه.

ولابد أن نشير إلى أن التوكل يأتي بثماره أحسن ما يكون، وهذا جاء أثراً أو رأيناه واقعاً في الصحابة وفي غير الصحابة وفي التابعين وفي غيرهم. أمّا في قبل الأنبياء، قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فيعقوب -عليه السلام-، ويوسف -عليه السلام-. المسألة حسن التوكل على الله جلَّ في علاه أجلبت لهم حسن الظن فكان الله عند ظنهم.

يعقوب ماذا قال؟ هو توكل على الله حق التوكل، وأراد أن يأخذ بالسبب مع التوكل والصدق والتصديق بالله جلَّ في علاه، واليقين في أن الله تعالى يكون عند حسن ظنه عندما قال: (فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف:87]. هذا بعد مرور السنين وعمي هو من شدة البكاء، لكنه يعلم يقيناً بأنه سيلتقي بيوسف. هذه تردك إلى ما قلته أولاً في مسألة التقديم في الترتيب هو التصديق، هذه من قصة يوسف.

حسن التوكل هنا تراه في مسألة تصديق المقدمة: (تصديق وحسن الظن واليقين)، قال: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [يوسف:4-5]، التصديق أورث عنده حسن الظن، وحسن الظن أورث عنده اليقين فتعامل مع الله بذلك، قال: (فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف:87].

فكان الله عند حسن ظنه فالتقى بيوسف أرسل إليه القميص، حتى أنه قال: (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ) [يوسف:94]، قال: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [يوسف:96]، فلخّص لنا مسألة التوكل على الله وحسن التوكل على الله في هذا الباب.

وإبراهيم -عليه السلام- عندما حسن توكله على ربه جلَّ في علاه، عندما أضرموا النار وأوثقوا الحبال والقوه في النار قال: (حسبي الله ونعم الوكيل). هنا جاء سريعاً حسن الظن بالله جلَّ في علاه كان عند حسن ظنه عندما قال: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) [الأنبياء:69].

بل الأعظم من ذلك امرأة إبراهيم -عليه السلام-، هاجر عندما غارت منها سارة عندما حملت فأمر أن يأخذها إلى مكة إلى أرض صحراء جرداء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء، فوضعها وهي تصرخ تقول: أهكذا تتركنا بغير ماءٍ ولا طعامٍ ولا أحد يأنس الوحشة. فتركها واستدار فقالت: يا إبراهيم لا شيء لنا، فتركها ومشى، فقالت: يا إبراهيم ءالله أمرك بهذا. التصديق ثم حسن الظن ثم اليقين قالت: ءالله أمرك بهذا، قال: الله أمرني بهذا، قالت: إذاً فلن يضيعنا. صدقت أحسنت استيقنت، هنا الآن الثمرة بعد التصديق وحسن الظن واليقين الثمرة جاءت، فجاءها جبريل في التو والحين فقالت: إن الله لا يضيع أوليائه، فضرب بجناحه فكانت زمزم عين معينة.

فهنا هذه المسألة مسألة عظيمة جداً في مسألة التوكل، وقد كان أثر ما فعله الصحابة الكرام كان له الأثر البالغ في فهم حسن التوكل على الله جلَّ في علاه، لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً).

وحسن الظن بالله جلَّ في علاه مع وجود حسن التوكل وصدق التوكل على الله جلَّ في علاه في مسالة موسى استجلبت المعيّة، تصديق فحسن ظن فيقين ثم تستجلب الثمرات بعد ذلك.

لمّا موسى -عليه السلام- قال لقومه ارحلوا، فرحلوا من بطش فرعون، فرعون هنا كأنها تشقّي قال: (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) [الشعراء:54-57] إلى آخر الآيات.

فلمّا تعقبوهم والتقى الصفان نظر أصحاب موسى فوجدوا خلفهم الجيش وأمامهم البحر، إذاً انتهى الأمر. وهؤلاء قومٌ يشكون ولا يصدقون ربهم جلَّ في علاه بل إنهم يصفون الله بالنقص، نعوذ بالله من الخذلان حاش لله سبحانه جلَّ في علاه، تعالى علواً كبيراً عن قول الظالمين. فقالوا: يا موسى إلى أين أمرك ربك؟ قال: هنا، فأشار إلى البحر. فقام يوشع بن نون فأخذ خيله ونزل إلى البحر، لمّا نزل البحر غطاه الماء فرجع إلى موسى وقال: إنك لرسول الله وإنك لمصدوق أين أمرك ربك؟ قال: هنا في البحر.

فشق البحر، فكاد يغرق فخرج وسكت، وهنا لما تراءى الصفان قال أصحاب موسى كما وصف الله جلَّ وعلا: (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) [الشعراء:61]، قال موسى: (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء:62]، تصديق حسن ظن يقين. فلمّا قال: (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، قال الله جلَّ في علاه: (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [الشعراء:63]، وهذا حسن التوكل.

قال الله جلَّ في علاه: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق:3]، سبحانه جلَّ في علاه هو كفيل. لذلك قال الله جلَّ في علاه في سورة الزمر: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) [الزمر:38]. فالله جلَّ وعلا كفيل، لذلك قال موسى -عليه السلام-: (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) [الشعراء:62-63].

المسألة الثانية مسألة التوكل هنا هي مسألة بأن جماع الخير في مسألة التوكل، أنها لا تنافي الأخذ بالأسباب. الأصل في التوكل هو حسن تصديق الله جلَّ في علاه وتصديق الله جلَّ في علاه، أن الله أناط المسببات بالأسباب. فالأخذ بالسبب من التوكل، لذلك عندما لقي عمر بن الخطاب قوم من اليمن فقال: من أنتم؟ هم تركوا الزاد والراحلة وذهبوا يريدون الحج، فقالوا: نحن المتوكلون، فقال لهم عمر بن الخطاب: أنتم المتواكلون لستم المتوكلون. في الحديث: (اعقلها وتوكل)؛ يعني خذ بالسبب. ولذلك لمّا (جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: يا رسول الله، أرأيت رقى كنا نسترقي بها وأدعية هل هي ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله جلَّ في علاه). وهذا حسن التوكل على الله لأنه أخذ بالسبب، ومع التفات القلب لله جلَّ في علاه يكون حسن التوكل على الله جلَّ في علاه.

التوكل هي عبادة لله جلَّ في علاه، الحق لابد أن نعلم بأن التوكل الذي هو عبادة لا يصح إلّا أن يكون لله جلَّ في علاه. تعلمون أنه لو قال أخاف من الله ومنك أو لله ولك كل ذلك لا يجوز، لأنه تشريك، يقول "ثم"، شاء الله ثم شئت، فلا يقول إن شاء الله وشئت، وهذا ما علّمه النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قال: ((**) من أمتي أنت).

"ثم" حتى في التوكل غير مقبولة، لأن التوكل معناها محضية العبادة وصدق اعتماد القلب على الله، فلا يعتمد على غير الله جلَّ في علاه إلّا في المواطن التي بينها الله جلَّ في علاه، وهذه ليست التعبد المحض. فالتوكل فقط إذا قال: توكلت على الله، وهذا شاع وذاع بين كثير من العوام يقول: توكلت على الله ويذكر ويضم معه العباد، وهذا نوع شرك. تقول توكلت على الله وحده سبحانه جلَّ في علاه، وهذا التوكل فيما لا يقدر عليه إلاّ الله لا يكون إلّا لله، وذلك هو التوحيد.

أمّا إذا توكل على من نصّبه الله جلَّ في علاه سبباً والتفت القلب إليه، فهذا نوع شرك. لو توكل على من أجرى الله على يديه سبباً وجعله سبباً لوصول خيرٍ للعبد، فتوكل على السبب هذا نوع شرك، هو نوع الالتفات. لكن لو توكل كليةً، لم يلتفت القلب كلية إلّا لله جلَّ في علاه هذا يرتقي المنزلة الأولى. لذلك قال ابن عباس: قول القائل: لولا الكلب

لسرق السارق، لولا البط لسرق السارق، هذا شرك. لأنه فيه نوع التفات قلب، والرب يغار، إذا التفت القلب لغير الرب جلَّ في علاه يغار الرب سبحانه جلَّ في علاه. ما يجوز، هذا نوع شرك.

أمّا مسألة الوكالة فهي تخرج من ذلك، أن توكِّل فلاناً فيما يقدر عليه أن يقضي لك حاجةً. فمسألة التوكيل الفقهي هذا خارج عن مسألة التعبد، لكن أيضاً هذا يشترط فيه شرط. وكّل النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا رافع في العرض على ميمونة، وكّلت أخي أن يشتري لي سيارة. التوكيل ليس فيه ثمة شيء، المسألة الفقهية، يكون له التصرف فيما وكلته فيه، لكن أيضا لابد أن يشترط فيه شرطٌ أكيد وأصيل في هذا الباب. قلنا إنه لابد من حيازة القلب وحفظ القلب عن الالتفات لغير الرب سبحانه جلَّ في علاه، وهذا يجعل الإنسان أقوى إيمانياً ويجعل إنسان أعز لأنه ارتبط بربه جلَّ في علاه، فكل شيءٍ له مع الله، يشكو لربه يدعو ربه يريد ربه.

أعرف من النبلاء وهو بلغ من النبل ذروته، إذا أراد شيئاً يقول أنا لا أطلبه من صاحبه أنا أطلبه من الذي خلق صاحب هذا الشيء. فمن نبله ورفيع ما هو فيه، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، قد يكون خفياً فيقول طلبت ما أريده من ربي لا منك، أنت لا تملك حتى أنت لو أنت تريد أن تموت على ذلك لا تستطيع أن تعطيه. فهذا نبل، هذا رقي في الفهم وفي الاعتقاد ونبل فعل. فالأصل في ذلك أن الوكالة لا تنافي التوكل بشرط عدم التفات القلب في هذا الباب.

وهنا في قول الله جلَّ في علاه: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان:59]، نظم أصلٍ في اعتقاد أهل السنة والجماعة، هو لمّا يقول (الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) هذا تأكيد للحياة لكن نظم لنا مسألة أهم ألا وهي: عند ذكر الصفات المنفية لا بد من إثبات كمال الضد، فهذا الأدب الأول. والأدب الثاني هو التفصيل عند الكلام على الإثبات، وكان التفصيل هنا في التأكيد ورفع التوكل، نثبت هنا أن حياة الله حياة كاملة. إذاً نقول في قول الله جلَّ في علاه: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) إثبات كمال الضد إذا تكلم عن الصفات المنفية، وأيضا الإثبات بالتفصيل فيها الرد على المشبهة لأنهم قالوا له حياة وحياته كحياة البشر، وحياة البشر تنتهي تؤول إلى الموت، فهو يقول لا حياة الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، لذلك حياته سبحانه جلَّ في علاه بلا موت.

قال: وقوله: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:18]، ضم اسمين، وقلنا قاعدة قعّدها ابن القيم وهي أيضا في بطون كتب ابن تيمية بأن الاسم كمال، أسماء الله كلها حسنى، فانضمام اسم لاسمٍ آخر كمال فوق كمال ويقوّي لك هذا الباب. لأن الله جلَّ وعلا يقرن كثيراً بين أسمائه "الحكيم العليم"، ولو نظرت تجد أن الارتباط لابد له من ثمرات، لأن

العلم دليل الحكمة، والحكمة لازمة للعلم ليوضع الشيء في موضعه. قال: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:18]؛ وهو الحكيم: هنا يعني هو الحاكم سبحانه جلَّ في علاه الذي يحكم بين عباده، ولا راد لحكمه سبحانه جلَّ في علاه. هو الحاكم، والحكم لله جلَّ في علاه ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10].

لذلك لمّا (دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على أبي شريح (كانوا يسمونه أبا الحكم)، فقال: لِمَ يكنونك بأبي الحكم؟ فقال له أبو حكم: ما اختلفوا في أمرٍ فاختصموا إليّ فيه إلّا حكمت بينهم فأخذوا بحكمي، قال: ذاك الله). لا أحد يرد عليه حكمه إلّا الله جلَّ في علاه، كلٌ يؤخذ من قوله ويرد، الحكم الذي لا يرد هو حكمٌ الله جلَّ في علاه. إذاً هو الحاكم على عباده سبحانه جلَّ في علاه، فقال: ما اسم ابنك الأكبر؟ قال: شُريح، قال: أنت أبو شُريح. وهذا دلالة واضحة جداً على مسألة تغيير الاسم إن كان يتضمن الصفة أو محاولة تضمين الصفة لابد من تغييره.

فالله جلَّ في علاه هو الحكيم، هو الحاكم الذي يحكم بين عباده جلَّ في علاه في الدنيا وفي الآخرة. قال الله جلَّ وعلا: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:59]، الرد إلى الله في كتابه وإلى الرسول بسنته. فهنا حكم الله جلَّ في علاه، وهو الحاكم بين العباد في الدنيا وهو الحاكم بين عباده في الآخرة.

أمّا الحاكم بين العباد في الدنيا، فالحكم إلى الله حكمه، وحكم الله ينقسم إلى قسمين: حكمٌ كوني وحكمٌ شرعي.

◆ والحكم الكوني لا راد له، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]، قال: (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) [يونس:107]. لا راد لقضاء الله جلَّ في علاه، فما قضاه الله جلَّ في علاه كان وما لم يكن لا يكون بحال من الأحوال. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لابن عباس: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لن ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيءٍ لن يضروك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

وما قضاه الله لابد أن يكون ولذلك لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- في المقبرة ينكث بعصا، قال له الرجل: أرأيت يا رسول الله فيما نعمل؟ أفي أمرٍ قد مضى وانقضى؟ أم في أمرٍ مستقبل؟ قال: (في أمر مضى وانقضى).

ما قضاه الله جلَّ في علاه لابد أن يكون، لا راد لحكم الله الكوني بحال من الأحوال. وإلّا فقد عجّزهم الله جلَّ في علاه بقوله: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) [المسد:1]، قضى ذلك. هل خرج ذات مرة يفكر أبو لهب أن يكذِّب هذه الآية ويقول يا جماعة الخير أنا

أسلمت ولو بالزيف حتى وبالزور؟ صرفه الله عنه. وما قضاه الله لابد أن يكون، هذا الحكم الكوني.

◆ الحكم الشرعي أنه لابد من الرجوع إلى الله جلَّ وعلا، في كل خصومةٍ لابد فيها من الرجوع إلى الله جلَّ في علاه. والرجوع إلى الله جل في علاه في كل خصومةٍ قد تقبل وقد لا تقبل؛ يعني قد يقبل حكم الله وقد لا يقبل الله جلَّ وعلا، قال: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10]. الآن كثير من أهل الخير من نراهم لا يرجعون في الخصومات إلى حكم الله، كثير من يحكم إمَا بالعقل أو بالهوى، وهذه مصيبة. الحكم إلى الله، (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:59]، فالأصل هنا الحكم الشرعي قد يقبل وقد لا يقبل.

وهذا يجعلنا أن نعيد تكراراً بأن الضابط في الفرق بين الحكم الكوني والحكم الشرعي بأن:

🌿 الحكم الكوني يقع لا محالة لا راد له، وأنه عام فيما يحبه الله وما لا يحبه الله.

🌿 والحكم الشرعي قد يقع وقد لا يقع، قال: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10]، فالحكم إلى الله. أما رأيت أن المنافق لمّا اختلف مع اليهودي وذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فحكم بينهم، هذا حكم الله جلَّ في علاه، ما قبله المنافق. الحديث وإن كان ضعيفاً أنا أمثل فيه فقط، ما قبله قال: لا أقبله نذهب لأبي بكر. فهذا رد حكم الله، فقد يقبل وقد لا يقبل. هذا بالنسبة إيجازاً للحكم الكوني والحكم الشرعي والفرق بينهما، لكن الله جلَّ وعلا هو الحاكم بين العباد.

ومن حُكْم الله التشريع، فلا مشرع إلّا الله، لذلك قال الله جلَّ في علاه: (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) [يوسف:40]، وقال: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [المائدة:50]. وقد قال الله جلَّ في علاه: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]. وقال الله جلَّ وعلا: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، والأمر هو التشريع والخلق هو التكوين. فإذاً حكم كوني وحكم شرعي.

ومن ذلك أيضاً قال: (وَهُوَ الْحَكِيمُ) وهو الحاكم وأيضاً الذي له الحكمة، لأن للحكيم اسم من أسماء الله الحسنى. وقلنا من حسن الأسماء أنها تتضمن صفات كمال وتستلزم صفات أخرى كمال، إذاً قال: (وَهُوَ الْحَكِيمُ) اسم من أسماء الله الحسنى يتضمن صفة كمال، ما صفة الكمال هذه؟ الحكمة؛ الحكم والحكمة. والحكم قد مر علينا وتكلمنا عنه. الصفة الثانية هي صفة الحكمة؛ والحكمة: أصلها وضع الشيء في موضعه، وتقول شيءٌ محكوم يعني متقن غاية الإتقان. الحكمة هنا لها فرعان:

🔸 أن يكون في غاية الإتقان، وهو محكوم وهذه غاية الإتقان من فعل الله جلَّ في علاه لأن الله له الكمال المطلق، وأيضا الحكمة لأنها معلومة في غاية. فالحكمة العظيمة هي الغاية من الفعل، وهي وضع الشيء في موضعه. ولذلك نقول أهل السنة والجماعة لا ينفون الحكمة ولا التعليم، والأشاعرة ينفون الحكمة والتعليم، وهذا بابٌ واسعٌ جداً في الاختلاف بين أهل السنة والجماعة وبين الأشاعرة. وإن نظرت إلى ذلك وجدت أن كثير من الأحكام الكونية لها حكمة؛ كالحكمة الكونية من التقدير الكوني والحكمة من التقدير الشرعي.

الحكمة من التقدير الكوني مثلاً لو أخذنا بذلك هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كتب الله على رسوله الهجرة بعد ما لاقى ما لاقى في أهل مكة وأنهم عذبوا أصحابه وأنهم تكالبوا عليه وأرادوا قتله وأنه لقي ما لقي من الشدة واللأواء في مكة، كتب الله عليه الهجرة. ولذلك لمّا قال أبو بكرٍ للنبي -صلى الله عليه وسلم- واستأذنه في الهجرة قال: (لعلّ الله يجعل لك صاحباً)، فكتب الله عليه الهجرة وفيها حكم عظيمة جداً وكثيرة جداً منها:

- أولاً نجاة المسلمين من أيدي الكافرين.

- ومن الحكمة أيضاً تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة.

- ومن الحكمة أيضاً دخول الأنصار كلهم في دين الله جلَّ في علاه.

- ومن الحكم أيضاً في هذا الباب، ترك مكة فيها ما فيها ممن يتحسر على خروج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومنهم من يهفو قلبه إلى الإيمان فيسلم وأخفى إسلامه. ثم بعد ذلك أن يفتح الله على رسوله، بعد ذلك يعود فاتحاً فيدخل كل أهل مكة في دين الله أفواجاً. وظهرت هنا مسألة تقدم أبي بكر على عمر حتى في أسارى بدر عندما قال: هم قومك يا رسول الله فلعل الله يكتب لهم الإسلام فيكونون لك عضداً ونصيراً، وقد كان، لأنهم ذهبوا إلى غزوة مؤتة فكان في هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- معاني وحكم عظيمة جداً في هذا الباب.

- وأيضاً من هذه المعاني أن الله جلَّ وعلا يبيَن بشرية النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- وأيضاً يبيّن الله جلَّ وعلا أنه أوفى من وفى بعهده سبحانه جلَّ في علاه، وعهد النبي -صلى الله عليه وسلم- بالحفظ وأيضاً السلامة، بل وانتشار الدعوة لمّا وضعوا سلا الجزور على ظهره وجاءت فاطمة تسب وتجدع هؤلاء ونزعت سلا الجزور عن ظهر النبي -صلى الله عليه وسلم-. وفي رواية أنه لما بكت فاطمة قال: (لا تبكي ليس على

أبيك من بأس والذي نفسي بيده لا يترك هذا الدين بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل). كل هذه كثير من الحكم التي تكون في هذا الباب.

من ذلك أيضاً صلح الحديبية، قدّره الله جلَّ في علاه. صلح الحديبية أيضاً فيه حكم عظيمة جعلها الله جلَّ في علاه، مع أن صلح الحديبية لم يستطع عمر وهو الوزير الثاني أن يقبل بالشروط التي قبل بها النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: لو عرضوا عليّ خطة رشد لأجبتهم عليها، في صلح الحديبية. قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: من أتى منكم فلا يرد ومن أتى منا إليك لابد أن يرد، ولما جاءوا بأبي جندل مسلسلاً قال: أتتركوني فيفتنوني في ديني؟! فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً). قال سهيل هذا لا يدخل في التعاقد في الشروط؟ قال: هذا أول من يدخل، فقال: (سيجعل الله لك ولأمثالك فرجاً ومخرجاً)، وقال لعمر: (إني رسول الله ولن يخذلني).

وكانت الحكم العظيمة سمّاها الله فتحاً، (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) [الفتح:1]، قال: هو فتح يا رسول الله؟ قال: نعم هو فتح. حكم عظيمة جداً، والله جلَّ وعلا فعل ذلك وأخبر سهيل بن عمرو الذي جاء وقال: اكتب باسمك اللهم لا نعلم من الرحمن الرحيم، هو من أسلم ووقف موقف أبي بكرٍ عند موت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

من الحكم العظيمة أيضاً عند مسألة التقدير ما حدث مع الصحابة الكرام، ما حدث مع صهيب، ما حدث مع بلال. هذه من الحكم العظيمة أوقع الله عليهم هذا البلاء، ليعلم الناس جميعاً كيف أن هؤلاء قد بذلوا المهج من أجل دين الله جلَّ في علاه فلذلك مكّن الله لهم، مكّنهم الله من رقاب البلاد والعباد، وعبّدوا العباد لرب العباد سبحانه جلَّ في علاه.

من الحكم التي تراها، حكم شرعية في التشريع؛ تشريع مناسك الحج، أغلب مناسك الحج غير معللة. ولكن إذا نظرت في هذا الباب ترى حكمة عظيمة جداً مقصودة من عدم التعليل في مناسك الحج، وهي غاية التعبد غاية التسليم لله، الذي هو قمة التوحيد. لأن أصل الإسلام هو الاستسلام، يرمي سبع حجرات لا يدري ماذا؟ مع أن الإمام الألباني حسّن حديث (رجم الشيطان بيده)، وهذا فيه كلام. وأيضاً الطواف سبعة أشواط لِمَ لم تكن تسعة؟ لِمَ لم تكن ثلاثة؟ سبعة أشواط. الصلاة بعده، وسبعة أيضاً أشواط بين الصفا وبين المروة ثم الذهاب إلى الحل وبعد ذلك الحرمة وبعدها المبيت ثم جاء بعد ذلك بذكر الله جلَّ وعلا.

كلها من أجل محض التسليم لإعلاء توحيد الله جلَّ في علاه، ولأن العبد الذي ذكر بأنه عبد لله جلَّ في علاه فإن الله يختبره حتى يظهر العبودية. أيضاً تشريع النكاح، والمقصد الأسمى من تشريع النكاح هو الولد. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تناكحوا

تكثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة)، ولذلك جعل لها الشهوة من أجل أن يقضي المرء وطره من أجل الولد.

قال: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:18]، هنا ترى الحكيم الخبير أو اللطيف الخبير. "الخبير" هنا: هو العلم بكل ما دق وخفي ولطف. كثيراً ما تجد أنه يقترن اللطيف مع الخبير، لأن اللطيف يخفي الأشياء في أضدادها، وهذه من إتقان الإحاطة. فالخبير هو علم بكل ما دق وخفي سبحانه جلَّ في علاه، لمّا قال الله جلَّ في علاه عن أهل الكفر ما يكنون لأهل الإسلام، قال: (وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [فاطر:14]، قال في سورة آل عمران: (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ) [آل عمران: 118]، إلى أن قال: (هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) [آل عمران: 119].

فإن الله جلَّ في علاه يعلم خفايا الأمور، وهنا نرى بأن الله يعلِّم من يشاء من عباده بالفراسة ليعلم ما وراء الستار، وهذا ليس رجماً بالغيب لكن فراسة، هذه نعمة من الله يؤتيها من يشاء.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الرابع عشر: تفسير (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

قال المصنف -رحمه الله-: وقوله سبحانه: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الحديد:3]، وقوله سبحانه: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) [الفرقان:58]، وقوله: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:18].

يقول المصنف -رحمه الله تعالى- والكلام موصولاً بإظهار اعتقاد أهل السنة والجماعة، قال: وقوله سبحانه: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [الحديد:3]؛ فهذه الأسماء الأربعة تدور عليها العبادات بأسرها والاعتقادات بأسرها في هذا الباب.

يقول: (هُوَ الْأَوَّلُ)؛ "الأول" اسم من أسماء الله جلَّ في علاه وهو قد فسره النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثابتٌ هذا الاسم لله في الكتاب والسنة. وقد بيّنا القاعدة في مسائل

الأسماء، وأن الأسماء لا تثبت إلّا بنصٍ (بالتوقيف)، فأسماء الله توقيفية، وصفات الله توقيفية؛ قال الله جلَّ في علاه: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف:180]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في بعض كتبك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك). فالأسماء محض توقيف، الأسماء لا تكون إلّا بنص.

فثبت الاسم "الأول" لله جلَّ في علاه بالنص، وهذا اعتقاده في أولية الله جلَّ في علاه كما سنبيّن، يعني الأولية الأزلية الأبدية، الأول والآخر. وثبت أيضاً بالسنة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أنت الأول فليس قبلك شيء).

"الأول" هو اسم من أسماء الله جلَّ في علاه، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو ويقول: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء)، وأيضاً يدعو به. والتعبد الحق لله جلَّ في علاه بالنظر إلى هذا الاسم العظيم من أسماء الله الحسنى "اسم الله الأول"، طبعاً هو اسم الله الأول والآخر.

الاسم "الأول"؛ كما قلنا أولية الله جلَّ في علاه، وقبل أن نبيّن كيف نتعبد الله باسم الله "الأول"، وأن هذا الاعتقاد هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأننا نرى في كثير ممن ننسبه لأهل السنة والجماعة يسمّون الله بالقديم وهذا لا يثبت، "القديم" ليس اسماً من أسماء الله جلَّ في علاه. لكن الحق أن "القديم" ينزل منزلة الخبر عن الله جلَّ في علاه، ولأن القدم له نوعان: قدم نسبي وقدم حقيقي.

القدم النسبي: هو أن كل قديم هناك ما هو أقدم منه، أمّا الأصيل في هذا الباب نقول: أزلية الله جلَّ في علاه، الأصح لها أن يقال الأول لا القديم. وفي كتاب شرح الطحاوية أخطأ في هذا الباب أيضاً -كما بيّنا-، وأكثر من مصنف قد سمو الله بالقديم، وهذا ليس اسماً من أسماء الله جلَّ في علاه، أخشى أن يكون هذا حيدة أو إلحاد، لكنهم يعني يُعذر لهم أنهم يقصدونه خبراً لا يقصدونه اسماً.

وأولية الله جلَّ في علاه هي أن الله جلَّ وعلا أولٌ بلا ابتداء، وهذه الأولية في كل شيء؛ فهو الأول الذي ابتدأ كل شيء فقد ابتدأ الخلق سبحانه جلَّ في علاه هو الذي خلق الخلق بعدما لم يكونوا؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كان الله ولم يكن شيء، وعرشه على الماء، خلق العرش فكان على الماء)، وأيضاً قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [المر:62]، وقال الله جلَّ في علاه عن خلق الإنسان وهو الذي ابتدأ خلق الإنسان: (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) [الإنسان:1]. فإذاً هذه الأولية، أولية الله جلَّ في علاه، الأولية في الخلق، فإن الله جلَّ في علاه الذي خلق الخلق.

الأولية في خلق الخلق؛ وهذه تدل دلالة واضحة جداً على نفي التسلسل المنسوب لابن تيمية، في التسلسل لا بد له من تفصيل لم يقل به حقاً، وهذا الذي يقول به الفلاسفة. فهنا الأولية لله المطلقة سبحانه جلَّ في علاه، أولٌ بلا ابتداء، وابتدأ الخلق سبحانه جلَّ في علاه. هذا نفي التسلسل، وقد قال الله جلَّ في علاه: (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ) [الإنسان:1-2] ... إلى آخر الكلام.

أنت ترى بعض الجهلاء الذين قالوا بأن آدم كان قبل إبليس أو شيء من ذلك، قالوا كلام مثل هذا، يعني هؤلاء يريدون مسألة التسلسل، لا نهاية له لا بداية، يقولون بالتسلسل. وهذا الكلام مشكلة، هذا كلام الفلاسفة. وهنا قول الله جلَّ في علاه: (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) [الإنسان:1-2]، فهذه الأولية.

أيضاً الأولية في الذكر، لأن الله جلَّ وعلا ذكرك أولاً ذكرك في كتابه، واعتنى بك وأنت جنين في بطن أمك ثم أخرجك مسلماً، ثم أنشأك على الإسلام، ثم هداك للهداية، ثم وفقك للعلم، ثم وفقك للعبادة. فهذا التعبد لله جلَّ في علاه في النظر إلى أولية الله جلَّ في علاه، كل شيء، لأن الله قال: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم وأوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله).

الأولية هنا أولية الذكر، ذكرك الله جلَّ وعلا في الملأ الأعلى، ذكرك الله جلَّ وعلا حين أمر القلم أن يكتب كل شيء في اللوح المحفوظ؛ (لمّا خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، لذلك خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- على العباد بكتابين وقال: (الكتاب الأول الذي في يميني كتاب فيه أسماء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وذرياتهم)، قال: (ثم أجمل على ذلك لا زيادة ولا نقصان)، وكذلك الذي في شماله، (أسماء أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء ذرياتهم ثم أجمل على ذلك).

ذكرك الله أولاً؛ فذكرك مسلماً، وطبعك مسلماً وأنشأك مسلماً، وأنشأ لك الهداية في قلبك، وأوزع في قلبك طلب والعلم والعبادة وأيضاً العمل والدعوة إلى الله جلَّ في علاه، كل ذلك من الله. يقطع عنك هذا العجب أن يأتيك، يقطع عنك مادة العجب، ويقطع عنك أيضاً مادة الكبر، لأن العجب سلم للكبر. والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (قال الله تعالى: الكبر ردائي)، ومنازعة الله جلَّ وعلا في هذه الصفة العظيمة كبيرة من الكبائر. لا يقطع عنك العجب مهما بلغت من العلم إلّا وأنت تعلم أن ما بك من الخير فهو من الله، لذلك ابن تيميه دائما يبكي ويقول: ما مني من شيء؛ يعني ليس مني، المسألة من

الله. لذلك كان يمرغ نفسه في التراب ويبكي ويقول: ويا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني.

فالأولية أن الله هو الذي وفقك سبحانه جلَّ في علاه، ولذلك العبد المخذول لا يلومن إلّا نفسه، والعبد الموفق المسدد لا ينظر لنفسه وتشمخ أنفه بالتعاظم، بل يعلم أن الله جلَّ وعلا هو الأول الذي ذكره أولاً؛ ابتدأ خلقه، ثم بعد ذلك رعاه وهو جنين في بطن أمه، ثم أنشأه مسلماً، ثم بعد ذلك فتح له أبواب العلم. كم وكم ممن يجلس مجالس علم يخرج كدهانات الحائط تشرب ولا ترى ثمراً؟! كم وكم ممن يقرأ ولا يعقل؟؟

قد يغلق الله على العبد باب الفهم فلا يفهم، وله حكم في ذلك، والعبد الذي تراه قد انتفع بالعلم عملاً وعلماً ونشراً بين الناس وكانت البركة في علمه، هذا من الله، محض فضل من الله، فعليه أن يذهب ببصره دائماً إلى التعبد لله جلَّ في علاه بأولية الله، بالتعبد لله جلَّ في علاه بأنه الأول سبحانه جلَّ في علاه. فأنت ما ابتدأك خيرٌ قط إلّا بالأول سبحانه جلَّ في علاه.

لذلك قال: (هُوَ الْأَوَّلُ)؛ يعتقدون أولية الله جلَّ في علاه، وإذا قال بأن هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، اعتقاد الفرقة الناجية، نعم تنجو بذلك لأنهم لا يرون مسألة التسلسل، ويرون أن الجميع عدم ثم خلقهم الله ثم يعودون بعد ذلك عدماً ولا يبقى إلّا الله. قال الله جلَّ وعلا: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص:88]، سبحانه جلَّ في علاه. الكل يفنى والله الرب سبحانه وتعالى يبقى، ويقبض الله السموات والأراضين فيقول: (أنا الملك، أنا الملك، أين المتكبرون؟ أين المتجبرون؟)، كما سيأتي في مسألة التعبد بالآخر.

قال: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ)؛ و"الآخر" اسم من أسماء الله جلَّ في علاه، وقد قاله النبي، لا نحتاج لأحد أن يفسر لنا. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأنت الآخر فليس بعدك شيء)، كما قال الله جلَّ في علاه: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) [الرحمن:26]. ولذلك أتكلم مع بعض الناس ليفقهوا عني ما أقول؛ أقول كل ما أنيط بالدنيا فهو إلى زوال، كل ما من كانت رابطته رابطة الدنيا فهو إلى زوال.

وانظر من حولك التقارب والتباعد في هذا الباب، وانظروا ما السبب الأصيل تجد أن المسألة فيها دنيا، وإن لم تكن فيها دنيا فيها دين وراءه دنيا. المعنى أنه ما أراده ديناً أراد دنيا، لأنني لمّا أخالفك وتبتعد عني بالمخالفة في مسألة يسعنا الخلاف، إذاً ما السبب؟ الدنيا إلى زوال نعم، لكن لو كانت للدين ستكون الديمومة، ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل. لذلك قال: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)؛ كل شيءٍ في الدنيا إلى زوال، كل شيءٍ ارتبط بالدنيا فهو إلى زوال. أمّا إذا كانت الآخرة فهو إلى الديمومة ولا انقطاع، لذلك كل محبةٍ تنقطع وتزول إلّا المحبة في الله.

لذلك قال: (وَالْآخِر)؛ وآخرية الله جلَّ في علاه تقطع عنك الرياء والسمعة. إذاً التعبد باسم الله "الأول" يقطع عنك العجب والكبر، وهذه مادة هلاك، والتعبد لله باسم الله "الآخر" تقطع عنك الرياء والسمعة، وتمحض لك بالقلب الإخلاص. وذلك لأنك إذا علمت أن آخر أمرك يؤول إلى الله، آخر عملك في الصحيفة يرفع إلى الله كما قال الله جلَّ في علاه: (فيبيتون فيكم فيعرج الذين باتوا في الصحف)، قال الله جلَّ في علاه: (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) [المعارج:1-4]، لكن في الحديث الذي أريد استشهد به: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع له عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل).

إذاً آخر أمرك يؤول إلى الله جلَّ في علاه، فإن علمت أنه سيكون في صحيفتك فتستحي أن يرى منك أنك تفعل الفعل وتريد غيره، سيقال لك يوم القيامة: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه). وفي النهاية مآلك إليه، ثم المثول بين يدي الله جلَّ في علاه، والسؤال عن كل دقيق وجليل وصغير وكبير. فإن كنت قد بايعت ربك جلَّ في علاه، فالمبايعة غليظة والميثاق أشد ما يكون، فعليك أن تفي لربك حتى إذا سئلت يوم القيامة رأى منك الوفاة مع التقصير ومع عدم الإتقان وعدم الإحسان، لكنه شكور.

فالتعبد لله جلَّ في علاه في الاسم "الآخر" يقطع عنك باب السمعة والرياء، ويمحض لك الإخلاص في القلب. وإن الله لا يقبل من العباد إلّا ما كانوا على الإخلاص، قال الله جلَّ في علاه عن يوسف -عليه السلام-: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) [يوسف:24]. والله يجعلنا في ذلك جميعاً، فإن الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً لوجهه؛ كما (قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: الرجل يقاتل شجاعة، يقاتل حمية، من أجل الغنيمة، قال: أي ذلك في سبيل الله؟ قالوا: ما له؟ قال: لا شيء له، إن الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان صالحاً خالصاً وابتغي به وجهه)، ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رآى رآى الله به، ومن سمّع سمّع الله به).

فمن نظر إلى الآخرية انقطع عنه الرياء والسمعة، لأنه من الذي يمدح، يمدحه سين وصاد وعين ونون، سيذمك لام وميم، والحسد والحقد موجود والمسألة في الدنيا متقلبة، (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران:140]. لكن يبقى لك إن مدحك الله فالشجر والحجر يمدحوك، العصافير تحتفي بك وأنت لا تدري ورب العزة، وصيتك في السماء يعلو. ولذلك لمّا دخل الأعرابي على النبي فقال له: أعطني فإن مدحي زين وذمي شين، فماذا قال؟ قال: (ذاك الله، ذاك الله). فإن مدحك الله فلا يهمنّك شيء، ولا (*) شيء من البشر أجمعين، لا يساوون شيئاً في ذمهم أو مدحهم. وإن ذمك الله، لو أتيت بقطرات

الماء والندى لمدحك أو لرفع ذلك عنك فلن ينتهي. لذلك أفضل ما يمكن أن يقدمه المرء توكلاً على الله هو أن يتعبد لله جلَّ في علاه باسم الله "الأول"، وباسم الله "الآخر".

قال: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ)؛ "الظاهر" هنا فسّره النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً، قال: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء). وهذه فوقية الله جلَّ في علاه، فوقية العلو؛ علو الشأن وعلو الذات وعلو المكانة وعلو القهر. فهو الظاهر فوق كل شيء، ولذلك كل من علا فالله فوقه، فلا يحسبن نفسه قد اعتلى، فإن الله يسقطه. قال الله جلَّ في علاه: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف:21]، قال الله جلَّ وعلا: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18].

وأعجب القهر وأعظم القهر هو قهر القلوب، لا تملك من قلبك شيئاً، هذا أعظم القهر. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء). لذلك علماؤنا قالوا: لا إكراه في القلوب، القلب هذا لا إكراه فيه، الإكراه للجوارح فقط، لا إكراه في القلوب، لذلك الله جلَّ وعلا قال: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) [النحل:106]. فأعظم القهر هو قهر القلوب، سبحان ربي العظيم.

لذلك قال: (وَالظَّاهِرُ)، سبحانه جلَّ في علاه هو الظاهر فوق كل شيء، فالله فوق كل شيء. وهذا يدلك على أمرٍ آخر مهم جداً، عندما تتعبد لله جلَّ في علاه باسمه "الظاهر" أمرٌ جلَّل لو وصلت إليه ولنعم ما وصلت إليه. الحق أنت إن تعبدت لله باسم الله "الظاهر" تعلم يقيناً بالتمكين لأهل الدين، فلا يصل إلى قلبك اليأس ولا القنوط؛ قد تبكي وتتباكى على الأوضاع، قد يحترق قلبك قد وقد تسير وأنت في الشوارع وحدك وتقول يا رب علينا بالحجر والشجر الآن ولسنا من اليهود، لأننا نعلم يقيناً بأن الحجر والشجر على اليهود ليس علينا، لكن ما نراه الآن الوضع الذي تعيش فيه كل شيء عليك، ما في أحد لك حتى وأنت بعدما مددت يد الإحسان كل شيء عليك.

لكن إن تعبدت لله جلَّ في علاه باسم الله "الظاهر" تعرف أن التمكين أقرب من شراك نعلك، هذه الأمة ممكنة ولأن الله قوي قاهر، ولأن الله قوي قادر، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بشّر هذه الأمة بالرفعة والسناء والتمكين)، قال: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم). مهما يكون الطوارق والإحاطة بك فالتمكين قادم قادم، لا يتخلف بحال من الأحوال. والمستقبل للإسلام رغم الأنوف، لأن الله جلَّ في علاه هو الذي يسيّر هذه الدنيا بأسرها، ولأن من حارب لا يحارب الأشخاص، هو يحارب الله، ومن حارب الله (.) من ينتصر -إن صح التعبير-. فإن الله جلَّ في علاه ينافح عن دينه ويدافع عن أوليائه، (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ

آمَنُوا) [الحج:38]، هذه القراءة التي تعجبني جداً ودائماً أرددها لكن لا (.) قراءتها، لكن هي قراءة رائعة من القراءات التي تملأ القلب يقيناً في الله جلَّ وعلا.

فالله ظاهرٌ سبحانه جلَّ في علاه وليس شيءٌ فوقه، فهو فوق كل شيء، فهو القاهر على كل شيء سبحانه. وأنت ترى قد أحدقوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الأحزاب وزلزلوا، كما التصوير القرآني قال الله جلَّ في علاه: (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) [الأحزاب:10-11]، لكن ماذا قالوا؟ (قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) [الأحزاب:22]، أمّا المنافقون قالوا: (مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) [الأحزاب:12]. فهنا الله جلَّ وعلا قال: (مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) [الأحزاب:23]، (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) [الأحزاب:25].

الحق أننا كما قلنا إذا تعبدنا لله جلَّ في علاه بهذا الاسم العظيم "الظاهر"، لم ترتجف القلوب وتتزلزل الأركان إلّا جبليّاً كالخوف الجبليّ، وبعد ذلك يستقر الأمر في القلب ويعلم المرء أنه ليس له إلّا الله، فإن كان الله هو الذي سيعصمه سيعصمه، (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67].

قال: (وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)؛ و"الباطن" هنا اسم من أسماء الله جلَّ في علاه، فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وأنت الباطن فليس دونك شيء)، طبعاً (ليس دونك شيء) هذه بمعنى شدة القرب، ولا بد في اعتقادك أن تعلم أن دقة القرب بأنه قريبٌ في علوه. فقلنا هنا "الباطن القريب"، وهنا قريبٌ في علوه، ولا ينافي القرب العلو.

هناك معية عامة ومعية خاصة؛ المعية الخاصة للمؤمنين، والمعية العامة معية الربوبية (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) [الحديد:4] بعلمه كما قال السلف. لكن ابن القيم يقول: والقرب لم يرد إطلاقاً في الكتاب إلّا خاصاً بالمؤمنين، لذلك قال: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56]، وقال: (أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً، تدعون سميعاً قريباً)، قال: (إن الذي تدعون أقرب لأحدكم من عنق راحلته).

و"الباطن" معناها: أن الله جلَّ وعلا يعلم بواطن الأمور ويعلم خفايا الأسرار ويعلم كل شيءٍ دقيقٍ وجلَّيل وكبيرٌ وصغير، لا تواري عنه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضاً، ولا جبل ما في وعره، ولا بحرٌ ما في قعره، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى مخ ساقها.

فإن الله يعلم كل شيء ويرى كل شيء ويسمع كل شيء، فلذلك قال: "الباطن" لازمهُ أنه يسمع كل شيء، يرى كل شيء، قويٌ على كل شيء، أيضاً وهو أقرب إلى كل

شيء من أي شيء سبحانه جلَّ في علاه. والقرب لا ينافي العلو، فهو بالمحكم على عرشه استوى سبحانه جلَّ في علاه، كما قال ابن عباس: والكون كله في يده كحبة خردلٍ في يد أحدكم.

لازم الاعتقاد كما اعتقاد الفرقة الناجية، لازم اعتقاد الفرقة الناجية بأن ربها هو "الباطن" وأن من أسماء الله "الباطن"، بأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً ظاهر أو خفي. هذا يجعلك تعلم أن الله تعالى يعلم ضوابط الأمور، يعلم كل شيء كما قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، وأيضاً قال الله جلَّ في علاه: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ) [البقرة:255]، وقال ربنا في عليائه: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65].

وأيضاً بالتعبد لله جلَّ وعلا بسم الله "الباطن"، أن تعلم أن الله شهيدٌ على كل شيء، فهذا رزق. يعني فأنا نتعبد به يغفر الله لنا فيها المراقبة وفيها الإحسان وفيها وصول العبادة إلى الإحسان، وأيضاً أن تعتقد بأن اسم الله جلَّ وعلا "الباطن" بأنه قريبٌ منك، إذاً يطمئن قلبك بقرب ربك منك. وأعظم هذه الأسباب بأنك أيضاً مع اسم الله "الباطن" تزداد في ذلك قرباً لأن تكثر من ذكر الله، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه).

قال: (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)؛ "كل" نصٌ في العموم، إذاً كل شيءٍ يعلمه الله جلَّ في علاه، قد أحاط بكل شيءٍ علماً سبحانه جلَّ في علاه. قال (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)؛ "عليم" هنا فعيل، صيغة من صيغ المبالغة وفيها دلالة واضحة جداً على علم الله جلَّ في علاه بكل شيء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

والحق بقول "عليم" بصيغة فعيل وهي صيغة مبالغة فيها امتلاء العلم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فيها الرد على طائفتين مبتدعتين: القدرية والرافضة الخبثاء، يقولون أن الله لا يعلم شيئاً قائله إلّا أن يقع، ويقولون بأن الأولياء يعلمون. هؤلاء الأغبياء السفلة القدرية والرافضة أيضاً يقول بأن الله لا يعلم الشيء قبل وقوعه، الحق هم القدرية والرافضة يقولون أنه يعلم الظاهر دون الباطن، نقف عند هذا.

سؤال: يقول ما هو الراجح باسم الله الأعظم؟

الإجابة: على خلاف بين العلماء، والذي أدين الله به بأن الراجح الصحيح أن اسم الله الأعظم "الله"، لأن كل الأسماء تضاف إليه على أنها صفات ولا عكس، والأمر الثاني

هو أكثر اسم ذُكِر في القرآن هو "الله". وأيضاً هو الذي جاء في الأحاديث الكثيرة التي جاءت باسم الله الأعظم؛ (لمّا مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على رجل يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد الفرد الصمد، قال: سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعِي به أجاب).

وأيضاً قال: (اسم الله الأعظم في سور ثلاثة: في البقرة وآل عمران وفي طه)، وكلها (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، ولذلك البعض يقول "الحي القيوم" هو الاسم الأعظم. الصحيح "الله" الاسم الأعظم لله جلَّ في علاه، والله تعالى أعلى وأعلم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس عشر: صفة العلم والأدلة عليها

ما زلنا في الواسطية واعتقاد أهل السنة والجماعة، ويجب أن يكون المرء على نفس هذا الاعتقاد، لأن هذا الاعتقاد هو اعتقاد النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعتقاد أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وهؤلاء الأماجد من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هو سيعتقد ما تنص عليه الآية من صفات وأسماء لله جلَّ في علاه، قال: وقوله سبحانه وتعالى: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد:4].

قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)؛ هنا أثبت صفة من صفات الله جلَّ في علاه، من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، وهي صفة العلم. وصفة العلم من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية التي لا تنفك عن الله بحال، وصفة العلم لله ثابتة بالكتاب وبالسنة وإجماع أهل السنة، بل والعقل أيضاً.

أمّا بالكتاب فقد قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، وقول الله جلَّ في علاه: (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) [طه:7]، وقول الله جلَّ في علاه: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) [الإسراء:25].

وأمّا من السنة فكثير؛ فحديث الاستخارة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب)، فهذا إثباتٌ لعلم الله جلَّ في علاه. وأيضاً إجماع أهل السنة؛ أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات العلم لله جلَّ في علاه، وأنه صفة من صفات الله من صفات الذاتية.

وعلم الله وسع كل شيء؛ (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ) [البقرة:255]. ولذلك لمّا جاء موسى -عليه السلام-، ذهب إلى الخضر وركب في السفينة، جاء عصفور فنقر نقرة في البحر فقال الخضر لموسى -عليه السلام-: (أنت على علمٍ علمكه الله جلَّ في علاه لا أعلمه، وأنا على علمٍ علمنيه الله جلَّ في علاه أنت لا تعلمه، وعلمي وعلمك بالنسبة لعلم الله جلَّ في علاه كما ينقر هذا العصفور من البحر)، فهنا سعة علم الله جلَّ في علاه. ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12].

وإثبات العلم لله جلَّ في علاه؛ نقول والعلم علمان: علم غيبٍ وعلم شهادة، وهذا كله بالنسبة لله جلَّ في علاه سواء، فالله جلَّ في علاه يعلم الغيب والشهادة، وهما سواء عند الله جلَّ في علاه (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) [طه:7]. ولذلك فإن الله يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون:

١- "علم ما كان": فإن الله جلَّ وعلا قد قصّ علينا كل ما مضى مما كان، وقال الله جلَّ في علاه حاكياً لنا عما حدث ودار بين نوح وقومه، وبين نوح وابنه عندما قال لابنه: (وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) [هود:42-43]، ثم الحوار الذي دار بين نوح وبين ربه جلَّ في علاه: (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [هود:45-46]، فقصّ علينا ما دار.

وقصّ علينا ما دار أيضاً من إبليس وما أكنه في نفسه عندما قال: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) [الكهف:50]، وأيضاً بيّن لنا الحوار الذي كان من إبليس عندما قال: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء:61-62].

وقصّ علينا كل ما حدث مع الأنبياء بينهم وبين أممهم؛ (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:105]، (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:123]. فإذاً كل هذه الآيات تثبت لنا ما كان، وقصّه الله جلَّ في علاه علينا، لذلك كانت معجزة باهرة للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقصّ على الناس كل ما دار بين الأنبياء، وهذا من الله جلَّ وعلا بعلم الله جلَّ في علاه السابق.

٢- "ويعلم ما يكون": وعلم الله بما يكون مستقبلاً، ولذلك أنت ترى بأن الله جلَّ في علاه قد أخبر لنبينا -صلى الله عليه وسلم- بما سيكون، أخبره بأنه سيتمكن من الدنيا بأسرها وأن أصحابه سيتمكنون من رقاب العباد؛ عندما قال لفاطمة: (لا بأس على أبيك بعد اليوم، والله لا يترك هذا الدين بيت مدرٍ ولا وبرٍ إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل)، وقد كان. والنبي -صلى الله عليه وسلم- ضرب الكدية وقال: (الله أكبر، أعطيت الكنزين الأحمر الأصفر)، وقد فتح الله لهم كنوز كسرى وقيصر. وهو الذي قال لسراقة وهو في ضعفٍ وخوفٍ وفرارٍ من أهل مكة، وسراقة يتبعه من أجل النوق فيقول له النبي: (كيف أنت وبيدك سواري كسرى)، وقد كان عمر أعطاه سواري كسرى فلبساهما سراقة -رضي الله عنه وأرضاه-.

أيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يحشر الناس نار)، هذا مما سيكون. وأيضاً مما قال بأنه سيكون وقد وقع في زمننا، عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله؟ قال: لا بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)، وهذا الذي نراه واقعاً الآن مما أخبر به النبي العدنان -صلى الله عليه وسلم-. ومن ذلك أيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين يدي الساعة سنون خداعة يصدّق فيها الكاذب ويكذّب فيها الصادق ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين وينطق الرويبضة، قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الرجل الفاسق (أو قال: الفويسق) يتكلم في أمر العامة)، هذه دلالة واضحة جداً على أيضاً هذه المسألة المهمة ألا وهي مسألة أن الله يعلم ما كان وما يكون.

٣- وهنا المسألة الثالثة وهو أنه يعلم "ما لم يكن لو كان كيف سيكون":

هذا في الممكنات وفي المستحيلات:

أمّا في الممكنات فقد قال الله جلَّ في علاه عن أهل النفاق: (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة:46-47]، هذه كلها دلالة على ما يكون. هو ما لم يكن، لكن لو كان وخرج المنافقون وفيكم سماعون لهم وهم يبغونكم الفتنة، قال الله جلَّ في علاه: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ

انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)، وهذا في الممكنات.

وفي الممكنات أيضاً يوم القيامة عندما قال الله جلَّ وعلا: (وَلَوْ تَرَىٰ) تأويله لأهل الكفر عندما رأوا، (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:27-28]، لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر وإنهم لكاذبون، وهذا في الممكنات "ما لم يكن لو كان كيف سيكون". مع أن الله قال كلمة وهو قائلها بأنه من مات لا يرجع إلى الدنيا مرةً ثانية، إلّا إذا كان مستثنى من المعجزات التي أرادها الله جلَّ في علاه.

وأمّا في المستحيلات فقول الله جلَّ في علاه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22].

فالعلم صفة من صفات الله جلَّ في علاه، ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل والعقل أيضاً يثبت العلم. كيف أن العقل يثبت صفة العلم لله جلَّ في علاه؟ العلم في العبد كمال باتفاق العقلاء، فلئن يكون كمالاً في الله من باب أولى. لكن لنا أن نقول أيضاً خلق الأشياء لا يكون إلّا عن إرادةٍ وعلم؛ تغاير خلق السماء، أرض منفصلة، هذه التي جعلت الأشاعرة ينفون الإرادة. فنقول تغاير الأشياء هذه لا تكون إلّا من مريد، والمريد لابد أن يكون عالماً، هذه إرادة، إثبات العلم بالعقل فثبتت هذه الصفة صفة الكمال والجلال والبهاء والعظمة لله بذلك.

ويتعبد المرء لله بهذه:

- أولاً: حسن الاعتقاد بإثبات الصفة لله جلَّ في علاه

- الثاني: أن يتعبد الله جلَّ في علاه بالتوسل بهذه الصفة، هذا نوع تعبد لكن كيف يتوسل بها؟ الشاهد قال: (بقدرتك على الخلق وبعلمك الغيب)، وهذا توسل الآن، يتوسل بهذه الصفة.

- الأمر الثالث: إذا اعتقد بأن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، يعرف أن العملة الزائفة لا تروج على الله جلَّ في علاه، فيذهب إلى قلبه فيطهرها، وإذا أساء أحسن، وإذا زل عاد فرجع بسرعة الفيئة ورجعة إلى الله جلَّ في علاه، والأوبة والتوبة وأيضاً. بأنه بحسن اعتقاده في إثبات العلم لله جلَّ في علاه، يعلم بأن هذا العلم يقترن بالحكمة، وأنه ما من شيءٍ في الكون إلّا يعلمه الله جلَّ في علاه،

سواء دولة الكفار على المؤمنين أو العكس في هذا الباب، وله فيه حكم كما قال الله جلَّ في علاه: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران:140]، وهذا عن علم.

في قوله: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ)؛ يعني ما يدخل فيها، والذي يدخل في الأرض هو البذور والكنوز والموتى والقطر، فهو يعلم ما يلج في الأرض. أقوى ما يلج في الأرض هو الإنسان المدفون، عندما يقبر ويأتيه الملكان فيسألانه، فهنا الآن الله جلَّ وعلا يبيّن أنه ما من أحدٍ ينزل في القبر إلّا ويعلمه الله جلَّ في علاه، هو الذي وكّل الملائكة به ليسألانه؛ كما في الحديث إذا دخل القبر، قال: (فيأتيانه ملكان فيقعدانه فيسألانه)، الأسئلة المشهورة. وأيضاً البذر، وأيضاً القطر ينزل في الأرض وتحيا به.

(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)؛ هو النبات، والمعادن كالنفط وغير ذلك، واللآلئ والأحجار الكريمة والذهب والفضة، كل هذه معادن تخرج من الأرض، والله هو الذي أخرجها.

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ)؛ والذي ينزل من السماء ويعلمه الله جلَّ في علاه المطر، والذي ينزل من السماء ويعلمه على الله جلَّ في علاه الملائكة؛ (فهناك ملائكة سياحين لله جلَّ في علاه، يسيحون في الأرض، ينظرون إلى حلق العلم وحلق الذكر، يحفون هذه الحلق ويقولون: دونكم بغيتكم، فيجلسون فيصعدون يعرجون إلى الله جلَّ في علاه)، ويقول في آخر الحديث: (هؤلاء القوم لا يشقى بهم جليسهم). فهو يعلم ما ينزل من السماء؛ كالمطر، الملائكة، الصواعق، من ذلك الأرزاق والمطر يحوي الأرزاق، فهذه تنزل من السماء.

قال: (وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)؛ الذي يصعد إلى السماء العمل الصالح، قال: (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر:10]. والملائكة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- :(يتعاقبون فيكم ملائكة في الليل والنهار، فيلتقون في الفجر وفي العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم). قال الله جلَّ في علاه سورة المعارج: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) [المعارج:4]، في الآية الأخرى سورة السجدة قال: (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) [السجدة:5]. فالعروج هنا: عروج الملائكة وصعود العمل الصالح لله جلَّ في علاه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل).

من العروج أيضاً عروج الروح؛ قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) [الزمر:42]، فعروج الروح كأنها تطوف حول العرش إلى السماء، ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في دعائه: (اللهم إن أمسكت روحي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها)، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في صريح الدعاء.

قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)؛ جميع السلف قالوا: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) يعني المعية، والمعية هنا معية العلم، معكم بعلمه كما قال الله جلَّ في علاه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [المجادلة:7]، فهو معهم بعلمه سبحانه جلَّ في علاه. قال: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)؛ وهذه أيضاً فيها سعة العلم ودقة العلم.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وقوله؛ وهذا أيضاً كأنه يقول: وهذه جملة الاعتقاد الذي يعتقده أهل السنة والجماعة في ربهم، في الصفات التي أثبتها الله لنفسه. طبعاً إذا قلنا بهذا هذه طريقة المتقدمين أنه يثبت لك الصفة على أساس الاعتقاد يكون على أساس الدليل، لا تكن مثل أهل البدع فإنهم يعتقدون ثم يستدلون، أمّا أهل السنة والجماعة قائدهم في الاعتقاد هو الاستدلال "الدليل". قال: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) [الأنعام:59].

أولها في قوله جلَّ في علاه: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ)، ما هي مفاتح الغيب؟ مفاتح الغيب خمسة ذكرها في آية واحدة، كما قال في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلّا الله)، ما هي؟ (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) [لقمان:34] هذه الخمس من ادّعاها فقد كفر.

١- (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)؛ فمن قال بأن علم الساعة سنة ألفين وتسعمئة وتسعة وثلاثين، أو القول من هؤلاء المتهوكين المخبولين الذين يقولون دمار العالم يعني سيكون في وقت كذا ساعة كذا، وهذا قد قال به أهل الغرب أكثر من مرة، فمن قال بذلك فقد كفر. النبي -صلى الله عليه وسلم- أمره أن يقول: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) [النازعات:42-44]، وقال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً) [الأعراف:187].

ولذلك (جبريل -عليه السلام- قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، (جاء الرجل يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم-: متى الساعة؟ قال: ما أعددت لها)، تسأل عن شيءٍ لا يخصك أنت ماذا أعددت لها؟ (قال: ما أعددت لها إلّا حب الله ورسوله، قال: المرء مع من أحب)، ولنعم الإجابة ولنعم السؤال في هذا الباب، سبحان رب العظيم أوجز فأخذ وحاز كل الفضائل، قال: (المرء مع من أحب). الغرض المقصود علم الساعة من ادّعاه فقد كفر.

٢- (وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ)؛ فمن قال بأنه يعلم متى الغيث، أين الغيث، فقد كفر. لكن هذا يرد علينا إشكال كبير، ليل نهار النشرة الجوية تقول: وغداً أمطار هاطلة، وغداً أمطار فماذا نقول في هذا؟ يعني كل من يتكلمون بالنشرة وقع في مثل هذا؟ طبعاً نحن لا نقول بذلك بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يقال فيهم في هذا الباب، الحق بأنهم يقولون: ويتوقع غداً كذا، وهذا اسمه إناطة النتائج بالمقدمات، يقولون: هناك مقدمات نتائجها قد تكون كذا. وهذا ليس رجماً بالغيب، حتى فراسة المؤمن ليست رجماً بالغيب، فالأصل في ذلك أنه ليس رجماً بالغيب.

فمن ادّعى نزول المطر، وادّعى مكانه وزمانه جزماً، كفر بذلك لأنه كذّب الله جلَّ في علاه، لأنه هو الذي قال: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ).

٣- (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)؛ وعلم ما في الأرحام أيضاً ليست عند أحد إلّا عند الله جلَّ في علاه، وهذه سيورد لنا إشكالاً آخر ألا وهو السونار، الآن يقول: بنت، ولد، توأم. كيف الإجابة عن ذلك؟ (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) قبل التكوين وعند التكوين وبعد التكوين وكشف هذا بعد التخليق، كشفه لأنه خُلِق، في أحد يعلمه قبل التخليق؟ ما أحد يعلمه قبل التخليق، هذا هو.

٤- (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا)؛ وهذا الرزق بيد الله جلَّ في علاه، وليس لأحدٍ يعلم ما الذي سيأتيه، ما الذي يُمنع منه. ولذلك الشافعي كان يقول:

دع الأمور تجري في أعنّتها *** ولا تبيتن الليل إلّا خالي البالِ

ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها *** يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

٥- (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)؛ وهذه أيضاً من الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله جلَّ في علاه.

لذلك قال: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ)، لذلك ادعاء علم الغيب لأحدٍ دون الله جلَّ في علاه لا يجوز بحال من الأحوال، بل هو كفر. وأنت ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- لما دخل على الجاريتين تغنيان، قالت الجارية: وفينا نبيٌ يعلم ما في غدٍ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعي ما تقولين، ارجعي فقولي على ما كنت تقولي)، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم شيئاً من الغيب. قال الله تعالى: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65]، وقال الله تعالى: (إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ) [يونس:20]، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: (وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) [الأعراف:188].

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم من الغيب شيئاً، وقد ضربت أمثلة كثيرة جداً على ذلك؛ منها حادثة الإفك، لو كان يعلم ما حدث معه ما حدث يسأل الجارية، يسأل زينب

يسأل علياً، يسأل أسامة. ما كان يعلم المنزل الذي نزله في غزوة بدر، وقال الحباب بن المنذر: أهذا المنزل أنزلكه الله أم هو الحرب والمكيدة؟ قال: الحرب والمكيدة، قال: ليس هذا المنزل. أيضاً مسألة أسارى بدر ما كان يعلم الغيب؛ (عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) [التوبة:43].

فإذاً النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يعلم الغيب بحال من الأحوال، إلّا ما أعلمه الله جلَّ في علاه، وهذا سر ما نقول في الفهم في قوله: (إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) [الجن:27]، قد يُعلمه ببعض الغيوب تصديقاً له على أنه نبي وتكون معجزة له وتصديقاً له على أنه نبي؛ قالوا ليوسف -عليه السلام-: (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) [يوسف:36-37] ... إلى آخر الآيات، فهنا أيضاً الإخبار بمسائل الغيبيات من الأنبياء تكون بمثابة المعجزة لتصديق النبوة.

قال: (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ)؛ ما في البر من الدواب، من النبات، من البحار من الأنهار، من الأشجار، من الجبال، من السهول، من الأودية، من الخلق، من الجن، من الإنس، من الطير، كل ذلك كل هذه الأمم يعلمها الله جلَّ في علاه. (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)؛ البحر فيه ما فيه من الجواهر الخالدة، وهذه الجواهر لا يستطيع أن يصل إليها إلّا من يغوص، ويقال إن عوالم البحر لا يعلمها إلّا الله جلَّ وعلا، كثيرة وفيرة لا يعلمها إلّا الله جلَّ في علاه.

قال: (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)؛ يعني الورقة التي تتساقط من الشجرة يعلمها ربنا جلَّ في علاه، سواء تساقطت على البحر، على النهر، على الأرض، على الجبل، على السهل، على الوادي، فإن الله يعلم كل شيء دقيقه وجليله.

قال: (وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ)؛ من حبوب الثمار والزروع التي تدفن فتوضع في باطن الأرض، فبعد ذلك تكون ثمرة يانعة. قال: (وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ)؛ هذا يعتبر الكلام على العموم بعد الخصوص، وهذا العموم بعد الخصوص يدل على الشمول، بأن الله جلَّ وعلا ما من شيءٍ في الدنيا بأسرها في السماوات ولا في الأراضين وما بينهما إلّا ويعلمه الله جلَّ في علاه.

قال: (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)؛ هذه سيأتي فيه الكلام على مراتب القدر، يعني كل شيءٍ مكتوب، كل شيءٍ علمه الله جلَّ وعلا، قد كتبه سبحانه جلَّ في علاه، فمكتوب في اللوح المحفوظ كل شيء، قال الله جلَّ في علاه: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء:105]، وقد قال النبي -صلى الله

عليه وسلم-: (أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة).

فكل ذلك، كل ما يعلمه الله جلَّ وعلا مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، كتبه الله جلَّ في علاه عندما أمر القلم أن يكتب، وهذا قبل أن يخلق السماوات والأرض، وهذه كما قلنا مرتبة من مراتب القدر. وهذا سيأتي تفصيله إن شاء الله على التمام والكمال، نقف عند هذه الآية، يعني ممكن تكون مرتبطة هذه الآية بها.

قال: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) [فاطر:11]؛ "ما" هنا مصدرية، فحمل الأنثى معلوم لدى الله جلَّ في علاه، فهو يعلم في أي يومٍ تحمل يعني متى تخصب البويضة من الحيوان المنوي، وفي أي يومٍ تضع يعني كم من المدة تحمل: سبعة أشهر، تسعة أشهر، فوق ذلك، سنة، سنتين. هم يقولون أقصى مدة للحمل أربع سنين، يقال أن ثلاثة من علماء الأمة ولدوا بعد أربع سنين حمل يمشون بأسنان كاملة، الإمام مالك ابن علية يقال أنه هو أيضاً نفس الأمر، هذا من العجب!!

قال: وفي قوله تعالى: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) [فاطر:11]، وقوله تعالى: (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]. في قوله جلَّ في علاه: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ)، "ما" هنا مصدرية، والمعنى بأنه سبحانه وتعالى يعلم كل شيء عمّا تحمله المرأة من الأجنة؛ فهو يعلم في أي يومٍ تحمل، في أي يومٍ تضع، وهل هو ذكر أم أنثى، شقي أم سعيد، والرزق والأجل، كل ذلك يعلمه الله جلَّ في علاه.

قال (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ)، يعلم يوم الحمل وهم لا يعلمون، ويعلم يوم الوضع أيضاً وهم لا يعلمون، وهذه المسألة مسألة بيد الله جلَّ في علاه، يعلمها ربنا جلَّ في علاه، "يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون".

تكلمنا عن سعة علم الله جلَّ في علاه، أنه يعلم كل شيء، الغيب والشهادة عنده سواء. (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65]، فالغيب كله لله جلَّ في علاه، "يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون".

▪ "يعلم ما كان"؛ وقد أخبرنا الخبر عمّا كان من إبليس وآدم، عمّا كان من قوم نوح لنوح، عمّا كان من قوم عاد لنبيهم، عمّا كان من الأمم التي كذبت بالرسل مع رسلهم كما بين الله جلَّ في علاه وقص ذلك على نبينا -صلى الله عليه وسلم-. (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:123]، قال الله جلَّ في علاه: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، يعلم الله جلَّ في علاه من إبليس وما يكن في صدره وأمره بالسجود فأبى (أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [البقرة:34].

▪ "ويعلم ما يكون"؛ لذلك أخبرنا بالغيبيات، بكثير من الغيوب كما أخبر الله جلَّ في علاه بما سيكون، وجاء هذا مفسّراً على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (بين يدي الساعة سنون خداعة، يصدّق بها الكاذب ويكذّب فيها الصادق ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين). وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الله تعالى سيعطيه الكنزين عندما ضرب الكدية، قال: (الله أكبر أعطيت الكنزين).

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله زوى لي الأرض، وسيبلغ ملك أمتي إلى ما زوي لي منها)، وقد كان ودخل هذا الدين بيت مدرٍ ووبر بعز عزيزٍ أو بذل ذليل. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لسراقة: (كيف أنت وأنت تلبس سواري كسرى؟)، وقد كان. كل ذلك من الغيوب التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمره الله جلَّ وعلا أن يذكرها من باب الغيوب، أن الله جلَّ وعلا يعلمها وذكرها وقد تحققت.

▪ "وما لم يكن لو كان كيف سيكون"؛ سواء في الممكن أو المستحيل كما مثّلت أنا قبل ذلك بقول الله جلَّ في علاه عن المنافقين: (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) [التوبة:46]، هنا محل الشاهد: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة:47]، هذا كله من باب علم ما لم يكن لو كان كيف سيكون من الممكنات.

ومن الممكنات أيضاً في الآخرة في قول الله جلَّ وعلا عن الكافرين المنافقين: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:27-28]. هناك أكثر من آية تثبت علم الله "ما لم يكن لو كان كيف سيكون"، قال الله جلَّ وعلا: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) [الحجر:14-15]، قال الله جلَّ وعلا: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) [الأنعام:9].

لذلك قال: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)، ففيها سعة علم الله جلَّ في علاه، وهذه دلالة على ضلال القدرية الذين ينفون علم الله جلَّ في علاه ويقولون أنه لا يعلم الأشياء إلّا بعد وقوعها. ولذلك الإمام الشافعي قال: خاصموهم بالعلم فإن أقروا فقد خصموا وإن أنكروا فقد كفروا؛ لأنهم قد نفوا صفة من صفات الله جلَّ في علاه، ثابتة في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. كيف يكون نفي العلم كفر؟ ما الوجهة عند العلماء في نفي العلم عن الله كفر؟ هناك وجوه ثلاثة للكفر:

◆ أول الوجوه تكذيب الله، قد أثبت الله لنفسه العلم قال: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، وأثبت له رسوله في سنته العلم: (أستخيرك

بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب)، واتفق العلماء بالإجماع على إثبات العلم لله جلَّ في علاه.

◆ والثاني نفي العلم عن الله وصفٌ بالنقص، ووصف الله بالنقص كفر، قال الله جلَّ في علاه عن اليهود لمّا وصفوا الله بالنقص: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64].

◆ الثالث ملازم للثاني، ألا وهو تشبيه الخالق بالمخلوق. إن قالوا بأن النقص يعتريه -أستغفر الله-، أو يوصف الله بالنقص فقد شبّهوه بالمخلوق، وقال نُعيم بن حمّاد: من شبه الخالق بالمخلوق فقد كفر.

قال: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)؛ فهو وحده سبحانه وتعالى المنفرد بعلم الأجنة، متى يكون الحمل، متى يكون الوضع، أيضاً تتم الحياة أو لا تتم، الرزق، الأجل، والشقاوة والسعادة، وكل ذلك لا يعلمه إلّا الله جلَّ في علاه.

قال: وقوله تعالى: (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]؛ هنا كأنه يقول ومن وسطية أهل السنة والجماعة الاعتقاد في الله جلَّ في علاه بإثبات صفة القدرة وإثبات صفة العلم، وهنا التعرف على الله جلَّ في علاه بصفتين من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة:

أمّا الصفة الأولى فهي صفة القدرة لله جلَّ في علاه، وصفة القدرة لله جلَّ في علاه صفةٌ ثابتةٌ في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. ولا يكون رباً إلّا أن يكون قادراً، فإن كان عاجزاً فلا يستحق الربوبية، لا يكون رباً كما بيّن الله جلَّ وعلا عجز الأصنام التي يصفون لها العبادة: (يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ) [الحج:12]، (يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) [الحج:13]، وأيضاً وصف الله جلَّ وعلا: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) [الأنعام:195]، كل هذا دلالة على النقص.

فالقدرة من لوازم الربوبية، ومن كان قادراً استحق أن يكون رباً، فلزم أن يكون إلهاً، (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). فقد ورد في كثير من الآيات إثبات القدرة لله جلَّ في علاه، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الحديد:2]. وفي السنة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فإنك تقدر ولا أقدر). واتفق أهل السنة والجماعة بأن القدرة التامة المطلقة لله جلَّ في علاه؛ خلق وأعطى ومنع وأحيا وأمات ورزق، وهذه من قدرته سبحانه جلَّ في علاه، من تمام قدرته.

فالقدرة التامة لله جلَّ في علاه وهي من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، لذا نقول بأن المرء يتعبد لله بهذه الصفة بأن الله جلَّ في علاه على كل شيءٍ قدير، فإن كان

فلا بد أن تقول الممكن والمتاح والمستحيل تحت قدرة الله الجميع سواء؛ لذلك (لمّا دعا النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم، فقال له أبو بكر مطمئناً: إن الله سينجز لك ما وعدك). ولذلك يقول الله تعالى: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]، قال الله تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) [الأنفال:9].

الغرض المقصود بأن الله جلَّ في علاه على كل شيءٍ قدير، وقدرة الله على كل شيء. وهذا يظهر لك خطأ من قال إن الله على ما يشاء قادر، وهذا قول المعتزلة لأنهم ينفون قدرة الله على التحكم في أفعال العباد، لذلك يقولون الله على ما يشاء قادر أو قدير. وهذا من قول المعتزلة، ليس من قول أهل السنة والجماعة. والصحيح هذا خطأٌ بيّن، ولك أن تقول: (أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). فلله القوة والقدرة المطلقة سبحانه جلَّ في علاه التامة، وهي من صفات الذات، لا يمتنع عن الله جلَّ في علاه شيء، إذا أراده الله كان، قال له: كن، فيكون.

يتعبد المرء لله جلَّ في علاه بهذه الصفة العظيمة من صفات الكمال والجمال والجلال والبهاء والعظمة:

- أولاً حسن الاعتقاد في الله جلَّ في علاه؛ إثبات صفة القدرة لله تعبد، وخروج عن ضلال أهل البدع والضلالات، حسن الاعتقاد في الله بأن الله جلَّ وعلا قادرٌ وأن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله قاهرٌ فوق عباده.

- الثانية امتلاء القلب بإثبات القدرة وازعٌ لتعبد القلب لله جلَّ في علاه، حسن الاعتقاد لازمٌ لحسن الظن بالله. وهذا حسن التعبد؛ تعبد القلب لله جلَّ وعلا بحسن الظن فيه، لأنه يعتقد بأن الله جلَّ وعلا على كل شيءٍ قدير، فإذا اعتقد قدرة الله جلَّ في علاه على كل شيء فإنه سيُحسن الظن بالله ويُحسن التوكل عليه، سيفوض أمره كله له، ويعتقد بأنه ما من صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا دقيقٍ ولا جليل إلّا بقدرة الله جلَّ في علاه، فيَحسن اعتقاده في الله. فحسن الاعتقاد بوصف الرب جلَّ في علاه بالقدرة يؤدي الى حسن الظن بالله، يؤدي إلى حسن التوكل على الله جلَّ في علاه.

كما قلت لكم في التعبد لله جلَّ في علاه حسن الاعتقاد في الله يؤدي إلى تعبد القلب بحسن الظن بالله جلَّ في علاه، وحسن الظن في الله بأن كل شيءٍ صغير أو كبير أو دقيق أو جليل تحت قدرة الله جلَّ في علاه يؤدي إلى حسن التوكل على الله جلَّ في علاه. وهذه من أجلّ العبادات؛ (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [المائدة:23]. فالمقوّي لحسن التوكل على الله، حسن الاعتقاد في أن كل شيء تحت قدرة الله جلَّ في علاه، وأن الله على كل شيءٍ قدير.

لذلك انظر في قول عمر بن الخطاب؛ حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه قال: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)، لن تكون ممن حاز التوكل بعبادة "حق التوكل" إلّا بحسن الاعتقاد بأن الله على كل شيءٍ قدير، لذلك لو صدق التوكل أزحت الجبال من مقامها من مكانها وتزاح، والله يفعل لك ما لا يفعل لغيرك. حسن التوكل على الله بصدق التوبة عند الذي قتل مئة نفس، فعل الله له ما لم يفعل لغيره، أمر بأرض التوبة أن تقترب وأرض المعصية أن تتباعد. أصحاب الغار "الثلاثة نفر"، لمّا انسدت فوهة الغار وجاءت الصخرة الكبيرة فأغلقته فإنه بحسن التوكل على الله جلَّ وعلا وصدق العمل والإخلاص فيه لله جلَّ في علاه حرّك الله لهم الصخرة، فالله على كل شيءٍ قدير.

فحسن الاعتقاد في الله بوصفه بصفة الكمال والجلال والبهاء والعظمة، بالقدرة التامة، وازع إلى أن يتعبد المرء لربه جلَّ في علاه بحسن التوكل على الله أو يتوكل على الله حق التوكل كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً).

قال: (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ وقلنا بخطأ من قال إن الله على ما يشاء قادر. وحتى نرد على أهل البدع وضلالات، أن من قدرة الله جلَّ في علاه التحكم في أفعال العباد، ومشيئة العباد تابعة لمشيئة الرب جلَّ في علاه، هذه أيضاً من باب القدرة؛ قال: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خلق الله كل صانع وصنعته). قال (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)، وهذا بيّناه في سعة علم الله جلَّ في علاه، أنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون.

العقيدة الواسطية

الدرس السادس عشر:

ـ صفة القوة والرزق

كأن ابن تيمية يقول أيضاً ومن اعتقاد السلف الكرام ووسطية هؤلاء يعتقدون في الله جلَّ في علاه بإثبات الأسماء والصفات، في قول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [الذاريات:58]، صحة الاعتقاد هي المحرك الرئيس للتعبُّد الصحيح لله جل في علاه. إثبات هذه الأسماء لله، إثبات اسم الله، "الله" وهو الاسم الأعظم كما بينا قبل ذلك.

"الرزّاق" اسمٌ من أسماء الله جلَّ في علاه لأنه قد ثبت، وقد قلنا بأن القاعدة عند العلماء بأن الأسماء توقيفية، وأيضاً الصفات توقيفية.

قال: (إِنَّ اللَّهَ)، "الله" اسم من أسماء الله جلَّ في علاه يتضمن صفة الإلهية، وقد وسعنا الخبر فيها قبل ذلك. (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) [الذاريات:58]، و "الرزّاق" اسمٌ من أسماء الله الحسنى. وقلنا ونعاود أن نكرر لنثبّت أن الأسماء هذه حسنى فعلى، لا يمكن أن يصل المرء لهذه الأسماء الحسنى إلّا بالتوقيف، وأنها حسنى لأنها علامة على ذات الله جلَّ في علاه ولأنها تتضمن صفات الكمال وتستلزم صفات أخرى. قال: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) [الذاريات:58]، يعني الرزق بيد الله جلَّ في علاه، فإن قال: (الرَّزَّاقُ) هذا فعّال، صيغة مبالغة، والدلالة أن رزق الله جلَّ وعلا لا ينقطع.

وأنت ترى رزق الله ليل نهار صباح مساء، مغفلٌ من حسب أنه سيُمنع عنه رزق. ولو كان من أكفر أهل الأرض، فإن الله تكفَّل للجميع عندما خلق الكون بالرزق، قال الله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ *فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) [الذاريات:22-23]. وهذا الرزق لا ينقطع لقول الله جلَّ في علاه: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) [هود:6].

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (هذا في صحيح مسلم): (يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات لم يَغِض بما في يمينه). ولذلك في الحديث القدسي عن أبي هريرة في الصحيحين قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي شيء)، وسيعطيهم.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة:186]، قال الله جلَّ وعلا: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) [الحجر:21]، هنا قال: (وَمَا نُنزِلُهُ إِلا بِقَدَرٍ) المعنى أنه ينزّله، لا ينقطع بحال من الأحوال، قد يكون قليلاً قد يكون كثيراً، هذا لحكمة الله جلَّ في علاه لكنه لا ينقطع، لذلك قال: (الرَّزَّاقُ). والرزق رزقان:

- رزقٌ تام كاملٌ مرتبطٌبالآخرة ممتدٌ إليها، أو ثمرتها النعيم الأبدي السرمدي في الآخرة، هذا رزق القلوب.

- ورزقٌ ينقطع مع انقطاع الدنيا، وهو الرزقٌ الآخر وهو رزق الآبدان.

♦ إذاً رزق القلوب هو الرزق التام، لأنه ممدودٌ مستمرٌ لا ينقطع بحال من الأحوال. به يُرزق المرء السعادة في القبر، يقال له: نم كنوم العروس، قلنا نعلم إنك ستجيب، ثم ينعم بالنظر إلى وجه الله الكريم. سبحانه وتعالى، اللهم ارزقنا يا رب العالمين. ومن

أجَلّ رزق القلوب العلم، والله يصطفي ما يشاء لهذا الرزق. ولأن الله جلَّ في علاه لا يمنح الرزق التام لأي أحد، فإن الله يعلم المحل القابل من المحل الذي لا يقبل، فرزق العلم للخاصة بل لخاصة الخاصة، ومن رزقه الله العلم فقد رزقه حظاً وافراً.

فإن الله وإن كان قد قضى أنه لا نبي بعد محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [الأحزاب:40]، وإن كان قد قضى بأنه خاتم النبيين لكن الإرث لا ينقطع.

وأعظم الناس حظاً عند الله جلَّ في علاه هم الذين ورَّثهم إرث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنما العلماء هم إرث الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، ولكن ورَّثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر). يقول الله عز وجلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال:29]، تفرّقون به بين الحق وبين الباطل، هذا علمٌ. وهذا العلم ليس لأي أحد، وهذا هذا العلم هو الرزق التام المبارك الممتد إلى الآخرة.

والرزق هذا يزهد عنه كثيرٌ من الناس، ما ترى أحداً وقف في موقفٍ وجد حضور القلب فرفع يديه مفتقراً متذللاً خاضعاً يطلب من ربه في عليائه إلّا وتراه ما يطلب إلّا للدنيا. وما رأيت ألحّ على الله بالعلم إلّا الخاصة، بل خاصة الخاصة، وهذا لمة المَلَك، وهذا من الله جلَّ في علاه لأن اللؤلؤة لا يحويها إلّا من اصطفاه الله عن الناس. فالله "الرزّاق"، وهنا نستدل بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) [الذاريات:58] في الرزق التام الأبدي السرمدي الذي ثمرته النعيم الممتد، أنه لا ينقطع ويُنتزع من ذلك بان العلم بحر لا ساحل له، وأنه لو توقف المرء علمنا بجهله العميق. لأنه "رزّاق"، مستمر الرزق.

ففيها دلالة واضحة جداً على أن العلم لا ينقطع ولا ينتهي، وما زلت في كل يومٍ أفقر ما تكون لربك جلَّ في علاه، يفتح عليك لتتعلم وتتقن وترتقي وتسمو، والعلم لا ينتهي. أرأيت كيف قال الخضر لموسى عليه السلام عندما وقف العصفور عند أول السفينة نقر في البحر، فقال لموسى عليه السلام: أنت على علمٍ علّمك الله ما علَّمنِيه، وأنا على علمٍ علَّمنِيه الله جلَّ في علاه ما علّمكهُ، وعلمي وعلمك بالنسبة لعلم الله كما نَقَرَ هذا العصفور. لا ينتهي، فإن الله هو الرزّاق، مستمر.

واستمرار الرزق بالعلم اصطفاء واجتباء، والتوقف خذلان، ومن توقف وتقاعس وتراجع يعلم من نفسه أن الله لن يجعله أهلاً لذلك، حسرةً وخسراناً. فعليه أن يراجع نفسه وأن يتذلل ويفتقر لربه جلَّ في علاه، فلا يتوقف. إن الله هو الرزّاق، فلا يمتنع عنك الرزق إلّا أن تغير ما بنفسك.

♦ والرزق الثاني هو رزق الأبدان، رزق الأبدان مرتبطٌ بالدنيا، وكل مرتبطٍ بالدنيا فهو إلى زوال، فهو إلى فناء. فكيف نجد الإلحاح على ما هو مآله إلى الزوال، ولا نجد إلحاحاً على ما كان مآله الثبات. فنسأل الله أن يعلِّمنا وألّا يقطع عنا رزقه بخفٍ منا أو بتقصيرٍ أو بعدم أهليّة، ونطمع في كرم الله جلَّ في علاه.

فالرزق الثاني هو رزق الأبدان؛ ورزق الأبدان أيها المسكين مكفولٌ لك، ورزق الأبدان مكتوبٌ لك سواء ضُيِّق عليك فيه أم وُسِّع لكنه مكفول. خلق الله الكون كله لك وخلقك أنت له، فانشغل بما خُلِقت له ولا تنشغل بما خُلِق، أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب).

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنن الطبراني: (إن الرزق ليسعَ خلف المرء كما يسعى الموت خلفه). فهل يتخلف؟ لا، لا يتخلف. (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [الذاريات:58]، إذاً لا تنشغل برزقك فإن الله جعل للنمل رزقاً، وجعل للنحل رزقاً، وجعل للسمك رزقاً، وجعل لك فلن يذهب رزقك إلى أحدٍ لم يقدِّر الله جلَّ وعلا له ذلك. قال الحسن: علمت أن رزقي بيد ربي ولن يذهب لغيري فاطمئن قلبي. فاطمئن قلبي.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [الذاريات:58]، ومعنى (ذُو الْقُوَّةِ)؛ ذو يعني صاحب، ذو القوة التامة التي لا يعتريها بعض. والقوة هنا قد تكون بمعنى القدرة، فيكون قد صدّرنا القول فيها. والقوة من صفات الذات، وأن الله جلَّ وعلا قويٌ قادرٌ جبارٌ متكبر. وفي قوله: (الْمَتِينُ) قال العلماء: المتين هو القوي التام القدرة، فقوله المتين تفسير للقوة، صفة للقوة، بكمال القوة والقدرة وتمام القوة والقدرة. والمعنى هنا نفي أي نقصٍ أو عجزٍ عن جلَّ في علاه، وكمال قوته وكمال قدرته وكمال جبروته سبحانه جلَ في علاه.

ومن هذا ينتزع إثبات الميعاد، فلا يعجز الله عن ذلك بحال من الأحوال. لتمام القوة والقدرة، (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ). لذلك قال الله جل في علاه منكراً على من قال: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس:78-79]. له القوة والقدرة سبحانه جلَّ في علاه، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) [الأنبياء:104]. أرأيت لمّا قال إبراهيم -عليه السلام-: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) فبين له: (فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ) [البقرة:260] إلى آخر القصة، فالله ذو القوة المتين، نقف عند هذه الصفة، والتعبُّد لها أيضاً بأن نعلم بأن الله جلَّ وعلا له كمال القوة سبحانه جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

- قال: (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الطلاق:12]، (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) [فاطر:11]، سعة علم الله جلَّ في علاه، كمال قدرة الله جلَّ في علاه، كفر من ادّعى علم الغيب لأنه ينازع الله في ربوبيته.

- على المرء أن ينشغل بما خُلِق له، فالرزق مكفول، (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ).

- الكمال مطلق لله وحده سبحانه جلَّ في علاه.

المتين فيها قراءتان: فإن كانت القراءة بالكسر تكون صفة للقوة المتين، فهي صفة للقوة وهذا الذي تكلم عنه العلماء بأن المعنى فيها، وهذا الذي قاله البيهقي في كتاب الأسماء والصفات، قال: معناه القوي التام القدرة، وهذا نفي كل نقصٍ وعجزٍ عن الله جلَّ في علاه. وقراءة صفة الضم فهي صفة. طبعاً والأسدّ بذلك نقول القراءتان معتبرتان، والمعنى هنا هو اتصاف الله جلَّ وعلا بالكمال المطلق سبحانه جلَّ في علاه، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11].

- آيات صفتي المشيئة والإرادة

المصنف رحمه الله تعالى ما زال يجلّي لنا اعتقاد أهل السنة والجماعة، هم الوسط العدول، ولا ينجو أحد إلّا باعتقادهم، ولا يسلم أحد إلّا إذا سار على دربهم. فاعتقادهم في ربهم جل في علاه بإثبات ما أثبته الله لنفسه على ما يليق بجلال الله وكماله سبحانه جلَّ في علاه، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، وإثبات ما أثبته رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، ونفي ما نفاه ما نفاه رسوله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه جلَّ في علاه.

قال: وقوله تعالى: (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ) [الكهف:39]، وقوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253]. وقوله سبحانه: (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) [المائدة:1]، وقوله: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام:125].

في قوله جلَّ في علاه: (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ) [الكهف:39]، ولولا إذ دخلت جنتك رأيت نعيم الله جلَّ في علاه فشكرتها بقولك "ما شاء الله ولا قوة إلّا بالله. وهذه لا بد أن نقول أولاً أدبياً على الإنسان إذا أنعم الله عليه نعمة لا بد أن يكون شكوراً. لأن بالشكر تثبت النعائم وأيضاً تستجلب المفقود، أنت تثبت الموجود وتستجلب المفقود. (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ) [الكهف:39]، هذا من باب الشكران أيضاً، وخوفاً من أن تحسد نعمةً أنعمها الله عليك

دون أن تقول "ما شاء الله لا قوة إلّا بالله". ساقها المصنف أصالةً من أجل إثبات مشيئة الله جلَّ في علاه، وأيضاً إثبات أن الله فعّالٌ لما يريد.

أولاً المعاني الإيمانية هو كما قلنا بأن الإنسان يعلم بأن الله تعالى قد بيّن بأن العين حق، على لسان نبينا -صلى الله عليه وسلم-. وقد يكون المرء عائناً وليس حاسداً، وجِبلّة فيه إذا نظر إلى شيءٍ أسقطه، هذا يكون عائناً وإن لم يكن الشر في نفسه. فالأولى للعصمة من ذلك أنه إذا رأى ما يعجبه يقول: "ما شاء الله ولا قوة إلّا بالله"، يقول: "لا حول ولا قوة إلّا بالله". لذلك قال بعض السلف: من أعجبه شيءٌ فليقل ما شاء الله لا قوة إلّا بالله، وهذه كما قلنا ساقها المصنف في ذات المشية لله جلَّ في علاه.

والمشيئة لله ثابتة في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة؛ أمّا الكتاب فقد قال الله جلَّ وعلا على غرار مثل هذه الآية: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253] كما في الآية الثانية، وقول الله جلَّ في علاه: (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) [المائدة:41] لأن هذه الإرادة هي المشيئة هي الإرادة الكونية. وأيضا في قول الله جلَّ وعلا: (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) [هود:34]، وهذه أيضاً هي الإرادة الكونية وهي المشيئة. فإثبات المشيئة في الكتاب وفي السنة وفي إجماع أهل السنة.

وقد جعل الله للعبد مشيئة أيضاً، وجعل مشيئة العبد ليست مستقلة، فهي مشيئة تابعة لمشيئة الله جلَّ في علاه، كما قال جلَّ في علاه: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29]. ومشيئة الله جلَّ في علاه عامة ونافذة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا بحال. ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253]، سبحانه وتعالى جلَّ في علاه، والمقصود في الإرادة هنا هي الإرادة الكونية وهي المشيئة، أمّا الإرادة الشرعية هي المحبة والرضا.

أراد هنا المصنف أن يبيّن لك عقيدة أهل السنة والجماعة، التي هي وسط بين عقيدة فئتين ضالتين فيهما ما فيها من الضلال ومن الانحراف ومن الحيدة: القدرية والجبرية، فهاتان الطائفتان الضالتان قد اتفقتا على مسألة عدم نفاذ مشيئة الله جلَّ في علاه:

- أولاً القدرية يرون بأن مشيئة الله ليست نافذة، وهذا قول المعتزلة، قالوا قد يشاء الله شيئاً ولا يكون. هم يقولون شاء ألّا يقتتلوا فاقتتلوا، وهؤلاء المعتزلة القدرية، الذين ينفون مشيئة الله جلَّ في علاه، لا يجعلونها عامة ولا يجعلونها نافذة. هذا قول القدرية، وهذا منهج القدرية. ولذلك الرجل لمّا ذهب بعيره وذهب إلى رجل من المعتزلة في المسجد فقال: ذهب بعيري، فرفع رجل دعا الله أن يرده عليه، فدعا الرجل الله جلَّ في علاه: اللهم إنك لم تشأ ضياعه. فقال: يا هذا كُفّ هنا عمّا تقول، فقد يريد إرجاعها ولا ترجع. لأنه وصف الله بالنقص والعجز، سبحانه جلَّ في علاه.

فالمعتزلة القدرية، هؤلاء لا يرون لله مشيئة نافذة، وردّ الله عليهم وقال: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253]. هم يقولون: شاء ألّا يقتتلوا فاقتتلوا، لأنهم يرون بأن مشيئة الله جلَّ في علاه غير نافذة. وأمّا الأدلة على بطلان هذ القول فكثيرة عامة، فإن الله جلَّ وعلا إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وإن الله جلَّ وعلا إذا شاء شيئاً كان وإذا لم يشأ لم يكن ولو اجتمع من في أقطارها. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لن ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)، وهذه دلالة واضحة جداً على مسألة نفاذ المشيئة رداً على المعتزلة.

- وتعلمون أن الجبرية يثبتون مشيئةً تامة عامة دون إثبات مشيئة لأنفسهم، يقولون بالجبر. وسبب الضلال عند الطائفتين أنهم لا يفرّقون بين المشيئة وبين المحبة والرضا، فكلاهما اتحد الأمر عندهما بعدم الفارق بين المشيئة وبين المحبة والرضا، والفرق بينهما موجود كما سيأتي تفصيله.

فالله جلَّ في علاه له مشيئة، وإن كانت له مشيئة فله إرادة، والإرادة: كونية وشرعية. ومن له إرادة فله فعل، وأفعال الله لا تنتهي بحال من الأحوال. لذلك قال: (قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ) [الكهف:39]، أي ما شاء الله جلَّ في علاه، نفاذاً لمشيئة الله وإثباتاً لمشيئة الله جلَّ في علاه. ولذلك قال: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253]، وهذه كما قلنا فيها الرد على المعتزلة القدرية الذين لا يرون لمشيئة الله نفاذ، سبحان الله وتعالى عن قولهم علواً كبيراً.

فالله جلَّ في علاه له القوة الكاملة والتامة وله القدرة التامة والكاملة، وأن الله تعالى له صفات الكمال والجلال والعظمة وأن الله تعالى ما زال فعّالاً ولا يزال فعّالاً، سبحانه جلَّ في علاه، كما قال الله جلَّ في علاه: (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) [البروج:16]. وملازمة الفعل للإرادة ملازمة استئثار، لا انفكاك بينهما بحال من الأحوال، وهذه هذه بالنسبة للرد على القدرية.

والرد على الجبرية، يرون مشيئة عامة تامة كاملة، لا يرون الإرادة الشرعية، هم يرون الإرادة الكونية فقط. بغض النظر كما قلنا، وإن كان قد اتفقت القدرية والجبرية على أن على الا فرق بين المشيئة وبين المحبة والرضا، فإنهما وإن اتفقا على ذلك اختلفا في التكييف؛ فأمّا القدرية فلا يرون مشيئةً نافذة، وأمّا الجبرية يرون المشيئة نافذة تامة. والقدرية يجعلون مشيئة مستقلة للعبد، وأمّا الجبرية لا يجعلون مشيئةً من أصل. فأمّا القدرية تقول مشيئة العبد: إذا شاء العبد فعل وإذا لم يشأ لم يفعل، لذلك يعاقب أو يثاب على ذلك. والجبرية يرون بأنه لا مشيئة أصلاً، والأصل أنه فعل الله جلَّ في علاه.

ولذلك نرى بأنه الضلال المبين في هذه المسألة للجبرية والقدرية في عدم التفريق بين المحبة والرضا وبين المشيئة، ويختلفان ويفترقان بأن القدرية وإن ذكرت لله مشيئة لكن لا تراها نافذة، والجبرية ترى المشيئة نافذة ولا مشيئة للعبد. ولذلك قال قائلهم هذا البئيس التعيس عندما قرأ قول الله جلَّ في علاه لإبليس: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، قال: لو كنت مكانه لقلت أنت. وهذه كبيرة، رد الأمر على الله جلَّ في علاه.

فالغرض المقصود أن تعلم أن هذه المشيئة لله جلَّ في علاه نافذة، وأن مشيئة الله تعالى ثابتة لله جلَّ في علاه وهي الإرادة الكونية، المشيئة هي الإرادة الكونية. لذلك في قول الله جلَّ في علاه: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253]، هنا جعل ما يريد مكان المشيئة، فكانت هنا المشيئة هي الإرادة الكونية.

وأعيد وأكرر للاستقرار، الإرادة إرادتان: إرادةٌ كونية وإرادةٌ شرعية.

- الإرادة الكونية هي أن ما أراده الله تبارك وتعالى لا بد أن يكون، الإرادة الكونية عامة لها ضوابط:

♦ هي مشيئة عامة في كل ما يحب الله وما لا يحب الله، ما أراد الله لا بد أن يكون في الكون بأكمله. أراد الله كفر أبي لهب، أراد الله كفر فرعون، أراد الله جلَّ في علاه عقوبة قوم نوح. عموم إرادة الله جلَّ في علاه، هذا الضابط الأول، فيما يحب وما لا يحب.

♦ والضابط الثاني هو أن إرادة الله جلَّ في علاه الكونية نافذة لا ترد، لا بد أن تقع، سواء فيما أحبه الله أو فيما لا يحبه الله جلَّ في علاه.

- والإرادة الشرعية هي خاصة ليست إرادة عامة، هي خاصة فيما أحبه الله فقط. هذه الإرادة الشرعية، وهي ما دامت فيما أحبه الله فقط، فقد تقع وقد لا تقع. (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة:185]، هناك من شقَّ على نفسه ولم يأخذ بتيسير الله جلَّ في علاه. فإذاً ضابطان أيضاً للإرادة الشرعية:

♦ بأنها ليست عامة.

♦ وليست نافذة قد تقع وقد لا تقع.

وإرادة الله بصفات أفعاله، كما قلنا بأنها إرادة كونية وهي المشيئة وإرادة شرعية وهي المحبة والرضا. فقول الله جلَّ في علاه: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]. هذه الإرادة ما نوعها؟ هي الإرادة الكونية. قلنا بأن ضابط الإرادة الكونية بأنها فيما أحب وفيما لا يحب؛ (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ) فيما أحبه الآن، (وَمَن

يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ) فيما لا يحب. (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) يوفقه لذلك لا بد أن يكون. هي كونية لأنها نافذة، وهذا الأصل، فالإرادة هنا إرادة كونية.

في قول الله جلَّ في علاه: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة:185]، أي الإرادات هذه؟ شرعية، لأنها قد تقع وقد لا تقع، وهي خاصة بما يحبه الله. صراحةً ليست علامة فارقة مسألة المحبة، مسألة الوقوع هي العلامة الفارقة التي تبين لك.

(وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) [المائدة:41]، هذه إرادة كونية. وفي قول الله جلَّ في علاه عن نوح أنه قال: (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) [هود:34]، كونية. في قوله جلَّ في علاه: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء:16]، كونية. أمرناهم بالطاعة ففسقوا فحق عليها القول.

إذاً الإرادة إرادتان: إرادةٌ شرعية فيما يحبه الله، وإرادة كونية. يبقى لنا الكلام على مسألة الإرادة والفوائد المستنبطة من الآيات. الإرادة الكونية والإرادة الشرعية قد تتفقان وقد تفترقان؛ تتفقان في الصالح في المخلص في المؤمن، فتتفق الإرادة الشرعية والإرادة الكونية في المؤمن، فإن أبا بكرٍ اتفق فيه الإرادتان (الإرادة الكونية والإرادة الشرعية). ففيمَ يحبه الله جلَّ وعلا أرسل الرسل من أجل أن يستجيبوا لرسله، والإرادة الكونية أنه وفق وهدى القلوب للإيمان. فإذاً الإرادة الكونية والإرادة الشرعية تتفقان في إيمان المؤمن.

أمّا في كفر الكافر فتفرقان، الإرادة الشرعية هي محية الإيمان للكافر، كما قال الله جلَّ وعلا: (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) [الزمر:7]، فالمحبة والرضا للإيمان. فالإرادة الشرعية التي هي المحبة مرادة للكافر، فكفر الكافر هنا قد اختلفت فيه وافترقت الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

أمّا الإرادة الشرعية فإيمانه محبوبٌ لله جلَّ وعلا شرعاً، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأما كفره فأراده الله كوناً. لذلك نقول كفر الكافر اختلف فيه الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، وتتحدان وتتفقان في إيمان المؤمن. لأن الكافر الله تعالى لا يحب كفره ولا يرضاه له، سبحانه جلَّ في علاه، لذلك قال: (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) [الزمر:7]، لكن إيمان المؤمن يحبه الله جلَّ في علاه. هذا بالنسبة للاتفاق والافتراق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

والحق بأن الإمام شيخ الإسلام في الواسطية هنا أراد وسطية أهل السنة والجماعة في الاعتقاد في الإرادة: الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. لضلال طائفتين ضالتين حادتا عن الطريق المستقيم والشرع القويم: الجبرية والقدرية. أمّا الجبرية فجعلوا مشيئة الله

عامة وأن كل ما في الكون أحبه الله وقضاه، ولم يفرّق بين المشيئة وبين المحبة، ولم يجعلوا للعبد مشيئة ولا إرادة. أمّا القدرية فاتفقوا مع الجبرية بأنهم لم يفرّقوا بين المشيئة بين المحبة الرضا أيضاً، لكنهم قالوا لله مشيئة ليست نافذة، ومشيئة العبد نافذة، ومشيئة الرب ليست نافذة على العبد، فجعلوا له مشيئةً مستقلة، ولم يجعلوا لمشيئة الله جلَّ في علاه نفاذ. هذا ضلال الفرقتين.

وأمّا أهل السنة والجماعة فوسطٌ عدول بين فرقتين ضالتين، وقالوا مشيئة الله نافذة سبحانه جلَّ في علاه. ما أراده الله في الكون لا بد أن يكون، وما لم يرده لا يكون بحال من الأحوال، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بحال من الأحوال. وفرَّقوا بين المشيئة والمحبة والرضا، والتفريق جاء من الشرع من الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. قالوا يقال: ليس كل ما أحبه الله قضاه، وليس كل ما قضاه الله جلَّ في علاه أحبه. ففرَّقوا بين المشيئة والرضا، وقالوا: قد تتفقان وقد تفترقان.

المحبة والرضا هي الإرادة الشرعية، والمشيئة هي الإرادة الكونية، وقد تتفقان وقد تفترقان: فتتفقان في إيمان المؤمن وتفترقان في كفر الكافر. نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعل ذلك نافعاً للجميع، وكما قلت ما ساقه ابن تيمية إلّا ليظهر الفرق بين وسطية أهل السنة والجماعة وبين الفرق الضالة.

الفوائد من هذه الآيات العظيمة:

- (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ) [الكهف:39]، كما قلنا بعض السلف قال: من رأى ما يعجبه فعليه أن يقول "ما شاء الله لا قوة إلّا بالله".

♦ أولاً إثبات العين.

♦ الثاني بالشرع دفع العين. لذلك من قال خمسة وخميسة أو ذبح وقال أنا أذبح لله لكن لدفع العين، فهذا مبتدع ضل وقد يقع بالشرك فيها.

♦ مشيئة الله نافذة.

- الفوائد في قول الله جلَّ في علاه: (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) [المائدة:1]:

♦ يعني الأصل في بهيمة الأنعام أنها الحِلّ، وبهيمة الأنعام هي: الإبل والبقر والغنم والماعز. (إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) وقد تلا عليهم ما حُرِّم: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) [المائدة:3].

♦ ختم الآية: (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)، وهذا أيضاً دلالة أن الله حاكم وحكيم، يضع الشيء في موضعه. وما حكم الله به لا بد أن يكون، لكن حكم الله أيضاً: حكمٌ شرعي وحكمٌ

كوني. والحكم الكوني هو النافذ وهو عام، كالموت وغير ذلك، فهذا لا يحبه الله لذلك صار كونياً. أمّا الحكم الشرعي هو بأن يشرّع الله شرعة ومنهاجاً لأمةٍ، فمنهم من يعمل به ومنهم من لا يعمل به.

- من الفوائد: إناطة المسببات بأسبابها، قال: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ). وأيضاً الله جلَّ وعلا لا يُضل إلّا عن علم، لذلك قال: (كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)، يعني لا يُضله الله إلّا لأنه علم أنه محل غير قابل للهدى والإيمان، كما قال الله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17].

العقيدة الواسطية

الدرس السابع عشر: آيات صفة المحبة وسبل نيل محبة الله عز وجلّ (1)

ما زلنا مع الواسطية، وعقيدة أهل السنة والجماعة، والبيان الجلي على وسطية أهل السنة والجماعة بين طوائف الغلو والجفو. وهو ما زال يبيّن لك بأن أهل السنة والجماعة تثبت صفات الله جلَّ في علاه، سواء الصفات الذاتية أو الصفات الذاتية الخبرية أو الصفات الفعلية. وطبعاً أكثر ما يكون هو الصفات الفعلية، لأن الصفات الفعلية أهل السنة والجماعة يثبتونها، ولهم يعني في ذلك الأصل الأصيل بقول رب العالمين أنه قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، وأيضا في هذا الباب مسألة الاعتقاد بأنها قديمة النوع حادثة الآحاد. وهذا رد على هؤلاء الذين لهم ما لهم من التحريفات، يزعمون بانها تأويلات، وأيضاً رد على من ينفي كليةً صفات الله جلَّ في علاه.

ما زال يأتي بالآيات التي يلزمك بها بأنك لا تثبت لله صفةً أو اسماً إلّا بدليل، إذ أن الصفات توقيفية كما أن الأسماء توقيفية، وهذا يبيّن لك الخطأ البين في الكلام مسألة الاشتقاق. فالصحيح بأن الأسماء توقيفية والصفات توقيفية وأنها غيب، والغيب لابد فيه أن تسلِّم لربك جلَّ في علاه، ما عليك إلّا أن تقول (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) [آل عمران:7].

قال: وقوله سبحانه وتعالى: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]؛ في الآية أمرٌ جلل وهو بيان الصفة مع إثباتها، وبيان أيضاً محل الصفة وكيفية الوصول لهذه الصفة. (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ) الآن قد وصف ربه بالمحبة، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

كما قلنا أهل السنة والجماعة وسط بين طائفتين غالتين: بين طائفة فيها غلو فيها جفو، فمنهم من يثبت الحب ويجعله كحب الإنسان يشبهه به، وأغلبهم ينفون الصفة، ومنهم من يحرفونها بعض الناس وهذا بعض نفي. وكل هؤلاء الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والمشبِّهة، ولكن المعتزلة والجهمية لم يثبتوا لله محبةً ولا للعباد، يعني لم يثبتوا محبةً من العبد ولا أثبتوا محبةً من الرب. فأمّا محبة العبد فأوَّلوها إلى محبة الطاعة والعبادة، وأمّا محبة الرب فأوَّلوها بإرادة الثواب. وطبعاً قالوا لو أثبتناها لشبهّنا، ففروا من التشبيه إلى هذا التعطيل.

قال: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]، فأثبت صفة المحبة لله جلَّ في علاه. والآيات الآتية، قال: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، وقول الله تعالى: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:7]، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31]، وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) [المائدة:54]، كلها لإثبات صفة المحبة.

فصفة المحبة صفةٌ ثابتةٌ لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة؛ بالكتاب في قول الله تعالى: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222].

وفي السنة كثير؛ قال النبي الأمين كما في الصحيحين، عن أبي هريرة: (إن الله إذا أحب عبداً نادى في السماء أن يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، ويكتب له القبول في الأرض). وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يحب إذا أكل أحدكم الأكلة أن يحمده عليها)، فإذاً اثبت المحبة لله جلَّ في علاه. وأيضاً لمّا عياض بن حمار جُلِد في الخمر، وقال خالد: لعنة الله عليك، قال: (لا تلعنه. لا تعين عليه الشيطان. والذي نفسي بيده لا أراه إلّا يحب الله ورسول له). والأصرح من ذلك بحديث علي بن أبي طالب، قال: (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه)، إثبات المحبة لله جلَّ في علاه.

والإجماع؛ أجمعت الأمة على إثبات المحبة على ما تلقته الأمة من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. والعقل يثبت ذلك، لأنها منوطة بالأسباب، فإذا وجدت الأسباب وجدت الصفة.

وهي من صفات الأفعال، وقلنا صفات الأفعال ضابطها: أنها تتعلق بالمشيئة، إن شاء أحب وإن شاء أبغض. وأنها متعلقة بالأسباب، وأيضاً يتصف الله بها حيناً ولا يتصف حيناً، وأنها قديمة حادثة الأفراد.

المحبة من أجلّ الصفات التي يتصف الله بها رب العباد سبحانه جلَّ في علاه، لأن بالمحبة السعادة، وبالمحبة النجاة، وبالمحبة التوفيق والتسديد. انظروا إلى ثمرة المحبة، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: قال الله تعالى: (من عادى لي ولياً)، ما كان ولياً إلّا إذا أحبه الله جلَّ في علاه، أولياء الله محبوبون إلى الله. ولنِعْمَ ما قال الشافعي، وأرجى ما نرجوه أن ندخل جميعاً تحت هذه المظلة، قال الشافعي في قول رب العالمين: من عادى لي ولياً، قال: العلماء هم أولياء الله، وقال: إن لم يكن العلماء أولياء الله فلا أعلم لله ولياً. وقال أبو حنيفة: الفقهاء أولياء الله.

قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) ولا يؤذن بالحرب ألّا لمن أحب. (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بأحب إليّ (التصريح) مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه). فانظر هنا أثبت المحبة.

إذا أحب ما الثمرة؟ الثمرة ظاهرةٌ ظاهرةٌ، عندما قال: (فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)، في روايةٍ قال: (فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش). والمعنى يكون عبداً موفقاً مسدداً، فهو إلى الطاعة وينتقل من طاعةٍ إلى طاعة، إلى العلم وينتقل من علمٍ إلى علم، إلى الصدقة ينتقل من صدقةٍ إلى صدقة. وإن زل وإن سقط وإن عصى يلهمه التوبة بعد التوبة، والفينة بعد الفينة يتوب إلى الله جلَّ في علاه. فهو يتقلب في الله، سواء كانت معصية تاب منها، سواء كانت طاعة فازداد منها، سواء كان استغفاراً، سواء كان ذكراً، فهو عبدٌ مسددٌ موفق.

قال: (كنت (الله تعالى يتكلم عن نفسه) سمعه الذي يسمع به، بصره الذي يبصر به، يده التي يبطش بها). ثم انظر إلى المكافأة الأعظم، قال: (ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت في شيءٍ أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته). فإن أحبه وفقه، فإن أحبه سدده، فإن أحبه حببه إلى الملائكة، فإن أحبه جعل كل من في السماء والأرض يستغفرون له. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإن العالِمِ ليستغفر له كل من في السماوات والأرض)، حتى الحيتان في البحر، حتى النملة في جحرها، هذا إذا أحب الله العبد. اللهم اجعلنا من أحبابك يا أرحم الراحمين.

فإذاً قال الله: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]. فإن أثبت هذه الصفة لله جلَّ في علاه، فسبيل المرء إلى لتعبد لله بها، فأولها وأسها وأساسها هو إثبات هذه الصفة

بحسن الاعتقاد. فحسن الاعتقاد في الله نجاة، وحسن الاعتقاد في الله جلَّ في علاه حسن تعبد وازدياد، حسن الاعتقاد في الله جلَّ في علاه تسديدٌ وفيها ما فيها زيادة من الخيرات. حسن الاعتقاد في الله بأن الله جلَّ وعلا يحب ليس كحب الإنسان، ليس كحب المخلوق، حب الله يليق بجلال الله وبكمال الله وبعظمة الله. وحب الله له لازم، ومن لوازم محبة الله جلَّ في علاه أن يريد الثواب لمن أحبه، بل يجزل له العطاء إن أحبه.

الأمر الثاني نقول: إذا كان الله تعالى يحب، فإن له سبل لمحبته: الدعاء، والسبيل إلى ذلك مع الدعاء أن يتصف المرء وأن يتخلّق بآثار صفات الله جلَّ في علاه. إن كان الله يحب، وأن في المحبة الكمال، فتجد أن العبد لابد أن يحب. لكن انظر إلى هذا، ليست المحبة على الجميع، بل ولا يقال الله محبة.

المحبة بضابط الشرع الذي ضبطه الشارع: أن تحب في الله وتبغض في الله، وأن تعطي لله وتمنع لله، أن تحب ما أحبه الله جلَّ في علاه، أن تحب من أحبه الله جلَّ في علاه. فأنت تحب هؤلاء لأن الله يحبهم، وتحب الطاعة لأن الله افترضها، وتحب الصدقة لأن الله يحبها، فتحب ما يحبه الله جلَّ في علاه. أمّا السبيل إلى محبة الله، هذا الذي قاله الإمام ابن القيم، قال: إن هذه الصفة هي التي شمر لها عن ساعد الجد لها المشمِّرون المجتهدون. وليس العجب من محبة العبد للرب، بل العجب كل العجب من محبة الرب للعبد. وهناك سبيلٌ للوصول إلى محبة الله للعبد، أولها ما قاله المصنف هنا:

- الإحسان: من أعظم السبل إلى أن تكون محبوباً لله جلَّ في علاه. وانتبه!! إن كنت محبوباً كنت موفقاً مسدداً، كنت رشيداً، كنت إماماً، كنت أسوة، كنت ولياً. قال الله جلَّ في علاه: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب). (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]، فأول السبيل إلى الوصول إلى محبة الله جلَّ في علاه الإحسان.

والإحسان مطلوبٌ في كل شيء حتى في الذبح. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحِدّ أحدكم شفرته، وليُرِح ذبيحته)؛ كلها إحسان.

فالإحسان إلى الحيوان فيه ما فيه من الخير لعباد الرحمن، والدلالة على ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: امرأة بغي من بني إسرائيل كانت تضاجع كل ليلةٍ رجلاً، وتأكل من مال الفاحشة، تركب الذنب على الذنب والكبيرة على الكبيرة. كانت قد بلغ منها العطش مبلغاً، ووجدت ركية من الماء فشربت. فجاءت فوجد كلباً يطوف بالرقية، فقالت: بلغ منه العطش ما بلغني. فخلعت موقها (خفها) فملأته ماءً فسقته فشكر الله لها، فغفر لها. إحسان إلى حيوان كان فيه النجاة، يحب ذلك الرحمن من عباد الرحمن. لمّا أحسنت أحب الله إحسانها فغفر لها كل ما قدّمت وما أخّرت. وكما أحسن بعضهم (كما

في حديث النبي) من بني إسرائيل، رجل مر فوجد شوكاً في طريق الناس فنحّاه، فشكر الله له فغفر له، أحب الله منه ذلك.

فالإحسان سبيلٌ إلى محبة الرحمن، ومن أحبه الله جلَّ في علاه كان في جواره، كان في جناتٍ ونهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر. والإحسان: إحسانٌ في الصدقة، في النفقة، وهو الأصل في الكلام على الإحسان. فالإحسان له أوجهٌ كثيرة: الإحسان في النفقة، والإحسان في الصدقة. وإحسان النفقة بلا منّ، جزالة العطاء بلا منّ. قد يعطي الرجل أنهاراً، ويمُنّ بعد ذلك، وهؤلاء الذين وصفهم الله جلَّ وعلا: (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ) [البقرة:264]. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل الجنة ثلاثة)، وذكر منها المنان. نعوذ بالله من ذلك، نقيصةٌ في النفس وخسيسة، والجواد الكريم لا يفعل ذلك والله لا يحب منه ذلك.

فالإحسان في الجود والعطاء هو كثرة العطاء، جزالة العطاء مع عدم المن، مع عدم النظر إلى العطاء، الإحسان بالجود. ولذلك قال ابن عباس: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يدارسه جبريل بالقرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة.

فكلما كنت جواداً، فكلما كنت منفقاً كلما كنت محبوباً لله جلَّ في علاه. اللهم أعطي منفقاً خلفاً وأعطي ممسكاً تلفاً. فإن الله جواد يحب كل جواد، بل يحب من أحسن في الجود وأجزل في العطاء، وإن كان محبوباً لله جلَّ في علاه صار موفقاً صار مسدداً.

(وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]، وأيضاً من ذلك الإحسان في المعاملة مع الله جلَّ في علاه، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم، فإنك أنت لأعز الأكرم. كما قال الإمام أحمد: وإذا خلوت يوماً من الدهر فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب.

فالمعاملة مع الله يحب الله من العبد فيها الإحسان، ومن الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه. لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن الإحسان، قال: (أن تعبد الله كأنه يراك). وهذا أصعب وأشق ما يكون، لا أحد يرى الله. قال: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهي العبادة بالمراقبة كما قدّم بعض العلماء بعض التلامذة ولما سئل عن ذلك قال لهم: خذوا هذه الطير واذبحوها في مكانٍ لا يراكم فيه أحد. كلٌ جاء يتفنن كيف ذبحها فمن كان لا يراه أحد، وجاء الطالب المميز وقال: ما وجدت مكاناً لا يراني الله فيه.

وهذا هذا الإحسان الذي هو سبيلٌ إلى محبة الرحمن؛ إحسانٌ في المعاملة مع الله الإخلاص في العمل، الإخلاص في العبادة، الإخلاص في النفقة، الإخلاص في الصوم، الإخلاص في العلم، الإخلاص في كل شيء. هذا مكمن الإحسان في عبادة الرحمن،

الإخلاص في كل شيء. والإحسان مع العباد كما قلنا هو بالجود والعطاء وجزالة النفس والبشاشة، وأيضاً حسن الإصلاح بين المتخاصمين وإبداء الخير للغير، هذا مكمن في معاملة الإنسان.

وبعد ذلك الإحسان في معاملة النفس، بأن يحسن لنفسه فيرفعها ولا يحقِّرها، وأن يجتهد لها حتى تتم لها السعادة التامة، وأن يستتم في قلبه التوحيد التام حتى يستتم له الأمان في الدنيا وفي الآخرة، والهداية التامة في الدنيا وفي الآخرة. الله جلَّ في علاه: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة:195]، وهذه الآية تبين لنا بأن الله جلَّ في علاه يثبت له صفة المحبة، وأن هذه المحبة خاصة بالمحسنين.

ويأتي إن شاء الله التفصيل بعد ذلك في الكلام على محبة الله للمقسطين، وأن المقسط هو اسم من أسماء الله جلَّ في علاه. والفرق بين الظلم والعدل، وأن العدل سبيلٌ إلى محبة الله جلَّ في علاه، وأن العدل نجاة بل هو قوام الدول العدل. فالدولة التي يكون فيها العدل تستقيم إلى قيام الساعة، والدولة التي يعتليها الظلم لا تبقى في الدنيا ساعة. الله المستعان، نسأل الله جلَّ وعلا أن يغفر لنا ويغفر للجميع، ونسأل الله جلَّ وعلا أن يغفر لنا الظلمات التي وقعنا فيها والزلات والسقطات والهنات.

المعتزلة كالجهمية تنفي الصفات، وهذا يأتي تفصيله إن شاء الله في الدرس القادم. القول بالتحريف الذي يسمونه زعماً تأويلاً هذا نوع نفي.

سؤال: ما هو التواضع؟

الإجابة: التواضع خفض الجناح، ألّا يرى المرء أنه أعظم من غيره، يخرج على الكبير والصغير فلا يرى نفسه أنه أحسن منهم.

ما زلنا مع شيخ الإسلام ابن تيمية يبيّن لنا وسطية أهل السنة والجماعة، واعتقاد أهل السنة والجماعة الذين هم وسط بين طائفتين فيهما الغلو وطائفتين فيهما الجفو. فابن تيمية يبيّن بجلاء أن أهل السنة والجماعة على الشرع القويم وعلى الطريق المستقيم، لا يحيدون بحال من الأحوال في النظر إلى إثبات أسماء الله وصفات الله العلى.

قلنا بأن الصفة التي تكلمنا عنها هي صفة المحبة، وهي صفة ثابتة في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. بل العقل والقياس يدلان على ذلك رداً على الطائف المبتدعة: إمّا الطائفة التي تنفي الأسماء والصفات كالجهمية وأفراخ الجهمية من المعتزلة، وإمّا التي تحرِّف تزعم بذلك تأويلاً ولأنها تقول لو أثبتنا لشبهّنا الخالق بالمخلوق وقد قال نُعيم بن حمّاد: من شبّه الخالق بالمخلوق فقد كفر، وأنّى لهم ذلك، زعموا شيئاً فذهبوا خلفه.

والحق بأن الإثبات ليس فيه ثمة تشبيه ولا يلوّح بالتشبيه، قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58]، وقال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

[الشورى:11]، أثبت مع هذه التقعيدات التي نتصور فيها عند الإثبات أن نقول: نعم نثبت بلا تشبيهٍ ولا تمثيل، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

إذاً إثبات الصفة هي إثباتٌ لذاته المقدسة بصفة كاملة تليق بجلاله وكماله وعظمته، ولذلك نحن نقول نجركم من المختلف فيه إلى المتفق عليه؛ الإرادة، ثابتة أم غير ثابتة؟ ماذا يقولون هؤلاء الذين يزعمون تأويلاً وهذا هو التحريف حقاً وفيه ما فيه من النفي الضمني؟ نقول لهم الإرادة ثابتة أم غير ثابتة؟ قالوا ثابتة. السمع والبصر؟ ثابتتان.

إذاً نحن نتفق معكم على ذلك، نحن نقول لكم أنتم قلتم لو أثبتنا الغضب لو أثبتنا المحبة لو أثبتنا الاستواء شبهنا الخالق بالمخلوق؟ قالوا لو قلنا بالمحبة إذاً شبه الخالق والمخلوق. نقول الآن أنتم قلتم بالسمع والبصر، وتقولون أيضاً بسمع البصر للبشر، اذاً بإثبات السمع والبصر يكون التشبيه.

ولذلك قلنا القاعدة القاصمة لظهورهم القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، ويلزمهم ذلك. إذا أثبتم سمعاً وبصراً كما أثبتهم للبشر سمعاً وبصراً ونفيتم التشبيه. كونوا كذلك أثبتوا حباً، وأيضاً حباً للبشر دون التشبيه أو دون التمثيل في هذا الباب.

فلذلك أهل السنة والجماعة وسط، لهم عدول ولهم قاعدة ثابتة راسخة يسيرون عليها. نقول حينها الإثبات نثبت، وعند الإثبات لنا ضوابط: نثبت بلا تمثيلٍ ولا تشبيه، وأيضاً بلا تكييف مع إثبات الكيفية لأنها كيفية غائبة عنا نؤمن بها، الغيب نؤمن به. هكذا ضوابط أهل السنة والجماعة. وعند النفي ننفي، وعند النفي أيضاً لابد من إثبات كمال الضد في هذا الباب، لأن الكمال المطلق لله جلَّ في علاه.

هنا إثبات المحبة لله، قال الله جلَّ في علاه: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، نعم هم أثبتوا صفات سبع صفات، قالوا والعقل والسمع يدلان عليها. قلنا وكذلك العقل يدل على المحبة. الفعل التابع للسبب كمال هذا في الإنسان، فلأن يكون في الرب كمالاً من باب أولى. نضرب مثلاً بذلك، الإمام الشافعي قال: من استغضب فلم يغضب فهو حمار. فإذاً لا بد أن نقول بأن الفعل التابع للسبب كمال، فمن باب أولى ان يكون لله جلَّ في علاه. هذه الصفات تتعلق بالأسباب وتتجدد وهذه دلالة على الكمال، فالمحبة كذلك. قال الله تعالى: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، صفة المحبة هذه لنا فيها نظران:

- النظر الأول أسبابٌ تستجلب محبة العبد للرب.

- وأسبابٌ هي أرفع وأعظم وهي المقصود الأسمى وهي أسبابٌ تستجلب محبة الرب للعبد. وابن القيم يقول: ليس العجب أن يحب الرب العبد ربه، يحبه لكماله لقوته لجبروته

لأسمائه الحسنى لصفاته العلى لإحسانه وعطائه، بل ولمنعه أيضاً، وأما العجب كل العجب أن يحب الرب العبد. هنيئاً لمن أحبه الله جلَّ في علاه، اللهم اجعلنا أحبابك يا رب العالمين، اللهم اجعلنا جميعاً من أحبابك وأنت أرحم الراحمين.

والله جلَّ في علاه من السنن الكونية أناط كل من هما بأسباب؛ أسبابٌ جالبة لمحبة العبد للرب وأسبابٌ جالبة لمحبة الرب للعبد. هنا جاء المصنف ببعض الآيات التي يستجلب بها محبة الرب للعبد، منها القسط. قلنا منها الإحسان، والإحسان المقصود به بعمومه، وعمومه هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وعند التخصيص الإحسان المقصود به في الشرع هو النفقة والصدقة.

قال الله جلَّ في علاه: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، فبيّن الله جلَّ وعلا سبباً آخر لمحبته سبحانه جلَّ في علاه وهو العدل في كل شيء: العدل في القول، العدل في الفعل، العدل في النظر، الإنصاف في التوثيق وفي التجريح، العدل حتى في الطلاق، العدل حتى في القتل، العدل في كل شيء. ولذلك قال: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، أي اعدلوا في المعاملات وفي الأحكام وفي الأقوال وفي الأفعال، فإن الله يحب ذلك، إن الله يبغض الظلم ويبغض الظالمين.

قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء:40]، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]. بل نرى بأن الله جلَّ وعلا قد أقرّ قول الحق من الكافرين، عندما قالت: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)، قال: (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) [النمل:34] إقراراً من الرب سبحانه جلَّ في علاه. النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الشيطان، عن الجن عندما قال: لا تأخذن مضجعك إلّا وتقرأ آية الكرسي. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (صدقك وهو كذوب)، خذ منه الحق هذا. العدل في كل شيء. الغرض المقصود بأن الله يكره الظلم يكره الظالمين، وقال الله جلَّ في علاه: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا).

أنا علمت لِمَ النساء أكثر أهل النار، وعلمت أيضاً لِمَ النساء أكثر اتباعاً للمسيح الدجال، من باب سيدي يقول لي أقول لك أنه غير موجود وإياكِ تقولي لأحد. انظر بعد ذلك في الجالس: لا عدلٌ في النقل ولا عدلٌ في الاتهام ولا عدلٌ أيضاً في التزكية ولا عدلٌ أيضاً في التوثيق ولا عدلٌ في التجريح. إن أحبتك فأنت في السماء، إن أبغضتك عجّلت لك بالانتهاء.

فالحق بأن المظالم يكرهها الله جلَّ في علاه، حتى الكافر ولو كان أكفر أهل الارض يبغض الله تعالى ظلمه ويحب العدل معه. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ابن عمر، قال: (واتقِ دعوة المظلوم وإن كان فاسقاً)، وفي رواية: (وإن كان كافراً).

لذلك فإن الله يحب العدل، قال الله جلَّ في علاه لنبيه داوود -عليه السلام-: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) يعني بالعدل (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [ص:26] إلى آخر الآيات. والحق في هذا بأن نقول بأن المظالم يكرهها الله جلَّ في علاه والعدل يحبه الله، لذلك أمر نبيه بالعدل. ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) [المائدة:49]، قال: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) [المائدة:8]، هذه أيضاً دلالة صريحة في هذا الباب.

فإذاً لابد أن نقول بأن قول الله جلَّ وعلا: (وَأَقْسِطُوا) أي اعدلوا، والعدل يكون كما قلنا في الحكم. قد ضرب لنا الخلفاء الراشدون أروع الأمثلة في ذلك؛ وترى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- بعدله وبحكمه كيف استوى، وأنا أُجمل حكم عمر بن الخطاب فيما قاله الفارسي، لمّا سأل عن عمر بن الخطاب أين هو؟ قالوا هذا الذي ينام تحت الشجرة، فقال الفارسي عندما نظر إليه متعجباً: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر. فالعدل في الحكم هو العدل في القضية، العدل في الحكم والعدل في القول، أن يكون عدلاً. (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) [المائدة:8].

انظر أخي الكريم حتى في مسألة الجرح والتعديل، علمائنا كالذهبي وغيره عندما سطَّروا من المتأخرين الصفات التي لابد أن تتوفر فيمن يتكلم جرحاً وتعديلاً، قالوا: لا تأخذه مسألة اختلاف الفكر أو اختلاف المذهب أو مسألة أن يكون مبغضاً للرجل أو أنه لا يوافق ما هو عليه من مذهب بأن يجرحه بذلك. ولذلك العلماء اتفقوا جميعاً على أنه إن كان الكلام جرحاً وتعديلاً مع اختلاف المذهب، وكان الداعي للجرح هو المذهب أن يطرح هذا القول أو يكون أقراناً. كما في ابن أبي ذئب والإمام مالك، كما في المتأخرين السيوطي والسخاوي في هذا الباب. الكلام هذا يطوى ولا يعتدّ به، فهنا أيضاً العدل في القول.

وقد قال الله جلَّ وعلا محذراً من الظلم في هذا الباب: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) [المطففين:1]، فالتطفيف لا يكون في الكيل فقط، بل في القول أيضاً. (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازةٍ من العذاب. بأنه إن كان قد وافقه في المذهب يعلي به ويقول: هذا أعلم أهل الأرض ما رأينا أحد في الأصول مثله، ما رأينا أحداً في الفقه مثله مثلاً. ولكن إن كان الأمر على كلمة الحق في الغضب والرضا هذا الذي دعا به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا القسط بحق وهذا العدل بحق، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا).

انظر كيف قال النبي -صلى الله عليه وسلم-بالعدل وكلمة الحق؛ المطعم بن عدي كان كافراً ومات كافراً وهو مخلدٌ في النار ولا كرامة، ومع ذلك لمّا النبي -صلى الله عليه وسلم- فتح الله عليه مكة ودخل وطأطأ رأسه خضعاناً وتواضعاً لله جلَّ في علاه، قال على الذين كانوا بيد النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو المطعم كلمني في هؤلاء النتنة لأعطيتهم إياه). بيّن كرامته لفضله وفضل خلقه على ما تعامل به مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجوار، وحمد له ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذه كلمة العدل قالها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أنه من أكفر أهل الأرض.

وأيضاً لمّا دخل على عائشة رضي الله عنها وأرضاها، وهذا فراش النبي، فانظر كلمة العدل التي قالها النبي من باب فعل النبلاء، قال لها: (يا عائشة، إن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري فسيغفر الله لك). هذا فعل النبلاء، ليتعلم كثير من الأواسط الملتزمة كيف يتعاملون في هذا الباب. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا عائشة لو كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري فسيغفر الله لك، وإن كنت بريئة فسيبرأك الله).

الفوائد الكثيرة جداً من هذا الباب: هذا فعل النبلاء، هي فراشه وسيد البشر أجمعين. والأمر الثاني أنه ما أخذ الكلام وحكم به كما يفعل الآن المسارعون إلى الغض من الناس، يسمعون فيحكمون، وهذا أمرٌ جلل. دلالة على أمور: الأمر الأول الجهالة، الأمر الثاني الرقة في الدين، الأمر الثالث بأنه لا ينظر بالعينين الجميلتين (عين القدر وعين الشرع) فيركِّب الذنب على الذنب ويقع في المنكر الأنكر من المنكر الذي ينكره.

وسبحان من فتّح هذا الأذهان والقلوب لفهم هذه الأمور الخفية التي تُدْرَس ولا تُدَّرَس من ثلاثين سنة في هذا الباب، هو علمٌ دقيق. ولذلك قلنا الأمة في حاجة إلى العلماء عند العطب، عند الزلل، عند الرفعة، عند النبل، عند النصر، عند التقدم، عند القيادة والسيادة. الأمة أحوج ما تكون إلى العلماء في حلِّها وترحالها، في صغيرها وكبيرها، في دقيقها وفي جليلها. فهذا أيضاً كلمة العدل ولذلك أحب الله أهل العدل، وأحب الله الذي يتكلم بالعدل وبالقسط.

ولذلك انظر عائشة وعدل عائشة لمّا ذموا حسان أمامها، وهو الذي كان قد تكلم فيها، وكان قد أخذ حسابه وحدّه، والحدود كفارات. فقالت لا، ونافحت عنه. هذا نبل، معرفة وضع الشيء في موضعه. حسان يجلس دهره كله ينافح عن عرض النبي -صلى الله عليه وسلم-. هذه فيها فائدة من أعجب ما يكون، ما هي؟

- إجابة طالب: لا سيادة لولي العصمة، لكن هي الفائدة المرادة. صحيح لا سيادة لولي العصمة، الملائكية غير موجودة في الأرض، ما أحد يدعي ذلك. كما قال بعض الأغمار الأغرار: العالم لا يعصي، والنبي لا يعصي.

- إجابة طالب آخر: الإنسان يقاس بالغالب، لكن ليست هي أيضاً.

- إجابة آخر: لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلّا أهل الفضل، وعائشة هي أهل الفضل، ليست هي الإجابة المرادة.

الإجابة الصحيحة: أصل المسألة في إجابتها، عندما قالت: أليس حسان الذي قال:

فإنَّ أبي ووالده وعرضي *** لعرض محمد منكم وقاء

كأنها قالت بأنه لمّا تكلم على فراش النبي لا يقصد القدح في عرض النبي. هذا تأصيلٌ عام للتفريق النبيل إذا زلّ، وبين الفاسق إذا زلّ. الفاسق يقصدها ويريدها، أمّا النبيل غلبته شهوته والله يعذره.

مثلها حاطب بن بلتعة، وقع في كبيرةٍ وهي الجاسوسية على النبي. لكن لا يريدها، هو زلّ ولا يريدها. هذا الفارق بين الشخصين عند الله جلَّ في علاه، فلا تتعجب. زيدٌ عصى وعمروٌ عصى، والمعصية واحدة، يفرَّق الله بين زيد وبين عمرو، ينجي ذلك ويهلك ذلك. شيطانٌ وآدم؛ أنجى آدم وأعلى درجاته، وأهلك الشيطان ولعنه إلى يوم الدين. نفس الأمر، حاطب قال: لا تعجل عليّ، والله ما أردت بذلك ردةً عن الدين، بل قال: وأعلم أن الله ناصرك. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعل الله اطّلع أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم قد غفرت لكم).

فلذلك نقول العدل في ذلك من الأهمية بمكان، أن ينظر المرء بعين الإنصاف عندما يقول الكلمة وبعين العدل في هذا في هذا الباب، لذلك قال: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]. هذه الدرجة هي أرقى الدرجات، وأعلى الدرجات، فهي مجلبة لمحبة الرب للعبد، وإذا أحب الرب العبد فإن العبد يكون موفقاً مسدداً منصوراً ناجياً مرفوعاً مرتقياً. فهذه لا يمكن أن تأتي له هكذا، لا يمكن أن يرتقي المرء بأن يكون محبوباً لله جلَّ في علاه إلّا بعد عناءٍ شديد، لأن الله جلَّ في علاه يصطفي من خلقه ما يشاء. والمسألة أن الغيوب مرتبطةٌ بالقلوب، وإذا وحّد المرء الهدف وجد على ذلك أعوانه وأيضاً وجد الأعداء، وهذا اختبار من الله جلَّ في علاه.

قال: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، فأدرك المحبة من الله جلَّ في علاه على القسط وعلى العدل، والعدل كما قلنا في القول وفي الفعل وفي الحكم وأيضاً في الكلمة. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يدي ربي يمين. الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم، وما ولُّوا. فكل من ولي أحداً فعدل فهو على منابر من نور عند الله جلَّ في علاه). وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلساً إمامٌ عادل). اللهم اجعلنا منهم. إذاً صاحب العبد عند الله مرفوع ومكانته مرموقة.

قلنا العدل يكون في الحكم في القضية، والقول أيضاً وفي الفعل. وإليكم بعض النماذج في عدل القول: عندنا علي بن أبي طالب وعائشة، وتعلمون بأن عائشة كانت قد أخذت في نفسها من علي بن طالب عند حادثة الإفك، لمّا تكلم النبي -صلى الله عليه وسلم- مع علي بن أبي طالب قال: النساء غيرها كثيرات. وكان يقصد بذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد وظّفه الله وظيفة عامة للبشر جمعاء فينشغل بالرسالة، والنساء غيرها كثيرات حتى لا يتوقف عن وظيفته التي بعثه وأرسله الله لها. كان هذا هدف علي بن أبي طالب، لكنها أوجعت عائشة، وأتعبت عائشة رضي الله عنها وأرضاها أنه قال بذلك. وإلّا فالجميع أسامة وزينب وبريرة، كل من سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: أهلك يا رسول الله، والله لا نعلم عن أهلك إلّا الخير.

ومع ذلك كانت لمّا سئلت عائشة عن مسألة المسح على الخفين، قالت: سل علي، فإنه كان أكثر الناس سفراً مع رسول الله فهو أعلم، فأحالت عليه ووصفته بأنه أعلم. وأيضاً لمّا جاءها بقتل الخوارج قالت: رحم الله علي، إنه كان على الحق، وما كان بيني وبين علي إلّا ما بين الأحماء بعضهم بعض. ولذلك قالت: النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في مرض موته خرج فتهادى على رجلين العباس، ولم تذكر علي. حتى العباس قال له: ذكرت لك الثاني؟ قال: لا، قال: الثاني كان علي بن أبي طالب. ومع ذلك قالت كلمة الحق وأحالت عليه عند السؤال لأنه كان الأعلم.

كذلك علي بن أبي طالب خرج عليه طلحة، وخرج عليه زبير وعائشة. فأخذ عائشة وقال: يا أم! أتحتاجين شيئاً؟ وردها مكرمة معززة إلى المدينة. وأما طلحة والزبير لمّا رآهما قتلى في الأرض بكى، قال: يعز عليّ أبا محمد (يقصد طلحة الخير) أراك هكذا، وقرأ قول الله جلَّ في علاه: (إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) [الحجر:47]، قال: أنا وعثمان وطلحة والزبير نحن إخوانٌ على سرر متقابلين، وتكلم فيهم بالكلام الحسن مع ما بينهما من الخلافات التي حدثت. وهذه دلالة واضحة جداً على العدل في القول بين الصحابة الكرام. وأيضاً من ذلك ما تراه قولاً من ابن عمر مدحاً في عثمان، لمن أراد القدح في عثمان -رضي الله عنه وأرضاه- بأنه لم يحضر بدراً وأنه فرّ يوم أحد. فأتى له بكل المبررات أو المعاذير التي قد قبلها الله جلَّ في علاه، لا سيما في أحد عندما فر والفرار من الزحف كبيرة، قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ) [آل عمران:155]، وانتهى الأمر في هذا في هذا الباب.

الغرض أن العدل في القول فيه ما فيه من الفوائد العظيمة، فيه ما فيه من رقي المرء إلى محبة الله جلَّ في علاه. وأما الظلم والإجحاف في الحكم أو في القول فهذا أبعد ما يكون عن محبة الله جلَّ في علاه، إن الله يبغض الظلم ويبغض الظالمين. نعوذ بالله أن

نكون من هؤلاء. ونسأل الله أن نكون من الذين قد من الله عليهم بالعدل في القول والفعل وأيضاً في الإخلاص. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سؤال: من قال لغيره أبلغ فلاناً سلامنا ومحبتنا، وتقرر الأمر دون أن يوصل الطرف الأول السلام، وذلك للنسيان أو لعلة ومصلحة. فهل يأثم بعدم نقله للسلام أم لا؟

أخشى عليه من الإثم، لكن لا يأثم جزماً. يحاول أن يوصل ذلك ويوصل ذلك بالطريقة التي تحقق المصلحة التي يراها، ولعله نظر إلى مصلحةٍ ليست فيها مصلحة. فأخشى عليه من الإثم، فهو يحاول قدر الإمكان أن يجمع بين المصلحتين بأن يوصل بالطريقة التي تحقق المصلحة التي يراها مصلحة، حفظ الله الجميع ووفق الله الجميع لكل خيرٍ وبر.

العقيدة الواسطية

الدرس الثامن عشر: آيات صفة المحبة وسبل نيل محبة الله عز وجل (2)

ما زلنا مع الواسطية وأن شيخ الإسلام هنا يجلّي لنا صفات هؤلاء الأبرار الأخيار- الذين هم وسط بين أهل الغلو وأهل الجفو. وهؤلاء وسطٌ في اعتقادهم في ربهم جلَّ في علاه، يثبتون ما أثبته الله لنفسه على ما يليق بجلال الله وكمال الله جلَّ في علاه، بلا تمثيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تكييف، وأيضاً إذا كان النفي يكون بلا تعطيل.

فتكلمنا عن صفةٍ من أهم الصفات ومن أعظم الصفات هي صفة المحبة، وأن الله يُحَب، وأن الله يُحِب. وهذا خلافاً لمن أنكر ذلك كالجهمية وهؤلاء من أضل خلق الله، كان رأس الأمر عندهم الجعد بن درهم أنكر أن اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وأنكر أن يُحِب الله جلَّ في علاه عباده، وأنكر جهم بن صفوان الذي أخذ منه ذلك أن الله يُحِب أو يُحَب.

والله تعالى قد وصف نفسه بالحب، وأيضاً أنه محبوب، وأنه يُحِب من عباده الأخيار الأبرار كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، ويُحِب الله ورسوله، يجعل الله النصر على يديه)، وفي قول النبي -صلى الله عليه وسلم- تصريحاً: (إذا أحب الله عبداً).

فإذاً الله جلَّ في علاه يحب، وقال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، كما سيأتي. فقلنا والمحبة صفةٌ من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، وهي صفةٌ ثابتةٌ لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل والعقل يؤيد ذلك والدلالة واضحة جداً في هذا الباب في مسألة الكتاب، الآيات الكثيرة

نحن بصددها، ونحن بصدد آية هنا الآن في قول الله تعالى: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:7]، وفي السنة على ما ذكرنا من الأحاديث.

وأيضاً العقل وإجماع الصحابة على ذلك، والعقل يؤيد ذلك. فالصحابة أجمعوا عندما سمعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الله يُحِب ويُحَب وأقروا بذلك، والعقل يؤيد هذا لأنه كما قلنا الفعل يدل على الكمال، فعل المخلوق يدل على كماله على حياته، فإن كان يدل على الكمال في العبد فلأن يدل على الكمال في الخالق من باب أولى. طبعاً السبب الموجب للفعل، يعني الفعل الذي تسبب فيه هذا السبب فهذا من الكمال، كما بينا قبل ذلك.

وقلنا بأن هذه الصفة صفة فعلية، والأصل في كل صفةٍ من صفات الأفعال أنها قديمة النوع حادثة الآحاد. وقلنا هذا أيضاً يكون فيه حل الكثير من الإشكالات، حتى لا يقع الإنسان في شيءٍ يضيع به في عقيدته، في ربه جلَّ في علاه. لا يصح أن تكون كالكرّامية الذين يصفون الله بالكمال لكن اتصافه بالكمال يرونه مستحدثاً، وهذا معناه أنه لم يكن متصفاً بالكمال قبل ذلك، معنى ذلك أنك تصف ربك بالنقص ثم اكتسب الكمال. وهذا لا يكون لله جلَّ في علاه قط في هذا الباب، وليس هذا من أهل السنة والجماعة بحال من الأحوال، فصفة المحبة صفةٌ تليق بالله، صفةٌ تليق بكمال الله وجلال الله جلَّ في علاه وهي ثابتة لله.

وأيضاً يتعبد المرء بهذه الصفة العظيمة لله في أمرين:

- الأمر الأول أن يملأ قلبه حباً لله جلَّ في علاه، آخذاً بالأسباب التي تورثه وتورث قلبه محبة الله جلَّ في علاه، في كثرة ذكر الله وكثرة قراءة القرآن ومصاحبة الصالحين، والخلوات عند النزول الإلهي في السَّحَر وهو يبكي بين يدي الله جلَّ في علاه وهو يتضرع يفتقر يدعو يأنس بالاستغفار يأنس بقراءة القرآن، في الخلوات الناس جميعاً نيام، وهو يقوم وحده من أجل أن يرضي الرحمن سبحانه جلَّ في علاه.

ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يعجب ربكم)، فالعجب هنا خروج المرء عن النظائر، الخروج عن النظائر هي التي تستدعي عجب الرب جلَّ في علاه. يعني كيف لم ينم معها الذين ينامون؟ يسهر ويُسهِر ليله ويتعب نفسه من أجلي. هنا الله جلَّ وعلا يباهي بهذا العابد الملائكة، فيكون هنا ورّث قلب محبة الله جلَّ في علاه بالالتزام بالأسباب التي تستجلب له المحبة.

لا سيما أن أعظم هذه الأسباب التي تستجلب محبة الله جلَّ في علاه الدعاء، وهذا كان دأب الصالحين من صحابة رسول الله، وكان ابن عمر دائماً يدعو كما ورد عنه في الأثر وأيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. فجاءت الآثار الثابتة على الدعاء بمحبة

الرحمن جلَّ في علاه، كما قال: (وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عملٍ يقربني إلى حبك)، فالدعاء والالتجاء إلى الله بتكرار الدعاء في هذا الباب يورّث القلب محبة الله جلَّ في علاه.

- وأمّا بالنسبة لمحبة الله جلَّ في علاه استجلابها لا بد أن يتوفر بك وصفاً معينٌ، يكون منطبقاً انطباقاً تاماً حتى تبلغ هذه الدرجة التي لا يبلغها إلّا من فضّله الله على عباده. لأن هذه هي أعظم ما تكون من المنازل، وهذه لا تكون إلّا للمُجدِّين، وهذه لا تكون إلّا للصادقين، وهذه لا تكون إلّا للمُخلِصين المُخلَصين. لا يصل إليها أبداً من كان متقاعساً، من كان متكاسلاً، من كان متجرئً، أبداً لا يصل إليها. ولذلك نقول بأن هذه المنزلة هي أعظم المنازل على الإطلاق، ليس الشأن أن يحب العبد ربه، ولكن الشأن كل الشأن أن يحب الرب العبد.

بأن ينطبق عليك الوصف عندما يقول: (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، تكون من أهل العدل؛ العدل في القضية والعدل في القول والعدل في الفعل والعدل في التظلُّم، والعدل أيضاً في التوثيق والعدل في التجريح. العدل يحبه الله جلَّ في علاه، إن كنت كذلك كنت من أقرب الناس ومن أحب الناس إلى الله جلَّ في علاه.

أمّا الغلو والجفو والظلم والافتراء والبهتان، هذا أمرٌ جلل. لذلك قلنا لا يرمي صاحب سهم الافتراء إلّا بنفسه والله، وكان رامياً ماهراً لأنها سترجع إلى نحره فيموت. وحدث مع البئيس التعيس عبد الله بن أُبي بن سلول، وحدث مع الذين قد رموا عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- كيف فعل الله بهم. ولمّا كان الرمي من بعض الأماجد الأفاضل تفريطاً أو حميّةً أو انزلاقاً ومعصيةً، أقيم عليهم الحدّ، فكفر الله عنهم ذلك وطهرهم الله بذلك، لأنهم من النبلاء الفضلاء أبى الله عليهم أن يكون فيهم صفة من صفات هؤلاء المنافقين، أبى الله عليهم أن ينزلوا من درجة الصالحين الذين زكّاهم الله من فوق سبع سماوات، لذلك أقام عليهم الحد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أن تكون عدلاً فإن الله جعلها يحب ذلك منك، (وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [الحجرات:9]، وذلك أيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:7]. هذه من الأسباب العظيمة جداً التي تؤدي إلى أن يرتقي المرء إلى محبة الله، إلى أن يحبه الله جلَّ في علاه. منها في قوله جلَّ في علاه: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) [التوبة:7]، فيها أمران مهمان يبلغ بهما المرء إلى أن يحبه الله جلَّ في علاه:

● الوفاء بالعهد أولهما. الأصل هنا أن نقول (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) منطوق، والإجابة الأخرى في المفهوم. لذلك في سورة الأنفال قال: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً

فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) [الأنفال:58]، فهو هنا (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) إذاً المعنى أن تفي بالعهد والوعد. كما جاء حذيفة مع أبيه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان قد أعطى أهل مكة العهد والوعد أنهما لا يكون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في بدر. النبي -صلى الله عليه وسلم- ومع أنه يحتاج إليهم، مع أنه قد نقول بأن العهد لهم ليس مبنياً على أساس فيُردّ، قال: (لا ارجعا، نفي لهم عهدهم ونستعين الله عليهم). وهذا المؤمن، (أَدِّ الأمانة إلى من ائتمَنك، ولا تَخُن من خانك).

هذه الأولى (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) ولو كانوا أكفر أهل الأرض.

● والثاني المفهوم هو الانتصار بعد المظلمة، قوة أهل الإسلام تظهر في ذلك. (وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) [الشعراء:227]، كان مدحاً باستثناءٍ بعد ذمٍ عريض للشعراء. فهنا (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ): الوفاء بالعهد والثانية إن ظلموا فبيدٍ من حديد عليهم. وهذه توافق قول الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) [التوبة:73].

قال: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:7]، أصل التقوى هو أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله بصيرة، ترجو ثواب الله. إذاً توّفر الشرطان الآن:

♦ أن تعمل بطاعة الله: هو عموم الطاعة، على نورٍ من الله: الذي البصيرة التي فيها المتابعة. توفر الشرط الأول.

♦ ترجو ثواب الله: فيها الإخلاص، وأيضاً تكف عن محرمات الله جلَّ في علاه، على نورٍ من الله تخشى عقاب الله جلَّ في علاه.

وهنا كأنه بعدما خصص عمم، ما الفائدة في هذه الآية على التعميم بعد التخصيص؟ خصص في المحبة: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) المفهوم إذا ظلموا فاضربوا بيدٍ من حديد عليهم، وهذا التخصيص. ثم عمم، بعد ما خصص عمم. فما الفائدة في ذلك؟ هو قال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) وطرق التقوى كثيرة وسبلها كثيرة، فهذا مصدر التعميم. التعميم هنا كان له فوائد ثلاثة:

- الفائدة الأولى هي رفع التوهم، حتى لا يحسب أحد أن المحبة استجلابها فقط الوفاء بالعهد، وأن التقوى واقفة على الوفاء بالعهد، وأن يكون الوصف بالتقى يعني الوفاء بالعهد فقط. اشوف. سبل كثيرة جداً قد يصل بها المرء إلى التقى، لأنه قال: العمل بطاعة الله؛ ومن طاعة الله الوفاء بالعهد، من ذلك الجود والكرم الصدقة صيام القيام النوافل، كل ذلك يصل به المرء إلى تقوى الله جلَّ في علاه.

ـ الثاني من هذا الباب هو تطميع المكلَّف في كرم ربه، في محبة الله جلَّ في علاه. بأن قد جعل الله له سبلاً وطرقاً للوصول الى محبته؛ فإن لم يكن قد خُلِق لبابٍ معين لا يستطيع أن يكون فيه يعني موفقاً مسدداً، فالباب الآخر قد يكون فيه موفقاً مشدداً، ليس كل الناس من تتفتح لهم أبواب الجنان الثمانية. فلما صدَّر الباب بالوفاء بالعهد، والرجل يقول أنا أفعل لكني ما أستطيع وأفعل ولا أريد أبداً أبيّت النية على الخُلف لكني أخلِف وما يستطيع. قلنا له هناك أبواب أخرى من الطاعات توفق فيها، فتكون أنت أيضاً من المتقين الذين قد بلغوا محبة الله جلَّ في علاه.

ـ الثالثة: الكلام على مسألة الاستقامة، اللهم ارزقنا جميعاً الاستقامة.

وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، كل هذه السبل التي قد جعلها الله جلَّ في علاه سبيلاً وسبباً لبلوغ هذه المنزلة العظيمة، التي هي قرة العين ونبض القلب وتاج الرأس، وهي التي يصل بها الإنسان إلى المنازل العلا، وهي التي ينجو بها المرء من المهالك في الدنيا، وهي التي تكون له الكرامة عند اللواء يوم القيامة، وهي التي يسعد بها عندما يلقى نبيه ـصلى الله عليه وسلمـ عند الصراط وهو يمر على الصراط.

قال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، يا لله. وهذه أيضاً من أرجى الآيات عندما يقول الله جلَّ وعلا: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) هذه دلالة على كثرة التوبة، لأن هذه صيغة مبالغة؛ الفعّال: التوّاب هو كثير التوبة. وهذه لها ميز ثلاثة:

أولاً: لأن التوبة ليست واقفة على الذنب فقط، بل لأمور ثلاث:

▪ التوبة تكون أولاً من الذنب، وهي أولها وهي أعظمها، (من تاب تاب الله عليه). لذلك الإمام النووي يقول: من تاب تاب الله عليه ولو ألف مرة، وهذه دلالة على أنه توّاب. ما دام المرء لم يصر على ما فعل، قال الله جلَّ في علاه: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا) [آل عمران:135]. لذلك قال النبي ـصلى الله عليه وسلمـ: (ويلٌ لأقماع القول، ويلٌ للمُصِرّين الذين يصُرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون)، فمن تاب ألف مرة تاب الله عليه من الذنب.

▪ الثانية توبة من ترك الأولويات، الفقه فقه الأولويات. عند التنازع لا بد من تقديم الأهم على المهم، بل قال بعض علمائنا تقديم الأهم على المهم واجب. انظر إلى ترك الأولويات ماذا حدث منه ثمرةً؟ نظر الرجل العابد الراهب في عيون اللاتي يفعلن الفاحشة، قالت: جريج يقول ربي أمي وصلاتي. ليس لك أن تقول ذلك، أنت في نافلة،

ونعم يا أمي واجب. فالتوبة من ترك الأولويات، وهذا لا تأتي إلّا للرُّفعاء من القوم الذين قد أتقنوا العلم فعلموا الأهم من المهم. ترك خلاف الأولى يتوب منه.

▪ التوبة من نفس العبادة التي تعبد بها الله جلَّ في علاه، لأنها لا يمكن أن تبلغ ما يستحقه الله. وهذا الذي كان يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما من عبادةٍ يتعبد بها إلّا ويستغفر الله جل في علاه، لأنها لا يمكن أن تبلغ ما يستحقه أو تستحق عظمة الله جل في علاه.

لذلك قال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)، ومن كان بهذه الآية فهو محبوبٌ إلى الله. إذاً قد يقوم طالبٌ في الفصل ويكون لبيباً قريباً فيقول: لو اختبرت نفسي ونظرت إليها هل أنا محبوبٌ إلى ربي أم لا؟ يضع نفسه في هذه الدائرة. هل كلما عصيت تبت؟ هل أنا كثير الاستغفار؟ هل أنا كثير التوبة أم لا؟ إن كانت الإجابة نعم، فاعلم أن الله اصطفاك. مع الذنب؟ نعم مع الذنب قد اصطفاك، لأن الله تعالى ما اصطفاك إلّا وقد ألهمك التوبة، لذلك قال: (كنت سمعه، كنت بصره، كنت يده التي يبطش بها)، فالأمر هنا في الإلهام في هذا الباب.

إذا كان توّاباً حقاً في هذا الباب لا تراه ينظر إلى عيوب الآخرين، لأن النظر لعيوب الآخرين قسوةٌ في القلب تمنع التوبة. لأن الله إذا أراد بعبدٍ هلاكاً جعله سمّاعاً ثرثاراً، عنده آلات الحيات والأفاعي: لسان وأذن، يسمع ويتكلم، هذا محجوبٌ عنه التوبة. اختبروا الناس واجعلوها شريحة عامة وانظروا، ورب العزة وهذا ليس رجماً بالغيب، هذه مقدمات علم، لن تجدوا أحداً توّاباً إلّا كان صامتاً ساكتاً. ولن تجد رجلاً أو امرأةً محجوبة عن التوبة وتقول أريد ولا أستطيع إلّا كانت ثرثارة وكانت سمّاعة، تبيع الأذن واللسان. فهذا لا يمكن أن يُوَفق لتوبة بحال من الأحوال. ولا يُرزق التوبة إلّا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي كل شيءٍ علماً. قسوة القلب لا تكون إلّا من آلاته: من العين والسمع واللسان.

قال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)، وهذه من الأهمية بمكان لأن الطهارة طهارتان: طهارةٌ معنوية وطهارةٌ حسية. ولا يمكن أن يقف أمره على الطهارة الحسية، فقول الله جلَّ وعلا: (وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) هذه الأولى بها المعنوية لأن محل نظر الله القلب. فإذاً الطهارة المعنوية هي الأحب إلى الله جلَّ في علاه، هي الأقرب إلى رفعة المرء عند ربه جلَّ في علاه. أن يكون ذا قلبٍ تقيٍ نقي، وأن يكون توّاباً لربه جلَّ في علاه، أن يكون رقراقاً، وأن يكون رفيقاً هيناً ليناً. لا يكون قاسياً، لا يكون غليظاً، لا يكون حاسداً، لا يكون حاقداً، هذا الذي يكون محبوباً لله جلَّ في علاه.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)، والطهارة الحسية أيضاً لا تبعد عن ذلك. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن)، والمؤمن

محبوبٌ إلى الله جلَّ في علاه. فالطهارة إذا توضأ المرء أو اغتسل وانتوى أنه يتعبد لله قرباً بالمحبة لكان أعظم ما يكون؛ المعنى كل من قام جنباً اغتسل لرفع الحدث أو لاستباحة الصلاة فقهياً. (وأنا أقول دائماً أرق الناس قلباً الفقهاء، بل في الحدود والقصاص أرق الناس قلباً هؤلاء وربي، لكن إذا أتقنوا).

فهو عندما يغتسل، يغتسل أصالةً بنيّة أن يكون محبوباً لله جلَّ في علاه، لأنني باغتسالي بهذه الطهارة الله جلَّ وعلا يحب مني ذلك. وبعد ذلك رفع الحدث واستباحة الصلاة واستباحة القراءة، في كل ما أصلّناه فقهياً يكون على ذلك، ولذلك المرء دائماً يكون على طهارة.

أعلم أن الرجل الذي إذا غفل أو نعست عينه ذهب إلى الوضوء، لِمَ؟ قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن). أنت تمشي في الشارع الآن وجنازة أمامك، وهي تجاه القبلة، وقفوا. قم أنت فصلِّ، إذا قمت فصليت الآن، لو أنت غير متوضئ تصلي؟! فاتتك الجنازة. تُقلِّب مسألةً في رأسك، فلما وقفت معك قلت الحل في نص الآية. ما نص الآية؟ لا تذكرها. فلا بد أن تأخذ المصحف بيدك وتفتح لتذهب إلى الآية، (لا يمس القرءان إلّا طاهر).

أنا كنت في حالة في المدينة وغالب حالي أنه بعد الفجر ما أستطيع أتحمل يعني أتحامل على نفسي بعض الشيء، لكن غفوت بعد الفجر في لحظات فسمعت المؤذن يقول صلاة جماعة. كدت أجن، مع أنني أصلاً شافعي، والنوم عندي إذا كان نوماً بهيئةٍ معينة لا ينقض الوضوء، لكني خرجت من الخلاف فقط من باب التورع ولست من أهله، لكن فعلت ذلك. فطبعاً هذه المسألة راجعت نفسي وقلت أنا يقظتي عين لا تكون تطرف وإلّا وأنا على وضوء بفضل الله جلَّ في علاه. لكن لمّا غفلت تعبت لكن تذكرت، قلت الآن هذه الفائدة أن الإنسان دائماً يكون على وضوء. دائماً، لِمَ تضيع على نفسك العبادات؟!! لكن الحمد لله استدركت أمري أنا لا خرجت ولا فعلت، أخذت الغترة فرشتها وأخذت ربع كوب ماء أو أقل فتوضأت به. والناس تركوا كل شيء ووقفوا عندي ينظرون ماذا أفعل. فانتهيت بالوضوء وتوضأت وضوءاً كاملاً، لكن قلت أزيدهم دهشة وعجباً فشربت الباقي، ثم صليت. فقلت هنا فائدة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن).

هنا الآية عظيمة جداً من أرجى الآيات، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) ففيها دلالة أنهم عصوا، فيها دلالة أنهم وقعوا في الذنوب والمعاصي والآثام، بل وأكثروا منها. وأكثروا من التوبة، فكانوا محبوبين إلى الله جلَّ في علاه. يا لله!! على عظيم مكنون هذه الآية، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)، كثرة الذنوب وكثرة الخطايا مع كثرة التوبة تظهر صدق العبد في

العبودية للرب الجليل سبحانه جلَّ في علاه. (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)، اللهم اجعلنا منهم.

الفوائد المستنبطة من الآيات:

- فضل الوفاء بالعهد.

- رحمة الله وسعت كل شيء، خصص فعمم رحمةً قال: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ). بعد ما خصص بأن المحبة مرهونة بالاستقامة يعني بالوفاء بالعهد، لا، بل وأيضاً بكل طاعةٍ فتحها الله على العبد يكون العبد محبوباً لربه جلَّ في علاه.

- فضل البقاء على الوضوء، على الطهارة.

الأسئلة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

سؤال: هل يمكن أن ينقص الإيمان بالانشغال بالمباحات؟ وهل يستوجب التوبة أم لا؟

الإجابة: لا، الانشغال بالمباحات لا ينقص فيه الإيمان. الانشغال لا ينقص به الإيمان. لا سيما إذا استروح به المرء دفعاً في الطاعة بعد ذلك. قال: (يا حنظلة! ساعة وساعة). ولا يلزمه التوبة من هذا. قال يا حنظلة ساعة وساعة.

العقيدة الواسطية

الدرس التاسع عشر: آيات صفة المحبة وسبل نيل محبة الله عز وجل (3)

إلى الواسطية والكلام على شيخ الإسلام وهو يؤسس ويؤصِّل لنا كيف وسطية أهل السنة والجماعة بين طائفتين من أهل البدع: طائفة فيها الغلو وطائفة فيها الجفو. ويقول: أمّا أهل السنة والجماعة فهم وسطٌ بين هؤلاء وبين هؤلاء.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم صلِّ على محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

قال الإمام -رحمه الله-: وفي قول الله تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31]، وقوله: (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [المائدة:54]، وقوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [الصف:4]، وقوله: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج:14].

ما زلنا مع صفة المحبة، وهي صفة ثابتة لله جلَّ في علاه -كما قلنا- بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، والقياس أيضاً ولأنها صفة من صفات الأفعال. قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أحب الله عبداً نادى في السماء أن يا جبريل إني أحب فلاناً). وأيضاً الإجماع؛ أجمعت الأمة على أن الله يُحِب ويُحَب، الصحابة الكرام أجمعوا على أن الله يُحِب ويُحَب.

وهذا خلافاً لأهل البدع والضلالة؛ فأهل البدع والضلالة هم الذين قالوا لا يُحِب ولا يُحَب، وهذا من قول المعتزلة والجهمية النفاة. وأمّا الذين يحرّفون بزعمهم يؤوّلون بأنهم يقولون يُحِب العباد للجنة أو للثواب، وأمّا محبة الله جلَّ وعلا معناها الإرادة أي إرادة الثواب، يعني إذا أحب الله عبداً أراد له الثواب. هذا المعنى في المحبة عندهم في هذا الباب لأنهم يقولون لو قلنا بالمحبة سيكون تشبيه بين الخالق والمخلوق، وتشبيه الخالق بالمخلوق كفر، كما قال نُعيم بن حمّاد. زعموا ذلك، افترضوا فرضية خاطئة باطلة ثم ركبوا ورتبوا عليها، وهذا ظلم من أظلم الظلم، ولذلك المبتدع من أظلم الناس.

وأمّا صفة المحبة فقد ظهرت، وقلنا بأن الله تعالى قد رسم لنا طريقاً إذا صرنا فيه أحبنا الله جلَّ في علاه، فهناك أسباب جالبة لمحبة الله جلَّ في علاه. ورددنا على هؤلاء وعلى هؤلاء، وقلنا الحق بأن الكلام على من يحرّف ويقول بأنها إرادة ثواب، قلنا إرادة الثواب غير المحبة، هذا تفسيرٌ باللازم لأنه من أحب أراد أن يثيبه، أراد أن ينصره وأن يسدده. وأيضاً يقال عليهم أأنتم أعلم أم الله؟ الله جلَّ وعلا هو الذي وصف نفسه بذلك. أأنتم أعلم أم رسول الله؟ فرسول الله أعلم به لأنه يأتيه الوحي. فلذلك هم على ضلالٍ وعلى حيدةٍ عن الطريق القويم.

وما زلنا مع الأسباب الجالبة لمحبة الله، وهذه هذه التي يشمِّر لها ساعد الجد المجتهدون، لأنه لو أتى بالأسباب الجالبة لمحبة الله فأحبه الله جلَّ في علاه، فهذا الذي كتب الله له السعادة والسرور والحبور، وهو في جناتٍ ونهر، وهو في الدنيا قبل أن يصل إلى الآخرة. كما قال ابن تيمية: في الدنيا جنة من دخلها دخل جنة الآخرة، وهذه الجنة جنة محبة الله جلَّ في علاه. وهذه ليست لأي أحد، الله جلَّ في علاه يمنحها لمن يشاء من عباده سبحانه جلَّ في علاه.

لذلك على المرء إذا سأل كيف أتعبد لله تعالى بهذه الصفة؟ قلنا عليك أن تأخذ بالأسباب الجالبة لمحبة الله لك. أما رأيت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- قال: والذي

نفسي بيده ما أحببت الإمارة قط إلّا يوم أن قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله)، أثبت المحبة، قال: هنا تطلعت العنق إلى الإمارة.

فهذا فضلٌ عميم وثوابٌ كريم أن يحبك الله جلَّ في علاه، ولذلك قال علماؤنا: ليس الشأن أن يحب العبد ربه، الشأن كل الشأن أن يحب الرب عبده. فقد قال الله جلَّ وعلا مبيناً الأسباب الجالبة منها كما قال: (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:7]، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، وكل ذلك سردنا ما فيه من الشرح.

من هذه الأسباب الجالبة لمحبة الله جلَّ في علاه هي قول الله: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31]، هذه فيها الأمران: فيها الأسباب الجالبة لمحبة الله في قلب العبد وفيها الأسباب الجالبة لمحبة الله جلَّ في علاه. بينهما تلازم في هذا الباب، لذلك جمعهما الله جلَّ وعلا في هذه الآية، قال: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ) زعموا زعماً، كما قال الحسن: هذه الآية امتحنت من زعم محبة الله. زعم أناسٌ محبة الله فابتلاهم الله واختبرهم بهذا الاختبار. يعني كأنه قال: المحبة الصادقة ثمرتها تظهر بما قاله الله جلَّ في علاه: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31].

إذاً السبب الرئيس الجالب لمحبة الله هو اتباع السنة. فإن سأل سائل وقال: كيف أعرف أحبني الله أم لا؟ قلنا دائماً في الإجمال دون التفصيل، إن أردت أن تعلم مقامك فانظر أين أقامك؛ إن أقامك على البدعة الهدّامة للسنن فأنت أبغض ما تكون إلى الله جلَّ في علاه، فأنت أقرب إلى اللعن. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعن الله من أحدث فيها حدثاً، لعن الله من آوى فيها محدثاً).

فأنت إن رأيت نفسك على السنة، إن أقامك الله على السنة عملاً وعلماً ونشراً وتعليماً، فأنت من أحب عباد الله إلى الله. وهذا مصداق لقول الله جلَّ في علاه: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)، فكلما كنت للنبي أتبع كلما كنت للرب أحب، كلما كنت للنبي أتبع، كلما كنت عنده أرفع، لذلك قال: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31].

لذلك قال علماؤنا في التماس السنن: أن السنة تقدَّم على كل شيء، ومن أراد أن يختبر حبه لله جلَّ في علاه فليعرض نفسه على سنة النبي. فإن قلت للمرء في مسألةٍ ما: حدث

بينك وبينه خلاف أو حدث في الخصومة أو كان التنازع فجاء حكم الرسول، فإن أبى فهذا دلالة على النفاق في القلب، ليس نفاقاً مطبقاً لكن هو علامة على بعض النفاق في القلب. وأيضاً إن رأيته قد أمرته بسنة من السنن يتقاعس في العمل بهذه السنة، رأيته يحيد عن هذه السنة فاعلم أن قلبه قد تشرَّب ببعض البدعة، وليس انطباقاً أيضاً لكن كلما علا المنسوب كلما علا الحكم.

ففي قول الله جلَّ وعلا: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي) [آل عمران:31]، جعل الله علامة محبته وأحب من جاء بها وهي اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

لذلك ترى أن ابن عمر كان من أعظم الناس قدراً ومكانةً وأرفع الناس منزلةً لاتباعه للسنة، لذلك كان يقولون عبد الله بن عمر الأثري، كان ما يعرف أثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- إلّا يعمل به. لمّا جاءه اليمني وهو يطوف قال: كيف كان يطوف النبي؟ قال: النبي كان يستلم الحجر ثم يطوف. فقال له: أرأيت الزحام؟ إن زاحمني الناس؟ قال: كان النبي يقبِّل الحجر، يستلم الحجر ثم يطوف. قال: أرأيت إن دفعني الناس؟ قال: رأيت النبي يقبِّل الحجر ثم يطوف. قال: أرأيت؟ قال: يا يمني اسكت، اجعل "أرأيت" هذه خلف الكوكب، إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يفعل ذلك وإني أفعل ذلك. وكان في السفر ينزل ويقول: أين كان يمشي النبي؟ لعل القدم تأتي على القدم. فكان يتتبع أثر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه علامة محبة الله جلَّ في علاه.

فمن علامة محبة الله جلَّ في علاه التمسك بالسنن وهذا تراه جلياً في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتعلم كيف أن الله تعالى أحبهم لتمسكهم بالسنة ورفعهم وكافأهم، وجعل لهم المنزلة العظيمة الرفيعة السامية في الدنيا قبل الآخرة.

من هذا من هؤلاء زينب بنت جحش -رضي الله عنها وأرضاها-، عندما أتاها النبي -صلى الله عليه وسلم- يطلبها فحسبت أنه يطلبها لنفسه، وهو كان يطلبها لزيد ابن حارثة. قالت: من؟ زيد بن حارثة؟ قال: نعم. قالت: أنا أتزوج جيد بن حارثة؟ مولى من الموالي؟ وهي الحسيبة النسيبة. فقال لها: (ما بد)، يعني ما بد من السمع والطاعة. فأنزل الله تعالى: (وما وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36]. فقالت: ما بد، فتزوجته. فكافأها ربها جلَّ في علاه فزوّجها ربها جلَّ في علاه بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى كانت تترفع على أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- وكانت تقول: زوجكن أولياؤكن وزوجنيَ الله من فوق سبع سماوات، (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) [الأحزاب:37].

وأيضاً المرأة من الأنصار التي خطبها النبي -صلى الله عليه وسلم- للجليبيب فردها أهلها، فقالت: أتردّون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمره وقوله؟ ثم بعد ذلك

قالت: أردت جليبيب، قبلت جليبيب. فكما يقولون من أعظم بيوت الأنصار نفقة في سبيل الله، ووجدت كل الخير.

وأيضاً فاطمة بنت قيس عندما قالت: نكحني معاوية وأبو جهل، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أمّا معاوية فصعلوك لا مال له، وأمّا أبو جهل فكان لا يترك العصا من على عاتقيه)؛ يعني ضرّاب للنساء أو مسافر كثيراً، وفي الحالتين هذا يؤذي النساء. فجاءت فلما قالت ذلك، قال لها: انكحي أسامة. قالت: من؟ أسامة؟ -كما قالت زينب-، ثم قالت: ما بد، فنكحت أسامة فاغتبطت به، كافأها الله جلَّ في علاه.

وكان الصحابة الكرام لا يحيدون عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لمّا جاء حذيفة يقول لعمر: أدركنا، يعني القتل كاد ينتشر في القُرّاء، فإني أخشى على كتاب الله جلَّ في علاه. فقال: وما تقول؟ قال: أن نجمع القرءان، قال: كيف نفعل أمراً لم يفعله رسول الله؟ ولمّا اقتنع عمر بما قاله حذيفة، ذهب فقال عمر لأبي بكرٍ على الجمع. قال: ماذا تقول؟ قال: جمع القرءان، فقال: كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟

وتقدم أبو بكر خطوات على عمر بن الخطاب بشدة التمسك، لمّا جاءه عمر بن الخطاب قال: اعزل خالد، قال: والله لا أغمد سيفاً سَلَّه الله وسَلّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- . ولذلك لمّا تولى عمر بن الخطاب وعزله بكى بعدها، وقال: إن أبا بكرٍ كان أعلم بالرجال مني. ما هي إلّا التمسك بالسنة.

ولذلك أنت ترى العض بالنواجذ على السنن فيه ما فيه من النجاة، وكان ذلك لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لمّا دخل معاوية على الكعبة فأخذ يتمسح في الأركان الأربعة، فقال له ابن عباس: ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتمسح إلّا بالركنين اليمانيين. فقال له: يا ابن عباس ليس من البيت شيءٌ مهجوراً، فقال له: ولكم في رسول الله أسوةٌ حسن، قال: صدقت، واتبعه على ذلك. عبد الله بن الزبير لمّا علم من عائشة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لولا أن قومك حديث عهدٍ بكفر لهدمت الكعبة ولأقمتها على قوائم إبراهيم (بنيتها على قوائم إبراهيم)، ولجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس وباباً يخرجون).

هكذا كان صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يتركون سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويعلمون بأن هذه هي محبة الله جلَّ في علاه، هو عظم التمسك بسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31]، قد نقول إن الأمر ترتبي لأنه إذا أحب غفر سبحانه جلَّ في علاه، وإذا أحب أثاب، وإذا أحب أنجى.

وهذه فائدة المحبة، وهذا سنبينه إن شاء الله ثمرة المحبة بعد الانتهاء من كلية الآيات التي أتى بها المصنف ليبيّن الأدلة الكثيرة على صحة ما يتبناه اعتقاداً أهل السنة والجماعة في إثبات المحبة لله جلَّ في علاه، بأنه يُحِب وأنه يُحَب.

ثم أتى بأصل الباب في الآية: (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) [المائدة:54]، اللفتة في هذه الآيات أن هذه الآيات فيها الرد الرادع القاطع اللاذع على طائفة من أهل البدع: الجهمية والمعتزلة، لأنهم يقولون لا يُحَب ولا يُحِب. هو أراد أن يبيّن أن اعتقاد أهل السنة والجماعة بأن الله يُحِب ويُحَب سبحانه جلَّ في علاه.

فأتى بالآيات، وهنا الآية صريحة: (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [المائدة:54]، فيها إثبات محبة الله للعبد، وإثبات محبة العبد لله جلَّ في علاه. يعني إذا اشرأبت الأعناق، كأن سائل يسأل كيف يبلغ محبة الله في قلبه؟ قيل له كن (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [المائدة:54].

أولاً اللفتة الأولى في هذه الآية العظيمة، قال: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، ولم يقل أذلةٍ للمؤمنين. وهذه معناها أصل التواضع والرحمة والرفق واللين، قال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران:159]، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما كان اللين شيءٍ إلّا زانه وما نزع من شيءٍ إلّا شانه).

وأيضاً بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تكلم مع الأقرع، عندما قبّل النبي -صلى الله عليه وسلم- أسامة وقبّل الحسن، قال الأقرع: لي عشرة من الأولاد ما قبّلت أحداً منهم. فقال النبي: (ما أفعل لك وقد نزع الله من قلبك الرحمة؟). فهنا الأمر على ذلك فيها أصل الرحمة والرقة واللين، وأيضاً العطف والرأفة والود، وأيضاً التواضع

ولذلك أنت ترى عمر بن الخطاب لما استأذن بلال فقال: ادخلوه، فدخل. فقال: مكانك هنا، اجلس هنا، على مكاني هو، على كرسي عمر. وقال أمام الناس جميعاً ليظهر مكان بلال أمام أبي سفيان وأمام سهير بن عمرو وأمام الجميع، قال: بلال سيدنا وأعتقه سيدنا. ولمّا قال أبو ذر لبلال: يا ابن السوداء! فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعيّرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية). فذهب إليه فوضع خده على التراب، قال: والله

لا أرفع خدي حتى تطأ بقدمك على خدي. ولمّا حدثت المنازعة والمناظرة في سقيفة بني ساعدة، فقال أبو بكر: أرضى لكم أحد الرجلين: عمر وأبا عبيدة. فقال: ابسط يدك يا عمر.

فهنا التواضع ومعرفة القدر والفضل لأهل الفضل، هذا أيضاً بمعنى قوله: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، وإلّا فأنت ترى ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم- جلياً، كانت الجارية تأخذ بيد النبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي معها حيثما شاءت، ويقضي للعجوز ما أرادت، وكان يتواضع لأصحابه -بأبي هو وأمي-، وكانوا يأنسون به. وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- من أعظم الناس تواضعاً؛ حتى لمّا حدثت المنازعة بينه وبين عائشة، أدخل بينها وبينه أبا بكرٍ وقال: (احكم بيننا)، وهو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ولمّا صفعها، قام النبي -صلى الله عليه وسلم- منكراً على ذلك، حتى رجع أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-.

قال: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، تراها أيضاً في عمر والتعامل مع الصحابة الكرام، ولمّا ذهب عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- لفتح بيت المقدس، ذهب ماشياً وكانت النوبة لفتاه هو الذي يركب فركب، وأيضاً لمّا مر على مخاضة خلع نعله وتأبطه ومشى حافياً. حتى قال أبو عبيدة: ما جئنا بك إلى هذا يا أمير المؤمنين، جئنا بك ليهابوك حتى تأخذ مفاتيح بيت المقدس. قال: إيهٍ يا أبا عبيدة! لو قالها غيرك، إنا كنا أذل قومٍ فأعزنا الله بهذا الدين، فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله. هذه أول الصفات التي يحبها الله في العبد المؤمن، فمن تحلّى بها فهو قريبٌ من ربه، محبوبٌ له.

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)، وهذه من أهم صفات المؤمن، ولذلك (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) فيها أمران:

- الأول: قال بأن هذه صفة من صفات المنافقين، قال: (أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [النساء:139]، (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [يونس:65]. ففي قوله: (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) يعني لا يبتغون العزة عندهم، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

- والثاني: أنهم لا يذلون لهم، أنهم لا يذلون لا للكفر. وكيف يذلون وقد أعزهم الله بالإسلام؟ وكيف يذلون وقد أعزهم الله بالتوحيد؟

لذلك لمّا دخل ربعي بن عامر على رستم وكان معه سيف قصير ورمح، تعلمون الفراش الوثير لرستم والوسائد التي كانت في الأرض. فكان بالرمح يطعن بها ومعه السيف الصغير، فنظر إليه رستم قال: ما هذا؟ قال: سيفي، قال: هكذا؟ قال: نعم قصير حتى أقدِم على أعداء الله فأنحرهم ولا أتراجع. فرعب رستم مما قال ربعي، فقال له: من أنتم

وماذا تريدون؟ فقال: نحن عبادٌ لله، ابتعثنا الله لنخرج العباد من عباد العبادة إلى عبادة رب العباد.

والمغيرة بن شعبة قال كلاماً بوزن هذا أو بأوزن من هذا، عندما قال له: نعطيكم شيء من الطعام والشراب واللباس كل عام وارجعوا عنا. فقال: والله جئناكم بحبنا للموت كحبكم للحياة. حتى أرعبه في ذلك، قال: أرأيت كيف تحبون الخمر؟ أنا جئتكم بأناسٍ يحبون الموت كما تحبون أنتم الخمر، فأرعبه، كانت هذه عزة ليست بعدها عزة لأهل الإيمان.

وطبعاً العزة تتمثل بقول هارون الرشيد الذي اتهموه اتهامات باطلة، التاريخ يظلمه ولن يظلمه، لأن الله تعالى رفع ذكره، بكلمة واحدة رفع الله ذكره عندما قال: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، لأمر بما ترى لا بما تسمع، وكان يقول الجهاد الآخر هو جهاد اللسان، وهذا أعظمه، وهو أكمله كما قال ابن تيمية: قد ينتهي جهاد السنان عند الثغور، أما ثغر الإسلام في جهاد اللسان فلا يتوقف بحال من الأحوال وكتابة البنان. لأن البدعة قد أطلت برأسها، وأن البدعة لا تنقطع إلى يوم الدين، والبدعة هدامةٌ للسنن، وأن البدعة هي التي تهدم الدين كليةً. ولذلك أعظم الناس جهاداً هو أعظمهم كلمةً في نشر التوحيد ونصر السنة وقمع البدعة، هذا أعظم الناس جهاداً، ولذلك قال علماؤنا هو أرفع الناس.

وكان يقول الشيخ ابن باز رحمة الله عليه: الحياة في سبيل الله أشق من الموت في سبيل الله. يموت يدخل الجنة ويغفر له مع أول دفعة من دمه، أمّا هذا يعيش ليل نهار صباح مساء مع اللأواء والشدة والسهر وتحليل المسائل والحفظ والعلم والإتقان ونشر ذلك بين الناس، ثم بعد ذلك هو يتعرض أيضاً للبدع وقهر البدع وتمكين أهل البدع، ويتعرض أيضاً للمخالفات والانتقادات. ثم يتعرض بعد ذلك لأتباع الشيطان؛ الغيبة والنميمة، وأيضاً محاولة إيقاف السير بكل ما أوتوا من قوة. فهذه أمور بأسرها أمور معرقلة لجهاد اللسان، ومن وقف وثبت على ذلك وثبته الله جلَّ في علاه فهو أرفع الناس جهاداً.

قال: (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) وهي إطلاق كلمة الحق على ضوابط الشرع، هي التي يكون فيها (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ). والمعنى هنا أخفى من ذلك، (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) يعني عند التمسك بالسنن وعند العبادات لا يستحون أن ينكر عليه مُنكِر. ولذلك أنت ترى كثير من العلمانيين ينكرون جداً على الذين يتمسكون بالسنن، ينكرون عليهم على أنهم على تخلف على أنهم يتمسكون بشيءٍ قد عفا عليه الزمن، نعوذ بالله، فيخافون من الواقع الذي يعيشون فيه.

والحق بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء إلى واقعٍ ليغيره لا ليتغير به؛ وهذه قوة شخصية العالم في هذا الباب، وأنه لا يخاف لومة لائم على ما يتبنى، ما دام معه الكتاب والسنة فيقول: هذه زادي، ولو وقف أمامي الجبال لا أتحرك ولا أنحاز ولا أحيد ما دمت قد استنرت بالكتاب والسنة. فيقف بها دائماً شامخاً كالجبال ولا يخاف لومة لائم، هذا الذي يكون من أحب عباد الله إلى الله جلَّ في علاه، وقد استجلب الصفات التي قد ارتقى بها المنازل العلا في الجنة.

قال الله جلَّ وعلا: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)؛ (ذَلِكَ) يعني هذه الصفات: أن يكون عزيزاً على الكافرين، ذليلاً على المؤمنين، أن يكون مجاهداً في سبيل الله، أن يكون محباً ليّناً، أن يكون عالماً مجاهداً. فهذا هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وانظر هنا قال: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ) ثم الالتفات إلى قوله: (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، سبحان ربي العظيم. هذه لها فائدة عظيمة جداً، ما هي؟ هو قال: (ذَلِكَ)، و"ذلك" مما ذُكِر: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) ... "ذلك" ما ذُكِر من الصفات.

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)، فلمّا قال: (مَنْ يَشَاءُ)، ختم بها بأنه قال: (وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ). واسع الفضل، فإن الله جلَّ وعلا يمنح من يشاء بما يشاء، وأعظم الفضل الذي يبذل هو العلم، أعظم العطاء على الإطلاق بعد الإسلام والتوحيد هو العلم. ولذلك ذكر (الأذلة والأعزة) لا يكون إلّا بعلم في هذا الباب، فهو واسع العطاء سبحانه جلَّ في علاه. ثم قال: (عَلِيمٌ)، يعلم المَحِل القابل الذي يكون قابلاً لمثل هذا الفضل فيعطيه فيؤتيه، وهذه دلالة واضحة جداً.

لذلك قلت ما أبعد ابن عبد البر عندما قال: حمل العلم عدالة، في هذا الباب. فإن الله يعلم المَحِل القابل من غيره، فلذلك قال: (عَلِيمٌ)، سبحانه جل في علاه، يعلم من يستحق مثل هذا الفضل فيعطيه إياه، ويعلم من لا يستحق هذا الفضل فيبعده عنه.

ولو ضربنا مثلاً بمسألة الفضل في المجلس في مجالس العلم، هؤلاء القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، غير ما يستفيده المرء من فوائد علمية وإتقان ورقي وتثبّت. يعني لمّا ترى الله تعالى يمنح إنسانا ثباتاً في مثل هذا الباب، هذا الذي أراد الله به خيراً. فإن جعله يتقاعس ويتراجع ثم يمتنع، هذا الذي حجب الله عنه كل الخير، وحجب الخير هنا في قوله: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) [التوبة:46]. برر ما برر، فإن الله أقعده وما أراده. أرأيت الثلاثة نفر؟ عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أمّا الأول أقبل فأقبل الله عليه، وأمّا الآخر استحيا فاستحيا الله منه، وأمّا الذي تراجع وتقاعس وأعرض أعرض الله عنه).

نعوذ بالله من ذلك، ونعوذ بالله أن نكون من هؤلاء، ونعوذ بالله من التبرير للنفس عند التقاعس أو عند سحب النعمة من الإنسان. لأنه قد تسحب النعمة من الإنسان وهو حتى

لا يتألم، يأتيه الشيطان يجعل له المعاذير أمامه، وهذا من عدم فقهه وعدم إتقانه. فسبحان الذي فتح عقولاً وقلوباً لإتقان مداخل الشيطان وكمائن القلوب، وسبحان الله الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، ويعلم من هو أهلٌ للخير وللعلم وللفضل ومن لا، فيحجب هذا عن العلم ويفتح لهذا العلم.

وقوله: (بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ) [النمل:30] ينتقل به هنا إلى صفةٍ أخرى وهي صفة الرحمة، وهذا إن شاء الله يكون في الدرس القادم.

الفوائد المستنبطة من الآيات:

- وجوب اتباع سنة.

- السنة سبيلٌ لمحبة الله.

- فضل التواضع: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ).

- أصل الموالاة والمعاداة.

- دوام النظر لله جلَّ في علاه: (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ).

- عطاء الله عن علمٍ وحكمة.

- عطايا الآخرة دلت على قدر المرء عند ربه، لأنه قال: (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

الأسئلة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

السؤال: يقول الاستدلال بقول الله تعالى: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)، قد يثَّبِط همة من تقاصرت همته بعض الوقت، لا سيما وأنها نزلت في المنافقين. فكيف توجه ذلك؟

الإجابة: هذا كلام صحيح جداً أنها نزلت في المنافقين ليست في المؤمنين لكن لا بد أن يعقل بأن من فعل مثل فعلهم من المؤمنين كان مشابهاً لهم في هذا الفعل فقط. ويخشى المرء على نفسه أنه إن تقاعس وتراجع أن يكون في محلهم، وأن الله جلَّ وعلا قد كره منه ذلك. أما عمر ابن الخطاب قال: أسماني لك رسول الله؟ أسماني لك رسول الله؟. ولذلك ابن أبي مُليكة قال: أدركت الثلاثين من أصحاب محمدٍ، كلٌ منهم يخشى على نفسه النفاق. ولذلك الحسن قال: لا يأمنه إلّا منافق ولا يخافه إلّا مؤمن.

فهو هناك فرق بأن يكون للمرء فتور دون تقاعس، أمّا الفتور فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لكل عمل شره، ولكل شره فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد هدي). فقال العلماء هنا بأنه إن أصيب بالفتور وكان على السنة فهي وقت يستروح بكثير من المباحات، ثم يرجع بقوته مرة أخرى. لكن أن يتقاعس ثم يحجب نفسه عن ذلك، ويغلق هذا الذي قد نزل درجة عند الله. وأخشى ما أخشاه أنه ينزل فيخسر كل شيء.

السؤال: يقول ما الفرق بين الرضا والمحبة؟

الإجابة: الرضا من علامات المحبة، فأنت ترضى عمن تحب. أنت ممكن تختبر ذلك؛ ترى القليل ممن تحب فترضى عن هذا القليل، وترى الكثير ممن لا تحب لا تقبله. وهذا يظهر جلياً عند الزلل والعثرة، فإن تعثر حبيبك فانت تبحث تنادي إلى السماء إلى البحار والمحيطات والأنهار تنظر ما العذر له، فتلتمس له العذر، وتنظر إلى عثراته بعين المحب فتخفف من الآلام ومن الحدة ومن الإنكار ومن الاتهامات. أمّا إن كنت حاقداً حاسداً فانظر، إن لم تكن عثرة جعلتها عثرة، وإن كانت عثرة جعلتها عشرة، وإن كانت عشرة جعلتها إلى الكفر أقرب منها إلى الكبيرة في هذا، والشيطان لا يتوقف. وهذا يظهر جداً فيما تراه ممن يحاول تلمس العثرات إن كان حاسداً حاقداً، لا سيما وأن عين الحقد منه تظهر، وعين الحسد منه تظهر أيضاً. فهذا بجلاء يظهر لك الفوارق في مسألة عين المحب وعين الحاقد. فالرضا ثمرة من ثمرات المحبة.

العقيدة الواسطية

الدرس العشرون: ـ آيات صفة المحبة وسبل نيل محبة الله عز وجل (4)

ـ آيات صفة الرحمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم صلِّ على محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-. قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: وقوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [الصف:4]، وقوله: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج:14]. وقوله تعالى: (بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ) [النمل:30]، وقوله تعالى: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا) [غافر:7]، وقوله: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) [الأحزاب:43]، وقوله: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف:156].

هنا ختاماً للكلام على عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه الصفة من صفات الأفعال التي قلناها أكثر من مرة وهي صفة المحبة، وأن صفة المحبة ثابتة لله جلَّ في علاه، وثابتة لعباد الله بأن الله يُحِب ويُحَب. وقلنا بقول علمائنا النبلاء بأنهم قالوا: ليس الشأن أن يحب العبد ربه، إن العبد يحب ربه لإحسانه لبره لقوته لجبروته لكبريائه لعظمته لبهائه لجماله، والشأن كل الشأن أن يحب الرب عبده. وقد ثبت ذلك وثبت ذلك، ومنها في قول: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:7]، فهذا إثبات بأن الله جلَّ وعلا يُحِب. وقد جمع بينهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يجعل الله النصر على يديه).

قلنا وأهل السنة والجماعة عدول وسط بين جفو وبين غلو، بين طائفة تنفي هذه الصفة عن الله وأيضاً عن عباد الله جلَّ في علاه، يقولون لا يُحِب ولا يُحَب، وهي الجهمية وأفراخ الجهمية المعتزلة. وطائفة أخرى محرّفة تزعم التأويل، ففيها شيء من النفي أيضاً لأنهم يقولون ليست محبة الثابتة هنا وعلى حقيقتها، لكن المحبة هنا معناها إرادة الثواب. وهذا كما قلنا تحريفٌ، ولولا أن اللغة قد تحتمل ذلك لقلنا هذا تكذيبٌ في دين الله جلَّ في علاه. وهناك من أثبت المحبة كمحبة البشر، وكلٌ على ضلال. وأهل السنة والجماعة قالوا نثبت المحبة لله جلَّ في علاه، وهذه المحبة صفة من صفات الأفعال، يتصف الله بها جلَّ في علاه، قديمة النوع حادثة الأفراد، وهي تتعلق بالمشيئة؛ قد يحب الله جلَّ في علاه أناساً ويبغض آخرين.

وأيضاً فإن الله جلَّ في علاه أناط لمحبته أسباباً وقد تكلمنا عنها، من هذه الأسباب التي يصل بها المرء أن يجلب محبة الله له، لو قام اللبيب الأريب الذي يسأل ما الدواعي الموجبة لمحبة الرب للعبد؟ قلنا في قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [الصف:4]، فإذاً في قوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ) هنا دلالة على أن السبب الرئيس الذي يستجلب محبة الله جلَّ في علاه لهذه الطوائف من الأمة الإسلامية بوصفهم الذي وصفه بكتابه: (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ).

(صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) لأمور كثيرة جداً معنوية وحسية: أمّا الأمور الحسية فهو إرعاب الجيش الذي أمامهم، وإظهار القوة في الوحدة والاتحاد، والمعنوية هي توافق القلوب وعدم تشهير القلوب، لأن التراص كوحدةٍ واحدة في الظاهر يؤثر في الباطن، أما رأيت بأن النبي قال: (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم).

فيكون هنا الأسباب الجالبة لمحبة الله جلَّ في علاه أن يقفوا جميعاً صفاً أمام عدو الله جلَّ في علاه، لا يفرون ولا يتولّون ولا يولونهم الدبر، والله تعالى قال بأن من فعل ذلك

له عذابٌ عظيم، وهي فتنةٌ عظيمة. ولذلك في آخر الزمان الشرط التي يشترطونها عندما يأتي الروم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فيشترطون شرطاً) شرطة من هذه الشرط تفر تولِّيهم الأدبار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يتوب الله عليهم إلى يوم القيامة).

فإذاً أن يقفوا صفاً واحداً يحب الله ذلك من عباده، وأنت رأيت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا صف الصف وضرب السواد ارجع على بطنه على أساس أنه نأى بصدره فقد تقدَّم بصدره، فقال: ارجع. فضربه بما في يديه من السوط، قال: أوجعتني يا رسول الله، قال: ما تريد يا سواد؟ قال: أريد القصاص. سبحان ربي هذا يقال لسيد الأولين والآخرين!! وانظر إلى تواضع النبي الأمين، فكشف عن بطني وقال: هاك خذ ما شئت، دونك بطني. فقام فقبلها، قال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: ترى ما نحن فيه؛ بيننا وبين الدنيا مفارقة خروج النفس الآن والروح. قال: ترى ما نحن فيه، فأردت أن يكون آخر شيء ألمسه في هذه الدنيا هي بطن رسول الله. فدعا له النبي -صلى الله عليه وسلم- بخير.

ولمّا جاء أبو دجانة وقد ربط على رأسه عمامة حمراء، قال الأنصار: ربط أبو دجانة عصابة الموت. ولمّا قام النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخذ خشبة (وهذه معجزة) فهزّها وقال: (من يأخذ هذه بحقها؟) فقام الزبير وقال: أنا، قال: اجلس، (ثلاث مرات) وفي الثالثة أعطاها لأبي دجانة، فأخذ السيف يتبختر بين الصفين، يمشي متبخترا زهواً، وهذه مشية الكبر، فنظر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هذه المشية.

وانظر الشرع وكيف أن العلم والحكمة تضع الشيء في موضعه، قد يكون الأمر مُنكراً في حالة وقد يكون وقد يكون مندوباً أو يكون محبوباً لله جلَّ في علاه في حالٍ آخر، وهذه لا يمكن أن يصل إليها إلّا المتضلع في العلم. فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا رآه يمشي هكذا قال: (والله والذي نفسي بيده إن هذه مشية يبغضها الله، إلّا في هذا الموضع)؛ أي الكبر على أعداء الله. الغرض المقصود كانوا صفاً واحداً، وهذا على التأصيل العام في هذا الظاهر.

أمّا المعنوي فعظيم؛ فإن قول الله جلَّ وعلا: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) [الصف:4] دلالة واضحة جداً على أن الله تعالى يُحِب الاجتماع ويبغض ويكره الفرقة. ولذلك قال عمر بن الخطاب: الفرقة عذاب والاجتماع رحمة. وأيضاً ورد أثر مرفوع، وجاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة. وقد قال النبي لأبي عبيدة بن الجراح عندما أرسله على رأس سرية وفيهم أبو بكر وعمر: (تطاوعا ولا تختلفا). فلمّا أقيمت الصلاة ودخل يصلي قال له عمرو بن العاص (وهو من ستة أشهر في الإسلام): جئت عليّ، أنا أصلي. فدخل

فصلى، وقال له: نعم، قد سمعت الرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: (تطاوعا ولا تختلفا).

والفرقة عذاب؛ قال الله جلَّ في علاه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران:105]، وقال الله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال:46]. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (فساد ذات البين هي الحالقة). وقال: (دعوت ربي بثلاث)، قال: (وألّا يسلِّط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيح بيضتهم، حتى يستبيح بعضهم بيضة بعض). إذاً سيسلط الله عليه عدواً من غريب فيستبيحها، النزاع النزاع في هذا الباب.

الغرض المقصود بالكلام على مسألة الفرقة وأن الفرقة عذاب، هنا نرى بأن الله يبغض الفرقة ويحب الاجتماع، ويحب الجماعة. وأنت ترى بأن الصلاة في المسجد أعظمها عند الله وأرفعها أجراً أكثرها عدداً. وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سمع الرجل يقول: يا للأنصار! والثاني يقول: يا للمهاجرين! قال النبي الأمين: (أو قد فعلوها وأنا بين أظهرهم! دعوها فإنها منتنة).

انظر إلى أعظم من ذلك، لأن دعوى الجاهلية تفسد ذات البين، ودعوى الجاهلية ثمارها النزاع والكبر والتفاخر والعلو والرفعة ويأتي إلى بعد ذلك التشرذم، وبعد ذلك من وافقنا فهو معنا ومن خالفنا فهو عدونا، والمخالف لنا لا نقبله بحال من الأحوال. هذه التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعوها فإنها منتنة). أعظم منها ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من تَعَزَّى بعزاء الجاهلية، فأعِضُّوه بِهَنِ أبيه، ولا تَكْنُوا). ولذلك أُبي سمع رجلاً يتكلم بكلام الجاهلية قال: اعضض كذا أبيك، فقال له: نت تقول ذلك؟ قال: وما لي لا أقول بما قال رسول الله: (من رأيتموه يتعزَّى بعزاء الجاهلية، فأعِضُّوه بِهَنِ أبيه، ولا تَكْنُوا).

فإذاً المسألة هنا في قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) [الصف:4] يعني أن يكونوا على ترابطٍ على قلب رجلٍ واحد، أن يتَّحِدُوا. ولذلك قال الشاعر: تأبى الرماح إذا اجتمعنا تكسراً *** وإذا افترقنا تكسرت آحاداً

وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، لذلك قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا) [الصف:4]. إذاً كل من رأى الله في قلبه أنه يحاول الجمع ولم الشمل ورأب الصدع فهو محبوبٌ الى الله جلَّ في علاه، وكل من أعمل الفساد وجعل الخرق يتسع على الراقع فإنه مبغوضٌ الى الله جلَّ في علاه. فمن تسبب في الفشل وفي التنازع وفي الفرقة فهو من عمل الشيطان، ومن كان سبباً في الائتلاف والوفاق والاتفاق والتآلف فهذا من العمل الذي أحبه الرحمن، وكان صاحبه أقرب ما يكون إلى ربه جلَّ في علاه.

قال: وقوله: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج:14]، وبهذا هو يختم صفة المحبة بقول الله جلَّ في علاه: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج:14]. هو يتكلم عن صفة المحبة ثم قال وختم الصفة بقوله: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)، ما المناسبة بين الاسمين؟

إجابات الطلبة:

- المودة من مراتب المحبة، (هذا شطر الإجابة).

- من أحبه الله غفر له.

- لأن من المحبة غفران الذنب والتودد له، (هذا قريب جداً من الإجابة الصحيحة).

- إن الله إذا أحب عبداً غفر له، وإن الله يحب العبد الذي يكثر الاستغفار والتوبة.

- المغفرة لازمة للود، فم أحبه الله غفر له.

- لودِّه لعباده يحب له المغفرة، فقرن بينهما للبشرى له. (المفروض أن يقال ان يقال المغفرة سبيلٌ للود).

- إن الله يغفر لعبده ويحبه بعد المغفرة، فالود ينشأ من الحب.

- بعد المغفرة يأتي الود من رحمة الله بعباده.

- المودة من مراتب المحبة، والغفور صفة تليق بالمُحسن لذا اقترنا هنا وختم بهما.

- يغفر عن ود سبحانه، ومحبة. وأعلمنا أنه يغفر الذنب ويحب التائب منه، فحظ التائب نيل المغفرة.

- من أحبه الله لا يعذبه، ولذلك لمّا ادعت اليهود أنهم أحباب الله فكان الرد عليهم: (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم) [المائدة:18].

- أن من نصر دينه وحرص على طاعته، غفر له وأحبه، والود أعلى درجات الحب، ولازم الحب غفران الذنب.

- من أحب أحداً ستر عليه... (تعليق الشيخ على هذه الإجابة: لو قلنا بهذا، فماذا تقول في الأنبياء الآن ونحن نقرأ ليل نهار: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) [طه:121]؟ماذا ستقول في هذا هنا الآن؟ أحب الله آدم أم لم يحبه؟ ماذا تقول في نوح -عليه السلام- عندما قال له: (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [هود:46]؟ فكيف يكون هذا؟ فالحق في هذا الباب الملازمة في هذه المسألة قد نقول: من ستر عليه غفر له، وهذه وإن كانت فيها من اللزوم لكن ليس كما تقول في هذا الباب لأنه قد يكون هناك

مصلحة في هذا الباب، كفرار الحجر بثوب موسى -عليه السلام-، وأيضاً لما قاله الله جلَّ وعلا عن الأنبياء في الكتاب.

وما أراد بهم أن يفضحهم بل أراد أن يبيّن لهم من المكانة العليّة وأيضاً ما فيهم من البشرية، لأن العصمة التامة الكاملة لله جلَّ في علاه ليست لأحد من البشر، حتى الأنبياء قال فيهم الله تعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) [طه:121]، وأيضاً قال عن نوح وقال أيضاً عن إبراهيم وأولو العزم من الرسل؛ أولو العزم من الرسل هم الذين كلّما يستشفعون بهم يقولون: نفسي نفسي، ثم يذكرون ذنباً، وقيل على رؤوس الأشهاد كلٌ منهم يذكر ذنباً.

المناسبة: المغفرة والود، (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج:14]. قلنا أولاً القاعدة في الأسماء والصفات: "إذا اقترن اسمان فهو كمالٌ فوق الكمال"، الأمر الثاني: قلنا إن الأسماء مشتقة، فكل اسمٍ يتضمن صفة كمال ويستلزم صفات كمال؛ فالمغفرة والود، وهو ختم المحبة بالمغفرة، كأنه يقول: ومن أحبه الله جلَّ في علاه غفر له، ومن غفر له زاد الود فيه. بالأمرين، لأن العبد إذا علم أنه إذا أذنب الذنب فاستغفر فغفر له زادت محبة الله في قلب العبد، وإن زادت محبة الرب في قلب العبد فإن العبد يتحرك شكراناً بوازع المحبة لله جلَّ في علاه فتزداد محبة الله له بعد ذلك. وأصل الأمر أن إقبال المرء على الرب تزداد به المحبة، وإقبال العبد على الرب من إقبال الرب على العبد، (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53].

فيكون هنا بعد ما ذكر الصفات والسمات التي من تحلّى بها واتصف بها يكون الله جلَّ وعلا قد أحبه، يعني هنا الآن ترى بأن الله جلَّ في علاه قد أحبه في هذا لأنه قد أخذ بالأسباب التي تستجلب محبة الله للعبد. فكأنه قال: فإن أحبه غفر له، قال: (وَهُوَ الْغَفُورُ)؛ والغفور كما قلنا بأنها صيغة مبالغة، أي كثير المغفرة.

وهذه لها ما لها من الفوائد والثمرات، الله غفور معناها بأن العبد كثير الاستغفار، وأحب عباد الله جلَّ في علاه أكثرهم استغفاراً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أسعد الناس صحيفة يوم القيامة أكثرهم استغفاراً). وأيضاً قد قال ابن القيم: وعظيم الشيم التي يتصف بها المؤمن كثرة التوبة أو كثرة الاستغفار. فكأنه قال: هو غفور، ولأن العبد خطّاء، قال: (كل ابن آدم خطّاء). و"خطّاء" بمعنى فعّال. فإن كان خطّاءً فالله غفّار.

وقد جاء في مسند أحمد: (أن رجل قال: ربي أذنبت الذنب فاغفر لي، قال: عبدي علم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر، اشهدوا أني قد غفرت له. ثم قال الله جلَّ في علاه: عبدي افعل ما شئت ثم استغفرني فسأغفر لك). في حديث الترمذي بسندٍ صحيح، بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي). فكأنه قال: من اتسم بهذه السمات،

من اتصف بهذه الصفات وتحلى بها فإن محبة رب الأرض والسماوات تكون له، وإن احبه الله فهو أقرب الناس إلى الله جلَّ في علاه، وإن غفر الله له كان متوددا له بالمغفرة. هذه هي المناسبة.

إذاً المسألة قابلة سابقة ولاحقة؛ السابقة بأنه لما اتصف بالصفات التي جلبت محبة الله، فمن محبة الله أن العبد لابد أن يخطئ وأن العبد لابد أن يسيء، والأمر ظاهرٌ جداً في الأدلة المحكمة. يعني من قال بأن العبد لا يخطئ مبتدعٌ ضال، بل قد تكون مسألته أعظم من ذلك لأنه كذَّب المحكمات. أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إن تغفر تغفر جما، وأي عبدٍ لك لا ألمّا)؛ "أي عبدٍ" هذا عموم.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو خير من يقول بذلك: (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت، اللهم اغفر لي خطئي وعمدي وهزلي وجدي، وكل ذلك عندي). وأعظمه كما قلت لأنه كان يقول: (اللهم إن تغفر تغفر جما، وأي عبدٍ لك لا ألمّا). وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون)؛ التوّاب أوّاب إلى ربه جلَّ في علاه، سريع التوبة والأوبة إلى الله جلَّ في علاه. وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من أحدٍ إلّا وقد أخطأ أو همّ بخطيئة إلّا يحيى بن زكريا). حتى عيسى -عليه السلام-، لمّا ذكروا في الصحيح أنه قال: اذهبوا إلى محمد، ولم يذكر ذنباً. في السنن ذكر ذنباً. وهم الآن يستشفعون بأعظم الخلق مكانةً وأعظمهم مكانةً محمد، قال فيه عيسى: (عبدٌ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)، وهذه من المحبة.

إذاً السابق واللاحق يفسر لنا هذا الباب؛ أنه سبقت المحبة بالتحلي بهذه الصفات، وهذه استجلبها المرء بعدما غرس محبة الله في قلبه على ما قلنا من الأبواب التي إذا طرقها غرس محبة الله في قلبه. فلمّا غرس محبة الله في قلبه وتحرك سريعاً إلى ربه فاستجلب محبة الله، فلمّا استجلب محبة الله جلَّ في علاه دعت المحبة المغفرة، فلمّا غفر له كان بالمغفرة متوداً لعباده جلَّ في علاه.

لذلك ناسب أن يختم (الْغَفُورُ الْوَدُودُ)، وإذا قلنا (الْغَفُورُ الْوَدُودُ) بأنه من المحبة الود، رقة المحبة هي الود، فهو يتودد إلى عباده بالمغفرة وبالعطايا وبالثواب. فيتودد لعباده جلَّ في علاه، وهو مودودٌ وهو واد، فهو يغفر لهم متوداً. ولك في كتاب الله لفتات في بعض الآيات تثبت ما قلت الآن في التأسيس، بأنه لمّا أحب غفر ولمّا غفر غفر بإلماح التودد، وكان بعد التودد يود الله جلَّ في علاه.

فإن كان، فإن العبد سيسارع بعد ذلك إلى مرضاة الله جلَّ في علاه، لا سيما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا خُيِّر قال: (اللهم الرفيق الأعلى). وموسى عندما قال: وماذا بعد ذلك؟ قال: الموت، قال: الآن. أين الآيات التي يمكن أن تثبت هذا الإشعار والإلفات؟

إجابات الطلبة:

- قال: (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) [التوبة:118]، ثم قال سبحانه بعدها: (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة:119].

- (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) [فاطر:34].

- (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا) [الزمر:53] نادى عليهم بالعبودية وهذا تودد.

- (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ) [البقرة:222].

- (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) [هود:90]، هذا الصريح.

- (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) [النساء:28].

- (وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) [النساء:27].

- (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) [طه:82].

إجابة الشيخ: قال الله جلَّ في علاه: (عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) [التوبة:43]؛ فهنا تودد له بالمغفرة مع رقة العتاب في هذا الباب. (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) [النور:22] هذه تدخل فيها أيضاً. أنا أقول التودد هنا، الله تودد لنبيه بالمغفرة، الله جلَّ وعلا في الخطاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصدر الباب بالمغفرة قبل العتاب، قال: (عَفَا اللَّهُ عَنكَ) هذه البداية تودداً. قال: (عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) [التوبة:43]. وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ) [عبس:1-2] مع أنه عتاب جاء بالالتفات، وقد بيّن بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فإذاً ناسب أن يقول: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج:14]، وقلنا بأن المغفرة إذا انفردت نزلت تحتها الرحمة، وكذلك العكس. فكما قال بعض علمائنا المحققين: لا يقال بأن المغفرة هي الستر فقط، ولذلك هم يقولون العمامة تستر الرأس، وهي كالمغفر كان يستر الرأس. ولذلك المغفر مختلف عن العمامة، والفرق بينهما ظاهر. لمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على مكة، دخل على رأسه المغفر، المغفر مختلف عن العمامة؛ كلاهما يغطي الرأس، وبينهما فارق، ما الفارق؟ المغفر يقي الرأس من الضربات، أما العمامة لا تقي الرأس. فالمعنى هنا أن المغفرة هي الستر مع الوقاية، ولذلك قلنا هي تتضمن معنى الرحمة.

وهنا نقف عند جزئيةٍ من أهم الجزئيات؛ أن من دقق من النظر وتعبَّد لله جلَّ وعلا بهذين الاسمين كان من أعبد أهل الأرض، ولذلك من فتح الله عليه أبواب الأسماء

والصفات فهو من أرفع الناس علماً بالله، أو قل هو من أتقن الناس علماً بالله. ومن كان أتقن الناس علماً بالله جلَّ في علاه، وإن زل وإن أخطأ يكون من أعبد الناس لله جلَّ في علاه. انظر أنت لمن تراه حسن العقيدة أو تراه من أحسن الناس فهماً للأسماء والصفات وانظر إلى عباداته واسأل عنها، ما أقول تسأل على عدم المعصية لأنك لن تجدها.

وكما قلنا لمّا قيل حتى في تراجم العلماء، لا يوجد أحد قالوا إنه معصوم، كل عالم كانوا يقولون ولم يقترف كبيرة؛ يعني يقول السيئات موجودة لكن لم يقترف كبيراً، وهذا هذا التفريق عند التشريع في الكبائر والصغائر.

كيف أن من دقق النظر ووقف عند هذين الاسمين كان من أعبد الناس، وكان من أتقى الناس علماً بالله؟ والحق ونختم الختام بهذين الاسمين في التعبد، أن العبد لمّا يعلم من نفسه أنه قد أساء إلى نفسه بالتعدي على حدود الله جلَّ في علاه:

- أولاً بعدم اكتمال العبادة، لأنه كما قلنا قد قال الله جلَّ في علاه: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13].

- الأمر الثاني بالتجاوز والتعدي لحدود الله تعالى بالمعاصي، فإن علم بأن الله جلَّ وعلا نظر إليه بنظر المغفرة وأن الله جلَّ في علاه غفر له هذه الذنوب وأن الله -حتى إن لم يستغفر- جعل له الحسنات الماحيات للسيئات لا سيما إن كانت صغائر، استحيا من ربه وطمع في كرمه ورجا ربه جلَّ في علاه بأن لا يهلكه، وامتلأ قلبه حباً لله جلَّ في علاه. ولمّا وجد أيضاً مع المعصية المغفرة والتودد بالعطايا والرفعة والمزايا، فإنه يزداد حباً لله جلَّ في علاه، فإن ازداد حباً صادقاً في قلبه ازدادت استحياءً من الله جلَّ في علاه، فسارع في الخيرات. فلا تجد يومه ونهاره يفوت من صيام أو صدقة أو ذكر أو صلاة أو جهاد للنفس أو للغير أو تعلم أو دروس في المجالس.

الغرض المقصود تجد يومه شحنه الله له بطاعاتٍ فوق الطاعات، وهذا لا ينفي أن يكون له الزلات وأيضاً السقطات كما قال سعيد بن المسيب: ما من عالمٍ ولا شريفٍ ولا ذي وجاهةٍ إلّا وفيه عيب، فيُنظر في فضله فإن كان فضله أعظم من عيبه، يُجبر العيب بالفضل.

الفوائد المستنبطة:

- كثرت الآيات التي ذكرت تصريحاً محبة الله جلَّ في علاه، من أجل الرجاء. وهذه معناها أن الله جلَّ وعلا يحبب عباده في طريقه وأيضاً في عبادته ليصلوا إلى جنته.

- حرمة الفُرقة، وأسباب الفرقة كثيرة: الحسد، الحقد، حب الرياسة، التملك، النفاق، أيضاً الجهل. والجهل هذا من أعظم أسباب الفُرقة، لأن الإمام أحمد لما قيل له بأن يحيى

بن معين تكلم عن الشافعي، قال: أو قد فعل؟ قالوا: نعم، قال: يحيى بن معين يجهل ما يقوله الشافعي، ومن جهل شيئاً عاداه.

- المسلمون لحمةٌ واحدة، يأن المرء لأخيه؛ فإن كان ضعيفاً قوّاه، وإن كان جاهلاً علّمه، وإن كان فقيراً أغناه، وإن كان عاصياً دعا له وستره وعضّده، وإن كان قوياً نصره، وإن كان عالماً نشر علمه. فهكذا المسلمون لحمةٌ واحدة.

- حسن التعبد لله بالتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

- صحة القياس بقوله: (كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ)

السؤال: أليست المغفرة قبل الود؟ الإجابة: نعم، المحبة قبل المغفرة، ثم المغفرة ثم الود.

السؤال: المغفرة هي الستر؟ الإجابة: لا، قلنا المغفرة هي الستر مع الوقاية، وهذه كما قلنا يصطفي الله لها من يشاء.

السؤال: ويقول هل هناك شرح للشيخ على الأسماء والصفات؟ الإجابة: نعم. في شرح موجود في موقع طريق الإسلام فيها كيفية التعبد بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

السؤال: هل يأتي الخوف بالتقصير في العبادة؟

الإجابة: إذا انفرد فقط فيجعله كالخوارج يقنِّته برحمة الله، لذلك الخوارج يأخذون بصوت الخوف، والآخرون المرجئة يأخذون بالرجاء. وأهل السنة والجماعة وسطٌ عدول بين طائفتين ضالتين.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الحادي والعشرون: صفة الرضا

وقوله سبحانه وتعالى: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) [التوبة:100]، وقوله سبحانه وتعالى: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) [النساء:93]، وقوله: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد:28]، وقوله: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) [الزخرف:55]، وقوله: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) [التوبة:46]، وقوله: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف:3].

هنا أتى المصنف -رحمه الله تعالى- على إبداعاته، وأنه أراد أن يبيّن لك أيضاً الخلاف بين اعتقاد أهل السنة والجماعة واعتقاد أهل البدعة والضلالة. والكلام في محك

الخلاف بين من زعم أنه من متكلمي أهل السنة والجماعة "الأشاعرة"، الذين يخالفون أهل السنة في جميع أركان الإيمان، في جميع أركان الاعتقاد.

الذين يقولون لا الخلاف طفيف، هذه دلالة على جهالات الناس التي فيها لا يعرفون عمق الفرق بين اعتقاد أهل السنة والجماعة واعتقاد الأشاعرة. فهنا أيضا أراد المصنف أن يبيّن أن هناك علامات فارقة بين أهل السنة وبين أهل البدعة؛ لأنه قال بأن صفات الأفعال من الاحتكاكات المبيّنة والعلامات الفارقة بين أهل السنة وبين غيرهم. فأراد أن يقول بأن أهل السنة والجماعة يثبتون لله جلَّ في علاه الأفعال الاختيارية، وهؤلاء لا يثبتونها. والفرق بينهما:

أهل السنة والجماعة فيقولون الأفعال الاختيارية نثبتها لله لأمور:

- الأمر الأول: لأن الكتاب قد أثبتها الله لنفسه فنثبتها له.

- وقد أثبتها له رسوله أي السنة أثبتتها، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أثبتها، فإننا نثبتها لله كما أثبتها رسوله له.

- والأمة وأصحاب رسول الله أجمعوا على إثبات هذه الأفعال الاختيارية لله جلَّ في علاه، والنظر أنها من الكمالات. لأن من يثبت له الأفعال الاختيارية هذا الكمال، ومن لم يثبت له الأفعال الاختيارية لا يكون كمالاً.

أمّا هؤلاء فقد حرفوا الكتاب والسنة وأيضاً ردوا على الصحابة اتفاقات الصحابة وإجماع الصحابة، ثم من ناحية النظر قالوا: أننا إن قلنا بإثبات الأفعال الاختيارية لله شبّهنا الخالق بالخلق، ومن شبّه الخالق بالخلق فقد كفر. (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) [الكهف:5]؛ من يقول بقولكم؟ من الذي يعتقد اعتقادكم؟ من الذي يقول هذا القول لمّا اخترعتم شيئاً ابتدعتموه أنتم ثم فررتم منه فراراً؟ أنتم تقولون بأننا لو أثبتنا لله الأفعال الاختيارية فهو تشبيه، يعني إن قلنا بأن الله يضحك إذاً لا بد من أسنان وشفة ولسان.

وهذا غباء مستحكم، وهذا جهل مركب، وهذا عدم علم، وهذا افتراء واقتيات على الكتاب والسنة، ورد صريح لما جاء عن الرب الرحيم سبحانه جلَّ في علاه. من أباح لكم هذا الباب والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقل ما قلتم ولا الصحابة فسروا ما فسرتم؟ فلِمَ الوقوف ضد ظاهر القرءان والسنة؟ (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:192-195]. من يقول بقولكم في هذا الباب؟ لِمَ التأويل والتحريف؟

الله يضحك فهو يضحك، الله ينزل فهو ينزل، الله يرضى فهو يرضى، الله يحب فهو يحب، الله يغضب فهو يغضب، الله يكره فهو يكره. لذلك أتى فصلاً كاملاً متتالياً على إثبات الصفات الاختيارية لله جلَّ في علاه، وهذه كمال بعد كمال. وكما قلنا كل الصفات الاختيارية التي هي صفات الأفعال الثابتة لله جلَّ في علاه، وجب عليك كأهل السنة والجماعة اعتقاد أنها قديمة النوع حادثة الأفراد.

الجهمية هؤلاء أضل قوم، هؤلاء الذين ينفون الأسماء والصفات. والمعتزلة ينفون الصفات ويجعلونها مخلوقة. وأمّا الكرامية وهم أيضاً من أهل البدعة والضلالة أثبتوها لله؛ تليق بالله وكمال الله، لكن أثبتوها بعد ما لم تكن ثابتة، والمعنى أنهم أحدثوا كمالاً لله. وهذا ظلمٌ بيّن وكفرٌ مبين، المعنى أنه بعد ما ثبت له الكمال قبلها معناه أنه ما وجد له كمال، هذا كفر مستقل. ولذلك يقولون تكلم بعد ما لم يكن متكلماً، ضحك ولم يكن ضاحكاً، وكل ذلك لا يجوز بحال من الأحوال.

كل ذلك لا يجوز، مع الإثبات بما يليق بجلال الله وكمال الله، لا يجوز هذا لأنه فيه - كما قلنا- إثبات النقص لله جلَّ في علاه، تعالى الله علواً كبيراً. وأمّا هؤلاء -كما قلنا- لمّا سقطوا في التشبيه، فرُّوا إلى التدليس، زعموا في هذا الباب.

إذاً ضابط هذا الباب عند أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون الصفات الاختيارية لله جلَّ في علاه، وإثباتها بلا تشبيهٍ ولا تمثيل، وعند إثباتها يقولون قديمة النوع حادثة الآحاد. ودائماً أنا أضرب مثلاً بما قاله صاحب الطحاوية؛ بأنك إن مررت على رجل وسلّمت عليه فلم يرد، سلمت عليه فلم يرد، وفي الثالثة سلمت عليه فلم يرد، بعدها بأيام تكلمت معه رد عليك وتكلم. لا يصح لك أن تقول كان أخرس وبعد ذلك حدثت معجزة وتكلم، لا، كان ساكتاً وما أراد أن يتكلم إلّا بما شاء، إذا شاء أن يتكلم.

إذاً أنها تتعلق بالمشيئة كمال فوق كمال، لذلك أتى المصنف هنا ليبيّن لك العلامة الفارقة بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والضلالة. وقال: هذه هي الجادة، هذا الاعتقاد الذي تنجو به، هذا الاعتقاد الذي يصح فيه اعتقادك في ربك جلَّ في علاه. وأنت عندما تحشر أمام ربك جلَّ في علاه ويسألك عن اعتقادك، تكون قد وقفت على ما أراده الله جلَّ وعلا، أن تكون عنده واقفاً.

أول هذه الصفات الاختيارية: ذكر الرضا. قال: قال الله تعالى: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) [التوبة:100]، إذاً جعل الفعل مضافاً لله جلَّ في علاه، وأن الرضا من الله من صفات الأفعال من الصفات الاختيارية. فرضا الله جلَّ في علاه ثابت لله بالكتاب وبالسنة وبإجماع أهل السنة:

◆ أما بالكتاب فهذه الآية وآيات كثيرة جداً جاءت بنفس المنوال؛ (لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) [الفتح:18].

◆ وأيضاً وفي السنة ثبت، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا يرضى لكم ثلاثة)، كما قال: (وكره لكم ثلاثة). وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله ليرضى عن عبده إذا أكل أكلة أن يحمده عليها) أو (يحب في ذلك)، الرضا أيضاً المحبة أو بالمعنى. فقد وردت أدلة على إثبات رضا الله جلَّ في علاه والصحابة يسمعون ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يعترض أحد، ولا يعترض أحد.

◆ والجميع يقولون للصحابة "رضي الله عنهم وأرضاهم"، طبعاً خبراً، إن شاء الله أن يرضى عن هؤلاء.

فإذاً الرضا صفة من صفات الله جلَّ في علاه الاختيارية، وهي تتعلق بالأسباب، وهي تتعلق بالمشيئة. فإن الله لا يرضى عن كل أحد، كما لا يرضى عن كل شيء، قال الله جلَّ وعلا: (إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [الزمر:7]، هنا عدم الرضا عن الكفر، (وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)، فإذاً الله جلَّ وعلا يرضى عن العبد المؤمن.

فأسباب الرضا والأسباب الجالبة لرضوان الله جلَّ في علاه: فعل الطاعات، والنهي عن المحرمات، وإقامة الصلوات، والصالحات بعد الصالحات، هذه تستجلب رضا الله جلَّ في علاه. فإذاً الرضا من صفات الله جلَّ في علاه، تتعلق بالأسباب وتتعلق بالمشيئة، وإن الله لا يرضى عن الجميع لذلك هي من صفات الأفعال. فإن الله يرضى عن المؤمنين، فإن الله يرضى عن المحسنين، فإن الله يرضى عن التوّابين المتطهّرين، فالله جلَّ وعلا يرضى على هؤلاء، وكما قلنا أسباب الرضا إقامة الطاعات لرب الأرض والسماوات.

وأما أهل البدعة والضلالة فانقسموا في رضوان الله جلَّ في علاه إلى ثلاثة طوائف:

◆الطائفة الأولى قالوا "لا رضا"، ونفوا الصفة، الذين ينفون الأسماء والصفات، وهؤلاء من أضل خلق الله والمعتزلة معهم من أفراخهم.

◆وأمّا الفرقة الضالة الأخرى هي التي قالت الرضا ليس برضا حقيقي، الرضا هنا بمعنى إرادة الثواب. بالله عليكم أريد أن أفهم أأنتم أعلم أم الله؟ أأنتم أعلم أم رسول الله؟ أأنتم أعلم أم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ الإجابة: الله أعلم، رسول الله أعلم، الصحابة أعلم، ومع ذلك لم يقولوا بقولكم. من أين أتيتم بهذا القول؟ هذا من بدع

القول، قالوا الرضا إرادة الثواب. وأين الإرادة؟ جعلتم كل صفة بعد ذلك على الإرادة، وأين الإرادة؟

فالحق أن نقول جعلوا كل الصفات الاختيارية صفات ذاتية، قالوا إرادة الثواب. قلنا ولِمَ؟ أنتم فسرتم الآن الصفة بلازمها ونحن نثبت الصفة أسعد نحن منكم بالدليل، نثبت الصفة. الله يرضى؟ نعم يرضى. ولذلك ما نراه قد رضي عن أبي جهل ولا رضي عن أبي لهب، لكنه رضي عن أبي بكر ورضي عن عمر وعن عثمان وعن علي، فهذه دلالة واضحة جداً لأنها تتعلق بالأسباب والمشيئة. رضي على أناسٍ وغضب على أناسٍ، فهي من الأفعال الاختيارية.

فإذاً نقول بأن الرضا صفة من صفات الله جلَّ في علاه وتأويلها تحريفها، لأن الله لم يقل ذلك. نحن أسعد منكم بالدليل، نقول نثبت الرضا لله ونثبت لازم الصفة. إذا قلنا بأن الله رضي عن المؤمنين؛ رضا الله عن المؤمنين ماذا يفعل؟ يجعلهم في نعيمٍ أبدي سرمدي، والدلالة على ذلك أن الله جلَّ وعلا بعد دخول أهل الجنة الجنة يقولون: ربنا ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تنجنا من النار؟ قال: رضائي فلا أسخط عليكم بعد اليوم.

الرضا كان من لازمه والنعيم السرمدي الأبدي في الجنان، اللهم ارزقنا يا رب العالمين. فإننا نقول رضا الله جلَّ في علاه له ثمرة، وثمرة ذلك هو إرادة الثواب للعبد؛ لأنه لو رضي عن محمدٍ رضي عن زيدٍ عن عبيدٍ عن عميرٍ، أنجاه أرقاه أسماه أدخله الجنة، (فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) [القمر:54-55]. إذاً هذا هو أصل الرضا في صفة الله جلَّ في علاه، فهي صفة من صفات الأفعال، يتصف الله بها وقد ثبتت له بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

التعبد لله جلَّ في علاه بهذه الصفة العظيمة "صفة الرضا"، التعبد بها بمراتب:

◆ أهم هذه المراتب هو حسن الاعتقاد بإثبات الصفة لله، فإن أردت أن تكون عابداً حقاً لربك جلَّ في علاه لا بد أن تثبت هذه الصفة لربك. إذاً حسن الاعتقاد بإثبات هذه الصفة "صفة الرضا" لله جلَّ في علاه وأنها من صفات الأفعال، هذا من أعظم التعبد، لأنك عابدٌ لله جلَّ في علاه لا تحيد عن أوامر الله وعن أخبار الله جلَّ في علاه. فأنت بالنسبة لأخبار الله مُصدِّق، وانت بالنسبة لأوامر الله مؤتَّمِر، وأنت بالنسبة لأحكام الله جلَّ وعلا راضٍ. فإذاً أنت الآن بحسن التعبد بحسن الاعتقاد بإثبات هذه الصفة لله جلَّ في علاه.

◆ الثاني أن تستجلب رضوان الله عليك، لا بد أن تأخذ بأسباب الرضا، بالأسباب التي تصل بك إلى رضوان الله جلَّ في علاه: بإقامة الواجبات والطاعات والصالحات، والانتهاء عن المحرمات، والابتعاد عن المكروهات، كل ذلك من الأسباب الجالبة

لرضوان الله جلَّ في علاه. أرأيت كيف قال عن الصحابة الكرام: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)، فإن نظرت إلى الصحابة الكرام فما تراهم إلّا أنهم أوقفوا أنفسهم لله نصرة لدين الله جلَّ في علاه، صحبوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الصدق والتصديق والأمانة والإخلاص، قاتلوا من أجل كلمة الله ولإعلاء كلمة الله جلَّ في علاه، وأخلصوا بنفقاتهم لربهم جلَّ في علاه. لذلك قد وصفهم بهذا الوصف: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ).

فإذاً الأصل في التعبد أيضاً أن تأخذ بكلية الأسباب التي تستجلب لك رضوان الله عليك، ومنها -كما قلنا- أن تحقق قضية الكون الكبرى، بأن يتكامل عندك تحقيق التوحيد فتصل إلى كمال الرضا من الله جلَّ في علاه. والمسألة متفاوتة في النسب، فكلما كَمُل تحقيق التوحيد كلما كَمُل رضا الله عليك، وكلما كان الأمن والأمان والهدى لك في الدنيا وفي الآخرة، (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:82].

فإذاً الأصل بذلك أن تأخذ بأسباب الرضا لأنك تحقق قضية الكون الكبرى بتوحيد وكمال التوحيد لله جلَّ في علاه، وهذا له أصول وأسس منها -كما قلنا-: الولاء والبراء، وأيضاً الكلام على الواجبات والمستحبات واتباع ذاك بذاك، وأيضاً الانتهاء عن المحرمات والمكروهات، وحتى التعفف عن بعض المباحات. كل ذلك يجعلك ترتقي إلى كمالات الرضا عند الله جلَّ في علاه ويكون المعنى (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ).

كيف يكون الرضا عن الله؟ الرضا عن الله هو أن ترتضي بالله رباً، أن ترضى بالله وترضى عن الله الرضا عن الله جلَّ في علاه؛ له شق أول الرضا بالله أوله ثم بعد ذلك الرضا عن الله. أمّا الرضا بالله جلَّ في علاه هو أن ترضى بالله رباً، سبحانه جلَّ في علاه. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- نبياً ورسولاً).

أن ترضى بالله رباً، أن ترضى بقضاء الله وقضائه سبحانه جلَّ في علاه حتى ولو خالف ما تريد وتشتهي، فما عليك إلّا أن ترضى بقضاء الله. (إن الله إذا أحب قوم ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط). لذلك لما (جاءت المرأة السوداء للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: ادعُ لي فإني أصرع وأتكشف، قال: لو شئتِ صبرتِ ودعوت لكِ ولكِ الجنة، فقالت: أصبر لكن الخبيث يتكشفني فادعُ الله لي ألّا أتكشف)، انظر فهي ترضى بالله جلَّ في علاه.

فالرضا بالله هو الرضا عن قضاء الله جلَّ جلاله، الرضا بالله رباً في قضائه وقدره، الرضا بالله رباً مشرّعاً حاكماً، (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [الأعراف:54]، قال الله جلَّ في علاه: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]، قال الله

تعالى: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27]. إذاً لا بد أن نقول إن المبتدع لم يرتضِ بالله رباً؛ يعني لم يرتضي كمالاً بالله ربا لأنه كفر، إلّا إذا كانت بدعة مكفِّرة كأن يقول الله حلَّ في كل شيء، نعوذ بالله من الخذلان. فالرضا بالله رباً له تكامل، له أصل، وله كمال.

فمن رأيته يبتدع في دين الله جلَّ في علاه، هذا بلسان حاله لم يرتضِ بالله رباً، لأن الرضا بالله رباً جلَّ في علاه أن يكون مشرّعاً وأن التشريع الكامل لله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) [الأعراف:54]، وقال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]. وأن يرتضي به حكماً: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36].

هذا الرضا عن الله جلَّ في علاه، الرضا بالله قضاءً وقدراً، الرضا بالله حكماً وتشريعاً، الرضا بالله جلَّ في علاه رازقاً مقسِّماً لهذه الأرزاق لأن الله جلَّ في علاه هو الرب الذي يربي عباده بنعائمه. قال الله جلَّ في علاه: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) [الذاريات:22]، وقال: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) [هود:6]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً).

لذلك في الإسرائيليات قال: يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب، وقسمت لك رزقك فلا تتعب، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً، وإن لم ترضَ بما قسمته لك، وعزتي وجلالي لأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البرية ثم لا تأخذ إلّا ما قسمته لك وكنت عندي مذموماً. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب).

والرضا عن الله جلَّ في علاه بجملة هذا بأسره: أنه رضي عن الله جلَّ في علاه عن عطائه سبحانه جلَّ في علاه، أيضاً عن تشريعه، عن حكمه سبحانه جلَّ في علاه. هذا الرضا عن الله جلَّ في علاه ولذلك في الحديث وإن كان فيه بعض الجهالة: بأن جبريل جاء للنبي الأمين وأمامه أبو بكر يجلس بثياب رثّة، فنظر إليه جبريل متعجباً وهو كان أغنى أهل مكة، أنفق كلية المال على رسول الله وعلى الدعوة. فقال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أقرأ أبا بكر السلام من ربه وقل له ربك يقرئك السلام، ويقول هو عنك راض فهل أنت عن ربك راض؟ فبكى أبو بكر بكاءً عظيماً وقال: والله إني عن ربي راض، والله إني عن ربي راض، والله إني عن ربي راض.

لكن خاصية الرضا عن الله تتجلى في عدم التسخط على أقدار الله جلَّ في علاه، لذلك قال: (فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط). وهنا أنت ترى بأن النبي - صلى الله عليه وسلم- جمع بين الأمرين، بين الجميلتين، بين الكلمتين، جمع بين الرحمة وبين الرضا بمقادير الله، عندما بكى على إبراهيم وبكى أيضا على زينب. ولمّا قيل له: يا رسول الله أنت تبكي؟ قال: (نعم، إنما هي رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء). لكن قال في إبراهيم: (إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون)، قال: (ولا نقول إلّا ما يرضي ربنا). فهنا الرضا عن الله مكمنه وأسه وأساسه وركنه الركين هو الرضا وعدم التسخط على أقدار الله جلَّ في علاه.

فإذاً قلنا بأن الرضا عن الله جلَّ في علاه هو عدم التسخط على أقدار الله، لكن ليست كل أقدار الله سبحانه جلَّ في علاه لا بد أن نقبلها. فلا بد أن نقول الرضا عن الله جلَّ وعلا بأقداره حين شرع بالرضا، وإلّا فإن هناك أقدار قد شرع بدفعها، ما شرع بقبولها.

فلذلك أقدار الله جلَّ في علاه تنقسم إلى قسمين: أقدارٌ تدفع وأقدارٌ لا بد من الرضا بها وتقبل؛ أقدارٌ تدفع: كالجوع كالعطش كالغرق، مأمور شرعاً أن يدفع عنه الموت، (وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) [النساء:29]. أقدار الكفر، وغير ذلك، هذه الأقدار لا بد من دفعها، أقدار لا بد أن تدفع ولا تقبل. لكن نحن نقول الرضا عن الله يتجلى في عدم التسخط على أقدار الله في الأقدار التي شرع الله فيها القبول والرضا؛ (فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه السخط)، هذا بإيجاز هذا معنى قوله: (رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ).

وهنا الرضا عن الله جلَّ في علاه يكون في الدنيا ويكون في الآخرة؛ أمّا الرضا عن الله في الدنيا هو الرضا بأقدار الله جلَّ في علاه وبقضاءات الله جلَّ في علاه، والرضا عن الله بتشريعات الله جلَّ في علاه لأنه حين يسجد حين يتذلل حين يتضرع حين يتعبد الله جلَّ في علاه ويجد اللذة في قلبه. هذا مكمن الرضا عن الله جلَّ في علاه في تشريعه، وحين يرضى بقدر الله جلَّ في علاه وحين لا يتسخط ويعلم يقيناً بأن الله جلَّ وعلا ما قدَّر عليه القدر إلّا وله الحكم، وله بعد ذلك ما له من الألطاف يخفي الأشياء في أضدادها، وأن الله جلَّ وعلا يبيّن له فضل ما يريد أو الحكمة مما قضى عليه، هذا أيضاً مكمن الرضا عن الله جلَّ في علاه.

والإنسان لا يرتاح قلبه ولا يطمئن إلّا بعد الرضا عن الله جلَّ في علاه، ولا يستطيع أن يصل بالرضا عن الله إلّا إذا قدّم الرضا بالله جلَّ في علاه؛ قد ارتضى بالله مشرّعاً، ارتضى بالله حاكماً، ارتضى بالله جلَّ في علاه مقدّراً سبحانه جلَّ في علاه. فمن رضي بالله جلَّ في علاه فقد رضي عن الله، وسيلة الرضا عن الله هو الرضا بالله والرضا عن الله، ثمرتها أن يكون ذلك في الجنان أنه قد رضي عن الله جلَّ في علاه بما منحه الله

من النعيم الأبدي السرمدي، (فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) [القمر:54-55].

الفوائد المستنبطة:

- استجلاب رضوان الله جلَّ في علاه بفعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه الله جلَّ في علاه.
- إثبات صفة الرضا لله جلَّ في علاه رداً عن أهل البدع والضلالة.
- وجوب الأخذ بالأسباب التي تصل بالإنسان إلى رضا الله جلَّ في علاه.

نقف عند هذا، وهو انتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الغضب وأيضا الكلام على الكفر، وهذا يأتي إن شاء الله تفصيله في الدرس القادم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثاني والعشرون: آيات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفا، وبعد إخوتي الكرام: الواسطية، وصلنا إلى قول المصنف وهو يعرض لنا عقيدة أهل السنة والجماعة الوسط العدول بين أهل البدعة والضلالة الذين بهم الانحراف وغلوٍ وجفوٍ.

وصلنا إلى قول الله جلَّ في علاه: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [النساء:93]، وقوله: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد:28]، وقوله: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) [الزخرف:55]، وقوله: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) [التوبة:46]، وقوله: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف:3].

ففي قوله جلَّ في علاه: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) [النساء:93]، هو أراد أن يبيّن بأن أهل السنة والجماعة يثبتون لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم-. وهذه إضافة المعاني في قوله: (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ)، هذا من فعل الله، وهذا إثبات لصفة الغضب لله جلَّ في علاه، وإثباتها على تأصيلها من أهل السنة والجماعة بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف. فالله يغضب وغضب الله جلَّ في علاه يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته، لا كغضب البشر. ولأن الله جلَّ

في علاه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، فأراد إثبات صفة الغضب لله جلَّ في علاه، وهذه الصفة ثابتة لله في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة:

- أمّا الكتاب فهذه الآية وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ) [الزخرف:55]، يعني فلمّا أغضبونا انتقمنا منهم.

- وفي حديث ابن مسعود عن النبي -صلى الله عليه وسلم-ﷺ أنه قال في عرصات يوم القيامة عندما يتوسلون ويستشفعون بكل نبي: (إن الله غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله)، فهنا إثبات الغضب لله جلَّ في علاه وجميع الرسل والأنبياء، فهذه صفة ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة.

- وإجماع أهل السنة؛ فقد أجمعوا إلى إثبات صفة الغضب لله جلَّ في علاه.

وغضب الله له أثر (لوازم)، فإن الله إذا غضب على قومٍ عاقبهم، وإن عاقبهم فإن عقاب الله وخيم سبحانه جلَّ في علاه. والتعبد لله بهذه الصفة:

- أولها حسن الاعتقاد بالإثبات

- ثانيها هو أن أتجنب كل ما يغضب الله جلَّ في علاه.

وهذه فيها إثبات الأسباب والتعليل؛ فأصلها أن أقول بأن حسن التعبد لله بعد إثبات صفة الغضب لله تجنب الأسباب التي تستجلب غضب الله جلَّ في علاه، لأن غضب الله يستجر انتقامه ويستلزم عقابه، (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ). فكل أسباب استجلاب غضب الله لا بد من تجنبها: وأعظمها الشرك في الله جلَّ في علاه، ومن أعظمها إسالة دماء المؤمنين المسلمين (هذه تغضب الله جداً)، والخيانة.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو اجتمع أهل السماوات والأراضين على سفك دم امرئٍ مسلم لأكبهم الله في النار ولا يبالي)، وكان ابن عباس -وقد ورد مرفوعاً- يطوف بالكعبة ويقول: أنتِ الكعبة شرفك الله وعظمك وإن حرمة دم المسلم أعظم عند الله من حرمتك، فسفك دم المسلم البريء يُغضِب الله سبحانه جلَّ في علاه.

والشرك أعظم الأسباب لغضب الله، لذلك أقرب الناس للعقوبة من المسلمين أصحاب الرياء، الذين يراءون ويسمعون فيهم ما فيهم من النفاق، والذين يتساهلون بالشرك الأصغر. هم أقرب الناس لعقوبة الله جلَّ في علاه، لأن هذه من أعظم الأسباب التي تستجر غضب الله جلَّ في علاه.

فالتعبد لله بهذه الصفة بعد إثباتها، هو أن يتجنب المرء سخط الله جلَّ في علاه بالأسباب التي تستجلب غضب الله جلَّ في علاه. لذلك أنظر هنا أتى بها؛ سبب من الأسباب التي

تستجلب غضب الله وهي سفك دم المسلم قال: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [النساء:93]، والحق بأن من أعظم الذنوب هو سفك دم المرء المسلم، هذه عند الله ليست بالهينة. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن، وقال: لا يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يصب دماً حراماً). والله جعل له أربع عقوبات متتاليات في كتابه، لا سيما أنه قال: (فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا)، نعوذ بالله من الخذلان.

وقد اختلف العلماء لقاتل المؤمن إن كان مؤمناً أن يخلد في النار أم لا؟ بظاهر الآية ابن عباس قال: وهذه الآية آخر ما نزل من الكتاب لم تُنسخ؛ لم تأتِ آيات تنسخها، وهذا ما قاله شيخه زيد ابن ثابت ومذهب أبي هريرة أيضاً وبعض التابعين، قالوا: بأن القاتل لا توبة له. وهذه مسألة عويصة جداً وعظيمة، قالوا: بأن القاتل لا توبة له، وقال ابن عباس: إن هذه الآيات غير منسوخة هي محكمة لقوله: (فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا).

والصحيح قول الجماهير: أن القاتل له توبة وأنه لا يخلد في النار، وأن معنى قول الله جلَّ في علاه: (فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) يعني هذا جزاؤه أن جزي به، ولن يجازى بها للتوحيد المانع. كأنه قال: توفرت الشروط للخلود في النيران، اللهم سلم سلم يا رب، اللهم سلم سلم يا رب، اللهم سلم سلم يا رب. كأنها توفرت الشروط للخلود في النيران، ثم جاء مانع يمنع من الخلود وهو التوحيد.

لذلك أبو هريرة لمّا سألوه في النص الذي قاله عن -صلى الله عليه وسلم- بأنه قال: (من قتل نفسه بحديدة فهو بحديدته يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها). قال: هذا جزاؤه الذي جزي به ولكن لن يجزى به، لأن التوحيد مانعٌ من ان يجزى بالخلود في النار. والحديث صريحٌ في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فيقبض قبضه فيخرج من النار من قال: "لا إله إلّا الله"، وإن لم يعمل خيراً قط)، فهو لا يخلد في نار جهنم. ولذلك في حديث الشفاعة الطويل يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس فيها إلّا من حبسه القرآن)؛ والذي حبسه القرآن هو المخلد المشرك، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48].

وأمّا ما قاله ابن عباس، فنقول: قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]، أيضاً في سورة الفرقان: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) [الفرقان:68-

70]؛ ففي قوله: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ) هذه دلالة على الجميع: على القاتل وعلى غير القاتل. فالصحيح خلافاً لمّا تبناه ابن عباس وزيد، لأن للقاتل توبة.

ولكن الأصل في سياق الآيات التي أتى بها المصنف هو أن يثبت أن استجلاب غضب الله جلَّ في علاه سفك الدماء البريئة المسلمة، لا سيما وأن الله جعل في الكتاب جزاؤها النار خالدين فيها، وقلنا هو خالدٌ بخلودها؛ إمّا أن نقول خالداً فيها يعني جزاؤه الذي جزي به أو أنه خالدٌ بخلودها.

ولكن كما قلت المصنف استشهد بالآية ليثبت غضب الله جلَّ في علاه، وأيضا في الآية الأخرى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) [محمد:28]، وهذه كما قلنا في باب التعبد؛ (اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ) أي ما أغضب الله جلَّ في علاه، (وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ). (اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ) لأنهم أخذوا الأسباب التي بها غضب الله عليهم من العناد والجحود والكفر والتكبر والتجبر، حتى أن الله بيّن لهم سبل الهداية ولم يأخذوا بها.

قال الله جلَّ في علاه: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)، بيّن لنا أيضا أن أهل مكة أخذوا بذلك حتى سخط الله عليهم لأنهم (قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ)، ما قالوا اهدنا، وهذا المتوقع لو كان الحق اهدنا. لكن هم (قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ). أعوذ بالله، من أراد الله فتنته فلن تملك له شيئاً، قال: (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ) [هود:34]، سبحانه هو الذي يعلم من كان محلاً قابلاً أو لا، لذلك قال: (لِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ).

وطبعاً هم كرهوا رضوانه بلسان حالهم، واتبعوا ما أسخط الله بجحودهم وكفرهم بالرسل والرسالات، فحلَّ بهم غضب الله جلَّ في علاه في الآية الثالثة في قوله: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) [الزخرف:55]، أي فلمّا أغضبونا. هذا أيضا فيها -كما قلنا- بأنهم أخذوا بالأسباب التي استجلبت غضب الله فانتقم منهم، وهذه كما قلنا فيها إثبات الأسباب والتعليلات، قال: (فَلَمَّا آسَفُونَا)؛ أي فلمّا أغضبونا انتقمنا منهم.

الفوائد المستنبطة من الأحاديث ومن الآيات:

حرمة دم المسلم.

استخدام أهل السنة للتأويل بالقرينة مع إثباتها لأنهم قالوا: وجزاؤه جهنم خالداً فيها. قالوا خالداً فيها جزاؤه الذي جزي به، والتأويل هنا جاء خالدٌ بخلودها، وبعضهم أوّلها وقال: الخلود معناه طول المكث فقط وليس الخلود الأبدي السرمدي. وهذا كله جاء من

كلام أهل السنة والجماعة، لذا قلنا والتأويل يستخدمه أهل السنة والجماعة إذا ثبتت القرينة، فنحن لا نرده مطلقاً ولا نقبله مطلقاً.

- وجوب اجتناب ما يغضب الله، ووجوب اجتناب ما أسخط الله.
- إثبات الأسباب والتعليل خلافاً لأهل البدعة والضلالة.
- إثبات الرضا لله جلَّ في علاه قال: (وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ).

سؤال: هل يمكن أن نقول هذا الوعيد بالخلود في حق المستحل له؟

الإجابة: نعم قاله بعض العلماء وهو أضعف الأقوال، لأنه لا خلاف أن المستحل قتل أو لم يقتل هو خالد في النار، والخلود هنا معلق بالقتل. فإذاً هذا أضعف الأقوال لأنه لو استحل قتل أو لم يقتل خالد لكن هنا تعليق إناطة الخلود بالقتل.

سؤال: حكم قول دعاء الاستفتاح بعد الاستعاذة والبسملة وقبل الشروع بقراءة الفاتحة؟

الإجابة: لا بعد البسملة لا يصح أن يقال أي شيء آخر، لأن البسملة آية من الفاتحة، فإذا قالها عليه أن يتم بالقراءة ولا يقطعها. لكن الاستفتاح بعد الاستعاذة يصح ويستعيذ مرة ثانية لكن لا يكون الاستفتاح بعد الفاتحة، البسملة آية من الفاتحة.

إجابة سؤال: لو استحل يكفر كفراً مستقلاً الاستحلال كفرٌ بائنٌ ظاهرٌ واضحٌ لائحٌ.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- وهو يبيّن لنا ويجلّي لنا عقيدة أهل السنة والجماعة، في قول الله جلَّ في علاه: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ) [محمد:28]، قلنا بأن المصنف له مأرب في ذلك يبيّن بأن أهل السنة والجماعة يثبتون لله جلَّ في علاه الأفعال الاختيارية. أراد أن يبيّن أن الأفعال الاختيارية بأن الله يختص بها سبحانه جلَّ في علاه، يتصف بهذه الأفعال الاختيارية رداً على أهل البدع والضلال.

قال الله جل في علاه: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)، وأيضاً في قوله: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) [التوبة:46]، وقوله: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف:3].

كلها كما قلنا إثبات عقيدة أهل السنة والجماعة بأن الأفعال الاختيارية لله جلَّ في علاه، وأنها من الكمال، وأنها ثابتة لله جلَّ في علاه. وثبوت ذلك لله جلَّ في علاه، فيه إثبات الكمال والجلال والبهاء والعظمة بما يليق بالله جلَّ في علاه. وأمّا هؤلاء أهل البدعة المحرّفة الذين يقولون يؤولون وهم يحرفون بحقيقة الأمر، بأنهم وقعوا في محظورٍ مهم، وقعوا في محظورٍ ثقيل وهو التشبيه، ثم بعد ذلك فرّوا من التشبيه إلى التعطيل.

ونحن حين نثبت، نثبت بلا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ولا تكييف، وعندما ننفي، ننفي بلا تعطيل مع إثبات كمال الضد، وهذا الأصل الأصيل في هذا الباب.

قال: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ) [محمد:28]، فأثبت الكراهية لله جلَّ في علاه، الله يكره، كما أنه يحب فهو يكره سبحانه جلَّ في علاه. وهي صفة ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب وبالسنة وإجماع أهل السنة، وهي من الأفعال الاختيارية، ولم نرَ أحداً أوّلها ولا حرَّفها، والصحابة الكرام سلَّموا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعَقِلوا عن الله ومراد الله في كتابه. أمّا في الكتاب فقال الله تعالى: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) [التوبة:46]، وأمّا في السنة فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وكره لكم ثلاثة؛ قيل وقال وكثرة السؤال). وهناك حديث ضعيف في قوله إن يذهبا كاشفين عن عورتهما ويتكلمان يتحدثان عند قضاء الحاجة، قال: (إن الله يمقت على ذلك). فإذاً إثبات الكره كما إثبات الحب لله جلَّ في علاه، وهي من الصفات الاختيارية الثابتة لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

حسن التعبد لله جلَّ في علاه بهذه الصفة -كما قلنا- هو حسن الاعتقاد بالإثبات أولاً؛ يعني أعظم التعبد لله هو حسن الاعتقاد بإثبات الصفة لله جلَّ في علاه، هذا أعظم ألوان التعبد لله بهذا الصفة. أولاً؛ لأنك ترى الذي لا يعتقد هذا الاعتقاد لن يتعبَّد لله بها، فانظر إلى أهل الضلال كيف خسروا خسارة بيّنة. فحسن الاعتقاد بالإثبات، بإثبات صفة الله جلَّ وعلا. والثاني أن تعلم بأن الله إذا كره فإن الكراهية يتبعها العقاب ولازمها العقاب، ولا يقال بأنه يعني كره أحداً عاقبه، لا، نقول هذا لازم الصفة.

وأهل السنة والجماعة يثبتون الصفة ويثبتون لازم الصفة، لأنه ما من صفةٍ إلّا ولها لازم، فإثبات الصفة يستلزم إثبات لازم الصفة. فإذاً نقول بأنه لو كره، لازم ذلك من أن يعاقب، وقد لا يعاقب، لكن الكراهية مراتب. فالتعبد لله جلَّ في علاه بعد حسن الاعتقاد بالإثبات، أن ينأى المرء بنفسه عن أسباب كراهية الله جلَّ في علاه.

في قول الله جلَّ وعلا: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)، هنا من كره رضوان الله كرهه الله جلَّ في علاه، وكراهية الرضوان لا يستلزم الكلام. يكره رضوان الله بأن ينأى بنفسه عمّا أمر الله جلَّ في علاه: عن صلاةٍ أو صيامٍ أو صدقةٍ. فإن هذا كره رضوان الله لأنه لم يعمل بالأسباب التي تستجلب رضوان الله جلَّ في علاه، وأتى بأعمال استجلبت غضب الله جلَّ في علاه.

فإذاً التعبد هنا لله بهذه الصفة؛ لمّا علمنا بأن الله يكره، وهذه صراحةً يعني رقة القلب ودمع العين أقرب ما يكون إلى ذلك، لأن العبد إذا علم أن الله قد يكرهه لأفعالٍ معينة فإنه ينأى بنفسه عن ذلك. من أحبه الله رقاه أسماه سدده وفقه أنجاه، ومن كرهه الله جلَّ

في علاه جعله ذليلاً حقيراً مستحقراً، فهو مع ذلك أن يكون مذموماً معذباً، نعوذ بالله من الخذلان.

فما أن يتدبر للمرء بأنه بفعاله أو بعض فعاله يكرهه الله جلَّ في علاه، وطبعاً الكراهية مراتب كما قلت: قد يكره فعله ولا يكرهه هو. لأن المؤمن كما قلنا يجتمع فيه الخير وفيه الشر، فهنا يكره الله جلَّ وعلا من العبد إذا تدبر العبد بأن الله يكره منه ذلك أو يكرهه على هذه الحال، فإنه ينأى بنفسه عن ذلك حتى يستجلب محبة الله جلَّ في علاه، لأنه لا يأمن مكر الله ولا يأمن عقاب الله. لأنه لو كرهه استدرجه، ومن استدرجه الله جلَّ في علاه فإن مرفع الاستدراج وخيم والعقاب أليم جداً، (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [الأعراف:182-183]. هذه أيضاً من سبل التعبد لله جلَّ في علاه بصفة الكره.

بقي لوناً من ألوان العبادة لله بإثبات هذه الصفة، وهو أن يكره ما يكره الله جلَّ في علاه؛ فيكره الكفر وأهله، ويكره أن يأتي بشيءٍ يكرهه الله جلَّ في علاه. وهذه أصل مناط الولاء والبراء، وهذا عصب الدين أن يكره ما يكرهه الله جلَّ في علاه. هنا في الآية الأولى قال ذلك لأنهم (اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ)، فهنا لا بد من أخذ الأسباب أنه كل أسباب سخط الله جلَّ في علاه يبعد عنها وينأى المرء بنفسه عنها. إذاً أصل التعبد أن يكره من كرهه الله، أن يكرهه سواء بالفعال أو بالحال أو بالأشخاص، أن يكره ما كرهه الله جلَّ في علاه.

وفي قوله: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) [التوبة:46]، لأنهم كانوا من المنافقين، والنفاق أكره ما يكون إلى الله جلَّ في علاه. وعلى المرء أن ينأى بنفسه من النفاق ومن الكذب ومن خلف الوعد ومن خيانة الأمانة، هذا كله من صفات المنافقين، فيكره المرء من نفسه أن يكون قد نافق بشيء. ولذلك ارتعدت فرائس حنظلة عندما قال: نافق حنظلة، قال أبو بكر لمّا سأله وعرف الإجابة قال: إذاً نافق أبو بكر، قال عمر: إذاً نافق عمر، حتى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ساعة وساعة). وقد يحسب الناس كثير من الأمور أنها على نفاق وليست على النفاق، وإلّا فنقول قولاً فصلاً في هذا الباب؛ العاصي لا يكون منافقاً، وقد يأتي المرء بخلف الوعد ولا يكون منافقاً لأنه لم يعزم على ذلك، بل عزم على الوفاء وما استطاع.

فإذاً في قوله: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ)، لا بد للمرء تعبداً لله جلَّ في علاه أن ينأى بنفسه عن الصفات التي تكسبه نفاقاً، فيبعده الله جلَّ في علاه عنه. فإن المرء إذا تزايد عنده من صفات النفاق كره الله منه ذلك فيسقط من عين الله، ومن يسقط من عين الله لا يرتقي مرةً ثانية، ولذلك قال: (وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) [التوبة:46]، نعوذ بالله أن نكون كذلك. هذا أيضاً يقال على مسألة

الدروس ومجالس العلم، من أقعده الله جلَّ في علاه فمن يحيي له الهمم؟! فإن الله جلَّ وعلا إذا أحيا همة عبد وثبته على ذلك أراد به كل الخير. وفي قوله: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف:3]؛ المقت هو أشد البغض، وما كان هذا إلّا في المنافقين.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثالث والعشرون: آيات صفة الإتيان والمجيء

اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه والحاضرين والمستمعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقوله: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) [البقرة:210]، (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) [الأنعام:158]، (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر:21-22]، (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً) [الفرقان:25].

ما زال الإمام ابن تيمية يبيّن لنا رداً على أهل البدعة والضلالات، في الذين ينفون أو يحرفون الكلم عن مواضعه.

بعد إثبات صفات الله جلَّ في علاه، وهو الكلام على صفات الله الاختيارية، فيبيّن بأنها من الكمال ومن الجلال والبهاء والعظمة، وأن الله جلَّ في علاه له صفات الأفعال. فإن هذه الصفات "صفات الأفعال" يتصف الله بها حيناً ولا يتصف حيناً، وإن هذه الصفات ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. فلا تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، فإن عقيدة أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله لنفسه في كتابه وما أثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سنته وما ثبت بإجماع الأمة؛ لأن الإجماع لا بد أن يكون له مستند من الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح. من غير تشبيه ولا تمثيلٍ ولا تكييفٍ، وعند النفي ليس بتعطيل.

هذا أصلٌ أصيل في هذا الباب لا بد من الانتباه إليه، دندن حوله الإمام تبياناً لعقيدة السلف، ورداً على عقيدة الخلف التي فيها ما فيها من التحريف، وإن زعموا تأويلاً لأنه تحريف الكلم عن مواضعه.

يقول الله جلَّ وعلا: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) [البقرة:210]؛ يعني والملائكة يأتون في ظلل من الغمام، والظلل: جمع ظلة وهي كل ما سترك أو أظلك. قال: (مِّنَ الْغَمَامِ) أي من السحاب الأبيض الرقيق، سمّي

غمام لأنه يغم أو يستر. قال: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ)؛ هنا صفة الإتيان لله جلَّ في علاه، فهي صفةٌ ثابتةٌ لله جلَّ في علاه على ما يليق بجلال الله وبهاء الله وعظمة الله، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

إذاً يأتي ربنا؟ نعم يأتي ربنا، كما أن ربنا يهرول، قال: (ومن تقرَّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة). فالله جلَّ وعلا يأتي، وإتيان الله يليق بجلال الله وبعظمة الله سبحانه جلَّ في علاه. فنثبت الصفة كما أثبتها لنفسه سبحانه جلَّ في علاه، وأثبتها له رسوله - صلى الله عليه وسلم-. فقد قال هنا: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ)، وهذا توقيت إتيان الله هنا ليس في كل وقت، إتيان الله هنا هو وقت لفصل القضاء يوم القيامة، (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [إبراهيم:48]، يأتي الله جلَّ في علاه ليفصل في القضاء.

هنا قال: (إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ)، وأيضاً الملائكة يأتون في ظلل من الغمام؛ المقصود هنا الملائكة يأتون يحشرون الناس ويحوطون بالجن والإنس في توقيت فصل القضاء. ويأتي الله جلَّ في علاه ليقضي بين العباد، إتياناً يليق بجلاله وجماله وكماله وعظمته، إتيانٌ لله جلَّ في علاه فهو ثابتٌ لله، ولذلك جاء في بعض الآيات الأخرى.

قال الله جلَّ وعلا: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) [البقرة:210]؛ "قضي الأمر" يعني فصل الله في الخطاب، وانتهت الدنيا بأسرها بعدما جعل الله لهم في الدنيا العمل بلا حساب، فإنهم يرجعون إلى ربهم جلَّ في علاه فيكون الحساب بلا عمل. كما قال علي بن أبي طالب: اليوم عملٌ ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل، وعلى كل إنسانٍ أن يتدبر أمره، فإنكم جميعاً بين يدي الله موقوفون وعلى أعمالكم مجزيون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون.

فالإتيان إتيانٌ لفصل القضاء بين العباد، والإتيان هنا خاص بيوم القيامة في قوله: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ)، والملائكة يأتون أيضاً (وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ) تم إهلاك الكفار، (وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) يعني تصير الأمور الآخرة لله جلَّ في علاه. يوم ينادي الله جلَّ في علاه: (أنا الملك، أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) ويقرأ ويقول سبحانه جلَّ في علاه: (لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [غافر:16]. فيأتي الله جلَّ في علاه ليفصل بين العباد، حين يشتد الكرب ويدلهم الخطب ويستشفعون ويتوسلون بكل نبي من الأنبياء، وهو يقول: اللهم سلم سلم، نفسي نفسي. ثم بعد ذلك يكون الأمر

إلى رسول الله، فيشفع النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يفصل الله في القضاء أو يقضي الله جلَّ وعلا بين العباد.

وقد قال بعض العلماء في قوله جلَّ في علاه: (وَالْمَلَائِكَةُ)، قد يكون هنا المقصود أن الملائكة تأتي تقبض الأرواح، يعني إتيان الملائكة هنا هو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح وأن يكون نزولهم أيضاً لعذاب الكفار وإهلاك الكفار، ويكون إتيان الله جلَّ في علاه فقط في يوم القيامة. فهنا إتيان الملائكة في قوله: (إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) فيها لفتة عظيمة جداً، وهنا والملائكة ليست الظلل من الغمام، والملائكة يأتون في ظللٍ من الغمام. فيها لفتة، ما هي اللفتة؟ اللفتة في ذلك بأن الله جلَّ وعلا يبيّن لنا لنعقل عن الله مراد الله، كأنه قال: لا بد أن تثبتوا الإتيان، والإتيان معلومٌ لديكم "الملائكة يأتون".

الفائدة الأولى كأنه بيّن لكم أن مسألة الإتيان قد يُعلم، فكأنه كما قال الإمام مالك: الاستواء في اللغة معلوم، فيقال هنا الإتيان في اللغة معلوم لا سيما وأن الخلق من خلق الله يأتون. أنتم تأتون، ولذلك لمّا نقول إنك لو أتيت الله تمشي وأتاك هرولةً، أنت تعلم ما معنى الهرولة. ولا يستلزم التساوي في هذا الباب، لكن هنا عندما نريد أن نعلم مراد الله جلَّ في علاه في هذا الباب يكون الأمر على أن إتيان الملائكة إشارة لنا لنعقل بأننا نثبت الإتيان لله جلَّ في علاه، وإن كان ليس كمثله شيء. وإتيانٌ يليق بجلاله وكماله لكن أصل الإتيان لا بد له من المساواة في هذا الباب، لابد.

والاشتراك في الاسم لا يستلزم المساواة في المسمى، لكن لابد أن يكون هناك قدر مشترك. فهنا لمّا قال: (وَالْمَلَائِكَةُ)، كأنه قال فالأذان تستحضر إتيان الملائكة، ستأتي الملائكة ولها إتيان، وإتيان يليق بالملائكة. لكن أصل الإتيان معلوم ما هو هذا غاب عنا لكنه يليق به هو مخلوق، فإثباته هنا معلوم على أساس أنه يخاطبنا بما نعلم، وأن الإتيان في اللغة معلوم ولكن الكيف مجهول يليق بجلال الله وكمال الله سبحانه جلَّ في علاه. لذلك نقول إثبات الإتيان والقدر في المشترك؛ إثبات الإتيان أنه في اللغة معلوم وإن كان الكيف مجهول، فإننا نقول نثبت الإتيان: الإتيان في اللغة معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

استعظم ذلك أهل البدعة والضلال وقالوا إن قلتم يأتي، إذاً شبهّتم الخالق بالمخلوق. قلنا أنتم بفكركم الضال المعضل هو الذي وصل إلى ذلك، ولو تدبرتم قول الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، لوقفتم عنده. وأيضاً النبي قد قرأ قول الله جلَّ في علاه: (إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ) والصحابة الكرام قد قرأوا هذه الآية: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ). إذاً الله قال بذلك، والرسول بلغّ عن

الله، وأيضاً الصحابة قرأوا بذلك وقد علموها على وجهها. ولم نرَ أحداً من الصحابة أوّل أو فسر بالتأويل الذي يقال به المجاز بالحذف -كما سيأتي-، ولم نرَ أحداً من الصحابة فهم ذلك.

إذاً الأصل في هذا الباب أن نثبتها لله جلَّ في علاه لأن النبي قد أثبتها، ولأن الصحابة قد أثبتوا ذلك لله جلَّ في علاه على وجهها بلا تحريف بلا تمثيلٍ ولا تشبيه، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) [الأنعام:158]، في غير ما آية من كتاب الله عندما ذكر الإتيان جعل أيضاً من الملائكة، وهذا تقريب الأمر للذهن لتعلم بأن الله يخاطبك بما تعقل، لا بشيءٍ هو مبهم أو شيء غير مراد ظاهره كما قال أهل البدعة والضلالة.

فقال: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) [الأنعام:158]، أنظر هنا أيضاً فيها لفتة أخرى كما قلنا في الاشتراك، فيها لفتة أخرى جميلة جداً، هنا هذه الآية أوضح تفسيراً؛ (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) للإهلاك لأن إتيان الملائكة معناها قبض الأرواح كما قال الله جلَّ وعلا: (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) [الفرقان:22]، يعني تنزيل الملائكة فيها قبض الأرواح. قال: (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ)، هذا لا يكون الإتيان من ربك إلّا يوم القيامة لفصل القضاء، فالملائكة قد تأتي لقبض الأرواح. (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)؛ يقصد ببعض الآيات هنا هي طلوع الشمس من مغربها حين قال الله جلَّ وعلا: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا).

لكن هنا لفتة عظيمة أيضاً في قوله: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)، فهو ذكر إتياناً للملائكة وإتياناً لله وإتياناً للشمس التي هي بعض آيات الله جلَّ في علاه. هنا مشتقة في الاسم "إتيان - إتيان – إتيان"؛ تساوي في الاسم الآن واختلفوا في المسمى. وهذا رد على أهل البدعة، (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]؛ لله يد، لزيد يد ولعمر يد، وللقرد يد وللأرنب يد وللفيل يد، والأيدي كلها استوت في اليد لكنها اختلفت في المسمى. لا يستلزم أبداً التساوي في الاسم.

فإذاً لا بد من النظر هنا حتى في الآيات رداً على أهل البدع، نقول هذه ثلاثة لا تستلزم التساوي بحال من الأحوال، لا تستلزم تساوي الاسم في المسمى. فإن اتيان الله يليق بجلال الله، وإتيان الملائكة يليق بالملائكة والشمس أيضاً لها إتيان إنها تأتي بأنها تخرج من المغرب. الإتيان مع التساوي "إتيان - إتيان – إتيان" واختلفوا

أيضاً في المسمى، وفيها أيضاً إثبات إتيان الله جلَّ في علاه. ويقصد ببعض الآيات هي الشمس إذا طلعت (لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا).

وفي قوله: (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر:21-22]، وهذا يوم القيامة. (وَجَاءَ رَبُّكَ)؛ أثبت المجيء وأثبت الإتيان. والمجيء والإتيان أيضاً ثابتان لله جلَّ في علاه يوم القيامة لفصل القضاء، (وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ). فقد جاء الله جلَّ في علاه بعد زلزلة الأرض، (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) [إبراهيم:48]، ويقول هنا: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) يعني لفصل القضاء، (وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) يعني يحوطون بالجن والإنس لأن إتيان الملائكة في ظلل من الغمام للإحاطة بالجن والإنس.

قال: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً) [الفرقان:25]، وهذا يوم القيامة، (تَشَقَّقُ السَّمَاءُ) هو انفطار السماء وانشطارها وتناثر النجوم وبعثرة كل الكون، وأيضاً أن تكون الجبال الشاهقات تمر كمر السحاب حتى تصير كثيباً مهيلاً، وهذا كله يوم القيامة. بالغمام: يعني يخرج منها السحاب الأبيض الرقيق، لأنه يأتي الله في ظلل من الغمام وتأتي الملائكة في ظللٍ من الغمام لفصل القضاء.

إذا أثبتنا لله جلَّ في علاه الإتيان، وأثبتنا في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة كيف نتعبد لله جلَّ في علاه؟ قلنا مجيء الله جلَّ في علاه مجيء خاص بيوم القيامة، والإتيان إتيان خاص بيوم القيامة، ولا يمكن أن يتعبد المرء لله جلَّ في علاه بهذه الصفة إلّا بحسن الاعتقاد؛ بالإثبات هذا أول شيء، والثاني هو أن يستعد المرء لهذا اليوم العظيم المهيب؛ وهو يوم القيامة، وهو يوم فصل القضاء، كل نبيٍ يقول: اللهم سلم سلم، اللهم سلم سلم. ويستشفعون حتى برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فيفصل الله جلَّ في علاه ويقبل الشفاعة ويقضي الله بين عباده.

أهل البدعة والضلالة، أهل الزيغ هم على أقسام ثلاثة:

- قومٌ ينفون الصفات نفياً تاماً، ينفون الإتيان نفياً تاماً، هؤلاء هم الجهمية الذين كفَّرهم كثير من العلماء.

- وقومٌ يحرّفون الكلم عن مواضعه يدعونه تأويلاً، فيقولون: يأتي أمر الله، يجيء أمر الله. وأيضاً عندهم في التأويل "تأتي الملائكة، يجيء الملك، يأتي الملك". طبعاً هنا كلامٌ باطلٌ من كل وجه:

◆ أولاً هو مخالف لظاهر الكتاب ومخالف لظاهر السنة ومخالف لإجماع أهل السنة والجماعة، والكلام عليهم في هذا نقول: أأنتم أعلم أم الله؟ أأنتم أعلم أم رسول الله؟

◆ إذاً النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يجب عليه البيان، لو كان المسألة كما قلتم أنتم أنها مجاز بالحذف والتقدير "يأتي أمر الله أو يجيء الملك" لبيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-. والأصل عدم التقدير، والأصل عدم الحذف، والأصل أنه يُحمل على ظاهره. فأين القرينة التي حملتكم على ما قلتم؟ والسياق محكم يثبت مجيء الله جلَّ في علاه وهو قال: (يَأْتِيَ رَبُّكَ).

◆ وإرادة فعل الله جلَّ في علاه لا يستقيم أن يقال: يأتي أمر ربك لفصل القضاء، لا يجوز بحال من الأحوال، أو القول بهذا لأنه قول على الله بلا علم. وأيضاً لقوله "يجيء الملك"، إذاً في قوله (إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) يعني إلّا يأتيهم ملك من الله في ظلل من الغمام والملائكة؟!! هل يصح هذا الكلام؟!! كلام سمج جداً لا يمكن أن يقبل. ولو قالوا إلّا أن يأتي أمر الله في ظلل من الغمام، يعني الأمر يحتاج إلى ظلل من الغمام فيأتي؟!! طبعاً الله جلَّ وعلا لا يحتاج لشيءٍ، كل الخلق يحتاج إلى الله جلَّ وعلا. لكن هل الأمر يأتي في ظلل من الغمام؟!! والأمر ما يأتي إلّا يوم القيامة فقط؟! سبحان ربي العظيم. الله يأمر بما شاء وقتما شاء سبحانه جلَّ في علاه، وهذا تحريفٌ للكلم عن مواضعه.

وأنا فصلت الرد عليهم في غير ما موضع من كتب السلف، فنكتفي هنا بالكلام عليهم في الرد عليهم بأنهم خالفوا الكتاب والسنة وخالفوا إجماع الأمة. بل خالفوا المعقول بقولهم بأن الذي يجيء هو الأمر، والأمر أمرٌ معنوي كيف يجيء؟! أو يجيء الملائكة هذا باطلٌ.

الفوائد المستنبطة:

- إثبات الصفات الاختيارية لله جلَّ في علاه رداً على أهل البدع.
- إتيان الله لفصل القضاء.
- طلوع الشمس من مغربها من أهم علامات الساعة.
- الملائكة خلقٌ من خلق الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

الدرس الرابع والعشرون: آيات صفة الوجه

ما زلنا مع المصنف -رحمه الله تعالى- وهو يحسن لنا من بديع هذا التصنيف على بيان وسطية أهل السنة والجماعة بالاعتقاد بربهم جلَّ في علاه، وهو يبيّن لنا كيف اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفات الله جلَّ في علاه بين الغلو وبين الجفو، والوسطية عدول. ما زال يبيّن لنا الصفات الاختيارية ويثبتها لله جلَّ في علاه، رداً على الأشاعرة المتكلمة الذين يقولون نحن وسط بين هؤلاء الحشوية وبين المعتزلة، وهم أضعف الناس في الرد على المعتزل، المعتزلة يقيمون عليهم الحجج تتراً.

بعدما أطال النفس بالكلام على إثبات الصفات الاختيارية بضابطٍ شرعي ظاهرٍ، ألا وهو مستنبط مأخوذ من قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، بإثبات الصفة على ما يليق بالله جلَّ في علاه وبجلاله وبكماله سبحانه، من غير تشبيهٍ ولا تمثيل، وعند النفي تنزيه بلا تعطيل. انتقل هنا إلى الكلام على صفة من صفات الله جلَّ في علاه، وهي من الصفات الخبرية. أراد أن يبيّن لك أنك كلما كنت مسلِّماً لله جلَّ في علاه، كلما كنت أسلم عند الله عقيدةً وأسد توفيقاً. قال الله جلَّ في علاه لإبراهيم: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [البقرة:131].

قال: في قوله جلَّ في علاه: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) [الرحمن:26-27]، وقوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص:88]، سبحانه جلَّ في علاه. فذكر من الصفات، وكما قلنا صفات الله جلَّ في علاه: صفات ثبوتية أو سلبية. والصفات الثبوتية إمّا تكون: ذاتية أو فعلية أو صفات خبرية؛ والصفات الخبرية تسمى خبرية لأننا لا نصل إليها إلّا بالخبر، كاليد كالأصابع كالأنامل كالعين كالرجل كالقدم كالساق، كلها من الصفات الخبرية.

قال: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) [الرحمن:26-27]، هو صفة الوجه لله جلَّ وعلا، لله وجه؟ نعم لله وجهٌ يليق بجلال الله وكمال الله سبحانه جلَّ في علاه، وهذا الوجه أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأثبته له إجماع الصحابة، أجمعوا على إثبات الوجه لله جلَّ في علاه. بل ووصف الله وجهه بصفات كما سيأتي، وهذه الصفة الجليلة من الصفات الخبرية ثابتة في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

◆ ثابتة بالكتاب كما قال الله جلَّ وعلا: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص:88]، وقول الله جلَّ في علاه: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) [الرحمن:26-27]، وفي قوله: (وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ) [البقرة:272]، وقول

الله جلَّ وعلا: (لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) [النساء:114]، أمّا الآية الأخرى: (وَجْهِ اللَّهِ) [البقرة:272].

◆ وأيضاً في الأحاديث ثابتة كما في الصحيحين وفي غيره، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً وابتُغيَ به وجهه، وقال: وإنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك إلّا كانت صدقة لك عند الله جلَّ في علاه). والنبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سمع قول الله جلَّ وعلا: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) قال: (أعوذ بوجهك)، قال: (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) [الأنعام:65]، قال: (أعوذ بوجهك). وأيضاً في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا يسأل بوجه الله إلّا الجنة)، هذا كله إثبات الوجه لله.

انظر النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ الآيات وفيها التصريح بالوجه، ثم هو نفسه يصف الله في الوجه، والصحابة يسمعون ولا يراجعون ولا يؤولون ولا يحرّفون. ثم يأتي هؤلاء المتكلمة فيحرّفون الكلم عن مواضعه كما في الطائفتين: طائفة تنفي تماماً كالجهمية المبتدعة الضالة، وطائفة تحرّف كالأشاعرة المبتدعة الضالة، لكن هذه أخف من تلك؛ الأشاعرة يؤولون الوجه بالذات ويؤولونه أيضاً بإرادة الثواب ولهم أدلة واهية، مستمسكات كلها واهية ليس فيها روح من الأدلة.

لكن ما زلنا مع أهل السنة والجماعة الوسطية العدول بين غلو وجفو بين طائفتين من الضلالة والبدعة بمكان، وهم على السوية وعلى الشرع القويم وعلى الطريق المستقيم وعلى النهج والشرع القويم. قد أثبتوا لله وجهاً وعلموا أن مبتغى السعادة ومنتهى الرفعة ومنتهى الوصول إلى السعادة هو النظر إلى وجه الله الكريم، كما كان النبي الأمين يدعو الله ويتوسل ويقول: (وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم).

اللهم إنّا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم إنّا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. فحسن الاعتقاد نقول: كيف يتعبد المرء بإثبات الوجه لله جلَّ في علاه من غير تحريفٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيل.

◆ نقول أولاً: حسن الاعتقاد بالإثبات، كما قررنا أكثر من مرة، التعبد لله بهذه الصفة أو حسن التعبد لله الإثبات، حسن الاعتقاد بالإثبات؛ أن نثبت لله وجهاً سبحانه جلَّ في علاه، لا كوجه الخلق، ولا ننفي ولا نعطل، بل لله وجه يليق بجلاله وكماله. ولا نشوش بمن يتمسك بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تضرب الوجه ولا تقبّح)، وفي قوله:

(فإن الله خلق آدم على صورته)؛ والمعنى على صورته هنا له وجه وله يد وله عين، كما أن لله وجهٌ ولله يدٌ ولله عين سبحانه جلَّ في علاه.

فحسن الاعتقاد بإثبات الوجه لله جلَّ في علاه، والآخر نتعبد لله جلَّ في علاه بأمور:

◆ الأمر الأول بأننا نكون أعظم الناس تبجيلاً وتوقيراً لوجه الله جلَّ في علاه، فلا نسأل بوجه الله إلّا الجنة بل إلّا الفردوس الأعلى أدباً مع الله، هكذا علمنا النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ولا يسأل بوجه الله إلّا الجنة). وأن يستعاذ بوجه الله من النار، وأيضاً أن من سئل بوجه الله لابد أن يعطى، ومن سأل بوجه الله لا بد أن يعطى تبجيلاً وتوقيراً لوجه الله جلَّ في علاه: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13].

◆ ثم بعد ذلك الالتزام بأوامر الله؛ أن تأتمر بأمر الله، وتنتهي عن الزواجر والنواهي من أجل أن ترى وجه الله الكريم، لأنك لن ترى ولن تحظى برؤية وجه الله الكريم إلّا إذا دخلت الجنة. ودخول الجنة لا يكون إلّا برحمة الله، والوصول إلى رحمة الله جلَّ في علاه لا يكون إلّا بغلبة الحسنات على السيئات.

فيكون المرء هنا الذي تضطهد همته للنظر إلى وجه الله الكريم لأنه يكثر من حسناته ويقلل من سيئاته، يأتي بالواجبات المفروضات ويتبع ذلك بالنوافل المستحبات، وينتهي عن المحرمات وينتهي عن المكروهات، وإن وقعت منه الزلات والخطيات عليه بسرعة التوبة والفيئة إلى ربه، ولسان حاله دائماً يقول: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) [طه:84].

هذا حسن التعبد لله جلَّ في علاه بإثبات صفة الوجه لله جلَّ في علاه، أمّا معنى الآيات في قول الله جلَّ في علاه: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) [الرحمن:26-27]، كتب الله الفناء على جميع الخلق، وسيأتي تفصيل القول في قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ) [القصص:88]، هل الجميع يهلك أم لا؟. كتب الله الفناء على الجميع؛ الدنيا إلى فناء إلى زوال، كل من في السماوات والأرض، إلّا من لم يكتب الله عليه الزوال كما سيأتي الاستثناء في ذلك.

ففي قوله: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) هنا قد وصف وجه الله بالجلال والإكرام؛ فالإكرام هنا أي أن وجه الله مكرَم ومكرِم، مكرَم بالتبجيل والتوقير ولا يسأل به إلّا أن يعطى ولا يسأل به إلّا أن يعطيه المسؤول ولا يسأل به إلّا الجنة، ولا يستعاذ به إلّا من النار تبجيلاً وتكريماً وتوقيراً لوجه الله جلَّ في علاه. هو مكرِم لأن من فعل ابتغاء وجه الله أكرمه الله جلَّ في علاه، إن صح التعبير في هذا الباب.

قال: (ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) "ذو الجلال" الأنوار، قال: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) "ذو الجلال" ذو الكبرياء والعظمة والأنوار. كما قال النبي -صلى الله عليه

وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه)، قال: (حجابه النور)، وفي رواية: (حجابه النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). قال: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإكْرَامِ)، فهذا يستحق التعظيم والتوقير والتبجيل سبحانه جلَّ في علاه، فكما قلنا كأن في قوله: (لأحرقت سبحات وجهه)؛ يعني أنوار وجه الله جلَّ في علاه، فالله جلَّ وعلا ذو الجلال والإكرام، ووجه الله ذو الجلال والإكرام.

وأما في قوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص:88]، أي جميع الأرض وأهل السماء كلهم يفنون يموتون يذهبون، لكن قد كتب الله البقاء لبعض خلقه. فيكون معنى الآية كل شيءٍ كتب الله عليه الهلاك سيهلك، فيخرج من ذلك ما لم يكتب الله عليه الهلاك. فالذي لم يكتب الله عليه الهلاك: الجنة والنار، وكذلك العرش والكرسي، وكذلك عجب الذنب لم يكتب الله عليه الفناء، وكذلك اللوح والقلم لم يكتب الله عليهما الفناء. كما جمعهم الإمام السيوطي نظمهم بقوله:

ثمانية حُكْمُ البقاء يعُمُّها *** من الخلق والباقون في حيّز العدم

هي العرش والكرسي نار وجنة *** وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وعجب: هنا عجب الذنب. وأرواح: أرواح بني البشر لا تفنى، ما كتب الله عليها الهلاك.

إذاً هذه الثمانية لم يكتب الله عليها الفناء ولا الهلاك، فيكون المعنى (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) أي كل شيء كتب الله عليه الهلاك يهلك إلّا وجه الله جلَّ في علاه وما كتب الله عليه البقاء.

إذاً هذه في الآيات الكريمة فيها إثبات وجه الله جلَّ في علاه، وقد أوّله كما قلنا هؤلاء المحرّفة الذين ادعوا تأويلا قالوا بأنها الذات، وقالوا بل إرادة الثواب. وهذا خطأٌ بيّن، كيف تكون الذات؟ وقد عطف الله الذات على الوجه والوجه على الذات، حين قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا دخل أحدكم المسجد يقول: أعوذ بالله العظيم أو بذات الله، هنا الآن الذات، أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم). والأصل بالعطف المغايرة، فهنا ذكر الذات وذكر الوجه وبينهما مغايرة، فكيف يكون الوجه الذات؟

فهنا أضاف الوجه إلى الذات، والمضاف إلى الله كما بيّنا نوعان: إضافة أعيان وإضافة معاني. لذلك إضافة الوجه لله جلَّ في علاه ليس كإضافة عيسى أو الكعبة أو الناقة، هذه إضافة صفة للموصوف. قال: (أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم)، فأضاف الوجه لله جلَّ في علاه، لذات الله. فإذاً هنا الوجه ليس بالذات.

وأمّا في قولهم إرادة الثواب، فهذا أيضاً تحريفٌ في هذا الباب. يعني لمّا أقول بوجه الله جلَّ في علاه يقول: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإكْرَامِ)، يقول الثواب له جلال

وإكرام!! هل الثواب يوصف بالجلال والإكرام؟!! سبحان ربي العظيم. وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا دخلت المسجد فقل: أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم)، يقصد بذلك بإرادة ثوابه الكريم؟!!! استغفر الله، وهذا كما قلنا ضعفٌ في العقل وجهلٌ في الشرع.

فوجه الله جلَّ وعلا ثابتٌ في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، ونثبته لله جلَّ في علاه ونتعبد لله بالشوق إلى النظر إلى وجهه الكريم، ونتعبد لله بإثبات هذه الصفة الجليلة والتوسل بها والدعاء بها كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يسأل بوجه الله إلّا الجنة)، فنتوسل إلى الله بوجهه الكريم أن يمنحنا لذة النظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة، ونعوذ بوجهه الكريم من النار وما قرب إليها من قولٍ وعمل.

الفوائد المستنبطة:

- وجوب الزهد في الدنيا، كله إلى زوال كله إلى فناء.

- وجوب الإخلاص لله، (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) يبقى وجه ربك، ويبقى العمل الذي كان لوجه الله جلَّ في علاه، يثاب عليه المرء.

- "كل" نصٌ في العموم القابل للعموم، "كل" هو نص في العموم. ولا يقال بأن الوجه مستثنى أو الجنة مستثناة، لا، "كل" نص في العموم لمحلٍ قابل للعموم، لأننا قلنا لمّا يقول: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) فكل شيءٍ كتب الله عليه الهلاك فهو هالك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس والعشرون: آيات صفة اليدين

ما زال المصنف -رحمه الله تعالى- يظهر لنا ويجلّي اعتقادات أهل السنة والجماعة، وكما قلنا هو أراد أن يقول بأن أهل السنة والجماعة وسطٌ بين أهل البدعة والضلال من أهل الغلو أو الجفو. وأنه من سمات أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو أثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سنة نبيه، أو الإجماع لأنه مستند من كتاب أو من سنة. وانتقل من الصفات الذاتية إلى الصفات الفعلية، ورجع بعد ذلك إلى الصفات الذاتية الخبرية.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه،

قال المصنف -رحمه الله-: وقوله: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، وقوله: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64]، وقوله: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48].

في قول الله تعالى: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، هذه آيات والآية الثانية أيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) [المائدة:64]. اليهود أتقى من هؤلاء الأشاعرة، اليهود أتقى من هؤلاء الجهمية ومن هؤلاء المعتزلة، اليهود أتقى منهم أثبتوا الصفة لله جلَّ في علاه. ولكنهم كما قلنا يتجرؤون على الله، ويثبتون أيضاً صفات النقص، نعوذ بالله من الكفر المبين.

الغرض المقصود بأن الله جلَّ وعلا قد أثبت في كتابه لنفسه صفة، فلِمَ الحور والكور؟ لِمَ عدم الإثبات؟ وقد صرّح الله بالصفة وأضافها لنفسه في قوله جلَّ في علاه: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)؛ فأضاف الصفة له سبحانه جلَّ في علاه، فهي يد الله. فالله له يد، وهذه اليد تليق بجلاله وكماله وعظمته وبهائه، يدٌ لها الكمال.

وهذه اليد كما قلنا عند إثباتها نستحضر قول ربنا جلَّ في علاه على طريقة أهل السنة والجماعة: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، فنحن نثبت اليد مع النظر إلى أنه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). فيد الله لا تساميها يد، لا تشابهها يد، لا تماثلها يد. بلا تمثيل ولا تشبيهٍ ولا تكييفٍ، وعند النفي بلا تعطيل، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

وثبتت اليد لله في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل قل ثبتت اليد وثبتت الأصابع وثبتت الأنامل لله جلَّ في علاه، كلها ثابتة. قال الله جلَّ في علاه: (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) [يس:71]، وقال جلَّ في علاه: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]. كل ذلك فيها توفر الشرط حتى نقول بالوصف، ما الشرط الذي يجعلنا نمتلئ عندما نقول بالوصف؟ الشرط أنها تضاف إلى الله جلَّ وعلا؛ (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)، (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ).

قلنا إنه لا بد أن نقول الصفة كانت من المعاني لا نصف الله بها إلّا إذا أضيفت تصريحاً وشرطاً لله جلَّ في علاه؛ لما قال: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) [القلم:42]، قلنا الآية هذه ليست من آيات الصفات. من أين علمنا أن الله يكشف عن ساقه؟ قلنا حديث أبي سعيد الخدري ليست الآية.

فهي أضيفت إلى معانٍ: (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)، وقال الله جلَّ وعلا: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)، وقال الله جلَّ في علاه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ) إضافة اليد لله. بل الأعجب من ذلك يدخل اليهودي على النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقول: يا محمد -صلى الله عليه وسلم-، إن الله في يوم القيامة يحمل الثرى على ذه، والجبال على ذه، والأنهار على ذه. ويشير

بالأصابع ويقول بيده يهزهن، فتبسم النبي -صلى الله عليه وسلم- مُقراً بما قاله اليهودي. طبعاً الاندهاش أن اليهود يكونون أعلم من بعض أهل الإسلام في مثل هذا، ترى اليهود يثبتون لله يد، فإثبات اليد أصالة. وأيضاً قال الله جلَّ وعلا: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة:64].

أمّا السنة فكثير؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بأن الله مسح على ظهر آدم بيده)، وأيضاً بأن (الله جلَّ في علاه خلق آدم بيده). قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لم يباشر بيده) أو (لم يخلق بيده إلّا ثلاثة: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدنٍ بيده، وكتب التوراة بيده). حديث المجادلة "حديث المراجعة لموسى" أي المحاججة: (حاجّ آدم موسى، قال آدم: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وخط لك التوراة بيده).

الغرض المقصود أن هذه كلها أدلة تثبت اليد، بل وتثبت الأصابع والأنامل، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء)، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رأيت ربي في أحسن صورة، قال لي: يا محمد أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أعلم، قال: فوضع يده على صدري حتى وجدت برد أنامله فعلمت كل شيء). الغرض المقصود أنه أثبت الأنامل لله جلَّ في علاه.

فلله يد ولله أصابع ولله أنامل، وهذه قد ثبتت بالسنة التي جاءت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإثباتها إثباتٌ على ما أصّله أهل السنة والجماعة بأنه: بلا تمثيلٍ ولا تشبيه وبلا تكييف، قال: الاستواء معلوم والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، قال: والكيف مجهول، مع أنه موجود. فلله يد لها كيفية لا نعلمها، وأصابع لها كيفية ولا نعلمها، أنامل ولا نعلمها. لكننا نثبتها لله جلَّ في علاه لأنه قد أثبتها لنفسه، على غرار كل صفة نتكلم عنها.

أهل السنة والجماعة أثبتوها كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله -صلى الله عليه وسلم- لكن كيف نتعبد بها؟ كيف نتعبد بهذه الصفة العظيمة؟

◆ أولاً كما قلت حسن الاعتقاد بالإثبات، لأن الله أمرك بذلك، بل لأنها ركنٌ من الإيمان، قال: (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة:3]. فمن كمال الإيمان بالغيب، الإيمان بصفات الله جلَّ في علاه التي أثبتها لنفسه.

سؤال: في دليل حديث ابن عباس، حديث عائشة رضي الله عنها وأرضاها قال: كانت تطيب الصدقة وتقول: إنها تقع في يد الرحمن أو في كف الرحمن.

الإجابة: هو أصالة قالها ابن عباس: الكون كله في كف الرحمن كحبة خردل في يد أحدكم؛ فالكف الدليل جاء به: "يُرِيها له"، فقد جاء الدليل في ذلك تصريحاً بالكف.

فإذاً ثبتت اليد، ثبت الكف، ثبتت الأصابع والأنامل، ثبتت لله جلَّ في علاه. والتعبد فيها كما قلنا حسن الاعتقاد بالإثبات.

◆ ومن التعبد بها التوسل بيد الله والقسم بها، قال: والذي نفسي بيده. وطبعا الكلام على الخلاف بين العلماء في القسم في الصفات الخبرية، لكن يتوسل بها. وأيضاً يعلم بأن الله جلَّ وعلا قد ذكر أموراً كلها لا تكون إلّا باليد:

- الإمساك: (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [الحج:65].

- القبض والبسط: (وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ) [البقرة:245]، كلها من أفعال اليد.

- وأيضاً العطاء، وهذا العطاء هو الذي يقول به أنه يسمع أن يدعو الله جلَّ وعلا بالعطاء. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار)؛ "سحاء" من العطاء ومن الجود ومن الكرم، (يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟).

كل ذلك فيها -كما قلنا- التعبد لله بهذه الصفة بعد الإثبات، لأن حسن الاعتقاد هذا من أهم أمور التعبد. حسن الاعتقاد بالإثبات، ثم بيان التعبد لله جلَّ في علاه بالتعبد بها بالتوسل بها والقسم بها، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- تسليماً: (يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار).

أمّا أهل البدع والضلالات كما هي عادة هؤلاء القوم؛ قد سار بعضهم إلى النفي، وسار بعضهم إلى التحريف يسمونه تأويلاً:

◈ والذين ساروا إلى النفي في ضلالٍ مبين كأنهم كذّبوا رب العالمين، قد وصف نفسه فلِمَ الرد؟ فلِمَ النفي؟ فلِمَ الجحود؟ وصف نفسه باليد: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ). وهؤلاء يعني ضعفهم ظاهرٌ جداً، بل هذا كفر لأنه فيه تكذيب لكتاب الله جلَّ في علاه، لكنهم جهلة لا يكفرون عيناً، إلّا العلماء فهذا أمرٌ آخر.

◈ والطائفة الأخرى هي الطائفة التي تأولت على ما زعمت أن هذا تأويل؛ وقالوا باليد هنا معناها النعمة، وقالوا باليد معناها القدرة. يعني هم يقولون بأن اليد هي القدرة أو القوة، ويستدلون على ذلك ببعض الآيات. قالوا: أما قال الله جلَّ وعلا: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [الذاريات:47]، واتفاق المفسرين في قول الله تعالى (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) يعني بقوةٍ. وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) [ص:45]، يعني القوة والأبصار.

الأيدي هنا ليست جمع أيادي، الأيدي جمع يد من التأييد الطاقة والقوة. وأمّا تأويل صفة الله جلَّ في علاه "اليد" بأنها القوة أو القدرة، وأثبتم صفات أخرى لله جلَّ في علاه بهذا الأمر. لكن نقول لهم قولاً فصلاً: من أنتم خالفتم ظاهر الكتاب وظاهر السنة وإجماع أهل السنة والجماعة، فلسان حالكم رد الكتاب، وأيضاً اتهام النبي العدنان بالتقصير لا بالبلاغ، لأن من تمام البلاغ البيان، ولو كان كما قلتم أنتم لبيّنه، ولو كان كما قلتم لسأل الصحابة حتى يبيّن لهم. ولا هذه حدثت ولا هذه حدثت، دلالة على أنهم يعلمون أن لله يد، ويثبتون لله اليد كما تليق بجلال الله وكمال الله وعظمة الله سبحانه جلَّ في علاه.

ولو تنزلنا معكم وقلنا بأن اليد معناها القوة، ماذا تقولون في قول الله جلَّ في علاه عندما أنكر الله على إبليس عدم السجود وقال له: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)؟! لما خلقت بقوتي؟!! يعني لله قوتان؟!! لا أحد يمكن أن يقبل هذا بحال من الأحوال. وأيضاً لو أوّلها على القدرة نفس الأمر، بقدرتيَّ؟!! قدرتان؟!! لا هذا بالإجماع هي قدرة واحدة، والله على كل شيءٍ قدير. ومن أوّلها بالنعمة بقول عروة عندما قال لأبي بكر: لولا يد لك عندي؛ يعني إكرام نعمة أنعمت عليّ بها لرددت عليك.

الغرض المقصود هذا تحريفٌ للكتاب وليس تأويلاً، وعندنا المحكمات كيف نذهب إلى المحتملات. والمحكم قول الله جلَّ في علاه: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10] وهو أعلم بنفسه، وقال: (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) [يس:71] هو أعلم بنفسه. وقال الله جلَّ في علاه: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، فأثبت لنفسه اليد. وأثبت لنفسه في اليد اليمين، قال: (كلتا يدي ربي يمين)، وإثبات الشمال ضعيف وإن كان في صحيح مسلم كما بينت قبل ذلك تفصيلاً في الكتب السابقة.

فإثبات الشمال ضعيف، والحق بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أحكم المسألة وقال: (وكلتا يدي ربي يمين)، وإذ قالوا من اليُمن والبركة، قلنا نعم أثبت اليُمن والبركة وأثبت اليمين، فكلتا يدي ربي يمين. ونحن لا نكيّف ونقول شمال ويمين إلّا إذا جاء النص بذلك، وهي صفات خبرية دلالة على أننا نأخذها من الخبر. والخبر لم يثبت، إذاً لا نثبتها لله جلَّ في علاه، والثابت عن رسول الله: (كلتا يدي ربي يمين).

وأمّا بالنسبة لقوله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)، وقوله: (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)، وأيضاً لقوله: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) فلا إشكال في ذلك ولا معارضة، ذكرها بالإفراد وذكرها بالتثنية وذكرها بالجمع:

أمّا الذكر بالجمع فما فيه إلّا التعظيم، وحق لله أن يعظِّم نفسه سبحانه جلَّ في علاه، فهو سبحانه الجبار المتكبر وهو الجميل الكبير، قال الله جلَّ في علاه عن قوته وعظمته: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [يس:40]. فاليد تثبت لله جلَّ في علاه لكماله وعظمته، وله هنا في قول: (مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا) الجمع هنا للتعظيم.

لكن عندنا الإفراد والتثنية ولا مخالفة بينهم وبين الجمع، لأن في قول الله جلَّ في علاه: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)؛ الجمع اثنان، وأقل الجمع اثنان على قول بعض العلماء. إذاً لا مخالفة بين التثنية وبين الجمع يعني يتفقان، أو نقول بحل آخر بالوجه الآخر أن هذا كما للتعظيم فلا ينافي لا التثنية ولا الإفراد.

والإفراد؛ قلنا الإفراد مضاف، وما كان مضافاً فيعمّ فلا يخالف الجمع أيضاً.

وتبقى لنا التثنية أنها ثابتة، لله يدان لا أكثر. فلله يدان، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلتا يدي ربي يمين)، فأثبت اليدين لله جلَّ في علاه، ويبقى بأن الله جلَّ في علاه يعني باشر الخلق بيده ثلاثة: (إن الله لم يباشر بيده) أو (لم يخلق بيده إلّا ثلاثة: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده).

فيها فضيلتان مهمتان رواية من الأهمية بمكان قال: (خلق آدم بيده)، ماذا نستفيد من هذا بأنه خلق آدم بيده؟ ما الإفادة من اعتقاد بأن الله خلق آدم بيده لا الكل؟ كيف نستفيد منها عقدياً؟ الذي أريده لأنها لو كانت القدرة لا ميزة بين هذا وبين إبليس، لأنه لمّا قال: (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء:62]. هو فضّله أيما تفضيل، التفضيل أنه باشر خلقه بيده وهو مفضّل عليه بذلك لأن إبليس خلق بالقدرة وباقي الخلق الكل بالقدرة، أمّا آدم فشرَّفه الله عن جميع الخلق أن خلقه بيده لذلك، كأنه قال مشرّفاً له قال: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ).

فلو كانت بقدرتي على ما يقولون، وأن القوة بالقدرة. فما المزية لآدم على إبليس؟! لا مزية. والمزية هنا: بأن الله خلق آدم وخصّه بأنه خلقه بيده، والحديث ظاهرٌ: (إن الله لم يباشر بيده) أو (لم يخلق بيده إلّا ثلاثة: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده). كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هؤلاء (يعني الذين تسأل عنهم) غرست كرامتهم بيدي). اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى، اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى، اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى.

قال: (وخط لك التوراة بيده)؛ وكتب لك التوراة بيده، وهذه فيها دلالات واضحة جداً على الرد على هؤلاء المحرّفة الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه. وما أدري ورب العزة كيف هؤلاء الذين يترسمون خطىً مذهبية بجهلٍ وجهالات ويقولون هذه المسألة باب الخلاف؟!! العقيدة لا خلاف فيها، وهذه دلالة أن هذه الانحرافات العقدية أدت إلى هذه الانحرافات الفقهية وإلى الجهل المركب، ويحسبونه علماً من باب الوقوف على قول المذهب والخوف من الخروج منه تقليداً وإعطاء العقل للغير. (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) [الكهف:104]، ثم بعد ذلك يتهمون أصحاب الأدلة باتهامات باطلة،

هكذا أهل البدع في هذا الباب. الغرض المقصود بأن الله جلَّ وعلا خلق آدم بيده، وكانت ميزة لآدم على إبليس لذلك قال له: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ).

الفوائد المستنبطة:

عظيم صفات الله جلَّ في علاه عظيم؛ اليد يمسك بها السماوات أن تقع على الأرض إلّا بإذنه. من عظيم يد الله جلَّ في علاه ظهر في كلام اليهودي عندما قال: يحمل الثرى على ذه، البحار على ذه، الرمال على ذه ... إلى آخر ما قال اليهودي. والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبتسم مُقِرّاً، فيها نفي صفات النقص عن الله.

من آداب المناظرة رد الخصم وإثبات الضد قالوا (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)، فالله جلَّ وعلا أنكر عليهم: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا)، حكمهم في ذلك اللعن للتكذيب والكذب على الله ووصف الله بالنقص. قال: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) قالوا بذلك عن البخل. سبحان الله عندما قال الله جلَّ وعلا: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) [البقرة:245]، قالوا: إن الله يستقرضنا، ملاعين لا يوقرون الله جلَّ في علاه، وقد قال الله: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]. ثم قال: (وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)؛ بل يداه على التثنية كما بيّنا، (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ).

هنا الرد عليهم كان من وجهين في المناظرة كما قلنا:

- بإثبات الضد؛ (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ)، فإن الله جلَّ في علاه قال: (لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي من شيء).

- لمّا قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)، ضبطها بضابطٍ هنا، قال: (يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ). والمسألة عن العلم والحكمة أيضاً لأنه قال: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر:21]، فكل هذه الأفعال عن علمٍ وحكمة.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السادس والعشرون: آيات صفة العينين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا، ولوالديه، والحاضرين، والمستمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقوله: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48]، وقوله: (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ) [القمر:13-14]، وقوله: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه:39].

هذه الآيات سنبينها إن شاء الله، لكن نقول إن هذه الآيات جاءت لإثبات العين لله جلَّ في علاه، وهنا أيضاً -كما قلنا- ما زال شيخ الإسلام ابن تيمية يبيّن لنا وسطية أهل السنة والجماعة ما بين الغلو وبين الجفو. والعين ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وأجماع أهل السنة:

- أمّا بالكتاب فهذه الآيات في قول الله جلَّ في علاه: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48]، وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) [طه:39]، وأيضاً في قوله: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14].

- ولقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بأن الساجد يسجد بين عيني الله)، وهذا حديث وإن كان فيه ضعف لكننا نستأنس به. وأيضاً نثبت العين لله جلَّ في علاه بأدلة أخرى من السنة صرّحت بعين الله جلَّ في علاه، لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن ربكم ليس بأعور، وإن الدجال أعور العين اليمنى)؛ وهذه أيضاً يستدل بها على عدد الأعين لله جلَّ في علاه.

إذاً العين ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والجماعة، وهنا نقول كما بيّنا قبل ذلك بأن الإثبات "إثبات الصفة لله جلَّ في علاه" لا بد أن تنضبط بضابط الشرع الذي جاء به الكتاب والسنة، قال الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، أنت تثبت السمع والبصر تحت قول الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، أي بلا تمثيل ولا تشبيه وأيضاً مع إثبات الكيفية، تثبت الكيفية وهي مجهولة بالنسبة لك. إذاً بلا تمثيل ولا تشبيه، ولا يقال "ولا تكييف"، ولكن إثبات التكييف على الجهالة عندنا، فهناك كيف ولكنه مجهول. وعند النفي دون التعطيل، هذا الأصل في الكلام على إثبات الصفات.

صفة الله جلَّ في علاه كما قلنا ثابتةٌ بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، فإن كانت العين ثابتة فإن أهل السنة والجماعة وسطية بين الغلو وبين الجفو. لكن الأمكن لنا أن نقول وإن أثبتنا العين لله جلَّ في علاه وجب علينا أن نتعبد لله بها، والعين لازمها الكلأ والرعاية والعناية، لذلك قال الله جلَّ في علاه عندما قال موسى -عليه السلام-: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46].

◆ أولاً عند التعبد -دائماً كنت كررت هذا الباب ليحفظ من طلبة العلم- أن حسن الاعتقاد هو أفضل طريقة للتعبد، أحسن طرق التعبد لله جلَّ في علاه التسليم والانقياد بأنك تكون عبداً حقاً، (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [البقرة:131]، قال: استسلمت. فحسن الاعتقاد بالإثبات، وهذا الفارق والعلامة الفارقة بين أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله، دون التحريف ودون التمثيل ودون التشبيه ودون التكييف المعلوم، وإلّا هم يثبتون الكيفية لكنها مجهولة بالنسبة لهم. خلافاً لأهل البدعة والضلالة، الذين يدخلون العقول في الغيبيات التي لا تدخل فيها العقول بحال من الأحوال.

◆ والأمر الثاني أن نقول بأن لازم العين الكلأ والرعاية والعناية، إذاً عندي اعتقاد في القلب بأن الله يرعاني أو يرعى الجميع. لكن لا بد أن يتمثل المرء بالصفات التي أمر الله بها حتى يحظى وحتى يحوز وحتى يفوز برعاية الله وبكلأ الله جلَّ في علاه، كما قال الله جلَّ في علاه: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) [القمر:14]، وقال: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48].

اذاً اعتقاد العناية والرعاية والكلأ وهذا لازم الصفة، وهذا الفارق بين أهل السنة والجماعة وأهل البدعة والضلالة الذين تنحوا عن إثبات الصفة وأثبتوا لازمها. ونحن نقول إثبات اللازم فرع، والفرع يدل على وجود الأصل، فنقول: إثباتُ اللازم لازمٌ لإثبات الأصل لأنه فرعٌ عن أصل، فإثبات الأصل أولاً ثم إثبات الفرع وهو اللازم. يعني العين؛ بعد إثبات العين، نقول ولازمها الكلأ والعناية والرعاية.

لمّا تقول: تركت أمي عندك أمانة، يقول: هي في عيني. لا يمكن أن يتصور المرء -كما قلت كثيراً- أنه سيأتي بكرسي ويجعله على عينه ويجلس أمه داخل عينه أو داخل جفونه ورموشه. لا، لمّا يقول: في عيني، أنت في عيني أو ابنك في عيني أو أن أمانتك في عيني، يعني برعايتي وكلأي وأنا أرقبها وأنا أعتني بها، حيثما كانت أكون معها مراقباً لها حتى أحفظها من كل ضرٍ وشر.

إذاً إثبات الفرع لازمٌ لإثبات الأصل، إثبات اللازم لازمٌ لإثبات الأصل وهو الصفة. فإذاً نعلم بأن إثبات العين لازمها العناية والرعاية والكلأ، وهذا كثير؛ كما قلنا موسى وهارون: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ) [طه:45]، فقال (قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]. وهذا يلزمنا أن نقول بصفةٍ أخرى ما هي؟ عندما قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) فهذا بالعناية والرعاية والكلأ لازم إثبات العين يثبت صفة أخرى مهمة جداً ما هي؟ صفة المعية.

الحمد لله وكفى وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد: إخوتي الكرام نسأل الله جلَّ في علاه أن يثبت لنا هذا الخير ما حيينا أبداً، وأن يغفر لنا الزلات السقطات والهنات. اللهم مكِّن لنا يا رب العالمين، واغفر لنا يا رب العالمين، واختم لنا بالصالحات، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قلنا بأن الإمام العلم شيخ الإسلام ابن تيمية قد أراد أن يجلّي لنا صفات أهل السنة والجماعة لنعتقدها حتى تسلم عقيدتنا عند ربنا جلَّ في علاه، وبيّن أن طريقة أهل السنة والجماعة في الإثبات طريقةٌ وسطيةٌ بين الغلو وبين الجفو؛ فهناك من أثبت الصفات فغالى في الإثبات، وهناك من نفى فغالى في ذلك. ولذلك نقول قولاً فصلاً بأن أهل السنة والجماعة أثبتوا لله جلَّ في علاه العين على غرار قول الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11].

بعد ما قلنا بأن العين قد ثبتت لله جلَّ وعلا بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، قلنا كيف التعبد بها:

- أولاً: حسن الاعتقاد بالإثبات وهذه طريقة أهل السنة والجماعة.
- والثانية وهي من الأهمية بمكان: إثبات الصفة مع إثبات لازم الصفة.
- والثالث في التعبد أيضاً: إثبات الصفات التي تلازم إثبات لازم الصفة، وكما قلنا بأنها على المعية. وهذه المعية ليست المعية العامة، المقصود بها هي المعية الخاصة؛ معية النصرة والتوفيق والتسديد والنجاة، كما (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46]، يعني أراكم وأرى مكانكم وأرى ما يحدث معكم وأسمع ذلك وأنا أحميكم.
- وأيضاً من حسن التعبد لله جلَّ وعلا بهذه الصفات وواجب علينا أن نراجعها كلما قصّرنا فيها، كلما تراجعنا وراجعنا أنفسنا، وهو أن نعلم بأن الله يرانا وأن الله يراقبنا سبحانه جلَّ في علاه، وأن نظر الله سابقٌ لنظرنا. فإن خلوت يوماً من الدهر لا أقول

خلوت، فإن نظر الله ينزل إليّ، فإن نظر الله يراني وإن كان الله يراني عليّ أن أحتاط لنفسي في هذا الباب، ونسأل الله المغفرة والعفو.

فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل). قال: (حجابه النور)، وفي رواية: (حجابه النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). وبصره ينتهي إلى جميع خلقه، والسمع والبصر والمعية والإحاطة من لوازم الربوبية، هي تلزمنا بعبادة المراقبة التي يصل بها الإنسان بعد المجاهدة إلى مسألة الإحسان "التعبد لله جلَّ وعلا بالإحسان".

والمسألة الثالثة في بحث الكلام على إثبات العين لله جلَّ في علاه؛ إن أثبتنا العين لله فهي صفة كمالٍ وجلالٍ وبهاءٍ وعظمة ما نوع هذه الصفة؟ هي صفة ثبوتية أم صفة سلبية؟ ثبوتية ذاتية خبرية؛ إذا قلنا ثبوتية: يعني ثبتت لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهي ذاتية: لا تنفك عن الله جلَّ في علاه أزلاً وأبداً، وهي خبرية: لأن محل الإثبات هو الخبر لا غير، هذا الراجح الصحيح.

ونقول إذا قلنا بأنها من الصفات الخبرية ونحن نسلِّم لله في ذلك، كم عينٌ لله جلَّ في علاه؟ لا سيما وأنه جاءت الأدلة الكثيرة على الإجماع، حتى لمّا أفرد أفرد بإفراد مضاف يعني يدل على العموم أو على الجمع. ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)، وأيضاً قال الله جلَّ في علاه: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)، وقال الله جلَّ في علاه: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي). كم عين لله؟

- الجمع جاءنا قال: (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)، وأيضاً (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا).

- قال: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) الإفراد هنا، إفراد مضاف. وإفراد الإضافة في قول الله جلَّ في علاه: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) يفيد فائدتين عظيمتين ما هما؟ قلنا بأن الإضافة حتى تكون إضافة صفة للموصوف لا بد أن تكون مضافة للذات المقدسة، لمّا قلنا بأن قول الله جلَّ في علاه: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) [القلم:42]، قلنا هذه ليست من آيات الصفات لأنها لم تضاف إلى الذات المقدسة.

وقلنا من شروط إثبات الصفة أن تكون معنى وأن تكون مضافاً للذات المقدسة، فمن شروط إثبات الصفة أن تكون معنى من المعاني ليست عيناً مستقلة، لأن المضاف إلى الله أن تكون عيناً مستقلة فالإضافة إضافة مخلوق للخالق وفيها التشريف. لكن هنا الإضافة إضافة معنى وهي مضافة للذات المقدسة، فهي إضافة صفة للموصوف.

قبل أن ندخل في شرح الآيات لأن هذا فيه الطريقة السويّة لأهل السنة والجماعة على السيرة النبوية أو الاعتقاد النبوي وعلى اعتقاد الصحابة الكرام بأنهم وسط بين الغلو وبين الجفو:

◆ هناك طائفة فيها الغلو في النفي، وهؤلاء الذين ينفون صفات الله جلَّ في علاه يقولون: لا عين ولا سمع ولا بصر ولا كلام، هؤلاء الجهمية. وكما قلنا على كلام العلماء على الجهمية فيما درجوا عليه من نفي صفات الله جلَّ في علاه وكأنهم يكذِّبون بالقرآن ويكذِّبون بالسنة.

◆ والطائفة الأخرى الذين يقولون إثباته على أنها مخلوقة، وهؤلاء أفراخ الجهمية. وهذا نفيٌ أيضاً لكنهم أرفع منهم درجة أنهم أثبتوها بوجه وهو وجه الخلق، قالوا: نعم نثبت هذه الصفة نثبت عيناً، نثبت كلاماً، ولكنه مخلوق، يثبتون الصفة على أنها مخلوقة.

◆ وأمّا هؤلاء الذين أرادوا عقلاً وأرادوا إتقاناً وذكاءً وفهوماً؛ ولا فهوماً ولا ذكاءً ولا شيئاً عندهم. أرادوا أن يتوسطوا بين أهل السنة وبين الجهمية والمعتزلة، فأتوا بالعجائب فقالوا: نعم، العين لله جلَّ في علاه هي ثبتت في الكتاب، وليس العين مراده، الله ما أراد ذلك. قال: ومراد الله في ذلك الكلأ والعناية والرعاية، وهذه مجاز.

قلنا الكلأ والعناية والرعاية هذا لازم، وتعرف من كلام العرب فدعنا ونحّي عنا المجاز في كتاب الله جلَّ في علاه، وهذه تعرف من كلام العرب. وإذ نثبت اللازم لازمه إثبات الأصل لأن اللازم فرع، وإثبات الفرع لا بد وجوباً أن يثبت الأصل. ونقول: عندما تقولون بأن العين ليست عيناً وهي العناية والرعاية والكلأ كما في لغة العرب، قلنا لهم: خالفتم الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، فهذا تحريفٌ لا تأويل. وأيضاً نقول: وإن قلتم بالتأويل، نحن نقول بالتأويل عند وجود القرينة عند الداعي وعند الموجب، فما الموجب عندكم من الآيات التي أثبتت العين أو الأحاديث التي أثبتت العين؟ فما الموجب عندكم بأنها العناية والرعاية والكلأ؟

قالوا: السياق، قلنا: كيف؟ قالوا: ألم يقل الله جلَّ وعلا: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا)؟ قلنا: نعم قال. قالوا: إذاً السياق يثبت العناية. قلنا: لا يثبت العين التي بها العناية، فأنا إن لم أرَ لا أكون معتنياً، أنا أرقبه عندما يذهب يميناً يساراً أراه، فأنا كيف أثبت عناية وكلأ وأنا لا أرى؟ كيف ذلك؟ هذا والله لعمري في القياس بديع وشنيع!! فأقول: أنا لا يمكن أن أقول بالكلأ والعناية والرعاية إلّا بعد الرؤية، فعندما تقولون بأنه المقصود من السياق هنا العناية، قلنا نعم والرعاية والكلأ. لكن العناية والرعاية والكلأ أما تتبع الرؤية؟ فلا بد من الرؤية، فإن نفيت الرؤية إذاً أنت بموجب النفي هذا نفيت أيضاً الرعاية والعناية والكلأ وأنت

تجهل ذلك. وهذا جهلٌ منهم وجهل مركب أيضاً، (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ) [المجادلة:18].

فلذلك أسلم طريقة هي إثبات الصفة مع إثبات اللازم. كيف يثبتون اللازم وأصل الصفة غير موجود؟ إن لم يكن يرى، كيف تكون رعاية وعناية وكلأ؟ لا تكون بحال من الأحوال. إذاً السياق لنا ليس علينا، والسياق وإن كان لكم في طرف لكنه لا يكون في الطرف الآخر معكم، وتكونون قد نظرتم بعينٍ عوراء أنتم وهم سواء، أنتم بعين عوراء وهم بعين عوراء.

لكن أيكما أحول لا يرى بالعين العوراء هذه بضعف البصر، يعني الحق أنكم أنتم أكثر الناس عدم النظر وكانت الحجة لهؤلاء المبتدعة عليكم فيما اخترعتم وما ادعيتم، لكنهم ما استطاعوا الوقوف أمام أدلة أهل السنة والجماعة.

أمّا الآيات فقد قال الله جلَّ وعلا: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48]، الصبر شطر الإيمان كما قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: الدين نصفان: نصف صبر ونصف شكر. فالصبر نصف الدين، والصبر: صبرٌ اختياري وصبرٌ اضطراري، أو قل: صبرٌ على الطاعة وصبرٌ على المعصية وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة. اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم فإنك أنت الأعز الأكرم. قد لا نستطيع الصبر، ولكننا نتوب ونؤوب إلى ربنا ونستغفر الله على الزلل وعلى الخطأ.

فقال علماؤنا: والصبر صبران: صبر اختياري وصبرٌ اضطراري.

- الصبر الاضطراري: له أجرٌ عظيم عند الله جلَّ في علاه، وأعظم منه وأرفع منه درجة ومنزلة الصبر الاختياري.

- والصبر الاختياري: كما قلنا بأن يوسف والنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- هما من بيّنا لنا بلسان الحال ولسان المقال تطبيق الصبر الاختياري والصبر الاضطراري. فالصبر على الطاعة أن يؤدي الفرائض، وبعد الفرائض أن يأتي بالنوافل، وبعد النوافل يأتي بالمستحبات، وبعد المستحبات يأتي بالمبيحات ينتوي بها العبادات، وبذلك يرتقي المنازل العلى والدرجات عند رب الأرض والسماوات.

وأيضاً الصبر على الكف عن المحارم قدر ما يستطيع، (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [التغابن:16]، هذا أيضاً فيه رفع في الدرجات وهذا صبرٌ اختياري وهذا أحب إلى الله. وقال ابن تيمية في فصلٍ ماتع: والصبر الأول أحب وأعظم عند الله جلَّ في علاه، وهو الصبر على إقامة الواجبات، نظراً للتأصيل العام أن إقامة الواجبات أعظم عند الله من الصبر على الكف عن المحرمات.

◆ والثالث هو الصبر على أقدار الله المؤلمة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط).

قال: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)؛ والحكم كما فصّلنا قبل ذلك حكمان: حكمٌ كوني، وحكمٌ شرعي.

◆ فيكون الصبر على الحكم الشرعي وهو الأمر والنهي، الإنشاء والخبر. الأمر والنهي، أو الخبر الذي يراد به الإنشاء. فهذا الصبر عليه من أفضل الطاعات ومن أقرب القربات وأصلح الصالحات، وهذا صبرٌ اختياري.

◆ وأما الحكم الكوني وهو بقضاء الله جلَّ وعلا وقدر الله جلَّ في علاه، وإن يرضى عن أقدار الله جلَّ في علاه أو يصبر على أقدار الله جلَّ في علاه، وهذا صبرٌ اضطراري. فتتنوع العبادة عنده بصبرٍ اضطراري وصبرٍ اختياري.

لذلك قال: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) [الطور:48]، والمعنى هنا أنك لن تنال الرعاية والعناية والكلأ بتمامه إلّا بعد ما تؤدي الصبر على الحكم الكوني والحكم الشرعي، كلّما تمثلت بذلك وكلّما كنت صابراً على الأحكام الكونية والأحكام الشرعية كنت في رعاية الله وكلأ الله وعناية الله. اللهم ارزقنا، اللهم ارزقنا، اللهم ارزقنا، اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم فإنك أنت الأعز الأكرم.

وأما الآية الثانية ففي قوله: (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) [القمر:13]؛ "دسر" هي المسامير، يعني صنعه نوح -عليه السلام-، وكانوا كلّما مروا عليه سخروا منه، فسخر منهم كما يسخرون وأنقذه الله جلَّ في علاه، وأغرق الدنيا بأسرها وما عاش إلّا نوح ومن كان معه في السفينة. وهذه من عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه لأن عشرة قرون بين آدم وبين نوح، كما قال ابن عباس.

في قول الله جلَّ وعلا: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) [البقرة:213]؛ قال: عشرة قرون على الإسلام، ثم تبدلت الفطر وتغيرت واستطاع الشيطان بعد تقاعد العلم إلى الوصول إلى تكفير الناس أو أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فلمّا جاء نوح واشتد الكفر ومكث فيهم ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً، فإن الله أذن له بالرحيل وكان يصنع الفلك وهو كأنه لا يدري أيضاً أنه يصنع الفلك في الصحراء ويقولون في الصحراء:

طلب النجاة ولم يسلك مسالكها *** إن السفينة لا تجري على اليبس

ومع ذلك فإن الله بيّن لهم أن الدنيا بأسرها قد أمطرت وفجّر الأرض عيوناً: (فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) [القمر:12].

قال: (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ) [القمر:13-14]، (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) من كلام العرب هذه بكلئنا برؤيتنا. والكلأ والرؤية، أو الكلأ والنظر يثبت وموجبه الرعاية والكلأ والعناية، فالرؤية تثبت الكلأ والعناية والرعاية.
قال: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) فيها بيان إلى عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه على ما صنع بأنه أمر السماء، فأمطرت ولم يتوقف المطر، وأمر الأرض ففجّرت عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر.

وما أنجى الله جلَّ في علاه إلّا نوحاً ومن معه في السفينة، كما قال لابنه: (يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) [هود:42-44]، الله المستعان. قال: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)؛ يعني هذا الغرق جزاءً لمن كان كفر بالله جلَّ في علاه.

وفي قوله: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) [طه:39]، وهذه فيها دلالة على أن من أحب أهل الخير فهو من أهل الخير. ولذلك قال ابن عباس: كن عالماً او متعلماً أو محباً لأهل العلم ولا تكن الرابعة فتهلك؛ يعني إن لم تحب لا تبغض لا تعادي أهل العلم. ولذلك قال ابن تيمية: أسوأ القلوب قلباً، القلب الذي يحمل على أهل العلم.
ولذلك أنت ترى وفقت امرأة فرعون لمّا ألقى الله حب موسى في قلبها، لمّا رأته ماذا قالت؟ (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) [القصص:9].

وقال الله: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)، وهذا دأب الصالحين والذين يتمثلون بكلام النبيين والمرسلين، وهذا يكون في الصالحين فقط. يعني (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) عند الصالحين، وإلّا فالرسل قد عاداهم من عاداهم من أهل الكفر والطغيان.
قال: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي) بها دلالة أيضاً من كتب الله له القبول في القلوب دلالة على أنه محبوبٌ لدى رب القلوب سبحانه جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

- فضل الصبر.

- أصل الإيمان تمام الانقياد لربنا الديان.

- من سنن الله الكونية إمهال الكفار لا إهمالهم، لذلك ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ويكفرون، فنزل غضب الله جلَّ وعلا فأغرق الدنيا بأسرها.

- من أحبه الله وضع له القبول في الأرض.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السابع والعشرون: آيات صفة السمع والبصر

قال الإمام -رحمه الله-: وقوله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) [المجادلة:1]، (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) [آل عمران:181]، وقوله سبحانه وتعالى: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، وقوله: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [الزخرف:80]، وقوله: (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) [العلق:14].

هنا ما زال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يجلّي لنا اعتقاد أهل السنة والجماعة الوسطية العدول بين طرفي من أهل البدعة والضلالة من أصحاب الغلو ومن أصحاب الجفو. قال: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) [المجادلة:1]، بعد أن تكلم عن الصفات الفعلية ينتقل إلى الصفات الذاتية سواء: الذاتية الخبرية أو الصفات الذاتية. فانتقل هنا المصنف إلى الكلام على الصفات الذاتية، وذكر منها "العين" كما بيّنا، وهنا ذكر السمع. طبعاً عين بها الرؤية، وسيذكر الرؤية مستقلة.

وذكر السمع في قول الله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) [المجادلة:1]، هنا تأكيد في الآية في مواضع ثلاثة:

- الأول قال: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا)، فأثبت السمع لله جلَّ في علاه. وقد بيّنا قبل ذلك بأن هذا على تقعيد وتأصيل أهل السنة والجماعة، وهي أن الصفة لا تثبت إلى الله جلَّ في علاه إلّا إذا أضيفت للذات المقدسة، إلّا إذا أضيفت إضافة صريحة مباشرة للذات المقدسة. وهنا قد أثبتها لله جلَّ في علاه قال: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ)؛ نسب الفعل لله جلَّ في علاه، فهذا إثبات السمع لله جلَّ في علاه.
- وفي الموضع الثاني: (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا).
- وثم أكد في الموضع الثالث: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

إذاً بهذه الآية قد أثبتت في مواضع ثلاثة إثبات السمع لله جلَّ في علاه:

- الموضع الأول إضافة الفعل مباشرةً لله جلَّ في علاه، فالفاعل هنا هو الله جلَّ في علاه، قال: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ)، إذاً الذي سمع هو الله وهذا إثبات السمع لله.
- قال: (وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا)، فأثبت السمع لله.

◆ ثم أكد بالتوصيف التصريحي، قال: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

فهذه الآية أثبتت من مواضع ثلاثة إثبات السمع لله جلَّ في علاه، والحق بأن سمع الله جلَّ في علاه ثبت بالكتاب وبالسنة وبإجماع أهل السنة:

◈ أمّا الكتاب فقول الله جلَّ في علاه: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) [المجادلة:1]، وأيضاً قد قال الله عن اليهود الملاعين: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) [آل عمران:181].

وأيضاً أنكر الله على الكفرة الفجرة: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم) [الزخرف:80]، يعني نسمع سرهم ونجواهم، سبحان الله هو يقول أصالةً: السمع هنا بلغ إلى السر والنجوى، لأن بعض الكفار لمّا اجتمعوا بعضهم قال: هل يسمع الله حديثنا؟ فأنكر بعضهم، وبعضهم قال: إن علا صوتنا سمع وإلّا لم يسمع. فهنا أنزل الله جلَّ وعلا: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)؛ هذه إضافة، يعني الله يسمع والملائكة لديهم يكتبون، فيكون الأمر على إثبات السماع لله جلَّ في علاه وإحصاء ما فعلوا مكتوباً، ولو أنكروا أقام الله عليهم الحجة بما كتب من الملائكة.

الغرض المقصود بأن سمع الله جلَّ في علاه صفة من صفات الله، من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، ثبتت بالكتاب وثبتت بالسنة.

◈ وإثباتها بالسنة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سمع الله لمن حمده) وأيضاً فإن في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: (لمّا قرأ النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) وضع إصبعه على أذنه وعلى عينه)؛ لا يقصد الجارحة أبداً هو الذي يعلم ويعلمنا: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، أراد إثبات السمع لله والبصر لله جلَّ في علاه.

وفي الحديث عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: سبحان من وسع سمعه الأصوات، إن الشاكية التي تجادل تشتكي زوجها ويخفى عليّ بعض حديثها، فأنزل الله جلَّ في علاه: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا). هناك رواية جاءت عن عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على المنبر وهو يقول: ربنا سميعٌ بصير، وأشار إلى الأذن والعين، كما قلنا يشير بذلك إلى السمع والبصر. والحق بأن سمع الله ثابت -كما قلنا- بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

وسمع الله سمعان:

▪ سمعٌ يلزمه الإحاطة (سمعُ إحاطةٍ): وسمعٌ الإحاطة هو من لوازم الربوبية، وهو سمع الإحاطة بكل شيء. لا تختلف عليه اللغات، وإن الله جلَّ وعلا يسمع السر والنجوى، وإن الله جلَّ وعلا يسمع كل شيء ولا يخفى عليه شيء، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء. فكل شيءٍ مسموعٌ لله جلَّ في علاه، ولك أن تفهم وتعقل ذلك لأنه قريبٌ من كل شيء، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء).

قريبٌ في علوه، وعليٌ في قربه سبحانه جلَّ في علاه، وإن الله جلَّ في علاه الكون كله في يده كحبة خردلٍ في يد أحدكم. إذاً السمع سمع إحاطة، أحاط الله بكل شيء فسمع الله كل شيء.

▪ والسمع الخاص: هو سمع الإجابة، هذا سمعٌ وقرب أو قل سمع بقرب. وهذا القرب لم يكن قط إلّا للمؤمن، كما قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56]؛ يعني الله قريبٌ من المحسنين برحمته وسمعه وبصره. (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، سمعٌ وقرب. هذا السمع سمع للمؤمنين وهو يتنوع: سمع إجابة، سمع رعاية، سمع كلأ، سمع نصرة، سمع تأييد، سمع توفيق وتسديد.

قال الله جل في علاه لموسى -عليه السلام- ولهارون -كما سيأتي تفصيله إن شاء الله-: عندما قالا: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46]؛ سمع رعاية هنا الآن، سمع إحاطة وسمع رعاية وكلأ وتأييد وتوفيق وتسديد ونصرة.

وأيضاً سمع إجابة، سمع الإجابة هو في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سمع الله لمن حمده)؛ طبعاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سمع الله لمن حمده)، معناها أنك تقدمت بين يدي الله بعبادةٍ يسمعها وهي الذكر والحمد أو ذكرٌ بحمد. فأنت أثنيت على ربك ذكراً باللسان والقلب حمداً، يسمع الله منك ذلك ويجيبك، وإن القريب الكريم يكفيه التعريض بالثناء.

أرأيت كيف يكون سمع إجابة فأنت لم تسأل، أنت قلت: (ربنا لك الحمد)، تضمنت إجابة لأن الثناء الحسن على الكريم تعريضٌ بالثناء يكفيه، يعطي من لا يسأل وهو يعلم من قلبه من داخلة نفسه سؤله فيعطيه. فصار السمع سمع إجابة وصار الحمد ثناءً، ويكفي الكريم التعريض بالثناء، لا يحوجك ولا يعوزك للسؤال.

وهذا إن اتصف به المرء كان نبيلاً جداً، بأنه من نبله لا يعوز ولا يجعل من أمامه يحتاج إلى السؤال تصريحاً، بل ولا يرتضي منه الإشارة، بل يغنيه عن ذلك تصريحاً

منه، وهذا ليس من فعل آحاد الناس هذا من فعل النبلاء، وهذا الذي علّمه لنا الأنبياء رفعاء الناس ورفعاء القوم.

الغرض المقصود بأن السمع هنا سمع إجابة، في قوله: (سمع الله لمن حمده)، فإن سمع منه الثناء الحسن يعطيه سؤله دون السؤال، ويكفي الكريم التعريض بالثناء.

لك في ذلك: خلق من خلق الله، نبي من أنبياء الله فعل ذلك هو يوسف، وتنافس معه النبي -صلى الله عليه وسلم-. يوسف عندما قالوا: (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ) [يوسف:91]، تعريض بالثناء فقط، فماذا فعل الكريم؟ قال: (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) [يوسف:92]، وأعطاهم. ما أرادوا بالسماح والعفو عنهم دون السؤال فقط تعريض بالثناء، (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ)؛ آثرك لأنك الأفضل لأنك الأعبد لأنك نبي لأنك، فقال: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ). هذا هو فعل النبلاء لذلك، لمّا عرضوا له بالثناء سارع هو بالعطاء.

وعندنا النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ علي كان من أفقه الناس ذهب إليه قال: اذهب إلى رسول الله ثم اقرأ عليه وقل: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فإن النبي لا يحب أن يسبق إلى الله أحدٌ غيره فتنافس معه في الخيرات. فدخل عليه وكان قد أهدر دمه، فدخل عليه فقال له: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تثريب عليك اليوم يغفر الله لك)، مسارعةً.

فلذلك نقول السمع هنا سمع إجابة، ولذلك لما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي الدعاء أسمع؟ يعني أي الدعاء يستجيب له الله جلَّ في علاه؟ إذاً هذا سمع إجابة، أي الدعاء أسمع؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جوف الليل)، في السحر، (جوف الليل أسمع). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ودبر كل صلاة)، وقال: (أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد)؛ هذه أوقات الإجابة. إذاً هنا السمع سمع إجابة، وهذا سمعٌ خاص.

قد يرد عليّ في قول سمع خاص إيراد، ما هو الإيراد؟ وكيف دفعه؟ دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فقد يستجيب الله من الكافر من أجل أن يكون مظلوماً أو لأمرٍ فيه حكمة، فيرجع لما أراده ودفعه صحيح. ولذلك نقول: وهذا كله نادر والنادر لا حكم له. فيبقى سمع الإجابة خاص بالمؤمنين، فسمع الإجابة، وسمع الرعاية والتوفيق والتسديد والتأييد.

كيف نتعبد لله بهذه الصفة العظيمة "صفة السمع"؟

◆ أولاً يعني نسأل الله تعالى أن يبلغنا جميعاً، ذلك نعلم بأن الله يسمع منا فنكف عمّا لا يرضي الله جلَّ في علاه فيغفر الله لنا. كم وكم زللنا، وكم وكم يخرج منا ما لا يرضي ربنا عنا، فنسأل الله جلَّ وعلا أن يمن علينا بكف عمّا لا يرضي ربنا عنا.

◆ وأيضاً إذا علمت بأن الله تعالى يسمع ويسمع النجوى، وأن الله جلَّ في علاه يسمع سمع الإجابة لا أكف عن الدعاء. مغبونٌ من كف عن الدعاء، من حسب أن معاصيه أو الخطايا أو الزلل يمنع إجابة الدعاء يكون مغبوناً مفتوناً مأفوناً جهولاً. ولذلك قال الحسن: لا يمنعن أحداً منكم معصيته أن يدعو الله جلَّ في علاه، فإن الله قد استجاب لإبليس.

فعلى المرء أن يعلم بأنه بين يدي الله جلَّ في علاه؛ إن كان منطرحاً، إن كان متذللاً، إن كان متضرعاً فإن الله سيستجيب لا محالة وأن الله يسمع دعاءه سمع إجابة لقول الله جلَّ في علاه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [البقرة:186]، فيها دلالة واضحة جداً على هذا السمع.

في مسألة السمع -كما قلنا- أن أهل السنة والجماعة وسطية عدول بين طرفي نقيض من أهل البدعة والضلالة:

- فمنهم من نفى السمع كليةً وهؤلاء هم المعتزلة والجهمية، هؤلاء الذين قد تجرأوا على الله جرأةً عظيمة. وكما تعلمون بأن المتقدمين كفَّروا الجهمية: ابن المبارك وأحمد، وأتراب هؤلاء وأقران هؤلاء كفّروا الجهمية. ابن تيمية يقول: نفرّق بين العلماء وبين العامة، لذلك لمّا نظر بعضهم قال: لو قلت بقولكم لكفّرت، ولكن أنتم عندي جهّال. عامةً نحن لا نبحث في هذه المسألة، لكننا نقول إنهم تجرأوا على ربهم جرأة عظيمة فقد نفوا الصفة، يقولون: لا سميع ولا سمع، ولا بصير ولا بصر.

- وطائفةٌ أخرى قالت: مخلوقة؛ يقولون إن السمع مخلوق. وهؤلاء المعتزلة الذين يرون أن الصفات مخلوقة، هذا جرياً على أصولهم لا التصريح، جرياً على أصولهم.

- وأمّا الأشاعرة بضلالهم وحيدتهم -حتى لا يقال إنهم من أهل السنة والجماعة ويطلع علينا من يقول بأنهم هكذا من أهل السنة والجماعة، هذا خبطٌ وخلطٌ وأيضاً تغييبٌ لاعتقاد أهل السنة والجماعة وجهلٌ باعتقاد أهل السنة والجماعة، قال ذلك كائناً من كان فهو جاهلٌ باعتقاد أهل السنة والجماعة، فعليه أن يعود إلى حظيرة أهل السنة والجماعة أولى له في هذا الباب-.

هم يقولون يعني يؤولون الصفات، لكن هنا في الصفات الذاتية "السبع صفات"، يثبتون السمع ولله الحمد. قلنا لهم: لِمَ أثبتم أنتم السمع الآن؟ قالوا: لأن العقل يدل على ذلك،

قلنا: كل صفة العقل يدل عليها. فالحق بأنهم الحمد لله قد أثبتوا السمع كما أثبت أهل السنة والجماعة السمع، وهذه حجة عليهم لأنه ما ثبت في صفةٍ يثبت في غيرها، ما الفارق؟ لا فارق بينهم. ما ثبت في الصفة يثبت في غيرها لعدم الفارق، فهو حجة عليهم في هذا الباب. ما قيل في بعض الصفات يقال في كل الصفات لعدم الفارق، وهذه فيها دلالة على التناقض الذي هم فيه.

في قول الله جلَّ في علاه: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)، فيها مسائل:

◆ المسألة الأولى: جواز مراجعة المرأة العالم وإن أظهرت التظلّم له من زوجها، لكن لا تتعالى ولا تكثر ولا تقدح في زوجها، ليس هذا من النبل وليس هذا من الخلق الحسن. لكن إن أرادت أن تعرض عرضت أو إن أرادت أن تتظلم تذكر المظلمة دون أن تزيد، فهذه قالت له: أنا نثرت له بطني وكان حجري وطاء وبطني وعاء، فقالت: فأراد أن يهجرني وكان في الجاهلية يحسبون أن الظهار طلاقاً. فلمّا قالت ذلك ما أنكر عليها النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل وما أنكر عليها الله، فهذا دل على أن المظلمة عندما يشتكي المرء لمن يعلم أنه سيرفع عنه المظلمة صح له ذلك، وليست من الغيبة أو هي مستثناة.

◆ المسألة الثانية: جواز للمرأة مخاطبة الرجل إمّا سؤالاً أو تعليماً أو تظلماً، (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ)، وهذا فيه إقرار الله لها وللنبي على ما حدث من الحوار، قال: (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا).

◆ الأمر الثالث: لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- مُبلِّغ وليس مُشَرِّعاً، هو ناقلٌ للشرع وليس مُشَرِّعاً، لذلك أنزل الله الحلول في هذا الباب "في الظهار".

◆ والأمر الرابع: أن الله وسع سمعه كل شيء، كما قالت عائشة وهي بجانبهم والغرفة ضيقة ومع ذلك قالت: كانت المرأة تشتكي زوجها في ناحية البيت وأنا في ناحية البيت يخفى عليّ بعض حديثها قالت: فأنزل الله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا)، ثم أكّد (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ).

المسألة كانت الظهار، (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا)، أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، لأن آيات الظهار نزلت على سبب ومع ذلك كانت على العموم.

أمّا الآية الأخرى: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) [آل عمران:181]، هذا على القول اليهود يأتي شرحها، سنشرح الآية ومعها (إِنَّنِي

مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، زيادةً في مسألة التأكيد على مسألة الإحاطة. ومسألة الإحاطة أيضاً فيها سمع تهديد ونذارة، لأن الله لمّا بيّن للكفار أنه يسمعهم دلالة على التهديد وهذا سيأتي في قوله: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ).

إجابة سؤال: صفة السمع صفة ذاتية، وصفة الكلام صفة فعليه ليست ذاتية، قلنا هي حادثة الآحاد قديمة النوع، لكن عندما تقول فيها تقول: هي ذاتية فعلية لأن الله يتكلم وقتما أراد حيثما أراد بما أراد، أما الصفات الذاتية لا يقال فيها هذا الكلام خطأ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: في قول الله تعالى: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) [آل عمران:181]، (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، وقوله: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [الزخرف:80]، وقوله: (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) [العلق:14].

تكلمنا عن صفة السمع، قلنا إن هي صفة ثابتة لله جلَّ وعلا بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهي من الصفات الذاتية. وصلنا إلى قول الله جلَّ في علاه: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)، كنا شرعنا وشرحنا الكلام على هذه الصفة وأن أهل السنة والجماعة وسط بين الغلاة والجفاة بين طائفتين من أهل البدعة والضلالة.

في قول الله جلَّ في علاه: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)؛ أثبت السمع لله جلَّ في علاه وهذا السمع العام، بأنه لا تختلف عنه اللغات وأن الله جلَّ وعلا يسمع كل شيء يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء. هذا قاله اليهود عندما سمعوا قول الله جلَّ في علاه: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) [البقرة:245]، فقالوا: إله محمد يستقرضنا فنحن أغنياء وهو فقير. نعوذ بالله من الخذلان.

هؤلاء تجرأوا على الله جلَّ في علاه، ووسموا ووصفوا ربهم بصفات النقص ولذلك كفروا بكل هذا، فكل من وصف الله وصفاً بصفات النقص فقد كفر في هذا الباب. هم يقولون بأن الله فقير، والله جلَّ وعلا كذبهم في هذا وهددهم بأنه سمع منهم ما قالوا.

كما قلنا هذا حال اليهود بأنهم يصفون الله بالنقص، فقد وصفوا الله جلَّ في علاه بأنه بكى حتى أرمد، ووصفوا الله جلَّ في علاه وقالوا (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) [المائدة:64] وصفوه بالبخل. اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم فإنك أنت الأعز الأكرم، نسأل الله جلَّ في علاه أن يثبتنا على الإسلام، تعالى الله علواً كبيراً عمّا يقول الظالمون الكافرون

الفاجرون. فقالوا: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) فالله أنكر عليهم وقال: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64].

فهم قالوا: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)، ومعنى قول الله جلَّ في علاه: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) بأنه من تصدق على عباد الله جلَّ في علاه، من أقرض لرفع الضرر ولإغاثة الملهوف لعباد الله جلَّ في علاه، يجد ذلك عند الله. أما رأيت بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بأن العبد إذا تصدق بصدقة فإنها تقع في كف الرحمن فيربيها له).

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: عبدي مرضت فلم تعدني، قال: وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: ألم تعلم عبدي فلان كان مريضاً؟ ولو عدته لوجدتني عنده)، في رواية الأخرى أوضح من ذلك: (لوجدت ذلك عندي). والمعنى هنا بأن الله غنيٌ عن كل أحد، وأن الله جلَّ في علاه جعل العباد الجميع يفتقرون إلى الله جلَّ في علاه ويحتاج بعضهم إلى بعض حتى يميز الله جلَّ وعلا بأفعال العباد؛ فمن كان محسناً يحسن إليه، ومن كان بخيلاً يمسك عليه.

كما أن الله وكّل ملكين يقولان يدعوان في كل صباحٍ: (اللهم أعطِ منفقاً خلفاً وأعطي ممسكاً تلفاً). فهذا ظاهرٌ وبيانٌ واضحٌ جلي بأن قول الله جلَّ في علاه: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) على ما يفعل العبد مع عباد الله جلَّ في علاه، (وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)، جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً.

السمع -كما بيّنا- فيه تقسيمات، السمع هنا سمع تهديد (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)؛ يهددهم: سمعت ما قلتم وسأجازيكم عليه وأنتم على خطرٍ وعلى شفير هلكة بما قلتم، قال: (سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا) ليكون هذا الكتاب ظاهراً لهم يوم القيامة، ولو أنكروه يختم الله جلَّ في علاه على أفواههم كما قال الله جلَّ وعلا: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يس:65].

الغرض المقصود في هذا الباب أن السمع هنا سمع تهديد، يهددهم الله جلَّ في علاه بما قالوا وأنهم وسموا ووصفوا الله بالنقص. فالتهديد والوعيد الأكيد من هذه الآية، مع إثبات السمع إثبات التهديد لهؤلاء الذين يتجرؤون على الله جلَّ في علاه.

وأمّا في الآية الأخرى التي قال فيها الله جلَّ في علاه: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم) [الزخرف:80]، لابد أولاً أن نقول بأنه إثبات السمع وإحاطة الله جلَّ في علاه سمعاً وبصراً. حيث قالت عائشة: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، إن المرأة تجادل رسول الله ﷺ وتشتكي زوجها ويخفى عليّ بعض حديثها، فأنزل الله جلَّ في علاه: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا). قال: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ)؛

والسر هو حديث الإنسان بينه وبين نفسه، وخلجات النفس التي تمر على القلب، بل الإخلاص أخفى ما يكون في القلب يعلمه الله جلَّ في علاه.

قال: (وَنَجْوَاهُم)؛ أمّا النجوى هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفي الحديث ويخفض ذلك. قال: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ)؛ بلى نسمع السر والنجوى، بل هو يعلم السر وأخفى سبحانه جلَّ في علاه، فالغيب عنده شهادة. قال: (بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)؛ يعني يكتبون ما يفعلون، وكتابتهم بأمر الله جلَّ في علاه. ففيها إثبات السمع وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ سمعاً وبصراً وقدرةً، "ربوبية عامة"، قال: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ).

وأثبت لنفسه سبحانه جلَّ في علاه السمع والرؤية، وهذه أيضاً فيها الإحاطة، وأكمل الإحاطة لتكون بها الرعاية والمعية والنصرة والتوفيق والتأييد، وأيضاً فيها الإحاطة التامة العامة مع الأحكام في قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46].

ما زلنا مع العقيدة الواسطية، وقلنا وسطٌ بين طائفتين من غلوٍ ومن جفو، نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء.

وأهل السنة والجماعة وسطٌ عدول، يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأجمعت الأمة على وصفه مستنداً في ذلك (يعني الإجماع) إلى كتابٍ أو سنة. فهنا صفة السمع وصفة البصر، قد أثبت الله جلَّ وعلا لنفسه السمع والبصر، حتى جاء في الأحاديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا ذكر السمع والبصر (إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء:58] أشار بإصبعه على عينه وعلى أذنه، لا يقصد جارحةً، ولكن يقصد السمع والبصر، على ما تفقهون، على ما تعلمون.

لذلك هنا في قوله جلَّ في علاه: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، فأثبت المعية، وهذه المعية معيةٌ خاصة. ومعية الله جلَّ وعلا معيتان:

- معيةٌ عامة: وهي معية الإحاطة، ومعية الإحاطة سمعاً وبصراً وقدرةً وقهراً سبحانه جلَّ في علاه.

- والمعيةٌ الخاصة: هذه معية القرب، ومعية القرب لا تكون إلّا من المحسنين، لا تكون إلّا من المؤمنين. هذه المعية معية خاصة بالأنبياء والرسل، معية خاصة بالمؤمنين الذين ساروا على سير الأنبياء والرسل. قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56].

قال الله جلَّ وعلا لموسى ولهارون عندما قال: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46]؛ فهذه المعية معية التأييد، معية النصرة، معية التوفيق. هذه المعية معية القرب، والقرب كما قال ابن القيم:

القرب لم يذكر إلّا من المؤمنين خاصة. وأمّا المعية العامة فقول الله جلَّ وعلا: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد:4]، سمعاً وبصراً وقدرة، إحاطة الربوبية العامة.

فهنا قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، فجعل السمع خاصة والرؤية الخاصة هنا في الكلأ والرعاية والعناية والتوفيق والتسديد والنصرة، لأن موسى كان يرتجف خوفاً وأيضاً هارون من بطش فرعون. ويذهبان إلى فرعون، وتعلمون من فرعون وما فرعون، هو الذي تجرأ وقال: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [النازعات:24]، لدرجة أن جبريل -عليه السلام- كان يأخذ من وحال البحر يضع في فمه يخشى أن تصله رحمة الله جلَّ في علاه، مما تجبر وعتى وتكبر، يريد له العقاب.

فهنا لمّا ارتعدت فرائس موسى -عليه السلام- وهارون، قال الله مطمئناً لقلوبهما: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ)؛ "مَعَكُمَا" معية النصرة والتأييد والكلأ والرعاية والعناية. لذلك يقول أسمع الكلام ولا تخافا، وأرى ما يفعل معكما فلا تخافا، فإني أرعاكما وأوفقكما، فهذه المعية معية التأييد والنصرة والتوفيق والتسديد.

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، وفيها إثبات السمع والبصر لله جلَّ في علاه. ولذلك موسى -عليه السلام- لما التقى الصفان والجمعان (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء: 61-62]؛ إن معي ربي بسمعه وبصره وقدرته سبحانه جلَّ في علاه، معية القرب.

وأيضاً عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكرٍ لمّا قال: لو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآنا، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، قال: (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]. هذه معية النصرة والتأييد والتوفيق والتسديد، ولذلك ما بلغوا النبي، ولا أوصلوا له ضرراً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذهب إلى المدينة سالماً غانماً وقد أسس الدولة الإسلامية ثم بعد ذلك جاء إلى مكة فاتحاً.

وأيضاً في قول الله جلَّ في علاه: (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ) [العلق:14]؛ الذي يهدد الذي صلى، ويهدد الذي اهتدى، يهدده ويرعبه. قال الله جلَّ وعلا: (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ)؛ يرى من فعله مع أوليائه، يرى من تجرؤه وتكبره وجبروته في الأرض. (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ)؛ يرى ذلك منه، من فعله، من قوله، من فعل قلبه، يرى التكبر والتجبر الذي هو عليه. وهذا أيضاً من باب التهديد (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ)، إن كان الله يراك فإنه سيعاقبك ويحاسبك كما قال الله: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) [التوبة:105].

فهذا الكلام كان للمنافقين، على أن الله جلَّ وعلا إذا أثبتنا بأن الله جلَّ في علاه يرى ما يفعل مع أوليائه، يرى ما يفعل هؤلاء الكافرون فإن الله جلَّ في علاه على كل شيء قدير، (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [يس:82]. لذلك قال: (أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ)؛ ويعلم بأن الجزاء عظيم، ويعلم بأن العقاب وخيم. وهذا أيضاً -كما قلنا- من الرؤية فيها التهديد، وهذه رؤية الإحاطة وقد تستلزم التهديد الأكيد والوعيد الشديد.

قال: وقوله تعالى: (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الشعراء:218-220]، وهذه أيضاً فيها دلالة على إثبات الرؤية لله جلَّ في علاه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ويُرفع إليه عمل النهار قبل الليل)، قال: (حجابه النور) أو قال: (حجابه النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). فأثبت الرؤيا لله وأثبت البصر لله جلَّ في علاه.

انظر المقابلة -كما قلنا- هناك رؤية الإحاطة وفيها التهديد الأكيد والوعيد الشديد. قال هنا: (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الشعراء:218-220]، هنا الله جلَّ وعلا أيضاً في هذه الآيات العظيمة بعد ما أثبت لنفسه السمع والعلم، وأثبت لنفسه الرؤية لكن هذه الرؤية رؤية الطمأنينة، هو يقول: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) [الشعراء:217-219]. صراحةً هذه الآية فيها لفتة من أعظم ما تكون، هو يلفت الانتباه لأمرين:

- هو قال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)؛ التوكل لا يكون توكلاً صدقاً إلّا بالأعمال، لا يكون متوكلاً حقاً إلّا أن يكون قد قدّم لذلك عمل. فهنا ظهرت في الآية: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)، أنت متوكل إذاً التفت قلبك لربك، وجمعية القلب مائل إلى الله جلَّ في علاه.

لو كان كذلك فلا بد أن تكون عاملاً ولابد أن تكون آخذاً بالسبب ولا بد أن تكون عابداً، كما قال الحسن البصري على بعض من تبدى له بأن حسن الظن فقط برقة القلب بدون العمل (قول البطّانين)، قال الحسن: كذبوا والله، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل. فحسن الظن الذي يدعو إلى التوكل، وحسن التوكل وجب معه العمل، لا بد من اقتران العمل مع حسن الظن بينةً صادقةً على صدق العبودية، لذلك قال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ).

- قال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)، هنا أيضاً يعني يلفت الانتباه إلى أعظم ما يكون، لِمَ قرن الاسمين بالذات الجليلين في هذا الباب؟ (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)؛ "تَوَكَّلْ"

فوض أمرك له لأنه العزيز؛ عز فامتنع، عز فأمر، عز فقدّر، عز فقهر سبحانه جلَّ في علاه. فهو العزيز بيده كل شيء جبار (إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ).

قال: (الرَّحِيمِ) يرحم قلبك إذ فوضت له أمرك، ويرحم نفسك إذ بذلت له نفسك، ويرحم عملك فيتقبله منك إذا قدمته لله إخلاصاً وصدقاً. لذلك قال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)؛ جمع بين العزة والرحمة، لتعلم يقيناً بأنه القوي على أن يعطيك بما فوضت أمرك إليه ويرحمك عندما يعطيك، وإن منعك منعك رحمةً وفضلاً لأن الله لا يمنع بخلاً سبحانه جلَّ في علاه.

قال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)؛ هو يراك ويرى عملك. (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ)؛ فهو يراك عابداً، يراك مستغفراً، يراك بالبدن عابداً ويراك بالقلب مقبلاً ويراك بالنية خالصاً. فكيف تخسر وأنت كذلك عند ربك الذي يرى منك ما أحبه منك سبحانه جلَّ في علاه؟! سبحانه من أقبل على الله تلقّاه ولو من بعيد، ومن أراد الله أراد الله له ما يريد، اللهم اجعلنا كذلك. ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، اللهم ألهمنا الإخلاص والصدق في القول والعمل واجعلنا من الصالحين المصلحين وأنت أرحم الراحمين.

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، فأثبت لك ذلك، فقال: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)؛ يسمع دعاءك وتضرعك ورفع اليد، وهو العليم بك أنك صدقت وأخلصت وأنك أديت بالعينين الجميلتين: بعين الشرع وعين القدر؛ بعين الشرع حققت ما أمرت به قلباً وبدناً، وأيضاً بعين القدر مال القلب كله لله جلَّ في علاه تفويضاً وتصديقاً وإخلاصاً وحسن ظن ويقيناً في الله جلَّ في علاه.

لذلك قال: (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، هنا بشارات ثلاثة:

- أولاً في قوله: (يَرَاكَ) بعد (الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ). فهو يراك وهذه رؤية مبشرة؛ يعني يرى عملك وإخلاصك وعبادتك فلن يضيعها بحال من الأحوال.

- وأنت عندما تعلم أنه يراك يوزع في قلبك أن تعبده عبادة المراقبة، قال: (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) هو يراك عابداً الآن.

- فلما أثبت لك العبادة فقال: اعلم أنك عندما تكون ساجداً فالدعاء أسمع، فهو السميع وهذه أيضاً فيها إشارة إلى أن أسمع الدعاء في السجود، (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وهو يعلم بقلبك وما أنت فيه، فهذه بشارات لك.

في قوله: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) [التوبة:105]. وهنا رؤية التهديد، كما قلنا سمع التهديد، رؤية التهديد.

هذا تهديدٌ للمنافقين. الرؤية الأولى رؤية بشارة (يقصد الآية السابقة)، والثانية رؤية التهديد هذا التهديد للمنافقين، الذين ينافقون ويكيدون للإسلام وأهله لذلك الله هددهم بقوله: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ).

طبعاً رسوله كيف سيرى؟ سيريه الله جلَّ في علاه، وهذا أيضاً من اللفتات في هذه الآية بأنه ما أخفى عبدٌ في سريرته شيئاً إلّا أظهره الله جلَّ في علاه. كما قلت مكامن القلوب تخرجها الضغوط، ولوازم الأخلاقيات تظهر عند الملمات، فيظهر النبيل من الخسيس، ويظهر الرفيع من الوضيع، ويظهر الصادق من الكاذب، ويظهر المخلص من غيره. اللهم اجعلنا من المخلصين النبلاء يا رب العالمين.

كما قلنا الضغوط تخرج مكامن القلوب، وأيضاً رسم الأخلاقيات عند البليات فتراها جلية في هذا الباب. لذلك قال تهديداً: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ)؛ بأن الله سيخرج ما تكنون في قلوبكم على فلتات اللسان وعلى الأفعال، فيراه الرسول ويراه المؤمنون ويعلمون أنكم من المنافقين. ولذلك أنت ترى أخذ بالإشارة عمر بن الخطاب عندما قال في حاطب: دعني أضرب عنق هذا المنافق، ولم يصب لأن السريرة خالفت العلانية، كان خطأً ولذلك تبين الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

وأيضاً مالك بن الدخشم في هذا الباب، أخذوه بالإشارة بفلتات اللسان والأفعال عندما قالوا: لا نرى وده وذهابه ولا مجيئه إلّا مع المنافقين، وهنا أصابوا. أيضاً هذا الرجل من الخوارج الذي جاء وقال: اعدل يا محمد فإنها قسمة لا يراد بها وجه الله. يرى نفسه أتقى من الرسول، يرى نفسه أورع من الرسول، وهذا التنطع وهذا الذي إذا رأى في نفسه ذلك كامناً يخرج على فلتات اللسان. ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [محمد:30].

سامحوني في مثل عندنا مصري منتشر في المصريين، ما أدري يعرفونه في الشام أو في المغرب أو غير ذلك. لمّا ترى الرجل عندما يراك يبتسم وهو ملأ قلبه بالحقد والحسد، فيمتلئ قلبه ضغينةً لك فيبتسم لك عندما يراك، ماذا يقولون المصريون هنا؟ ضحكته صفراء. فهذه دلالة واضحة جداً على هذا الباب بأنه بتقاسيم الوجه بفلتات اللسان يظهره الله جلَّ في علاه، وللعبد فراسة؛ يعرف الإنسان، يسبر غواره، يستطيع أن يصل إلى أعماقه بظواهره. وهذه ليست لكل أحد لأن الله قال: وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [محمد:30].

ثم قال: وقوله تعالى: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) [الرعد:13]؛ معناها شديد البطش شديد العقاب سبحانه جلَّ في علاه، شديد الأخذ، وقيل معناها شديد الكيد والمكر بالكائدين والماكرين. وهذه من الصفات هي صفات المقابلة، يأتي تفصيلها مع قول الله جلَّ في علاه: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [آل عمران:54].

الفوائد المستنبطة من الآيات:

من وصف الله نقصاً فقد كفر.

نسبة الشيء لآمره من لغة العرب ليس مجازاً هذه حقيقةً. قال: (سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا) وهنا المعنى أنه أمر الملائكة أن يكتبوا. كما قال: بنى عمرو بن العاص الفسطاط، يعني أمر بها. في قوله: (لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)، هذه معناها أنه من كان رأساً في الباطل، فمن تأسى به فعليه وزره ووزر من عمل به لقوله: (لَّقَدْ سَمِعَ) بصيغة الماضي.

الإيمان بالملائكة الحفظة، هم الذين يحفظون على الإنسان أفعاله، ولا يفارقونه كما قال بعض العلماء إلّا في حالتين: في حال قضاء الحاجة أو قضاء الوطر. ومع ذلك يكتبون ما يمر بقلبه، جعل الله لهم أمارات وعلامات، بل هم يعلمون فعل القلب. كما قال الله جلَّ في علاه: (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الانفطار:12]، والهمّ فعل القلب فيعلمونه. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، فقال للملائكة: من همّ بحسنة فعملها فاكتبوها له ومن همّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة). إذاً الهمّ هو فعل القلب قد يعلمونه ويكتبونه.

معية النصرة والتأييد هذه معية القرب من المؤمنين فقط.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثامن والعشرون: آيات صفة المكر والكيد والمحال لله تعالى

قال المصنف -رحمه الله تعالى- وهو ما زال يبيّن لنا صفات الأفعال الاختيارية لله جلَّ في علاه، وصفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، وكيف أهل السنة والجماعة يفعلون. قال: قال الله تعالى: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [آل عمران:54]، وقوله جلَّ وعلا: (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل:50]، وقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا) [الطارق:15-16].

هنا إخوتي الكرام انتقل المصنف إلى مسألةٍ أخرى في الصفات، وهي في صفاتٍ لها وجهان: وجه فيه كمال، ووجه فيه نقص. أو قل صفات لا تكون كمالاً إلّا في وجهٍ أو إلّا في حيزٍ، وهو المقابلة؛ يعني لا يصح على الإطلاق لأنها في الإطلاق نقص. فهنا إثباتٌ لأمرين:

◆ الأمر الأول هو دفع النقص وصفات النقص ونفي صفات النقص عن الله جلَّ في علاه، تعالى الله علواً كبيراً عن قول الظالمين.

◆ والثاني أنه وصف الله جلَّ في علاه بها عند المقابلة عندما تكون كمالاً، فذكر صفة المكر وذكر صفة الكيد، وأيضاً من ذلك الاستهزاء عندما قالوا (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) [البقرة:14]، قال: الله جلَّ وعلا: (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [البقرة:15].

فصفة المكر، هذه الصفات كمال من وجه نقصٌ من وجه؛ فعندما تكون كمالاً يتصف الله بها سبحانه جلَّ في علاه، له الكمال المطلق، وعندما تكون نقصاً ننفيها عن الله جلَّ في علاه. ولذلك لا يجوز اشتقاق الاسم منها، بل في الصفات التي هي كمال من كل وجه لا يجوز اشتقاق الاسم منها، ولأن الأسماء والصفات توقيفية.

فإذا قلنا بالتعبد لله جلَّ وعلا بمثل هذه الصفات؛ أولاً نثبتها لله حين أثبتها فقط، لِمَ هذا القيد؟ نثبتها حين أثبتها؟ يعني كأننا نقول ولا نثبتها إلّا إذا أثبتها، لِمَ هذا القيد؟ إذاً نقول نثبتها إلّا إذا أثبتها لأننا لا نعلم كمالها إلّا إذا أثبتها، ولأنه إذا أثبتها تم ذلك، إذًا أثبتها تيقنّا من أنها صارت كمالاً. فإثباتها حين تكون كمالاً، ونفيها حين تكون نقصاً، وإثباته لها دلالة على أنها كمال، هذا الأصل في هذا الباب.

فإذاً نقول بأننا نتعبد لله بهذه الصفات فنقول بأن نثبتها عندما تكون كمالاً، وكمالها عند المقابلة، فإذا أثبتها الله لنفسه علمنا أنها كانت كمالاً، فنثبتها لله جلَّ في علاه. فنثبت لله المكر مقابل مكر الماكرين، ونثبت لله الكيد مقابل كيد الكائدين. ولنا أن نقول المكر قد يكون ممدوحاً وقد يكون مذموماً، والكيد قد يكون ممدوحاً وقد يكون مذموماً، وكذلك الاستهزاء؛ فالمكر بالماكرين ممدوح وإطلاق المكر بالجميع مذموم، والكيد بالكائدين ممدوح وإطلاق الكيد على الجميع مذموم لأنه قد يكون كيداً للصلحاء للأبرار، وأيضاً نفس الأمر الاستهزاء.

إذاً نقول نصف الله به حين يكون ممدوحاً كمالاً وننفيه عن الله حين يكون مذموماً، إذاً جمعنا بين الأمرين: بين الإثبات والنفي؛ نثبتها حين تكون كمالاً ولأن الله جلَّ في علاه له الكمال المطلق، وأيضاً ننفيها حين تكون نقصاً. وحينما تكون كمالاً فهي في المقابلة؛ مقابلة مكر الماكرين من أهل الكفر والعصيان.

قال الله جلَّ في علاه: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [آل عمران:54]؛ مكر اليهود لعيسى -عليه السلام- وكادوا له ومكروا به، أرادوا صلبه وقتله فمكروا به بالوشاية، فمكر الله بهم، الذي وشى والذي أراد قتل عيسى وصلب عيسى ألقى الله الشبه عليه، فأصيبوا بالشك قالوا: أمّا الوجه فوجه عيسى وأمّا الجسد فجسد صاحبنا. فارتج

الأمر عليهم ولم يستطيعوا الفصل فيه، لذلك قال الله جلَّ وعلا: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء:157]، هم في شكٍ من أمرهم، مكر الله بهم فعاشوا في حيرةٍ لم يصلوا إلى ما أرادوا ويصبون إليه. وأيضاً كُتب عليهم أنهم قتلوا عيسى، وهم لم يقتلوه، كتب الله عليهم ذلك لمكرهم ولتخطيطهم بذلك ولعزم فعلهم على ذلك، لكن مكر الله بهم -كما قلنا- وأوقعهم في الحيرة.

فانظروا إلى مكر الله بمثل هؤلاء الماكرين، لمّا مكروا كيف وصل مكرهم، لكن لمّا مكر الله بهم ماذا حدث لهم؟ تخبط الأمر عندهم ولم يدروا هل هم قتلوه حقاً أم لا، (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا). لذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [آل عمران:54-55].

وقول الله جلَّ وعلا: (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل:50]؛ قوم صالح مكروا به وبأهله وأرادوا قتله، فقال الله جَّل في علاه: (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) [النمل:50-51]، وهذه أيضاً فيها استدراج من رب العالمين.

فالحق أن مكر الله بالعبد، وأن كيد الله بالعبد استدراج، واستدراج الله للعبد عظيم يأخذه من حيث لا يحتسب ويأتيه العقاب بغتة ويأتيه الموت بغتة. لذلك قال الله تعالى: (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) [الأعراف:99]، وقال الله جلَّ في علاه مبيناً مكره بالكافرين الفاسقين الفاجرين: (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف:182]. ولذلك جاءت في بعض الروايات التي رواها أحمد وغيره: (إذا رأيت الله يعطي العبد على المعاصي ما يحب فاعلم أن هذا من استدراج الله له)، ونعوذ بالله من ذلك.

وانظر كيف كان مكر الله بهؤلاء الماكرين؛ وقريش مكرت وكادت بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بتأليب الناس عليه وبتعذيب أصحابه، (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) [نوح:22] عندما اتفقت كلمتهم على قتله بالشبية الستة حتى يتوزع دمه على القبائل فلا يستطيع قومه الإتيان بدمه ويأخذون ويرتضون بالدية. فلمّا فعلوا ذلك مكر الله بهم، وأتى بهم ليلاً ووقفوا فخرج النبي من بين أيديهم سالماً وهو يقرأ: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) [يس:9]، فانظر كيف مكر الله بهم وكاد لكيدهم ورد كيدهم إلى نحورهم.

أيضاً في الأحزاب عندما أحاطوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه وكادوا كيداً كبيراً، اليهود ومن معهم من أهل الكفر، وأخفرت ذمة النبي اليهود وهم اجتمعوا على قتله واستباحة البيضة ووأد الدعوة. فانظر كيف مكر الله بهم وأتى لهم برجلٍ من أكفر

الناس، فجعل الله جلَّ في علاه الإيمان يمتلئ في قلبه حتى كاد لهم وجاءهم فكادهم، (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) [الأحزاب:25].

وأيضاً انظر إلى كيد الله ليوسف -عليه السلام-؛ مكروا به وألقوه في الجب (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) [يوسف:20]، فكاد الله ليوسف وكاد بهم حتى أوقعهم فأخذ أخاه معه، وأيضاً مكر بهم في العطايا حتى يأتوا بأخيهم حتى أتوا به وجعل الصواع في رحله كيداً لهم، فأخذ أخاه، حقٌ له استرده بهذا الكيد والمكر. فهذا مكرٌ ممدوح وكيدٌ ممدوح، نصف الله به، وأمّا إن كان على الإطلاق فهو مذموم، ننفيه عن الله جلَّ في علاه ولا يمكن أن نصف الله بالنقص. هكذا يكون قول شيخ الإسلام عندما بيّن وقال: بأن صفات الله الاختياري منها صنف: بأنه قد يكون كمالاً تارة ويكون نقصاً تارة، فإن كان كمالاً يتصف الله به وإن كان نقصاً ننفيه عن الله ولا يتصف الله به.

السؤال كيف نتعبد لله بمثل هذه الصفات العظيمة؟ التعبد لله جلَّ في علاه كما قلنا:

- حسن الاعتقاد بالإثبات.

- الأمر الآخر لا يميل القلب رجفةً وخوفاً وزلزلةً من مكر الأعداء ومن كيد الأعداء، وإن أتوا بمكرٍ تزول له الجبال فلا شيء، سيمكر الله بهم ويكيد الله بهم ويرد كيدهم إلى نحرهم، فيمتلئ القلب يقيناً وحسن ظن بالله جلَّ في علاه، فيعمل بذلك، فلا يتقاعس ولا ييأس ولا يقنط من رحمة الله جلَّ في علاه.

وهذا حسن التعبد لله بمعلومية وباعتقاد هذه الصفات، لأنه مهما بلغ كيد الأعداء ومهما كان مكر الأعداء فإن الله يمكر بهم، فإن الله يكيد لهم كما يكيدون بالمؤمنين. وهذا الذي كما قلنا يملأ قلب المؤمن يقيناً في الله وحسن ظن، وإن قال قائلهم: إن أعدائي قد امتلكوا كل الأسباب لهلاكي، ولكني أعلم أن هذه الأسباب التي وضعها الله في أيديهم فلا أسباب، وضعها ليستدرجهم ويخرج مكنون قلوبهم فيحاسبهم ويرد بعد ذلك كيدهم في نحرهم. (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [يس:82]، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف:21].

الفوائد المستنبطة من الآيات:

(**) قد تأتي وليست على بابها، كما قال في الجنة والنار: الجنة خيرٌ مستقراً ولا يمكن أن يكون للنار خيرية بحال من الأحوال. وهنا في قول الله: (وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) مكرهم ليس ممدوحاً وليس خيراً، بل مذموماً. والخيرية المطلقة لله جلَّ في علاه بأنه رد كيدهم إلى نحرهم

الفائدة الثانية إن الله لا يضيع أوليائه

الفائدة الثالثة حكمة الله في تمكين أهل الكفر في الدنيا، يكون هذا من باب الكيد لهم والاستدراج يحسبون أنهم ملكوا الدنيا بأسرها وأنهم يملكون كل شيء. أرأيت فرعون ذهب إلى موسى وهو ذاهبٌ إلى حتفه يقول: (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ* وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ) [الشعراء:54-56]، وأيضاً قال: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) [النازعات:24]. وقال الله عن الكافرين: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) [الأنعام:44].

نسأل الله جلَّ وعلا أن يُبصِّرنا طريقنا وأن يجعلنا ممن يتعلم ليتعبد وينشر ذلك بين الناس.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس التاسع والعشرون: آيات صفة العفو والمغفرة والرحمة

ننتقل إلى الوسطية وعقيدة أهل السنة والجماعة، وأراد المصنف -رحمه الله تعالى- أن يبيّن كيف أن أهل السنة والجماعة وسط عدول بين هؤلاء وبين هؤلاء؛ بين غلوٍ وبين جفو، وأيضاً يبين أنها على الجادة دون التحريف لما زعموا بأنه تأويل. وما زال يبيّن لنا صفات الله الاختيارية، بل والصفات الذاتية، ويبيّن لنا عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله جلَّ في علاه.

قال: قال الله تعالى: (إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) [النساء:149]، وقوله جلَّ في علاه: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النور:22]. ذكر هنا صفتين متلازمتين من صفات الله جلَّ في علاه:

- الصفة الأولى: صفة العفو.
- والصفة الثانية: صفة المغفرة والرحمة.

وهي من صفات الله جلَّ في علاه الثابتة له بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهي من الصفات الفعلية، فهي تتعلق بالسبب وتتعلق بالمشيئة، سبحانه جلَّ في علاه. والله يعفو عن أناس ولا يعفو عن آخرين.

لذلك قال الله تعالى: (إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) [النساء:149]، والعفو عدم المؤاخذة؛ فقوله (عَفُوًّا قَدِيرًا)، "عَفُوًّا" ذو العفو وهو ترك

المؤاخذة على ارتكاب الذنب. والعفو والمغفرة قد يتفقان ويفترقان، ولكن العفو أبلغ من المغفرة؛ إذ المغفرة ستر الذنب، أمّا العفو أبلغ من ذلك لأنه مع ترك المؤاخذة سترٌ وزيادة، فهو ترك المؤاخذة مع ارتكاب الذنب وهو أبلغ من المغفرة فإنها مشتقةٌ من الغفر والستر. والعفو إزالة الأثر، ومعناها محو الذنب وعدم المؤاخذة عليه.

إذاً من صفات الله جلَّ في علاه "العفو"، وهنا لا بد أن تفهم وتعقل وتفقه ما المناسبة أن الله جل في علاه جعل العفو وقرنه بالمقدرة حين قال الله جلَّ في علاه: (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)؛ فعفو الله جلَّ في علاه مع قدرته، ولأن الذي يعفو ولا يستطيع أن يأخذ فهذا خوار وجبن وليس عفواً، هذا ادعاء للعفو وليس عفواً صحيحاً. فيكون الأمر هنا على القدرة، هو عفا وهو قادرٌ قاهرٌ سبحانه جلَّ في علاه، له القوة والعزة والقدرة على إسقاط العذاب على من تعدّى ومع ذلك يعفو.

فالعفو عند المقدرة عفوٌ، والعفو عن عدم المقدرة خوار وجبن. لذلك قال الله جلَّ في علاه: (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) مع قدرته على الأخذ بالذنب، مع قدرته على إيقاع العذاب والعقاب، ومع ذلك يعفو من عظيم رحمته ومن جميل عطائه سبحانه جلَّ في علاه.

ولذلك قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النور:22]. هنا هو أتى بالآيات على إثبات العفو لله جلَّ في علاه، فما علاقة هذه الآية بالعفو لا سيما أنه قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)؟ فالسؤال: الآية تقول: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، فهل السياق يساعده على الاستدلال بالآية على هذه الصفة؟

قد قلت آنفاً العفو والمغفرة قد يتفقان، ويفترقان بأن العفو فوق المغفرة. لكن هنا لمّا بين الله جلَّ في علاه بأن الجزاء من جنس العمل وأتى هنا بالعفو، قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا)، ولأن الصفح أيضاً أرقى من العفو؛ لأن العفو هو الستر والتجاوز وإزالة الأثر، أمّا الصفح فالإعراض كليةً وهو مشتق من صفحة العنق، هو أن يعرض عن عقاب المذنب وعن المذنب وعن عتابه وعن تثريبه. والمعنى كأنه جاء لم يفعل شيئاً قط حتى لا يشار إليه بما فعل، كما قال يوسف عندما قالوا: (تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ) [يوسف:91]، ما قال أنتم أخطأتم فسيغفر الله لكم، لا، قال: (لَا تَثْرِيبَ) [يوسف:92]؛ أولاً صدّر الباب، هذا هو العفو الحق، هذا هو العفو المختلط بالصفح الذي لازمه المغفرة.

يجب أن تفهم هذه الثلاثة وتدقق النظر فيها: عفوٌ بصفحٍ يلزمه المغفرة؛

- فالعفو: هو إزالة الأثر عدم العقوبة.

- والصفح: هو الإعراض عن الذنب كليةً.

- والمغفرة: ستر كل شيء.

وهذا الذي أردته نظماً، لأنه لمّا ذكر العفو تصريحاً جاء هنا في الآية الأخرى، قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا). جميلٌ جداً العفو والصفح لأن هذا لازمه يكون المغفرة، وإن كان المغفرة الستر؛ قد يستر وقد يحدث فيها الملامة. حقاً تحدث فيها الملامة، لأنه كما قال ابن عمر في حديث المناجاة: (ما منكم من أحدٍ إلّا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فيقول: عبدي أذنبت ذنب كذا يوم كذا). ذكّره، والتذكير نفسه فيه تأنيب، لكن يقول: (عبدي سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك في الآخرة).

لذلك هنا نقول الأرقى من هذا عفوٌ وصفحٌ يلزمه مغفرة أو يعقبه مغفرة، معناه كأنه يرجع كيوم ولدته أمه. هو أتى والصحيفة فيها الذنوب والسيئات، فيعفو الله عنه ويصفح ويغفر، لذلك لازم أن يأتي بالثلاثة: العفو والصفح والمغفرة وكل ذلك مع قدرته؛ مع قدرته على إنزال العذاب به والعقاب.

لذلك قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)، فلفتة ذلك أنه يتضمن المغفرة تضمنت هنا العفو والصفح أو قل في الملازمة، لأنه لمّا ساقها في الآية كان السياق له هدف أو قل السياق فيه إرادة شيء، هو بيان لأن أرقى ما يكون عفوٌ وصفحٌ ملازمة المغفرة. فيكون هنا كما قلت إزالة الأثر، والصفح معناها: كأنه بصحيفةٍ بيضاء نقية ليس عليه ثمة شيء، والمغفرة: أن الله جلَّ وعلا لا يعاقبه، مع هذه كان الستر مع العفو والصفح.

فالمغفرة هنا: إمّا أن نقول إن المغفرة معناها العفو لأن السياق حاكم في هذا الباب وأراد الله بالسياق هذا، وإمّا أن نقول إنه أراد التضمن يعني صارت عفواً بمغفرة تتضمن العفو. وطبعاً تضمن العفو مع لزوم -كما قلنا- أو استلزام الصفح في هذا، لأنه لا يحاسب عليه بحال من الأحوال، وهذا لا يكون إلّا إذا قدّم المرء ذلك.

ولهذا أنت ترى بأن الله جلَّ في علاه استنهض الهمم بالثواب، قال الله تعالى: (إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ) [النساء:149]؛ (إن تُبْدُوا خَيْرًا) أي تظهروه، وإظهار الخير وإن كان فيه الخطر إن استحكم الأمر وكان الرجل رقيباً على قلبه وأصلح سريرته وأخلص لربه جلَّ في علاه هو أفضل من السر. لأن بالإظهار الاتساء، وبالإظهار فيها تحديث بنعم الله وشكر الله جلَّ في علاه، أي العبد يحدث بنعمة الله جل في علاه وبشكر الله جلَّ في علاه. فالإظهار فيه ما فيه من الحكم والفوائد، والإخفاء أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص لكن ليس فيه التأسي، وأيضاً لا يكون فيه شيء من

العجب الذي يصل بالإنسان إلى الكبر، ولكن على الأحق بأن الأظهر هو الأفضل عند الله جلَّ في علاه: (إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ).

هذا عجيب جداً!! هنا الأصل في العطف المغايرة (إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ)، كأنه جعل العفو عن السوء عدل فعل الخير، العفو عن السوء فعل خير، لكن هناك في فرق بين الإيجاب والسلب. ولذلك قال: (إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ)؛ أي تتجاوزوا عمّن أساء إليكم في أنفسكم، تجاوزوا عنه، فالعفو هو التجاوز وإزالة الأثر في هذا الباب. فهنا الله تعالى يستنهض الهمم لذلك، ولأن هذا من أفضل الخيرات وأصلح الصالحات.

قال الله جلَّ في علاه: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت:34]، فالأمر بالعفو هنا عن السوء فيه ما فيه من الحكم والفوائد العظيمة:

◆ أولاً تربية النفس حتى لا تنتقم لنفسها، بل تربي نفسك ألّا تنتقم إلّا لله، وهذا التأسي برسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما قالت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: ما انتصر النبي -صلى الله عليه وسلم- لنفسه قط إلّا أن تنتهك محارم الله.

◆ وفيها -وكان الأولى البداءة بها- أن يظهر أثر صفات الله عليك، فإن الله يعفو ويرزق، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما رأيت أحداً أصبر على أذى من الله، يسبونه يدعون له الولد ويرزقهم ويعافيهم). وإن الله يعفو عن عباده إذا أساءوا وتجاوزوا الحدود، فمن فعل ذلك من عباد الله جلَّ في علاه قد ظهر أثر الصفة عليه، وهذا يحبه الله جلَّ في علاه.

◆ ومن الفوائد فيها إصلاح ذات البين، وهو مقصد عظيم من مقاصد الشريعة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول تحلق الدين). لذلك قال: (أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)، قد يعفو المرء عن سوء بالجبن بالخوار بالضعف، ما عنده حيلة ما يستطيع يفعل شيئاً. لكن الله جلَّ وعلا بيّن بأن العفو الممدوح عنده هو العفو عند المقدرة، لذلك يظهر أثر صفات الله جلَّ في علاه.

وأمّا الآية الثانية: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)؛ باتفاق المفسرين نزلت هذه الآية في أبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه-، (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) [النور:22]. فهنيئاً لأبي بكر أن يخاطبه الله جلَّ وعلا بصيغة الجمع لرفعة قدر أبي بكر عند الله جلَّ في علاه، قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا)؛ يعفوا عن الذنب يتجاوز عنه، الصفح الإعراض كلية دون الملامة دون التثريب، وهذا

من أفضل أخلاقيات النبيل. من أعظم أخلاقيات النبيل أنه لا يثرب، حتى لو أساء من أساء ثم بعد الإساءة جاءه ليستعتب يفتح له الباب على مصراعيه ولا يثرب ولا يعاتب، فضلاً عن أن يعاقب، لذلك قال: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا).

كان مسطح بن أثاثة كان قد تكلم وخاض مع الخائضين من المنافقين في مسألة الإفك، وكان هو ابن خالة أبي بكرٍ، فكان ينفق عليه. قال: والله لا أنفق عليه، مما وقع في عرض عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-. انظروا وهو كان بدرياً، وكانت عائشة تتكلم عنه تدافع عن عرضه لأنه كان بدرياً. فكان أبو بكر قال ذلك، فأنزل الله على نبيه -صلى الله عليه وسلم- هذه الآيات: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ). والخطاب موجه لأبي بكر: (أَلَا تُحِبُّونَ) وهو يكلمه بصيغة الجمع، الله أكبر. فجاء السياق بصيغة الجمع: (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)، يعني يعفو عنكم ويصفح ويغفر، قال أبو بكر: أحب أن يغفر الله لي.

قال: (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)؛ أكّد -كما قلنا- بالاسمين، وكل اسمٍ انضم لاسمٍ كمال فوق كمال، وإن أسماء الله جلَّ في علاه أعلامٌ وأوصاف. قال: (وَاللَّهُ غَفُورٌ)؛ فعول، وال "فعول" هنا بصيغة المبالغة أي كثير المغفرة. لِمَ لا وقد وسعت رحمته كل شيء، أمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي).

في مسند أحمد: قال الرجل: (ربي أذنبت ذنباً فاغفر لي، فغفر له). وهو يعاود الذنب ويعاود الاستغفار ويعاود الله جلَّ وعلا المغفرة، قال: (عبدي افعل ما شئت واستغفرني فسأغفر لك). ورد في بعض الإسرائيليات وفي غيرها: أن الشيطان قال: أهلكت ابن آدم بالمعاصي فاهلكني بكثرة الاستغفار. اللهم إنا نستغفرك ونتوب، إليك اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك، اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك.

قال: (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)، فسارع أبو بكر وقال: بلى بلى، ثم رد النفقة عليه. قال: (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وكما بينا بأنه جمع الاسمين، والمناسب في هذا الباب تأديباً لنا بأن الإنسان إذا قام يدعو الله جلَّ في علاه أن يتأدب وأن يأتي ويتوسل بالأسماء المناسبة للمقام، قال: (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ).

الفوائد المستنبطة:

الجزاء من جنس العمل

إن الله خلق الخلق ليرحمهم مع قدرته عليهم، لا يعجل لهم بالعقوبة ويمهل. وإن الله جلَّ وعلا يأمر بالاستغفار ليغفر ويأمر بالتوبة ليتوب، وهنا قال: (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) مع قدرته فهو عفو سبحانه جلَّ في علاه.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثلاثون: آيات صفة العزة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقوله: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ) [المنافقون:8]، وقوله: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [ص:82]، وقوله: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن:78]، وقوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]، وقوله: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:4]، وقوله: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22].

هنا في قول الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) [المنافقون:8]؛ العزة: معناها الغلبة والقوة والقدرة، تأتي بمعاني العزة كما سيأتي. فالحق بأنه في قول الله جلَّ في علاه: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ) كانت رداً على المنافقين عندما قالوا: (لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) [المنافقون:8]، قال الله تعالى رداً على المنافقين: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [المنافقون:8]. فلله العزة والقوة والقهر والغلبة، وأن الله جلَّ في علاه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

وأنت تعلم بأن هذه القصة معلومة ومشهورة جداً عن عبد الله بن أبي بن سلول الذي قال بذلك، هو الذي تولى كبر هذه الكلمة. قال المنافق الأكبر عبد الله بن أبي بن سلول: (لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ)، فقال الله جلَّ في علاه -وهو الذي قد توكل في الرد-: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ). رجع عبد الله بن عبد الله بن أبي أبن سلول، فذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: بلغني أنك أهدرت دم أبي يا رسول الله، مرني فاقتله لك، لأنها قد علمت المدينة بأنني من أبر الناس بأبي فإن رأيت أحداً قتله أمامي قتلته وهلكت، فمرني فاقتله لك. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بل بر أباك). فلما سمع بقدوم أبيه رفع السيف وقال له: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو الأعز وأنت الأذل. انظر هنا كم العزة وكيف العزة، بأن الابن هو الذي رفع وأشهر السيف وهو أبر الناس بأبيه في وجه أبيه، وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله فإنه هو الأعز وأنت الأذل. فلمّا قال ذلك، أظهر الله العزة لرسوله وأيضاً للمؤمنين.

وترى العزة التي كانت في أهل الإيمان، عزةٌ زلزلت الجبال، عزةٌ هدهدت جميع من وقف أمام أهل الإسلام؛ فقد دخل ربعي بن عامر على رستم وهو بكل عزةٍ يمتلئ

ويقول بسيفه القصير ورمحه القصير على وسادته الوثيرة هكذا ويتعرج عليها أو قل يمر عليها ولا يعبأ بها، فقال له رستم: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ فقال ربعي: نحن عباد لله، ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. فانظر أخي الكريم كيف العزة التي كانت.

ولمآ ذهب المغير بن شعبة وجد العور، فقال له: إن أردتم بعض المال أتيناكم به وإن أردتم ثياباً ودنانير في كل عامٍ رددناكم إليه، ما أنتم إلّا كذا، وتكلم عن الأعراب. فقال له المغيرة: جئتكم والله بأناس أحب ما يكون إليهم الموت في سبيل الله وإنهم يزيلون الجبال عن مكانها، الكلام هنا هذا خطاب العزة. حتى قال عامل الروم: والذي نفسي بيده لو أراد هؤلاء القوم أن يزيلوا الجبال عن مكانها لأزالوه. وخالد لمّا بعث لعامل الروم قال: أيها الرجل، والذي نفسي بيده قد أتيتكم برجالٍ يحبون الموت كما تحبون أنتم الخمر.

لذلك الله جلَّ في علاه جعل العزة للإسلام وأهل الإسلام، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وفُضِّلت على الأنبياء بست) ثم ذكر: (ونصرت بالرعب مسيرة شهر). لا يسمع الكافر وأهل الكفر بقدوم الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأهل الإسلام إلّا امتلكهم الرعب والزلزلة والرجفة في القلوب، فسلّموا كل شيء.

لمّا دخل عمر بن الخطاب يستلم مفاتيح بيت المقدس، -والله جلَّ في علاه له في عباده شؤون، ما ندري ما نحن فيه، اللهم إنا نشكو إليك ما نحن فيه، اللهم إنا نشكو إليك ما نحن فيه، اللهم إنا نشكو إليك ما نحن فيه، الله المستعان-. حقاً هذه المسألة تحتاج إلى البحث عن الأهلية، النظر في الأهلية الحقة، هل من يستحق أن يؤهل أم لا؟ نسأل الله العفو والعافية، إن كان الانتصار للنفس فالله يمقت ذلك على العباد، وإن كان انتصار للرب ولدين الله جلَّ في علاه فإن دين الله لا بد رايته أن تكون مرفوعة، وأن الله جلَّ في علاه لمّا تكلم عن الكلمات قال الله جلَّ في علاه: (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) [التوبة:40]، هذا التأصيل العام.

الغرض المقصود عزةٌ، قال: (ونصرت بالرعب مسيرة شهر). لذلك قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)، وعزة المرء لا تعرف إلّا بطاعته وعمله لربه جلَّ في علاه. (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67]، وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: بلِّغوا عني ولو آية.

والحق بأن النفس تتمنى الكرامة، والكرامة منوطةٌ بالاستقامة، وطلب الله من العبد الاستقامة، وبالاستقامة تنجر الكرامة. لكن لا يمكن أن تكون الكرامة لأحدٍ إلّا إذا كان

على وفق ما جاء به الله جلَّ في علاه وجاء به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتحقيق الإيمان يكون به العزة: عزة الإيمان وعزة الإسلام.

والعزة هي صفة من صفات الله جلَّ في علاه، وهذا الذي أراده المصنف أن يبيّن لنا هذا الباب. العزة هي صفة من صفات الله جلَّ في علاه، (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) [فاطر:10]. والعزة هنا بمعنى القوة والغلبة والقهر والمنعة؛ عزّ فامتنع، عزّ جنابه سبحانه جلَّ في علاه فقهر، عزّ فغلب سبحانه جلَّ في علاه. فتأتي العزة وهي صفة من صفات الله جلَّ في علاه، وهي من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية الثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب وبالسنة وبإجماع أهل السنة.

أمّا بالكتاب فقد قال الله جلَّ في علاه: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ) صفة، لمّا قال: (وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) هذه العزة للمخلوق أو هذه العزة أثر فعل الله جلَّ في علاه -كما سياتي-. إبليس يعلم ذلك ووصف ربه بهذه الصفة العظيمة قال: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [ص:82]. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)، فأثبت العزة لله جلَّ في علاه، ولأنها مضافة.

إذاً العزة صفة من صفات الله الذاتية الأزلية الأبدية، ثابتة لله جلَّ في علاه، وهذه العزة تأتي بمعنى:

- القوة لقولهم: من عزيز.

- وتأتي بمعنى الغلبة والقهر، كما قال في الخصومة: (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) [ص:23]، غلبني له الحجة وقهرني في ذلك.

- وأيضاً تأتي بمعنى القوة كما قلنا.

إذاً هذه معاني ثلاثة للعزة، وهي ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

قال الله جلَّ في علاه: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الجاثية:37]. لا بد أن تعلم هنا أن اقتران الحكمة مع العزة هي كمال فوق كمال، القاعدة التي قعّدها ابن القيم في هذا الباب في المدارك أنه قال: الأسماء إذا اقترن اسمٌ باسمٍ فهذا كمالٌ فوق كمال. ففي قوله: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)؛ اسمان عظيمان جليلان للرب جلَّ في علاه، اقترن الاسم الأول بالاسم الثاني (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). فهنا نرى أن هناك لفتة مهمة جداً عظيمة لاقتران الحكمة بالعزة، ما هي؟

قلنا بأن الفوائد في هذا الباب بأن هذا كمالٌ فوق كمال: عزةٌ وحكمة، (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) سبحانه جلَّ في علاه. لكن أقول وألفت الانتباه ما الفائدة العظيمة التي نعلمها

عند اقتران العزة بالحكمة، وفي غير ما موضع قد اقترنت العزة بالحكمة كما اقترن العلم بالحكمة؟ قلنا انظروا إلى معاني العزة؛ هو عزّ فامتنع سبحانه جلَّ في علاه، عزَّ فقهر فغلب، عزَّ فامتلك سبحانه جلَّ في علاه.

نقول إذاً الحكمة لا بد أن تقترن بالعزة، لأنه قهر وغلب بحكمةٍ سبحانه جلَّ في علاه، لمّا قهر، لمّا غلب كان بحكمة، ولأن الحجة لا تقام إلّا بحكمة، ولأن القهر لا يكون إلّا بحكمة أيضاً، الأمر ليس تشهياً -حاشا لله جلَّ في علاه-. وأيضاً امتلاك القوة، فالقوة إن لم يكن بها حكمة كيف يكون في البشر؟ التهور ووضع الشيء بغير موضعه، فلا بد من حكمة؛ عزّ فامتنع والامتناع بحكمة.

فلذلك قلنا بأنه لا بد أن ترى الفائدة العظيمة في اقتران الحكمة مع العزة؛ عزّ فامتنع أن يضروه، عزّ فامتنع أن يصلوا بأفكارهم وأذهانهم إلى كنهه هو أو كنه صفات الله جلَّ في علاه، عزّ فامتنع سبحانه جلَّ في علاه. ولذلك قال: (لا تتفكروا بذات الله وتفكروا في خلق الله)؛ في نعائم الله وفي خلق الله، لن تصلوا بفكركم إلى الله جلَّ في علاه ولا بصفة من صفات الله أنتم لا تستطيعون الوصول إلى صفة من صفات المخلوق.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل: (له ستمئة جناح كل جناح يسد الأفق)، صف لنا جناحاً واحداً؟ لن تجد ولن تستطيع ولن تصل، فكيف بصفات الله جلَّ في علاه؟ عزّ فامتنع، وعزّ أيضاً أن يبلغه ضركم، قال الله جلَّ في علاه: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني). فعزّ فامتنع، وهو الغني سبحانه وله الكمال المطلق في الغنى وفي القوة وفي القهر وفي القدرة سبحانه جلَّ في علاه.

فالعزيز يتضمن كمال القدرة والقوة والقهر والغلبة، ولذلك الله جلَّ وعلا عزَّ فأقام الحجة، (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]، وقال الله جلَّ في علاه: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف:5]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:15].

والعزة تستلزم الوحدانية، لكن الكلام والسؤال هنا لا بد أن يطرح: كيف تستلزم العزة الوحدانية؟ العزة لا تكون إلّا بالغلبة، والغلبة معناها الانفراد، لذلك قلنا بدليل التمانع يدل جداً على العزة. هنا قال: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22]، لأننا لو قلنا للكون إلهان فإنهما لهما أحوال، لا بد أن يذهب الأول للآخر، الانفراد واجب في العزة هنا في هذا الباب. قال: (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) [الإسراء:42] فلا بد، وإذا قلنا بأنه لابد أن يبتغي إلى ذي العرش سبيلا، فإمّا أن يكون هناك غالب ومغلوب أو لا غالب ولا مغلوب.

لو قلنا هناك "غالب ومغلوب" فالغالب هو العزيز والمغلوب لا يكون كذلك لا يستحق أن يكون رباً، ولو قلنا "لا غالب ولا مغلوب" لفسد الكون. فلمّا استقام الكون علمنا أن الانفراد موجود، فإذاً العزة تستلزم الانفراد.

التشريك لا يكون فيه كمال العزة، والله له كمال القوة والقهر والغلبة والعزة، الله له الكمالات في العزة. فلذلك العزة تستلزم الانفراد، إذاً فالعزة تستلزم التوحيد لأن بالشراكة تقل العزة، والكمال المطلق في العزة لله جلَّ في علاه. وكما قلنا: عزّ فامتنع، عزّ فقهر، عزّ فغلب سبحانه جلَّ في علاه، (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وأنت ترى بأن الله جلَّ في علاه عزّ فأقام الحجة، قال: (لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) [الأنعام:19]، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بعزة الله وقدرته) وأيضاً في الحديث عندما قال: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18]، قال: (أعوذ بعظمتك) أو قال: (بعزتك).

الغرض المقصود بأن العزة لله جلَّ في علاه صفة من صفات الله جلَّ في علاه، غير مخلوقة، ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. فإن قلنا بأنها ثابتة، إذاً كيف نتعبد لله بها؟ كيف نتعبد لله بهذه العزة؟

- قلنا أصل التعبد بصفات الله جلَّ في علاه حسن الاعتقاد بالإثبات، هذا من أصل التعبد، أنا أتعبد لله بإثبات هذه الصفة لله جلَّ في علاه، ففي الرد على أهل البدع والضلالات كما سنبين. إذاً أصل بصفة الله بصفة العزة حسن الاعتقاد بتمام الإثبات لله جلَّ في علاه.

- الأمر الثاني هو التوسل بها، التوسل بهذه الصفة. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (وأعوذ بعزة الله وقدرته)، توسل بها. وهذا التوسل بصفة من صفات الله مشروع، ولأن التوسل يكون بذات الله المقدسة بأسماء الله الحسنى بصفاته العلا، التوسل بصفة من صفات الله. قال: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر-سبع مرات-)، فتوسل بالصفة. فهذا معيار التعبد أيضاً أن يتوسل بصفة من صفات الله جلَّ في علاه.

- الثالثة وهي أيضاً منطلق التعبد لله جلَّ في علاه، أن يرى الله أثر هذه الصفة عليه، كيف ذلك؟ أن يعيش عزيزاً بإسلامه، عزيزاً بكتاب الله، عزيزاً بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإن العزة كتبها الله لمن ءامن به، وكلّما كان المرء أرقى طاعةً كلّما كان أعلى عزةً، وكلما كان المرء أذل لله وأعظم انقياداً لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- كان أرفع عزةً، ولذلك تراه يمشي في الأرض متواضعاً وهو أعظم الناس عزاً وأعظم

الناس رفعة وأعظم الناس مكانة، لأنه ذل لله وتواضع لله وانقاد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكتب الله له العزة.

كما قال الله: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)، أعزّه الله بطاعته، أعزّه الله جلَّ في علاه بتمسكه بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فيكون الأمر هنا من باب التمسك بالسنة ومن باب الذل لله والتواضع لله جلَّ في علاه أعظم ما ينال به المرء عزةً، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاث أقسم عليهن)، قال: (ما تواضع عبدٌ لله قط إلّا رفعه الله جلَّ في علاه). ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وأشار بيده: (من تواضع لله هكذا رفعه الله هكذا).

فالتواضع لله جلَّ في علاه عز أيما عز، لأن فيه الطاعة والعبادة لله جلَّ في علاه. لذلك قال: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)، فما كانت العزة لرسوله إلّا بتمسكه بالوحيين، ولذلك عز المؤمنين في تمسكهم بالوحيين. قال الله جلَّ وعلا: (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) [الأنبياء:10]؛ عزكم شرفكم سيادتكم قيادتكم تقدمكم، هذا أصله في الكتاب والسنة. فكلّما كان المرء أمسك لكتاب الله وسنة النبي، كان أعز وكان أرفع.

فإذاً العبد يتعبد لله بهذه الصفة، إن الله يحب أن يرى على المرء المسلم أثر هذه العبادة عليه. فكلّما كان المرء ذليلاً لأهل الكفر لأهل الضلال لأهل الفسق والفجور، كلّما كان ذليلاً كلّما كان محتقراً عند ربه جلَّ في علاه، وكلّما نزع الله العزة من قلبه في ذلك. وكلّما كان ذليلاً لله منقاداً لأوامر الله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، كلما كان عزيزاً عند ربه جلَّ في علاه.

قال: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [ص:82]؛ أضاف العزة لله، والإضافة هنا إضافة صفة للموصوف، قال: (فَبِعِزَّتِكَ) فأضاف العزة لله جلَّ في علاه: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، وهذا قسم إبليس. إبليس صدق عندما أقسم، إبليس يفقه أكثر من الضلال من المعتزلة ومن القدرية والجبرية، إبليس يعقل ويفقه بأن لله صفات كمال وجلال وعزة وعظمة. قال: (فَبِعِزَّتِكَ) أقسم وقد حقق قسمه في هذا الباب إبليس بر بطاعة الآن، قال: (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) وقد فعل، نسأل الله أن يعصمنا جميعاً من غوايته.

قال: (فَبِعِزَّتِكَ) فأقسم بصفة من صفات الله، والاتفاق على أنه يجوز القسم بذات الله المقدسة وبأسماء الله الحسنى وبصفاته العلى:

- بالذات المقدسة: قال الله تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) [الحجر:92]، (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) [النساء:65].

- وأيضاً القسم بالصفات والأسماء، قال: (والله)، وأيضاً في قوله: (والذي نفسي بيده).

- وأيضاً القسم بالصفات كما قال: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).

فيجوز القسم: بالذات المقدسة، وبأسماء الله الحسنى، وبصفاته العلا. ولا يجوز القسم بأحدٍ غير الله جلَّ في علاه، وهنا خلاف قد ورد على القسم بالصفات الخبرية، وهذه تحتاج إلى تحقيق. لكن هنا قال: (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، فحلف بعزة الله جلَّ في علاه؛ ففيها دلالة على جواز القسم بعزة الله جلَّ في علاه، وفيها دلالة أيضاً على أن العزة غير مخلوقة لأنه لا يجوز القسم بمخلوق بحال من الأحوال.

وإثبات العزة فيه ردٌ على أهل البدعة والضلالة؛ أمّا أهل الكفر والضلال أهل البدعة والضلالة، أهل الهوى الذين يثبتون الأسماء بلا صفات، يقولون: عزيزٌ بلا عزة، عليم بلا علم. نعوذ بالله من الخذلان، فهؤلاء على ضلالٍ مبين وقد خالفوا الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. وأمّا الأشاعرة لم يثبتوها أيضاً، فما زالوا يتيهون ويتخبطون في الضلال مع المعتزلة وأيضاً مع هؤلاء الجهمية الذين ينفون الأسماء والصفات. وأمّا المعتزلة فأوّلوها بالإرادة، وهذا من باب الضلال، فيها مخالفة للكتاب وللسنة ولإجماع أهل السنة.

والحق بأن العزة ثابتة لله جلَّ وعلا بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يكون عزيزاً بالله وبدين الله وبكتاب الله وبسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، عزيزاً وأن يكون بالمحبة بين إخوانه عملاً لدين الله جلَّ في علاه. فالعزة لا تتأتى إلّا بذلك، وكلّما تشرذمنا تفرقنا فإنها تكون الذلة، إلّا إن كان التفرق على حق، وإلّا كما قال علماؤنا: كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة.

الفوائد المستنبطة في قول: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ):

- مدار العزة على التمسك بالكتاب والسنة.

- العزة جميعاً لله، ولذلك الله رد على المنافقين قال: (أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [النساء:139]. فالمنافقون من علاماتهم ومن أدق علاماتهم يبتغون العزة عند غير المؤمنين، يبتغون العزة عند غير المنقادين لله ولرسوله. اللهم اجعلنا جميعاً أعزاء بدينك يا رب العالمين

- الفائدة الثالثة: جواز القسم بصفات الله جلَّ في علاه.

- الفائدة الرابعة: لا عزيز إلّا من أعزه الله. أبو جهل كان من أعز الناس في مكة، وأذله الله ولقبه بلقبٍ إلى أن مات كان يهان به "بأبي جهل".

- الفائدة الخامسة: عزة المرء بنصرة دينه.

العقيدة الواسطية

الدرس الحادي والثلاثون:

- إثبات الاسم لله تعالى

- آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه (1)

ما زال المصنف -رحمه الله تعالى- في الوصف يجلّي لنا اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفات الله جلَّ في علاه، سواء في الصفات الذاتية أو الصفات الاختيارية، وهذه كالعلامة الفارقة أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والضلالة.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه وللحاضرين والمستمعين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقوله: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن:78]، وقوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]، وقوله: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:4]، وقوله: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22]، وقوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) [البقرة:165]، وقوله: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111].

هنا يقول: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن:78]، إثبات الاسم لله جلَّ في علاه موازاةً مع الكلام على صفات الله جلَّ في علاه، تكلم وأثبت أكثر من صفة لله جلَّ في علاه، مع الذات الاسمية، فالاسم لله جلَّ في علاه لا بد أن نقف عنده. فإن الإسمية "اسم الله جلَّ في علاه" من الأبواب التوقيفية، التي لا يصح بحال من الأحوال التقدم بين يديها إلّا بدليلٍ مسموعٍ من الكتاب أو من السنة، فلا يجوز لأحدٍ كائناً من كان أن يسمّي الله جلَّ في علاه باسمٍ إلّا بما سمّى الله به نفسه، أو سمّاه رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فإن الله جلَّ في علاه قال: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف:180]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إني أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في بعض كتبك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك).

فأسماء الله توقيفية، وخطأٌ بيّن لمن يقول بمسألة الاشتقاق في الأسماء. وقد بيّنت قبل ذلك بأن كل ما تعلق به من قال بالاشتقاق في أسماء جلَّ في علاه، كلها لا دلالة فيها بحال من الأحوال. يعني هم تمسكوا بما ورد عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه كان

إذا طاف بين الصفا والمروة عند الميلين الأخضرين يسرع ويقول: اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم فإنك أنت الأعز الأكرم. هذا الرد فيه من وجهين:

- الوجه الأول: أن يكون هذا من باب الإخبار عن الله جلَّ في علاه، فيصح الإخبار عن الله جلَّ في علاه بهذا، هو الأعز الأكرم.

- الوجه الثاني: وأيضاً قد يكون هذا الاسم قد استقاه من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون له حكم الرفع.

ما دمنا قلنا بأن الأسماء توقيفية، فابن مسعود لن يتقدّم بين يدي الله، لا سيما وأن الله قد قال: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]. فابن مسعود قد علم ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأطلق الاسمين على ربه بما أطلق به النبي. والأوجه من ذلك أن يكون هذا من باب الإخبار عن الله جلَّ في علاه؛ فالعزة لله وإن الله جلَّ في علاه له العزة المطلقة وله الكرم المطلق، من صفات الله جلَّ في علاه، فأخبر عن الله بصفة من صفاته.

وأما الكلام على أن الشافعي يقول: الجاعل في الأرض؛ وهذا خبر واضح جداً يخبر عن الله جلَّ في علاه، وأيضاً في قول أحمد: يا غيّاث المستغيثين؛ كلها بأنه يصح التوسل بالخبر إن ارتقى في الكمال إلى الصفات، فنخبر عن الله به وأيضاً يدعى به، هذا أصل أصيل في هذه المسألة بالنسبة للاسم.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)، وهنا قال: (تَبَارَكَ)؛ هذه صفة خاصة بالله جلَّ في علاه، من الصفات التي لا تطلق إلّا على الله. و"تبارك" من البركة، والبركة قسمان:

١- بركةٌ هي فعل الله جلَّ في علاه، فمن فعل الله أن الله جلَّ وعلا يُبرِّك الطعام الشراب الرزق، والرزق يكون مباركاً. أو يُبرِّك على عبدٍ يجعله مباركاً كما قال عيسى -عليه السلام- وأيضاً يحيى: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) [مريم:31].

هذه البركة من فعل الله جلَّ في علاه، يجعل الله البركة في الطعام أو في الشراب أو في الإنسان. قد جعل الله البركة في الأنبياء، فكل الأنبياء على البركة، وبركة الأنبياء تظهر في أثر الأنبياء بهداية الخلق أجمعين، فكانت هذه من البركة. وأيضاً بركةٌ في الطعام، بركةٌ في الشراب، بركةٌ في المال؛ فإن الله جلَّ وعلا قد جعل البركة في العسل "عسل النحل"، قال: (يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ) [النحل:69].

وأيضاً بركة في ماء زمزم، فماء زمزم ماءٌ مبارك، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ماء زمزم لما شُرِب له، هو طعام طُعمٍ وشفاء سقم، فقد جعل فيه البركة. أيضاً

(شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ) [النور:35]؛ "شجرة الزيتون" جعل فيها البركة، وجعل في اللبن البركة، وجعل البركة وسط الطعام. وهذه البركة مخلوقة.

٢- وبركة تضاف إلى الله جلَّ في علاه إضافة الصفة للموصوف، التي هي تقال فيها: (تَبَارَكَ)، وهي خاصة بالله. فـ(تَبَارَكَ) صفة خاصة بالله جل في علاه، وهذه البركة هي البركة المضافة إلى الله جلَّ في علاه، كإضافة العزة والرحمة والقدرة والقوة والعلم، يعني إضافة صفة للموصوف.

ولذلك ترى المخلوقات يجعل الله فيما يشاء فيها من البركة مما يفعل سبحانه جلَّ في علاه. إذاً بركة هي من فعله وترى أثرها، وبركة تضاف إليه إضافة الصفة. لكن إذا قلنا "من فعله": يبارك الله على قارئ القرآن، يبارك الله على من يُعلِّم الناس الخير، يبارك الله على المتصدقين، فهذه من فعل الله جلَّ في علاه. إذاً (تَبَارَكَ) صفة ذات، والله من فعله يبارك عباده جلَّ في علاه، والعبد يكون مباركاً كما قال: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ).

قال: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)؛ "تبارك اسم ربك أنت"، فهنا المضاف إليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه إضافة تشريف. هذه الإضافة إضافة تشريف، هو ليس رب النبي فقط، هو رب جميع الخلق. وهنا لمّا يضيف إليه (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ) والمخاطب هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأضافه لنبينا -صلى الله عليه وسلم- إضافة تشريف، فهو رب كل شيء: رب النبي، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، ورب محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-. وقلنا الإضافة إضافتان: إضافة معنى، وإضافة عين مستقلة بذاتها.

- إضافة المعاني: إضافة ذات، صفة للموصوف.

- أمّا إضافة الأعيان: إضافة مخلوق للخالق، وزيادة في ذلك أن الإضافة للتشريف لأن الله رب العالمين سبحانه جلَّ في علاه.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)؛ فهي صفة من صفات الله جلَّ في علاه، عائدة على الرب. فمن صفاته "ذي الجلال والإكرام"؛ وإن الله جلَّ وعلا يكرِم عباده سبحانه جلَّ في علاه؛ يكرِمهم بالطاعات، يكرِمهم بقبول الصالحات، يكرِمهم بالجنات. والله جلَّ وعلا له الأنوار، وإن الله جلَّ في علاه قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حجابه النور)، وأيضاً (سبحات وجهه (أنوار وجهه)، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

والمصنف أيضاً يستدل على صفات الله جلَّ في علاه، لكنه -سبحان الله- نراه هنا الآن عندما يستدل أيضاً يوضّح ويبيّن بأن التلازم بين أقسام التوحيد تلازم وطيد. ما زال يبيّن ويغربل العلامات الفارقة بين أهل السنة وبين المبتدعة "الفرق الضالة"، ومع

ذلك يبيّن أنه عندما افترقت العلامات في الربوبية والأسماء والصفات، كان الفرق مؤثراً في الإلهيات. ولذلك أنت ترى الأشاعرة لمّا ضلوا في باب الصفات ضلوا في باب الإلهيات؛ لذلك ترى عندهم في السعة التوسل وأيضاً الكلام على أن الشرك هذا لا يقع في هذه الأمة اعتقاداً وأن الأمة معصومة من الشرك، كل ذلك بسبب الضلالات التي وقعوا فيها في مسألة الأسماء والصفات.

فهنا قال: قال تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]؛ هنا أتاك بأمرين:

- الأمر الأول: قال بالإقرار على الربوبية؛ وعلامة الأمر أنك تقر بالربوبية، إذاً لا تصرف عبادة لغيره.

- الأمر الثاني: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)، لِمَ؟ لأنه لا سمي له ولا ند لها ولا مثيل له ولا شبيه له، لذلك قال: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ)؛ الأصل هنا أن المقصود الأسمى في هذا الباب هي العبادة، فتوحيد الإلهية هو المقصود الأسمى، لذلك صدّر الباب بها الله جلَّ في علاه. قال: (فَاعْبُدْهُ) وحده لا شريك له، قال: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا).

والعبادة كما عرّفها علماؤنا، وصاحب الوسطية قد عرّفها أتم التعريف وبيّنها أتم البيان حين قال -رحمة الله عليه-: العبادة اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. قال: (فَاعْبُدْهُ) فاعبده وحده لا شريك له، ولذلك قال: (وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) يعني لعبادته وحده فإنه لا يرضى بالشرك سبحانه جلَّ في علاه. وقد قال الله تعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه). وقال الله جلَّ في علاه: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) [الزمر:2].

إذاً العبادة عند الله جلَّ في علاه لا ترى لها قبولاً إلّا إذا توفرت فيها الشروط: شرط الإخلاص، وشرط المتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. لأن الله قال: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر:65]، قال الله جلَّ في علاه عن الأنبياء جميعاً: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام:88].

والشرط الثاني هو متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، وقال الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) [محمد:33]، وقال -

صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى) قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى).

فمن أتى بالعبادة على أتم وجه من إخلاصٍ ومتابعةٍ للنبي -صلى الله عليه وسلم- قُبِلت العبادة، وكان عابداً لله وحده لا شريك له. ومن انخرم عنده شرط من الشروط فإنه لا تُقبل عبادته، كأن تعبد رياءً وسمعة وجاهة الدنيا، كأن وقع في الشرك الأصغر أو الشرك الأكبر، لا تقبل العبادة. وإن صحت النية ولم تصح المتابعة لا تقبل العبادة، لأن الله أغلق كل باب إلّا باب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)؛ في قوله: (وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) فيها دلالة واضحة جداً على أن الخير عادة، وعلى أن الإنسان لا بد أن يعتاد عمل الطاعة، سيجد المشقة في أول الطريق اختباراً وابتلاءً من الله جلَّ في علاه، ثم تراها بعد ذلك ألفتها النفس فصارت منسجمة معها ملتصقة بها مرافقة لها، يجد المرء النقص في نفسه إن تركها.

لذلك القول في هذا الباب قولٌ فصل: بأن الإنسان كلّما ثابر على عبادةٍ قبلها الله منه وكان علامة القبول زاده من جنسها درجات، زاده من جنسها عبادات. فمن سأل نفسه وأراد أن يختبر نفسه هل هو على القبول أم لا؟ ينظر في عمله، إن وجد فيه البركة وأنه يتزايد وفي كل يومٍ الله جلَّ وعلا يعلو به درجات، فليعلم أنه قد قُبِل عند رب الأرض والسماوات. وإلّا فليراجع نفسه فيما يفعل.

قال: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)، سبحان ربي العظيم، يعني مثيلاً مشابهاً مسامياً نداً لله جلَّ في علاه؟ حاشاه سبحانه جلَّ في علاه. وهذا استفهام بمعنى إنكار معلوم، بمعنى النفي المعلوم بالعقل. يعني أنت تعلم والجميع يعلم، حتى الكفرة من كفرة مكة يعلمون بأنه لا مُسامٍ لله جلَّ في علاه، لا سميّاً ولا شبيهاً ولا مثيلاً ولا نداً لله جلَّ في علاه. حتى الكفرة الفجرة المانوية الذين يقولون بأن للظلمة خالق وللنور خالق، أيضاً كذبوا في ذلك، ومع كذبهم في ذلك هم يقولون بأن خالق النور أفضل من خالق الظلمة. أرأيت؟ يعني عدم المساواة أيضاً.

فالحق في هذا الباب أنه لا ند لله، لا شبيه له، لا مثيل له سبحانه جلَّ في علاه، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]. هنا عندما يقول جلَّ في علاه: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) هذا إنكار، وهذا الإنكار من الله جلَّ علاه بيان على نفي النقص عن الله جلَّ في علاه. فكأنك تقول: وقد نفى الله عن نفسه أن يكون له سميّ؛ سميّ في الأسماء، سميّ في الصفات، سميّ في الربوبية، سميّ في الإلهية، ليس له ند ولا شبيه ولا مثيل سبحانه جلَّ في علاه. وكما هي عادة القرآن في مسألة الصفات المنفية أن تكون على الإجمال ليس على التفصيل، وهذا الأدب؛ عندما تنفي عن الله جلَّ في علاه تنفي إجمالاً لا تفصيلاً،

إلّا إذا كان في محل المناظرة فيصح التفصيل في النفي. لكن الأصل الإجمال هو الأدب عند النفي، والتفصيل عند الإثبات. لذلك ثنّى بقوله تعالى: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:4]، لا أحد يكافئه سبحانه جلَّ في علاه، لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في ربوبيته ولا في إلاهيته:

- فإذاً الشرط الأول عندما نرى من الآداب: الإجمال عند النفي، (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)؛ لا كفؤ له ولا سميّ له. هذا الأدب عندما تنفي تنفي بالإجمال بشرط وقيد: أن يكون هذا خلال مناظرة، لو في المناظرة قلنا يجدر بنا التفصيل للمناظرة، وهذا الأدب الأول الذي علمنا إيّاه علماؤنا في اعتقاد أهل السنة والجماعة عند النفي عن الله جلّ في علاه.

- والأدب الثاني: إن وصفت ربك بالنفي فالنفي المحض ليس كمالاً، وأنت تعلم بأن الله إذا اتصف اتصف بالكمال، فله كل الكمال، الكمال المطلق والعظمة المطلقة والجلال والبهاء المطلق. فعندما تنفي إجمالاً لا بد لزاماً أن تثبت الضد، وفي كل الآيات التي ذكرت نفياً لن تجد إلّا كمال الضد، إمّا سابق وإمّا لاحق. في سورة ق، قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) [ق:38-42]، ذكر لوازم الربوبية بأسرها بعدها: على البعث والنشور والقدرة على ذلك. فهذه فيها دلالة واضحة جداً على أنه عند النفي لا بد من إثبات كمال الضد.

قال الله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255]، لمّا قال: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) نفي، لكن النفي هذا كان معه كمال الضد، يعني تقول لِمَ لا تأخذه سنةٌ ولا نوم؟ لكمال حياته وقيوميته، (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).

وفي قوله: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22]، بعدما أثبت الوحدانية لله جلَّ في علاه وأثبت الكمال المطلق لله بصفاته، أتى بالآية على حرمة اتخاذ الأنداد لله جلَّ في علاه. نقف هنا عند قول الله جلَّ في علاه: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22]، لنفصّلها إن شاء الله في الدرس القادم. لأنه بعدما أثبت صفات الكمال لله جلَّ في علاه وقف فقال: إذاً يلزمكم وجوباً عدم جعل الأنداد لله جلَّ في علاه.

سؤال: هل يصح أن نقول إن تعريف توحيد الربوبية إفراد الله بأفعاله ليس تعريف شامل؟ وأن التعريف الأفضل هو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير لأنها تدل على الصفات المتعدية؟

الإجابة: أنا أوافق على هذا الكلام أولاً، لكن قد أقول لا فارق بعيد بحال من الأحوال، لأنه لو قلت أن تعريف الربوبية: إفراد الله بأفعاله، قد لا تبعد كثيراً بالخلق والملك

والتدبير. ما الذي يكون فيها فارق حتى يكون التعريف الثاني هو الجامع المانع؟ هو أنني لا أجعل الربوبية في الصفات المتعدية فقط، لا بد أن تشمل الصفات المتعدية والصفات الفعلية، ويكون بذلك شملها.

سؤال: بعض الناس يسمون بناتهم تبارك. هل يصح؟

الإجابة: لا ما يصح، ولا بد من تغييره وجوباً.

العقيدة الواسطية

الدرس الثاني والثلاثون: آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه (2)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه والحاضرين والمستمعين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقول الله تعالى: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22]، وقوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) [البقرة:165]، وقوله: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]. وقوله: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التغابن:1]، وقوله: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان:1-2]، وقوله: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون:91-92].

ما زال المصنف -رحمه الله تعالى- يبيّن لنا الكلام على المسألة المهمة، وهي مسألة نفي صفات النقص عن الله جلَّ في علاه، وانظروا إلى اعتقاد السلف بأنهم يصفون الله بالكمال وأنهم ينفون عن الله جلَّ في علاه صفات النقص. وقد بيّنت قبل ذلك السبيل إلى ذلك بأن الأصول عند اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفات النفي: ينفون عن الله جلَّ في علاه صفات النقص، والنفي المحض ليس كمالاً، فينفون هذه الصفات مع إثبات كمال الضد، وأيضاً عند النفي يكون الإجمال لا التفصيل. وهذا أدبٌ بيّنه لنا السلف الصالح، فهماً من القرآن والسنة. قال الله جلَّ في علاه: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [البقرة:255]، (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)، لِمَ؟ لكمال حياته

وقيوميته. قال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه)، لأن الله حيٌ قيوم فلا تأخذه سنةٌ ولا نوم.

لذلك هنا يقول الله جلَّ في علاه -مبيّناً بأن صفات الكمال تتقدم لنفي صفات النقص، ولأن النفي المحض لا كمال فيه-: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة:22]؛ والند هو النظير والمثيل، وقد قال الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]، وقال: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:4]. فيقول الله جلَّ في علاه: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً)؛ نظراء -استغفر الله- تعبدونهم كعبادتكم لربكم الواحد القهار، (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أنهم ليسوا بنظراء وليسوا بأنداد، وأن الله سبحانه جلَّ في علاه واحدة لا شريك له، لا ند له، لا مثيل له، لا سميّ له، لا شبيه له.

وإن هذا هو من أعظم الذنب وأظلم الظلم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل عن أعظم الذنب: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك). وما دام بأن الله جلَّ في علاه قد خلق ورزق، وأعطى ومنع، وأحيا وأمات هو الذي يفرد بالعبادة. (إني والجن والإنس في نبأٍ عظيم، أخلق ويُعبَد غيري، أرزق ويُشكَر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرُّهم إليّ صاعد، أتحبب بالنعائم ويتبغضون إليّ بالمعاصي، وأنا أكلأهم على فروشهم). والشرك ظلمٌ عظيم، قال الله جلَّ في علاه عن الحكيم عندما قال لابنه، قال: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13].

ولتبيّن إنصاف القرآن، الحق بأن الله جلَّ في علاه بيّن أنهم جعلوا لله أنداداً في الإلهية لا في الربوبية، لذلك قال: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً)؛ يعني إليهم العبادة من دون الله جلَّ في علاه، فلا أحد يستحق أن يفرد بالعبادة إلّا الله جلَّ في علاه، وأنتم تصرفون العبادة لآلهةٍ باطلة، فلذلك قال الله جلَّ في علاه: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً). هم ماذا يقولون عندما صرفوا العباد لغير الله جلَّ في علاه؟ قالوا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) [الزمر:3]، فهم هم يستيقنون بأنه لا رب إلّا الله، ولا خالق إلّا الله، ولا رازق إلّا الله. لذلك هم لم يجعلوهم أنداداً في الخلق والرزق والتدبير، بل جعلوهم أنداداً في الإلهية كما سنبين.

فأهل الكفر قد أقرّوا بربوبية الله جلَّ في علاه، وأن الله الخالق الرازق، (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزمر:38]، وفي الآية الأخرى: (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) [الزخرف:9].

فهم يقرُّون بعزة الله وقدرة الله وجبروت الله وخلق الله جلَّ في علاه لكنهم ينكرون الإله؛ (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5]. جعلوا لله أنداداً ليس في الخلق ولا في الرزق ولا في التدبير، هم يعلمون أن الرازق الخالق المدبر هو الله جلَّ

في علاه، جعلوا ذلك في الإلهية وقالوا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)، فهذا جعل الأنداد.

ومن جعل الأنداد ما يكون شركاً أكبر، ومن جعل الأنداد ما يكون شركاً أصغر. ما دام الأمر على الإلهية، وإن كانوا قد اعتقدوا في الربوبية فإنهم قد كفروا من هذا الجانب، فوقعوا في الشرك، ويكون الشرك هنا بنوعين: بالشرك الأكبر والشرك الأصغر. فهناك جعل الند في الأقوال وهو من الشرك الأصغر ليس من الشرك الأكبر، كما في قول القائل: شاء الله وشئت، لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- للرجل الذي كان يخطب في الناس: من أطاع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصيهما فقد غوى، فقال: (بئس خطيب الأمة أنت! أجعلتني لله نداً؟) ولمّا جاءه الرجل قال: ما شاء الله وشئت يا رسول الله، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده). هذا ندّ، ولكنه من باب الشرك الأصغر لا من الشرك الأكبر، وهو على خطرٍ عظيم لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر.

قال الله: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً) لا في الشرك الأصغر ولا في الأكبر، (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً) لأنه الظلم وأفحش الذنب وأعظمه. قال: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، علماؤنا يقولون (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يعني تعلمون أنهم ليسوا بأنداد، وأنهم ليسوا بخالقين ولا رازقين ولا مدبرين، ولذلك قلتم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى). فأنتم تعلمون أنكم نكّستم الفطر وأنكم أخطأتم الطريق وأنكم ضللتم، وتعلمون جيداً أن هذه الآلهة الباطلة الذين تصرفون لهم هذه العبادات التي يستحقها إلّا الله وحده لا شريك له أنتم تعلمون بأنهم لا يحركون ساكناً في الكون، وأنهم لا يخلقون لا يرزقون لا لا يدبرون.

لذلك أنكر الله عليكم: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، وهذا جرٌ لهم من المختلف فيه إلى المتفق عليه، هم يختلفون في الإلهية، فجرّهم الله جلَّ في علاه إلزاماً إلى المتفق عليه وهو الربوبية، وجعل الربوبية التي يقرُّون بها مستلزمة للإلهية. لذلك أنكر عليهم الله جلَّ في علاه إنكاراً صريحاً شديداً في قوله: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ). ولذلك أنت ترى الفطر قد جُبِلَت على الإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه وإلاهية الله، قال الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) [الأعراف:172]، وأيضاً عمر بن الخطاب يقول: (مسح الله على ظهر آدم فأخرج ذريته، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى). شهدوا على ذلك وأن الله هو الواحد الأحد القهّار سبحانه جلَّ في علاه.

ثم نُكِّست الفطرة، قال الله جلَّ في علاه: (إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين آلتهم عن دينهم (يعني التوحيد)، فمالوا عن التوحيد إلى الشرك). وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من مولودٍ إلّا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه). ولم يقل يسلمانه، لأنه جبل عليه. لمّا أتى (برجل من أهل الكفر فقال له: أرأيت إن كنت تملك الدنيا ذهباً أو فضة أكنت مفتدياً بها؟ قال: اللهم نعم)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فقال الله: طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم فأبيت إلّا الشرك). فلذلك قال الله تعالى: (فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، ألزمهم بالإقرار بالإلهية.

ولذلك فإن للربوبية علاماتٌ في الكون بأسره، وأفعال الله جلَّ في علاه علاماتٌ على ربوبية الله جلَّ في علاه. ولذلك قال الأعرابي -وليس له من العلم شيء-: إن البعر ليدل على البعير، وإن الأثر ليدل على المسير، قال: فسماءٌ ذات أبراج وأرضٌ ذات فجاج وبحارٌ ذات أمواج تدل على اللطيف الخبير. دلالات الربوبية قاهرة باهرة ظاهرة، لذلك لمّا أقر الجميع بدلالات الربوبية فإن الله ألزمهم وجرّهم إلى الإلهية بالإلزام في الربوبية، فجعل الربوبية مستلزمة للإلهية.

قال الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) [البقرة:165]، كما قلنا في القاعدة السياق والسباق واللحاق من المفسرات. يقول: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك)، وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أجعلتني لله نداً؟) السياق مفسر في الأنداد هنا، كما قلنا الند قد يكون اتخاذ الأنداد: في الربوبية، في الأسماء والصفات، في الإلهية -هذا على ما بيّناه قبل ذلك تفصيلاً-.

لكن في حقيقة الأمر بأن كفار مكة كانوا يتخذون الأنداد في الإلهية، كانوا يقرُّون بربوبية الله جلَّ في علاه، وكانوا يقرُّون بالخلق والرزق والتدبير بيد الله جلَّ في علاه. (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزمر:38]، وفي الآية الأخرى: (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) [الزخرف:9]، لذلك كانت المنازعة في الإلهية، قال الله جلَّ في علاه عنهم أنهم قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5]، فهذه مسألة واضحة جلية في هذا الباب.

فلذلك ترى في قول الله جلَّ في علاه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ) هنا الآن كأنه فسر (أَندَادًا) بقوله: (يُحِبُّونَهُمْ) والمحبة عمل القلب. إذاً المسألة هنا اتخذوهم أنداد في الإلهية وليس في الربوبية، لأنه قال: (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ).

والمحبة من أعظم أعمال القلوب، بل المحبة رأس كل أعمال القلوب، وعبادات القلوب أصلٌ لعبادات الجوارح، ومدار النجاة والهلاك على القلوب. لذلك قال هنا: (يُحِبُّونَهُمْ)، إذاً اتخذوهم أنداد في المحبة لا في الربوبية، وإلّا فقد ألزمهم الله جلَّ في علاه بالربوبية على الإلهية. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:21]؛ خلقكم وأنتم تقرُّون بذلك.

قال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا)؛ نظراء، وليس لله نظير ولا سميّ ولا شبيه سبحانه جلَّ في علاه. قال الله جلَّ في علاه: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:4]، (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65]، سبحانه جلَّ في علاه، فلا ند ولا نظير. والله جلَّ في علاه المتوحد بكمال الصفات والذات، سبحانه جلَّ في علاه، قال الله: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4].

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)؛ اختلف العلماء في معنى قول الله تعالى: (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)، فقال بعضهم: يحبونه كما يحب المؤمنون الله سبحانه جلَّ في علاه، وقيل: يحبونهم مثل ما يحبون الله. والمعنى أثبت لهم محبةً لله، هم يقرُّون بربوبية، وأيضاً عندهم إلهية، فهم يحبون الله لكنهم يُشرّكون في المحبة، فيحبون أصنامهم وهؤلاء الأنداد الذين اتخذوهم مع الله جلَّ في علاه، فصارت المحبة شركية، فصار الشرك في المحبة.

قال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ)؛ قال ابن تيمية وغيره -في قول الله جلَّ في علاه: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) -: أن الذين آمنوا أحبوا الله حباً خالصاً لا يشوبه شيء. لذلك كان أعظم لأنه لا تشوبه شائبة، حبٌ خالصٌ صادقٌ لله جلَّ في علاه، صدق المحبة وإخلاص المحبة لله جلَّ في علاه. فكان الإخلاص مع الصدق لله جلَّ في علاه من هؤلاء الذين وحّدوا ربهم، وكانت المحبة الشركية من هؤلاء الذين اتخذوا أنداداً، صرفوا المحبة لغير الله جلَّ في علاه مع وجود محبة لله جلَّ في علاه.

لذلك أقسام المحبة -وابن القيم هو الذي قسّم هذا التقسيم-:

١- المحبة الأولى: المحبة لله جلَّ في علاه. ومحبة الله نجاة، لكن وحدها لا ينجو بها المرء. والصحيح أنها لو وجدت المحبة بصدقٍ وإخلاصٍ في القلب أثمرت أعمال القلوب قاطبةً: من صدقٍ وإخلاصٍ وانقيادٍ وخشية ورهبة. فإن كانت المحبة في القلب صادقة أثمرت أعمال القلوب، فإن أثمرت أعمال القلوب أثمرت أعمال الجوارح، فإن كان نجا المرء. وإن كانت المحبة في القلب دون الثمرة؛ إمّا أن تكون هذه المحبة مزيفة وليست صادقة، وإمّا أن تكون على ضعفٍ يشبه عدم الوجود أو تكون على ضعفٍ يشبه العدم.

كما قلت إذا كانت المحبة في القلب صادقة أثمرت إخلاصاً وأثمرت تصديقاً، وأثمرت أعمال القلوب فأثمرت أعمال الجوارح، فينجو المرء بها. أمّا إن خلا القلب من أعماله إلّا من المحبة فتكون المحبة ليست صادقة، فلا ينجو بها المرء.

٢- والقسم الثاني من المحبة: هي محبة ما يحبه الله. وهذه أيضاً من صدق المحبة، إن وجدت المحبة الصادقة في القلب أثمرت محبة ما يحبه الله جلَّ في علاه. فالمحِب الصادق لله له علامات، ومن علاماته أنه يحب ما يحبه الله جلَّ في علاه:

- والله يحب العبادة من العبد، والعبادة هي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، فتراه يقبل على عبادته محباً لها.

- وتراه محباً لمن أحبه الله جلَّ في علاه؛ فالله يحب الأنبياء والمرسلين والمؤمنين والمخلصين، فترى قلبه يمتلئ حباً ومحبة لهؤلاء الذين أحبهم الله جلَّ في علاه.

فصدق المحبة لها آثار وعلامات، ومن أعظم علامات محبة الله جلَّ في علاه هي محبة ما يحبه الله جلَّ في علاه.

٣- والقسم الثالث من المحبة: المحبة في الله ولله. وهذه من واجبات المحبة، فلو كانت المحبة صادقة في قلب المؤمن أثمرت محبة في الله، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أعطى لله ومنع لله، وأحب لله وأبغض لله، إنما تنال ولاية الله بذلك). لذلك إن كان محباً حقاً لله جلَّ في علاه، تراه يحب كل من جرّه إلى الله، وكل من ربطه إلى الله جلَّ في علاه، فتكون المحبة الصادقة في القلب أثمرت محبةً صادقة في الله جلَّ في علاه.

وهكذا كان الجيل الفريد يعيشون بهذه المحبة، كلٌ منهم قد أظهر محبةً فائقة صادقة من القلب، تراها عندما قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف: هاذان بيتان، اختر منهما ما أعجبك فهو بيتٌ لك. ثم أتى بامرأتيه -والعرب لهم ما لهم من الشدة والغيرة في هذا الباب، ومع ذلك انظر ما أثمرت به المحبة الصادقة في القلب- فقال: فانظر إلى هاتين المرأتين، أيهما أعجب إليك طلقتها وكانت لك. هذه المحبة في الله.

فالمحبة في الله تصفو إن كان الإخلاص في القلب، وتكون محبةً صادقةً إن كانت تزداد بالطاعات. علماؤنا يقولون: علامة صدق المحبة في الله أنها لا يزيدها البر والإحسان ولا ينقصها الجفاء، هذه علامة المحبة الصادقة. لا أنه إن حدثت الجفوة ينزل المؤشر وما تراه أحبك في الله جلَّ في علاه وما رأيت منه الود الذي كان، وإن كان البر والإحسان تراه أعلى الناس قرباً ورفقاً وحباً ظاهراً لك، هذه ليست محبة في الله. فالمحبة في الله لا تزداد ببرٍ ولا تنقص بجفاء، لأن عصب الأصل فيها هو الله، يزداد قربك به إلى الله جلَّ في علاه، تقل إن تباعدت أنت وهو؛ يعني المعاصي تجعل الوحشة.

وجرّبها مع زوجك وأهلك وإخوانك، إن كانت تربطك معهم محبةً في الله جلَّ في علاه، كلّما كنت مطيعاً كلّما رأيت المحبة زادت زيادة فائقة تذهل وتدهش العقل، وكلّما كانت المعصية وكلّما كانت المفارقة تجد الوحشة التي تستغرب لها، لأن الأصل في ذلك والمحرك الرئيسي هي القرب أو البعد من الله جلَّ في علاه. أمّا إن كان بإغداق الإحسان تزداد المحبة، وبقبض اليد تقل المحبة فهذه اسمها محبة المنافع، هذه محبة الدنيا ومحبة المنافع، فهذه ليست محبة صادقة. لذلك قال علماؤنا: صدق المحبة في القلب أثمرت المحبة في الله، وعلامة المحبة في الله لا تزداد ببر وإحسان ولا تقل بجفوةٍ، لكن زيادتها في القرب أو البعد من الله جلَّ في علاه.

هذا القسم الثالث من أقسام المحبة؛ فبها محبة أولياء الرحمن، وبها بغض أعداء الرحمن. وهذه المحبة في الله هي من أعظم القربات وأصلح الصالحات، كما بيّن الله جلَّ وعلا أن ولاية الله تنال بذلك، والمحب الصادق أرقى عند ربه. لذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- (لمّا رجل فقال بعضهم للنبي: إني أحبه، قال؟ أخبرته؟ قال: لا، قال: أخبره). ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأشدهم محبةً أقربهم إلى الله جلَّ في علاه).

٤- القسم الرابع من المحبة: هي المحبة الشركية -نعوذ بالله-. يحب الله، موجود في قلبه محبة الله، ويُشَرِّك في المحبة. وهذه مراتب وأقسام:

🡸 يُشَرِّك في المحبة من يجعلهم أنداداً لله جلَّ في علاه: كأصحاب الغلو في محبة الأولياء، فتراهم يصرفون العبادات لهم؛ فيسألون البدوي، يسألون عبد القادر الجيلاني، بل يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأنت بالمدينة انظر إلى ذلك، تقف المرأة أمام القبر وتسأله الولد لابنها أو لابنتها، وهذا كان عياناً أمامنا. وأنا ذهبت إلى طنطا ونظرت على ما يحدث هناك، لكن عن بعد طبعاً لا عن كثب، وإلّا كان الأمر سيكون فيه ما فيه يعني من الدواعش الكبيرة، فتعجبت. بل هنا قريبٌ مني مسجد يسمى إبراهيم عبد الباعث، فيه مقبرة فيه قبر رجل جلس فيه، أنا أمشي وجدت الناس يطوفون. فطبعاً برفقٍ وبلطف، أنا ما أملك إلّا ذلك عن علمٍ أتكلم، فقلت: لِمَ تطوفون؟ اتقوا الله لا يجوز الطواف إلّا بالكعبة، فالرجل هذا مقبور هذا ميت، هو أحوج إلى دعائك منك أنت له. فالرجل طبعاً أصابني بمصاب، وقال بأن الله يعني حلّ في هذا المقبور تصريحاً، ورب العزة أنا صعقت. قلت هذا الكلام أراه في الكتب لكن أراه عياناً وأسمعه بأذني هذا موت، فهذه المحبة الشركية هنا.

علماؤنا يقولون: إن أردت أن تعرف ذلك قل له: تقسم بالله أنك لم تفعل كذا؟ يقسم مئة يمين. فإن قلت له: تقسم بالولي الفلاني؟ يتلعثم. وأيضاً تراه يسارع في كل أمرٍ لهذا الولي، ويتباطأ في حق الله جلَّ في علاه، هذه محبة شركية. ولذلك أنت ترى بأنهم حتى

في هذا الباب وإن أقرُّوا بالربوبية شَرَّكوا فيها، لأنهم من فرط ما صرفوا المحبة لغير الله جلَّ في علاه اعتقدوا في الأولياء بأن لهم تحريك في الكون، وهذه أصالةً عقيدة الروافض. فكانت المحبة مع الله جلَّ في علاه هي المحبة الشركية، وهذه تستلزم شركيات كثيرة: تستلزم صرف العبادة لغير الله؛ كنذرٍ وذبحٍ وهذا كله ظاهرٌ لا يمكن إنكاره بحال من الأحوال. وتستلزم أيضاً خوفاً من غير الله جلَّ في علاه، وتستلزم رغبةً ورهبة غير الله جلَّ في علاه. هذه المحبة الشركية، وهذه المحبة كفرية هي مراتب كما قلنا: أعلاها هذه.

🡸 وأدناها محبة النفس: وهل محبة النفس تكون شركية؟ عمر بن الخطاب لمّا قال النبي: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، فقال عمر: أنت أحب إليّ من كل شيء إلّا من نفسي يا رسول الله. قال: لا يا عمر، فقال: الآن يا رسول الله، قال: الآن). فمحبة النفس: أن يدعو الناس لنفسه، هو ما يدعو لله جلَّ في علاه، بل يدعو لنفسه؛ يعني حبه للعبادة أشرب هواه. الله تعالى قال: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) [الفرقان:43]، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش). يقدّم غلبات الهوى على الشرع، هذه من المراتب أيضاً، لكن أعظمها المحبة الشركية التي يخرج بها صاحبها من الملة.

🡸 المرتبة الثالثة: هي المحبة الجِبِلّية. والمحبة الجِبِلّية هي محبة الرجل لزوجه، محبة الرجل لولده، محبة الرجل لمن هو قريبٌ له. وهذه المحبة لا يحاسب عليها المرء، لكن قد يؤجر قد يؤجر وقد يأثم؛ قد يؤجر عندما يجعلها لله جلَّ في علاه ويجعلها تستلزم ما يحبه الله جلَّ في علاه، ويأثم بها أن تكون فاضّة أو مانعة عن طاعات الله جلَّ في علاه.

نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعل قلوبنا تميل إليه وتمتلئ حباً له، ولا نحب إلّا ما يحبه الله جلَّ في علاه، ولا نسعى إلّا فيما يحبه الله جلَّ في علاه، ونستغفر الله على ما وقع منا من زلاتٍ وسقطاتٍ وهنّات.

شرح العقيدة الواسطية

المجلس الثالث والثلاثون: آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه (3)

الواسطية الوسط بين غلوٍ وجفو؛ وسط بين الخوارج وبين المرجئة، بين القدرية وبين الجبرية. وقفنا عند قوله جلَّ في علاه: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]، وقوله جلَّ في علاه: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التغابن:1]، وفي قوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان:1-2].

تكلمنا بأن المصنف -رحمه الله تعالى- بأنه أراد أن يبيّن لك وينوع لك حتى تعتقد اعتقاد السلف الصالح، كأنه يقول وإن الجادة أن تكون على عقيدة هؤلاء الأخيار الأبرار الذين اصطفاهم الله جلَّ في علا في صحبة نبيه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، في الذين قد زكّاهم الله من فوق سبع سماوات؛ إمّا في الكتاب، وإمّا على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم).

فهنا ما زال المصنف يأتي بالآيات التي تثبت لك صفات الله جلَّ في علاه سواء الصفات الذاتية أو الصفات الخبرية أو الصفات الفعلية، ونوّع في ذلك على هذه الآيات من أجل أن تعلم كيف الفرق الواسع والبون الشاسع بين أهل السنة والجماعة في اعتقادهم في ربهم جلَّ في علاه، وبين أهل البدعة والضلالة كم ضلوا كم خسروا كم تنكبوا الصراط. وأيضاً بعد الصفات الثبوتية أتى بالصفات المنفية تأديباً لنا وتعليماً لنا كيف أدب القرآن عندما ذكر الصفات الثبوتية، ونراه قد فصّل فيها وبيّنها أتم البيان. وعند الصفات المنفية فإنه نفاها عن الله جلَّ في علاه إجمالاً أدباً، وليس ذلك على الإطلاق، بل إجمالاً أدباً، ثم بعد ذلك لا بد من إثبات كمال الضد، لأن النفي المحض لا يكون فيه كمال، وصفات الله جلَّ في علاه كلها كمال وجلال وبهاء وعظمة.

ما زال المصنف يأتينا الآن بصفات النفي من أجل أن يبيّن لك كيف كان السلف الصالح يعتقدون في ربهم جلَّ في علاه؛ ينفون حين نفى الله جلَّ في علاه، وأيضاً يثبتون حين أثبت الله جلَّ في علاه، لأن الأصل العام والضابط العام: صفات الله توقيفية، النص هو الذي يثبتها أو هو الذي ينفيها.

لذلك لمّا تأتي الصفات التي يخبر بها عن الله جلَّ في علاه أو يسأل هذه صفة من صفات الله أم لا؟ لا بد أن نقول بأننا نتوقف فيها؛ كالأذن مثلاً، إذا قالوا: أله الأذن؟ ليس لك أن تنفي وأيضاً ليس لك أن تثبت، لأن النفي لا بد له من توقيف ولأن الإثبات لا بد له من توقيف، هكذا كان اعتقاد السلف. لا سيما وأن الله قد خط خطاً في كتابه -إن صح التعبير- بأنه قال: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف:180]، لمّا قال: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) كانت مجملة، وجاءت مفصّلة حين قال: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) [الإسراء:36]، وقال: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة:169]. ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) [الحجرات:1]، فحين النفي لا بد من أثر ومن دليل، وحين الإثبات لا بد من دليل.

هنا في النفي أيضاً قال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]، هذه الآية قد تضمنت صفات الإثبات وصفات النفي، السؤال: أين من الآية صفات الإثبات وصفات النفي؟

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)، الحمد ماذا معناه؟ الحمد هو الثناء الحسن على صفات الجلال والبهاء والكمال والجمال والعظمة، هذا أول ما يكون هنا. قال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ الحمد هو الثناء الحسن على الله جلَّ في علاه باللسان وبالقلب مع التعظيم والمحبة، والحمد على صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة. فأنت تحمد الله جلَّ في علاه؛ لأنه كريم، لأنه جواد، لأنه رحيم، لأنه عزيز، لأنه قدير. فتحمد الله على صفات الجلال والكمال والبهاء والعظمة، بالثناء الحسن باللسان وبالجنان مع المحبة والتعظيم.

الحمد لله يتضمن "الله"، اسم الله الأعظم، فالحمد له بأنه له الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، وهو يتضمن صفة الإلهية. فكما قلنا إن المقصود الأعظم من خلق الخلق هو تحقيق الألوهية، وإلّا فأهل الكفر قد حققوا الربوبية وإن كانت مدخولة، لكن أصل الربوبية حققوها والمنازعة الحق كانت على الإلهية. (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5]، ينازعون في إلهية الله جلَّ في علاه، لا ينازعون في ربوبية الله جلَّ في علاه ولا في الأسماء والصفات وإن كانوا قد ألحدوا في الأسماء والصفات، لكن أثبتوها لله جلَّ في علاه.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)؛ هنا (لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) صفات النفي، بأن الله لم يتخذ ولداً. (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) فالحمد كله لله جلَّ في علاه، الثناء الحسن. قال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) الواحد الأحد الذي تألهه القلوب محبةً وتعظيماً وتوقيراً وتبجيلاً. والحمد والشكر الفرق بينهما: بأن الشكر على الأنعام، والحمد على صفات الجلال والكمال والبهاء والعظمة. إذاً الشكر أيضاً على صفات الأفعال، والشكر يكون باللسان وبالجوارح وبالقلب،

والحمد يكون باللسان وبالجنان. قال الله تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا) [سبإ:13]، قال الشاعر: أفادتكم النعماء مني ثلاثةً *** يدي ولساني والضمير محجبا

لكن قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ) على إلهية الله ووحدانية الله جلَّ في علاه، وقلنا كل اسمٍ يضاف إلى اسم الله "الاسم الأعظم" يكون صفة له. (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)، يُخبر عن الله جلَّ وعلا أنه (لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)؛ ويعني هذا أصل أصيل في الرد على أهل الكفر والعناد وأهل العصيان.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)؛ قل يا محمد، وأمتك لا بد أن تقول الحمد لله. (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)، الرد على اليهود والرد على النصارى الذين يسبون ربهم جلَّ في علاه وينسبون له الولد، كما كان مشركو العرب يسبون الله جلَّ في علاه ينسبون له البنات، (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) [النحل:58-59]. فاليهود عزيرٌ -استغفر الله- نسبوه ابناً لله، والنصارى نسبوا عيسى ابناً لله جلَّ في علاه. فالله جلَّ في علاه يقول لمحمد: عليك أن تحمد الله وعلى الأمة التي وفقها الله جلَّ وعلا أن يحمدوا الله أنهم ما تنكبوا الصراط كاليهود ولا النصارى ولا كالمشركين ولا كالمجوس.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)، وهم قد قالوا بأن عزير ابن الله، وقالوا عيسى. لذلك فإن الله في عرصات يوم القيامة يقول: (من كان يعبد أحداً فليتبعه)، فمن كان يعبد الشمس كورت وتساقطوا مع الشمس، إلى أن جاء لأهل الكتاب فقال: من تنتظرون؟ قالوا: ننتظر ربنا ثم ذكروا عزيراً ونسبوه لله ولداً، فقال: كذبتم (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) [المؤمنون:91]، ثم يزجون إلى نار جهنم، يمثل لهم جني بصورة عزير -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليمات- فيتساقطون في نار جهنم.

وأيضاً الذين زعموا بأن عيسى نسبوه ابناً لله جلَّ في علاه يُكذِّبهم الله ويقول: من تنتظرون؟ يقولون: ننتظر ربنا عيسى كذا وينسبونه ولداً لله، فيقول الله مكذباً: كذبتم (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ). لذلك أنت ترى كثير من القرآن يؤكّد على توحيد الله جلَّ في علاه، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم ورح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق، فُتِّحت له أبواب الجنة الثمانية).

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)، وأنتم تعلمون بأن المرء يتخذ الولد للحاجة والإعواز والفقر، والله هو الغني الحكيم، والله هو الغني الحليم، والله جلَّ في علاه على كل شيءٍ قدير. قال الله جلَّ في علاه: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ) [الحجر:21]، وقال مبيّناً جبروته ومبيّناً قوته: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]،

لا حاجة ولا ضعف ولا إعواز. قال الله جلَّ في علاه: (يا عبادي كلكم جائع إلّا من أطعمته، يا عبادي كلكم عارٍ إلّا من كسوته، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني). فهو الغني الحليم سبحانه جلَّ في علاه، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر:15].

فيتخذون الولد لضعفهم ولقطع النسب وعدم الذكر بعدم الولد، فالناس أحوج ما يكونون إلى الولد، ولذلك أنت ترى العقم فيه نقص. والله جلَّ في علاه لم يلد ولم يولد، ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له كفواً أحد سبحانه جلَّ في علاه ولم يتخذ صاحبة، وكان ذلك كمال، وفي العبد ليس بكمال. لذلك ليس كل القاعدة الأغلبية على قياس الأولى، فهذه قاعدة أغلبية ليست كلية. فالغرض المقصود أنه قال: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) رداً على اليهود والنصارى وبيان بغنى الله جلَّ في علاه وأن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله له ملك السماوات والأرض.

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)، وهذا رد على المشركين والمجوس المانوية الذين كذّبوا وقالوا بأن للظلمة خالق وأيضا للنور خالق. فرد الله عليهم هو إلهٌ واحد، ولذلك قال الله تعالى في التمانع: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22]. والله جلَّ في علاه يرد على هؤلاء المشركين الذين يتخذون أنداداً مع الله جلَّ في علاه: (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) [الإسراء:42-43]، سبحانه وتعالى. قال: (الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ)، والملك كله بيده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران:26].

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ)، فهو لا يحتاج لأولياء. لكن هنا لابد أن نفرّق لأنه لمّا قال: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ) قيّدها بقوله: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ). فهذا تقييد هنا، هو قيّدها (وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ).

إذاً هو له أولياء وليسوا بهذا الوصف، لأن الله جلَّ في علاه اتخذ أولياء، قد قال الله جلَّ في علاه في الحديث القدسي: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بأحب إليّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)، وأيضاً قد قال الله جلَّ في علاه: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) [يونس:62]. هذه الموالاة موالاة الرحمة والإحسان، وأيضا هي الموالاة التي يحتاجها العبد، (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [البقرة:257]. وهم أولياؤه يحبون من أحب، ويحبون ما أحب، يعملون برضاه سبحانه جلَّ في علاه، ينئون بأنفسهم عما يغضبه.

فهنا قال: (وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ)، فإنه من اتخذ ولياً من الذل اتخذه لفقره لحاجته لشدة إعوازه إليه. ولذلك قال الله تعالى خاتماً: (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)؛ أي عظّمه تعظيماً من قول هؤلاء الظلمة الكفرة الفجرة، الذين ليل نهار صباح مساء يسبون الله يدعون له الولد، ينسبون له الولد، ولذلك أنكر الله على اليهود والنصارى حين قال: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]. ففي الآية عظيم المسائل، فالآية فيها:

- الحمد لله سبحانه جلَّ في علاه، والأمر بالحمد. والحمد هو الثناء الحسن على الكمال جلال والبهاء والعظمة.

- وأيضاً فيها لفت الانتباه إلى أن الأصل في هذا الباب من المنازعة هو تحقيق الانفراد في العبادة "تحقيق الإلهية"، (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ).

- وفيها بيان غنى الله جلَّ في علاه وبيان عزة اللهُ جلَّ في علاه، (الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).

وقال الله جلَّ في علاه: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التغابن:1]؛ "يُسَبِّحُ" يعني ينزّه، "يسبِّح، سبحان" قول مطلق معناه أنزّه الله عن الشريك وأنزّه الله عن المعين وعن الظهير وأنزّه الله عن الأنداد. قال: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)؛ "مَا" من الأسماء المبهمة فهي على صيغة العموم، والمعنى كل من في السماوات ومن في الأرض. العلماء يقولوا: هنا يقول الله جلَّ وعلا (يُسَبِّحُ) تعليماً لنا بتسبيح الله جلَّ في علاه وأنها من أجلّ العبادات، وأن النبي كان يسبِّح ربه دبر الصلوات وعند السجود وعند الركوع، فقد أمرنا بتسبيح الله جلَّ في علاه.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)؛ كل من في السماوات يسبِّح الله جل في علاه. (أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما من موضع إصبعين أو إصبع إلّا وملك راكع أو ملك ساجد). كلهم يسبحون الله عملاً عبادةً لله، وأيضاً يذكرون الله كثيراً، وهم قد ألهمهم الله التسبيح فهم يتعبدون لله إلهاماً. قال: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ)؛ وقدّم السماوات لشرفها وأيضاً لشرف ساكنيها، فإن الملائكة قد وصفهم الله وصفاً له رفعة في كتابه حين قال: (كِرَامٍ بَرَرَةٍ) [عبس:16].

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؛ (وَمَا فِي الْأَرْضِ) أيضاً "مَا" على العموم، والمعنى كل حجرٍ وشجرٍ وجنٍ وإنسٍ وكل من في البحار والأنهار والأشجار والثمار يسبّحون بحمد الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) [الإسراء:44].

فهم يسبحون بحمد ربهم جلَّ في علاه تنزيهاً من كل نقصٍ ومن كل عيب، مع التنزيه إثبات صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، والتسبيح قد يكون بلسان الحال وبلسان المقال "بالتعبد". والحق بأن الجمادات؛ الجبال والرمال والأشجار والأحجار والثمار والبحار والأنهار، وكل من في البحار والأنهار والأرض والجبال، كل من فيها يسبح بحمد الله جلَّ في علاه. قال ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام بين أيدينا، وأيضاً كان الحجر يسلِّم على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكل حجرٍ وشجرٍ يسبّح بحمد ربه حتى الحيتان في البحر يسبّحون بحمد الله جلَّ في علاه.

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ)؛ لأنه الغني القوي القادر القدير سبحانه جلَّ في علاه. وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، خلافاً لهؤلاء أصحاب الطرق الذين يقولون بأن الأولياء قد يملكون مع ملك الله جلَّ في علاه ويعلمون الغيب، ومنهم من يقول على استحياء أن الله أعطاهم القوة في التحريك؛ تحريك الساكن في الكون أو إحياء الجنين في بطن الأم، كما قال قائلهم بذلك. فالله قال: (لَهُ الْمُلْكُ)؛ التقديم والتأخير للحصر والقصر، الملك كله لله جلَّ في علاه، ولذلك الله يوم القيامة عندما يحشر الأولين والآخرين ويقبض سواد الأرض بيده ويهزهن ويقول: (أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أنا الملك)، (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) [طه:108].

قال: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)؛ يعني الحمد كله. كما قلنا التقديم والتأخير حصر وقصر، وفيها الامتلاء، فله الحمد بالثناء الحسن. له الحمد على التسبيح على أنه خلق الخلق يسبّحونه، وكل مخلوقٍ يحاكي الآخر، إن وجده يسبّح يسبّح، وهذا التعاون على البر والتقوى. فيحمد على التسبيح، ويحمد على قوته وقدرته على الإحياء والإماتة، وإلّا لا يصح أن يكون رباً. (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) [الأنبياء:104]، (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) [الروم:19]، (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [غافر:68] سبحانه، قال: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]، (يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الحديد:2]. ما زال يأتينا بالصفات؛ صفات الإثبات والكمالات، وصفات النفي التي يثبت معها كمال الضد. نقف عند هذه الآية.

الفوائد المستنبطة:

- وجوب الحمد لله على توحيده يعني على أنه واحد، ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ) [الزمر:29].

- فضل أولياء الله.

- وجوب تنزيه الله جلَّ في علاه عن كل نقصٍ وعيب.

- الربوبية تستلزم الإلهية.

شرح العقيدة الواسطية

المجلس الرابع والثلاثون: آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه (4)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه والحاضرين والمستمعين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقوله: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان:1-2]، وقوله: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون:91-92]، وقوله: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل:74].

هنا -كما قلنا- ما زال المصنف في هذا الكتاب الماتع "كتاب الواسطية"، ما زال يأتي ويذكر الصفات؛ صفات الإثبات، وأيضاً صفات النفي. ويبيّن لنا البون الشاسع والفرق الواسع بين أهل السنة والجماعة الوسطية الذين هم وسط بين أهل الغلو والجفو، وأهل البدعة والضلالة. فقال في قول الله جلَّ في علاه: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان:1-2]، فهنا قرن لنا بين صفات الإثبات وصفات النفي.

وانظر هنا إلى الأدب القرآني الذي يؤدبنا به ربنا جلَّ في علاه، عندما تنظر إلى صفات الإثبات وصفات النفي، فترى بأن صفات الإثبات لله جلَّ في علاه جاءت تفصيلية، فصّل الله فيها وعدد، وصفات النفي جاءت على الإجمال لا على التفصيل. انظر قال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)؛ "تَبَارَكَ" يعني قد تكلمنا عنها قبل ذلك، وإنها صفة تختص بالله، هذه الصفة من الصفات التي تختص بالله، لا تطلق إلّا على الله جلَّ في علاه وهي من البركة.

والبركة لغةً: النماء والزيادة، و "تَبَارَكَ" هذا الفعل مختص بالله كما قال ابن القيم: "تبارك" هو فعلٌ مختصٌ بالله جلَّ في علاه، خاص به، والبركة من الله. فالبركة والزيادة والنماء من الله جلَّ في علاه، تقول البركة: "من البركة" الكثرة والوفرة والنماء، أو "من برك" البعير برك يعني استقر. فهنا البركة فيها أمران: فيها ثبوت

الخير، وفيها نماؤه وزيادته. وأنت لمّا تأتي وتقول هذا رجلٌ مبارك، ترى بأن الخير به وفيه ومعه وعليه، فيه بركة ما حلّ في مكانٍ إلّا وقد حلت البركة فيه، وهذا والله إن وصف لا يوصف إلّا على الأنبياء والعلماء، ما حلّوا بموضعٍ إلّا وحلّت البركة في الموضع الذي حلّ فيه. قال: (تَبَارَكَ)، وهنا -كما قلنا- ثبوت الخير مع الزيادة وأيضاً النماء.

قال: (تَبَارَكَ الَّذِي)؛ يعني تبارك الله سبحانه جلَّ في علاه، تعاظم جلَّ شأنه. قال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ)، "نَزَّلَ" هذه فيها دلالة على علو الله جلَّ في علاه لأن التنزيل لا يكون إلّا من علو، وهذا ثابتٌ رداً على أهل البدع والضلال. انظر هنا تبارك والتنزيل الذي يدل على العلو، كلها فيها ردّ على الأشاعرة وردّ على الجهمية وردّ على المعتزلة، ردّ على أهل البدعة والضلالة في نفي هذه الصفات أو تحريف هذه الصفات زعماً منهم تأويلاً.

ففي قوله: (نَزَّلَ) لا يكون التنزيل إلّا من علو، ففيها إثبات علو الله جلَّ في علاه، وفيها قدرة الله وربوبية الله، وتنزيل القرآن بالوحي الأمين؛ جبريل يسمعه من رب العالمين فينزل به إلى محمد الرسول الأمين -صلى الله عليه وسلم-. قال: (الَّذِي نَزَّلَ)، وقد قال الله تعالى: (تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ) [السجدة:1]، هنا الإجمال جاء مفصلاً في الآية الأخرى: (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ) [الشعراء:192-193].

إذا سأل السائل: وكيف نزل؟ الله جلَّ في علاه يقول: أتكفل لك بالشرح والبيان -إن صح التعبير- لأن الله قد تكفل لنا بالبيان، قال: (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [القيامة:19]، قال: (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء:192-195]، قال: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113].

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ)؛ الفرقان هنا هو القرآن، لأن القرآن فرّق بين الحق والباطل، ولأنه وحيٌ من الله جلَّ في علاه فليس فيه أدنى اختلاف. قال الله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء:82]، فلا اختلاف لا كثير ولا قليل، لأنه من الله رب العالمين. قال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ) أي القرآن، وهذه فيها دلالة أن القرآن كلام الله رداً على أهل البدع (المعتزلة) الذين يقولون بأنه ليس بكلام الله بل هو مخلوق ، ورد على الجهمية الذين نفوا الصفة من أصلها، ورداً على الأشاعرة الذين قالوا القرآن معنىً قائم.

لو كان معنى قائم، كيف ينزل؟ لو لم يتكلم الله به؟! طبعاً هم يخرجون من ذلك ببدعة أشنع من بدعة المعتزلة، ما هي؟ هم وصفوا الله بالنقص -أعوذ بالله-، يعني لازم قول الأشاعرة وصف الله بالنقص، لكن ما الفرق بينهم وبين المعتزلة؟ المعتزلة أرفع درجة

ورتبة من الأشاعرة، فكيف المعتزلة الذين قالوا القرآن مخلوق أرفع رتبة من الأشاعرة؟ الصحيح أن نقول: المعتزلة لمّا قالوا القرآن مخلوق وصفوا الله بالكمال، بأنه يخلق. أمّا الآخرون فوصفوه بالنقص: لا يستطيع أن يعبّر عمّا في نفسه -أعوذ بالله من الخذلان-. أرأيتم كيف المعتزلة أفضل منهاجاً من الأشاعرة، وهم يقولون الأشاعرة أهل السنة والجماعة!!!

فالقرآن كلام الله، لذلك ما كان تنزيله إلّا دلالة أنه كلام الله فقال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ)؛ وهذا فيه تشريف لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأن الإضافة هنا إضافة تشريف. والمضاف إلى الله نوعان: إضافة معاني، وإضافة أعيان مستقلة بذاتها.

- إضافة المعاني هي إضافة الصفة للموصوف.

- وإضافة الأعيان المستقلة بذاتها هي إضافة مخلوق للخالق. هو خلق كل شيء؟ قلنا الإضافة إضافة تشريف. وزيادة التشريف هنا، قال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ). ومراتب التشريف ثلاثة:

- تنزيل. - والتخصيص بالتنزيل.

- ثم قال: (عَلَىٰ عَبْدِهِ)، فأضاف إضافة تشريف ثم لقّبه أو وسمه بالعبودية التي هي أشرف المنازل.

ولذلك في الإعجاز وفي المعجزة وأيضاً في الدعوة كلها في مراتب الربوبية؛ (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) [الإسراء:1]، قال: (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) [النجم:11]، قال الله جلَّ في علاه: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) [البقرة:23]، وقال الله تعالى: (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) [الجن:19]، لذلك قال: (إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله).

إذاً قال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)؛ (لِيَكُونَ)، "اللام" هنا لام تعليل، هذه فيها دلالة واضحة جداً على أن الله جلَّ وعلا لا يفعل أمراً ولا يقضي قضاءً إلّا وفيه حكمة والتعليل. وهذا فيه الرد على أهل البدعة والضلالات الذين ينفون الحكمة والتعليل؛ كالأشاعرة وغيرهم الذين ينفون مسألة الحكمة والتعليل، ويقولون ما من فعلٍ إلّا وله حكمة وتعليل. لذلك قال (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ)، وهذا تعليل لأفعال الله جلَّ في علاه للعلة والحكمة، ولذلك قلنا أغلب الأحكام التشريعية أحكام معللة.

فقال: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)؛ (لِلْعَالَمِينَ) قصد به الثقلين: الجن والإنس، وهذه فيها عموم رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [البقرة:119]، قال: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبإ:28]، "كافة" أي عموماً. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فُضِّلت على الأنبياء بست)، وقال: (وكان كل نبيٍ يُبعث إلى قومه خاصة وأرسلت للناس عامة)؛ بل للثقلين، (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) [الأحقاف:29]. فهنا قال: (لِلْعَالَمِينَ)؛ للثقلين للجن وللإنس.

(نَذِيراً)؛ النذارة هي الإعلامٌ بأسباب المخاطر، والفرق بين النذارة والإعلام: الإعلام عام والنذارة خاصة فيما هو مخوّف. والإنذار قد يكون: إنذاراً عاماً وقد يكون إنذاراً خاصاً.

◆ والإنذار العام فيه إقامة الحجة والدلالة؛ (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]، كما قال الله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [نوح:1]، هذا الإنذار إنذارٌ عام فيه إقامة الحجة على الناس جميعاً وإخراج معلوم الله فيهم.

◆ والنذارةٌ الخاصة هي النذارة التي تفيدك، النذارة التي ينتفع بها أهل الإيمان؛ (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) [الذاريات:55]، قال: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا) [النازعات:45]، هذا على التخصيص. (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ) [يس:11]؛ يعني تنذرهم نذارة تنفعهم، يسارعون يهرولون يتسابقون يتنافسون في الخيرات لدخول الجنات.

وأمّا النذارة العامة فهي كما في قول الله جلَّ في علاه: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء:214]، وقول الله جلَّ وعلا: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [البقرة:119]، على العموم.

قال: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [الفرقان:1-2]، ما زال يعدد لنا صفات الإثبات لله جلَّ في علاه، وكلها كمالات، لذلك تراه يفصّل ويوصّل ويؤسس ويأتي بذلك التفصيل أدباً مع رب العالمين. قال: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؛ مالك الملك هو الله جلَّ في علاه، له التصرف فيها؛ يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، يحيي من يشاء، يميت من يشاء، يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه- بعد ما وصف ما بين السماء والأرض مسيرة خمسين ألف سنة، قال: والعرش فوق الماء، والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط

ويخفضه). النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يرفع أقواماً ويخفض آخرين)، ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ) [آل عمران:26]. فله ملكوت السماوات والأرض، وبيده خزائن السماوات والأرض، لذلك ما أفلح النمرود ولا أفلح فرعون عندما ادعوا ونازعوا ربهم في الربوبية.

وقول الله جلَّ في علاه: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون:91-92]. قلنا ما زال المصنف -رحمه الله تعالى- يبيّن لنا عقيدة أهل السنة وجماعة في صفات الله جلَّ في علاه، وكيف أنهم وسط بين أهل الغلو وأهل الجفو، وأيضاً عدد لنا الصفات: صفات الذات، وصفات الأفعال، وأيضاً صفات الكمال، مع أيضاً النفي في صفات النقص. وكيف كان أدب أهل السنة والجماعة بما أدّبهم القرآن به في مسألة الإثبات ومسألة النفي.

قال الله تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ)؛ فإن الله جلَّ في علاه منزّه عن الولد كما أنه منزّه عن الشبيه والمثل والند سبحانه جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]، فإن الله جلَّ وعلا قال منكراً على من ادعى عليه الولد.

ما أدري كيف يسألون ويتجرؤون على السؤال في التهنئة بالأعياد وأعيادٍ الميلاد، وهي أصلاً نابعة عن عقيدة قيامة الرب!! يعتقدون بأن عيسى -عليه السلام- مات ثلاثة أيام وقد قامت قيامته -حاشا لله سبحان ربي العظيم-.

كيف يكون رباً من مات؟ كيف يكون رباً من وضع الشوك على رأسه وصلب وقطّع وجلد وأهين؟ أيكون رباً؟ هذا غباءٌ مستحكم وهذا كفرٌ مبين. وعيسى -عليه السلام- مبرأ من ذلك، عيسى -عليه لسلام- لم يصلب، قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ) [النساء:157]. أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل).

ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم:88-95]. وقال

النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا "لا إله إلّا الله")، قضية الكون الكبرى.

واتخاذ الولد فيه سداد من الإعواز، وفيه نقص، وفيه جهل، وفيه ضعف، وفيه عجز. والله جلَّ في علاه له الكمال المطلق، والبهاء المطلق، والعظمة المطلقة، والقدرة والعزة والعظمة والكبرياء سبحانه جلَّ في علاه. لذلك قال الله نافياً ذلك: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ)، بل قال: (يؤذيني ابن آدم)، وفي رواية قال: (يسبني، يشتمني ابن آدم)؛ هم ينسبون له الولد، وهو الواحد الأحد. (مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا) [الجن:3].

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ)؛ هو الواحد الأحد سبحانه جلَّ في علاه. (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ) فيه الرد على النصارى والرد على اليهود: فاليهود هم الذين قالوا عزيرٌ كذا ونسبوه ابناً لله، والنصارى قالوا عيسى كذا ونسبوه ابناً لله. لذلك في حديث الشفاعة الطويل يقال: (من كان يعبد أحداً فليتبعه)، ثم يتمثّل لهم عزير وعيسى (جني) بأشكالهم، لأن (الله جلَّ وعلا يقول: وما أبقاكم؟ يقولون: ننتظر عزيراً كذا ابن كذا ربنا، فيقول الله جلَّ في علاه: كذبتم (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ)).

وأيضاً النصارى يقول لهم: (كذبتم (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ)). (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [يونس:68]، وانظر إلى قول الله جلَّ في علاه: (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ) [الزمر:4]. لأنه لم يلد ولم يولد، هو الصمد، الجميع عجز فقراء إليه، كلهم يصمدون إليه في حوائجهم.

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ)؛ ليس له من شريك ولا ند؛ لا في الربوبية ولا في الإلهية، ولا في الأسماء والصفات، هو واحدٌ في الربوبية خالقٌ رازقٌ مدبرٌ قادرٌ قديرٌ سبحانه جلَّ في علاه. حتى المشركين (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) [الزمر:38].

واحدٌ في أسمائه الحسنى وصفاته العلى، لا ند له لا سميّ له لا شبيه له، قال الله تعالى: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) [مريم:65] هذا استفهام إقراري، لا سمي ولا ند، سبحانه جلَّ في علاه هو الواحد الأحد؛ واحد في إلهيته لا ينازعه فيها أحد، ورغم أنوف المشركين عندما قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص:5].

فالله هو الواحد الأحد، وهو المستحق أن يفرد بالعبادة سبحانه جلَّ في علاه، وهذا معنى "لا إله إلّا الله" (لا أن يقول أهل الضلال: "لا رب إلّا الله")، "لا إله إلّا الله" يعني لا معبود بحقٍ إلّا الله، هذه قضية الكون الكبرى. ولذلك قال: (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ)، كأنه يقول: كما أقررتم أنه ليس معه من رب، إذاً ليس معه من إله. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) [النساء:1]، وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:21].

ذكر الربوبية التي تستلزم الإلهية، كأنه قال: وتتفقون على أنه لا خالق مع الله، إذاً لا معبود بحقٍ إلّا الله، لا معبود معه بحال من الأحوال. أقمتم الحجة على أنفسكم؛ ما دام قد خلق، ما دام قد رزق، ما دام قد أمات، قد أحيا، قد رفع، قد خفض، قد أعطى، قد منع فهو الرب المستحق أن يفرد بالعبادة. (إني والجن والإنس في نبأٍ عظيم، أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي. خيري إلى العباد نازل وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعائم ويتبغضون إليّ بالمعاصي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن عصوني فأنا طبيبهم).

قال: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ). لا بد أن تعلم بأنه لو كان هناك إله مع الله جلَّ في علاه فلا بد أن تتم المنازعة، كملوك الدنيا. كما قال الله جلَّ في علاه: (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) [الإسراء:42-43]. فملوك الدنيا ينازع بعضهم بعضاً للانفراد. ولذلك هنا الدليل كما قال البلاغيون وغيرهم: هذا الدليل يسمى دليل التمانع، يكون فيه المغالبة والقهر. (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) [الإسراء:42].

ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22]، كيف ذلك؟ لو كان فيهما إلهٌ فإنه لا بد أن تتم المغالبة، ولا بد إذا تمت المغالبة نقول: علا بعضهم على بعض. فمن كانت له الغلبة استحق الربوبية، ومن كان غير ذلك فلا يستحق الربوبية. هنا الله جلَّ وعلا كأنه قال: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ) سيبتغون بعضهم إلى بعض، فالمسألة على احتمالين:

- غالب ومغلوب - لا غالب ولا مغلوب؛

هذه لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال، لأنه لو كان لا غالب ولا مغلوب واستوت الكفة (لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ): ذهب إله الشمس بالشمس، إله القمر بالقمر، إله الأرض بالأرض، إله النهر بالنهر. لفسد الكون بهذا، وأنت تراه على نسقٍ واحد ونظمٍ واحد. قال الله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)؛ ما دام الكون مستقيماً، ما دام الأمر على بديع خلق الله جلَّ في علاه فاعلم بأن الذي خلقه واحد أحد، هو المستحق للعبادة سبحانه جلَّ في علاه، (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ). فلمّا لم يكن، علمنا بأن الكون له إلهٌ واحد.

قال (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)؛ سبحان الله تنزيهاً، "أسبّح سبحان" أي أنزّه الله جلَّ في علاه عن كل نقصٍ وعيب. انظر هنا الآن وطبق لي قاعدة أهل السنة والجماعة في صفات النفي، هنا ائتني بتطبيق قواعد أهل السنة والجماعة في الصفات السلبية بهذا في هذه الصورة؟ (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)، أكمل الآيات وائتني كيف كان تطبيق قواعد أهل السنة والجماعة في مسألة صفات السلب؟

قلنا الصفات المنفية لا بد فيها من إثبات كمال الضد، وقد يسبق التهيئة لإثبات كمال الضد لنقبل النفي ونحن قد استقر في نفوسنا إثبات كمال الضد. يعني ليس شرطاً أنني لمّا آتي بالصفات السلبية (صفات النفي) يعقبها إثبات كمال الضد، قد يسبق إثبات كمال الضد لتهيئة النفي على معلومية أن صفات النقص عندما انفيها أثبت كمان الضد.

لتعلموا كيف أن الآيات في نسقٍ واحد أدّت بتطبيق قواعد أهل السنة والجماعة، وإلّا فصاحب الواسطية ما يريد لكم إلّا ترسيخ أسس وأصول الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة. قال الله تعالى: (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) [المؤمنون:84-87]. هو يجرهم الآن من المتفق عليه إلى المختلف فيه؛ يعني إقرار الربوبية، وإقرار الربوبية في هذا الباب إثبات كمال الضد.

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [المؤمنون:86-92].

فسبق إثبات كمال الضد، ما كان لاحقاً. خذ بطرف عينك إلى الآيات لتعلم أن المسألة ليس شرطاً عندما أثبت الصفات المنفية وأنفيها عن الله في إثبات كمال الضد أن يكون لاحقاً، قد يكون سابقاً تهيئةً للنفوس في هذا الباب. لذلك قال: (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ)، وإنهم هم الآن أقرُّوا كل هذا الإقرار، (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ).

"أسبّح سبحان"؛ تنزيهاً أنزّه ربي جلَّ في علاه عن الولد، وأنزّه ربي عن الشريك وعن الند وعن السميّ وعن المثيل. نعوذ بالله من الكفر، نعوذ بالله من الكفران والعصيان والشرك والخذلان، نعوذ بالله من النيران. اللهم أدخلنا الجنة سالمين وأنت أرحم

الراحمين. قال: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) على أساس أنهم معظم الشرك الذي وقعوا به هو شرك الإلهية.

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) المناسبة بين هذه الآيات وهذه الآية؟ الله جلَّ في علاه يبيّن لهم جُرم ما هم فيه وخاصمهم فيه: إنكم لا تعلمون ما تقولون، لا تعلمون ما تزعمون، والله يعلم كل شيء (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ). يعلم أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، ويعلم أيضاً أنكم فعلتم ذلك بعدما أقيمت عليكم الحجة جحوداً وظلماً وزوراً.

قال: (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)؛ الغيب غيبان: غيبٌ مطلق، وغيبٌ نسبي إضافي مقيّد.

◆ الغيب النسبي الإضافي: هو الذي قد يغيب عن زيد وعيد وعبيد وعمير، ويعلمه أحمد ومحمد وزينب؛ مثلاً كمن غاب عنه من سرق ماله، والجن يعرف (القرين). فهذا علم نسبي إضافي، فمن ادّعى العلم النسبي الإضافي لا يكفر بذلك، قد يعلمه من الكهنة، يعلمه من الجن (من القرين)؛ قد يخبره من سرق أنه سرق فقد يعلمه فلا يكفر إذا ادّعى ذلك.

◆ أمّا الغيب المطلق من ادّعاه فقد كفر، ولذلك قال: (فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) لأنهم يشركون به في ادّعاء أن هناك من يعلم الغيب. كالروافض الخبثاء الذين يدّعون بأن الأولياء يعلمون الغيب، وكالكهنة الذين يزعمون بلسان الحال علم الغيب المطلق. والله جلَّ في علاه يعلم ما كان وما يكون ولم يكن لو كان كيف سيكون، وادّعاء علم الغيب كفرٌ وشركٌ بالله جلَّ في علاه لأنها منازعة في الربوبية، فهذا شركٌ في الربوبية، فالكهنة الذين يخبرون ما في الغيب شرك بالربوبية. أرأيت كيف أنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- على الجارية عندما قالت: وفينا نبيٌ يعلم ما في غدٍ، قال: (دعك من هذا، ارجعي فقولي كما كنت تقولين).

قال الله تعالى: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65]؛ "إِلَّا" الله هذا أسلوب حصر وقصر، (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ) [يونس:20]. ولذلك تبرأ النبي من علم الغيب قال: (وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) [الأعراف:188]، ولذلك قال: (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) [الأعراف:188].

والنبي هناك وقائع كثيرة جداً تثبت أنه ما كان يعلم الغيب؛ حادثة الإفك واحدة منها، أيضاً في غزوة بدر عندما نزل بهم في منزلٍ ليس منزلاً للقتال، وأيضاً كعب بن مالك، والثلاثة الذين خلفوا، والمنافقون، كلها وقائع تثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا

يعلم الغيب. فمن تكهّن بالغيب فقد وقع في الشرك (شرك الربوبية)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أتى كاهناً فسأله فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد). (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65].

لذلك الله تعالى: (فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)؛ ينزّه الله جل في علاه عن الشرك وعن الشركاء، ولذلك فإن الله جلَّ في علاه لمّا قال: (فَتَعَالَىٰ) فله العلو المطلق سبحانه جلَّ في علاه، فهو إثبات علو القهر وعلو الشأن وعلو المكان سبحانه. فإنه تعالى أن يكون له ند أو سميّ أو مثيل، تعالى أن يكون له ولد، تعالى أن يكون له معين وظهير، هو الواحد الأحد، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40].

ولذلك ترى بأن الله علّمنا على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- نثبت لله العلو المطلق عندما تقول عند دعاء الاستفتاح: (وتعالى جدّك). فله العلو المطلق، له علو الذات وعلو القهر وعلو القدر وعلو الشأن، سبحانه جلَّ في علاه. لذلك قال في الآية الأخرى: (فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ) [النحل:74]، وهذه إن شاء الله يأتي شرحها في الدروس القادمة، اللهم ثبت لنا هذا الخير ما حيينا أبداً.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس والثلاثون: آيات الصفات المنفية في تنزيه الله ونفي المثل عنه (5)

ما زلنا مع اعتقاد أهل السنة والجماعة والكلام على الواسطية، وهذا كما قلنا تقعيداً وتفصيلاً، أراد أن يبني لك اعتقاداً على اعتقاد أهل السنة والجماعة من السلف الصالح، إذ لا نجاة ولا سداد ولا رشاد إلّا بهذا الاعتقاد. ومهما يكن في الإنسان وإن كان على ضعفٍ وخوار، فإنه إن سار على الدرب سيصل. ما أحد يسير على الدرب إلّا وقد وصل ولو يمشي مشي النمل، لكنه إن كان على الخط المستقيم والطريق القويم سيصل. التعرج هو الذي يقتل الإنسان وإن كان مسرعاً، قد يتعرج مسرعاً في حيدة تودي به إلى هوةٍ سحيقة يتردّى فيها ولا ينجو كبدعةٍ مظلمة فتضيّعه.

قال الله تعالى: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل:74]، (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [الأعراف:33].

وقفنا عند قوله جلَّ في علاه: (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [الأعراف:33]، نحن أرجأنا الكلام في هذه لأن الحق بأن هذه الآية

عظيمة جداً ولها أصول نتكلم عنها، لا سيما وكما قلنا بأن الله ما خلق الخلق إلّا لقضية الكون الكبرى. الأهمية العظمى في هذه القضية وهي تحقيق توحيد الله جلَّ في علاه، ولذلك قال: (وَأَن تَقُولُوا)؛ أي وأن لا تقولوا، (وَأَن تُشْرِكُوا)؛ أي وأن لا تشركوا وحرّم عليكم أن تشركوا.

وطبعاً في قول الله جلَّ في علاه: (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)، أوجب ظاهره إشكالاً عند الأغرار، ما هو الإشكال؟ وكيف الإجابة عنه؟ هنا الآن عندما يقول (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)، وهل في حقيقة الأمر هناك سلطان بالشرك؟ أعوذ بالله، فكيف الإجابة عنه؟ الحق هنا أن نقول: (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)، والحال أنه لا سلطان على الشرك، والحال أنه لا دليل على الشرك.

قال: (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)، والشرك هو أظلم الظلم وأقبح الذنب وأفحشه وأجهله، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين)، قال: (ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور). وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اجتنبوا السبع الموبقات)؛ يعني اجتنبوا السبع المهلكات، وذكر أول المهلكات الشرك.

وأيضاً بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال ابن مسعود: (قلت: أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك).

وقال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13]، وقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]. قال أعقل الفقهاء الشافعي: أن أقابل الله بكل ذنبٍ خلا الشرك أحب إليّ، لأن الشرك لا نجاة معه، ولأن الشرك من أظلم الظلم وهو أبغض شيءٍ إلى الله جلَّ في علاه، لذلك حاربه الله جلَّ في علاه في كل موضع.

والشرك ينقسم إلى قسمين: شركٌ أكبر وشركٌ أصغر. وأخطره وأفحشه وأظلمه وأقبحه هو الشرك الأكبر.

والشرك الأكبر أقسام، أصله وأسه وأساسه -ما دمنا نتكلم على اعتقاد السلف والكلام على الصفات والأسماء-: هي تسوية الخلق بالخالق، أعظمه فيها تسوية المخلوق بخالقه سبحانه جلَّ في علاه. ولذلك قال نعيم بن حمّاد: من شبّه الله بخلقه فقد كفر. ما الوجهة؟ لِمَ هذا وذاك؟ طبعاً نقول: من شبّه الله بخلقه فقد وصف الله بالنقص، ومن شبّه الخلق بالخالق فقد جعل معه الشركاء، وإذا قلنا بأن الشرك هو المساواة، فإن الشرك يكون في أقسام التوحيد.

إذاً "من شبّه الله بخلقه" في هذا قد وصف الله بالنقص، لأن الإنسان على نقصٍ وعلى عجزٍ وعلى ضعف. أرأيت ماذا قال الله جلَّ في علاه؟ (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]. وأيضاً من شبّه الخلق بالخالق فإنه بذلك قد جعل لله شريكاً، وقد كذّب القرآن. وإذا قلنا بأن التوحيد هو:

١- العلم الخبري ٢- والقصد الطلبي

أو

١- توحيد الأسماء والصفات الربوبية ٢- وتوحيد الإلهية

١- فيكون الشرك هنا شرك في قسم العلم الخبري. وهذا التقسيم ليس تقسيماً بدعياً، بل هذا التقسيم ترتيب للتقريب. فالشرك يكون: في الأسماء، والصفات، وفي الربوبية. فيكون من هنا هذا الشرك له أنواع: شرك تعطيلٍ وشرك تمثيل.

◆ وشرك التعطيل: هو شرك التعطيل عن كمالات لله جلَّ في علاه؛ كما تفعل الجهمية هؤلاء الذين هم من أخبث خلق الله جلَّ في علاه، الذين ينفون الأسماء والصفات، وطبعاً من لازم ذلك أنهم ينفون الربوبية. يقولون: لا سميع ولا سمع، لا بصير ولا بصر، لا كريم ولا كرم، لا قدير ولا قدرة. نعوذ بالله من الخذلان والكفران والعصيان.

يدخل في شرك التعطيل -حتى نفهم أنها أيضاً مراحل- أهل التحريف الذين زعموا تأويلاً، لأن هذا يعتبر من التعطيل النوعي. لا بد أن نفقه هذا لأنه لما يقول: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]؛ يقول: استولى، لا يوجد استوى. لمّا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ينزل ربنا ثلث الليل)؛ فيقولون: إذاً النزول نزول الرحمة، هو لا ينزل، هو لا يأتي، هو لا يجيء، هو لا يحب، هو لا يكره، هو لا يبغض. إرادة ثواب، إرادة عقاب. على ما حرَّفوا وأوّلوا، فهذا نوع تعطيل أيضاً لكن لا يرتقي للتعطيل الأول، هذا الأصل في هذا الباب.

◆ والثاني هو شرك التمثيل: وشرك التمثيل هنا هو تشبيه الخالق بخلقه؛ يقولون: يدٌ كيد الإنسان، عين كعين الإنسان، فيشبّه الخالق بالخلق. نعوذ بالله وأمثال هؤلاء: الذين جعلوا لله ولداً، والذين ادّعوا بأن الله يتكلم يسمع يرى له يد له عين كالبشر. هؤلاء يدخلون في هذا، وهذا شرك التمثيل. نعوذ بالله من غضب الله، نعوذ بالله من غضب الله.

هذا الشرك العلمي الخبري.

٢- ثم الشرك في القصد الطلبي: الشرك هنا بأنهم يسوون بين الله وبين الخلق في العبادة، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) [البقرة:165]. الشرك في القصد الطلبي هو صرف العبادة لغير الله جلَّ في علاه، وجعلوا الأوثان الذين لا يسمعون ولا يبصرون ولا يقدرون -استغفر الله-، جعلوها آلهة مع الله جلَّ في علاه. هذا الشرك الثاني وهو شرك إلهية؛ لذلك ترى من ذبح لغير الله، من نذر لغير الله، من دعا غير الله جلَّ في علاه وقع في هذا الشرك.

وهذا الذي فعله مشركو العرب، وقعوا في مثل ذلك: الذبح والنذر للأصنام والأوثان، الاستقسام بالأزلام، ميل قلوبهم لغير الله جلَّ في علاه بالتوكل عليه والدعاء له، وصرف كل عبادةٍ له، لغير الله جلَّ وعلا. كما بيّن الله بأنهم كانوا إذا ذبحوا الذبائح يقولون: (هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا) [الأنعام:136]، وحتى قسمة العدل ليست عندهم؛ (فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ) [الأنعام:136]، فهذا الشرك الثاني.

لذلك قال: (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)؛ وهذه أنواع الشرك الأكبر:

١- شركٌ في القسم العلم الخبري ٢- شركٌ في القسم القصد الطلبي

أو

١- شرك في الأسماء والصفات شرك في الربوبية ٢- شرك في الإلهية،

وهذا أخطر ما يكون لأن به الخلود في النيران لا خروج منها بحال، (يذبح الموت ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون. ويا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون. يقولون: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم الموت، فيقول: خلود بلا موت). نسأل الله الجنة اللهم آمين.

والقسم الثاني من الشرك هو الشرك الأصغر:

الشرك الأصغر دون الشرك الأكبر، والشرك الأصغر: هو كل ما جاء الشرع بتسميته شركاً، ووجدنا أنه لا يخرج من الملة ولا يستوجب خلوداً في النار. إذاً عندنا الشرك شركان: شركٌ أكبر وشركٌ أصغر. وكما قلت الشرك الأصغر: هو الذي جاء الشرع بتسميته شركاً، ولكن لم نرَ له خلوداً في النار ولم نرَ له خروجاً من الملة بالأدلة.

والشرك الأصغر يكون في: الأقوال والأفعال ويكون في النيات (في الإرادات).

الشرك الأصغر في الأقوال:

- كالقسم بغير الله؛ (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك).

- وكاستواء المشيئة؛ أن يقول شاء الله وشاء فلان، استغفر الله. لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قولوا: بل شاء الله وحده)، وعلّمهم بعدما أغلق الباب قال: (قولوا: شاء الله ثم شئت).

- ومنها أن يوهم بالاقتران بين الله وبين عباده؛ قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فقد غوى، قال: (بئس خطيب الأمة أنت، أجعلتني لله نداً؟)

أو في الحديث الآخر -حتى ما أكون خلطت- إنما قال: شاء الله وشئت، قال: (بئس خطيب الأمة أنت، أجعلتني لله ندا؟)

- وشركٌ أيضاً في الأفعال: كلبس الصوف وغير ذلك مما يعتقد أنه سبب في شيءٍ وقلبه يميل لربه.

يعني الضابط الكلي اتخاذ سبب لم يشرعه الله جلَّ في علاه، سبباً لم يأتِ الشرع بتسميته سبباً، فهذا شركٌ أصغر، لأنه التفات، ولأن في التفات القلب لغير الرب جلَّ في علاه. لكن كل ذلك قد جاء الشرع بأن صاحبه لا يخلد في نار جهنم؛ يعني من حلف بغير الله، من لبس الصوفة ويعتقد بأن الله هو الذي يشفي وهذه سبب من الأسباب فقط، أو يعني من جاء شيء من الطيرة عنده في قلبه، أو غير ذلك من الأمور هذه فإنه لم يرد الدليل على الخلود في النار. لأن الله جلَّ في علاه قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]؛ أوّلها الجمهور على الشرك الأكبر، وإن كنت أنا أدين الله بما قاله ابن تيمية فإن الشرك الأصغر يدخل في الأمرين أيضاً.

لكن يستدل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة). وقال: (بشرني جبريل آنفاً)، فقال له أبو ذر: وإن زنى وإن سرق؟ قال: (وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر، وعلى رغم أنف أبي ذر). هذه دلالة واضحة جداً على مثل هذا الباب، بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- سمّاه شركاً، لكن بيّن الخلاص يوم القيامة.

كما قال: (اثنتان من أمتي هما بهم كفر)؛ وذكر النياح على الميت، وذكر بأن المرأة النائحة تأتي يوم القيامة عليها جلباب من قطران في عرصات يوم القيامة ثم ينظر سبيلها إلى جنةٍ أم إلى نار.

قال: (وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)؛ والشرك الأكبر والشرك الأصغر يتفقان ويفترقان:

- الفوارق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

١- الشرك الأكبر يوجب الخلود في النيران؛ قال الله جلَّ وعلا: (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا) [التغابن:10]، وفي الآية الأخرى: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) [الجن:23]، فالشرك الأكبر يوجب الخلود في النيران وعدم الخروج منها.

والشرك الأصغر لا يوجب الخلود في النار، بل هو من جنس المعاصي والسيئات.

٢- الشرك الأكبر يوجب حبوط كل الأعمال؛ كما قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر:65]، وقال عن الأنبياء جميعاً وهم سادة الناس: (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام:88]، وقال الله جلَّ في علاه عن الكفار وما عاثوا به فساداً: (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) [الفرقان:23].

وأمّا الشرك الأصغر فحبوط العمل الذي كان فيه الرياء.

[تابع لأنواع الشرك الأصغر]: شرك الإرادات؛ أي يسير الرياء، لأن كثير الرياء يصل بالإنسان إلى النفاق. فهو يسير الرياء، وهذا ورد بأحاديث لكنه ضعيف: "يسير الرياء شرك". المنافق يؤتى بنقيض قلبه؛ (من راءى راءى الله به، ومن سمّع سمّع الله به، وما استسر عبداً سريرة إلّا وكشفها الله على فلتات لسانه وتعبيرات وجهه).

*نعود إلى الفوارق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

٣- الشرك الأكبر لا كفارة له، وليس فيه إلّا التوبة وأن يؤوب المرء إلى ربه ويرجع إلى التوحيد.

والشرك الأصغر جعل له النبي كفارة؛ قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أشرك)، وقال في كفارته: (أن يقول: لا إله إلّا الله).

◆ تبقّى مسألة أراها يتفق فيها الشرك الأصغر مع الشرك الأكبر: وهو أنهما لا يغفران. أنا أدين الله بأن الشرك الأصغر كالشرك الأكبر؛ الشرك الأصغر لا يغفر، كما أن الشرك الأكبر لا يغفر. وهذا كان من كلام ابن تيمية، وإن انتقده من انتقده، وإن راجعه من راجعه، لكنه ينزل تحت العموم. فإن الله جلَّ في علاه قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]؛ "إنَّ" والفعل هذه مصدرية، والمعنى أن الله لا يغفر إشراكاً، وهذا نكرة في سياق النفي تفيد العموم.

فالشرك الأصغر أيضاً لا ينتفي من الصحيفة، يبقى في الصحيفة -اللهم اغفر لنا يا رب- إلّا أن يتوب منها أو يأتي بكفارتها. فإن لم يتب وإن لم يأتِ بالكفارة يبقى في الصحيفة، وينظر في الميزان إن غلبت الحسنات على السيئات نجا، وإلّا هلك. وحقاً

كيف تنجو صحيفة فيها شرك؟!! اللهم اغفر وارحم وتجاوز عمّا تعلم فإنك أنت الأعز الأكرم.

قال: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)؛ وهذه أعظم لأن هنا الآية رتبت لنا الآثام والمعاصي ترتيباً تصاعدياً من الأدنى إلى الأعلى: فابتدأ بالفواحش، ثم بعد ذلك بالظلم والإثم، ثم بعد ذلك بالشرك، ثم بعد ذلك بالقول على الله. المشرك يهلك نفسه، أمّا الذي يقول على الله جلَّ في علاه فهو يهلك أمم. فالتعدي هو الذي يعظِّم المسألة؛ كلّما كان الضرر متعدياً، كلّما كان الإثم أعظم، كلّما كان الضرر ذاتياً فالإثم خفي، هذا أصل. فهنا (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) افتراءً وكذباً على الله جلَّ في علاه، وهذا ضررُه بالغٌ جداً جداً، لأنه انظر كيف حذر الله من ذلك في غير ما موضع من آياته.

(وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فيها:

◆ أولاً مسألة الاشتقاق تنزل تحت عموم هذه الآية؛ اشتقاق الأسماء من الصفات تنزل تحت هذه الآية، لأنه سيقول على الله ما لا يعلم، يسمّي الله بما لم يسمِّ به نفسه وما سمّاه رسوله -صلى الله عليه وسلم-. يتكلم عن الله بما يجهل والأمر غيب، والغيب يحتاط فيه المرء، هو متوقف عند هذا الغيب مسلِّمٌ له، هذا حال المسلم يكون متوقفاً مسلِّماً تسليماً تاماً للغيب، (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) [البقرة:3].

◆ في قول (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)؛ أن تقول على الله ما لا تعلم في القدر: قدراً وشرعاً. أمّا شرعاً فهذه المصيبة الكبرى هو أن يفتي بغير علم، أن يعطي حكماً لم يأتِ الشرع، به أن يبتدع في دين الله مشرّعاً. قال الله جلَّ في علاه في سورة النحل: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) [النحل:116]، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من أفتى بغير علم فقد تقحّم النار على غير بصيرة).

◆ ومن ذلك القول على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا فيه ما فيه من الظلم البيّن، وكما قلنا البدعة تدخل في ذلك. كما قال الله منكراً: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21].

الفوائد المستنبطة:

- خطر الشرك وأخطره الخفي.
- حرمة التعالم.
- العالم يوقِّع عن رب العالمين.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السادس والثلاثون: استواء الله على عرشه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه والحاضرين والمستمعين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وقوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) في ستة مواضع. وقوله: (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) [آل عمران:55]، (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) [النساء:158]. وقوله: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) [فاطر:10]، وقوله تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) [غافر:36-37]. وقوله: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) [الملك:16-17].

المصنف -كما قلنا- يبيّن لك عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله جلَّ في علاه، في الأسماء الحسنى. وقد بيّنا بأنه قد أجلى لنا جلياً (الإمام ابن تيمية) البون الشاسع والفرق الواسع بين اعتقاد أهل السنة والجماعة واعتقاد أهل البدعة والضلالة في إثبات صفات الله جلَّ في علاه. وهنا أيضاً يتكلم عن صفة من صفات الله جلَّ وعلا التي نازع فيها أهل البدع، وهي صفة الاستواء، أو قل صفة العلو.

ولأننا نعتقد كما يعتقد أهل السنة والجماعة، بأن أقسام العلو لله جلَّ في علاه:

- علو القدر؛ وهذا لا ينازع فيه أحد قط.

- وعلو القهر؛ وهذا أيضاً لا ينازع فيه أحد، حتى الأشاعرة يثبتونه لأنهم يثبتون الربوبية، فعلو القهر لازم من لوازم الربوبية.

- وعلو الذات؛ وهذه المنازعة فيها من: الجهمية، وأهل الإتحاد والحلول الصوفية، والأشاعرة، والمعتزلة.

كل هؤلاء ينازعون في هذه الصفة العظيمة الجليلة، صفة الكمال والجلال والبهاء والعظمة لربنا ذو الجلال والإكرام.

قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، هو أراد هنا أن يثبت استواء الله جلَّ في علاه. الحق هنا لا بد أن تعلم بأن الاستواء جاء القرآن به ثابتاً في مواضع سبعة، وأيضاً جاءت السنة بإثبات استواء الله جلَّ في علاه على عرشه، وذكر العرش في هذا الباب،

والكلام على العرش، وأيهما خُلِق أولاً العرش أم القلم؟ وأيضاً العقل على ذلك يؤيّد هذه الصفة، وهي من صفات الأفعال.

قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)؛ استوى هي بمعنى الاستواء هنا، هي صفة من صفات الله جلَّ في علاه وهي من صفات الفعل. والاستواء ما كان إلّا بعد العرش، ولك أن تفهم ذلك حين قال الجويني -والجويني كان من الأشاعرة وتاب الله عليه-، الجويني ذكر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كان الله ولم يكن شيء)، قال: وهو على ما كان عليه، يريد بذلك لفت الانتباه إلى عدم وجود العرش، "وهو على ما كان عليه" يعني ليس مستوٍ على عرشه، فهم ينكرون استواء الله على العرش.

فهناك كما قلنا أهل البدع والضلالات أهل الحلول والاتحاد يقولون بأن الله حلّ في كل شيء، وأهل البدع والضلالات من الجهمية ينفون كل الصفات عن الله جلَّ في علاه، وأمّا الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه قالوا: استوى هنا بمعنى استولى، وهذا عجيبٌ وسيأتي إن شاء الله ضلال ما قالوا، وليس عليه ثمة الدليل؛ لا من كتابٍ ولا من سنةٍ ولا من أثرٍ ولا من لغة، لأن هذه ليست من لغة العرب.

هنا في قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، ما العلاقة وهو يقول: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، وما قال: الجبار على العرش استوى، وما قال: العلي العظيم على العرش استوى، قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، فما العلاقة بينهما. يعني لفت الانتباه في هذه الآية العظيمة بأنه عندما وصف نفسه بهذا الفعل "الاستواء على العرش" قال: (الرَّحْمَنُ)، لِمَ؟

الحق لفت الانتباه هنا (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) لأن الله لا يغيب عن عباده، وأن رحمته وسعت كل شيء، وهو الذي استوى على العرش بذاته سبحانه جلَّ في علاه، ورحمته في كل مكان، ورحمته وسعت كل شيء، فرحمته في كل مكان. (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)؛ والمقصود آثار رحمته في كل مكان، ولذلك ابن مسعود يقول: والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه.

وقال الله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) [الأعراف:54]، وهنا أيضاً قدّم لوازم الربوبية ومظاهر الربوبية في خلق السماوات والأرض، وإبداع السماوات والأرض على غير مثالٍ سابق، وأن العرش فوق السماوات كالقبة. وحديث قبة حديث ضعيف، لكن المعنى هنا صحيح، والعرش فوق السماوات والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. لذلك قال: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ)؛ بدأ بالربوبية لأن مظاهر الربوبية هنا الآن مظاهر القوة والقدرة والعزة والعظمة.

الاستواء في اللغة معلوم:

١- يأتي الاستواء بمعنى علا ٢- ويأتي بمعنى علا وارتفع

٣- ويأتي بمعنى استقر ٤- وتأتي بمعنى صعد.

وهنا في حق الله جلَّ في علاه بمعنى "علا وارتفع".

التأسيس في مسألة الاستواء صراحةً من أجل الرد على أهل البدع؛ الكلام الذي جاء عن أم سلمة جاء مرفوعاً وضعيفاً، وجاء عن أم سلمة أيضاً بسند ضعيف، وقاله ربيعة الرأي، واستقر الأمر عند مالك عندما دخل الرجل عليه فسأله وقال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، يا إمام كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم؛ يعني الاستواء في اللغة معلوم، وهو معلومية الاستواء في اللغة جاءت على معانٍ أربعة: علا، ارتفع، استقر، صعد.

والاستواء في اللغة معلوم والكيف مجهول؛ ما قال غير موجود، وأثبت الكيفية لكنها غير معلومة.

والكيف مجهول والإيمان به واجب الإيمان؛ بوجود كيفية وأنها كيفية تليق بجلال الله وكمال الله جلَّ في علاه كله تحت إطار قول الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، بما يليق بجلاله وكماله وعظمته وبهائه.

والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

لذلك فإن في قول الله جلَّ في علاه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)؛ علا وارتفع، ونحن نؤمن بذلك وأن الله على عرشه الآن ويعلم ما نحن عليه، ولا تختلف عليه اللغات ويسمع الأصوات، وأن الله جلَّ في علاه يستجيب الدعوات. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه). وابن مسعود يقول: وما بين الماء والسماء السابعة مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق ذلك ويعلم ما أنتم عليه.

والحق بأن في لغة العرب الاستواء يأتي بمعانٍ ثلاثة: يتعدى بنفسه، ويتعدى ب "إلى"، ويتعدى ب "على"؛ إذا تعدى ب "على" فهو المقصود هنا، وله معانٍ أربعة: علا، ارتفع، صعد، استقر. فهو الصحيح في حق الله جلَّ في علاه: علا وارتفع؛ علا على العرش وارتفع.

فأما بالنسبة لمعنى الاستواء في اللغة:

١- يأتي الاستواء يتعدى بنفسه؛ قال الله جلَّ في علاه: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) [القصص:14]، يعني اكتمل عوده تم واكتمل وبلغ الكمال. تقول: الطعام استوى؛ يعني تم واكتمل نضجه.

٢- وأيضاً قد يأتي يتعدى ب "إلى"؛ (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) [فصلت:11]، يعني قصد السماء، وهذا الذي قاله البيهقي.

٣- ويأتي يتعدى ب "على"؛ والتعدي ب "على" كما قلنا فيه معان أربعة: علا، وارتفع، صعد، استقر. كأن تقول (لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ) [الزخرف:13] تستقرون على ظهوره، تعلون. وأيضاً من العلو (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) [هود:44] استقر. فيكون هو العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

أيضاً يأتي الاستواء مقرونا ب "الواو"؛ كأن تقول: استوى الماء والخشبة، فالواو هذه "واو معية"، استوى الماء والخشبة يعني استوى الماء مع الخشبة، وهذا بمعنى سواها.

فهذه معاني الاستواء المأخوذة في كلامهم ليس فيها معنى استولى البتة، وجاء أهل البدع فقالوا: استوى هنا بمعنى استولى، وهؤلاء يحتجون بخبر يقولون: أنتم ما أردتم المؤول، عندنا الوازع للتأويل "القرينة"، فقالوا:

استوى بشرٌ على العراق *** بغير سيفٍ ولا دم مهراق

هذا البيت أولاً أهل اللغة جميعاً أجمعوا على أنه ليس من اللغة العربية، ليس من لغة العرب، ليس معروفاً من لغة العرب، ليس مسموعاً من لغة العرب. أنكروه إنكاراً شديداً، وهو بيت لرجل نصراني (الأخطل النصراني). لذلك أنت تعرف ابن تيمية في لاميته كان يقول:

قبحا لمن نبذ الكتاب وراءه *** وإذا استدل يقول قال الأخطل

هذا قبحاً له حقاً، لأنه يستدل ببيت لرجل نصراني لا يعرف بالعربية ليحرّف كلام الله عن مواضعه. وهذا رده العلماء وقالوا بأنه باطلٌ، هذا التأويل باطل. ونحن نقول لهم: أنتم إذا أوّلتم الأصل فاللفظ على ظاهره؛ أأنتم أعلم أم الله؟ أنتم أعلم أم رسول الله؟ أأنتم أعلم أم صحابة رسول الله؟

أمّا الله فقد قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، وفي سبعة مواضع من كتابه يقرر هذه الصفة العظيمة باستوائه على العرش سبحانه جلَّ في علاه. وهو يخاطبنا بما نعقل، لا يمكن أن يقال بأن الله يخاطبنا بما لا نعقل، فإن الله يخاطبنا بما نعقل.

فاستواء الله جلَّ في علاه هو الاستواء على العرش، "علا وارتفع" سبحانه جلَّ في علاه. قال الله جلَّ في علاه (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، وقال: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، فخاطبنا بما نعقل باللغة التي نعلمها.

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- المفسِّر والمبيّن لكلام الله جلَّ في علاه، لم يبيّن أن الاستواء بمعنى الاستيلاء، وقد بيّن أن العرش الله عليه سبحانه جلَّ في علاه، كما ورد عن ابن مسعود، وهذا موقوفٌ له حكم الرفع عندما قال: (ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء وأخرى مسيرة خمسمائة عام)، قال: (والماء ما بين السماء السابعة، والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه). هذا لا يمكن إلّا أن يأتي مرفوعاً، هذا موقوف له حكم الرفع.

وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الله خلق العرش، عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، قال: (وعرشه على الماء). والحق أنه اختلف العلماء أيهما أسبق العرش أم القلم؟ قلنا الخلاف بين العلماء ثابت، لكن الصحيح الراجح أنه العرش، العرش خُلِق قبل القلم.

وأمّا توجيه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أول ما خلق الله القلم)؛ على الظرفية في هذا الباب، "على الظرفية" يعني عندما خلقه قال له: اكتب. لكن العرش خُلِق أولاً، وقال: (وكان عرشه على الماء)، فالعرش قبل القلم. فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أثبت العرش وأثبت الاستواء لله جلَّ في علاه، فلو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء كان يجب على النبي أن يبيّنه. ولو قلتم: لا سكت (للعوام)، قلنا: اسكتوا كما سكت، وسعكم ما وسعه ووسعكم ما وسع الصحابة الكرام، ما من أحدٍ من الصحابة قد أوّل ذلك ولا حرّف ذلك. فالأصل الأصيل في هذا الباب هو أن تقول بأن العرش الله جلَّ في علاه قد استوى عليه.

والعقل يؤيّد ذلك، كيف إثبات الاستواء على العرش لله جلَّ في علاه بالعقل؟ ثبت النص بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والعقل أيضاً يثبت استواء الله على العرش، فإذا كان كمالاً في العبد فمن باب أولى أن يكون كمالاً في الرب. إذاً نقول بأن الاستواء فعل وهو كمال، فالعقل يؤيد ويثبت صفة الكمال لله جلَّ في علاه، والفعل من الكمال، فيكون العقل بهذا قد أثبت الاستواء لله جلَّ في علاه.

ويتعبد المرء بهذه الصفة العظيمة:

- أولاً حسن الاعتقاد في رب العباد؛ هذا أهم ما يتعبد به المرء، هو عبودية القلب بالإقرار لصفات الرب جلَّ في علاه.

◆ والأمر الثاني هو التوسل باستواء الله جلَّ في علاه على عرشه لأنه كمال، هو التوسل بفعل من أفعاله. قلنا التوسل يصح؛ بالذات المقدسة، بالأسماء الحسنى، بالصفات العلى، بأفعال الله. قال: "اللهم صلِّ على محمد كما صليت على"؛ هنا يكون التوسل بالأفعال.

◆ الأمر الأخير في التعبد لله جلَّ في علاه هو إثباتها ونفي الضد، لأنه نفي الإتحاد والحلول. هذه من أعظم العبادات أنك تنفي عن ربك النقص، لأنهم يقولون بأن الله حلّ في كل شيء، ويقولون العلو ليس إلّا علو قهر وعلو القدر. ونقول: بل علو الذات أيضاً، لننفي عن ربنا النقص، وهذا الفعل فيه كمال.

ونختم الكلام على العلو والآيات الأخرى أن نقول: علو الله جلَّ في علاه أقسام ثلاثة: علو القدر والشأن، علو القهر، علو الذات.

◆ أمّا علو القدر والشأن فالجميع يقرُّون به، وقد قال الله جلَّ وعلا منكراً على اليهود أن لسان حالهم أنهم لم يؤمنوا به: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]. فقد وصفوا ربهم بالنقص؛ وصفوه بأنه يبكي وأنه أرمد وأنه يستقرض وأنه فقير. عندما قالوا (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة:64]، وقال الله جلَّ في علاه في قولهم: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) قال تهديداً: (سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) [آل عمران:181].

وأيضاً فإن الله جلَّ في علاه قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر:15]. قالوا: خلق السماوات والأرض فتعب من ذلك فاستراح، قال الله جلَّ في علاه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) [ق:38].

◆ وعلو القهر؛ لأن الله قهر عباده وقهر الجبابرة والأكاسرة، وقهر قلوب العباد يملكها يقلّبها كيف يشاء، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، فأيّما قلب أراد أن يقيمه أقامه وأيّما قلب أراد أن يزيغه أزاغه. وقال الله جلَّ في علاه: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) [الأنفال:24]، وقال الله جلَّ في علاه: (فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) [يونس:107] وقال (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]، لذلك قال: (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) [النحل:1].

الفوائد المستنبطة من الآيات:

- إثبات سعة رحمة الله جلَّ في علاه.
- أفعال الله من لوازم ربوبيته.

إثبات العرش رداً على أهل البدعة والضلالات.

وسيأتي إن شاء الله التفصيل على إثبات العرش، وأن الله خلقه وله قوائم أربعة، والملائكة يحملون العرش فوقهم. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثم تكون النفخة الأخرى فأول من يفيق هو أنا، وأول من تنشق عليه الأرض هو أنا، فأرى موسى يتعلق بقوائم العرش).

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السابع والثلاثون: آيات المعيّة (1)

الحمد لله وكفى وسلاماً على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفا، وبعد: إخوتي الكرام مع العقيدة.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، اللهم اغفر لشيخنا ولوالديه والحاضرين والمستمعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في العقيدة الواسطية: وقوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد:4]، وقوله: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [المجادلة:7]، وقوله تعالى: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]، وقوله: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل:128]، وقوله: (وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال:46].

هنا المصنف ما زال يؤسس لنا ويؤصل لنا عقيدة هؤلاء الأخيار الأبرار، قرون الخيرية الأولى التي قال فيها سيد البشرية محمد -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم). بعدما تكلم عن صفات الذات وصفات الأفعال والصفات الاختيارية لله جلَّ في علاه، أراد أن يجمع بين الصفتين هنا في آيةٍ؛ يعني يبيّن لك كيف اعتقاد السلف في هذه الآية العظيمة بالجمع بين الصفتين اللتين من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة.

قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) [الحديد:4]، وأثبت استواءه على العرش، وقلنا العلو هنا علوٌ خاص، يعني هذا ليس بالعلو المطلق، هذا علوٌ خاص علوٌ بالعرش، وهو الاستواء على العرش. (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد:4]، هذا من أعظم ما يمكن استدلالاً على أنه قال: فإن علمت بأن ربك استوى على العرش، والعرش فوق السماء والله فوق العرش، اعلم أنه وهو فوق العرش يعلم ما أنتم عليه.

كما ورد في التصريح في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- بأنه قال: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماءٍ وأخرى مسيرة خمسمائة عام، وذكر: العرش فوق الماء مسيرة خمسمائة عام، قال: والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع له عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل).

إذاً هنا لا بد أن ترى في أنه أراد أن يبيّن لك في هذه الآية العظيمة الصفتين: الصفات الاختيارية وصفات الذات. مع إثبات صفات الأفعال الاختيارية لله جلَّ في علاه فهي: إمّا أن تكون لازمة، وإمّا أن تكون متعدية؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة كل ذلك من الصفات الاختيارية المتعدية. والصفات الاختيارية اللازمة؛ كالاستواء والمجيء والنزول، كلها صفات أيضاً من صفات الأفعال لكنها صفات لازمة.

فهنا أراد أن يبيّن لنا اقتران صفات الذات مع صفات الفعل، وذكر صفة الذات هنا "العلم"، قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)؛ هذا أراد أن يبيّن الله لك بأنه وهو فوق العرش يعلم ما أنتم عليه، كما قال الله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]. يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، يعلم السر وأخفى، لا تواري عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً ولا جبلٌ ما في وعره ولا بحرٌ ما في قعره، فإن الله أحاط بكل شيءٍ علماً سبحانه جلَّ في علاه.

لذلك قال: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، يعلم قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)؛ إذاً كأنه قال: هو استوى على العرش وعلمه في كل مكان. (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)؛ في قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ)، مع إثبات المعية لا بد أن تفهم أنه أراد هنا أن يبيّن لك في إثبات المحكمات للسياق من المفسرات، أراد أن يبيّن شيئاً من السياق، ما هو؟

الصحيح أن نقول بأن السياق هنا كاشف، أراد أن يثبت لك بالمحكمات بأن الله فوق العرش وليس الله في كل مكان. إذاً من المحكمات أن الله فوق العرش، للرد على أهل البدع والضلالات، ولمّا ذكر هنا أنه فوق العرش قال لك: افهم تعلم رحمك الله، الله فوق العرش ويعلم كل شيء، فهو فوق العرش ولا يغيب عنه شيء.

قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)؛ فهو الآن أثبت الفوقية مع إثبات الاستواء على العرش، أنه يعلم كل شيء. ثم ذكر المعية، قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ)؛ يعني معكم بعلمه، أمّا علمه أحاط بكل شيءٍ سمعاً وبصراً وقدرةً. والسمع والبصر آلة العلم، لذلك قال: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12].

قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)؛ بالعلم، والدلالة على الختم، هو ابتدأ وهو فوق العرش يبين هذا. فهنا نقول بالمحكمات "هو فوق العرش"، ولمّا أثبت لك بأنه فوق العرش سبحانه جلَّ في علاه قال: رحمك الله اعلم هو فوق العرش ولا يخفى عنه شيء. ثم بعدما بيّن لك من عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه أنه أحاط بكل شيءٍ علما قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ) أنتم، هذه معية عامة، ثم بعد ذلك أراد أن يفصّل المعية هنا (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)، ثم ختم (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

إذاً هو بيّن عندما قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)، ابتدأ قبلها السياق والسباق واللحاق قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) علمٌ أحاط بكل شيء، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ). هو بذاته؟ ما معنى "مَعَكُمْ"؟ أهو في كل مكان؟ لا، لا يصل إلى ذهنك ذلك، لأن أول الآية ضبطها لك وهذه حكمة الآية "حكمة تصدير الآية بالمحكم": (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، أحكمها (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)، وبيّن لك وأنه مستوٍ على العرش يعلم كل شيء (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ).

إذاً معكم بعلمه، لأن الثابت المحكم أنه فوق العرش والعرش فوق السماء، إذاً هو معكم بعلمه، فختم لك ما يدلك على ذلك. قال: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، فبيّن لك هنا هذه المسألة، بأنه بصيرٌ بما تعملون، عالمٌ بما تفعلون سبحانه جلَّ في علاه. فإذاً في قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ)، وهذه مهمة جداً، هو معكم بمعيته بعلمه سبحانه جلَّ في علاه، واتفاق السلف أن المعية هنا معية علم، هذا اتفاق السلف وابن كثير نقل ذلك.

في قول الله جلَّ في علاه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [المجادلة:7]؛ ابتدأها هنا في هذه الآية بالعلم أولاً: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)، وختمها بالعلم: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

سياقٌ من سباقٍ ولحاق، وواسطة في الخاتمة والابتداء، والواسطة كلها تتحدث عن العلم. وذكر المعية في وسط العلمين دلّ ذلك على أنه أراد أن يشير إليك علماً بأنه معكم بعلمه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُو) معهم بعلمه، يعلم ما هم عليه بعلمه.

قال: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، أثر العلم الآن: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). فإن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وإن الله جلَّ في علاه علم الدقيق والجليل والصغير والكبير، لا يخفى عنه خافية سبحانه جلَّ في علاه، (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) [طه:7].

قال ابن كثير: أجمع السلف في معنى قول الله جلَّ في علاه: (هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) أنه معهم بعلمه سبحانه جلَّ في علاه. (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، بل الأعجب من ذلك بأن الذي سيخبرهم على ما كانوا يفعلون أعضاؤهم، يقول: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يس:65]. ولذلك نقل عن ابن عباس والضحاك والثوري وأحمد وغير هؤلاء من علمائنا من السلف الصالح، قالوا: هو معهم بعلمه. بل قلت بأن ابن كثير نقل الإجماع عن السلف على أن قول الله جلَّ في علاه: (هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) يعني بعلمه سبحانه جلَّ في علاه.

(مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ) من السر الإسرار إلّا يعلمه الله جلَّ وعلا، فقال: (ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)، يعلم ما هم عليه. والحق أن هذه المعية لا بد أن تفهم أنها معية عامة قال: (هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) هذه المعية معية عامة تشمل الخلق أجمعين، أن الله جلَّ وعلا أحاط بهم قوةً قدرةً سمعاً بصراً علماً. قال الله جلَّ وعلا: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف:21]، قال الله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18]، وأيضاً قال: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، هذه هي المعية العامة.

أمّا المعية الأخرى هي معية خاصة بالمؤمنين، بل خاصة بالأنبياء والمرسلين. هذه المعية الخاصة كما قال الله تعالى مبيّناً إيّاها: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]، (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، هذه المعية مفادها وثمرتها وموجبها: معية النصرة، معية التوفيق، معية التسديد، هذه المعية معية السداد والإرشاد والثبات. الله جلَّ في علاه

ذكر وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكر صاحبه الذي كان معه وهو أبو بكر، قال: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]، وهذه إثبات صحبة أبي بكرٍ، كما قال بعض العلماء: من أنكر صحبة أبي بكرٍ أو كفّره يكفر بذلك.

قال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، لأنه قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، قال: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، وقال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا). كانت هذه المعية معية خاصة؛ معية الحفظ ومعية التسديد والتوفيق. فالله جلَّ وعلا حفظه، وأنزل الملائكة وأنزل السكينة على قلبه وقلب صاحبه، وأنزل الملائكة حماية لهم، (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) [التوبة:40].

فقال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، فنصره الله وسدده، ولو كان أحدهم نظر إلى تحت قدميه لرآه، والله ما رءاه ولا يراه، وإن الله جلَّ في علاه قد حفظه. لذلك قال له: استحضر الآن المعية، كن صادقاً في استجلاب المعية سترى التوفيق والتسديد. لذلك قال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)؛ معنا يسددنا ينصرنا ولن يصل لنا من عدونا مكروه، عامةً في قوله: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) هذه معية النصرة والتوفيق والتأييد.

قال موسى: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46]، وهذه معية علم أيضاً، بل هي آلة العلم السمع والبصر، أحاط بكل شيء سمعاً وبصراً. قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، وهذا الذي حدث، أسمع ما يدور بينكم وبينه وأرى ما يفعل بكم، فالحفظ لكم لأن الله معكم. بعض السلف بعث لأخيه قال: أخي في الله، اعلم إن كان الله معك فمن عليك. لو اجتمع من بأقطارها على إسقاط من أقامه الله لن يسقط، ولو اجتمع من بأقطارها على إقامة من أسقطه الله لن يقوم، من كان الله معه فمن عليه.

فرعون قال لهم: إني ربكم الأعلى، وطغى وبغى وتكبر وتجبّر وبنى الصرح وقال: (لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ) [غافر:36-37]. لم نرى كبراً مثل هذا الكبر، ومع ذلك أين هو؟ ماذا فعل الله به؟ وهل تمكّن من موسىٰ وهو أمامه أمام عينيه؟ بل رباه في بيته (قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) [القصص:9]. قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)، لذلك منعه الله جلَّ في علاه من أن يصل بسوء أو بمكروه إلى موسى أو إلى هارون.

موسى قال: (كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء:62]، لمّا ضرب البحر بعصاه مرة ثانية يريد إغلاقه فقال الله جلَّ في علاه -ليس لك هذا يا موسى-: (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ) [الدخان:24]، أغرقه الله جلَّ في علاه. (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ

وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ * وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ) [الشعراء:61-66]. إذاً المسألة فيها ما فيها من حسن اليقين في رب العالمين.

وفي قوله: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل:128]، وقول الله جلَّ في علاه: (وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال:46]، (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة:249].

وهذه دلالة واضحة جداً على أنه قال: إن علمت بأن المعية إن استجلبتها كنت من الموفقين، كنت من الذين نصرهم الله جلَّ في علاه، إذاً لا بد ان تعلم علم اليقين بأن هناك أسباب لاستجلاب معية الله، لأن هذه من السنن الكونية، بأن هناك أسباب لا بد أن تأخذ بها لتستجلب معية الله.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل:128]، إذاً أعظم الأسباب استجلاباً لمعية الله جلَّ في علاه "أن تكون من المحسنين"، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [العنكبوت:69]، تأكيد بأنه مع المحسنين. والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ومعنى الإحسان: أن يكون غالب حالك لله جلَّ في علاه، هذا أصل الإحسان، فإن تحسن في الواجبات وفي المستحبات وفي غيرها من الصالحات، قال: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ).

ومن أهم ومن أعظم الأسباب التي تستجلب معية الله جلَّ في علاه "الصبر"، (وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال:46]. وفصّلت القول قبل ذلك بأن الصبر صبران:

- صبرٌ اختياري - وصبرٌ اضطراري،

أو - صبرٌ على الطاعات وصبرٌ عن المعاصي والمحرمات

- وصبرٌ على أقدار الله جلَّ في علاه.

صبرٌ اختياري وصبرٌ اضطراري، وفي كلٍ خير، وإن الله قال: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر:10]؛ فتصبر على الواجبات الصالحات، وتصبر على المحرمات، وأيضاً تصبر على أقدار الله جلَّ في علاه. فأنت بهذا تستجلب معية الله، فإن كان الله معك فمن عليك؟ قاموا سنين يريدون القتل أو يريدون الإسقاط أو يريدون التضليل أو يريدون الجرح والتعديل كما يقولون، فأسقطهم الله جلَّ في علاه.

أقول من كان الله معه مستحضراً معية الله جلَّ في علاه فمن عليه؟ من يستطيع له شيئاً مكروهاً؟ لا يستطيعون.

قال الله جلَّ في علاه عن نبينا بعدما أوزع في قلبه أن يقول ذلك لصاحبه: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، وقد قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)، وأيضاً قال: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً)، انظر كيف المعية أتت بالنصرة والتأييد والتوفيق. ولذلك قال: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة:249]، انظر قال: (فَهَزَمُوهُم) والفاء للسرعة (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) [البقرة:251].

إذاً هذه دلالات واضحات باهرات على معية النصرة والتأييد، وهذه المعية لا تكون لجميع الخلق، بل هي إلى خاصة الخلق؛ من؟ الذين صبروا، من؟ الذين أحسنوا، من؟ الذين اتقوا. أيضاً من أهم الأسباب التي تستجلب معية الله جلَّ في علاه "كثرة ذكر الله"، (اجعل لسانك رطباً بذكر الله). وأين الدليل؟ حديث الصحيحين: بأن الله قال: (أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه)، اللهم ارزقنا ذكرك يا رب العالمين

الفوائد المستنبطة:

- السياق والسباق واللحاق من المفسرات والمقيدات.
- عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه وسعة علمه.
- إثبات البعث والنشور؛ (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).
- أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.
- من نصر الله نصره الله.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثامن والثلاثون: آيات المعيّة (2)

وقفنا عند قول الله جلَّ في علاه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [المجادلة:7].

انتقل هنا المصنف أيضاً ليبيّن لنا الكلام على صفات الله جلَّ في علاه، ما زال يفنّد لنا ويبيّن لنا اعتقاد السلف الصالح وسمّاه الواسطية، لأنه بين غلوٌ وجفو؛ بين الذين يعطلون تعطيلاً كاملاً، وبين الذين يحرّفون يقولون بأنهم يؤوّلون، والذين يمسكون العصا من الوسط. لكن هو يقول الوسطية هم أهل السنة والجماعة، لا غلو فيهم ولا جفو.

هنا يقول الله جلَّ في علاه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)، "النجوى" هو الإسرار يستسرون. هنا يقول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وافتتحها بقوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ). هنا انتقل المصنف إلى الكلام على المعية وهذه مسألة من الأهمية بمكان، عصب هذه المسألة في آيتين، ما هما الآيتان؟ هو الكلام على المحكم ومسألة المعيّة؛ لأنه هو يقول: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5]، وهنا يقول: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ).

فلذلك العلماء نقلوا الإجماع (إجماع السلف) على أن المعية هنا معية العلم، (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)؛ رابعهم بعلمه لأن الله تعالى قد أحاط بالكون بأسره سمعاً وبصراً وقدرةً وعلماً سبحانه جلَّ في علاه. فيكون هنا هذه الآية (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) هذه لا بد أن تفهم مع وجود المحكم؛ يعني الأصل هنا عندنا آية محكمة أثبتت هذا، هذه الآية المحكمة هي التي بيّنت لنا الاعتقاد السديد في الله جلَّ في علاه، أين هو؟ هو فوق العرش، فوق السماء بائنٌ من خلقه، استوى على عرشه سبحانه جلَّ في علاه؛ (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ)، (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16]، (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18].

فهنا هذه الآية محكمة، وإحكام هذه الآية أننا نعتقد بأن الله فوق السماء، وأن الله أحاط بكل شيء سبحانه جلَّ في علاه وهو فوق السماء، وقال ابن عباس: الكون كله في يد الله كحبة خردلٍ في يد أحدكم، لك أن تعلم كيف الإحاطة. ولذلك نقول: لا مخالفة بين المعية وبين الفوقية، وأيضاً بين القرب وبين المعية والفوقية كما سيأتي بيانه. فالأصل

أننا عندنا محكم، وكل آيةٍ تأتي نردها على هذا المحكم. جاءت هذه الآية وقال: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ)؛ نقل ابن كثير الإجماع على أن المعية هنا معية العلم، والإمام أحمد قال كلاماً من ذهب: قد ابتدأ الآية بالعلم وختمها بالعلم.

والسياق مفسّر؛ فإذا ابتدأ بالعلم وختم بالعلم، أراد بذلك سبحانه جلَّ في علاه أن يبيّن أن ما ذكر من المعية أنها بالعلم، لا سيما وأنه أحكم لك المقال عند قوله: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ)؛ فهذه المعية معية علم لا سيما أنه قد أحاط بكل شيءٍ علماً. كما قال الله جلَّ وعلا: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، إذاً الإحاطة هنا إحاطة علمية.

قال: (ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)؛ فينبئهم بعلمه سبحانه جلَّ في علاه بما هم عليه، وكما قلنا قد أحاط سمعاً وبصراً. كما قالت عائشة: سبحان الذي وسع سمعه كل الأصوات، إن المجادلة تشتكي زوجها وخفي عليها بعض حديثها، وهي في نفس الغرفة، قالت: وأنزل الله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) [المجادلة:1].

أيضاً ابن عبد البر نقل الإجماع أن المعية هنا معية العلم، قال: ما من أحدٍ من السلف إلّا وقال في قول الله جلَّ في علاه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) إلّا وهي معية العلم؛ بأن الله أحاط بكل شيءٍ علماً، لا سيما وفي الختام قال: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) و "كل" نص في العموم، فأظهر هنا العلم ختاماً لما سبق من قوله: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ).

ثم قال المصنف: وفي قوله تعالى: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]، هذا قول للصديق -رضي الله عنه وأرضاه- عندما قال الله جلَّ في علاه وصدّر الآية: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]. وهنا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكرٍ -رضي الله عنه-: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، قصد بذلك ليست المعية العامة. هذا من بديع التصنيف، وهو يأتيك بالآيات تصاعدياً يأتيك بالآيات مرتبة:

◆ من الترتيب الأول: هو أولاً في قوله (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)، أراد أن يبيّن لك بالإحاطة، أن المعية هنا معية الإحاطة، من لوازم الربوبية معية الإحاطة سمعاً وبصراً وقدرةً وعلماً.

◆ ثم قال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)؛ كأنه قال: وأنت تعتقد الآن بالمعية العامة، هناك معية خاصة، تفهّم وتدّبر هناك معية خاصة.

وما المعية الخاصة؟ المعية الخاصة هي معية التسديد والنصرة والتوفيق، لأن أبا بكر ارتجف فؤاده واهتزت أركانه وقال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا، خوفاً وارتعاباً، وكان الخوف على النبي -صلى الله عليه وسلم-. فلذلك قال فقال له النبي: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، فقال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)؛ يعني ينصرنا يؤيدنا ويخفينا عن أعين هؤلاء. وما أراده الله يكون وما لم يرده لا يكون، والله على كل شيءٍ قدير. فلمّا قال لأبي بكرٍ: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، تأيّد أبو بكر بنصر الله وعلم بتوفيق الله، وثبت جنانه وحدث ما قدّره الله جل في علاه، وأنزل الله السكينة على قلوبهما وأنزل جنوداً لم يرَ أحد منهم ذلك، وإن الله جل في علاه على كل شيءٍ قدير. لم يروا النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يروا أبا بكر -رضي الله عنه-.

القرطبي يقول: بأنه كان يقول دائماً الدعاء -لا أذكر- "بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء" أو" أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق". هو كان يقول بذلك، يقول: والعسكر أرادوني وكنت أمامهم، ويمرون من حولي ومن أمامي ومن خلفي، وأنا أتعجب كيف وقد أحاطوا بي ولم ينالوا مني. لأن الله قد أخفاك عنهم، ولأن الله على كل شيءٍ قدير.

في قوله جلَّ في علاه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)، قلنا حتى يستقيم لنا الفهم لا بد أن نضم هذه الآية مع قول الله جلَّ في علاه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، نفهم معه قول الله جلَّ وعلا: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ). وهذه المعية معيةٌ عامة، وهي معية العلم؛ إحاطةٌ بالسمع والبصر والقوة والقدرة سبحانه جلَّ في علاه.

وفي قوله: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]، (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، هذه هي المعية الخاصة؛ معية النصرة والتوفيق والتسديد والتأييد. وهذه المعية تتجلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما أحاط به أهل الكفر في الغار الذي كان فيه وكان معه أبو بكر وقال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، قال: (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما)، وقال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)؛ فالله جلَّ وعلا أنزل سكينته على قلبيهما، والله جلَّ في علاه أنزل جنوداً لم يراها أحد وأنقذ الله نبيه وأبا بكر.

تجلّت أيضاً مع موسى وهارون عندما (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46]؛ أي ما دمت محيطاً بكما بالسمع والبصر والقدرة والقوة لن يصلوا إليكما، وهذا الذي حدث، ما وصلوا إليهما وما من

ضر وقع على موسى ولا على هارون عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليمات.

تتجلى أعظم جلاء عندما التقى الصفان؛ هؤلاء بنو إسرائيل مع موسى -عليه السلام- مع فرعون وجنوده وهم خلفهم، قال بنو إسرائيل لموسى: إننا لمغرقون، إننا لمهلكون، قالوا: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء:61-62]. انظر هنا في هذه المعية (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)؛ هنا معية النصرة والتأييد والتسديد، فهنا وفق توفيقا إلى ما قاله موسى -عليه السلام- لاعتقاده السديد في ربه جلَّ في علاه وأن الله معه ولن يخذله. (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، قال: (أَوْحَيْنَا) الفاء للتحقيق والسرعة، (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ) [الشعراء:61-64] ... إلى آخر هذه الآيات.

الغرض المقصود في هذا الباب هو أن المعية هنا معية خاصة؛ معية النصرة والتأييد والتسديد. وهذه المعية الخاصة ليس لأي أحدٍ أن يؤتاها، وهذه المعية الخاصة هي معية من هي معية الله لهؤلاء الذين قد اتصفوا بوصفٍ قد انطبق، وهذا الوصف هو الذي أراده الله، فلمّا انطبق عليهم الوصف استجلبوا معية الله جلَّ في علاه. وقد بيّنه الله في غير ما موضع من كتابه عندما قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل:128]، فهنا الله جل في علاه يبيّن أن المعية يستجلبها من أحسن ومن اتقى، والذين اتقوا لا يمكن أن يصلوا إلى الإحسان إلّا بالتقوى.

والتقوى: هو العمل بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله؛ إذاً إخلاص ومتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويكف عن المحرمات وعن معصية الله، أيضاً خشية عقاب الله جلَّ في علاه بنورٍ من الله يعني بعلمه. فإذاً هو في الحالتين يخلص لله جلَّ في علاه، ويأتي بالعبادة على وفق ما شرع الله جلَّ في علاه وأتى به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إن كان كذلك فإنه يرتقي في المنازل، لأننا عندنا التوالي الثلاثة: الإسلام أوسع، ثم الإيمان، ثم بعد ذلك الإحسان وهم في قلة. فإذاً إن بلغ المرء الإحسان؛ الإحسان في الصلاة، في الصيام، في الصدقة. إن بلغ المرء الإحسان، فهو من الذين استجلبوا معية الله جلَّ في علاه.

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)؛ إذاً بالتقوى والإحسان يصل المرء إلى معية الرحمن، فيكون عبداً موفقاً مسدداً مؤيداً. وإن الله جلَّ في علاه له حكمٌ وشئون في عباده، وترى بأن الإنسان يكون قد أحاطت به المهالك من جميع الجهات، ثم يأذن الله جلَّ في علاه بالخلاص له وبالمخرج له لأنه قد اتقى وأحسن، والله إذا قال صدق وإذا وعد وفى وأوفى. فقال: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا)، صدق بذلك ووفى به، وإن الله

جلّ في علاه كم وكم قد أنجى أوليائه وأنجى أصفيائه وأنبيائه من المهالك، وإن الله جلَّ في علاه جعل العاقبة لهم في كل آنٍ وفي كل حين.

وأيضاً من السبل التي يستجلب بها المكلف معية الله وهو أحوج ما يكون إليها "بالصبر"، بأنواع الصبر الثلاثة:

- الصبر الاختياري - والصبر الاضطراري

أو

- الصبر على الطاعة على الواجبات والصبر على المحرمات

- والصبر على قضاء الله جلَّ وعلا.

فما إن اتصف المرء بالصبر إلّا والله جلَّ في علاه يكون معه؛ إن كان صائماً (وقمة الصبر تتجلى في الصوم)، إن كان قائماً، إن كان معلماً، إن كان متعلماً، إن كان قاضياً لحاجات الناس صابراً محتسباً، فإن الله معه يؤيده ويوفقه ويسدده. لا أدري والله من الذي لا يظن بربه هكذا؟ ما أدري والله من الذي عمل بحقل الدعوة وغفل عن مثل هذه المسألة العزيزة؟ وإنه لا يثمر ولا ينتج إلّا إذا كانت هذه العقيدة قد انعقدت في قلبه وعاش بها وسار عليها وعلى نهجها.

قال الله تعالى: (وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال:46]، واصبروا على طاعة الله جلَّ في علاه؛ على الواجبات، على المحرمات، اصبروا على الدعوة لله جلَّ في علاه، اصبروا على العلم والتعليم. قال الله تعالى: (وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)، فكأنه لمّا أمر بالصبر أعطاكم المكافأة بعدها، فأنت إن كنت كذلك وتمثلت بذلك وانطبق الوصف عليك فالله معك، وإن كان الله معك فمن عليك؟

يا للروعة ما قاله هذا التابعي الجليل عندما بعث لأخيه وقال: اعلم أخي الكريم إن كان الله معك فمن عليك. أجبني بالله عليك ودلني، إن كان الله معك فالحجر والشجر معك، فالسحاب فالسماء فالأرض فالأنهار فالبحار، والله كل شيءٍ معك، إن كان الله معك فلا أحد عليك بحال من الأحوال.

(وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)، لذلك يقف أمام البحار والأنهار، يقف أمام الجميع من استجلب معية رب العالمين. وهذا لا يكون إلّا من كان في قلبه الرسوخ في هذا الاعتقاد، لا أن يكون مثلاً رجل مع صاحبه وهما على الخير سواء، ثم بعد ذلك أتت بعض الملمات على صاحبه أو يقال فيه شيء من أجل صاحبه فيهجره سريعاً خوفاً على نفسه. هذا رجل يحتاج إلى أن تنتظم عقيدته، وهذا رجل لا بد أن يتعالى أمر الإيمان في قلبه، وإلّا فالله جلَّ وعلا قد كشفه بهذه المواقف.

الغربلة متنوعة، واختبار الله للعباد قد تكون بالسراء والضراء، وقد تكون بما لا يعلمه المرء أو بما لا يحتسبه المرء. كما قلت نحن في زمانات لن يصح فيها الوقوف أبداً، والسير على هذا المنهج والسير على هذا الطريق إلّا النقاوة، ففي زمانات الله جلَّ وعلا يغربل الأمة بأسرها لتظهر النقاوة وتسقط النخالة. وإلّا فالذي فيه دخن إلى النار يلقى، والذي وقف صامداً وإن كان وحيداً فريداً فإلى جنان الرب يدخل ونسأل الله أن نكون كذلك.

وقوله تعالى: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة:249]؛ انظر هنا أيضاً في الصبر. إذاً هو تنوع الصبر؛ الصبر على الطهارة، الصبر على الغزو، الصبر على الواجبات، الصبر على المحرمات، الصبر على أقدار الله جلَّ في علاه. المهم أن ينطبق عليك الوصف، فإن انطبق الوصف عليك صبراً فأنت إلى المعالي، وقد استجلبت معية الله جلَّ في علاه. واستجلاب المعية هذا أمرٌ لا يمكن أن يصل إليه إلّا من أحبه الله جلَّ في علاه، وإلّا من سدده الله جلَّ في علاه وإلّا من وفقه الله جلَّ في علاه، وإلّا من علم الله ما هو فيه وما هو عليه وما يصبو إليه وما يرمي إليه، والأمور بالنوايا والخفايا، والله أعلم بالقلوب والسرائر.

قال: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)؛ وهذا حدث مع داوود وجالوت عندما (قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ) [البقرة:249]، لكن الذين آمنوا علموا بأنهم ملاقوا ربهم جلَّ في علاه صبروا وقالوا نفس القول: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)، يعني اصبروا كونوا مع الصابرين، (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) [البقرة:251].

الغرض المقصود المكافأة العظيمة أن تستجلب معية الله جلَّ في علاه، وهذه معية لا يؤتاها إلّا من انطبق الوصف عليه: أن يكون متقياً محسناً صابراً، أن يكون حقاً لله جلَّ في علاه. فمن كان حقاً لله، فالله له.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس التاسع والثلاثون: آيات صفة الكلام (1)

يقول الله جلَّ في علاه: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، وقوله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، وقوله: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) [المائدة:116]، وقوله: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الأنعام:115]، وقوله: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164]، وقوله تعالى: (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ) [البقرة:253]، وقوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) [الأعراف:143].

وقوله: (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) [مريم:52]، وقوله تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، وقوله: (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) [الأعراف:22]، وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) [القصص:65].

وقوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) [التوبة:6]، وقوله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة:75]، وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) [الفتح:15]، وقوله تعالى: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) [الكهف:27]، وقوله تعالى: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [النمل:76].

هنا ما زال المصنف -رحمه الله تعالى- يبيّن لنا عقيدة أهل السنة والجماعة وأنهم وسط بين أهل البدعة والضلالة من الغلو والجفو، وما زال يعرض لنا اعتقاد السلف في الصفات الاختيارية لرب البرية سبحانه جلَّ في علاه. وهنا يتكلم على صفةٍ ثابتةٍ لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل وبالقياس والعقل، هي صفة الكلام. بأن الله يتكلم، نعم يتكلم الله جلَّ في علاه وينادي ويناجي، وأن الله تعالى يتكلم بصوتٍ وبحرف، لا الكلام النفسي المزعوم لأهل البدعة والضلالة. فالله يتكلم وقتما شاء بما شاء حيثما شاء سبحانه جلَّ في علاه، وهي من الصفات الاختيارية؛ ومعنى الصفات الاختيارية هي: صفات الأفعال وهي الصفات التي تتعلق بالأسباب وهي الصفات التي يتصف بها الله حيناً ولا يتصف بها حيناً آخر.

قال الله جلَّ في علاه: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164]، وهذا مفعولٌ مطلق مؤكد للفعل، مؤكد له بأنه تكليم وليس من الكلم الجرح الذي قاله أهل البدعة والضلالة. وأيضاً

قد قال الله جلَّ وعلا: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) [الأعراف:143]، صفة الكلام لله جلَّ في علاه، وأيضاً قول الله جلَّ في علاه: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) [التوبة:6]، ووجه الدلالة هنا هو إضافة الكلام لله جلَّ في علاه وهذه الإضافة المباشرة تدلنا دلالة واضحة على أنه يقصد بها الصفة، لأن المضاف إلى الله جلَّ في علاه نوعان: إضافة معاني وإضافة أعيان مستقلة بذاتها.

إضافة الأعيان المستقلة بذاتها إضافة مخلوقٍ للخالق، مع أنه خالق لكل شيء، إذا اعتقدنا هذا، فلِمَ إضافة المخلوق هنا للخالق مع أنه خالق كل شيء؟ قلنا هذه زيادة تشريف؛ كإضافة عيسى "عيسى روح الله"، كإضافة الناقة التي هي آية خرجت من صخرة (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) [لشمس:13]، الكعبة "بيت الله" فهذه الإضافة إضافة تشريف وإضافة مخلوق للخالق.

أمّا المعاني الكلام؛ الرحمة، الغضب، النزول. فهذه إضافة معاني، وإضافة المعاني تكون إضافة صفة للموصوف، قال الله جلَّ في علاه: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ).

وأيضاً أن القرآن نطق بأن الله له القول، والقول هنا قول يكون بالنداء وأيضاً المناجاة بصوتٍ وحرف؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة:30]، (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) [البقرة:30]، وخاطب خلقه جميعاً: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غافر:60]. وأيضاً بالنداء؛ (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) [الشعراء:10-11]، قال: (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ) [مريم:52]، كلها دلالة واضحة جداً على إثبات الكلام لله جل في علاه وإثبات المناجاة وإثبات المناداة.

والمناداة فائدتها أن تعلم يقيناً بأن الله يتكلم، ليس كلام النفس، لأن هذا فيه تأكيد على ما يعتقده أهل السنة والجماعة، والرد على أهل البدعة والضلالة بأن الله يتكلم بصوتٍ وبحرف. النداء لا يكون إلّا بصوتٍ وبحرف، (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ)، هذه دلالة واضحة جداً على مسألة الرد على أهل البدعة الذين يقولون بأنه كلام نفسي. هذا بالكتاب.

وبالسنة كثير؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، الإمام أحمد يحتج بهذا الحديث على أن الله يتكلم لأنه أضاف الكلام لله جلَّ في علاه، وهذه معاني أي إضافة الصفة للموصوف. ووجهٌ آخر للدلالة هو أن الكلمات لمّا أضيفت لله جلّ في علاه استعاذ بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال أحمد: والنبي معصوم أن يستعيذ بالمخلوق، استعاذ بمن؟ استعاذ بالكلام؟ لا، استعاذ بالذات المقدسة،

استعاذ بالله، لكن توسل بصفة من صفات الله جلَّ في علاه مستعيذاً بالله جلَّ في علاه وتوسل بكلماته.

وأيضاً في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ما من أحدٍ منكم إلّا وسيكلمه الله (وهذه فيها دلالة على التصريح بالكلام)، ليس بينه وبينه ترجمان). وقال أيضاً: (بأن الله يحشر الأولين والآخرين ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب). قال: (بصوت)؛ والتصريح هنا بصوت الله جلَّ في علاه. وأيضاً في الحديث: (بأن الله إذا أراد أن يقضي بالأمر تكلّم بالوحي). إذاً السنة أيضاً فيها إثبات صفة الكلام لله جلَّ في علاه.

والإجماع؛ أجمع أهل السنة والجماعة بأن الله يتكلم، وأن كلام الله جلَّ في علاه بصوتٍ وبحرف، وهذا اتفاق الصحابة الكرام. كما دخل ابن عباس على عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- وهو يقول: (أنت التي برأك الله من فوق سبع سماوات)، وهي تقول: (أنزل الله فيَّ قرآن يتلى إلى يوم الدين). الغرض المقصود أن الجميع يقرُّون بصفة الكلام لله رب البرية سبحانه جلَّ في علاه.

والقياس؛ قلنا إن القياس بين الله وبين عباده، أي القياس؟ كيف بالقياس تثبت الصفة؟ القياس الأولوي، وهذا أصله بأن الكلام كمال، المتكلم أكمل من الذي لا يستطيع الكلام، فالكلام كمال. فإذاً إذا قلنا بأن الكلام كمال، فالله أحق به سبحانه جلَّ في علاه. القاعدة العامة: كل كمال يتصف به العبد فالله أولى به. إذاً إثبات صفة الكلام لله جلَّ في علاه، وأعظم كلام الله هو القرآن وهو أعظم كتب الله جلَّ في علاه.

الإنسان كيف يتعبد لله جلَّ في علاه بهذه الصفة الاختيارية؟ قلنا إن الصفات تتعلمها لأجل أن تتعبد لله بها، كيف يتعبد المرء لله جلَّ في علاه بمثل هذه الصفة العظيمة؟

◆ أول سبل التعبد لله جلَّ في علاه بهذه الصفة "حسن الاعتقاد في رب العباد"؛ المعنى بأنه لا بد أن يحسن اعتقادك في ربك، بأن تصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأجمع الصحابة على وصف الله به، هذا أول درجات التعبد لله جلَّ في علاه بأن يستقيم القلب على حسن الاعتقاد في رب العباد، إذ لا نجاة يوم الميعاد إلّا بحسن الاعتقاد في رب العباد.

◆ الثاني إذا علمت بأن الله قد تكلّم بهذا القرآن وسمعه جبريل، فأنت تأنس بذلك وأنسك يكون مع كلام الله جلَّ في علاه. لا تتحرك مشاعرك، لا ترى ميل القلب عندك، لا ترى أن تذرف عيناك دمعاً إلاّ بسماع كلام الله جلَّ في علاه، وتعلم وكأنك يعني تتصور بأن الله قد تكلم بهذا القرآن.

تعلمون بأن موسى لمّا سمع كلام الله جلَّ في علاه اشتاق إلى رؤيته (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) [الأعراف:143]، هذا بالمتعة العظيمة من تمتعها بسماع كلام الله جلَّ في علاه. وهذه قضية أخرى بأن الله جلَّ وعلا لمّا أسمعه الكلام اشتاق إلى الرؤية، فسأل الرؤية وما أنكر عليه الله جلَّ في علاه.

الغرض المقصود بأنك أيضاً عند التعبد أن تأنس بكلام الله جلَّ وعلا، وتعلم بأن الله تكلم بهذا القرآن. فإن كنت تعلم ذلك فأنيسك في خلواتك هو القرآن، نجاتك في القرآن، عزّك في القرآن، حسناتك في القرآن، تكفير السيئات في القرآن. وكلّما قرأت علمت أن الله تكلّم بهذا، كلّما تقرأ الآية وتعلم بأن قول الله (عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) [التوبة:43]، بأن الله تكلّم بها وأنت تعلم بأن الله تكلّم بها لنبيه -صلى الله عليه وسلم-. الغرض المقصود بأن الأنس حقاً في التعبد لله جلَّ في علاه أن تعلم بأن الله يتكلم بصوتٍ حرف، وأعظم كلام الله جلَّ في علاه هو القرآن.

قال هنا المصنف -رحمه الله تعالى- ليستدل على كلام الله جلَّ في علاه، قال: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، هذا لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه ليس أحدٌ أصدق من الله جلَّ وعلا في حديثه في خبره ووعده ووعيده. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمدٍ).

ولذلك قال الله جلَّ في علاه (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]. فإن الله إذا قال صدق، وإذا وعد وفى وأوفى، قال: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، هذه فيها دلالة أو حديث يدل على أن الله تحدّث -وإذا صح التعبير أنه تكلّم. وأنه قد قال الله جلَّ في علاه: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة:30]، (وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ) [المائدة:12] إلى آخر الآيات. الغرض المقصود يقول: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)؛ يعني ليس أحدٌ أصدق من الله جلَّ في علاه.

في قوله سبحانه قال: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) [المائدة:116]، فأتى أيضاً بالقول، هذه فيها دلالة أن المصنف أراد أن يجعلك تثبت الكلام وتثبت الصوت والحرف، لأن القول يكون بصوتٍ وبحرف ويكون مسموع. لا يمكن أن يقول قال إلّا ببيان ضعف من قال الكلام النفسي، وأيضاً بأن القول لا بد أن يكون بصوت وحرف وأن يكون مسموعاً. (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ) [النائدة:116]، فهنا أيضاً قد قال الله جلَّ في علاه لعيسى بن مريم، وسمع عيسى من الله؛ إمّا أن يكون وحياً، وإمّا أن يكون قولاً مباشراً، أو يوم القيامة هذا القول. قال: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ)، وأضاف القول لله جلَّ في علاه.

أيضاً إثبات للصفة قال: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) [الأنعام:115]، فجمع بين الصدق وبين العدل؛ فيكون هنا الصدق بمعنى صدق الإخبار، فكل خبر أخبر به الله جلَّ في علاه فهو الصدق. والله إذا قال صدق، وإذا وعد وفى وأوفى، قال وعدل في الأحكام التي هي الإنشاء. عندنا القول: إمّا خبر، وإما إنشاء؛ فالإنشاء فيها الأمر والنهي. فقال: أمّا في الخبر فهو على الصدق في الأخبار، وأمّا في الأمر والنهي على العدل في الطلب.

لذلك فكل ما أخبر الله به سبحانه جلَّ في علاه فهو صدق، لا شك فيه بحال، وكل ما أمر به الله جلَّ في علاه سواء أمر بطلب الفعل أو أمر لطلب الكف فهو عدل، وهو الأصلح وهو الأفضل، ولأن الله جل وعلا لا يأمر إلّا بما فيه الصالح ولا ينهى إلّا ما كان فيه مفسدة، فمنع المفسدة وجلب المصلحة في أوامره سبحانه جلَّ في علاه.

ولذلك قال: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الأنعام:115]؛ هنا العلماء نظروا في هذا الكلام في قول الله: (لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)، فيها دلالة واضحة جداً على أن المقصود به هنا نوع الكلمات، إذ كلمات الله: كلمات كونية وكلمات دينية، والفرق بينهما:

أن الكلام الكوني يكون ماضياً لا رد له بحال من الأحوال، والكلام الديني هو الكلام الذي يعرض إلى القبول أو الرد على الكلام.

كالإذن الكوني وغير ذلك بأن الكونيات هو فيما يحب وفيما لا يحب، وأيضاً لا بد أن يقع لا محالة. والدينيات والشرعيات تكون فيما يحب فقط، ولكنه قد يقع وقد لا يقع.

قال: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)؛ (كَلِمَتُ رَبِّكَ) يقصد بذلك الكلمة الكونية والكلمة الشرعية. وقلنا إن الكلمة الكونية هي التي على العموم لأنها عامة فيما يحب الله وما لا يحب الله جلَّ في علاه، وأيضاً هي ماضية لا مبدل لها، لا راد لقضاء الله جلَّ في علاه.

والكلمة الدينية هي الكلمة التي هي خاصة فيما يحبه الله جلَّ في علاه، وهي قد تقبل وقد ترد، والكلمات الدينية هي الأمر والنهي "الإنشاء".

الكلمات الكونية كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌ ولا فاجر)، وقال الله تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا). وأمّا الكلمات الدينية التي هي الأوامر: الأمر والنهي، وهذه الكلمة الدينية كما قلنا خاصة فيما يحبه الله جلَّ في علاه وهي أيضاً قد تقبل وقد ترد، فإن الله أمر أوامر في كتاب بكلماته؛ أمر بالصلاة وبالزكاة وبالصوم بالحج، فهناك من يؤمن وهناك من يكفر.

قال: (لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)؛ أي ليس أحدٌ يعقب على الله جلَّ وعلا، ولا أحد يستطيع أن يرد حكم الله جلَّ في علاه، لذلك قال: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أحاط بكل شيءٍ سمعاً وعلماً سبحانه جلَّ في علاه. وهذا فيه البشارة، وفيه النذارة وفيه التهديد والوعيد الأكيد لكل من تأتيه كلمات الله جلَّ في علاه فيردها ولا ينصاع ولا ينقاد، وأيضاً فيها بيان بأنهم أعجز ما يكونون، فإنهم لا يستطيعون رداً لكلمات الله جلَّ في علاه الكونية.

الفوائد المستنبطة:

- الاستفهام الذي يراد به الإنكار أبلغ في الإنكار؛ (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122].

- الأصل إبقاء ظاهر اللفظ على ظاهره ما لم تأتِ قرينة تؤوّله؛ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164]، ليس الكلم والجرح، فهو الكلام من الكلام، ولذلك أكّده بالمفعول المطلق.

- الفائدة الثالثة: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [يوسف:21].

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الأربعون: آيات صفة الكلام (2)

ما زلنا مع الكتاب الواسطية، وعرض المصنف لاعتقاد السلف الصالح لأن هذا هو الأصل، وبيان أننا إن سرنا على هذا السير كنا من الناجين.

يقول المصنف: وقوله تعالى: (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ) [البقرة:253]، وقوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) [الأعراف:143]، وقوله: (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) [مريم:52]، وقوله تعالى: (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، وقوله: (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) [الأعراف:22].

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) [القصص:65]، وقوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) [التوبة:6]، وقوله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة:75]، وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل

لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) [الفتح:15]، وقوله تعالى: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) [الكهف:27].

ما زلنا مع الواسطية والعدول أهل السنة والجماعة، يعتقدون في ربهم في رب البرية ما قد اعتقده سيد البشرية وعلمهم إيّاه. فهنا بيان للتفريق بين الغلو وبين الجفو، بين انحرافات أهل الضلال من الطائفتين سواء التي فيها الغلو أو التي فيها الجفو. وما زال يتكلم عن صفات الله جلَّ في علاه، وأهل السنة والجماعة وما يعتقدونه في صفات الله جلَّ في علاه.

تكلمنا الأسبوع الماضي على صفة الكلام، وقلنا بأن صفة الكلام هي صفة ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل وبالقياس. وهذه الصفة من صفات الأفعال، وهي قديمة النوع حادثة الآحاد، نحن نعتقد بأن الله يتكلم، ويتكلم بصوتٍ وحرف سبحانه جلَّ في علاه، على ما يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته سبحانه، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، سبحانه جلَّ في علاه.

وهو يتكلم كما قلنا بصوتٍ وحرف؛ (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، قال: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) [الأعراف:143]. ثبتت بالكتاب هذه الصفة، وبالسنة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)؛ من وجهين:

- الوجه الأول: إضافة الكلمات وهي معاني لله جلَّ في علاه، فتكون إضافة صفة للموصوف.

- الوجه الثاني: هنا استعاذ بها يعني اتخذها وسيلة للاستعاذة، قال: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق).

وقلنا بأن طوائف أهل البدع قد أحدثوا حدثاً في وصف الله جلَّ في علاه بالكلام:

- فمنهم من قال: إن القرآن هذا عبارة عن كلام الله وأثبتوا كلاماً نفسياً لله، والمعنى أنهم يقولون بأنه لا يتكلم.

- ومنهم من قال: هو يتكلم وكلامه قديم ذاتي.

- ومنهم من قال: بل يتكلم وقد اكتسب الصفة ولم يكن متصفاً بها قبل ذلك.

- ومنهم من قال: بأن كلام الله مخلوق.

وكل هذه الطوائف هم طوائف أهل البدع والضلالات.

وأهل السنة والجماعة وصفوا الله بالكلام، لأن الله تكلّم؛ فقد تكلم الله مع نبيه -صلى الله عليه وسلم- حين عرج عليه وهو يراجعه في الصلوات حتى قال الله جلَّ في علاه: (لا يبدّل القول لديّ)، ثم قال: (هي خمسٌ وهي خمسون). وأيضاً تكلّم الله مع آدم، ويتكلم الله يوم القيامة مع آدم حين يقول: (يا آدم ابعث بعث النار). وتكلم الله مع جبريل، فسمعه ونزل به إلى الرسل.

قال الله تعالى: (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ) [البقرة:253]، يقصد بذلك موسى -عليه السلام-، فإن الله اصطفاه على جميع الأنبياء وخصّه بالكلام كما قال في حديث احتجاج آدم وموسى؛ (قال آدم: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أنت الذي اصطفاك الله بكلامه؟) فقد اصطفى الله موسى بالكلام، كما قال الله جلَّ وعلا: (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) [الأعراف:144]. قال: (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ)، وأضاف الكلام لله جلَّ في علاه، وهي صفة ثابتة لله تليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته.

وأمّا الذين يهرفون بما لا يعرفون، وأمّا الذين حادوا عن طريق الجادة، هم الذين بعدما شبّهوا فروا من التشبيه وقالوا: لا يمكن إثبات الكلام لله جلَّ في علاه لأن إثبات الكلام يثبت الشفة والأسنان والأضراس واللسان. كله تخاريف كما بينا الأسبوع الماضي، بل يتكلم؛ تكلّمت الجنة، تكلّمت النار، تكلّمت الأرض، تكلّمت السماء، تكلّم الطعام بين يدي الصحابة، الحجر تكلّم، سبّحت الجبال وكانت أوّابة مع داود -عليه السلام-، كل ذلك ولا ندري كيفية الكلام لكن نؤمن بالكلام.

فإذاً إن الله جلَّ في علاه يتكلم، بل ويتكلم بصوت وحرف لأنه لا يمكن أن ينادي إلّا بصوت وحرف، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يحشر الأولين والآخرين ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب). وأيضاً عذبة الصوت قبل يوم القيامة تتكلم، الذئب يتكلم. النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بقرة تكلّمت)، اشتد الأمر على الصحابة، قال: (بقرة تكلّمت)، قال: (أنا أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر)؛ (رجل ركب على البقرة فنظرت إليه فقالت له: نحن لم نخلق لهذا)، قال: (بقرة تكلمت)، فقال: (أنا أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر).

(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164]؛ (تَكْلِيمًا) هذا المصدر، كما قال العلماء: مفعول مطلق، هنا تأكيد المؤكد للفعل. فالعلماء يقولون: التأكيد هذا يدل على الحقيقة لنفي المجاز. وهي من الصفات الفعلية كما قلنا، لأن الله يتكلم بما يشاء كيفما شاء وقتما شاء. (مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ)، قال الله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) وهنا نستدل من هذه الآية على دلالات ثلاثة ما هي؟

١- من الفوائد الأولى هو أنها من صفات الأفعال، وجاءت من أنه قال: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا)؛ يعني ما كلّمه إلّا بعدما جاء للميقات الذي وقّته الله له، ليأتي فيسمع صوت الله جلَّ في علاه ويكلّمه الله جلَّ في علاه، قال: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) [طه:12]. قال: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا) أي ما كلّمه إلّا بعدما جاء، دلّ ذلك أنه يتكلم بما شاء وقتما شاء.

٢- (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) وهنا أيضاً أضاف الفعل، أضاف الكلام لله جلَّ في علاه، ليجلّي لنا المضاف لله نوعان: إضافة معنى وإضافة عين مستقلة. وهذه إضافة معاني، وإضافة المعاني هي إضافة الصفة للموصوف، ولذلك قال الله تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ) [طه:17-18].

٣- قال: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) هنا أيضاً فيها دلالة على الكلام الحقيقي، ليس مجازاً ولا عبارة عن كلام الله جلَّ في علاه. بل موسى سمع كلام الله، سمع صوت الله، لذلك تقطعت أوصاله من أجل الرؤيا فقال: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) [الأعراف:143]. (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) وهنا أيضاً أضافه إلى ربه جلَّ في علاه إضافة تشريف مع إضافة الكلام لله جلَّ في علاه.

يعني جاءتنا الفائدة الثانية "الفرق بين إضافة العين وإضافة المعنى"؛ هنا إضافة معاني (وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ)، و (رَبُّهُ) هنا أيضاً إضافته لله جلَّ في علاه إضافة عين، فهو الذي خلقه سبحانه جلَّ في علاه.

وهذه كما قلنا فيها دلالة واضحة جداً على أن الله يتكلم، وأن موسى -عليه السلام- سمع كلام الله جلَّ في علاه، بل سمع صوت الله جلَّ في علاه. وأن هذه الصفة صفة فعلية، لأن هذه الصفة صفة تتعلق بالأسباب وتتعلق بالمشيئة، يتكلم بما شاء وقتما شاء سبحانه جلَّ في علاه، وأيضاً هي قديمة النوع حادثة الأفراد.

قال: (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) [مريم:52]، سبحان الله الآيات أتت تأتي بالفوائد تترا، وهنا الآية جمعت لنا بين أمرين: المناداة والمناجاة. وهذا هو المقصود من الآية، أن الآية جمعت لنا بين المناداة وبين المناجاة؛ فبيّن لك في المناداة أنه بصوتٍ مسموع بصوتٍ وحرف، وأيضاً ناجى.

فهذا التنوع دلالة واضحة جداً على إثبات صفة الكلام لله جلَّ في علاه في كل الأحوال: في المناجاة، في المناداة.

ولذلك قال الله تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ) [الشعراء:10-11]، النداء لا يكون إلّا بصوتٍ وحرف وصوتٍ مسموع، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يجمع الله الأولين والآخرين فيناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب).

والمناجاة يكون بصوتٍ لا يسمعه إلّا الذي يناجي، وهذا أيضاً إن دلّ، دلّ على قرب موسى من ربه جلَّ في علاه، أن كانت مناجاة. وأيضاً فيها دلالة على أن كلام الله جلَّ في علاه هو كلامٌ حقيقي بصوتٍ وبحرف، (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)، بعدما خرج خائفاً كيف فعل الله به ورفعه وأرسله نبياً حتى أقام الحجة وأبطل حجج الكفرة ونصره الله جلَّ في علاه عليهم.

قال الله تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، النداء لا يكون إلّا بصوتٍ مسموع وبحرف. (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ)، وهنا أيضاً إضافة النبي -صلى الله عليه وسلم- له؛ أي ربك يا محمد. هذه رفعة لسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، وبيان لعلي مكانة النبي، (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ) ربك أنت يا محمد. (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)، وموسى ماذا فعل؟ قال: سمعت وأطعت. لكن هنا أيضاً فيها إثبات المناداة، أيضاً فيها أن الله جلَّ وعلا لا يعذِّب حتى يقيم الحجة؛ (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:15].

وقال: (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [الأعراف:22]، (وَنَادَاهُمَا) فنداءٌ أيضاً من الله جلَّ في علاه، إذاً ثبت النداء لله، وفي قوله: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) [القصص:65]. (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ)، هذا العتاب لآدم ولحواء لأن الله نهاه عن الأكل من الشجرة فأكل من الشجرة، ولكن من تاب تاب الله عليه، لذلك قال الله تعالى: (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) [البقرة:37].

والآية أتى بها ابن تيمية حتى تعلم يقينا أن الله جلَّ في علاه يتكلم بصوت وبحرف مسموع، لأنه أتى بالآيات التي أثبتت النداء والنداء لا يكون نداء سراً، النداء لا بد أن يكون بصوت مسموع وبحرف.

(وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) [مريم:52]، (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ) [الشعراء:10-11]، (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [الأعراف:22]. وأيضاً في قول الله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) [القصص:65]، ففيها إقامة الحجة البالغة عليهم جميعاً لأنه (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) يكذبون، فيختم الله على أفواههم ويجعل الكلام من أعضائه؛ الفخذ تتكلم واليد تتكلم،

قال الله جلَّ وعلا: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يس:65].

وفي قول الله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) [التوبة:6]؛ فيه أمور:

- (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ) هم على الشرك، (اسْتَجَارَكَ) طلب جوارك، (اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) أعطيه الأمان وأدخله.

- (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) أضاف الكلام لله، والإضافة إضافة صفة للموصوف، وقد تكون الإضافة إضافة تشريف. (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) فالكلام هنا مضاف إلى الله جلَّ وعلا مباشرةً فيه دلالة على أن الله جلَّ وعلا يتكلم، بل يتكلم بصوتٍ وحرف.

- قال: (فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) وهذا فيها الإحسان حتى للكافر.

- قال: (ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) والمعنى إن طلب جوارك ليسمع القرآن فاسمح له فيسمع، إن كان من المنصفين سيؤمن، وإلّا أبلغه مأمنه ويكون حرباً، بينك وبينه الحرب. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ألا رجلٌ يحملني إلى قومه لأبلّغ كلام ربي، فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي).

إذاً هنا فيها كلام الله جلَّ في علاه، وهي صفة من صفات الله الصفات الفعلية، وهي ثابتة لله بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

يبقى لنا أن نقول بأن أهل البدعة والضلالة قالوا: أنتم تقولون بأنه يتكلم، نحن نقول بأنه يتكلم لكنه اكتسب هذه الصفة، لم يكن متصفاً بها. فإن رددت أنت وقلت: بل هي قديمة النوع حادثة الأفراد، قال: دلل لي على ما تقول. لأنه سيلزمك أن تقول هي صفةٌ قديمة وهذا أيضاً من قول أهل البدعة فكيف الإجابة على ذلك؟ نريد الدليل على أنها قديمة النوع حادثة الأفراد؟

كل كلامٍ ثبت لله جلَّ في علاه قبل الخلق وبعد الخلق فيه دلالة على ذلك؛ (أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة). (فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت:11]، وأيضاً في قول الله تعالى: (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) [البروج:16]، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]، إذاً هنا خلق الخلق كان ب(كُن). ومن ناحية النظر على مقال حجر -ولله المثل الأعلى-، بأنه إن لم يقل بأن الله جلَّ وعلا على أن هذه الصفة صفة قديمة النوع بالذات، فإنه بذلك يقول بقول هؤلاء الكلابية، هؤلاء أهل البدعة الذين قالوا نعم الله يتكلم بصوتٍ وبحرف لكن تكلم بعد ما لم يكن متكلِّماً.

قال (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)؛ عندنا إشكال عند فهم الآية، أين الإشكال؟ وكيف الإجابة عنه؟ أن الكلام كلام الله، هو كما قال البخاري: الكلام كلام الباري واللفظ لفظ القارئ. وهنا يقول: (حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) يعني يسمع كلام الله المقروء، يسمع كلام الله الذي تكلم به وقرأه عباده. إذاً كلام الله مسموع بالأذان والأذان مخلوقة، كلام الله مقروء بالألسن والألسن مخلوقة، كلام الله أيضاً مكتوب بالأقلام والأقلام مخلوقة، والأعين التي تنظر في الصحف مخلوقة. وكلام الله ليس مخلوق، كلام الله صفة من صفات الله جلَّ في علاه.

نقف عند هذه الآية، والآية التي بعدها يبين لنا ضلال اليهود وتحريف اليهود لكتابهم كما سنبيّن ذلك، ومن من الأمة الذي يقع مثل ما وقع فيه يهود.

الفوائد المستنبطة:

- فضل موسى -عليه السلام-؛ هذا سيأتي عندما ينسب لجبريل وينسب للنبي الأمين، وينسب لهم تبليغاً وينسب لله إنشاءً.

- إحاطة الله بجميع خلقه سمعاً وبصراً وعلماً وقدرةً.

- الظلم يقع على الكفر وعلى الظلم الأكبر والظلم الأصغر، الظلم يقع على الظلم وعلى الفسق. لأن في قوله: (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) [الشعراء:10-11] المقصود به فرعون، وفرعون أكفر أهل الأرض، وفيها دلالة على ما قال ابن عباس: الظلم ظلمان: ظلمٌ أكبر وظلمٌ أصغر.

- إثبات البعث والنشور؛ (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) [القصص:65].

- لا عذاب إلّا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الحادي والأربعون: الآيات الدالة على أن القرءان كلام الله

وقوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) [التوبة:6]، وقوله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة:75]، وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) [الفتح:15]، وقوله تعالى:

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) [الكهف:27]. وقوله تعالى: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [النمل:76].

وقوله: (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) [الأنعام:155]، وقوله: (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الحشر:21]، وقوله: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النحل:101]، وقوله: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل:102]، وقوله: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل:103]، وقوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة:22-23].

ما زلنا مع الواسطية؛ وهي بيان أن أهل السنة والجماعة عدول وسط بين أهل البدعة والضلالة في كلام الله جلَّ في علاه، لا سيما في مجمل الكلام على الصفات الفعلية. فنحن بين الغالين وبين الجافين، وأهل السنة والجماعة وسطٌ عدول في ذلك.

فهناك من قال بنفي الكلام عن الله كليةً وقالوا كلام الله مخلوق كالجهمية والمعتزلة، وأيضاً الروافض والخوارج، هؤلاء من أضل خلق الله جلَّ في علاه. فقالوا بأن كلام الله مخلوق، وطبعاً كل الآيات التي جاءت أوَّلوها على الخلق، وقالوا خلق الله كلاماً في الشجرة؛ يعني الشجرة هي التي قالت: يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى؟؟!! الشجرة تتجرأ على ذلك -حاشا لله حاشا لله-.

وهناك من يقول بأنه لا يتكلم، في حقيقة الأمر هو قال يتكلم، لكنه لم يقل بقول أهل السنة والجماعة؛ فمنهم من قال هو يتكلم كلام عبارة عن كلامه، هذا ليس بكلامه، إثبات الكلام جملةً وقالوا القرآن الذي بين بأيدينا ليس بكلام الله، بل هو عبارة عن كلام الله. وهناك من قال: هو تكلّم والكلام بصوتٍ وحرف لكن اكتسب الكلام وقبل ذلك ما كان مكتسباً له، وهذا معناه وصف الله بالنقص -حاشاه تعالى الله علواً كبيراً-.

أهل السنة والجماعة يقولون كلام الله هو كلامه، هو صفة من صفاته غير مخلوق سبحانه جلَّ في علاه. فالكلام صفة من صفات الله جلَّ في علاه، وهي من الصفات الفعلية: يتكلم الله بما شاء وقتما شاء حيثما شاء سبحانه جلَّ في علاه. قال الله جلَّ في علاه: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة:75]، (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) [الفتح:15]؛ قال: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ)، الشاهد هنا: (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ) أضاف الكلام لله جلَّ في علاه. والمضاف لله نوعان:

١- إضافة عينٍ مستقلة بذاتها؛ كالكعبة، كالناقة، كعيسى روح الله، كمحمد عبد الله.

قال الله جلَّ في علاه: (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) [الشمس:13]، وأيضاً الكعبة بيت الله (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج:29]. وعن عيسى -عليه السلام-، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: من شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه. أضافه له إضافة تشريف، فهو روح الله تشريفاً، إضافته تشريفاً لأنه عين مستقلة بذاتها.

٢- أمّا المعاني فهي إضافة صفة للموصوف؛ قال الله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ).

والتحريف أنواع: من التحريف التعطيل، ومن التحريف التعطيل الجزئي، ومن التحريف ما يسمونه تأويلاً وهو في حقيقة الأمر أنه تعطيل. (ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)؛ وأنت تعلم بأنهم لمّا جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وسألوه عن مسألة الزاني والزانية ما حكمهما؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ائتوا بالتوراة، لمّا قال: الرجم، قالوا: بل الجلد والتحميم. طبعاً هم يقولون: (إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) [المائدة:41]، والله جلَّ في علاه أمر النبي أن يقول: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [آل عمران:93-94].

فهم يحرّفون كلام الله جلَّ في علاه، فجاء بالتوراة فقال: اتلوها، فتلاها فلمّا جاء عند آية الزنا وضع الخبيث يده عليها، فقام عبد الله بن سلام فضرب يده وقال: يا لكع يا لكع أخّر يدك. فلما أخر يده قرأ آية الرجم فأمر بهما -بأبي هو وأمي- فرجمهما. وهذا تيئيسٌ من الإيمان من هؤلاء، لأنهم يحرّفون كلام الله جلذَ في علاه بعدما سمعوه وبعدما عقلوه.

وهذه فيها لطائف ثلاثة:

◆ الأولى: أنه ما من أحدٍ إلّا وقد أقام الله عليه الحجة، لا يحسبن أحد أنه هارب من ذلك وأن الله لم يقم عليه الحجة، بل الله جلَّ وعلا قد أنار طريقه في أكثر من مرة وأضله على علم وقد أقام عليه الحجة. انظر هنا أقام الله عليهم الحجج (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ)، عقلوه وأتقنوه وحرَّفوه (يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) هم يعلمون أنهم يحرّفونه ولذلك قالوا: (إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) [المائدة:41].

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن كل اليهود؛ معنى ذلك طيلة هذه السنوات لم يؤمن بالنبي من اليهود ما يقرب من خمسة، هو عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، يعني قلة قليلة. قال: (مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، وهذه إقامة

حجة عليهم (لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) [الأنفال:42]، ويأتي يوم القيامة ولا حجة له. ولأن الله جلَّ في علاه بيّن أنه أقام عليهم الحجة بعد ما حرَّفوا كتاب الله، وما حرَّفوه إلّا عن علم؛ (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

(يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) [الفتح:15]؛ (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ) هذا من المنافقين، وعدوا بغنائم خيبر، لأن الله وعدهم بغنائم خيبر، فأهل الحديبية خاصة الذين يقسّم بينهم غنائم خيبر لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب ولا الذين تخلفوا عن الغزو ولا الصلح. فالذين تخلفوا عنهم من باب أولى ألّا يأخذ شيئاً، لذلك قال: (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ)، فلا يقع هذا الباب لا شرعاً ولا قدراً، لا شرعاً أي لا يباح لهم، ولا قدراً لأن الله لا يقدِّر ذلك.

ولذلك قال الله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ) وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية بأن الغنائم لهم، وهذا ما اختاره الإمام ابن جرير. والسنة معلومةٌ أنها تسير في ركب القرآن؛ (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ).

والآية فيها تكرار؛ (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ)، هنا قال: (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ). إذاً بدّلوا الكلام على بصيرة كما قال الله تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) [النمل:14]، لكن من يتبعوهم لا يصلون إلى ذلك، هم يعمّون عليهم. قال الله تعالى: (قُل لَّن تَتَّبِعُونَا)؛ قال العلماء: يعني في خيبر، وهنا هذا خبر بمعنى النهي. قال: (كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) يعني قال الله جلَّ في علاه من قبل بأن الغنائم "غنائم خيبر" لأهل الحديبية خاصة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة:75]، (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ) [الفتح:15]؛ إذاً أثبت الكلام لله وأثبت القول، وهذا كله تأكيداً إلى أن المسألة دائرة في الكلام على صوتٍ وحرف، وأن الله تكلم بصوتٍ وحرف. (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، وقوله: (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) [الأعراف:22].

وفي قوله تعالى: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) [الكهف:27]؛ وأوحي إليه الكتاب والسنة والدلالة على ذلك قول الله جلَّ وعلا (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34]، وقال الله تعالى: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113]. قال: (مِن كِتَابِ رَبِّكَ) فأضاف الكتاب لله جلَّ في علاه، أضاف

الكتاب للرب؛ وهذه اللفتة أيضاً بأنه أتى باسم الرب هنا على أساس مسألة الربوبية وأن الله عظيم في صفاته سبحانه جلَّ في علاه، ومن عظيم صفاته الكلام يتكلم بما شاء كيف شاء، وأن الله أنزل على عباده هذا الكتاب "هذا القرآن". فالكتاب هنا والمكتوب تكتبه الأقلام، لكن هو كلام الله جلَّ في علاه الذي قال فيه الله جلَّ في علاه: (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء:192-195].

- والوحي لغةً: الإعلام في خفاء؛ كما حدث لأم موسى وحدث لمريم.

- لكن في الاصطلاح: إعلام الله أنبيائه بشيء إمّا بكتابٍ أو برسالة ملك أو منام أو إلهام؛ فهنا طرق كثيرة يأمر الله بها لفعله. المنامات أو المنام فقط لها حكم مترتب لمنام الأنبياء لأن رؤيا الأنبياء حق؛ إبراهيم ماذا قال؟ (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) [الصافات:102]. إذاً في الاصطلاح الوحي: هو إعلام الله لأنبيائه بالشيء بكتاب أو رسالة أو ملك أو منام أو إلهام، هذه طرق الإعلام للرسول.

قال الله جلَّ في علاه: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)؛ عندنا هنا الآن دلالتان "شاهدان" في الآية:

- الأولى: (كِتَابِ رَبِّكَ) أضاف الكتاب لله جلَّ في علاه، والإضافة إضافة التشريف. "والكتاب" هنا على ما قال الشافعي وقال علماؤنا: الكتاب المقصود به القرآن.

- قال: (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)؛ فالإضافة هنا تعم، يعني الكلمات تعم تكلّم الله جلَّ في علاه بما شاء وقتما شاء: تكلّم مع أنبيائه وأصفيائه تكلم مع خلقه، أمر السماء وأمر من في السماء، وأمر أيضاً الجنة والنار. فالله جلَّ في علاه تكلّم مع جميع خلقه، في الرد على أهل البدعة والضلالات، ففي قوله: (مِن كِتَابِ رَبِّكَ) [الكهف:27]، (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) [الأحقاف:29]، (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ) [الأحقاف:30].

قال: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)؛ فيها إضافة الكلمات لله جلَّ في علاه وهي إضافة صفة للموصوف، لا تتغير ولا تتبدل ولا تحرَّف، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9].

وأيضاً كلمات الله لا حصر لها ولا عدد، قال في آخر سورة الكهف: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [الكهف:109]، في هذه الآية كغيرها دليل -كما قلنا- على إضافة الكلمات لله جلَّ في علاه إضافة الصفة للموصوف.

وقال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [النمل:76]؛ (الْقُرْآنَ) مصدر قرأ أي جمع، بجمعه سور أو كتابة أو أحكام ما في الكتب السابقة. قال: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ)؛ قلنا "القرآن" مصدر قرأ يعني جمع، فهذا القرآن قد جمع السور وجمع أحكام الأمم السابقة لذلك سمّي قرآناً. (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ) يعني يبيّن لبني إسرائيل، الذين خط لهم التوراة الله جلَّ في علاه. قال: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)؛ وذلك اختلافهم في أمر عيسى -عليه السلام-، اختلفوا فيه، والاختلاف فيه على أساس أنه هل صلب أم لم يصلب؟ قتل أم لم يقتل؟

ولأن الله تعالى مكر بهم كما مكروا، قال الله تعالى: (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [آل عمران:54-55]. فهنا رفعه الله جلَّ في علاه، فشُبِّه عليهم وخُلِّط عليهم كما قال الله جلَّ في علاه: (وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء:157]، هذا اليهود.

أمّا النصارى اختلفوا في عيسى، ومنهم من قال إنه كذا ونسبوه لله ابناً، حاشا لله، تعالى الله علواً كبيراً عمّا يقول الظالمون. والحق بأن القرآن بيّن أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد من عباد الله، خلقه الله جلَّ في علاه كما خلق الجميع، خلقه من التراب وقال له كن فيكون، قال الله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [آل عمران:59]. وأيضاً اختلافهم على أنبيائهم واختلافهم على موسى -عليه السلام-، بيّن الله لهم ذلك في هذا الكتاب. لذلك هذا الكتاب معجز، هذا الكتاب صالح لكل زمان ومكان، قال الله تعالى: (وَهَٰذَا كِتَابٌ)؛ أي القرآن، (أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)؛ أي كثير البركة وكثير النفع وكثير الخير، (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) [الأنعام:155].

قال: (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الحشر:21]؛ الله أكبر، اللهم اغفر لنا يا رب العالمين، اللهم اغفر لنا. هذا التدبر والتفكر في كلمات الله جلَّ في علاه، (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، (مُّتَصَدِّعًا) يعني متشققاً، لرأيته خاشعاً متذللاً، لرأيته متصدعاً متشققاً من خشية الله جلَّ في علاه. هذا القرآن يزلزل الجبال، تتصدع الأفئدة وتتزلزل الأبدان من الخوف من الله جلَّ في علاه وخشيته، لكننا نحتاج إلى ذلك.

بعض السلف كان يقرأ الآيات؛ يعني وصل إلى آيةٍ في الحاقة، فشهق شهقة فمات. عمر بن الخطاب يمشي فيسمع رجل يقرأ في قول الله جلَّ في علاه: (وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ

مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ) [الطور:1-8]، خرّ صريعاً، مرض شهراً كاملاً يعودونه لا يعلمون ما به.

بل الكافر إذا سمعه يهتز؛ جبير بن مطعم يقول أنه مر بالحجر حالة كونه كافراً، قال: فسمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ: (وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) [الطور:1-6] قال: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ) [الطور:7-8]، قال جبير: كاد قلبي يطير. فهؤلاء الذين يتمتعون بذكر الله جلَّ في علاه فإنهم تتصدع أركانهم إذا سمعوا آيات الله جلَّ في علاه؛ كان أبو حنيفة إذا قام من الليل قرأ: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) [الزلزلة:1] إلى نهايتها، فيقبض على لحيته باكياً ويقول: يا من تأخذ بمثاقيل الذر اغفر لي.

وهذه فيها دلالة واضحة جداً على أن الجمادات يوحِّدون الله جلَّ وعلا، الكون كله يغرِّد توحيداً، فالجمادات يوحِّدون الله جلَّ في علاه بالتسبيح والتحميد. قال: (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)، إذاً هو يخشى الله. والجمادات أيضاً تسبّح؛ عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أعلم حجراً في مكة كان يسبّح عليّ كلّما رآني؛ يعني كان يسلّم عليّ كلما رآني، وابن مسعود يقول: كنا نسمع تسبيح الطعام بين أيدينا عند رسول الله، وقال الله تعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) [الإسراء:44].

وفي قوله: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) [النحل:101]؛ أي نسخنا آية وأنزلناها وأنزلنا آية أخرى غيرها لمصلحة العباد. وما يكون صالحاً للعباد قد يكون بالأخف، وقد يكون بالأثقل، وقد يكون بالمساوي. والنسخ في قول الله جلَّ وعلا: (مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) [البقرة:106]، (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) [النحل:101]؛ أي نسخناها وأنزلنا غيرها لمصلحة العباد.

قال: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) [النحل:101]، فيها دلالة على علو الله وعلم الله، وأن القرآن منزَّل على محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-. (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ)؛ فالله أعلم بما يصلح به خلقه وبما يفسدون، وأيضاً يعلم الله جلَّ وعلا متى يكون النسخ فيما يكون النسخ، كيف يكون النسخ للنظرة المقاصدية.

(قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ) [النحل:101]؛ أي الكفار عندما يرون هذه الآيات الباهرات القاهرات يقولون: إنك مفتري، يقولون: إنك كذاب. وهذا كان أشق ما يكون على النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان يرفع بصره إلى السماء، قال الله جلَّ في علاه: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)

[الأنعام:33]. (قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ)؛ أي كذّاب، قال الله تعالى: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [النحل:101]؛ لا يعلمون الحكمة من النسخ ولا يعلمون بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الرسول الحق الصادق المُصدَّق.

قال تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل:102]؛ أي نزّل القرآن، والتنزيل: الإنزال، وهو مجيء الشيء من أعلى. (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ)؛ روح القدس هنا هو جبريل، فجبريل سمعه من الله جلَّ في علاه، وهذه فيها دلالة أن الله تكلّم به وسمعه جبريل فسمعه من الله، والنبي سمعه من جبريل وهو الذي نزل بالقرآن على محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

وجبريل هو الروح الأمين، لذلك قال الله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) [الشعراء:192-194]. ولم يقل أحد قط من السلف أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- سمع القرآن من الله مباشرةً، القرآن ما سمعه إلّا من جبريل؛ قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) [العلق:3]. ومن قال بذلك فقد ضل ضلالاً مبيناً، فالنبي لم يسمعه من الله جلَّ في علاه.

وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- سمع كلام الله جلَّ في علاه حينما قال: هي خمسٌ وهي خمسون، لا يبدل القول لدي. ولذلك السلف جميعاً قالوا واتفقوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله وبلّغه لمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- يبلّغ أمته به. وهذه فيها دلالة أن هذا القرآن نزل به الروح الأمين، وأنه منزّل من علو للنبي الأمين، والذي نزل به وسمعه وأوصله هو جبريل إلى رسولنا الأمين -صلى الله عليه وسلم-.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: قال الله تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل:103]؛ (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ)، الله الذي تولى الإجابة: (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ). يعني هم كانوا يميلون ويشيرون إلى أنه يعلم محمداً -صلى الله عليه وسلم- أعجمي، فالله رد عليهم وبيّن أن هذا لسان صدق.

اللسان: أي بمعنى اللغة، والسياق حاكم، قال: (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ)؛ يعني لغة الذين يلحدون إليه أعجمي، والقرآن بين أيديكم بلسان عربي "بلغة العربية"، كما قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) [إبراهيم:4]. وقد يطلق اللسان على الذكر الحسن، كما دعا إبراهيم: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) [الشعراء:84]. رغم صفاقة المغرضين لكن فوقهم رب العالمين، قال: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) [الحجر:95].

قال: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ)؛ وقد يطلق ويكون المتبادر للذهن هو الجارحة، وهذا الأصل في الحقيقة قال: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) [القيامة:16]. إذاً السياق حاكم هنا اللسان، إذا كان المتبادر للذهن هو الجارحة. والسياق يحكم في اللسان: وهو يقصد به اللغة، يعني هو بلغة العرب.

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ) وهذا العلم علم المحاسبة، يعني يحاسبهم عليه لأن العلم علمان كما تعلم:

- علم الله جلَّ في علاه؛ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، (أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، سبحانه جلَّ في علاه.
- وعلم المحاسبة: هو إخراج معلومة في عباده ليحاسبهم عليه.

قال: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ)؛ وهذا من ضمن الافتراءات على النبي لأنه كان يدخل على رجلٍ أعجمي يعلمه النبي، فقالوا: لا، الأعجمي هو الذي يعلم النبي. سبحان الله!

فرد الله عليهم: يا أهل الغباء والسفه هذا أعجمي والقرآن الذي أتى به محمد -صلى الله عليه وسلم- عربي، أما تعقلون؟!! لكن لا بد أن تعلم أن العداوة والغيرة وغير ذلك تعمّي الأبصار، فيسقط المرء سقوطاً مدوياً ولا يدري، وهذا فعل الله للأغبياء من المنافقين، قال الله تعالى رب العالمين: (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [الأعراف:182-183]، سبحانه جلَّ في علاه.

فلذلك قال: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)، حجة دامغة. وعندما قال: (لِّسَانُ) يعني لغة، فيها دلالة أن الله تكلم بالقرآن عربياً، وفيه الرد القاطع الدامغ على الأشاعرة الذين يقولون بأن الذي بين أيدينا عبارة عن كلام الله، بل هو كلام الله جلَّ في علاه.

وفي قوله: (لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) فيه دلالة واضحة للإمام الشافعي أصولياً على أن القرآن ليس فيه عجمة قط، ليس فيه ألفاظ أعجمية. وإن كان الخلاف وارد بين العلماء مع اتفاقهم بأن الأسماء الأعجمية في الكتاب؛ لأن الأسماء لا تبّدل ولا تغيّر، لكن حقاً القرآن ليس فيه ألفاظ أعجمية. وما تمسكوا به من الألفاظ "أبّاً وغيرها"، فكلها وإن قلنا صارت عربية، هم قالوا نتفق معكم أنها أعجمية عُرّبت، والصحيح أنها عربية لعموم قول الله جلَّ في علاه: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء:195].

ختاماً لهذه الصفة العظيمة الجليلة "صفة الكلام لله جلَّ في علاه"، والقرآن تكلّم الله به بصوت وبحرف، وسمعه جبريل -عليه السلام-. والله يتكلم بصوت وسمعه الملائكة، كأنما سلسة على صفوان أخذت السماء بأسرها رعدة رجفة؛ (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ)؛ أي كشف (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) قلوب الملائكة، (قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [سبإ:23]، سبحانه جلَّ في علاه.

فهذه صفة الكلام عند أهل السنة والجماعة رداً على أهل البدعة والضلالة -كما بينا قبل ذلك في قولهم ورددنا عليهم-. وختاماً القرآن كلام الله القرآن، وهذا رد صريح على الأشاعرة الذين يقولون: ليس بكلام الله هو عبارة عن كلام الله. وحقيقة ذلك أن المعتزلة أفضل منهم في القول لأنهم قد وصفوا الله بالكمال حين الخلق، قالوا: مخلوق يعني وصفوه بالخلق، فهذا صفة كمال. لكن الكلام قالوا مخلوق، وهذه بدعتهم الضالة الكفرية.

الأشاعرة تحايلوا قالوا عبارة، أي وصفوا الله بالنقص أنه لا يستطيع أن يعبِّر، استغفر الله استغفر الله استغفر الله، وكأن جبريل هو الذي عبّر بهذا الكلام. كيف؟ يعني جبريل هو الذي يقول: أغفر لكم؟ جبريل هو الذي يأمرنا بالقتال أو بالصلاة أو بالزكاة؟ استغفر الله استغفر الله استغفر الله. فالقرآن كلام الله، تكلّم الله به وسمعه جبريل ونزل به إلى النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-، وبهذا نكون قد ختمنا الكلام على هذه الصفة العظيمة.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثاني والأربعون: آيات إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

ثم انتقل المصنف أيضاً يفنِّد لنا ويبيّن لنا وسطية أهل السنة والجماعة في اعتقادهم في ربهم، فقال: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة: 22-23]، وهذه على هذه الصفة العظيمة "صفة النظر: رؤية الله جلَّ في علاه"، ورؤية الله تحتها مسائل كثيرة:

- رؤية الله جلَّ في علاه في الآخرة محققة، والدلالة على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والقياس، كما سنبين.
- المسألة الثانية: رؤية الله في الدنيا ممكنة لكنها غير محققة.
- الثالثة: رؤية الله محققة مناماً بعين القلب لا بالعين الباصرة.

ثلاث مسائل شريفة، وهذه المسائل من أعظم المسائل في الاعتقاد. هذا سنفصله إن شاء الله في الدرس القادم، لكن أقف على شرف هذه المسألة، وأسأل الله أن يشرفنا جميعاً بها وأن يجعلنا جميعاً ممن ينظر إلى وجه الله الكريم، اللهم آمين يا رب العالمين.
دل على رؤية الله الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل والقياس. اللهم ارزقنا، اللهم ارزقنا، اللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم آمين يا رب العالمين.

◆ في الكتاب كثير؛ قال رب العالمين: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، التعدي ب "إلى" لا تكون إلّا بالعين الباصرة، وارجئ التفصيل للدرس القادم إن شاء الله، لكن سأسرد بعض الأدلة حتى أفصّل وجه الدلالة إن شاء الله في الدرس القادم. قال الله تعالى: (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [ق:35]، جاء النبي الأمين مبيناً لكتاب رب العالمين فقال (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء:195]: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم. اللهم ارزقنا، يا رب اجعلنا مع النبي في الفردوس الأعلى، اللهم آمين يا رب العالمين، ممن يرى وجه ربه غدواً وعشيا اللهم آمين يا رب العالمين.

وقال الله عن المؤمنين وفلاح المؤمنين الصادقين المتقين: (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) [المطففين:35]؛ وهنا نفي المعمول يؤذن بالعموم، (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) إلى ماذا؟ إلى حور العين؟ نعم، إلى أنهار العسل المصفّى والماء غير آسن وأنهار الخمر واللبن؟ نعم، إلى الجنات؟ نعم؟ إلى وجه الله الكريم؟ نعم ينظرون إلى وجه الله الكريم وهذا أعظم ما ينظرون إليه.

◆ والسنة كثير سأذكر حديثاً واحداً ويأتي التفصيل إن شاء الله بعد ذلك؛ حديث أبي موسى الأشعري، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جنتان من ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم إلّا رداء الكبرياء على وجه الرحمن). سبحان الله.

◆ والإجماع؛ أجمعت الأمة على أن رؤية الله في الجنة محققة.

◆ والقياس في ذلك "القياس العكس"، وهذا قاله الشافعي. قال الله عن الكافرين نعوذ بالله من الخذلان: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) [المطففين:15]، قال الشافعي: حجبهم هنا في الغضب فيروه هم في الرضا.

بعدما بيّن لك عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله جلَّ في علاه، وكيف أن أهل السنة والجماعة وسط؛ في الصفات الذاتية، في الصفات الفعلية، في الصفات الخبرية. ومن بديع التصنيف، أراد أن يختم لك بأعظم هذه المسائل وأشرف المسائل على الإطلاق، وهذه كما قلت من أشرف المسائل التي لا بد من الاجتهاد فيها والجد عليها

وعدم التواني في حقها، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو كثيراً: (اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة).

ورؤية الله جلَّ في علاه لا بد أن نتكلم عنها في مسائل: وهي رؤية الله جلَّ في علاه في الآخرة والكلام عليها بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والضلالة، ورؤية الله في الدنيا، ورؤية الله جل في علاه بالقلب (رؤية الكلام) عن رؤية العين (بالعين الباصرة).

- فرؤية الله جلَّ في علاه في الآخرة هي متحققة ومجمعٌ عليها عند أهل السنة والجماعة وأدلتها كثيرة من الكتاب والسنة والاجماع، بل والقياس.

- وأمّا رؤيته في الدنيا بالعين الباصرة فهي ممكنة، لكنها لم تتحقق ولا حتى لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

- وأمّا الرؤية القلبية في المنام؛ فالراجح عند أهل السنة والجماعة أن الله يُرى في المنام كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رأيت ربي في أحسن صورة).

وأمّا أهل البدعة والضلالة ففي الرؤية المتفق عليها ينفونها، كالجهمية والمعتزلة هؤلاء ينفون رؤية الله جلَّ في علاه. جاء قومٌ من المرجئة الأشاعرة يقولون بالرؤية، وطبعاً أصلاً إن سمعت ما قالوا في الرؤية لا تراها رؤية محققة بحال من الأحوال، لأنهم أصالةً لا يؤمنون بعلو الله جلَّ في علاه.

رؤية الله جلَّ في علاه الرؤية بالعين الباصرة في الآخرة وهذه محققة، أو قل للأيسر الرؤية في الدنيا فإنها ممكنة وليست محققة، لأن موسى -عليه السلام- سألها. وموسى لا يسأل منكراً، ولو كان منكراً لأنكر الله عليه، أقرّه الله جلَّ في علاه ثم علّق رؤيته على ممكن، لكن القوى البشرية لا تستطيع إلى ذلك سبيلاً. عندما قال موسى عليه السلام لمّا جاء، قال الله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا) [الأعراف:143]. فهنا علّق على الممكن، ولكن القوى البشرية لا تستطيع إلى ذلك سبيلاً.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً لم يرَ الله على التحقيق، لأنهم لمّا ذكروا لعائشة أن ابن عباس يقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى ربه لأن الله قال: (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ) [النجم:12-14]، فقال: رأى ربه؛ وهذا من الإمام ابن عباس. ذكر مسروق لعائشة هذا الكلام، قالت: لقد قف شعري مما تقولون، أين أنت من ثلاث؟ ثم قالت: من قال بأن محمداً ﷺ رأى ربه فقد

أعظم على الله الفرية، وقالت: قد قال الله تعالى: (لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) [الأنعام:103]. وإن كان الاستدلال بذلك فيه شيء، يعني أتت بالدليل الأخص على مسالة أعم، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، لأن الأعم هو الرؤية والأخص هو الإدراك، والنفي هنا نفي الإدراك لا نفي الرؤية، والرؤية ثابتة كما قال الله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).

لكن في الدنيا نقول: الرؤية وإن كانت ممكنة لكنها غير محققة لعموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)، وأصولياً كما قلنا إن المُخاطِب يدخل تحت الخطاب. وأمّا من قال بأن النبي رأى ربه برواية: "نور إني أراه"؛ هذه مصحّفة على الراوي، والصحيح أنه قال: (نور أنّى أراه؟)، والرواية الثانية في مسند أحمد تثبت ذلك قال: (رأيت نوراً). إذاً الحق بأن نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- لم يرَ ربه بعينه الباصرة في الدنيا.

والرؤية المنامية محققة أيضاً، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أعلم، فوضع يده على صدري حتى وجدت برد أنامله، فعلمت ما بين السماء والأرض ثم قلت: في الدرجات) ... إلى آخر الحديث. لكن هنا قال علماؤنا: فيها دلالة على جواز رؤية الله جلَّ في علاه بالقلب (الرؤية المنامية)، ويأتي لكل إنسان على قدر إيمانه. وأمّا الرؤية (رؤية العين الباصرة) في الآخرة فهذه متفق عليها ومجمع عليها بين أهل السنة والجماعة، خلاف أهل البدعة والضلالة.

وأدلتها من الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل والقياس:

أمّا من الكتاب فأصله في قول الله جلَّ في علاه: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، تملؤها النضارة والبهجة، وأيضاً الإشراقات الراقية السامية في الوجه كأنما في أشعة الشمس أو في ضوء القمر. وهذا للنظر إلى وجه الله الكريم، يكسب الوجه بهاءً ونضارةً، لذلك قال: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).

وقلنا النظر: يتعدى بنفسه، ويتعدى ب "إلى"، ويتعدى ب "في":

- يتعدى بنفسه معناه الانتظار؛ (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) [الحديد:13].

- وتتعدى ب "في" بمعنى التدبر؛ (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) [الأعراف:185]، فهنا إن تعدت ب "في" تكون بمعنى التدبر، ويكون النظر هنا بعين القلب.

- وإذا تعدت ب "إلى" فتكون بالعين الباصرة؛ قال: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، فهي تنظر إلى ربها جلَّ في علاه بالعين. وأمّا ما قاله أهل البدعة والضلالة في قوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، قالوا: منتظرة الثواب. هذا لا يكون بحال من الأحوال، لأننا كما قلنا بأن التعدي ب "إلى" بمعنى العين الباصرة، وأمّا التعدي بذاتها فيكون التعدي بنفسها أو الانتظار.

وأيضاً من الكتاب قول الله جلَّ في علاه: (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) [المطففين:35]، ينظرون إلى ماذا؟ هنا كما قلنا تحقيق القاعدة: نفي المعمول يؤذن بالعموم؛ ينظرون إلى الجنة، ينظرون إلى الأنهار، ينظرون إلى رؤية الله جلَّ في علاه، نعم ينظرون إلى وجه الله الكريم. إذاً في قوله: (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ)؛ نفي المعمول يؤذن بالعموم، فهو من حيث إنه رؤية إحاطة.

لكن عندما نتكلم عن العموم فالإدراك أخص من الرؤية، والرؤية أعم. قال: (عَلَى الْأَرَائِكِ)؛ على الأسرّة، ولهم ما لهم من العظمة والمكانة، (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) على الأسرّة ينظرون إلى وجه الله الكريم.

وأيضاً من ذلك قول الله جلَّ في علاه: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) [يونس:26]؛ (الحسنى) وهي الجنة، (والزيادة) كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم). والصحابة أيضاً دل لهم على ذلك، وقد قال الله جلَّ في علاه: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر)، وأعظم ما يكون لهم فيها هو النظر إلى وجه الله الكريم.

ومن ذلك أيضاً قول الله جلَّ في علاه: (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [ق:35]، هذه الآية تدل على رؤية وجه الله الكريم من وجهين: ١- قال: (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ)؛ وأهم ما يشاؤون رؤية الله جلَّ في علاه، و(مَّا) صيغة عموم. ٢- وأيضاً قال: (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)؛ المزيد فسّرها علي بن أبي طالب: المزيد هو النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا في يومٍ المزيد، أيضاً أنس بن مالك أيضاً فسرها: برؤية الله جلَّ في علاه.

يبقى في الآيات مسألة العكس؛ قال الله تعالى: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) [المطففين:15]، قال الإمام الشافعي: لمّا حجبهم في الغضب -هؤلاء الكفرة حجبهم عن رؤيته في الغضب- فقد جعل الرؤية لهم في الرضا -لأهل الإيمان في الرضا-، وهذه دقة نظر من الإمام الشافعي.

وأمّا السنة فكثير؛ قد قال النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-: (ترون ربكم كما ترون الشمس ليس دونها سحاب، ترون ربكم كما ترون القمر ليس دونه سحاب). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هل تضارُّون؟، هل تضاهون؟، هل تضامُّون في رؤية القمر؟

قالوا: لا، قال: ترون ربكم كما ترون القمر)، وشبّه الرؤية بالرؤية لا المرئي للمرئي. وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في دعائه يضمنه: (وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة).

وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه)، سبحانه جلَّ في علاه. فهذه كلها أدلة واضحة على رؤية الله جلَّ في علاه، بل الصحابة الكرام سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن رؤية الله شوقاً عن رؤية الله يوم القيامة، هذا بالنسبة للسنة.

وأمّا الإجماع؛ فقد أجمع أهل السنة والجماعة على رؤية الله يوم القيامة، اللهم ارزقنا رؤيتك يوم القيامة يا رب العالمين. وقلنا قياس الأولى بأنه قد علّق رؤيته في الدنيا على الممكن، فلئن يكون الأمر في الآخرة وهو يقول: (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [ق:22] من باب أولى.

وأصناف الناس في رؤية الله جلَّ في علاه:

- فمنهم من يرى الله بكرةً وعشية، هؤلاء الذين جعلهم الله جلَّ في علاه مع السابقين الأولين وقال عنهم: (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) [الواقعة:13-14]، اللهم اجعلنا من هؤلاء يا رب العالمين.

- الصنف الثاني هم الذين يرونه في الجمع في يوم المزيد، حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، وهذا لعامة المؤمنين الذين قد دخلوا الجنات وتمتعوا بها.

- ومنهم من يراه في كل عام في الأعياد وهم النساء، والله تعالى أعلى وأعلم.

هذه بالنسبة لمسألة الرؤية التي ختم بها وأشرف المسائل، ختم بها ابن تيمية في الأصل في الكلام على صفات الله جلَّ في علاه سواء الفعلية أو الذاتية. قال: وهذا الباب في كتاب الله كثير؛ من هذا الباب الذي تكلّم عن أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، قال: من تدّبر القرآن طالباً الهدى منه تبيّن له طريق الحق. نعم من أراد الله، أراد الله له ما يريد ويسّر له كل أمرٍ عسير وفتح له الأبواب المغلقة التي لم يفتحها على غيره، ما إن يقرأ القرآن متدبراً أراد بذلك رضوان الله جلَّ في علاه إلّا فتح الله له الآفاق والفهم الذي لم يفتحه لغيره.

وهذه أيضاً تأتيك بأن هذا القرآن العظيم قد أنزله الله جلَّ في علاه وخلق الخلق ليتدبروا هذا القرآن، فيصل به إلى تحقيق قضية الكون الكبرى التي من أجلها خلقهم الله جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء:82]، ولو وجد اختلافاً إذاً علم أنه لم يتدبر، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ

عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد:24]. فكل من قرأ القرآن فلم يتدبر، فليخشَ على نفسه أن يكون ممن وقع في مثل هذا، وعلى قلبه القفل فإن ختم الله على قلبه فلا بصيرة له بحال من الأحوال، (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [المائدة:41].

قال الله تعالى: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ) وأهم البركة في هذا الكتاب هو تدبر آية الله جلَّ في علاه، قال: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص:29]. إذاً هذه الآيات هدىً لمن طلب الهدى، وأمّا من اتبع الهوى فليس له إلّا الردى، قال الله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) [الفرقان:43]. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (حديث المعنى صحيح والإسناد فيه ضعف): (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). قال: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [ص:26]، نعوذ بالله من ذلك.

ثم قال: فصل؛ يفصل بين ما مضى وبين ما سيأتي في الكلام على ذلك، على أساس بيّن هنا السنة وأنه لا بد للإنسان أن يأخذ الصفات أيضاً من السنة. وهذا ما قاله الإسماعيلي في بداية الكتاب: على أنهم أمروا بعدم إنكار ما وصل لهم، أيؤمنون بما نطق به الكتاب والسنة؛ يعني بما أثبته الكتاب والسنة لربهم جلَّ في علاه من الصفات.

الفوائد المستنبطة:

- بهاء المرء في طاعته.
- نفي المعمول يؤذن بالعموم.
- الجزاء من جنس العمل وزيادة.
- من طلب الهدى وجده.
- وجوب التدبر في كتاب الله جلَّ في علاه.

العقيدة الواسطية

الدرس الثالث والأربعون: فصلٌ في سنة رسول الله

قال المصنف -رحمه الله-: فصلٌ في سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

فالسنة تفسر القرآن وتبيّنه وتدل عليه وتعبر عنه. وما وصف الرسول ربه عز وجلّ من الأحاديث الصحاح التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول، وجب الإيمان بها كذلك. مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟) متفقٌ عليه.

قال: فصلٌ؛ كأنه يريد أن يبيّن لك في مسألة التصنيف، قال: وإن أردنا فلا تصنيف إلّا على التصنيف وعلى غرار هؤلاء. كما قلت العلم عند المتقدمين، ولا بد للمرء أن يستنير بالمتقدمين في العلم حقاً هناك. فهو قال: حتى في التصنيف فإنني أئتسي بهؤلاء المتقدمين، فأبدأ بكتاب الله جلَّ في علاه، ثم أثني بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فهما مدرك عظيم من مدارك الأحكام: الكتاب والسنة. فيبدأ بالكتاب ثم السنة على ما وصف الله نفسه في كتابه أو وصفه رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سنته، ولذلك يقول هنا: فالسنة تفسيرٌ للقرآن؛ هو أراد أن يقول بأن السنة والقرآن صنوان.

قال: فصلٌ؛ والفصل: هو الحاجز بين الشيئين، وفي الاصطلاح: هو اسم الجملة من العلم تحته فروع من المسائل. ولذلك لمّا ذكر المصنف، قال: كأني أهديك وتهتدي معي إلى طريق السلف؛ كلاماً واحتجاجاً واستدلالاً وتصنيفاً. فقال: والتصنيف على غرار ما كان عليه هؤلاء الأبرار الأخيار من السلف الصالح، فيقدِّمون الكتاب وبعد ذلك يردفون الكتاب بالسنة.

والسنة: لغةً: هي الطريقة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب). وفي الاصطلاح السنة لها تعاريف، فهي حسب القوم الذين ينظرون إلى السنة؛ إن كان من الفقهاء أو من الأصوليين أو من المحدِّثين أو من الذين يرسمون طريقاً إلى الكلام على أصول الاعتقادات.

- فالسنة عند أهل الاعتقاد: هي ضد البدعة؛ ولذلك أنت ترى تصانيف المتقدّمين دائماً يذكرون السنة: أصول أهل السنة والجماعة للألكائي، أصول السنة للإمام أحمد السنة، السنة للبربهاري، كتاب السنة لابن أبي عاصم، فكلها يقصدون بها الاعتقاد "السنة ضد البدعة".

- وعند أهل الحديث وهم أولى الناس برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالسنة عندهم هي كل شيء له علاقة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- سواء كانت: في الأحكام، في السير، في الهدي، في الأفعال الجبلّية والأفعال التعبدية. هذه السنة: كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفة خَلْقية أو صفة خُلُقية، كل هذه هي السنة. يعني يهتمون بأيام النبي -صلى الله عليه وسلم-، حياة النبي، وأفعال النبي الجبلّية والتعبدية.

- وأمّا أهل الأصول فهم أقرب الناس لأهل الحديث، وأهل الأصول يهتمون جداً بالأحكام والتقعيد الكلي. لذلك السنة عندهم هي: كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ. لذلك "صفة خَلْقية أو صفة خُلُقية" لا يهتمون به، لأنهم يريدون الأحكام، فإن كانوا يريدون الأحكام فاهتماماتهم لا تكون إلّا على مدار الأحكام.

فالسنة عند الأصوليين: كل ما أضيف الى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ:

- قول: كقوله: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء.
- أو فعلٍ: كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا سجد فرّج بين يديه، حتى لو أرادت بهمة أن تمر مرت.
- أو تقرير: أقرّ النبي -صلى الله عليه وسلم- اجتهادات أبي بكرٍ، وأقرّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً أفعال الصحابة كبلال، وأيضاً كالرجل الذي كان يختم قراءته بسورة الإخلاص.

- والسنة عند الفقهاء: هي ما كانت مقابل للفرض.

قال: فالسنة تفسّر القرآن؛ الحق السنة علاقتها بالقرآن صنوان يتلازمان، لا ينفكان بحال من الأحوال. فالسنة موافقة للقرآن موافقة تامة، كما قال الشافعي في الرسالة: موافقة موافقة تامة للكتاب. والسنة أيضاً جاءت مخصِّصَة للكتاب ومقيدة، وهذا من باب التبيين، مبيّنة للقرآن، والسنة أيضاً تأتي بتبيين المجملات؛ فإمّا أن تأتي بأحكام موافقة أو مطابقة أو مبيّنة، أو أنها تأتي بأحكامٍ مستقلة. أمّا السنة والقرآن فهما وحيٌ من الرحمن، فالحجة فيها، قال الله تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) [النجم:3-4]. وقال أيضاً الله جلَّ في علاه: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [القيامة:16-19]؛ والبيان في السنة. قال: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]،

وقال: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113].

فالسنة تفسِّر القرآن وتبيّنه، وتوضح مشكله، وأيضاً تقيّد مجملة. قال الله جلَّ في علاه: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34]؛ وأجمع العلماء على أن "الحكمة" هي السنة. فقال: تفسّر القرآن، عندك كثير من الأمثلة التي توضح ذلك: قال الله تعالى: (لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [ق:35]، والآية الأخرى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) [يونس:26]؛ جاء التفسير بأن "الحسنى" الجنة و "الزيادة" النظر إلى وجه الله الكريم.

وجاء التفسير أيضاً من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ) [القلم:42]. حديث أبي سعيد أظهره جليّاً عندما قال: (فيأتيهم في الصورة التي لا يعرفونها. فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: انتظروا ربنا، فيقول جلَّ في علاه: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لست بربنا، فيقول: وهل بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساقه سبحانه جلَّ في علاه، فيخرّون جميعاً سجّداً له). هذه دلالة واضحة على أن السنة مفسّرة ومبيّنة وموضحة لمشكلات القرآن.

كما حدث البيان في قول الله جلَّ في علاه: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ) [المائدة:38]؛ واليد من الكف إلى الكتف، فتأتي السنة تبيّن لنا من أي المواضع يُقطع السارق، (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) من الكف. ففيها دلالة واضحة جداً على أن السنة مبيّنة، وأيضاً هي مقيّدة، وهي أيضاً مخصِّصة.

وفي التوضيح أيضاً والتبيين في قول الله جلَّ في علاه: (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) [الطلاق:4]، ولكن قال في المتوفى عنها زوجها: (يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) [البقرة:234]. فبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- الإبهام في الكلام على وضعها هل تكون في الآية الأولى أم تكون في الآية الثانية، إن كانت حاملاً ومات عنها زوجها. فوضّح ذلك بحديث سبيعة الأسلمية.

ويأتي بأحكامٍ جديدة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)، وأيضاً نهى النبي عن أكل كل ذي نابٍ من السباع، وكل ذي مخلبٍ من الطير. هذه علاقة السنة بالقرآن، والأمر واسعٌ جداً، أردنا أن نشير إشارات إلى هذا الباب. فالسنة تفسّر القرآن، والسنة توضح القرآن، والسنة تقيده، والسنة أيضاً تأتي بأحكامٍ جديدة مستقلة، وهذا مهم جداً في التعارف على السنة في هذا الباب، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: لا ألفين أحدكم شبعان على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، فيقول: ننظر في كتاب ربنا فما وافق الكتاب أخذنا به وما خالف الكتاب طرحناه. فقال

النبي: ألا وإني قد أوتيت القرآن مثله معه؛ فجعل السنة مثل القرآن، وأيضاً قال النبي: ألا وإنما حرّم رسول الله كما حرّم الله.

فالسنة تفسيرٌ للقرآن كما قال: تفسّره وتبيّنه وتدل عليه وتعبر عنه؛ كما بيّنا في هذه الأمثلة التي أثبتنا فيها بأن السنة تجلّي لنا معاني القرآن؛ سواء الأحكام التي جاءت محكمة في كتاب ربنا فتكون موافقة معضدة، أو تكون أحكام مجملة فتأتي السنة فتبيّن هذه المجملات كما قال الله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [الإسراء:78]، جاء بيان الأوقات توضيحاً بأن الواجب موسع ببيان الأوقات في حديث جبريل لمّا صلى في النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-.

وأيضاً فإنها تقيد وتخصص العموم من القرآن أو المطلقات من القرآن، وكما قلنا تأتي بالأحكام المستقلة. لذلك قال: وتبيّنه. وهذا أصله في قول الله جلَّ في علاه: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، وأيضاً الله جلَّ في علاه قال: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113].

قال: وما وصف الرسول به ربه عز وجلّ من الأحاديث الصحاح التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول، وجب الإيمان بها؛ أولاً نقول في قوله: وما وصف الرسول به ربه، هذه دلالات واضحة على وسطية أهل السنة والجماعة، وقلت العلم دائماً في المتقدمين، لا بد أن تفهم ذلك. فكأنه قال: وأبيّن لك وأبرر لك أنني أسير على طريق السلف، وأن السلف ما وصفوا ربهم إلّا بما وصف نفسه بكتابه أو وصفه به رسوله في سنته. فكلّما وصف نبيه ربه بصفةٍ أفتاها خلافاً أهل البدع والضلالة من المعتزلة والجهمية ومن الأشاعرة، من الضلالات بمكان، الذين يقولون أصول الديانات والعقائد لا (**) بأحاديث الآحاد. فالشافعية والحنابلة والأحناف، جُلّ المحققين من أصحاب المذاهب يقولون بأن أحاديث الآحاد تثبت بها أصول الديانات.

كما قلنا في مسألة الحوض ومسألة القبر وما في القبر، فكلها بأحاديث آحاد. وهذه رد على أهل البدع والضلالات من الأشاعرة، وأيضاً من الجهميّة والمعتزلة؛ الحق الذي لا حق فوقه أن الأشاعرة فيهم ضلال في العقيدة، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يهدينا وإيّاهم إلى سواء السبيل، وليسوا من أهل السنة والجماعة.

وأصحاب الدعوات الذين يميعون القضية ويقولون هم من أهل السنة والجماعة، أو يقولون -كما قال النووي- أنهم من متكلمي أهل السنة والجماعة، هم لا يمتون صلةً بأهل السنة والجماعة. الأشاعرة من أهل السنة والجماعة، هم فرقة، هذا تصريح دون

التلميح حتى تبرأ الساحة أمام الله، ويكون دعوة لهم أيضاً إلى أن يحيدوا عمّا يتبنون من تحريف الصفات وعدم إثبات صفات الله جلَّ في علاه.

فكأنه يقول هنا: وإثبات الصفات بأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسنة، قال: ما وصف الرسول به ربه؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، أثبت لله الأصابع. وأثبت الأنامل حينما قال: فوضع يده على صدري، فأثبت اليد، وقال: فوضع يده على صدري حتى وجدت برد أنامله. وقال: يكشف عن ساقه، وأثبت الساق لله جلَّ في علاه. والوجه أيضاً، قال: وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم، هذا أيضاً فيه إثبات لصفة. فالسنة قد أثبتت صفات الله جلَّ في علاه، فكأنه قال: وأنا أدين الله، وأثبت لله الصفات التي ثبتت لله جلَّ في علاه بسنة النبي العدنان، بل وأصول الديانات تثبت بما ثبت عن رسولنا -صلى الله عليه وسلم-.

قال: من الأحاديث الصحاح؛ هذا قيدٌ يخرج الأحاديث التي ليست بصحيحة. والسؤال هنا مطروح: كيف يعرف الصحيح من السقيم، فالقيد هنا يقول: وما وصف الرسول ربه عز وجلّ من الأحاديث الصحاح؟ هذا التفصيل لابن تيمية يرد عليه، وابن تيمية كان اعتد بحديث أن الله أجلس الرسول -صلى الله عليه وسلم- بجانبه عرشه، وهذه أحاديث كلها مبتورة موضوعة باطلة، وكحديث شاب أمرد. أحاديث بأسرها باطلة موضوعة، ولا يمكن أن تثبت الصفة لله جلَّ في علاه بأحاديثٍ ضعيفة، فضلاً عن أن تكون موضوعة وباطلة. إذاً هنا القيد قال: وما وصف الرسول ربه عز وجلّ من الأحاديث الصحاح؛ وهذا مفهومه أيضاً لا يمكن أن يوصف الله تعالى بصفةٍ جاء بها حديثٌ ضعيف، كما في حديث: يسجد بين عيني الرحمن؛ إثبات العينين للرحمن بالعدد، لكن الكلام نقول له: لا، ثبتت بالمفهوم على التأكيد.

قال: وما وصف الرسول ربه عز وجلّ من الأحاديث الصحاح التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول. هنا وصف زائد، ماذا تفهم من هذا الوصف الزائد؟ هنا يقول: التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول، أهل المعرفة هم أهل التخصص "علماء الحديث" الصيارفة الذين يعرفون السقيم من الضعيف والصحيح من غيره، كما كان أبو زرعة وأبو حاتم. وهو يقول: كلامنا وهم في مسألة التصحيح والتضعيف؛ يقول: تسألني فأقول لك: حديثٌ فيه علة. وتسأل أبا زرعة فيقول لك: حديث فيه علة. وتسأل أحمد فيقول: حديث فيه علة. وأنت ترى الاتفاق بينهم جميعاً كأن هذا وهم، كأنه سحر وكهانة في كلامهم على الحديث.

فأهل المعرفة منهم علماء الحديث، المتقنون في الباب، كما سمّاهم المتقدّمون: هم الصيارفة. كان الأعمش يقول عن شيخه إبراهيم النخعي -مع أن إبراهيم النخعي

تخصصه فقه أكثر منه حديث-، ومع ذلك كان يقول: من الصيارفة، أنا أقول له الحديث ويتكلم عنه. فهؤلاء أهل الحديث أهل إتقان الباب في درايةً ورواية.

من الأحاديث الصحاح التي تلقّاها أهل المعرفة، أهل العلم وأهل الصنعة في هذا الباب وأهل الشأن. تلقّاها أهل المعرفة بالقبول؛ يعني قالوا هذا حديث مقبول لا مردود، وزيادة على ذلك أيضاً التي تلقتها الأمة بأسرها بالقبول توجب علماً وتوجب عملاً. لذلك ماذا قال ابن تيمية؟ انظر دقة النظر، قال: وجب الإيمان بها؛ معناها أنه قال: هي تستوي بالقرآن، كما أنه يجب الإيمان بالقرآن يجب الإيمان بالسنة التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول. فإن قلنا يجب الإيمان بها فهي كالقرآن، أيضاً فإنها توجب علماً وتوجب عملاً، وهي آحاد. فهي كالقرآن لأنها خرجت من مشكاةٍ واحدة، فلذلك قال: وجب الإيمان بها، لم يقل توجب علماً وعملاً، بل قال: وجب الإيمان بها.

وقوله: وجب الإيمان بها، يبيّن لك أنها توجب علماً كما أنها توجب عملاً. وهذه دلالة على المثلية كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ألا وإني قد أوتيت القرآن ومثله معه، وأيضاً في قوله: ألا وإنما حرّم رسول الله كما حرّم الله، سواء بسواء، وقد قال الله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]. فإذاً في قوله: وجب الإيمان بها، يعني يوجب الإيمان بها بأنها توجب علماً اعتقاداً وتوجب عملاً. ثم دخل إفصاحاً في الباب، قال: ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة. فوصف ربه جلَّ في علاه وهذا ما يدخل فيه إن شاء الله في الدرس القادم بإذن الله.

الفوائد:

- السنة صنو القرآن.

- إذا ثبتت الآثار فإنها توجب علماً وعملاً. طبعاً المسألة فيها أقوال ثلاثة لكن هذا هو الراجح، إذا تلقتها الأمة بالقبول؛ كأحاديث الصحيحين وما انفرد به البخاري وغير ذلك.

- من أنكر السنة فقد كفر، من أنكر السنة فهو منكرٌ للقرآن، لأن الله قال: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، وقال: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113]، فهو تنزيلٌ كتنزيل. من أنكر السنة فهو كافر.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الرابع والأربعون:

حديث في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا

ما زلنا مع الواسطية، وشيخ الإسلام يبيّن لنا كيف عقيدة السلف، وأنهم يستدلون ثم يعتقدون، وأن اعتقادهم نابع من الكتاب أو من السنة في الأثر والتوقيف في ذلك. إذ هو علم غيب، وعلم الغيب التسليم له والإيمان به يكون تابعاً للأثر الذي يأتي.

وهنا يبيّن لنا الصفات سواء: الصفات الذاتية أو الصفات الفعلية أو الصفات الخبرية، كلها قد جاءت منصوصٌ عليها من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. والرسول هو أعلم الخلق بالله بالخالق سبحانه جلَّ في علاه، لذا إن أردنا اعتقاداً أو فهماً عن الله جلَّ في علاه فلا يؤخذ إلّا من النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ينزل ربنا)؛ أراد المصنف هنا بهذا الحديث أن يأتي لك -كما قلنا- بالصفات الثبوتية سواء كانت الذاتية أو الفعلية أو الخبرية. قال: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الآخر أو الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟) هذا الحديث الأول الذي أتى به المصنف إظهاراً للسنة وما أتت به السنة من صفات الله جلَّ في علاه. (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) هذا حديث متفقٌ عليه، حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-. حديث النزول تواترت فيه الأدلة، بلغ حد التواتر، رواه أكثر من أربع وعشرين نفساً من الصحابة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: (ينزل ربنا)؛ فأضاف الفعل لله جلَّ في علاه، وهذا الإضافة تدلّك على أن الفعل من الله جلَّ في علاه. إذاً النزول لمّا يضاف إلى الله إضافة مباشرة دلّ ذلك أن ذلك من أفعال الله جلَّ في علاه، يعني الله يتصف بهذا الفعل "النزول". قال: (ينزل ربنا)؛ انظر ما قال: ينزل الله، المقام مقام ربوبية وجبروت وقهر، وأيضاً قوة وقدرة وعزة.

قال: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ)؛ والله جلَّ في علاه على العرش. إذاً هنا نزول من الله جلَّ في علاه من على العرش، الله جلَّ في علاه قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، وأيضاً قال: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) [الأعراف:54]. فهو فوق السماء، فوق العرش كما قالت الجارية للنبي لمّا سألها: أين الله؟ قالت: في السماء؛ تقصد فوق العرش فوق السماء. العرش فوق السماء السابعة -كما جاء عن ابن مسعود- وفوق العرش الله جلَّ في علاه ويعلم ما أنتم عليه.

فيكون نزولاً يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته، ففيها دلالة أولاً على علو الله لأن النزول لا يكون إلّا من علو. الأمر الثاني وصف الله جلَّ في علاه بالنزول هو وصفٌ ثابتٌ بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل ومثله ثابت بالكتاب؛ قال الله جلَّ في علاه: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر:22]، (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ) [البقرة:210]. قال: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يكون ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟) وهذا النزول يكون إلى طلوع الفجر، بل ويشهد الله صلاة الفجر. كما قال الله جلَّ في علاه: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [الإسراء:78].

قال: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ)؛ أهل السنة والجماعة أثبتوا النزول لله جلَّ في علاه، نزولاً يليق بجلاله وكماله وعظمته. أهل البدع والضلالة لم يؤمنوا بذلك، وحرَّفوا الكلمة عن مواضعها:

- أمّا الجهمية والمعتزلة -كما قلنا- نفوا هذه الصفة، ينفون هذه الصفة عن الله جلَّ في علاه، فهم يفرُّون من التشبيه كما قالوا على ما قالوا.

- والأشاعرة أيضاً عندهم نفي، لكن النفي الذي عندهم هو نوع تعطيل، لأنهم يقولون: ينزل ربنا بتقدير محذوف؛ يعني ينزل أمر ربنا، تنزل ملائكة ربنا، أو ينزل مَلَك إلى السماء. فقد قالوا بالمحذوف هنا من أجل الهروب من أن يضاف النزول لله حقيقةً.

والحق بأن النزول في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. والكيف مجهول والإيمان به واجب لأنه من الغيب؛ آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

قال: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)؛ كما قلنا أهل السنة والجماعة أثبتوا نزولاً لله جلَّ في علاه، نزولاً يليق بجلاله وكماله وعظمته.

وأمّا أهل البدع والضلالة فقد اتفقت كلمتهم، واختلفوا بعد ذلك في التفريع:

- فالجهمية والمعتزلة هم الذين ينفون صفات الله جلَّ وعلا.

- الأشاعرة يثبتون سبع صفات ويحرّفون الكلم عن مواضعه، فيؤوّلون كل صفةٍ أضيفت لله جلَّ وعلا لا سيما من الصفات الاختيارية، لا سيما من صفات الأفعال. ينزل ربنا؛ قالوا: ينزل أمر ربنا، تنزل رحمة ربنا، ينزل مَلَكٌ من السماء، ينزل ملائكة ربنا.

لغرض المقصود بأنهم أوَّلوها من كل مشربٍ، والأصل عدم التأويل، والأصل عدم التحريف، بل جرُّوهم إلى ذلك.

نقول: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا" ولم يبيّن لنا كيف، فنؤمن بالنزول، والكيفية نؤمن بها لكنها غابت عنا، نسلِّم لله فيها. (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الأخير)، وهذه أشرف الأوقات، لذلك قال الله تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ) [آل عمران:17]، وقال تعالى: (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) [السجدة:16]. ولمّا (سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل). فقال: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)؛ أثبتها أهل السنة والجماعة نزولاً يليق بجلاله وكماله وعظمته.

قلنا بأن كل صفة نثبتها على عقيدة السلف، على فهم السلف، بأن الصفة تضاف إلى الله جلَّ في علاه من غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ، هذه الصفات تليق بجلال الله وكمال الله وبهاء صفاته وعظمته سبحانه جلَّ في علاه.

قال: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة)؛ الأشاعرة -كما قلنا- أوّلوها على نزول الأمر والرحمة، ذلك باطل. أمّا الذي نفى فأبطل الباطل، لأن الله قد أثبت لنفسه صفةً فلا يجوز نفيها. وأمّا الذين حرّفوا وأوَّلوها فنقول: أأنتم أعلم أم الله؟ أأنتم أعلم أم رسول الله؟ الله وصف نفسه بالإتيان والمجيء والنزول، النبي وصف ربه بالنزول. والجارية وصفت بالنزول وقد استبشر بها وأمر بعتقها، يعني أتت أمراً عظيماً. ومع ذلك لم يحرِّف أحد هذا التحريف، والأصل عدم تقدير المحذوف.

ينزل ربنا نزولاً يليق بجلاله وكمال عظمته، ويكون من نزوله الرحمة، هذا نزول الرحمة. نزوله فيه الرحمة؛ (كل ليلةٍ حين يبقى الثلث الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟) إذاً هنا كل من قام في هذا الوقت العظيم "وقت السحر"؛ القيام والقراءة، هذا الوقت العظيم، هذا الوقت الشريف، فإنه من قام في هذا الوقت ودعا ربه فهو مستجاب الدعوة. إذا قام في هذا الوقت يتعبد لله جلَّ في علاه والليل قد أرخى سدوله وغارت نجومه، والناس في سباتٍ عميق وهو قائمٌ يدعو ربه يتضرع، يقيم الليل، يستغفر، يقرأ القرآن في هذا الوضع فهو مستجاب الدعوة، إن دعا استجاب الله دعاءه.

(ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى الثلث الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟) هذه فيها دلالة واضحة جداً على عظمة الله جلَّ في علاه، ما من رافعٍ ليده لله جلَّ في علاه إلّا سيستجيب له، لكن هناك تتفاوت الدرجات والمؤملات، وإن الله جلَّ في علاه هو رب الأرض والسماوات يعطي لنا الصالحات والخيرات. الله جلَّ في علاه قادرٌ على كل شيء؛ (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ) [احجر:21]، لكن خذ بالسبب وستجد. لو لم يُجَب له، إذاً هو قد اختل عنده شرط أو جاء مانع من الموانع التي تمنع الإجابة.

لكن والله إذا قام سحراً وأراد شيئاً ورفع يديه صدقاً، فالله سيجيب له، فإن الوقت وقت إجابة حقاً، إلّا ما كان من مانعٍ أو اختلال شرط أو سوء أدب عند الدعاء فقط. وإلّا فكل رافعٍ يده لله جلَّ في علاه لا بد أن يجاب، (إن الله حييٌ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردهما صفراً)، فيها دلالة على أن هذا الوقت العظيم وقت استجابة الدعاء.

حين ثلث الليل الأخير يكون الدعاء مستجاباً؛ فمن رام نصراً، فمن رام علماً، فمن رام رفعةً، فمن رام مرافقة النبي فعليه بالسحر. ولذلك نرى بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا هذا الحديث كصفة من صفات الله جلَّ في علاه والصحابة يسمعون ولا معارضة، بل يقبلونه ويعلمون بأن هذا الوقت هو أعظم الأوقات استجابةً للدعاء. وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يشغل نفسه في هذه الأوقات إما بالاستغفار وإمّا بالقيام، ولو كان السمر مع عائشة يكون بعد الاستغفار. (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا)؛ وهذا نزول الرحمة والإحسان والعطاء والجود والكرم، سبحانه جلَّ في علاه.

(ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى الثلث الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟) لا بد أن تستفيد أيضاً من هذه العظمة والبهاء؛ "من" هذه الصيغ أسماء مبهمة، هذه صيغ عموم. (من يدعوني؟) المؤمن البار؟ الفاجر؟ الفاسق الكافر؟ نعم. كلٌ إن دعا في هذا الوقت مستيقناً بها قلبه فإن الله جلَّ في علاه يجيب له ويعطيه سؤله، بل فوق ما أمّل وارتجى. قال: (من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟) فمن رام رزقاً، فمن رام طعاماً شراباً مسكناً، فمن رمى زوجة فعليه بالسحر، وإن رفع يديه فالإجابة حتماً لا محالة.

قال: (من يسألني فأعطيه؟) العلاقة بين الدعاء وبين السؤال -كما قلنا- علاقة عام ومخصوص؛ السؤال هنا أن يسأل أن يغنيه، أن يسأل شيئاً غنىً له أو أن يتبلّغ به لأنه يعتبر عابر سبيل. قال: (من يسألني فأعطيه؟) فمن سأله أعطاه سبحانه جلَّ في علاه، فكما قلت هو نزول إحسانٍ وبرٍ وكرم وعطاء.

قال: (من يستغفرني فأغفر له؟) عندنا الدعاء يكون مستجاباً، عندنا السؤال يكون مستجاباً. طبعاً السؤال أن تسأل ربك أن يعطيك، والله عنده خزائن السماوات والأرض، قال: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر:21]. إذاً قال: (من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟) كل من أذنب ذنباً، كل من أحاطت الذنوب به حطت السوار بالمعصم، فلا يفك القيد إلّا بالاستغفار، وعند الاستغفار يقبل ربنا الغفّار. (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:10-13].

الدعاء دعاءان: دعاء مسألةٍ ودعاء عبادة ثناء، وفي كلِ خير، وفي كلٍ دال على عطاء الله جلَّ في علاه. (ومن يسألني؟)؛ سواء من أمر الدنيا أو من أمر الآخرة فإن الله سيعطيه. قال: (ومن يستغفرني)؛ يطلب المغفرة من الله جلَّ في علاه، وهذه أعظم الأوقات. من أيقظه الله في هذه الأوقات والناس جميعاً نيام، من أقامه الله بين يديه في هذه الأوقات قد قبله، أراد قبوله لذلك يسّر عليه الخير، -كما قلنا- كل ذلك يأتي من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكلٌ مُيّسرٌ لما خلق له. ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟) ومن تاب تاب الله عليه، وهذه رحمةٌ من الله جلَّ في علاه في هذا الباب. هناك رواية في الطبراني زيادة صريحة صحيحة قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يستشفيني فأشفيه؟)

فانظر هنا أخي الكريم، أختي الفاضلة كيف السحر له أهمية بمكان معنوياً وحسياً؛ أمّا القيام في السحر ففيه ما فيه من الرفعة والعزة والأنس وحلاوة الإيمان، عندما يناجي الرحمن بالقرآن في الاستغفار وقراءة القرآن والقيام والسجود، وأن ينذر نفسه لله جلَّ في علاه قد فاز وحاز وارتقى بقلبه إلى المعالي، كأن القلب هو الذي سجد للرب وطاف حول العرش. والحسي أيضاً في جمال ما يكون عبادةً في السحر، فالمغفرة من الذنوب معنوي، أمّا العطاء في السؤال فهذا حسي

فقد يحوز المرء -كما قلنا- الدنيا والآخرة عندما يتتبع مرضات الله جلَّ في علاه في مثل هذه الأوقات الطيبة "وقت السحر". وهذا الذي انتظره عبد الله بن عمرو بن العاص في الرجل الذي قد بشّر به النبي بالجنة، لم يجد له قيام ليل. هو قال: عندما أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، إذاً المناجاة، فانتظره ليناجي ما وجده إلّا نائماً حتى صلاة فتعجب. انظر كانت هذه أول الاختبارات لأنها من الأهمية بمكان.

(ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الأخير)؛ فيها فضيلة أيّما فضيلة، الليل بأسره فيه فضيلة. قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا) [المزمل:6]، وأعظم ما في الليل من فضيلة هو آخر الليل، عندما ينزل ربنا جلَّ في علاه إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته.

قد طُرِح سؤال: عندما ينزل يخلو منه العرش أم لا؟ لأن عندنا محكمات، ومن المحكمات أن الله جلَّ في علاه قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، قال: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16]، فهذا محكم. والنزول محكم؛ قال (متواتر): (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلةٍ حين يبقى ثلث الليل الأخير). هذه المسألة التي تكلمنا عنها نزول الله جلَّ وعلا، هل ينزل ويخلو منه العرش؟ العلماء يقولون هنا كل ألفاظٍ لم تأتِ عن السلف، وحتى السؤال لم يأتِ عن السلف، فدفعه كليةً ومطلقاً لا يصح،

قبوله مطلقاً لا يصح. إذا قال: هل ينزل ويخرج منه العرش؟ والحق أن فيها أقوال ثلاثة:

- ينزل ويخرج منه العرش، لأنه قال إنه ينزل.

- ينزل ولا يخلو منه العرش. - أو يتوقف في هذه المسألة، والتوقف أسلم.

وإن كان الأسلم هو أن نتوقف ونسكت في هذه المسألة، لكن الصحيح أن نقول: عندنا محكم بأنه على العرش، ومحكم أنه ينزل. فلِمَ نخالف؟ فنقول: هو على العرش وهو ينزل، والله على كل شيءٍ قدير سبحانه جلَّ في علاه. نعمل بكل الآيات: الآية الاولى أنه على العرش، الآية الثانية أنه ينزل. إذاً على العرش وينزل والله على كل شيءٍ قدير، نزوله ثابت وعلوه ثابت، فنثبت النزول والعلو.

كيفية التعبد لله جلَّ في علاه بهذه الصفة العظيمة:

- أولاً حسن الاعتقاد بالإثبات "إثبات الصفة لله جلَّ وعلا"؛ وهذا أمر من الأهمية بمكان.

- الأمر الثاني هو أننا نقول: إذاً ينزل ربنا جلَّ في علاه، يكون هذا قرب فوق القرب، والقرب لا يكون إلّا من المؤمنين، وإن كان على العرش فهو قريبٌ سبحانه جلَّ في علاه؛ فهو قريبٌ في علوه، عليٌ في قربه. لكن نقول هنا هذه الأوقات الشريفة التعبد فيها لله جلَّ في علاه بعد اعتقادنا بأنه في سماء الدنيا قريبٌ من عباده، ويدعوهم إلى أن يسألوه ويدعوهم إلى أن يسألوه الشفاء وأن يسألوه الدعاء، فيعطيهم الله جلَّ في علاه، وأن يستغفروه.

فيقوم المرء حريصاً في هذه الأوقات الشريفة "جوف الليل" والدعاء فيها أسمع، أن يكثر من الاستغفار في هذه في هذه الأوقات الشريفة، أن يكثر من الدعاء من الذكر، يستأنس بربه فيجد لذة الإيمان عندما يكون في هذه الأوقات الشريفة. الله جلَّ وعلا في السماء الدنيا يستجيب لكل من يدعوه؛ كل من كان في ضائقة فقام في مثل هذا الوقت ورب العزة لا يرده الله جلَّ في علاه، كل من أراد شيئاً وكان صادقاً في الطلب والله بالله تالله ورب العزة لا يرد بحال من الأحوال. وقد يستجاب في التو واللحظة، ويستجاب بعد ذلك والله حكيمٌ عليم يضع شيء في موضعه.

لكن جهز نفسك إن كنت تطمع في كرم ربك وإن كنت تؤمِّل وترتجي عند ربك مكانةً سامية راقية، فعليك بهذا الوقت الشريف وهو وقت السحر، وربك جلَّ في علاه ينزل إلى السماء الدنيا فتحظى أنت أن تكون من عباده الذين قد خرجوا عن النظائر، فيعجب الله لحرصك ثم يستجيب الله جلَّ في علاه لدعائك أو لاستغفارك فيغفر لك. اللهم اجعلنا من أهل الحرص على هذه الأوقات الطيبة الشريفة، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يحسن

اعتقادنا في ربنا وأن يحسن تعرفنا على الله جلَّ في علاه، فنشعر بجنة الدنيا التي من دخلها دخل جنة الآخرة، اللهم ارزقنا مرافقة نبيك -صلى الله عليه وسلم-.

العجب كل العجب من صحابة رسول الله وهم يسمعون من كلام النبي: (يضحك ربنا)، (يعجب ربنا)، (ينزل ربنا). ولا محرّك لتحريفٍ ولا تأويلٍ ولا تقديرٍ ولا سؤال، بل يتبعه الثمرة أنه إذا قال: (ينزل)، تراهم قياماً إلى السحر. يقول: (يعجب ربكم)، تراهم يخرجون عن النظائر من أجل هذا الأمر الجلل العظيم. (يضحك ربنا)؛ ينظرون في الثمرة لأن الله إذا قابل عبداً ضاحكاً أدخله الجنة، وهذا حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، نجّاه ورقّاه. فلذلك كانوا يعني يعتقدون ويبحثون ليس كلام على النزاع في الاعتقاد، يبحثون على الثمرة.

الفوائد المستنبطة:

- إثبات القول لله جلَّ في علاه؛ (فيقول: من يدعوني؟).

- من أسباب استجابة الدعاء شرف الوقت.

- العطاء على قدر البذل.

- حيثما كنت مع ربك كان الله معك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس والأربعون:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته)، الحديث متفقٌ عليه. وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخل الجنة)، متفقٌ عليه. وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِه، ينظر إليكم أزلين قانطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب).

إننا لسنا على شيءٍ إلّا أن نعتقد مع او الأولون المتقدمون، أصحاب القرون الخيرية التي قال فيها خير البرية: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم). ونحن على غرار ذلك نثبت لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهو أعلم الخلق به.

ـ حديث في إثبات الفرح

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته). هذه فيها دلالة واضحة جداً على إثبات الفرح لله جلَّ في علاه، إذا كان الفرح لذة تقع في القلب للمخلوق بإدراك المحبوب ونيل المشتهاة، فيتولد من الإدراك حالة تسمى الفرح والسرور والانتعاش، يعني غذاء الروح كما يقولون.

فالفرح بالنسبة لله جلَّ في علاه صفة من صفات الكمال، فرح إحسان وبر ورضا؛ يرضى عن عبده أنه إن زل، إن أخطأ، إن تعدّى، إن تجاوز، أن يرفع إليه يديه تائباً راجياً خائفاً وجلاً متمسكناً متضرعاً، يعلم أنه قد قرف ما قرف وتعدّى ما تعدى وربه راحمه. لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قال الله تعالى: (يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة).

الغرض المقصود بأن الله تعالى يفرح بتوبة العبد فرح رضا وسرور وعطاء وإحسان وبر، فإن من فرح الله جلَّ في علاه أنه يوفقه لهذه التوبة فيفرح بتوبته فيقبله. فلازم الفرح القبول، ولازم الفرح التوفيق والتسديد إلى الارتقاء بعد السقوط. والله هذا من أرجى الأحاديث؛ (لله أشد فرحاً بتوبة العبد). إذاً على العبد أن يتقدّم بين يدي ربه جلَّ في علاه معترفاً مقراً مذنباً وجلاً خائفاً، يرتجف ويرفع يديه: ربي قد عصيت، ربي قد تعديت، قد تجاوزت، اللهم أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك وأنت أرحم الراحمين. قال الله تعالى مبشراً: (فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) [الفرقان:70].

هنا أريد أن أؤسس أساساً بأن هؤلاء الأخيار الأبرار كانوا يستدلون ثم يعتقدون، كان الاعتقاد ثمرة الاستدلال. لا هؤلاء الخلف الذين هم من أجهل الناس يقدمون الاعتقاد على الاستدلال، ثم بعد ذلك يعوزهم الاعتقاد إلى ليّ عنق النصوص، فيحرّفون ما ترون من التحريف في هذا الباب. كالفقهاء الذين يتمسكون بالمذهبية؛ المذهبية العمياء ليست المذهبية الحقة، المذهبية العمياء هي أنه مهما كان من أدلة لسنا ممن ينظر إليها ولسنا ممن يحتك بالأدلة، يجعلون الدين جملة أقوال لبعض المتأخرين وينتهي الأمر، وهذا اسمه تضييع الدين. تعظيم الأدلة وتعظيم الآثار فيها النجاة وفيها العلم حقاً، فانظر إلى الصحابة يأتيهم الدليل يركّبون عليه الاعتقاد، الاعتقاد ثمرة للدليل.

الله يفرح؟ نعم قد قال النبي بأن الله يفرح، وفرحه كما قلنا إحسان وبر ورضا سبحانه جلَّ في علاه. فإنه يرضى من العبد أن يتوب، ويحسن إليه بتوفيقه لها، ويحسن إليه بقبوله لها، ويحسن إليه بأن يبدل سيئاته حسنات، بدّل سيئاته حسنات إحساناً منه وبراً. (لله أشد فرحاً بتوبة العبد)؛ في السياق مدح عظيم جداً للتائب: أولها بأن الله يفرح

بتوبته، ثانيها الله جلَّ وعلا أضافه إليه بأشرف ما يضاف أو يلقّب به المرء المكلف "بالعبودية". قال: (لله اشد فرحاً بتوبة عبده)، والإضافة هنا إضافة تشريف وتخصيص.

(لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته)؛ الحديث طبعاً بأن رجل كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها قال: الموت الموت. فأتى الشجرة فاضجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح. قال: (لله أشد فرحاً من هذا)؛ وهذه فيها دلالة واضحة جداً على قاعدة عقدية أصولية تكلمنا عنها مهمة جداً: قياس الأولى؛ فهو قال: (لله أشد فرحاً)، درجة (**) هذه أعظم درجة ممكن يصل إليها العبد المكلف.

ففرح الله جلَّ في علاه إحسانٌ وبرٌ وعطاء ولطفٌ، ولأن الله جلَّ وعلا لا يحتاج لتوبة العبد ولا يحتاج لعبادة العبد؛ (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ منكم زاد ذلك من ملكي شيئاً، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً). فهو فرح عطاء وبر وإحسان ولطف سبحانه جلَّ في علاه. وفرح الله يتفاضل من عبدٍ لعبد، والصفات تتفاضل -كما بيّناها-، وإضافة الصفة لصفة أفضل من صفة منفردة.

أيضاً يؤخذ من هذا الحديث العظيم أن الخطأ غير مؤاخذ عليه؛ (رُفِع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه). انظر قال كلمة الكفر، وهو معذورٌ فيها لأنه أخطأ، قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. يكفر بذلك، لكنه لمّا جاءه الذهول وأخطأ في ذلك رُفِع عنه الخطأ، هذا عذرٌ بخطأٍ هجم عليه.

- حديث في إثبات الضحك

النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يضحك الله)؛ فجعل الضحك لله جلَّ في علاه. قال: (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخل الجنة). أراد المصنف هنا أن يقول لك: أنت على التأسيس والتأصيل، بأنك تعتقد، بأنك تستدل وتنمّي أو تّركب اعتقادك على الاستدلال، فتكون عقيدتك على إثر استدلالك.

قال: (يضحك الله). من الذي قال بذلك؟ النبي -صلى الله عليه وسلم-، أثبت لربه الضحك. إذاً هو اعلم الخلق بالخلق، فليس لنا أن نتدخل ونقول: والضحك لا بد له من لسان وشفة ولهوات وابتسامات. ما الذي يجعلكم تذهبون في أذهانكم إلى ذلك؟ أما قال لكم الله جلَّ في علاه منبهاً إيّاكم: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. يضحك؟ نعم يضحك، كيف يضحك؟ للضحك كيفية لكننا لا نعلمها، غيب آمنا بها.

فيضحك بكيفيةٍ يعلمها، وما علينا إلّا الإيمان والتسليم. آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، آمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. الضحك في اللغة معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة. موجود الكيف لكنه مجهول، إذاً الإيمان والتسليم له في هذا الباب.

(يضحك الله)؛ نعم الله سبحانه جلَّ في علاه يضحك، وهو كمالٌ، ضحكٌ يليق وكماله وعظمته، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. الصحابة الكرام يأخذون هذه الصفات ويتعبدون بها، لمّا قال لهم النبي: (يضحك ربنا)، لمّا قال لهم النبي: (عجب ربكم)، لمّا قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يأتي)، (يجيء). فلمّا سمعوا ذلك هرولة، لمّا سمعوا ذلك ما اعترضوا وما حرَّفوا وما أوّلوا.

أمّا المتأخرون الذين جاءوا يحسبون أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء، يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون بأنهم أحكم وأتقن، أنّى لهم ذلك!! أظل الله بالعلم على هؤلاء الأخيار الأبرار الذين اصطفاهم صحبةً لنبينا -صلى الله عليه وسلم- ثم فتح لكم هذا الباب؟!! ما لكم كيف تحكمون؟ ما لكم كيف تفهمون؟ كيف تفقهون؟

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يضحك الله)، وفي حديث أبي رزين: (عندما سأل النبي الأمين: أو يضحك ربنا؟ قال: يضحك ربنا. قال: إذاً لن نعدم من ربٍ يضحك خيراً). ولذلك الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن الله يقابل عباده ضاحكاً)؛ ومن قابله الله ضاحكاً أدخله الجنة، غفر له وأدخله الجنة، أدخل عليه السرور. (يضحك الله إلى رجلين)؛ وضحك الله جلَّ وعلا لتحقيق الأمر الذي يستحيل عند الناس، رجل يقتل رجل ويدخلان الجنة، كيف ذلك؟ وطول الرواية يثبت ذلك؛ يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد القاتل، فالقاتل والمقتول في الجنة، وهما في درجةٍ واحدة "درجة الشهادة". (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر).

انظر سبب عظيم، فهي كبيرة من الكبائر، ومع ذلك يدخل الجنة؟ نعم، فالله لطيفٌ يخفي الأشياء في أضدادها، فالله حكيمٌ يضع الشيء في موضعه، عَلِم أن القاتل محلٌ قابلٌ لفضله فتفضّل عليه برضوانه وتوبته حتى قتل ودخل مع أخيه في الجنة في درجة الشهداء.

كيف يتعبد المرء لله في هذه الصفات: صفة الفرح وصفة الضحك؟ يأخذ بأسباب الفرح تعبداً لله جلَّ في علاه. ما معنى يأخذ بأسباب الفرح؟ تأخذ بالأسباب التي يفرح الله بها، وأهم الأسباب التي يفرح الله بها "التوبة"؛ فكلّما عصيت تبت، كلّما تجاوزت تبت، كلما أسأت تبت. ومن تاب تاب الله عليه، وخير الناس عند رب الناس الأوابون التوابون، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:222]. فتوبةٌ فوق توبة فهذه يفرح

الله بها، ويفرح الله لها. فإن فرح لله جلَّ في علاه أسعد من أخذ بأسباب فرحه، وأسعده بقبول توبته وأسعده بتبديل سيئاته حسنات، فسبحان رب الأرض والسماوات.

الفوائد المستنبطة:

- إثبات الفرح لله جلَّ في علاه.

- العلم في القرون الخيرية الأولى، يستدلون ثم يعتقدون.

- إذا أراد الله شيئاً هيأ له أسبابه؛ أراد الله بدخولهما الجنة مع أنه يقتل أحدهما الآخر ومع ذلك يدخلان الجنة.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السادس والأربعون

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته) الحديث متفقٌ عليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة) متفق عليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره، ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب) حديثٌ حسن، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العزة رجله، وفي روايةٍ: قدمه، فينزوي بعضها إلى بعضٍ فتقول قط قط) متفقٌ عليه. وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار) متفقٌ عليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان) متفقٌ عليه.

ما زال المصنف يبيّن لنا صفات الله جلَّ في علاه الفعلية الثابتة في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، لكن هنا انتقل إلى السنة وكأنه يريد أن يشير إلى الأمة بأسرها وأن يقول: إن حسن الاعتقاد في اعتقاد هؤلاء الأخيار الأبرار الذين تربوا على يد النبي، والذين قد تقبلوا ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- إثباتاً لصفات ربهم جلَّ في علاه دون تحريفٍ ولا تمثيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ، ودون تأويلٍ على ما قاله المتأخرون.

- حديث إثبات العجب

وقفنا عند قوله -صلى الله عليه وسلم-: (عجب ربنا من قنوط عباده مع قرب خيره)، في الرواية الأخرى: (عجب ربنا من قنوط عباده مع قرب غِيَرِه)؛ "غِيَرِه" يعني التغيير، (ينظر إليكم أزلين قنطين فيضحك يعلم أن فرحكم قريب). ذكر المصنف صفتين من صفات الله جلَّ في علاه في هذا الحديث، وأن النبي ذكر هذه الصفات وسمع الصحابة الكرام من النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الصفات فأثبتوها بلا تحريفٍ ولا تمثيل ولا تكييف، ما قالوا كيف يعجب والعجب لازمه الجهل عن الشيء، وما قالوا كيف يضحك والضحك يحتاج إلى أضراس وإلى شفة وإلى أسنان. هذا كله غير موجود لأنهم يعتقدون في الله حق الاعتقاد، ويعلمون بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أعلم الخلق بالخالق، فما أثبته لله جلَّ في علاه لا بد أن يكون ثابتاً، وما يحتاج لبيان بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فقال: (عجب ربكم)؛ والعجب: هو استحسان الشيء، وقيل في استقباح الشيء. وعجب المرء ما يكون إلّا عن جهلٍ منه، يعني جهل شيئاً فتعجب له. لكن عجب الرب جلَّ في علاه يكون بسبب الخروج عن النظائر، يعجب الله جل في علاه للخروج عن النظائر كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يعجب الله لشابٍ ليس له صبوة)، وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عجب ربنا) للخروج من النظائر.

وهناك رواية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (عجب ربكم من رجل كان في سفرٍ مع صحبةٍ) فتعلمون أنهم إذا كان بالليل فإنهم ينامون نومةً ما أحلى هذه النوم لتعبهم، فلذلك نرى بأنه يقوم ويترك الناس عن نومهم وعلى راحتهم، فيقوم من أجل ربه جلَّ في علاه، يعجب الله من هذا العبد خرج عن نظائره.

وهنا أيضاً عجب ربنا من قنوط عباده، يعجب الله جلَّ وعلا من قنوط العباد من شدة اليأس الذي من قنوطهم، شدة البأس وشدة اليأس الذي وصلوا إليه مع أن الله جلَّ وعلا الآن يقرب الفرج لهم وهم لا يعلمون. فيعجب الله جلَّ في علاه من شدة القنوط مع أن الفرج قريب، وهذه أيضاً يعني فيها دلالة على عجلة الإنسان، وأن الله جلَّ في علاه هو الذي يغيث عباده جلَّ في علا، فقال: (عجب ربنا من قنوط عباده). وقال: (عباده) مدحاً لهم، أضافهم إليه إضافة تشريف. (وقرب غِيَرِه) أو (وقرب خيره)؛ المطر الغيث الذي ينزل إليهم. (وينظر إليكم أزلين قنطين)؛ أزلين من الشدة والضيق، وقنطين أيضاً من القنوط ومن اليأس، قال الله جلَّ وعلا: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ) [الشورى:28].

قال: (فيظل يضحك يعلم أن فرحكم قريب)؛ فيها أيضاً إثبات الضحك لله جلَّ في علاه، والضحك صفة من صفات الأفعال يليق بجلال الله وكمال الله سبحانه جلَّ في علاه، وضحك الله معناه وصول الخير للغير، ولذلك قال أبو رزين للنبي -صلى الله عليه

وسلم-: (لن نعدم خيراً من ربٍ يضحك). فقال: (عجب ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَره) أو (قرب خيره)، (ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرحكم قريب)؛ وفرحكم لا يكون إلّا بالغوث الذي ينزل عليكم من الله جلَّ في علاه، وإلّا بالفضل والنعمة التي تأتيكم من الله جلَّ في علاه. فيعجب الله منكم؛ الآن تبكون، الآن في شدة يأس في قنوط، وفي لحظات تكون السعادة التامة والفرح التام.

كما كان هذا الرجل الذي نزل تحت ظل الشجرة أيس من الحياة، علم أن مهلكته في هذا التوقيت، فلمّا استيقظ بعدما أخذته النومة استيقظ فقام فوجد راحلته أمام عينيه، فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح. فهنا عجب ربكم من هذا أنه في لحظةٍ كان قانطاً، كان يائساً، كان بائساً، في لحظةٍ تترسم الفرحة والبسمة على وجهه، هذه من قدرة الله.

والعجب هنا لأنها من قدرة الله جلَّ في علاه، فالله قادرٌ قويٌ على ذلك، سبحانه جلَّ في علاه يقدر على ذلك وهو الذي أحسن إلى عباده بهذا. فلذلك الله جلَّ في علاه يعجب من عباده كم كانوا في لحظة ثم تغيروا تغيراً تاماً في لحظة، وهذه إن دلت دلت على ربوبية الله جلَّ في علاه. وهذه الصفات كما قلنا من صفات الأفعال: العجب والضحك، كله من صفات الأفعال.

قال: (عجب ربنا)؛ والله يعجب، نعم يعجب الله جلَّ في علاه، وعجب الله جلَّ في علاه ليس كعجب الخلق، بل بما يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه جلَّ في علاه. وأمّا هؤلاء الذين يتباعدون عن إثبات صفات الله جلَّ في علاه، ولا يستطيعون التعبد لله بمثل هذه الصفات صفات الكمال والجلال والعظمة، لأنهم يشبهونها بصفات الخلق والله جلَّ في علاه قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11].

العجب؛ معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. العجب والضحك، وكل هذه الصفات صفات الأفعال أنها ثابتة لله جلَّ في علاه. ويقال للذين يحرفون يسمون هذا تأويلاً، يقال لهم: أأنتم أعلم أم الله؟ الإجابة الله، أأنتم أعلم أم رسول الله؟ الإجابة رسول الله، أأنتم أعلم أم صحابة رسول الله؟ الإجابة صحابة رسول الله. قلنا الله تعالى أثبت ذلك لنا، النبي وصف ربه بذلك، الصحابة لم يعترضوا لم يطلبوا تأويلاً ولا تبييناً وهم علموها كما جاءت بلغتها. (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:192-195].

فإثبات هذه الصفات من حسن الاعتقاد، ومن حسن الاعتقاد أن يتعبد المرء لربه جلَّ في علاه بعجبه وأيضاً بضحكه، وأن يأخذ بالأسباب التي بها يضحك الله جلَّ في علاه، والأسباب التي بها يعجب الله جلَّ في علاه. لأنه إذا عجب الله من عبده فرّج عنه، وإذا

عجب الله من عبده رقّاه وأنجاه، وأيضاً في الضحك لأن الله لا يقابل عبداً ضاحكاً إلّا وقد أراد الخير كل الخير له، هذا في أول الكلام على مسألة الضحك والعجب لله جلَّ في علاه.

ـ حديث إثبات الرجل أو القدم

وفي قوله: (لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العزة رجله) أو في روايةٍ: (قدمه)، (فينزوي بعضها إلى بعض). (وهي تقول)؛ إثبات القول لجهنم، فيها إثبات القول لربها جلَّ في علاه، لأن كل كمالٍ يتصف به المخلوق فالخالق أولى به، لأن الكلام كمال. فكل كمالٍ يوصف به المخلوق، الله جلَّ في علاه أولى بأن يوصف به.

فقال: (وهي تقول)؛ إذاً قول جهنم تتكلم بلا شفة بلا أضراس بلا أسنان، كيف تتكلم؟ الله أعلم كيف تتكلم، لكنها تتكلم. إذاً لا نستبعد أن يتكلم الله جلَّ وعلا بصوتٍ وبحرف، لأن النار تكلمت بصوتٍ وبحرف، وهي تقول: (هل من مزيد؟). (حتى يضع فيها رب العزة) وهنا إضافة الموصوف لصفته، (رب العزة رجله) وهذه فيها إثبات الرجل لله جلَّ في علاه. وهذا حق على حقيقته، فالله له رجل؛ رجلٌ تليق بجلاله وكماله وعظمته وبهائه سبحانه جلَّ في علاه.

وفيها يقول: (رب العزة)؛ و"العزة" معنى من المعاني متصف بالذات المقدسة لا ينفصل عنها، فهذه من صفات الكمال والجلال والعظمة لله جلَّ في علاه؛ عزّ فقهر وغلب، عزّ فامتنع امتنع عن النقص وعن العيب سبحانه جلَّ في علاه، وعن العجز، وامتنع أن يضره شيء أو يصل إليه ضر البشر.

قال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني)، عزّ فانتقم، عزّ فقهر فغلب؛ عزّ فانتقم من النمرود، من ثمود، من قوم صالح، عزّ فانتقم من فرعون وأترابه وأقرانه. قال: (يضع فيها رب العزة قدمه)؛ وهذه تمام الربوبية، والقدم صفة من صفات الله جلَّ في علاه، والرجل صفة من صفات الله جلَّ في علاه. وليس كما أوّل أصحاب البدع والضلالة وقالوا: رجل من جراد أو رجل من ذهب، هذا كله ضلال مبين. فهنا يوصف الله جلَّ في علاه بالرجل؟ نعم يوصف الله بالرجل ويوصف الله بالقدم، بل ويوصف بالأصابع والأنامل.

فإذاً إثبات القدم لله جلَّ في علاه أثبتها الرسول -صلى الله عليه وسلم-، إثبات الرجل الله جلَّ في علاه أثبتها الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وما أثبته الرسول لا بد أن نثبته إيماناً به وتصديقاً بقوله وعلماً بأن الله جلَّ في علاه هو الذي أوحى إليه بذلك. ولذلك قال أهل السنة: القدم والرجل في الحديث من صفات الله المنزّهة عن التكييف، فالإيمان

بها فرضٌ والامتناع عن الخوض بها واجب. فالمهتدي من سلك طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكر معطِّل، والمكيّف مشبِّه، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]. فهذه كلها من صفات الأفعال التي ثبتت لله جلَّ في علاه ثبوتاً راسخاً لكلام النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأما **الفوائد المستنبطة:**

- إثبات صفات الأفعال إثباتٌ للكمال لله جلَّ في علاه
- إن الله لا يضيع عباده.
- عظيم الربوبية بعظيم خلق الله جلَّ في علاه للنار.

- حديث إثبات الكلام والصوت

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار) متفقٌ عليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان) متفقٌ عليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم- في رقية المريض: (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع فيبرأ) حديثٌ حسن رواه أبو داوود وغيره.

ما زال المصنف -كما قلنا- يرسخ لنا عقيدة أهل السنة والجماعة، والحق أننا الآن في زمانات وجب علينا أن نكون على أرضٍ صلبة في الاعتقاد، المرء إذا زاغ اعتقاده وحاد اعتقاده لا يمكن أن تراه يستقيم بحال من الأحوال، لا فكراً ولا علماً ولا تعبداً. فوجب على المرء أن تستقيم عبادته على نهج ما كان السلف عليه، فهنا هو يرسخ لنا العقيدة التي هي عقيدة واسطية بين الغلو وبين الجفو، عدل بين الغالي وبين الجافي. الإمام ابن تيمية الآن كأنه قال: نحن نصف الله بما وصف الله به نفسه في كتابه، والآن جاء الدور على أن نصف الله بما وصف به نفسه في سنته.

قال: (يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت إن الله يأمرك)؛ من الذي ينادي؟ الله الذي ينادي، (ينادي بصوتٍ) هنا إثبات الصوت لله جلَّ في علاه، هي صفة من صفات الله جلَّ في علاه. (فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار).. تكملة الحديث: (من كل ألف تسعمائة وتسعةٌ وتسعون) أو قال: (أقول لك: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعةٌ وتسعون) أو (أخرج تسعمائة وتسعةً وتسعين، فذلك

حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حملٍ حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد).

فاشتد عليهم فقالوا: يا رسول الله أين ذلك الرجل الذي سينجو؟ إن كانت المسألة على ذلك فأين الذي سينجو؟ قال: (أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم في الأرض كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض) أو (كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، قال: فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، قال: فكبرنا، قال: شطر أهل الجنة، قال: فكبرنا)، وفي رواية: (ويحثو ربنا ثلاث حثيات).

الغرض المقصود هنا بيان إلى صفات الله جلَّ في علاه الثابتة لله بالسنة؛ (يقول الله تعالى) إثبات القول لله جلَّ في علاه، وإثبات القول لله ثابت بالكتاب والسنة. قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [البقرة:30]، (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا) [البقرة:34]، (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غافر:60]. إثبات القول لله جلَّ في علاه، وهي صفة من صفات الله ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة.

(يقول الله تعالى: يا آدم)؛ ومن الذي يقول هذا الحديث؟ هو النبي، وصف الله بذلك. (يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول آدم) آدباً مع الله جلَّ في علاه، (لبيك) الطاعة بعد الطاعة، وعبادة بعد العبادة؛ أي أنا مقيمٌ مستديمٌ على طاعتك. قال: (لبيك)؛ و"لبيك" طاعة بعد طاعة وإجابة بعد إجابة، تنم عن استمرارية العبادة واستمرارية التلبية واستمرارية الطاعة واستمرارية الانقياد، فإذاً طاعة بعد الطاعة وإجابة بعد الإجابة. قال: (لبيك وسعديك)؛ وهنا من المساعدة المطاوعة، إسعاد بعد إسعاد بطاعة ربنا جلَّ في علاه. فقال أدباً، وهذا الأدب مع الله جلَّ في علاه، اللهم ارزقنا الأدب معك وأنت أرحم الراحمين، اللهم ارزقنا الأدب معك وأنت أرحم الراحمين.

قال: (لبيك وسعديك)؛ واشتملت التربية كما قال ابن القيم وغيره على فوائد عظيمة جداً، ففي قوله: (لبيك) يتضمن إجابة داعٍ دعاك أو نادٍ ناداك، وهذه فيها ما فيها من المسارعة من التلبية أو مسارعة من الإجابة، فيها صدق العبودية وفيها الإخلاص وفيها أيضاً المسارعة في الخيرات. أيضاً عندما يقول: (لبيك وسعديك) فيها أشغاف القلب، قد امتلأ القلب بأسره حباً لله جلَّ في علاه، لأن المحبة هي أصل كل عمل قلبي كما قال الله جلَّ في علاه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) [البقرة:165]. قال النبي: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)، أو قال: (ثلاثة من كن فيه ذاق بهن طعم الإيمان)،

قال: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)، وفيها الدوام على الطاعة أو الاستدامة على الطاعة، استدامة على العبادة.

والاستدامة تنم عن صدق العبودية، هذه وأيضاً إن كانت فيها صدق العبودية والاستدامة فيها الخضوع والذل لله جلَّ في علاه، كأنه يقول: إني خاضع ذليل بين يديك، ملبٍ لما أمرتني، أسارع في ذلك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. بل وهي أيضاً تنم عن القرب من الله جلَّ في علاه، (قال: يا آدم) فيقول آدم أدباً (لبيك وسعديك). وهذه أيضاً فيها معرفة الفضل لأهل الفضل؛ والفضل كل الفضل، والكمال كل الكمال، والجلال والبهاء والعظمة لله جلَّ في علاه. كذلك تقال للنبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك "لبيك وسعديك"، لكن "لبيك" هنا للنبي تكون إجابة وإسعاداً بالإجابة.

قال: (فينادي)؛ يعني الله جلَّ في علاه ينادي، وهذه دلالة أيضاً على إثبات النداء لله جلَّ في علاه، والنداء هذا لا يكون إلّا بصوتٍ وحرف. فقد أثبت لله النداء، فأثبت له الصوت والحرف، وهذا ثابتٌ بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة. أمّا الكتاب فقد قال الله جلَّ في علاه: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) [الصافات:103]، (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) [الأعراف:22]، هذا أيضاً فيه إثبات النداء لله جلَّ في علاه.

قال: (بصوتٍ)؛ فلله صوت؟ نعم وهذا الصوت سمعه الملائكة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أراد الله أن يقضي بالأمر تكلم بالوحي، فسمع الملائكة (يعني صوت الله جلَّ في علاه) كسلسلة على صفوان، أخذت رعدة (رجفة) في السماوات). قال: (بصوتٍ)؛ وهذا إثبات الصوت لله جلَّ في علاه بالحديث الذي قلناه. وكل آيةٍ وكل حديثٍ أثبت نداءً فقد أثبت صوتاً، كما النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يحشر الله الأولين والآخرين فيناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب، يقول: أنا الديّان، أنا الديّان).

فهذا ثابتٌ لله جلَّ في علاه، ومن أنكر الصوت لله جلَّ في علاه فهو جهمي. ولذلك لمّا سئل الإمام أحمد عمّن قال: أن الله لا يتكلم بصوت، قال: (هؤلاء قومٌ يدورون على التعطيل)، فهذا إثباتٌ منه أن من قال بأنه لا صوت لله جلَّ في علاه أنه معطِّل، والمعطل جهمي، والجهمي هو أسوأ الناس. ولم يظهر الإنكار "إنكار الصوت لله جلَّ في علاه" وأن الله يتكلم بصوتٍ وحرف إلّا بعد المئة الثالثة، لمّا ظهرت الجهمية المعطِّلة. لذلك قال عبد الله في كتاب السنة: (قلت لأبي: يا أبتي إنهم يقولون أن الله لا يتكلم بصوت، فقال: بلى يتكلم بصوت).

وفي خلق أفعال العباد قال الإمام البخاري: (ويُذكر عن النبي ﷺ أنه كان يحب أن يكون الرجل خافضاً من الصوت، ويكره أن يكون رفيع الصوت، وأن الله ينادي بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب).

وليس هذا لغير الله جلَّ في علاه، فهذا الصوت صوتٌ لله جلَّ في علاه يليق بجلاله وكماله وبهائه وعظمته، فهو صوتٌ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب، والملائكة يصعقون بذلك وتأخذ السماوات رجفة عندما يسمعون صوت الله جلَّ في علاه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب، يقول: أنا المَلِك، أنا المَلِك، أنا الديّان).

قال: (إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً للنار)؛ هنا حين يشيب الولدان، قال الله تعالى: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج:1-2]. فعندما يخرج بعث النار، يعني من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين في النار إلّا واحد، والواحد هذا من هذه الأمة. الأمة هذه كلها في الجنة بإذن الله، الموحدة التي ترجمت توحيدها عملاً كلها في الجنة بإذن الله، حتى من غلبت سيئاته على حسناته فإنه يهذّب ثم يلقى في نهر الحياة ثم يدخل الجنة بعد ذلك بتوحيده. ولذلك النبي بيّن فضل هذه الأمة على باقي الأمم، قال: (أنتم بالناس كالشعرة السوداء في الثور الأبيض).

وفي قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)؛ هذه أيضاً فيها دلالة واضحة جداً على أن الله جلَّ وعلا يتكلم، وأن الله إذا تكلم يتكلم بصوتٍ وبحرف سبحانه جلَّ في علاه. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه ثم ينظر من بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة)، قال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة).

الأصل في ذلك أن النبي قال: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه)، وإن كان سيكلمه فكلام الله جلَّ في علاه ثابت، وأن الله قد تكلم الله جلَّ في علاه مع خلقه، تكلم الله مع السماء والأرض والجنة والنار، وتكلم مع آدم (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ) [البقرة:33]، وتكلم مع الملائكة (يا جبريل إني أحب فلان فأحبه)، وتكلم الله جلَّ في علاه مع السماء والأرض عندما قال: (ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت:11]، وتكلم مع الرحم: (ألا يرضيكِ أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك).

فقال: (ما منكم من أحدٍ إلّا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)؛ وفيها دلالة أن الله سيكلم الجميع؛ عندنا النصارى وعندنا اليهود وعندنا الهنود، عندنا لغات مختلفة سيتكلم

الله مع كل أمةٍ بلغتها أو الله أعلم سيفهمهم ما يقوله الله جلَّ في علاه، هذا الاحتمال وارد الاجتهاد في هذا الباب بأن الله لن يكلمهم إلّا بما يفقهون ولن يكلمهم الله إلّا بما يعلمون. فكلٌ سيعلم من الله ما قاله، إمّا أن الله يخلق فيهم الفهم فيفهمون ويكلمهم بلغة واحدة، وإمّا أن يكلم الجميع في كل طوائف الدنيا وكل الأمم بلغتهم؛ يعني العبرانية لليهود وأيضاً يكلم بالسريانية النصارى بالعربية العرب، الله تعالى أعلى وأعلم.

لكن المجزوم به أن الله سيكلم كل أحدٍ فيعقل عن الله ما قال؛ إمّا أن يخلق فيه إدراكاً ويتكلم بلغةٍ واحدة، وأن يخلق فيه إدراكاً فيدرك ما قاله الله جلَّ في علاه، وإمّا يكلم كل أمةٍ بلغتها والله تعالى أعلى وأعلم. لكن الثابت الذي نؤمن به ونجزم به أنه سيكلم كل أحد، وأن كلام الله للواحد ككلام الله للجميع، كخلق الله للواحد كخلق الله للجميع. (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)؛ فهنا أثبت صفة الكلام رداً على الجهمية المعطِّلة وعلى المعتزلة أيضاً المعطِّلة، وعلى الأشاعرة فيهم بعض التعطيل، والكلام صفة كمال.

لكن قد يرد علينا إذا أثبتنا صفة الكلام لله جلَّ في علاه، وأن النبي قال: (ما من أحدٍ) هنا -كما قلنا- كأنها نص في العموم، يعني كل أحد سيكلمه الله جلَّ في علاه. ماذا سنقول في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم)؟ وأيضاً قد جاءت الآية: (وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ) [آل عمران:77]؟ فكيف الإجابة عن هذا الإيراد؟ أليس الكلام خاص بالمؤمنين؟ كيف خاص بالمؤمنين؟ كيف يكون خاص بالمؤمنين وهو يقول: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان:49]؟ كيف وقد قال: (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ) [ق:28]؟ كيف يكون للمؤمنين؟

الحق لا يكلمهم كلام عفو، ولا كلام رحمة، ولا كلام يرجون من بعده الخير. الحق أن نقول إجابات ابن عباس قال: (ليست عرصة واحدة لكنها عرصات)؛ قد يكون الكلام في عرصة دون عرصة وهذه الإجابة فيها ضعف، والصحيح الراجح أنه يكلم الجميع لكن للمؤمنين كلامه يكون فيه الرحمة ويستبشرون بكلامه الخير، بل يلقاهم ضاحكاً، وأمّا أهل الكفر فلا يكلمهم إلّا تقريعاً وتوبيخاً، لا يكلمهم كلام الرحمة. إذاً النفي هنا نفي على وصفٍ المقيد هو كلام الرحمة، ويكون التأصيل العام (ما من أحدٍ إلّا سيكلمه الله جلَّ في علاه)، كما قال الله للكافرين: (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [ق:28-29].

الفوائد المستنبطة:

- إثبات القدر؛ (أن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً للنار) يعني الذين قد حكم الله أنهم من النار. ولِمَ آدم؟ لأن آدم هو الذي رآه النبي -صلى الله عليه وسلم- في السماء

الأولى بين أسودتين: أسودة عن يمينه وأسودة عن يساره، كلّما نظر للذي عن يمينه ابتسم وفرح وكلّما نظر الذي على شماله بكى.

- عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه.
- كلامه للجميع ككلامه لواحد.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السابع والأربعون: - تابع حديث في إثبات الكلام

- أحاديث في إثبات العلو (1)

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان)، متفقٌ عليه. وقوله في رقية المريض: (ربنا الله الذي في السماء، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفاءك على هذا الوجع، فيبرأ)، حديثٌ حسن. وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، حديثٌ صحيح.

ما زلنا مع الواسطية، وأن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يؤسس ويؤصّل لنا بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة خلافاً لأهل البدعة والضلالة، وأنهم يثبتون لله الصفات التي أثبتها لنفسه في كتابه، ويثبتون لله الصفات التي أثبتها له رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سنته، ولأن المسألة توقيفية غيبٌ، والغيب ليس لنا تعامل معه إلّا بوحي بما يأتي من الأثر. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ) وهذا على العموم، "أحد" دائرة في سياق النفي تفيد العموم، و "منكم" تأكيدية لهذا. (ما منكم من احدٍ إلّا وسيكلمه ربه، ليس بين وبينه تُرجُمان)، (تَرجُمان)، (تُرجَمان) هي على الثلاثة.

قال: (ما منكم من احدٍ إلّا سيكلمه الله ربه)؛ فإذاً أثبت لربنا جلَّ وعلا الكلام، هذا إثبات الكلام لله جلَّ في علاه وهو صفة من صفات الله، صفة من صفات الكمال والجلال والبهاء والعظمة، فالمتكلم أكمل من الذي لا يستطيع التكلم. فلذلك نحن قلنا بأن صفة الكلام ثابتة لله جلَّ في علاه بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والعقل "القياس".

أمّا في الكتاب؛ قال الله جلَّ في علاه: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) [البقرة:253]، قال: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ

رَبُّهُ) [الأعراف:143]، وقال الله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164] المفعول المطلق يؤكد لك هذا. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما من أحد إلّا وسيكلمه الله) فأثبت الكلام لله جلَّ في علاه، فصفة الكلام ثابتة بالكتاب وثابتة بالسنة، في السنة هذا الحديث، أيضاً الكلام في الكتاب قال الله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) [التوبة:6].

وأمّا في السنة فكثير؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق).

فصفة الكلام ثابتة لله في الكتاب وبالسنة وإجماع أهل السنة؛ أجمع أهل السنة على كلام الله جلَّ في علاه، لمّا الصحابة الكرام جميعاً اعتقدوا بأن الله يتكلم وأن كلام الله جلَّ في علاه يليق بجلال وكماله وعظمته وبهائه سبحانه جلَّ في علاه. أنا فصّلت في نفس شرح الكتاب تفصيلاً في الكلام عليه وكلام أهل البدع عنه، لكننا بصدد فقط الإثبات. أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله يتكلم، يتكلم وقتما شاء حيثما شاء بما شاء، وأيضاً بصوتٍ وحرف، الكلام لا يكون إلّا بصوت وحرف.

والدلائل على أنه يتكلم بصوتٍ حرف، الأدلة الكثيرة التي جاءت؛ (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10]، (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) [الصافات:103]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يحشر الله الأولين والآخرين ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب).

وأيضاً القياس، وقلنا في حق الله "القياس الأولوي"؛ إذا قلت بأن كلام المرء كمال وصمته أو عدم استطاعته على كلام نقص، فإذا كان كمالاً في المرء فالله أولى أن يتصف به سبحانه جلَّ في علاه.

قال: (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)، وهناك رواية أخرى أوجبت إشكالاً؛ رواية جاءت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وآية أيضاً في الكتاب:

- أمّا في الكتاب قال الله جلَّ في علاه: (وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ) [آل عمران:77].

- وفي الحديث: (ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة)؛ "لا يكلمهم" نفي الكلام.

وهنا إثبات الكلام، وإثبات الكلم هنا كان على العموم، ونفي الكلام قال: (لا يكلمهم). الحق أن نقول لا إشكال ولا معارضة، فالكل من مشكاةٍ واحدة خرجت؛ فنقول بأن

المعنى هنا (ما منكم من أحدٍ إلّا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان) على العموم، فإن الله سيحاسب الجميع وسيكلم الجميع سبحانه جلَّ في علاه.

لكن في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يكلمهم ولا يزكّيهم ولا ينظر إليهم) يعني لا يكلمهم كلام رحمة، كلام تأميلٍ يرتجون به النجاة، بل يقرّعهم ويوبّخهم. قال: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان:49]، قال الله جلَّ في علاه: (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [ق:28-29]، هنا الكلام لهم جميعاً.

أيضاً في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما منكم من أحدٍ إلّا وسيأتي الله به، فيقول الله تعالى له: أرأيت لو كنت تملك ما في السماوات وما في الأرضين أكنت مفتدياً به من عذاب يوم القيامة؟ قال: اللهم نعم)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يقول الله جلَّ في علاه: طلبت منك ما هو أيسر من ذلك وأنت في صلب آدم؛ طلبت منك أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلّا الشرك) هذا كلام، وإلّا ففي عرصات يوم القيامة تختلف الأمور كما قال الله جلَّ وعلا: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يس:65].

(ما منكم من أحدٍ إلّا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان)، فهذه فيها إثبات الكلام لله جلَّ في علاه. فنقول أثبت الله لنفسه فلِمَ ننفي عنه ما أثبته لنفسه؟ أأنتم أعلم أم الله؟ أأنتم أعلم أم رسول الله؟ فإذاً نقول وصف الله نفسه بالكلام، وصفه رسوله -صلى الله عليه وسلم- بالكلام، الصحابة الكرام أجمعوا على وصف الله بالكلام، والقياس يثبت ذلك، فأنتم خالفتم كتاباً وسنة وإجماعاً.

وجاءت الطائفة الأخرى المحرّفة قالوا: لا، يتكلم، إن الله يتكلم. الحمد لله وافقتم أهل السنة والجماعة على الكلام، لكنهم قالوا: يتكلم بلا صوتٍ ولا حرف. كيف؟ قالوا: هذا الكلام الذي نسميه الكلام النفسي، البدع من القول الكلام النفسي. وطبعاً أيضاً كمسألة أهل البدع والضلالة يقولون: نعم يتكلم كلاماً نفسياً، والذي بين أيدينا؟ قالوا ليس من كلام الله، وكيف نأتمر بالأمر وننزجر عن النهي كيف ذلك؟ كيف نثق في الوعد والوعيد؟ كيف نعمل به؟ إن لم يكن هو كلام الله جلَّ في علاه سبحان ربي العظيم؟ قالوا هذا عبارة عن كلام الله. من الذي عبّر؟ جبريل. وصفوا الله بالنقص من حيث أرادوا أن يجعلوا له الكمال، وهذا جهلٌ مركب.

أمّا أهل السنة والجماعة فقالوا: نعم والله، يتكلم ربنا بصوتٍ وحرف، والصوت يزلزل ترتجف له السماوات، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الله إذا أراد أن يقضي أمراً تكلم بالوحي)، قال: (فتسمع الملائكة كسلسلة على صفوان)؛ كجرّ السلسلة الشديدة على الصخرة الصماء "على صفوان". قال: (فتأخذ السماء منه رعدة)؛ رجفة يرتجفون

جميعاً، قال الله جلَّ وعلا: (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) يصعقون جميعاً (حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ) [سبإ:23]. فإذاً الله يتكلم، ويتكلم وبصوتٍ وبحرف؛ (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [الشعراء:10].

بصوتٍ وبحرف لكن كيف؟ الكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. نحن نقول "لا كيف" ليس نفياً للكيف، بل هناك كيفية للكلام لكن "كيف؟" الله أعلم، لا نعلمه غاب عنا، وقد قال الله مادحاً أهل الإيمان في الغيب: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) [البقرة:3].

إذاً هنا الله يتكلم، وليس الكلام من لازمه شفة ولسان وأضراس كما قالوا. قالوا: لو قلنا يتكلم فلا بد من فم ولسان وأسنان وأضراس. قلنا: من قال لكم بذلك؟ الجنة تكلمت، النار تكلمت، السماء تكلمت، الأرض تكلمت، الحجارة تكلمت سلمت على النبي -صلى الله عليه وسلم-، أين الشفة؟ أين اللسان؟ أين الأضراس؟ الببغاء يتكلم أين اللسان؟ أين الشفة؟ أين الأضراس؟ المسألة كيفيتها يعلمها الله جلَّ في علاه، فالله يتكلم وكلام الله جلَّ وعلا صفة، بضابط (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) [الشورى:11]. إذاً نقول في هذا الباب بأن الله يتكلم، نعم يتكلم بصوتٍ وبحرف، كلامٌ فيه كمالٌ يليق بجلال الله وبكمال الله وبعظمة الله جلَّ في علاه. وهو من الصفات الفعلية، كما قلنا كل صفةٍ من الصفات الفعلية لا بد أن تقول هي قديمة النوع حادثة الآحاد، فلا يقال بأن الله جلَّ وعلا اتصف بما لم يكن متصفاً به قبل ذلك، هذا خطأٌ بيّن.

وفي قوله في رقية المريض؛ الأصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا تكلم عن الرقية، والرقية: هي القراءة على المريض. الحق بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الرقى والتمائم، قال: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)، فيها دلالة على أن الرقية منهي عنها، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال بأنها شرك. وقد ورد بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد رقى وجبريل رقى، وطلب الرقية النبي -صلى الله عليه وسلم- لامرأة عندما وجد في وجهها سفعة قال: (استرقوا لها)، وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقية ما لم تكن شركاً).

فإذاً النهي عنها والقول بأنها شرك هذه التي كانت من رقى الجاهلية، التي فيها الطلاسم والاستعاذة يعني تعظيم غير الله جلَّ في علاه، رقى الجاهلية التي فيها الشركيات هذه التي نهى عنها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك). ففيها دلالة واضحة جداً على أن المنهي عنه شيءٌ معين مخصوص، ألا وهو الرقى بما يكون فيه شرك أو بما فيه طلاسم لا نعلم ما فيه أو رقى الجاهلية، فهذا المنهي عنه وهو لا يجوز بحال من الأحوال، لأنها كانت من رقى الجاهلية. ولذلك قال النبي -صلى

الله عليه وسلم-: (اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سألوه عن الرقية: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل).

لكن لابد لها من ضوابط شرعية ما دام أن النهي قد ورد، وأيضاً جاء هنا مع النهي الإباحة؛ فننظر فنجد أن النهي له طريق، والإباحة لها طريق. فالنهي هنا النهي عن الرقى التي فيها من الجاهلية ما فيها وفيها من الشركيات ما فيها، وجواز الرقى التي قال فيها النبي: (لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً)، (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل).

العلماء من الأحاديث التي جاءت يرون بأن الرقية لا بد أن تتوفر فيها شروط ثلاثة حتى نقول بأن هذه الرقية رقية صحيحة، وأن الشرع جاء بإباحتها وأنها فيها ما فيها من الأجر كما قال النبي: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل). لا سيما ما حدث من أبي سعيد وغيره في الحديث عندما نزلوا ضيوفاً على قومٍ فمنعوهم القرى، وسيدهم كان لديغاً قالوا: فيكم راقي؟ قالوا: نعم فينا راقي ولن نرقي، وضربوا لهم بسهم حتى رقاه بالفاتحة. فلّما رجعوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، قال له النبي: (وما أدراك أنها رقية، اضربوا لي معكم بسهم).

الرقى لتصح أولا لا بد أن تكون بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، أو بكلام الله جلَّ في علاه؛ (بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لآمة، الله يشفيك الله يشفيك الله يشفيك)، بإصبعه يضرب على الأرض ويضع على ريقه ثم يقول: (بريق بعضنا، بتربة أرضنا يشفى مريضنا بإذن ربنا)، (أذهب البأس رب الناس اشفي أنت الشافي لا شفاء إلّا شفائك شفاءً لا يغادر سقماً). الغرض المقصود بأنها لا بد أن تكون بكلام الله من القرآن أو بما جاء من السنة لأنها من الرقى، وأيضاً بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

الثاني لا بد أن يكون باللسان العربي المبين، لا ندري الطلاسم التي تدخل من الرقى ما تكون قد تكون شركاً، لا بد أن تكون باللغة العربية باللسان عربي مبين.

ولا بد أيضاً أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله جلَّ في علاه؛ لا بد أن يعلم يقيناً بأن الرقية هذه لا تنفع ولا تضر، هي سبب من الأسباب. وقد يتخلف السبب عن المسبب، فالله جلَّ في علاه هو الذي بيده كل شيء كما قال إبراهيم -عليه السلام-: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [الشعراء:80]. لمّا قال رجل: أنا الطبيب، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لست الطبيب، أنت الرفيق).

فإذاً لا بد من شروط ثلاثة تتوفر حتى نقول هذه الرقية رقية صحيحة، ليست رقية شركية التي منع الشرع منها. إذاً عندنا رقى جاء الشرع بمنعها، وعندنا رقى جاء

الشرع بإجازتها وإباحتها، بل والإباحة بأخذ الأجرة عليها وهذا تفصيله سيأتي إن شاء الله. لكن القول في هذا الباب نقول: لمّا قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أرأيت أدوية كنا نتداوى بها ورقى نسترقي بها في الجاهلية هل هي تغير من قدر الله من شيء؟ قال: (هي من قدر الله).

قال في رقية المريض: (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك)، انظر يعني الخالق الرازّق هو الله جلّ في علاه، هنا لفت الانتباه أيضاً للأهمية؛ (ربنا الله) و "الله" الإلهية، إذاً الربوبية تستلزم الإلهية. قال: (ربنا الله الذي في السماء)، فأثبت علواً لله جلَّ في علاه (الذي في السماء)؛ إمّا أن تقول السماء معناها العلو، إذاً هنا المعنى: ربنا الله الذي في العلو. أو تقول: (ربنا الله الذي في السماء)، "في" هنا بمعنى "على"، كقول الله جلَّ وعلا: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16]، يعني: من على السماء لحديث ابن مسعود: (بين السماء والأرض مسيرة خمسمئة عام، بين كل سماء وأخرى مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه).

فقال: (ربنا الله الذي في السماء)؛ وهذا إثباتٌ للعلو لله جلَّ في علاه، لأن في السماء هناك هنا: في العلو، وإمّا نقول: في السماء؛ "في" هنا بمعنى "على"، يعني ربنا الله الذي على السماء. (ربنا الله الذي في السماء)؛ "في" بمعنى "على"، كما قلت لقول الله جلَّ وعلا: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16] يعني على السماء، كما قال الله تعالى (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) [الملك:15] يعني فامشوا على مناكبها.

قال: (تقدّس اسمك)؛ تقدّس يعني تنزّه من التنزيه، المعنى أن الله جلَّ وعلا له الكمال المطلق والبهاء المطلق والعظمة المطلقة، فأسماؤه منزّهة عن كل نقصٍ وعن كل عيب سبحانه، فأسماؤه أسماء حسنى وصفاته صفات كمال وجلال وبهاء وعظمة. فهو منزّهٌ عن العيوب والنقص، وأسماؤه منزّهة عن العيوب وعن النقص وعن التأويل وعن التحريف، ولذلك قلنا هذه أيضاً من أدل الأدلة على أن الأسماء توقيفية. قال: (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك)؛ أسماؤك كلها مقدسة سبحانه جلَّ في علاه. قال: (تقدّس اسمك) هو إضافة، والله جلَّ في علاه له أسماء كثيرة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، لأنه قال في الحديث: (أو استأثرت به في علم الغيب عندك).

قال: (أمرك في السماء والأرض)؛ بعد ما قال هنا وبيّن الربوبية والإلهية، ناسب أن يقول (أمرك في السماء والأرض). إذاً في قوله (تقدّس اسمك) أي تنزّه، أسماؤك كلها حسنى وهذه كما قلنا فيها دلالة على أن أسماء الله توقيفية وأن الاشتقاق لا يصح أن يجرى في أسماء الله جلَّ في علاه أو صفات الله جلَّ في علاه. قال: (أمرك في السماء

والأرض)؛ قلنا ما المناسبة بين قوله: (ربنا الذي في السماء تقدّس اسمك) وقوله: (أمرك في السماء والأرض)؟ أريد المناسبة بينهما؟

هو يقول: (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك، أمرك في السماء والأرض)، إذا قلنا في الأمر الكوني تكون الربوبية والأمر الشرعي أيضاً تكون الربوبية، لكن لا بد للتعبد لله جلَّ في علاه بالإلهية أولاً بالانصياع والانقياد ثم بالتنفيذ، والتعبد لله جلَّ في علاه لأن الإلهية إفراد الله بالعبادة، هي توحيد الله بأفعال العباد. فلمّا يقول: (أمرك في السماء والأرض) يكون نافذاً إمّا: الأمر الكوني القدري أو الشرعي، ففي الحالتين فيها إثبات تلازم الربوبية بالإلهية، وأنه في الأرض يتعبدون لله جلَّ في علاه، عندما يأتيهم أمر الله جلَّ في علاه فهم يسارعون في تنفيذ أوامر الله مرضاةً لله جلَّ في علاه.

لذلك قال: (أمرك في السماء والأرض)؛ أمرك الكوني القدري، وأمرك الشرعي. فأمر الله إمّا أن يكون كونياً قدرياً، وقد بينا قبل ذلك ضوابط الفرق بين الكوني القدري وبين الدين الشرعي، بأن الكون القدري عام فيما يحبه الله وفي ما لا يحبه الله جلَّ في علاه ويقع حتما لا محالة، وأمّا الديني الشرعي فهو فيما يحبه الله وقد يقع وقد لا يقع. قال الله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [يس:82] هذا قدراً لا بد أن يكون، وقول الله جلَّ وعلا: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) [الإسراء:16]، لا سيما إذا قرأناها في القراءة الأخرى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا). وأمّا الديني الشرعي؛ (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) [النحل:90]، منهم من يفعل ومنهم من لا يفعل، وهذا محبوب لله خالصاً.

قال: (أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء اغفر لنا حوبنا وخطايانا) اللهم آمين يا رب العالمين. قال: (أنت رب الطيبين، أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفائك)؛ قال: (رب الطيبين)، الطيب المطيب من؟ هذه الصفات نبينها إن شاء الله في الدرس القادم بإذن الله.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثامن والأربعون: أحاديث في إثبات العلو (2)

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، فقال خالد أو غيره: دعني اضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يخرج من ضئضئ هذا أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم)، في رواية: (لا يبلغ تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)، في رواية قال: (طوبى لمن قتلهم ومن قتلوه، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم)، وفي رواية قال: (لو أدركتهم لقتلتهم قتل عادٍ وإرم).

ثم قال: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)؛ وهذه فيها إثبات علو الله جلَّ في علاه وفوقيته، التفسير (في السماء) هنا العلو أو (في السماء) هي السماء السقف المرفوع و(في) هنا بمعنى "على"، لأنه لا يمكن أن يتصور عاقل بأن السماء تظله أو تقله سبحانه جلَّ في علاه، بل هو على السماء.

وإذا نزل إلى السماء الدنيا ثلث الليل الآخر، لا يمكن أن يتصور المرء أن السماء الثانية مثلاً تظله والسماء الأولى تقله أو تحويه السماوات، حاشا لله لعظيم صفاته سبحانه جلَّ في علاه. ففي قوله: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16]، وهنا في قوله: (أنا أمين من في السماء) يعني من على السماء.

وتتناوب الحروف، تتناوب لغةً على قول جمهور أهل العلم؛ قال الله عن فرعون قال: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) [طه:71] يعني على جذوع النخل، وأوضح منها قول الله جلَّ في علاه: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) [الملك:15] يعني على مناكبها، فهذه دلالة واضحة على أن "في" هنا بمعنى "على". ففي قوله: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء) يعني على السماء، وهذه دلالة الفوقية. وقد أتت الأدلة متوافقة متضافرة على فوقية الله جلَّ في علاه؛ فوقية القهر والرتبة والرفعة. وأمّا هذا الحديث فيه فوقية الذات: أن الله على العرش بذاته -وهذا الذي ينازع فيه أهل البدع والضلالات من الأشاعرة ومن الجهمية والمعتزلة، الذين يقولون هو في كل مكان، والأشاعرة أيضاً يعتقدون هذا الاعتقاد الباطل-، وأن الله جلَّ في علاه فوق السماء فوق العرش.

ففي قوله: (أنا أمين من في السماء) يعني من على السماء، وعلو الله مراتب ثلاثة:

◆ علو الشأن: وهذا لا ينازع فيه أحد؛ (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) [غافر:15]، (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13].

◆ علو القهر؛ (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) [مريم:93]، (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18]، (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) [الأنعام:65]، علو القهر أيضاً لا منازعة في هذا.

◆ وعلو المكان: بذاته فوق عرشه سبحانه جلَّ في علاه، والعرش أحوج ما يكون لربه؛ قال الله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، وقال تعالى: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16] أي من على السماء.

فهذا إثبات علو الله جلَّ في علاه، وأدلة العلو كثيرة جداً أنا فصلت القول فيها، لكن ندلل على ما جاء به المصنف لبيان الفوقية. وقلنا فوقية القهر وفوقية الرتبة هذه لا ينازع فيها، أحد فوقية الذات هي التي فيها المنازعة بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والضلالة.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه)، حديث رواه أبو داوود. هذا الحديث حديث الأظلاف الأوعال، حديث الأوعال الحق أنه ضعيف؛ فيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مرت سحابة فنظر إليها، قال: ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب، قال: والمزن؟ قالوا: والمزن، قال: والعنان؟ قالوا: والعنان، قال: هل تدرون ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: إن بعد ما بينهما إمّا واحدة أو اثنتان أو ثلاثة وسبعون سنة ثم السماء فوقها، كذلك حتى عد سبع سماوات، ثم فوق السماء السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء وأخرى ،ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين السماء والأرض)، هذا أيضاً فيه نظر. قال: (ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه، مثل ما بين السماء إلى السماء، ثم الله فوق ذلك).

الحديث فيه ضعف وإن كان حسّنه ابن تيمية وغيره، الحديث ضعيف لكن الشاهد فيه كما قلنا هو أنه أراد أن يثبت الفوقية وأن الله فوق العرش بذاته لا يحتاج إلى العرش، بل العرش أحوج ما يكون له سبحانه جلَّ في علاه.

ففي الحديث إثبات أمور:

◆ الأمر الأول: العلو، وهذا الأهم وهذا الأصل، فالله فوق العرش سبحانه جلَّ في علاه بذاته لأنه قال: (والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه)، فإثبات الفوقية بذاته والأدلة

كما قلنا كثيرة على علو الله جلَّ وعلا بذاته؛ الصعود والعروج والنزول كل ذلك إثبات لعلو الله جلَّ في علاه.

◆ والأمر الثاني: فيه إثبات العرش، والعرش من مخلوقات الله جلَّ في علاه، إن لم يكن هو أعظم مخلوقات الله جلَّ في علاه، ولذلك كرّمه الله جلَّ في علاه، ولذلك أضافه قال: (ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) [غافر:15]، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة للعرش كإبرة في فلاة)، وفي رواية ابن عباس قال: (بالنسبة للكرسي كإبرة في فلاة)؛ في صحراء لتعلم عظم العرش.

وقد وصف الله العرش بأوصاف: (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) [البروج:15-16]، وكما في حديث ابن مسعود جاء موقوفاً وحكمه الرفع قال: (ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماءٍ وأخرى مسيرة خمسمائة عام، والماء أيضاً بينه مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه)، وهذا أيضاً في إثبات العرش لله جلَّ في علاه رداً على هؤلاء المبتدعة الذين يقولون بأن العرش هو الملك. ولكرامة العرش اهتز فرحاً بقدوم سعد بن معاذ، قال: (والعرش فوق ذلك) فهو أعلى المخلوقات، (والله فوق العرش) فالله بذاته فوق العرش بائنٌ من خلقه سبحانه جلَّ في علاه. حملة العرش ثمانية يوم القيامة كما بيّن الله جلَّ وعلا في السورة، أما حديث الأوعال فحديث ضعيف.

(وفي قوله للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة)؛ قلنا بأن الحكم إذا كان التعقيب به ب "الفاء" على وصفٍ دل ذلك على أن الوصف علة للحكم. تعلمون هذا الحديث: بأن معاوية بن الحكم السلمي صفع جارية لمّا ذهب الذئب بالغنم، يريد أن يكفر، تراجع وكل إنسانٍ قد يخطئ ويتراجع، تراجع فقال له: أفأعتقها؟ قال: لا، ائتني بها. فلما جاء بها، سألها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أين الله؟) هذا أول سؤال لبيان صحة المعتقد، قالت: في السماء. قال: (ومن أنا؟)، قالت: أنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: (أعتقها فإنها مؤمنة)، فدلل على إيمانها بالعتق لأنها شهدت بأن الله في السماء.

هذا كله إثبات لعلو الله جلَّ في علاه، وفيه رد على أهل البدع والضلالات الذين قالوا هو في كل مكان الجهمية والمعتزلة، بل والأشاعرة. وحرم الأشاعرة الإشارة بالإصبع إلى السماء، وضعّفوا حديث الجارية الذي في مسلم. هوى متبع!! والحديث إسناده كالشمس. وهذا الحديث فيه فوائد جميلة فائقة منها:

◆ أولاً غضب ابن آدم وكفارة الغضب؛ لمّا ذهب إلى النبي قال: أفأعتقها؟ بعد ما صفعها وهذه كفارتها.

◆ كما قال ابن عمر في روايةٍ أخرى: (ائتني بها اختبر إيمانها)، دل على أن العتق لا يجوز فيها إلّا الرقبة المؤمنة، وهذا خلاف الأحناف. كما قال الله في الظهار: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) [المجادلة:] مطلقة قيدت بقول: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ) [النساء:92] في القتل، حمل المطلق على المقيد هنا لاتفاق الحكم مع اختلاف السبب، وفيها الاختبار؛ اختبار إيمان العبد بمعرفة اعتقاده، ولأن وزنه باعتقاده ونجاته مرهونةٌ باعتقاده، وحسن الاعتقاد في رب العباد إثبات العلو له في السماء.

◆ (قال: أين الله؟ قالت: في السماء)؛ وهذه فيها دلالة على أن الفطر مجبورة مجبولة على اعتقاد علو الله جلَّ في علاه. فهي جارية صغيرة السن مجبورةٌ على ذلك، مجبولةٌ على ذلك، جبلها الله جلَّ في علاه على اعتقاد علوه. والهمذاني لمّا قال للجويني: ما أحد يدعو إلّا ويرفع يديه إلى السماء.

◆ وفيها رجوع إلى العالم.

ولمّا ذكر المصنف العلو كأنه أراد أن يبيّن لك عقيدة السلف، وأن العلو لا يمنع المعية؛ "سرت والقمر"، واو المعية. فالعلو لا ينافي المعية، لذلك أردف حديث: (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت)، هنا أشير إلى أنه أراد أن يبيّن لك لتعلم صفات الله جلَّ في علاه، صفات الكمال والجلال والعظمة، بأن علو الله جلَّ في علا لا ينافي المعية.

الفوائد المستنبطة:

- الأمانة من الإيمان والخيانة من النفاق.
- إثبات العرش؛ رداً على من قال إنه الملك.
- أحاط الله بكل شيءٍ علماً مع إثبات العلو والفوقية.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس التاسع والأربعون: حديث في إثبات المعية

(وقوله للجارية: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: رسول الله، قال: اعتقها فإنها مؤمنة) رواه مسلم، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت) حديث حسن أخرجه الطبراني من حديث عبادة بن صامت، وقوله: (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه) متفقٌ عليه، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها. أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين واغنني من الفقر) رواه مسلم.

في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك)؛ فيها إثبات معية الله جلَّ في علاه، وقد فصلنا القول فيها، ومعية الله معيتان:

- معيةٌ عامة: وهي معية الإحاطة، قال الله جل وعلا: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد:4]، وأيضاً هذه المعية كما قال ابن كثير: أجمع علماء السلف على أنها معية العلم؛ بأن (الله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه).

هذه المعية معية الإحاطة، معية العلم، معية السمع والبصر والقدرة والقهر، قال الله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]، (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) [سبإ:3]؛ ما من صغير ولا كبير ولا دقيقٍ ولا جليلٍ إلّا يعلمه، وقد أحاط به سبحانه جلَّ في علاه. فهذه المعية هي معية عامة على الجميع؛ الله جلَّ وعلا قال: (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم:94-95].

- وأمّا المعية الأخرى فهي المعية الخاصة؛ وهي المعية أخص من المعية الخاصة، وهي معية الأنبياء. المعية الخاصة هي معية التوفيق والتسديد والنصرة، وانظر إلى علو المعية في قول سيد البرية عن رب الخليقة سبحانه جلَّ في علاه أنه قال: (قال الله تعالى: ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإن أحببته كنت سمعه)، انظر هنا هذا علو المعية، (فكنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) ... إلى آخر الحديث. فالمعية هنا معية توفيق وتسديد

ونصرة وتأييد، وهذه المعية تراها في المؤمنين وفي الأولياء وفي الأصفياء وفي الأنبياء، وهي أخص من الخاص.

وأنت ترى هذه المعية عندما كانوا في ضوائق حالكة:

أرأيت ما فعل عمر بن الخطاب عندما قام خطيباً -وهذا السند فيه مجهول لكن يتسامح بأسانيد مثل هذه-، قام خطيباً وسارية معهم والجيش أحيط بهم وخشي عليهم، فنظر عمر وهو يخطب بالناس كشف له الحجاب، عمر بن الخطاب وافقه القرآن وكان ملهماً فعلم أنهم في ضيق وعلم أن مخرجهم بالانحياز إلى الجبل. ترك الخطبة؛ يتكلم مثلاً عن الجنة، يتكلم عن النار، يتكلم عن الحج، يتكلم عن وعظ الصدقات، ترك كل ذلك وذهب إلى كلام أجنبي، لأن عبد الرحمن بن عوف لمّا نزل عمر قال: ما تقول يا إمام؟ أين أنت؟ أنت تتكلم في شيء ثم تتكلم!! العامة يسمعونك الناس، العوام في المدينة يأتون يقولون: عمر لا يستطيع الخطبة ويخرج من الخطبة بكلام آخر أجنبي. قال: ما أدري رأيت سارية ورأيت الجيش في ضائقةٍ، علمت أن النجاة في الجبل، فصرخ فقال: الجبل الجبل يا سارية، النجاة في الجبل.

العجيب بعد شهر جاء سارية قال: سمعنا صوتاً فأنجانا الله بهذا الصوت، أحيط بنا فقيل لنا الجبل الجبل يا سارية (يعني احتموا بالجبل)، فاحتمينا بالجبل فنجانا الله جلَّ في علاه. ابن تيمية يؤول ذلك أن الصوت الذي ذهب لسارية هو صوت ملك أو صوت جني مسلم قلّد صوت عمر وقال له: جبل. ونحن نقول لِمَ؟ أليس هذا تكلفاً من شيخ الإسلام؟ بل هو صوت عمر ذاته، كيف اخترق؟ نعم اخترق، ولمثل عمر تكون الكرامات، فقال: الجبل الجبل يا سارية. هنا معية الله جلَّ في علاه، سبب الله الأسباب لإنجائهم.

معية الله تظهر وتتجلى في غزوة مؤتة؛ عندما يقتل أولاً زيد ثم يقتل جعفر بن أبي طالب، والنبي يحكي ذلك تصويراً للجميع وهو يرى، هم لا يرون شيء، ويبكي على المنبر. ثم عبد الله بن رواحة يقتل ودخل الجنة معترضاً، رضوان الله عليهم جميعاً، اللهم اجمعنا بهم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفردوس الأعلى. فمعية الله هنا تسلّم الراية من؟ هم بحثوا في أنفسهم فوجدوا أن خير الناس أهل بدر "رجلٌ بدري" فأعطوه الراية فأخذها.

انظر هنا للدين، ليس لنا في هذا العصر نفعل ذلك وإن تسلّم الراية من تسلّم، البحث ليس عن الوجاهة والسلطان، البحث عن نصرة الدين، لا يهمنا مع من الراية، لا يهمنا من الذي هو مقدم أو مؤخر، وهذه آداب، لا يهمنا أن يترأسني أقل مني أو ما لا يعلم

قدري ويترأسني، لا يهمني. المهم أن نصل إلى ما نريد ونصبو إليه، هذا الأهم. المهم الدين، المهم بلوغ الدعوة للجميع.

فاستلم الراية فذهب بها، انظر التغافل؛ فذهب بها لأعظم الناس غفلةً أن يكون مقدماً عليهم هو من؟ خالد بن الوليد. ومعية الله هنا تتجلى لأن خالد به النجاة، جعل الله به النجاة، وهذا ليس من قولي هذا من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما سأبيّن.

لكن معية الله هنا؛ الرجل يستلم الراية، قد تكون المطامع النفسية، قد تكون الوجاهات، قد يكون السلطان، قد يكون أنا الأحق والجميع لا بد أن يسمع لي. وهو الأحق حقاً، خالد أسلم منذ أيامٍ قليلة ولا يمكن أن يكون له مطمعاً أن يتقدم وهو يعلم أن هؤلاء هم خيار البشر، وكان في غفلةٍ تامة، هو نفسه في غفلةٍ تامة فجاءه فقال: أنت، قال: ما تقول؟ قال: استلم الراية، قال: أنت أحق بها أنت بدري، قال: والذي نفسي بيده أنت الأحق وما أخذتها إلّا لك.

يا ربي هنا يتجلى لنا مثلٌ رائعٌ في الكتاب ألا وهو الراهب والغلام؛ قال: أنت أنت (وهو المعلم)، قال: أنت. النفوس تذوب لحسن المقصد، والأبدان تخدم الطريق لحسن المقصد.

فاستلم الراية فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، والمقدمة مؤخرة والمؤخرة مقدمة، والقلب غير فيه، فقال الناس: أتاهم المدد. ورجع بهم وأنقذهم جميعاً حتى لمّا جاء النساء يأخذون الحصماء ويقولون: يا فُرّار يا فُرّار، فدافع عنهم النبي ذب عنهم فقال: (بل هم الكُرّار، بل هم الكُرّار، وإني لهم فئة)، (إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ) [الأنفال:16]. إذاً ما ولاهم الدبر إلّا أنه متحيز إلى فئة، فقال: أنا فئته. ماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: (استلم الراية سيفٌ من سيوف الله جعل الله النصر على يده)، هنا تتجلى معية الله جلَّ في علاه.

هنا تتجلى في غزوة أحد معية الله جلَّ في علاه حقاً؛ (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران:140]، معية الله تتجلى في إنقاذ النبي، كادوا يقتلونه في غزوة أحد، التفوا حوله وكادوا يقتلونه حتى قام طلحة والنبي يقول: اجلس، فقال: (من يرد القوم وهو رفيقي في الجنة). فقام عشرة من الأنصار فقتلوا عن بكرة أبيهم، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنصفنا إخواننا، ما استطاعوا ردهم)؛ (ما أنصفنا) يعني جعلناهم إلى القتل لكنهم في بغيةٍ لأمرٍ جلل مرافقة النبي في الجنة.

ثم قام طلحة يصد السيوف عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويقول: نحري دون نحرك، لا ترفع رأسك يا رسول الله حتى لا يأتيك سهمٌ غالب. ثم انكسرت الصفيحة، سيفه انكسر فمد يده يصد السيوف عن رسول الله حتى شلت يده، فجاء أبو بكر وعمر

مسرعين، فقال النبي الأمين: (الله شكور، دونكم صاحبكم)، قال: (فقد أوجب) يعني أوجب الجنة.

معية الله حين حاصروا كسرى ليفتحوه، وقد فتح الله لهم كسرى، وعمر بن الخطاب شدد لهم وهو يدعو لهم. يقال -وفي الأسانيد هنا كما قلنا يتسامح-: كانت الصخرة تعلو فيقف عليه الخيل، وهو في البحر، أرادوا عبور البحر فكانوا كأنهم يمشون على الأرض كما حدث لأصحاب الموسى، حتى فتح الله عليهم كسرى.

معية الله تتجلى عندما (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا) [الشعراء:61-63] الفاء للتعجيل (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ).

قال: (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت)؛ وفي قوله: (أفضل الإيمان) فيها دلالة على تفاوت الإيمان ودرجات الإيمان، وفيها الرد على المرجئة. ونقول: والتفاوت والأفضلية حتى في أصله. وفي شرح الطحاوية نقول: في الطحاوية مآخذ كثيرة صراحة، لذلك لا يشرح الطحاوية إلّا من رسخ في الباب ويكون عنده إتقان. قال: وأهله في أصله سواء؛ خطأٌ بيّن، بل يتفاوتون أفضل الإيمان.

الأفضلية موجودة الآن، لكن ما الدليل على التفاوت؟ أصله في القلب، في قول إبراهيم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة:260] الإيمان في القلب، نعم لكني أريد علواً فلذلك قال: (قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي). ففيها تفاوت الإيمان وزيادة الإيمان ونقصان الإيمان، والرد على الجبرية بأن المكلفين لا يتفاوتون في درجات الإيمان، بل التفاوت في درجات الإيمان واردة حتى في أصل الإيمان في القلب. ولذلك قال الله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) [الزمر:9] وإن كانوا طبقة الإيمان جميعاً.

قال: (أفضل الإيمان أن تعلم)، ففيها التفضيل هنا وفيها التفاوت في الدرجات. (أفضل الإيمان أن تعلم) فأناط الإيمان وعلو الإيمان بالعلم، فوجب عليك أن تعلم وأن تتعلم، وإن الإيمان يزيد بالعلم، وطبعاً هذا الإيمان يزيد بالعلم إذا تعلم مخلصاً النية لله جلَّ في علاه ولنصرة دين الله جلَّ في علاه، وأيضاً للعمل.

هتف العلم بالعمل *** فإن أجابه وإلّا ارتحل

قال: (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك أينما كنت) وهذا فصلٌ من التعبد لله بالإحسان؛ (عندما سأل جبريل النبي الأمين قال له: وما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، هنا عبادة المراقبة في مسألة (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[الحديد:4]، قال: (أن تعلم أن الله معك أينما كنت). وإن كان كذلك فإنه إن خلا لا يقولن خلوت، ولكن يقول عليّ رقيب، نسأل الله أن يغفر لنا.

فالأصل في ذلك هو أنه عند استحضار المعية يصل إلى الإحسان في التعبد، ومن بلغ الإحسان ارتقى منزلةً من أرقى المنازل. ولذلك قلنا بأن العالم الذي كانت بعض طلبة العلم لهم حظوة عنده كان بسبب عبادة السر، هذه عبادة الإحسان لأنه كان يستحضر أن الله معه أينما كان. لمّا أعطاهم الطير وقال: اذبحوه، فذهب كل واحدٍ يذبح في مكان لا يراه فيه أحد، فجاء هذا الطالب ومعه طيره قال: لِمَ لمْ تذبح؟ قال: لم أجد مكاناً لم يرني الله فيه، سبحانه جلَّ في علاه.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه)؛ طبعاً لمّا يقول: (إن الله قِبَل وجهه) هذه معية مع علو، هذه أصل في قوله: (فإن الله قِبَل وجهه) مع أن الله فوق السماء. الله فوق السماء أم لا؟ هل تعتقد هذا؟ وما الدليل؟ (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، حديث ابن مسعود قال: (والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه). فيكون هنا الآن في قوله: (فإن الله قبل وجهه) معناها المعية مع العلو، وهذه هي المسألة المهمة وهي أن المعية لا تخالف العلو. العرب جميعاً تقول: سرت والقمر؛ كيف سار مع القمر؟ كيف كان يمشي معه؟ يده في يده كيف كان يمشي معه؟ قال: سرت والقمر، ما زلنا نسير والقمر معاً.

إذاً المعية لا تنافي العلو، فهنا في قوله: (فإن الله قبل وجهه) قِبَل وجهه وهو في السماء، والله على كل شيءٍ قدير، فالمعية لا تخالف العلو. قال: (فلا يبصق قِبَل وجهه) وهذا فيه تعظيم وجهة القبلة، لذلك لمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد رجل قد بصق في القبلة فحكها وامتعض جداً حتى أتت المرأة بمسك، قال: ما أفضل هذا أو ما أجمل هذا، فوضعه، ثم قال: (هذا لا يؤمنَّكم). (فإن الله قبل وجهه ولا عن يمينه) لأن في يمينه الملك في التعظيم، قال: (ولكن عن يساره أو تحت قدمه)؛ طبعاً هذه ليست مطلقة لأن البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها، (عن يساره)، إمّا في ثوبه كما بيّن النبي (أو تحت قدمه) فيدفنها، وهذا غير وارد في المساجد في عصرنا هذا، إذا عنده المناديل بهذا الباب. ويكون على جهة اليسار، لأن على جهة اليمين الملك، وعلى جهة اليسار والشمال هو ليس الملك، لذلك قال: (عن يساره).

ولذلك العلماء قالوا: أمّا النهي عن البصق قِبَل القبلة على العموم لا يجوز، وقد وردت الأدلة على ذلك، جاء النهي عن البصاق قِبَل القبلة وجاء على العموم؛ فبصحيح ابن خزامة عن ابن حبان من حديث حذيفة -رضي الله عنه وأرضاه- مرفوعاً: (من تفل اتجاه القبلة جاء يوم القيامة وتفله بين عينيه)، وأيضاً في سنن أبي داوود من حديث السائب بن خلاد: (أن رجلاً أمّ قوماً فبصق في القبلة، فقال النبي: لا يصلي لكم). فإذاً

أيضاً فيها توقير وتعظيم جهة القبلة أنها أعظم جهة على الإطلاق، وفي اليمين الملك، وقال: (عن شماله أو تحت قدمه). هذه كما قلنا التعبد لله جلَّ في علاه بالمعية والمعية لا تنافي العلو.

الفوائد المستنبطة:

- تفاوت درجات أهل الإيمان، تفاوت درجات المكلفين بالإيمان.
- الإيمان يزيد وينقص.
- العلو لا ينافي المعية.
- إحاطة الله بكل شيءٍ علماً وسمعاً وبصراً وقدرةً.
- من السنة تعظيم جهة القبلة وهذه تدل على أن وضع الرجل اتجاه القبلة فيه سوء أدب، أو قل خلاف الأولى حتى لا نغالي فهو خلاف الأولى.

إجابة سؤال: دلالة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يؤمَّكم)، لا يصلي بكم، والحق بهذا الباب إلى أن هذه دلت على الاستهانة بما هو معظم عند المسلمين، وهذه كبيرة من الكبائر، فهذه إن دلت دلت على الاستهانة بالقدر.

إجابة سؤال: يقول ممكن كلمة لمن يمنع أحد من حضور مجلس العلم؟ هذا صد عن سبيل الله حقاً، ضربنا مثلاً وقلنا أخذ الراية واستلم الراية مع أنه هو الأحق بها قال: والله ما استلمتها إلّا لخالد فأنت أحق بها. هذا صد عن سبيل الله، والخلاف لا يفسد للود قضية، وهذه حظوظ النفس والهوى مانعة، فعلى المرء أن يراجع نفسه في ذلك فإن الله سائله عن ذلك.

إجابة سؤال: يقول هل تخصيص التفل على اليسار فقط في المسجد أم في كل الأماكن؟ في كل الأماكن

إجابة سؤال: يقول هل تسقط العدالة؟ لمن ظهرت استهانة قلبه

إجابة سؤال: يقول لمن لم يتوفر لديه مناديل هل يسعه أن يفتح شنطته فيأخذ منها مناديل هل هذه الحركة تبطل الصلاة؟ لا، لا تبطل الصلاة له أن يفعل ذلك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخمسون: ـ حديث في إثبات العلو وصفات أخرى

ـ حديث في إثبات القرب

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: وقوله: (إذا قَامَ أحَدُكُمْ إلى الصَّلَاةِ، فلا يَبْصُقْ قبل وجهه فإن الله قبل وجهه ولَا عن يَمِينِهِ ولْكن عن يَسَارِهِ، أوْ تَحْتَ قَدَمِهِ)، متفق عليه. وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيءٍ فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابةٍ أنت أخذٌ بناصيتها. أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عني الدين واغنني من الفقر)، رواه مسلم.

ما زال المصنف يأتي بصفات الله جلَّ في علاه: الصفات الثبوتية والصفات السلبية، أراد أن يبيّن لك نهج أهل السنة والجماعة وأنهم على الصراط المستقيم والشرع القويم، وأن العقيدة حقاً النقية الصافية هي عقيدة هؤلاء.

في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيءٍ)، فيها إثبات الربوبية لله جلَّ في علاه، وهذا من لوازم الربوبية: الخلق والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع. (رب السماوات السبع)؛ فالسماوات جعلها الله جلَّ في علاه سبعاً كما قال الله جلَّ وعلا: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) [ق:38].

(اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم)، "اللهم" كما قلنا أصلها "يا الله"، وعُوِّض بالميم عن ياء النداء في الدعاء ولا يمكن أن يُجمع بينهما إلّا للضرورة الشعرية: إني إذا ما حدث ألما *** أقول يا اللهم يا اللهما

(اللهم) وهذا مجامع الدعاء في ذلك ولأنه يتوسل إلى الله جلَّ في علاه باسم "الله" الأعظم. قلنا إن الاسم الأعظم هو "الله"، أكثر ما ذكر في القرآن، وأيضاً كل الأسماء تضاف إليه كصفات، وهو موافق لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- الاسم الأعظم لله جلَّ في علاه بصورٍ ثلاثة: (اللهم رب السماوات السبع)، (ورب العرش العظيم)، (ربنا ورب كل شيءٍ، فالق الحب والنوى).

وفي قوله: (رب العرش العظيم) فيها إثبات العرش لله جلَّ في علاه، وأن العرش أعظم المخلوقات. النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (السماوات السبع والأرضون السبع وما

بينهن وما فيهن بالنسبة للكرسي إلّا كحلقةٍ في فلاة، وأن الكرسي بالنسبة للعرش كحلقةٍ في فلاة). ولذلك ابن عباس قال: (الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدّر قدره إلّا الله) سبحانه جلَّ في علاه. ومن أعظم المخلوقات على الإطلاق عرش الله جلَّ في علاه، والعرش أحوج ما يكون إلى الله، والله جلَّ في علاه استوى على العرش، قال الله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5].

وهناك من أوّل ضلالاً وبدعةً بأن العرش ليس بمخلوق وأن العرش هو ملك الله، العرش هو قدرة الله. يعني لمّا أقول: (اللهم ربنا رب السماوات السبع ورب العرش العظيم)، قالوا: يعني الموصوف بالقدرة أو بالملك العظيم، لأنهم قالوا العرش ليس مخلوقاً. وهذا كلامٌ باطل، والعرش فوق السماء كما في حديث ابن مسعود الموقوف المرفوع حكماً: (ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء والأخرى مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه). وإثبات العرش جاء في أكثر من دليل؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما مات سعد بن معاذ: (اهتز عرش الرحمن رضاً بقدوم سعد بن معاذ) أو (فرحاً بقدوم سعد بن معاذ).

(اللهم رب السماوات السبع)؛ وهذا من الأدب مع الله أن تبيّن عظيم ربوبيته، (اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم)، والعظيم هنا صفة للعرش وهو أعظم مخلوقات الله جلَّ في علاه. (ربنا ورب كل شيءٍ) فيه إثبات عموم الربوبية الله جلَّ في علاه وأن الله خالقٌ لكل شيء، وأن الله هو الذي خلق ورزق وأحيا وأمات وأعطى ومنع، هذه لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه. فالحق أنه ما من نعمةٍ أنت فيها إلّا من الله، وما من نقمة أو بليةٍ قد رفعت عنك إلّا من الله سبحانه جلَّ في علاه، فقدرته تعم كل شيء وتشمل كل شيء وملكه يشمل كل شيء، وقد قال الله جلَّ في علاه: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر:21]. وهذا يلزم العباد ألّا يصرفوا العبادة إلّا لله جلَّ في علاه، فالكون كله بمراميه الشاسعة الله جلَّ في علاه خلقه فابدعه وجعل فيه الأوقات والأرزاق سبحانه.

قال: (فالق الحب والنوى) فلقها وشقّها، فهو الذي يشق حب الطعام ونوى التمر وكل ذلك للإنبات، وهذه آية من آيات الله العظيمة، عندما ترى الأرض تنبت الزرع وتنبت ما فيها والشجر من ثمارها، قال الله تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) [الحج:5]. قال: (فالق الحب والنوى) وهذه أيضاً فيها عظيم ربوبية الله جلَّ في علاه، وأن الرزق كله بيد الله، وأن الطعام والشراب وكل ما يحتاجه الإنسان بيد الله جلَّ في علاه كما قال: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) [الحجر:21].

قال: (منزل التوراة والإنجيل والقرآن)؛ وفي قوله: (منزل) النزول لا يكون إلّا من علو، ففيها إثبات علو الله جلَّ في علاه. التوراة والإنجيل والقرآن، كتب الله جلَّ في علاه، والزبور والصحف كلها من الله جلَّ في علاه، ففيها دلالة واضحة جداً على أن كل هذه الكتب السماوية هي من الله وليست مخلوقة، والتوراة خطها الله بيده كما قال آدم لموسى: (أنت موسى، موسى بني إسرائيل)، قال: (خط لك التوراة بيده).

فأنزل التوراة على موسى -عليه السلام-، وأنزل الإنجيل على عيسى -عليه السلام-، وأنزل القرآن وهو خاتمة الكتب على محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-. وفيه رد على كل من قال بخلق القرآن، وأن القرآن ليس مخلوق لأنه منزّل من قبل الله جلَّ في علاه كما قال الله تعالى: (لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ) [النساء:166].

(أعوذ بك) يعني ألتجأ بك، أعتصم بك وبجنابك من شر كل ذي شرٍ. وقلنا هناك لواذ وعوز؛ (أعوذ بك من شر كل دابة)، "اللواذ" هو صدق الالتجاء والاعتصام بالله جلَّ في علاه لجلب المنفعة، و"العوز" صدق الالتجاء والاعتصام بالله جلَّ وعلا لدفع المضرة.

يا من ألوذ به فيما أؤمله *** ومن أعوذ به مما أحاذره

فالليا صدق اللجأ لجلب النفع، والعياذ صدق اللجأ لدفع الشر. قال: (أعوذ بك من شر كل دابةٍ أنت اخذٌ بناصيتها)؛ والمعنى هنا أعوذ بك من كل دابة لأن الله جلَّ في علاه آخذٌ بكل شيء والخلق خلقه والكون كونه والعبيد عبيدُه، والمعنى هنا إني أعوذ بك من كل ما يدب على الأرض. وفي قوله: (من شر كل دابةٍ أنت آخذ بناصيتها) كما قلنا كل دابةٍ، كل دواب الأرض آخذ بناصيتها الله جلَّ في علاه، ولأنها تحت قهره وتحت سلطانه سبحانه جلَّ في علاه، هو الذي يملكها.

قال: (أنت الأول فليس قبلك شيء) وهذه من أعظم ما يتعبد به المرء لله جلَّ في علاه، هذه الأسماء الأربعة، كل خير الدنيا والآخرة في التعبد لله جلَّ في علاه بهذه الأسماء الأربعة:

١- فلأن تتعبد باسم الله "الأول" أن الأولية المطلقة لله جلَّ في علاه وفيها أن الله هو الذي ابتدأ خلق الخلق، وهو الذي ذكرك أولاً بالإسلام والذي منحك العبادات، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ينقل التراب كان يقول: (اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا صمنا ولا تصدقنا ولا صلينا)، ولذلك قال الله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، وقال الله جلَّ في علاه: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه).

فالتعبد لله باسم الله الأعظم "الأول" يقطع عنك العجب، ويجعلك في خيرٍ وعافية. كلّما عبدت الله باسم الله "الأول" تعلم أنك في نعمةٍ من الله، أنك في طاعةٍ من الله ذكرك الله بها أولاً في علمٍ من الله، ذكرك بها أولاً فيكون الأصل في هذا الباب هو أنك عندما تتعبد لله باسم الله "الأول".

وأنا اقول إن أعظم العبادات على الإطلاق هو التعبد بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، حسن التعرف على الله جلَّ في علاه يملأ القلب إيماناً. فالتعبد باسم الله "الأول" يقطع عنك العجب لأنك علمت أنك ما صليت إلّا الأولية (أولية الله جلَّ في علاه) ذكرك عابداً ذكرك مسلماً ذكرك مؤمناً ذكرك تائباً، فهو الذي وفقك للتوبة، هو الذي وفقك للصلاة، هو الذي وفقك للصدقة، هو الذي وفقك أن تنشر الخير.

الغرض المقصود يتعبد لله باسم الله "الأول" فيقطع عن قلبه العجب، فقال: (أنت الأول فليس قبلك شيء)، وأفضل التفسير على الإطلاق هو تفسير النبي: (كان الله ولم يكن شيء، وكان عرشه على الماء. ولمّا خلق القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة).

٢- قال: (وأنت الآخر فليس بعدك شيء)، والتعبد لله باسم الله "الآخر" يقطع الرياء والسمعة ويقطع النفاق، لأنه يعلم أن آخر أمره إلى ربه وأن آخر أعماله في صحفٍ عند ربه. فإن علم ذلك نقّى أعماله من الرياء والنفاق، واجتهد أن تكون إخلاصاً لوجه الله الكريم لأن الله قال: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه). ف "الآخر" أيضاً التعبد به يقطع عنك الرياء والسمعة فضلاً عن النفاق لأن آخرية الأمور إلى الله جلَّ في علاه، آخر الأمر إلى الله في عرصات يوم القيامة يحاسب العباد ليفصل القضاء. آخر أمرك إلى ربك، فاجعل آخر أمرك من أفضل ما يكون وأعظم ما يكون فيه الإخلاص لله جلَّ في علاه. فالآخرية التعبد بها يقطع عنك الرياء والنفاق والسمعة لأنك تعلم أن آخر أمرك إلى الله جلَّ في علاه فليكن حسناً.

٣- قال: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء)، سبحانه جلَّ في علاه. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والعرش فوق الماء والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه)، فالله فوق العرش والعرش فوق السماء وهذا علو الله جلَّ في علاه. (وأنت الظاهر) الظاهر بدلائل الربوبية، الظاهر بالحجة، الظاهر بالمكانة كما قال الله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18]. قال: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء) وهذه أيضاً إذا دلت دلت على مسألة عقدية مهمة فيها الرد على أهل البدع، والتعبد لله جلَّ وعلا باسم الله "الظاهر" فيها أمور:

◆ الأمر الأول: علو الهمة التعبد، بهذا الاسم تعلو به الهمم لا يرى إلّا المعالي، ولا يطلب إلّا المعالي سعياً حثيثاً إلى الدرجات العلى.

◆ وفيها أيضاً علو حجة المسلم على الكافر من الله جلَّ في علاه، (وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا) [النساء:141].

◆ والثالث ظهور الإسلام وأهل الإسلام والله هو الظاهر، قال: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء). والله جلَّ في علاه يظهر الإسلام وأهل الإسلام كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)، وهذا أيضاً من أثر اسم الله "الظاهر".

٤- قال: (وأنت الباطن فليس دونك شيء)؛ فيها علم الله جلَّ وعلا بما خفي ودق، وأن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فبالأسماء الأربعة أيضاً قد أحاط بكل شيءٍ علماً. وفيها قرب الله، قرب الله خاص بالمؤمنين، لا قرب الكافرين بحال من الأحوال في علو مع الكافرين. أمّا القرب الخاص قربٌ للمؤمنين؛ (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56]، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً، إن الذين تدعون لأقرب لأحدهم من عنق راحلة).

فالظاهر والباطن أيضاً التعبد بهما على الرقابة، فيصل في التعبد بالاسمين العظيمين الجليلين إلى عبادة الإحسان.

(اقضِ عني الدين واغنني من الفقر) هنا بعدما عدد الأسماء، وأن الله مالك الملك، وأن الله هو الظاهر والباطن، وأن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، قال: (اقضِ عني الدين) فأنت تملك خزائن السماوات والأرض. (اقضِ عني الدين واغنني من الفقر) وهذه فيها دلالة على أن الفقر ليس علامة على الزهد في الدنيا قط، قد يكون غنياً ثرياً وهي في يده وليست في قلبه، ولذلك قال: (اغنني عن الفقر). وقد استعاذ النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهم والغم والحزن، واستعاذ النبي -صلى الله عليه وسلم- من الفقر أيضاً فقال: (اغنني من الفقر)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني مع زمرة المساكين) ليس فيها الدعاء بالفقر، فالمسكنة هنا معناها التواضع.

الفوائد المستنبطة:

- الرد على القدرية؛ قال: (من شر كل دابةٍ أنت آخذٌ بناصيتها)، وقد يكون الرد على الجبرية من قوله: (اقضِ عني الدين) نسب الدين له بفعله.

- وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

- فضل التعبد لله بأسمائه الحسنى.

سؤال: يقول قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- الدعاء لعظيم المخلوقات وعظيم الصفات ثم كان مسؤول قضاء الدَّين والغنى من الفقر؟

الإجابة: لأن قضاء الدَّين يفرّغ المرء للعبادة، والدَّين مكبِّلٌ للمكلف فلا يستطيع أن يتعبد لله جلَّ في علاه حق العبادة. أما رأيت أنه هم بالنهار وذل بالليل، فإنه لا يستطيع أن يكون ذا عبادةٍ راقية بقلب نقي ممتلئ بالإيمان بالله جلَّ في علاه، بل ملأ القلب الهم والغم، وكان النبي يستعيذ بالله من ذلك لأنها معرقلات للعبادة فكأنها كانت سؤالاً للجنة.

سؤال: نقول لمن ينكر صفات الله جلَّ في علاه من العلو واليد والوجه هل هو مكذّب للقرآن؟ الإجابة: نعم.

سؤال: أحد الأخوة أنه يسأل الله من أمور الآخرة والدنيا فيرى فتح الله وعطاؤه له في أمور الآخرة ويمنع عنه أمر دنياه ويسأل ما تفسير هذا؟

الإجابة: هذا خيرٌ لك ولا يخبر أحداً فإن العين حق.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الحادي والخمسون: حديث في إثبات رؤية المؤمنين لربهم

أهل السنة والجماعة وسط بين أهل البدعة والضلالة،

قال: وقوله -صلى الله عليه وسلم-: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون برؤيته، فإن استطعتم ألّا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا.

وفي قوله: (إنكم سترون ربكم) هنا المصنف أراد أن يختم بالكلام على الصفات أولاً بأشرف المسائل على الإطلاق، وشرف هذه المسائل تعرف بشرف ما فيها وثمرتها وهي رؤية الله جلَّ في علاه. (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر) فختم بالرؤية، ومسألة الرؤية مسألةٌ شريفةٌ منيفةٌ عظيمةٌ، من أجلها اجتهد المجتهدون وشمّر عن ساعد الجد المهتمون، فهي أنعم النعيم وأفضل ما يحصّله المكلف عند رب العالمين.

حينما يدخلون (ويقال: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون ويقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: تريدون شيئاً؟ أزيدكم؟ فقالوا: ربنا ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ فيقول الله جلَّ في علاه: إن لكم عندنا موعداً أريد أن أنجزكموه، فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الرحمن)، ينظرون إلى وجه الله الكريم سبحانه جلَّ في علاه، فهذه أشرف المسائل على الإطلاق. ففي قوله هنا: (إنكم سترون ربكم عياناً) هو الآن يبيّن لكم أن الرؤية ثابتة، بل هي ثابتة ثبوت الجبال الرواسي، هي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، بل والقياس يعني العقل، فرؤية الله جلَّ وعلا أيضاً ثابتة بالعقل.

◆ ثابتة بالكتاب آيات كثيرة جداً؛ قال الله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) [القيامة:22-23].

- فالنظر يتعدى بنفسه: (انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ) [الحديد:13]، يعني انتظرونا.

- يتعدى ب "في" التدبر.

- يتعدى ب "إلى" تكون العين الباصرة تنظر، وهنا متعدٍ ب "إلى"؛ (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ) النضرة هي يشع نوراً للنظر، (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).

وقال الله تعالى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) [يونس:26]، فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا أفضل التفسير "تفسير القرآن التفسير بالسنة"، قال: (الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم). وأيضاً قال الله جلَّ في علاه: (عَلَى الْأَرَائِكِ

يَنظُرُونَ) [المطففين:35]، ينظرون إلى ماذا؟ نفي المعمول يؤذن بالعموم؛ ينظرون إلى الأنهار، إلى البحار، إلى الثمار، إلى حور العين، ينظرون إلى وجه الله الكريم. فلمّا نفى المعمول أذن بذلك للعموم، ومن ذلك أدلة كثيرة جداً على الرؤية يكفينا هذه الأدلة من الكتاب.

◆ ومن السنة كثير؛ حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه وأرضاه-، قال: (جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وأن يروا ربهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه) فأثبت الرؤية، وأيضاً في حديث مسلم: (إذا دخل أهل الجنة الجنة في الوعد، قال: إن لكم عندنا موعداً أنجزكموه فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الرحمن سبحانه جلَّ في علاه). اللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

ومن ذلك هذا الحديث الذي استدل به المصنف: (إنكم سترون ربكم عياناً) يؤكد تأكيداً لا ريب معه، وهذا رد على أهل البدع والضلالات الذين ينفون الرؤية كالجهمية والمعتزلة، والأشاعرة أيضاً في حقيقة أمرهم أنهم ينفون الرؤية يقولون: يرى لا لجهة. هذا كلام فيه ما فيه من الخلط، ولأنهم لا تتبين لهم الصورة الصحيحة يحسبون أنهم ينازعون أهل البدع وهم في بدعةٍ مميتة. (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا) يعني القمر ليلة البدر، (لا تضامون)؛ من الضيم يعني لا ينضم بعضكم لبعض فيشوش بعضكم على بعض في الرؤية أو يحجب بعضكم الآخر، كل ذلك غير وارد فأنتم سترون ربكم كما ترون القمر هكذا، انظر السعة في السماء، (سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر).

فهنا في هذا الباب الرؤية هنا عامة للمؤمنين، الكافر لا يرى ربه وإن لقيه. نعم كل إنسان سيلقى الله جلَّ في علاه، بل كل إنسان سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، واللقيا والكلام لا يستلزمان الرؤية وإن كانت الاحتمالية واردة لكن النص جاء من القرآن الكريم، قال الله تعالى: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) [المطففين:15]. فالرؤية لا تكون إلّا لأهل الإيمان، والله جلَّ في علاه لمّا حجب هؤلاء بكفرهم عن رؤيته، فقد أباح لهؤلاء الرؤية أو جاز لهؤلاء الرؤية بإيمانهم.

وعندما قال: (كما ترون القمر) هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، يعني حقيقةً بالبصر سترون ربكم. وإن كان موسى -عليه السلام- لم يرَ ربه في الدنيا عندما طلب (قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) [الأعراف:143]، البصر لا يقوى على ذلك في الدنيا، فالله قال: (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [ق:22] على يوم القيامة لذلك قال: (سترون ربكم كما ترون القمر).

أراد بذلك أن يختم بهذه المسألة الشريفة وفيها أيضاً الرد على أهل البدع والضلالات، أن من أنكر الرؤية ليس على الجادة وليس على العقيدة التي جاء بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل سيحرمون منها يوم القيامة، سيحرم منها الذي لا يعتقد أنه يرى ربه جلَّ في علاه. كيف يراه؟ وكيف يكرم برؤيته يوم القيامة؟

قال: (سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته) ثم قال: (فإن استطعتم ألّا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا) ثم قرأ قال الله تعالى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) [ق:39]. (فإن استطعتم ألّا تغلبوا)؛ هذا من النبي -صلى الله عليه وسلم- استنهاض الهمة للاجتهاد في الحرص على صلاتين من أهم الصلوات، (من صلى البردين دخل الجنة): هي صلاة الفجر وصلاة العصر.

(يتعاقبون فيكم ملائكة يلتقون في العصر وفي الفجر)، وهذا ليس معناه أن الصلوات الأخرى ليست من الأهمية بمكان، الله جلَّ وعلا قال عموماً: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه:14]، الصلوات الخمس لله جلَّ في علاه وهي من الأهمية بمكان وأهم هذه الصلوات الصلاة الوسطى "صلاة العصر" وصلاة الفجر، ولذلك قال: (فإن استطعتم ألّا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا).

فالمواظبة والحرص والحفظ حفظ على صلاة العصر وصلاة الفجر في وقتهما تكون سبباً إلى رؤية الله جلَّ في علاه، (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) [طه:130]. وكما قلنا بأن الصلوات هي أفضل الطاعات، وأن الصلوات أعظم أركان الدين، وأعظمهما صلاة الفجر وصلاة العصر. وكما قلنا الصلوات الخمس سبيلٌ لرؤية الله جلَّ في علاه لأنها تحكم بإيمان المرء، وأعظمهما الصلاة الوسطى "صلاة العصر" وصلاة الفجر، وكانت سبباً عظيماً في رؤية الله جلَّ في علاه.

خالف بذلك الجهمية والمعتزلة، والحق أن الأشاعرة أيضاً خالفوا في ذلك وإن اظهروا أنهم يقرّون بالرؤية، وإقرارهم لا ينفعهم لأنهم إذا فسروا الرؤية فسروه على غير بابه ويكون في حقيقة أمرهم أنهم ينفون الرؤية، كما أثبتوا الكلام وفي حقيقة أمرهم عندما فسروا الكلام لله جلَّ في علاه كان الحقيقة أنهم أنزل من المعتزلة قولاً.

ثم قال: إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية. قال: الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، هذا وصفٌ لأهل السنة والجماعة الذين وصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنهم فرقة ناجية، هم الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)، وهم الذين قال فيهم النبي -صلى

الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي).

قال: أهل السنة والجماعة؛ "أهل السنة" لأنهم يتمثلون بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم، "والجماعة" الجماعة الذين يكونون على الحق وهذا سيأتي تفصيله إن شاء الله في الدرس القادم. قال: يؤمنون بذلك؛ كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، ثم قال: هم وسط؛ وأراد هنا أن يجلّي لنا معنى الوسطية كما قال الله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [البقرة:143]. فهم وسط بين اليهود والنصارى، الإسلام وسط بين الغالي والجافي، وسط بين المعتزلة والجهمية والأشاعرة من جانب آخر، وسط بين الخوارج وبين المرجئة، هم وسط بين الروافض وبين النواصب. فأهل السنة والجماعة وسط بين أهل البدع والضلالات، وهذا إن شاء الله يأتي تفصيله بعد ذلك في الدروس القادمة.

الفوائد المستنبطة:

- لكل نتيجة مقدمات لا بد من الإتيان بها.
- قد بلّغ النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمانة.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثاني والخمسون: وسطية أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات

قال المصنف: إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن ربه بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن هذه الأمة هي الوسط في الأمم. فهم وسطٌ في باب صفات الله سبحانه وتعالى وبين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسطٌ في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية.

فإذاً هنا وقف المصنف وقال: فإن الفرقة الناجية؛ والفرقة الناجية هي التي بيّن الله جلَّ في علاه على نجاتها، وأنها التي تنجو وأنها التي تنصر الدين، وهي التي تبقى على الحق ظاهرة على ما قال العلماء: بأن الفرقة الناجية أو الفرقة ظاهرة هي أهل الحديث

أو هي أهل السنة والجماعة. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

فهي فرقةٌ كتب الله لها النجاة للتمسك والعصمة بالكتاب وبسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً؛ كتاب الله وسنتي)، وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً) فكأنهم قالوا: وما طوق النجاة؟ فقال النبي: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ وإيّاكم ومحدثات الأمور).

قال: فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة؛ فأهل السنة والجماعة هي الفرقة الناجية، وما نجت إلّا بهذا الوصف أنها على السنة وأنها جماعة، والجماعة أن تكون على الحق ولو كنت وحدك، والسنة والجماعة لا تكون جماعة إلّا بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فهم الفرقة الناجية الذين يأخذون بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويظهرون بها على أهل البدع والضلالات، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الذين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثةٍ بدعة).

ولذلك قال الله تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) [النور:54]، وقال الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، وقال ربنا في كتابه: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]. وقال -صلى الله عليه وسلم-: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)، وقال الله تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور:63]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني فهو معي في الجنة).

فالذي عليه أهل السنة والجماعة؛ أن الفرقة التي كتب الله لها النجاة هي الفرقة التي تمسكت بما تمسك به الأولون، وسارت على نهجهم، وسبقت كما سبقوا، فتمسكت بكتاب الله وبسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وهذا حق الفضل الذي جعله الله لهذه الأمة، بأن الله كتب لها النجاة وكتب لها القيادة والسيادة والريادة، لأنهم أمة وسط يأخذون بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتاب من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل. إذاً هم على الدرب يسيرون، يطيعون الله ورسوله، تمسكوا بالكتاب والسنة فكانت نجاة لهم.

قال: ويؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريفٍ ولا تعطيل؛ هذا أصلٌ أصيل في آيات الصفات وأحاديث الصفات، يؤمنون بها من غير تحريفٍ ومن غير تعطيل. من غير تحريفٍ وهذا رد على الأشاعرة الذين يؤولون أكثر الصفات ويثبتون سبع صفات فقط، وهؤلاء يؤولونها خوفاً من التشبيه، وما الذي أوقعهم في التشبيه والله جلَّ وعلا يقول: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11]؟

ولا تعطيل؛ هذا إلماح وإفساد للجهمية المعطلة الذين عطّلوا أسماء الله الحسنى والصفات العلى، وأغلب المتقدمين يقولون بأن الجهمية كفرة؛ ابن المبارك وأحمد وابن عيينة، كلهم يكفِّرون الجهمية، يقولون لا يدخلون تحت قول النبي: (وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)، يقولون إن الجهمية من الكفار، كفروا وخرجوا من الملة. ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل؛ الذين بالغوا في الإثبات فشبّهوا.

وأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، بين أهل التعطيل الجهمية والمعتزلة؛ الجهمية الذين فروا من التشبيه إلى التعطيل فما أثبتوا اسماً ولا صفة، والحق أنهم شبّهوا الله بالعدم، لا فوق لا تحت لا اسم ولا صفة كالعدم. والمعتزلة أفراخ المعطّلة الجهمية وهم يقولون بقول الجهمية، لكنهم ينفون الصفة دون الاسم، يريدون أسماء لكنهم لا يثبتون الصفات، وهنا أيضاً أنكروا صفات الله جلَّ في علاه وقالوا هي مخلوقة، ولذلك كفّرهم بعض العلماء.

ولذلك قال الإمام الشافعي على القدرية الذين ينفون علم الله جلَّ في علاه: (خاصموهم في العلم فإن أثبتوا فقد خُصِموا وإن أنكروا فقد كفروا). والمشبهة الذين شبّهوا الخالق بالمخلوق، أوغلوا في الإثبات فقالوا: يدٌ كيد الخلق، عينٌ كعين الخلق، نزول كنزول الخلق. ونعيم ابن حماد قال بإجماع أهل العلم: (من شبّه الله بخلقه فقد كفر)، هؤلاء شبّهوا الله بخلقه لذلك كفروا.

وأهل السنة والجماعة قال: بل هم وسط في فرق الأمة؛ يعني التوسط بين الشيئين. ورد في الحديث: (خير الأمور أوسطها)، وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: (خير الناس النمط الأوسط الذي يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي) ذكره ابن المبارك عن طلحة عن علي. وقد مدح الله أهل التوسط بين الطرفين المنحرفين، ونهى الله عن الإفراط والتفريط، قال الله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) [الإسراء:29]، (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) [الفرقان:67].

ولذلك علماؤنا من علماء السلف كانوا يقولون: الدين هو بين الغالي بين الجافي، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إيّاكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم

الغلو في الدين)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي جاء عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً: (هلك المتنطعون).

والأمة الإسلامية وسطٌ بين الأمم؛ قال الله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [البقرة:143]، فهم خياراً، بل كانوا خياراً عدولاً توسطوا بين طرفين مذمومين؛ بين غلو النصارى وبين جفو اليهود. فهم وسط بين الفرقتين:

- فرقةٌ قد وسمت ربها ووصفته بالنقص والعجز؛ اليهود قالوا: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64]، اليهود قالوا: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) [آل عمران:181]، اليهود قالوا: بكى ربنا حتى أرمد.

- وأمّا النصارى فأتوا بخلق من خلق الله جلَّ في علاه فوسموه بسمات الله وجعلوه إلهاً، وقالوا بأن المسيح هو الله.

وأمة محمد هي وسط بين الأمتين، يعبدون الله على ما أمر ربنا جلَّ في علاه، ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم- بصفات الكمال والجلال، نزّهوه من صفات النقص والعيب، هذا بالنسبة للإلهيات.

والنبوات؛ فاليهود جفو، قتلوا الأنبياء وأهانوهم وانتقصوا قدرهم، كما قال الله تعالى: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء:157]؛ هم قتلوا يحيى وزكريا وأرادوا قتل عيسى -عليه السلام- (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ) [النساء:157]، والنصارى ألّهوه.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)، فكان أهل الإسلام في النبوات وسط بين جفاء اليهود وبين غلو النصارى. وحتى في حق الأنبياء؛ النصارى عبدوهم من دون الله، واليهود قتلوهم، وأهل السنة والجماعة وضعوا الأمر في نصابه قاموا بما أمر الله أن يعزروه وينصروه. ولذلك قال الله جلَّ وعلا: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110]، وقال: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) [البقرة:143]، قال -صلى الله عليه وسلم-: (أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله جلَّ في علاه)، فهم وسطٌ بين اليهود وبين النصارى.

هذه هي الأمة المرحومة، هذه هي الأمة التي رحمها الله جلَّ وعلا وخلقها وجعل لها مطلق القيادة والسيادة والريادة. وهم وسط أيضاً في باب الصفات بين الغالي وبين الجافي، وسط بين طرفين منحرفين، هم وسط خيار عدول بين المعطّلة وبين المشبهة. وأهل التعطيل الذين نفوا صفات الله جلَّ في علاه، بل نفوا الأسماء والصفات. وبين المشبهة الذين غالوا في الإثبات، فشبّهوا الخالق بالمخلوق، وكلاهما على كفر، ليس على الضلال "كلاهما على الكفر". وأهل السنة والجماعة قد أثبتوا صفات الله جلَّ في

علاه والأسماء من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تشبيه، فأثبتوها ولم يشبّهوا تحت قول الله جلَّ وعلا: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى:11].

الفوائد المستنبطة:

- وسطية أهل الإسلام، وهذه والله الوسطية الحقة.
- أهلك الأمم الغلو والجفو.
- تعظيم الله بإثبات الأسماء والصفات.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثالث والخمسون: وسطية أهل السنة والجماعة في باب أفعال الله

بل هم وسطٌ في فرق الأمة، كما أن هذه الأمة هي الوسط بين الأمم. فهم وسطٌ في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبّهة. وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم. وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية. وفي أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين الرافضة والخوارج.

الله أكبر ولله الحمد، وهذه دلالة على أن خيرية هذه الأمة متعلق بوسطية هذه الأمة. تكلمنا على وسطية هذه الأمة في الأسماء والصفات بين الجهمية المعطلة النفاة وبين المشبّهة، وأن الأمة الإسلامية وسط بين اثنين. ووقفنا عند المشبّهة أو الممثلة أهل التمثيل والتشبيه، فهؤلاء أيضاً ينقسمون إلى قسمين:

- أهل التشبيه والتمثيل الذين يشبّهون الخالق بالمخلوق فيقولون: لله عين كأعيننا، لله يد كأيدينا، لله وجه كوجوهنا، هذا تشبيه الخالق بالمخلوق.

- وقسم آخر أسوأ من هؤلاء، يشبّهون المخلوق بالخالق فيكسبون الأصنام صفات لله الرحمن سبحانه جلَّ في علاه، وكالذين شبّهوا عيسى بالله جلَّ في علاه، وشبّهوا أيضاً عزيراً بالله جلَّ في علاه.

والله جلَّ وعلا يقول: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:1-4]، قال الله جلَّ في علاه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ) [الشورى:11]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة:255]، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [سبإ:23]، وله المثل الأعلى سبحانه جلَّ في علاه (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) [النحل:74]. فأهل السنة والجماعة وسطٌ بين هؤلاء وبين هؤلاء، بين الذين يغالون في النفي والتعطيل وبين الذين يغالون في الإثبات، والله جلَّ في علاه لا يصل إلى صفاته أحد لذلك قال ابن عباس: لا تتفكروا في صفات الله وتفكروا في خلق الله جلَّ في علاه.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وهم وسطٌ في أفعال الله؛ طبعاً إذا القصد أفعال الله فهي أوسع من الكلام على القدر، لأن القدر من أفعال الله جلَّ في علاه، يعني هنا نقول وسطية حتى الاعتقاد في الربوبية، حتى في اعتقاد الربوبية ترى لهم الضلال والحيدة عن الطريق المستقيم والشرع القويم. عندنا أهل السنة والجماعة وسط بين الجبرية وبين القدرية؛ الجبرية أسوأ من القدرية، لأنه لا يمكن أن تنتظم حياة وتستقيم بهذا الجبر أو هذا الفكر الضال المعطّل.

الجبرية نفوا أفعال الله جلَّ وعلا، نفوا أفعال العباد جميعاً وزعموا أن كل الأفعال هي أفعال رب العباد، كل فعلٍ هو لرب العباد. لذلك يقولون: كل ما في الكون من الله جلَّ في علاه، كل ما تراه حتى من غير ذلك فهم ينسبونه لله جلَّ في علاه، ويقولون مجازاً ينسب للعبد. وهم الذين قالوا:

القاه في اليم مكتوف اليدين *** فقال إياك إياك أن تبتل بالماء

فعندهم الفاعل حقيقةً هو الله جلَّ في علاه وليس العبد، فالعبد كالريشة في مهب الريح وكحركة المرتعش، والكل فعل الله جلَّ في علاه. فلو قلنا هذا، يلزم من هذا التبني أمر خطير ما هو؟ الإجابة أن كل فعلٍ على الطاعة، كل الأفعال على الطاعة؛ يعني الزنا طاعة، شرب الخمر طاعة، والسب طاعة، والقتل طاعة، كل هذا طاعة لأنها من أفعال الله جلَّ في علاه.

كلها من أفعال الله جل في علاه، إذاً فكلها طاعة، وهذا الذي جر وحدا ببشر المريسي محامي إبليس أنه قال عندما سمع قول الله جلَّ وعلا: (يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، قال: قال لو كنت مكانه لقلت أنت. فهو يرى أن هذا فعل الله سبحانه جلَّ في علاه تعالى الله علواً كبيراً عمّا يقول الظالمون. نعم هذا هو قول هؤلاء لذلك يقولون: (.) فعلاً ما يختاره اختاره ربي، ففعلي كله طاعة. هذا مذهب -أعوذ بالله- تخالفه الفطر السليمة والسديدة.

دخل رجل على امرأته فوجد رجلاً، فقام بالسيف يعلوه -عرب تعرفون-، قال: مهلاً لا تعجل عليّ فإني والله ما فعلت ذلك إلّا بقدر الله، قال: نعم سمعت وأطعت آمنت بالله، فلمّا قال ذلك وامرأته نظرت إلى هذا الباب قالت: والله إن هذا لمذهبٌ سوء.

ولفظ الجبر لفظٌ مبتدع أنكره السلف؛ كالثوري والأوزاعي وأحمد، كلهم قالوا: الجبر لا يكون إلّا من عاجز. الجبرية هؤلاء أسوأ الخلق اعتقاداً، والحق أنهم ليسوا سواء: فمنهم المتوسطة ومنهم الكبرى الجهمية، والحق بأن الخالصة الكبرى هذه الجهمية التي لا تنسب للعبد كسباً بحال من الأحوال. الأشاعرة الجبرية متوسطة، يعني يخف جبرهم لكنهم جبرية أيضاً، يعني يخالفون أهل السنة والجماعة بذلك.

الجبرية الأشاعرة ينسبون كسباً للعبد، لكنهم أيضاً في مسألة الأسباب والعلل والحكم كل ذلك يضلون فيها؛ عندما تقول: ألقيت الحجر فكسر الزجاج، لا يقولون هم بذلك: ألقى الحجر فانكسر الزجاج عند التقاء الحجر بالزجاج. ما عندهم الكلام عن الأسباب ولا العلل ولا الحكم في هذا الباب، فضلوا ضلال مبين. يعني لو لم يكن للأشاعرة مصيبة إلّا هذه المصيبة لكفت، وإلّا مصائبهم أكثر من ذلك، فكيف يقولون بأن الأشاعرة من أهل السنة والجماعة؟ ما هذا الضلال؟ والله هذا ضلال، من قال بأن الأشاعرة من أهل السنة والجماعة فقد ضل، يعني لو ما عندهم إلّا هذا الضلال لكفى. وأهل السنة والجماعة أيضاً هم وسطٌ.

أمّا القدرية فهم من النفاة "نفاة القدر"؛ منهم من المعتزلة، منهم الغالون الذين ينفون علم الله جلَّ في علاه وينفون فعل الله جلَّ في علاه وتقدير الله جلَّ في علاه. هؤلاء الذين ورد فيهم الأحاديث والحديث الثاني ضعيف عن عمر وغيره: (أن القدرية مجوس هذه الأمة)، مذهبهم من (.) ما يكون فإنهم يقولون: أفعال العباد وطاعة العباد ومعاصي العباد لا تدخل في قضاء الله، لم يقدرها الله جلَّ في علاه. ومنهم من قال: لم يقدرها ولم يعلمها، بل قالوا: إن الله لا يقدر على أفعال العبادة ولا شاء منها شيئاً -أعوذ بالله-.

ولذلك هم يجبرون الله جلَّ في علاه على إثابة الطائع وتعذيب العاصي، فجعلوا الناس خالقين مع الله جلَّ في علاه، فهؤلاء أثبتوا خالقاً مع الله جلَّ في علاه ويقولون: وجوباً على رب العباد إثابة الطائع وتعذيب العاصي. وهذا إشراك بالله جلَّ في علاه في توحيد الربوبية، أشركوا في توحيد الربوبية لأنهم جعلوا خالقين مع الله، جعلوا كل عبدٍ الخالق لفعل نفسه، يعني أفعال العباد ليست تحت مشيئة الله جلَّ في علاه ولا يعلمها الله جلَّ في علاه.

ومنهم الأخف من القدرية الذين أثبتوا العلم، ولكنهم نفوا التقدير. لذلك الإمام الشافعي: خاصموهم في العلم فإن أقرّوا فقد خُصِموا وإن أنكروا فقد كفروا؛ يعني إن أقروا بعلم الله السابق فقد خُصِموا، وإن أنكروا فقد كفروا. وهؤلاء هم الذين يلتجئون هذه البدعة

العظيمة، وجاءت فيهم أحاديث كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (القدرية مجوس هذه الأمة؛ إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم).

ولذلك لمّا جاء الرجلان إلى ابن عمر يكتنفانه قالوا: عندنا رجل يقول إن الأمر أنف، فقال: أبلغه أني منه بريء وأنه مني بريء، ثم ذكر حديث عمر وقال: إن النبي سأله جبريل عن الإيمان، قال: (أن تؤمن بالله، قال: والقدر خيره وشره).

ولذلك الحديث قال النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره)، في روايةٍ وإن كان فيها ضعف: (حلوه ومره). وأيضاً قد قال الصاحب الجليل لابنه: يا بني وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، إن مت على غير ذلك فأنت في النار.

لمّا جاء الرجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في المقبرة قال: يا رسول الله أرأيت ما نعمل؟ أفي أمرٍ قد انقضى ومضى؟ أم الأمر أُنُف؟ فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا فيما مضى وانقضى)؛ يعني عرف أهل الجنة من أهل النار، قال: ففيمَ العمل؟ قال: (اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خلق له). وهذه دلالة على أن الله جلَّ وعلا كتب كل شيء عندما قال: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله أول ما خلق القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة).

وأمّا أهل السنة والجماعة فوسطٌ بين القدرية وبين الجبرية، فإن أهل السنة والجماعة يقولون: للعبد فعل وللعبد كسب ينسب له، وأن الثواب والعقاب مرتبٌ على فعل العبد، وللرب فعل، وفعل العبد لا يستقل بذاته عن فعل الرب جلَّ في علاه. وللعبد مشيئة، وأيضاً للرب مشيئة، ومشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب؛ (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) [التكوير:29]. والله خلق أفعال العباد، وما أراده الله لابد أن يكون؛ (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانعٍ وصنعته).

فأهل السنة والجماعة وسط بين الجبرية وبين القدرية؛ يثبتون القدر ولا يبالغون في الإثبات، وأيضاً يثبتون الشرع، لا يضربون الشرع بالقدر. فالجبرية تضرب الشرع بالقدر، والقدرية تلغي القدر وتتمسك وتعظّم الشرع، لذلك كانوا أفضل حالاً من الجبرية.

وأهل السنة والجماعة ينظرون بعين القدر وعين الشرع "بعينين جميلتين"، لذلك كانوا على الجادة وكانت النجاة لهم، فنظروا بعينين جميلتين: بعين القدر وعين الشرع؛ ففي الشرع يقولون: سمعنا وأطعنا نحن عباد لله، وعين القدر يقولون: إن ما أراد الله لا بد

أن يكون، وبعينهم على القدر يعلمون بأن الله سبّب الأسباب والمسببات، وأن الله جعل النتائج مرهونة بالمقدمات. هذا الأصل الأصيل فيها، فأهل السنة والجماعة وسطٌ بين الجبرية وبين القدرية وكلاهما على ضلالٍ مبين.

العقيدة الواسطية

الدرس الرابع والخمسون:

وسطية أهل السنة والجماعة في باب الوعيد

قال المصنف: وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية والخوارج وغيرهم.

وفي باب أسماء الإيمان والدين من الحرورية المعتزلة، وبين المرجئة والجهمية.

وفي أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين الرافضة والخوارج.

قال: وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية؛ "وعيد الله" لأن الله جلَّ في علاه قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]، وأن الله جلَّ وعلا قال: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) [النساء:93]. ولقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: من قتل نفسه بشيءٍ عُذِّب به، ولقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لعن الله من أكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه، وأيضاً قال: لُعِن في الخمر عشر. فإذاً هذه الأحاديث التي جاء فيها الوعيد، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً: ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب.

فكل هذه الأحاديث تمسك بها الوعيدية، والمرجئة أخذوا الوعد وتمسكوا به، كلٌ أخذ طرفاً.

فأمّا المرجئة فقد أخذوا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة، وأيضاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إن جبريل عليه السلام بشرني أنه من مات من أمتي على "لا إله إلّا الله" دخل الجنة، حتى قال له أبو ذر: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر.

فأخذ المرجئة بطرف يد الأحاديث ونظروا إليها نظرة الأعور. والخوارج الوعيدية أخذوا بالثانية؛ اتخذوا بهم الأحاديث الأخرى وعملوا بها. فهؤلاء نظروا بعين عوراء وكفّروا الناس، وهؤلاء نظروا بعين عورة وجعلوا إيمان جبريل كإيمان آحاد الأمة وأن من عصى الله جلَّ في علاه فلا تؤثر المعصية أو لا يؤثر الذنب ما بقي التوحيد. فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء.

أمّا المرجئة فقد أخذوا كما قلنا بكل أحاديث الوعد:

- من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة.

- إن الله يقبض من النار قبضةً يخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وإن لم يعمل خيراً قط.

- والثالث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأبي ذر: نعم دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر.

وأمّا الوعيدية فقد أخذوا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:

- من غشنا فليس منا.

- ليس منا من حمل علينا السلاح.

- لُعِن في الخمر عشر.

- قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: من حلف بغير الله فقد كفر.

- من ترك الصلاة فقد كفر.

أهل السنة والجماعة جمعوا بين الأمرين؛ فإن أهل السنة والجماعة يرون بأن المؤمن إذا عصى الله جلَّ في علاه فهو مؤمنٌ ناقص الإيمان، إذا فعل كبيرة فهو مؤمن ناقص الإيمان، وإن فعل صغيرة فإن الصغائر تُجَب بالحسنات، (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) [هود:114]. لكنهم يقولون: الإيمان قولٌ وعمل، يعلو ويزداد بالطاعات، وينقص بالمعاصي.

الخوارج أيضاً يقولون بذلك لكنهم يقولون: لا نقصان؛ المسألة أن الأصل يزول. وأمّا أهل المرجئة فيرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب. وكما قلت هذه عين عوراء أولى وعين عوراء ثانية؛ فأمّا الخوارج فأخذوا بكل أحاديث الوعيد وكفّروه، والمعتزلة قالوا هو بمنزلة بين المنزلتين.

وأمّا المرجئة قالوا إن إيمان الزاني وشارب الخمر والسارق كإيمان جبريل، لا سيما وأن النبي الأمين حكم له الجنان. النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال عن مالك بن

الدخشم: قال: لا إله إلّا الله، خالصاً من قلبه. وقال عمّن يشرب الخمر نهاراً: ما رأيته إلّا يحب الله ورسوله. فهم لم يأخذوا بميزان العدل، طاشت الكفة فكان فيها الغلو والجفو.

وأمّا أهل السنة والجماعة فكانوا وسط بين فريقي الضلالة: بين الخوارج الذين يكفّرون بالمعصية، وبين المرجئة الذين يجعلون الإيمان كاملاً وإن وجدت المعصية. وأهل السنة والجماعة وسط بين فريقي الضلالة، فقالوا العاصي ناقص الإيمان لكنه مؤمنٌ بتوحيده، نحبه من وجه ونبغضه من وجه. الخوارج كفّروه وأبغضوه من كل وجه، المرجئة علوا بإيمانه إلى إيمان جبريل وأحبوه من كل وجه.

وأهل السنة والجماعة قالوا: بل نحبه من وجه ونبغضه من وجه؛ فاعل الكبيرة يفسق بكبيرته إن لم يتب منها، فإن تاب منها فإنه لا يفسق بها.

واستدلوا على ذلك بكثير من الآيات والأحاديث التي أثبتت بأن فاعل المعصية لا يكون كافراً، وأخذوا الأدلة التي أخذت بها الوعيدية؛ كقاتل النفس أنهم قالوا بأن الله جلَّ وعلا بيّن أنه في كبيرةٍ عظيمة والكبيرة هذه يكفر بها لأنه قال: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا) [النساء:93]، فقالوا بأن عبادة قال: بايعنا النبي: على السمع والطاعة، والنصح لكل مسلم، قال: فمن أتى من هذه القاذورات من شيء فأقيم عليه الحد فهو كفّارة له. وكان قبل ذلك قال: لا أدري هل الحدود كفّارات أم لا؟ لكن قال: هو كفّارةٌ له. فقال أهل السنة والجماعة: إذاً الكبائر لها كفّارات، وما كان له كفّارات لا يكون كافراً.

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: برئت الذمة ممن جلس بين أظهر المشركين، وقوله: من غشنا فليس منا. كلها هذه من عند الله جلَّ في علاه، أحاديث جاءت وحياً للنبي -صلى الله عليه وسلم-، أيضاً جاءت أحاديث أخرى وفسرتها.

قال الله جلَّ في علاه: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216]، فتكون البراءة هنا من العمل وليست البراءة من ديانة الشخص؛ وإلّا خالد بن الوليد لمّا قتل الصابئة عندما قالوا: صبأنا، أخطأ اجتهاداً فقتلهم، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد. فتكون براءة من الفعل، ليس براءة من الشخص. والله جلَّ في علاه سمّى طوائف المؤمنين الذين يتقاتلون وقال عنهم: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) [الحجرات:9]، فكان صلحاً بين طائفتين من المؤمنين. والنبي قال عن الحسن: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين.

فهذه دلالة واضحة جداً على أن الأدلة أو الآيات أو الأحاديث التي جاءت في الوعيد لا بد أن تحمل على الأحاديث والآيات التي جاءت في الوعد، وأن الأدلة والآيات

والأحاديث التي جاءت في الوعد تحمل على الأدلة والآيات والأحاديث التي جاءت في الوعيد، ويؤلف بينهما.

والتأليف بينهما عملٌ صالحٌ، وهو العلم بحق، وهذا الذي فعله أهل السنة والجماعة فكانوا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هم وسطية حقاً بين طائفتي ضلالة: بين الوعيدية وبين المرجئة.

تعلمون بأن المرجئة هم الذين نُسِبوا إلى الإرجاء، وهو التأخير، لأنهم أخّروا العمل، ما جعلوا العمل من الإيمان. لكن المرجئة طوائف -ونحن لسنا بصدد التفصيل فيهم- من هؤلاء الطوائف الذين قالوا إن الأعمال ليست من الإيمان مع القوانين المبتدعة، في هذا القول يعني يقولون بأن الأعمال كليةً ليست من الإيمان.

طبعاً تعلمون أن يخرج من هؤلاء مرجئة الفقهاء لأنهم وإن قالوا بأن الأعمال ليست من الإيمان، لكنهم قالوا بأن الأعمال تؤثر في الإيمان، وهذه هي الثمرة. ولذلك هذا الذي جر شارع الطحاوية أن يقول الخلاف بينهما (بين مرجئة الفقهاء وبين أهل السنة) خلاف لفظي، وهذا خطأٌ بيّن أيضاً، ليس خلافاً لفظياً. الفرقة الثانية منهم الذين يقولون بأن الإيمان مجرد التصديق، ولسنا بصدد التفصيل.

لكن أهل السنة والجماعة وسط بين فرقتي الضلالة: الوعيدية والمرجئة، أهل السنة والجماعة نظروا بعينٍ بعينين جميلتين في كل هذه الأدلة.

قال: وفي باب وعيد الله بين المرجئة؛ فذكر طائفة من طواف البدع وهي من أشد أهل البدع ضلالاً "المرجئة". والمرجئة نسبة إلى الإرجاء، وهذا الإرجاء أصله هو التأخير، وأطلق عليه المرجئة لأنهم أّخّروا الأعمال عن الإيمان، بالتفاوت طبعاً ما بين الدرجات وطبقات المرجئة. حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق ولو أتى بالكبائر كلها، وأن الناس في الإيمان سواء، بل مع الملائكة وليس الناس فقط؛ يعني هم يرون أن إيمان جبريل كإيمان آحاد الأمة، يرون وأن إيمان آحاد الناس كإيمان الانبياء أيضاً، وأن الأعمال الصالحة ليست من الإيمان. وهم يردون الوعيد ويردون العقاب بالكلية، لمن آمن طبعاً، ويرون بأنه لا يعذّب أحد من أهل الإيمان.

وهذا مذهبٌ عقيم باطلٌ ترده الآيات الواضحة؛ الله تعالى ما ذكر الجنة إلّا وذكر معها الإيمان والعمل الصالح، وقد قال الله جلَّ في علاه: (أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الأعراف:43]، والسنة كثير في ذلك؛ قال: اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خلق له. والحق أن هذا مذهبٌ خبيثٌ جداً وعقيمٌ جداً، من أخبث ومن أفسد المذاهب، لأنه في نهايته سيؤدي إلى الانسلاخ الديني من الدين. والمرجئة لا تكفر؛ أحمد لم يكفِّرها

والشافعي، المذاهب لم تكفِّر المرجئة. بل من المرجئة من كان فيهم العدول كمرجئة الفقهاء؛ هذه المرجئة الأولى كما قال علماؤنا. يعني هم طوائف:

- طائفة المرجئة الأولى الذين قالوا بأن الأعمال ليست من الإيمان، طبعاً هذا تغريراً شارع الطحاوية الذي قال بأن الاختلاف هنا اختلاف لفظي. وهذا أمرٌ صراحةً ضعيفٌ جداً ضئيلٌ جداً، الاختلاف يكون لفظياً وحقيقياً، اختلاف حقيقي أصلاً. يقولون بأن: الأعمال ليست من الإيمان، والعجيب أنهم يقولون: لكن له ثمرة؛ يعني يؤثر في الإيمان إيجاباً وسلباً. فقد يقولون بأن الله يعذّب من يعذّبه من أهل الكبائر بالنار لأنهم قد أساءوا بفعل الكبائر، ويخرجهم من النار بالشفاعة. وهم يرون أيضاً أن الإيمان لا بد فيه من التصديق ولا بد فيه من التلفظ باللسان، وهنا يقول بعمل القلب أيضاً.

وهذه الطائفة التي تقول بذلك هم مرجئة الفقهاء، وهم يرون أيضاً أن الناس في أصل الإيمان على السواء، وأهله في أصله سواء. وهذا خطأٌ بيّن، بل حتى في أصله يتفاوتون؛ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة:260]، فهنا علو أصل الإيمان "بالعلم يصل إلى الطمأنينة".

- وأمّا الفرقة الثانية، وهذه أخبث الفرق، الذين قالوا: ما الإيمان إلّا مجرد التصديق بالقلب. وهذا غلو، حتى قالوا: وإن لم يتلفظ بالإيمان باللسان فإن مجرد التصديق في القلب يعد إيماناً، وهذا القول -أعوذ بالله- من الفساد بمكان.

فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة: تصديقٌ بالجنان، قولٌ باللسان، عملٌ بالأركان. وسنبيّن إن شاء الله أن أهل السنة والجماعة وسطية بين هؤلاء وهؤلاء، لكن هؤلاء يتمسكون ببعض الأدلة وهؤلاء يتمسكون ببعض الأدلة.

فالذين يقولون بالوعيد، وطبعاً الوعيدية هؤلاء أصلهم المعتزلة. فمن أصول المعتزلة الوعيد، وهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلّا إذا تاب وأسلم. وهم لا يرونه كافراً في الدنيا، يقولون: منزلة بين المنزلتين. وهذا هذا يعتبر من الجبن بمكان ومن التعمية، لكنهم في حقيقة أمرهم أنهم يكفّرونه. حقيقة الأمر عند المعتزلة أنهم يكفّرونه لأنهم يرونه في الاخرة خالداً مخلداً في نار جهنم، يقولون: في الدنيا لا نقول كافر لا نقول مؤمن، هو منزلة بين المنزلتين. ما المنزلة بين المنزلتين؟ لا ترى تفسيراً.

لكنهم يكفّرونه، لأنهم يقولون في الآخرة يخلّد في نار جهنم. وإذا قلت بهذا، فإنهم أيضاً يكذّبون بالشفاعة؛ يعني أحاديث الشفاعة وصلت التواتر في هذا الباب، وهم يكذبون بأحاديث الشفاعة لأنهم يقولون: ما دام أوعدهم فلا يجوز أن يعذّبهم ويخلف وعيدهم.

وهذا استغفر الله يعني هم طبعاً يلزمون الله بأشياء ويوجبون عليه أشياء -نعوذ بالله من الخذلان-، فهم يوجبون على الله إثابة المطيع وعقاب المذنب العاصي.

وهؤلاء طبعاً يتمسكون ببعض أدلة الوعيد؛ كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ليس منا من حمل علينا السلاح، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، برئت الذمة ممن جلس بين أظهر المشركين. وعلى هذه الشاكلة؛ ثنتان من أمتي هما بهم كفر: النياحة على الميت والاستسقاء بالنجوم، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: من حلف بغير الله فقد كفر. فكل هذه الأدلة التي على نفس الشاكلة يتمسكون بها ويقولون بأنها كفرٌ أكبر.

وكلها مردودة؛ يعني في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أتاني جبريل فبشرني أنه من مات على "لا إله إلّا الله" من أمتي دخل الجنة، قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر، وعلى رغم أنف أبي ذر.

وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: الحدود كفّارات؛ حديث عبادة الطويل، فمن أتى من هذه القاذورات من شيء فأقيم عليه الحد فهو كفارةٌ له، وبيّن أنه إن لم يكن، فهو في المشيئة. فكلها أدلة واضحة جلية في هذا الباب. وقد قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]، وقال الله تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) [الزمر:53].

وأمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: برئت الذمة؛ فالبراءة براءتان: براءةٌ من العمل وبراءةٌ من ذات الشخص أيضاً ديناً. فبراءة العمل كما قال الله جلَّ وعلا: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216].

وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قتل خالد -رضي الله عنه- من قالوا: صبأنا صبأنا، يقصدون أنهم دخلوا في دين الإسلام لكنه لم يعلم ذلك، قال: أو تجرؤون؟! فقتلهم، فقال النبي: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد، وحتى أنه لم يعزله.

الغرض المقصود أنه برئ من العمل، فالبراءة براءة من العمل؛ ليس منا من حمل علينا السلاح، لا ترجعوا بعدي كفاراً، كفر دون كفر لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتين من المؤمنين، أو قال: من المسلمين، فلقبّهم بالإيمان مع قتالهم لبعضهم البعض.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: فتنبت نبتةٌ يقاتلها أولى الطائفتين بالحق؛ يعني كلاهما معه حق، وأولاهما بالحق هو علي بن أبي طالب ومن معه، قتلوا الخوارج. فكل الأدلة التي تمسكوا بها نظروا فيها بعينٍ عوراء، لم ينظروا بعينين جميلتين، والأصل أن المؤمن يرى بعينين جميلتين.

وأمّا الذين يتمسكون بالوعد أيضاً ينظرون بعين العوراء، والأدلة التي تثبت أن التوحيد ينجي صاحبه ويدخله الجنة؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: من قال: لا إله إلّا الله، دخل الجنة. قال: من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة، من قال: لا إله إلّا الله، خالصاً من دخل الجنة. فتمسكوا بها وتمسكوا بقول الله جلَّ في علاه: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) [الأنفال:17]، لكن هذا على مسألة الجبر -نبعد عنها في هذا الباب-.

أيضاً تمسكوا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: جاءني جبريل فبشرني أنه من مات من أمتي على "لا إله إلّا الله" دخل الجنة، قال أبو ذر: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، ثلاثاً. وفي الثالثة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر وعلى رغم أنف أبي ذر. هؤلاء أخذوا هذا الطرف، ولذلك قالوا: من كان له الإيمان فهو في الجنان.

والحق أن أهل السنة والجماعة تمسكوا الدليلين وبالطرفين ونظروا بعينين جميلتين، قالوا: من باع السلاح، من باع الخمر أو شرب الخمر، من سرق، من أتى الزنا فهو مستحقٌ للعذاب، ومن أتى حداً في الدنيا يقام عليه الحد، وإلّا فهو مستحقٌ للعذاب يوم القيامة.

لكنه في المشيئة، إن شاء عذّبه وإن شاء أدخله الجنة من أول وهلة، ولا يخلّد في نار جهنم كما يقول الخوارج والمعتزلة، لأن التوحيد مانعٌ من موانع التخليد في النار، التوحيد يمنع الخلود في النار. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث القبض الطويل: قال الله تعالى: شفع الملائكة، شفع النبيون، شفع المؤمنون، بقيت شفاعة أرحم الراحمين. فيقبض قبضةً فيخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وإن لم يعمل خيراً قط. طبعاً هذه على تأويلها الذي خصصت به القول قبل ذلك، لأن "لم يعمل خيراً قط" هذه ليست على بابها.

فكلها تثبت أنه مستحقٌ للوعيد وللعذاب، وقد يغفر الله له من أول وهلة. ومن غلبت سيئاته على حسناته فهو في المشيئة، ولكنه بالإجماع لا يخلّد في نار جهنم، وأنه يخرج بشفاعة المؤمنين وشفاعة النبيين والمرسلين والملائكة الكرام وبشفاعة رب العالمين. وبهذا يكون الجمع بين أدلة الوعد والوعيد، وتكون أهل السنة والجماعة حقاً وسط بين طائفتين ضالتين من الابتداع بمكان: طائفة جعلت إيمان آحاد الأمة كإيمان جبريل،

وطائفة قالت بأن الإيمان يذهب كليةً. وأصل النزاع بين الطائفتين "مسألة التصوّر في الإيمان"، على الطائفتين مع ضلالهم شيئاً واحداً.

وأهل السنة والجماعة يرون الإيمان حقيقة مركبة، لذلك الخوارج يرون إمّا أن يبقى كله أو أن يذهب كله. وأهل السنة والجماعة لمّا قالوا بأنه حقيقة مركبة، قالوا: قد يجتمع -وهذه هي الفقهية المهمة في هذا الباب- في الإنسان إيمانٌ وكفر، برٌ وفجور، إخلاصٌ وصدقٌ ورياءٌ وفسوق، ولذلك يحب من وجهه ويبغض من وجهه، وهذا الأصل في ذلك. لذلك قال: وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم؛ وهؤلاء الذين لهم غلو.

إذاً أهل السنة والجماعة وسطٌ بين غلوٍ وبين جفو، والوسط عدول، وفيها فقه مهم جداً وهو أن الاعتقاد التام لا يكون إلّا بلم شمل الأدلة وعدم النظر بعين العوراء، والتئام الأدلة واشتمال النظر إلى الأدلة يصل بالمرء إلى الاعتقاد (**). هذا باب اختبار أيضاً لعلماء الأمة، ولأن الله يفرّق بين علماء الأمة؛ من له نظر، من له اجتهاد، من ينظر بالعينين الجميلتين، من يكون هوى النفس هو الذي تتحكم فيه، كل ذلك اختبارات وابتلاءات. والله جلَّ في علاه يختبر عباده، وله في ذلك حكم وشؤون سبحانه جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

- سبب ضلال الفرق عدم استيعاب الآثار.
- أهل السنة وسطٌ عدول.
- لا يخرج أهل البدعة عن جفوٍ وغلو.

العقيدة الواسطية

الدرس الخامس والخمسون:

وسطية أهل السنة والجماعة في: ـ أسماء الإيمان والدين

ومعنى قول المصنف: وفي أسماء الإيمان والدين؛ أي هؤلاء تنازعوا في الأسماء والأحكام، بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية؛ أمّا الحرورية وهم الخوارج، طبعاً تعلمون أن "حرورية" نسبة إلى قرية حروراء في العراق، لأنهم خرجوا على علي بن أبي طالب. فهنا الحرورية الخوارج بالنسبة لأسماء الدين والأحكام، فاعل الكبيرة عندهم كافر ومخلّد بنار جهنم. والمعتزلة يسمونه فاسقاً ويجعلونه منزلة بين المنزلتين.

فالفارق بينهما في الدنيا؛ أمّا في الدنيا يستحل الخوارج أموالهم وأعراضهم ودماءهم، المعتزلة ليسوا كذلك؛ يجعلونهم منزلة بين المنزلتين، فهم لا يستبيحون دماءهم ولا عرضهم، لكن في الآخرة عندهم هم مخلّدون في نار جهنم، وطبعاً هم يقولون المنزلة بين المنزلتين.

الخوارج والمعتزلة يقولون: من الدين والإيمان قولٌ وعمل واعتقاد، لكن عندهم الإيمان شيءٌ واحد، هو قول وعمل واعتقاد لكنه لا يزيد ولا ينقص، فعندهم إمّا ينقص فينقص من أصله. ففاعل الكبيرة عندهم يصير كافراً، زال إيمانه من أصله. طالما أنا بينت الأسبوع الماضي الأدلة التي يتمسكون بها في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن.

قالوا إن لم يكن مؤمناً فهو كافر، والمعتزلة كذلك يقولون بأنه منزلة بين المنزلتين لكنهم يرونه مخلّداً في نار جهنم في الآخرة، أما في أحكام الدنيا فلا يستبيحون ما يستبيحه الخوارج، فالخوارج في الدنيا حكموا بكفر العاصي واستحلوا دمه وماله وعرضه.

المرجئة والجهمية هؤلاء الذين يقولون بأن ليس من الإيمان الأعمال؛ إقامة الطاعة أو ترك المعصية ليست من الإيمان، ولا تفيد في الإيمان شيئاً، ويجعلون إيمان آحاد الناس كإيمان جبريل. والفرق بينهما: أن المرجئة يقولون الإيمان مجرد التصديق يعني في القلب، وأمّا الجهمية فهم أسوأ من الشيطان، يقولون بأن الإيمان مجرد المعرفة، ولذلك يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب. إذاً نحن بين طائفتين: طائفة فيها غلو وطائفة فيها في الأسماء والأحكام.

بالنسبة للأسماء والأحكام فإن:

◆ الحرورية الخوارج والمعتزلة يرون فاعل الكبيرة كافر:

- أمّا في الدنيا فالمعتزلة يرونه في منزلة بين المنزلتين.

- وأمّا الخوارج فيرونه كافراً يستحلون ويستبيحون دمه وماله وعرضه. هم طبعاً أخذوا عبد الله بن خباب بن الأرت فقتلوه وبقروا بطن زوجته وقتلوا طفلها. فأخذوا رجلاً عالماً وعلم أنهم من الخوارج، فقالوا له: من أنت؟ وما أنت؟ قال: مشركٌ مستجير. ما قال: مسلم، لم يعلم ماذا سيحدث معه، قال: مشركٌ مستجير. فلمّا قال: مشركٌ مستجير، عملوا بقول الله جلَّ وعلا: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) [التوبة:6]، فتركوه وأسمعوه القرآن، فأنقذه الله بعلمه.

◆ وأمّا المرجئة فإنهم يرونه كجبريل.

وهؤلاء يحكمون له بالخلود في النار في الآخرة، وهؤلاء بالجنان ما دام موحداً. طبعاً الجهمية على المعرفة عندهم في الإيمان، وأما هؤلاء (المرجئة) على ما هم عليه من الخبط، ويقولون بأنه للتصديق فقط.

ما زلنا مع الوسطية إكمالاً في قول المصنف: وفي أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية. وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين الرافضة وبين الخوارج. الحرورية -كما قلنا- نسبة إلى قرية حروراء، وهم الذين قاتلهم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-، والذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، ثم قال: تنبت نبتة سوء يقتلها أولى الطائفتين بالحق، والكلام على علي بن أبي طالب.

والمعتزلة هم أصحاب واصل بن عطاء، اعتزل من مجلس الحسن البصري، وأخذ يقرر أن مرتكب كبيرة لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين المنزلتين، فقال الحسن: قد اعتزل عنا واصل. ويلقبون أيضاً بالقدرية المجوسية، وهؤلاء من أعظم أصولهم الكلام على التوحيد، هم لقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد لأنهم يقولون بوجوب الأصلح على الله جلَّ في علاه؛ يقولون بأنه يجب على الله أن يثيب الطائع وأن يعاقب العاصي، فهم الذين يقولون بأنهم خلقوا أنفسهم. وهؤلاء اشتركوا جميعاً بنفي الصفات، ينفون صفات الله جلَّ وعلا، ويقولون بأن القرآن مخلوق محدث، وينكرون الشفاعة وأيضاً ينكرون رؤية الله يوم القيامة.

ويقولون بأن فاعلٍ كبيرة في منزلة بين المنزلتين، لكن حكمه في الآخرة بأنه مخلّد في نار جهنم، ووفقوا الخوارج في ذلك. والمرجئة قالوا بأنه مؤمن وإيمانه كإيمان جبريل. وكلٌ منهم تعلق ببعض الأحاديث "أحاديث الوعد والوعيد"، وهذا فصّلناه في الأسبوع الماضي بشرح الفرق بينهما.

- الصحابة رضي الله عنهم

أما في قوله: وفي أصحاب رسول الله؛ الصاحب: هو كل من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في التعريف المشهورة "من رأى النبي"، هم يقولون "من لقي" من أجل ألّا يخرج ابن أم مكتوم. والحق هو أن نقول: حتى لو قال: من رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ومات على ذلك وهو مؤمن أو مات على الإيمان فهو الصاحب، ولا يشترط في ذلك طول المدة أو قلة المدة، هذا رداً على ما يتبناه (**).

رد على طالب: المعتزلة يقولون إنه في منزلة بين المنزلتين، والخوارج يقولون بأنه كافر. وقلنا الفرق بينهما في الدنيا تحليل الدم والمال والعرض عند الخوارج، وفي الآخرة في النار يخلد فيها. ويتمسكون بأحاديث الوعيد؛ في قول النبي: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)، وقول النبي: (ثنتين من أمتي هم بهم كفر)، وقوله: (من حلف بغير الله فقد كفر)، يأخذون بهذه الأحاديث. والآخرون يقولون ما دام التوحيد معه فهو في الجنة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة)، وقوله: (يقبض قبضة من النار يخرج فيها كل من قال "لا إله إلّا الله" ولم يعمل خيراً قط).

أمّا بالنسبة للصاحب فهو: كل من صحب النبي -صلى الله عليه وسلم-، كل من رأى النبي، كل من لقي نبي ومات على الإيمان، حتى لو تخلل ذلك الردة ومات على الإيمان. وكما صدّرت الباب فإن المسألة ليست على شرطية طول الصحبة أو عدم طول الصحبة كما اشترط (**). فالصاحب: هو كل من رأى أو لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمناً به ومات على ذلك.

أهل السنة والجماعة بين الخوارج والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وسط عدول، يقولون المؤمن الذي فعل الكبيرة هو فاسقٌ بكبيرته مؤمن بتوحيده وطاعته، وهو مستحقٌ للعذاب لكنه بمشيئة، إن شاء غفر له وأدخله الجنة من أول وهلة، وإن شاء عذّبه.

أيضاً أهل السنة والجماعة وسط في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وحب الصحابة دين ندين الله به، هم وسط في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين الرافضة وبين الخوارج.

الروافض جاءت من الرفض والترك، وسمّوا بذلك لأنهم قالوا لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين): تبرأ من أبي بكرٍ وعمر، تبرأ من الشيخين. قال: أتبرأ من وزيري جدي؟ فرفضوه، انظروا إلى هؤلاء الخبثاء قال: معاذ الله، وزيري جدي،

فتركوه ورفضوه، فسمّوا الروافض. والروافض هم الذين يسمّون في عصرنا الشيعة، وهم طوائف كثيرة جداً، أخبثهم الروافض أخبث خلق الله.

وأول من اتبع الرفض وعبد الله بن سبأ اليهودي، أراد أن يخرب علينا ديننا، لكن ما كان يعلم أن في الزوايا خبايا هذا الخبيث. كما فعلوا في دين النصارى، لمّا دخل بولس ووضع فيها ما فيها من البدع والإحداثات التي أراد أن يخسر لهم دينهم. وجاء عندنا عبد الله بن سبأ وهو الذي قد أجج نار الخوارج على عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه- بداعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولذلك عندنا بعض الأغرار الأغمار هناك من يؤجج عليهم العاطفة ونحن لا نشكك في النوايا، فيخالفون الشرع ويحسبون أنهم بذلك ينصرون الدين.

وعبد الله بن سبأ فعل ذلك، أجج النار على عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه-، كان يهودياً أظهر الإسلام والعبادة وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودخل من هذا لتقوية الجانب بقتل عثمان بن عفان. ومن ساعد بكلمة فقد ساعد على قتل عثمان بن عفان، لذلك قال: قتلوه يحسبون في قتله الخير، ولو كان خيراً لحلبوا بعده لبناً، ولكن قتلوه فحلبوا بعده دماً عبيطاً، ما توقف الدم بعد ذلك.

عبد الله بن سبأ يهودي من أهل صنعاء، (**) علي بن أبي طالب. وعلي بن أبي طالب أخذ الروافض هؤلاء وحرّقهم، وادعوا له الإلهية، حتى بعد ما حرّقهم بالنار ولامه ابن عباس على ذلك، قالوا له: لا يُحرّق بالنار إلّا رب النار، أنت ربنا -أعوذ بالله-.

وأمّا الخوارج وما أدراك ما الخوارج؟ هؤلاء الذين خرجوا على علي بن أبي طالب، وقاتلهم علي بن أبي طالب وقتلهم، وكانت بشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه على الحق. قال النبي: (تمرق مارقة على حين فرقة من الناس، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق)، وهذا أيضاً إقرار من النبي على أن علي بن أبي طالب الحق كان معه.

وصفهم النبي أوصافاً منها: (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله جلَّ في علاه لمن قتلهم يوم القيامة)، وهذا في مسلم. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال أيضاً: (هم كلاب أهل النار)، وقال النبي في وصفهم أنهم: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان).

ومن صفات الخوارج الذنب في الكبراء؛ وأنت ترى الآن كل من خرج السب في ابن باز، ابن عثيمين والألباني علناً، والسب في أعراض العلماء علناً هذه من صفات الخوارج. يدخل الخارجي ينظر إلى النبي على أنه أتقى منه، ويقول للنبي: اعدل هذه قسمة لا يراد بها وجه الله. هذا أمر الخارجين، فمن صفاتهم القدح في أعراض الأخيار

"العلماء". وهؤلاء كفَّروا أهل الإيمان وقتلوهم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان).

هؤلاء الروافض الخبثاء خرجوا بزمان علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-، وهو قد عاقب الطائفتين؛ حرّق هؤلاء وقتل هؤلاء، قاتلوه الخوارج فقتلهم، أمّا الشيعة فأجج الأخاديد، قال: إني لمّا رأيت الأمر أمراً منكراً ** أججت ناري ودعوت قنبرا

فهو حرّقهم، لكنهم قالوا أنت ربنا -أعوذ بالله-.

فالخوارج والروافض في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طرفي نقيض؛ فالرافضة فيهم غلو في علي ابن أبي طالب وأهل البيت، حتى أنهم ألّهوا علي بن أبي طالب وهذه ببدعة عبد الله بن سبأ، ويكفّرون كل من قاتل علي بن أبي طالب. أمّا الخوارج فهم يكفّرون عليّاً وعثمان ومن والاهما.

وأمّا أهل السنة والجماعة فإنهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، ويعلمون بأن حب الصحابة دين ندين الله به، وأن صحابة رسول الله هم أفضل الناس على الإطلاق، وأن صحابة رسول الله هم أفضل خلق الله على الإطلاق، أفضل من صاحب نبياً هم هؤلاء لأن الله زكّاهم من فوق سبع سماوات: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]، (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110] هم هؤلاء.

فهم أفضل الصحابة، ولا ندّعي لهم الملائكية، وقع بينهم ما وقع من قتلٍ وتغليظ بعضهم ببعض، كل ذلك وقع. ومع ذلك هم خيار الناس، هم أفضل الناس على الإطلاق، ونحبهم ديانة لله جلَّ في علاه، وبحب النبي -صلى الله عليه وسلم- نحبهم، وبحب الله نحبهم. ولذلك أهل السنة والجماعة وسط بين الخوارج الذين يكفّرون الصحابة الكرام فهم يكفّرون علياً وعثماناً ومن والاهم، والروافض الذين يُؤلّهون علياً ويكفرون باقي الصحابة.

أهل السنة والجماعة يوقرّون الجميع ويحبون الجميع، ولا ندّعون العصمة لأحدهم، وعند الخطأ والزلل الذي وقع بينهم يغضّون الطرف واللسان ولا يتكلمون، وينشرون محاسنهم ويتعبدّون لله بالترضّي عنهم.

العقيدة الواسطية

الدرس السادس والخمسون: بيان معية والله بيان علو الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالة في النار ثم اما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع الواسطية، قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله جلَّ في علاه الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله صلى الله عليه وسلم-، وأجمع عليه سلف الأمة؛ من أنه سبحانه وتعالى فوق سماواته، على عرشه، عليٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون؛ كما جمع بين ذلك في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد:4]، وليس معنى قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ) أنه مختلطٌ بالخلق؛ فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق.

هنا يقول: الإيمان بالله؛ الحق بأن الإيمان بالله جلَّ في علاه يتضمن الإيمان بوجود الله، والإيمان بربوبية الله، والإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، والإيمان بإلهية الله جلَّ في علاه، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، الإيمان بكتب الله، الإيمان برسل الله لأنهم يبلّغون عن الله جلَّ في علاه. ثم ذكر بأن الإيمان بالله جلَّ في علاه الإيمان بعلو

الله جلَّ في علاه؛ ابن خزيمة كان يقول: من لم يقر بأن الله على عرشه استوى فوق سبع سماوات وأنه بائنٌ من خلقه فهو كافرٌ يستتاب، فإن تاب وإلّا ضربت عنقه، ثم ألقي على مزبلة لئلا يتأذى به أهل القبلة ولا أهل الذمة.

هنا في قوله: بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر وعن رسوله؛ "في كتابه" مضاف إلى الله جلَّ في علاه، المقصود به هو القرآن الكريم، والقرآن هو كلام الله جلَّ في علاه، تكلّم الله به فسمعه جبريل ونزل به إلى الرسول الأمين، قال الله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [الشعراء:192-195].

قال: وتواتر عن رسوله صلى الله عليه وسلم-، وأجمع عليه سلف الأمة؛ بفوقية الله جلَّ في علاه، بالعلو، من أنه سبحانه وتعالى فوق سماواته، وقد قال الله تبارك وتعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) [الأنعام:61]، وأيضاً قد قال الله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [النحل:50]، وقول الله جلَّ وعلا: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) [الملك:16] أي على السماء.

وعلو الله ثابت بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهذا قد مر علينا كثيراً وتكلمنا عنه وأتينا بكل الأدلة على علو الله جلَّ في علاه. وأيضاً مراتب العلو أو أنواع العلو: علو الشأن، وعلو القهر، وعلو المكان. فالله بذاته فوق عرشه بائنٌ من خلقه سبحانه جلَّ في علاه، ويعلم ما هم عليه.

بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ يعني أحاديث العلو أحاديث متواترة، وأجمع عليه سلف الأمة، ولذلك قال أبو عمر: أجمع أهل السنة والجماعة أن الله على عرشه، على الحقيقة لا على المجاز. طبعاً هذا رد على الأشاعرة؛ فإن الله على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ولذلك قال الإمام مالك: الله في السماء وعلمه في كل مكان. وهذا إجماع السلف على هذا الكلام، هم الذين قد فسّروا قول الله تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)، قال: معكم بعلمه، أن الله على عرشه وعلمه في كل مكان. لذلك قال الإمام مالك: أجمع المسلمون من أهل السنة في معنى قول الله جلَّ وعلا: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)؛ أن ذلك علمه، ولذلك ابن مسعود قال: ويعلم ما أنتم عليه.

قال المصنف: وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون؛ كما جمع بين ذلك في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد:4]، فهو معهم أينما كانوا بعلمه سبحانه جلَّ في علاه، وكما قلنا إن السلف أجمعوا على أن الله فوق عرشه وعلمه في كل مكان.

وهنا في قول الله جلَّ في علاه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ)؛ بيّن أنه على العرش، فهو بائنٌ من خلقه على عرشه سبحانه جلَّ في علاه ويعلم ما أنتم عليه.

قال: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [الحديد:4]، فالسياق كله من المفسرات، لذلك قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)؛ فذكر العلم، (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ). ذكر العلم هنا: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)، ثم قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

قال: وليس معنى قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ) أنه مختلطٌ بالخلق؛ أعوذ بالله. يعني من قال ذلك من أهل البدع والضلالة الذين يقولون بكلمة الكفر، يقولون بأن الله في كل مكان، وهذه كلمة كفر. (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) لا تقتضي الاختلاط بأي حال من الأحوال، قول الله جلَّ في علاه: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [المجادلة:7] هم يستدلون بها أيضاً عن المخالطة ويقولون الله في كل مكان، ويقوون هذه المنهجية الضالة بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها... إلى آخر ما جاء عن النبي. ويقولون في الحديث: مرضت فلم تعدني، وكل ذلك ضلالات مركبة.

الصحيح أن المحكمات أن الله جلَّ في علاه فوق السماوات، فوق العرش فوق السماوات ويعلم ما أنتم عليه، كما قال ابن مسعود: والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. هذا محكم أن الله جلَّ في علاه في العلو، وأن الله على عرشه بائنٌ من خلقه، والآيات بأسرها والأحاديث التي جاءت توهم شيئاً غير ذلك ترد على المحكم، كل مبهمٍ يرد على المحكم فيستبين ويظهر. كنت سمعه، كنت بصره.

هو بائنٌ من خلقه، إذاً ما معنى (كنت سمعه، كنت بصره)؟ جاء الحديث الآخر ففسر ذلك وقال: فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش؛ يعني موفقاً مسدداً من قبلي. وفي الحديث قال: لو عدته لوجدت ذلك عندي. فيكون هنا (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) بعلمه سبحانه جلَّ في علاه، أحاط بكم علماً سمعاً وبصراً وقدرةً وقوةً، ولذلك ابن مسعود قال: والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه.

وأمّا بالنسبة لقوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)؛ هذه المعية، والمعية والعلو لا تعارض بينهم، لا تعارض بينما هي والعلو، وقد جمع الله بينهما، وهذا عليه سلف الأمة بأسرهم.

قال الله تعالى: (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة:119]، لا التزموا بالممازجة والمخالطة. والجمع بين العلو وبين المعية؛ نقول: المعية معيتان:

- معية إحاطة: بمعنى بصراً وقدرة، هذه لا تنافي العلو، وهذه عامة في جميع البشر، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ).

- ومعية خاصة: معية النصرة والتوفيق والتسديد، وهذه أيضاً لا تنافي العلو؛ (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40] بنصره بتوفيقه بتسديده، قال موسى: (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء:62] معية النصرة والتأييد والتوفيق والتسديد، (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:46]، هذه لا تنافي العلو.

وقد قالت العرب: سرت والقمر؛ الواو هنا واو المعية. سرت والقمر؛ ما نزلت منزلاً إلّا والقمر معي، هنا القمر في العلو وهو معه، ومعية القمر معنا لا تنافي أبداً علوه، هو في السماء وهو معنا، إذا ارتحلنا رحلنا أتينا هو معنا.

قال: وليس معنى قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ) أنه مختلطٌ بالخلق؛ فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق. فهنا يتكلم على أن علو الله جلَّ في علاه الفطرة توجبه؛ كما قلنا بأن الهمداني عندما تكلم مع الجويني، ويقول: كان الله ولم يكن شيء وهو على ما كان عليه، قال له: دعنا مما تقول الآن، فسّر لي كلَما أراد المرء أن يدعو يهفو قلبه إلى السماء. ففيها دلالة على أن الفطرة أيضاً تقر بالعلو، وعلو الله جلَّ وعلا ثابتٌ بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة وبالفطر وبالعقل، وكما قلنا العلو لا ينافي المعية كما قررها شيخ الإسلام في الواسطية.

الفوائد المستنبطة:

- السياق من المفسرات؛ لمّا قال: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ).

- العلو لا ينافي المعية.

- استواء الفطرة على الحنيفية.

العقيدة الواسطية

الدرس السابع والخمسون: استواء الله تعالى على عرشه

قال المصنف -رحمه الله-: وهو سبحانه فوق العرش، رقيبٌ على خلقه، مهيمنٌ عليهم، مطلعٌ عليهم، إلى غير ذلك من معاني الربوبية. وكل هذا الكلام الذي ذكره الله جلَّ وعلا -أنه فوق العرش وأنه معنا- حقٌ على حقيقته؛ وكما قلنا بأن المعية لا تخالف العلو، قريبٌ في علوه وعليٌ في قربه.

لا يحتاج إلى تحريف؛ وهو ما يسمّونه الآن الأشاعرة التأويل وليس تأويل. ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: (فِي السَّمَاءِ) [الملك:17]؛ أن السماء تظله أو تقله، وهذا باطلٌ بإجماع أهل العلم والإيمان، لأنه فوقها؛ فإن الله قد (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) [البقرة:255]، وهو (يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا) [فاطر:41]، (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [الحج:65]، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) [الروم:25].

وهو سبحانه فوق العرش؛ وهذا إثباتٌ للعرش، والعرش خلقٌ عظيمٌ من خلق الله جلَّ في علاه، كريمٌ. وهذا العرش يحمله ثمانية يوم القيامة، (والعرش فوق الماء والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه)، والعرش قد اهتز فرحاً بقدوم سعد بن معاذ.

النبي -صلى الله عليه وسلم- يصف يقول: (السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة للكرسي كإبرة في فلاة) كحلقة في فلاة، والكرسي موضع القدمين فكيف العرش؟ استوى على العرش سبحانه جلَّ في علاه، علا عليه لقوله جلَّ في علاه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، وهو على العرش وهو مع عباده، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد:4] محيطاً بقدرته وعلمه وسمعه وبصره. فهو مع عباده كما قال الله تعالى: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [المجادلة:7]. ولذلك قال: رقيبٌ على خلقه؛ مراقباً حافظاً لأقوالهم وأفعالهم، عدّ عليهم كل شيءٍ فعلوه، (وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) [الجن:28].

قال: رقيبٌ على خلقه؛ لأن الله تعالى قال: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [المجادلة:7]، أحاط بهم سمعاً وبصراً. قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [طه:46]. قال: رقيبٌ على خلقه، مهيمنٌ عليهم؛ يعني شهيدٌ عليهم، يحصي عليهم كل شيء، حاكمٌ مسيطرٌ على عباده سبحانه جلَّ في علاه. فالحكم حكمه والأمر أمره وإليه يرجع الأمر

كله، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) [النحل:40]، فلا يخرج أحد عمّا قدّره الله جلَّ في علاه وشاءه وكتبه سبحانه جلَّ في علاه، والعبيد عبيده.

قال: رقيبٌ على خلقه، مهيمنٌ عليهم، مطلعٌ عليهم، إلى غير ذلك من معاني الربوبية؛ يعني ما كانت معاني: من الإحصاء ومن الرقابة ومن الملك ومن السلطان ومن التدبير ومن التشريع ومن الخلق ومن الرزق ومن الإحياء ومن الإماتة، كل هذه من لوازم الربوبية. فلذلك قال: مطلعٌ عليهم، إلى غير ذلك من معاني الربوبية؛ فهو المطّلِع عليهم، وهو القادر عيهم، وهو القوي القائم سبحانه جلَّ في علاه، يوفق من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو على كل شيءٍ قدير، (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125].

قال المصنف: وكل هذا الكلام الذي ذكره الله جلَّ وعلا -أنه فوق العرش وأنه معنا- حقٌّ على حقيقته؛ كل ما قاله الله تبارك وتعالى: أنه على العرش والعرش فوق السماء والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه، أنه على الحق. وهذا رد على هؤلاء الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، والذين يحرّفون ويزعمون تأويلاً. الله فوق عباده قهراً وقدراً وشأناً وذاتاً سبحانه جلَّ في علاه، والنزاع بين أهل البدع والضلالة وأهل السنة وجماعة هو مسألة العلو "علو الذات"، لأنهم يتفقون على علو القهر وعلو المكانة.

فهو على عرشه، بائنٌ من خلقه ومعهم حيثما كان؛ (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، حجابه نور) أو (حجابه النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

عندما قال: كل هذا حقٌّ على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة؛ من التشبيه وغير ذلك، لأن الذي ذهب للتأويل ما ذهب إليه إلّا أنه كيّف أولاً، وظن أن الخالق يشبه المخلوق، فلذلك ابتعد طويلاً بهذا التحريف الذي سمّاه تأويلاً. فمن الظنون الكاذبة التي لا بد من محوها؛ أنه إذا أثبتنا صفة الكلام لله جلَّ في علاه، كأنه يقول: كلامٌ ككلام البشر لأن الكلام يحتاج إلى شفة وإلى لسان وإلى أضراس. وهذا غيب لا يعلمه إلّا الله، لكني أؤمن أن الله يتكلم بصوتٍ وحرف.

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله جلَّ وعلا -أنه فوق العرش وأنه معنا- حقٌّ على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة؛ قلنا من الظنون الكاذبة التشبيه، من الظنون الكاذبة هو اختراع كيفية من كيفيات صفات الله جلَّ في علاه، أو أن يظن أن ظاهر قوله: (فِي السَّمَاءِ) [الملك:17]؛ أن السماء تظله أو تقله؛ الخلق كله يحتاج إليه، وهذا باطلٌ بإجماع أهل العلم والإيمان والفطر السليمة. وهذه أوهام وهذه ظنون

تصل بالمرء إلى أن يشبّه الخالق والمخلوق، وقد قال نعيم بن حمّاد: من شبّه الخالق بالمخلوق فقد كفر.

قال: وهذا باطلٌ بإجماع أهل العلم والإيمان؛ هذه الشبهة تأتي في قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ)، التي يفهمها بعض المغرضين بأن فيها اختلاط بالخلق، وهذا خطأٌ بيّن. (وَهُوَ مَعَكُمْ)، بعلمه وسمعه وبصره وقدرته، وهذا الذي قاله السلف بالإجماع، فمعيته هنا معية إحاطة؛ وهذه تشمل المسلم والمؤمن والكافر. هناك معية خاصة "معية النصرة والتأييد"، فصّلنا القول فيها، هنا التي نتكلم فيها هي المعية العامة.

قال: فإن الله قد (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) [البقرة:255]، وهو (يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا) [فاطر:41]، (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [الحج:65]. في قوله: الكرسي؛ والكرسي هنا -كما قلنا- عظيمٌ جداً، والكرسي كما قال ابن عباس: وهو موضع قدمه، فكيف بالعرش؟ الكرسي الذي وسع السماوات السبع والأراضين السبع، أحاط بالسماوات السبع والأراضين السبع، هذا الكرسي فقط موضع القدمين، فكيف يظن الظان أن السماء تظله أو تقله إن كان فقط وسع كرسيه السماوات والأرض؟ فلا يظن أحداً هذا الظن الكاذب في أن السماء تظله أو تقله. والله عظيمٌ كبير، وعظيمٌ في صفاته.

قال: (يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا) [فاطر:41]؛ يمسكهما إن اضطربتا، ولذلك قال: (وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ) [فاطر:41]؛ يعني لا بد من الزوال إن أمسكهما أحدٌ من بعد الله جلَّ في علاه، فالله هو المتحكم بالكون بأسره. قال: (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [الحج:65]؛ ولولا إمساك الله لها لوقعت على الأرض، ولو وقعت على الأرض لفني من في الأرض.

قال الله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [الذاريات:47]، (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا) [الأنبياء:32]. إذاً من يمسك السماوات والأرض أن تزولا هو الله جلَّ في علاه، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه. إذا قال الله ذلك وبيّن أن السماوات والأرض مخلوقة له، كيف يقال إن السماء تظله أو تقله؟ سبحانه وهو كبير عظيم، وكل مخلوقٍ يحتاج إليه وهو لا يحتاج إلى مخلوقاته.

والله يتصف بالكمال المطلق، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) [الروم:25]، أن الكون بأسره يقوم بأمره، سواء الأمر الكوني (خلقاً وإيجاداً من عدم) أو الأمر الشرعي (على مبنى الأحكام في ذلك)، وكل ذلك مبنيٌ على الحكمة والرحمة والعدل والإحسان. (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) [المؤمنون:71]، والأهواء مفسدة للسماوات والأرض، وهي مخالفة للأمر الشرعي. (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ)، وكما قلنا الأهواء

تبطل كل شيء، وتكون سبباً في خسارة كل شيء، ولكن الإحسان في هذا الباب أن الله عز وجلّ تولى شؤون العباد وتولى حفظ الكون بأسره، والله هو الواحد القهّار، قال: (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [الحج:65].

وقد دخل المصنف في فصل جديد؛ قال: فصلٌ: لقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من عباده مجيب.

الفوائد المستنبطة:

- عظيم ربوبية الله جلّ في علاه بعظيم خلقه.

- ذنب التأويل إلّا بقرينة.

- إثبات العلو لله جلَّ وعلا "العلو المطلق"، علو الشأن وعلو القدر وعلو المكان.

- فصلٌ في قرب الله تعالى وإجابته وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيته:

إلى قول المصنف -رحمه الله تعالى-: وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريبٌ مجيبٌ، كما جمع بين ذلك في قوله: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة:186]. وما ذُكِر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذُكِر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليٌ في دنوه، قريبٌ في علوه. ومن الإيمان بالله وكتبه.. إلى أن دخل في مسألةٍ أخرى "الكلام".

ما زلنا نتكلم عن المحكمات، بأن الله جلَّ في علاه له العلو المطلق، وأن الله جلَّ في علاه له علو الشأن وعلو القهر وعلو المكان "علو الذات"، سبحانه جلَّ في علاه:

- علو الشأن؛ قال تعالى: (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13].

- وعلو القهر: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) [الأنعام:61].

- وعلو الذات: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) [طه:5].

فقلنا الله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه، وأحاط بكل شيءٍ سمعاً وبصراً وقدرةً وعلماً سبحانه جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) [المجادلة:7].

وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريبٌ مجيبٌ؛ كأنه قال: والقرب قرب إجابة. قد نقول: لا يكون القرب قط إلّا للمؤمنين، مع أن هناك قرب إحاطة كما سيأتي تفصيله، بأن الله جلَّ في علاه أحاط بكل شيء. فالقرب هنا قرب إحاطة؛ علم كل شيء، سمع كل شيء،

أبصر كل شيء سبحان جلَّ في علاه. لا تواري عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً، ولا بحرٌ ما في قعره، ولا جبلٌ ما في وعره.

قال: وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريبٌ مجيبٌ؛ (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)، فهذا قرب إجابة مشروطٌ بالدعاء، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (إن الله حييٌ كريم، يستحي أن يرفع العبد يديه ثم يردهما صفراً) أو (خائبتين).

وفي حديث أبي موسى الأشعري: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في غزوةٍ، لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلّا رفعنا أصواتنا بالتكبير، فدنا منا فقال: (يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته). قال: (يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة كنوز الجنة؛ لا حول ولا قوة إلّا بالله).

الشاهد أنه قال: (فإنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)، وهنا قرب الإجابة له أسباب سنبينها إن شاء الله، من أخذ بها وصل إليها.

وهنا بقوله: (إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)؛ هو قربٌ حقيقي لا ينافي العلو، وهذا من المؤمنين فقط؛ (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) [الأعراف:56]. فالكون كله سبحانه جلَّ في علاه في يده كحبة خردلٍ في يد أحدكم، لذلك فهو عليٌ في قربه، قريبٌ في علوه. أمّا قول الله جلَّ في علاه: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق:14]؛ السياق مفسر، لأن القرب هنا قرب الملائكة، وكان بأمر الله جلَّ في علاه فيضاف إلى الله جلَّ في علاه على أنه أمر.

وإذا تكلمنا على قرب الله جلَّ في علاه، ما دام قد تكلم المصنف هنا يريد أن يقول: لا مخالفة بين العلو وبين القرب، كما أنه لا مخالفة بين القرب وبين بين العلو وبين المعية. وإن صح التقسيم لقلنا: قرب إحاطة، وإن كان الحق أن القرب خاص بالمؤمنين فقط. لكن يمكن أن يقال قرب إحاطة، وهذا مستلزمٌ من اسم الله الباطن، ولذلك قال النبي: (وأنت الباطن فليس دونك شيء)؛ فهو أقرب لكل شيء، وأعلم بكل شيء. فهذا يستلزم الإحاطة، هذا القرب تحقيق لاسم الله الباطن.

وهناك قربٌ خاص:

- قرب الأنس ولذة الإيمان وحلاوة الإيمان والتوفيق للتضرع للرحمن، وهو عندما قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أي الدعاء أسمع؟ قال: (جوف الليل). وقال الله جلَّ في علاه: (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [الإسراء:78].

- الثاني هو قرب الإجابة وقرب الثناء؛ وهذه تعرف من قول الله جلَّ في علاه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)، ولقوله -صلى الله عليه وسلم-: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)، ولقول النبي -صلى الله عليه وسلم- : (أربِعوا على أنفسكم) أو (أربَعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)، ولذلك قال الله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غافر:60] وهنا يتبين لنا أيضاً قرب الله من الداعي.

والحق أن هذه المسألة من أعظم ما تكون، ومن أشرف ما تكون، وهي قرب الله من الداعي. والحق ليس القرب هنا قرب إجابة فقط، بل قرب مؤانسة وتحقيق إيمان وتثبيت جنان على الفقر للرحمن، والافتقار له. لأن الله يكون قريباً جداً من الداعي إذا كان قلبه حاضراً، فما تراه إلّا يدعو دعاءً وذرفت عيناه ورق قلبه واقشعر بدنه وشعر أنساً لا يشعره قط إلّا من كان في حاله، وفوق ذلك إجابته بأن يجيبه الله جلَّ في علاه.

والإجابة لها سبل:

- أن يكون قد توسل توسلاً صحيحاً بالأسماء الحسنى وصفاته العلى.

- وأن يكون قد تخير وقت استجابة الدعاء؛ لأن هناك أوقات شريفة الله جلَّ في علاه يكون قريباً من عباده. وهذا قربٌ أرقى ما يكون إيماناً، عندما يستحضر المرء قلبه ويدعو ويبكي، ويرقق قلبه ويرد نفسه مفتقراً إلى ربه جلَّ في علاه محتاجاً إليه، (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) [النمل:62]. وأن يقولا قد استلهم وقت الإجابة؛ إمّا في السجود، إمّا في السحر، إمّا عند المطر، إمّا عند صعود الإمام إلى الجمعة. فيرفع يديه صادقاً فيقبله الله جلَّ في علاه، ويكون عبداً حقاً لربه فيفوز بشرف العبودية ويفوز باستجابة الدعاء.

والدعاء دعاءان: دعاء مسألة ودعاء ثناء. ودعاء الثناء هو الذكر الحسن، كل ذكرٍ وكل عبادةٍ فهي دعاء ثناء، حتى الصلاة فهي دعاء ثناء. ولا بد أن تعلم أن دعاء الثناء يستلزم دعاء المسألة، ولأن الكريم يكفيه التعريض بالثناء. ولذلك قال: وما ذُكِر في الكتاب والسنة من قربه لا ينافي ما ذُكِر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في نعوته، وهو عليٌ في دنوه، قريبٌ في علوه. فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء).

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الحادي والستون: فصل في القيامة الكبرى

بلغنا إلى قول المصنف: وأمّا المرتاب فيقول: ها ها، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحةً يسمعها كل شيء إلّا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق. ثم بعد هذه الفتنة إمّا نعيم أو عذاب إلى أن تقوم القيامة. وهذا بيّناه في إثبات عذاب القبر ونعيم القبر، وقلنا أيضاً عذاب القبر ونعيم القبر لا يكون مستديماً على كل أحد؛ قد يخفف عن البعض فينقطع عنه العذاب.

وحديث: مر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقبرين فقال: (يعذبان، وما يعذبان في كبير، أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة) ... إلى آخر الحديث. الغرض بأنه قد يخفف عنهم العذاب وينقطع إلى أن يقوم إلى الله جلَّ في علاه للحساب، وقد يستديم معه إلى يوم القيامة، وكلٌ على حسب ما يفعل.

ثم قال: فتعاد الأرواح إلى الأجساد؛ وهذا يوم القيامة، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه وعلى لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأجمع عليها المسلمون. فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، حفاةً عراةً غرلاً، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، هذا تكلمنا عنه. وهنا قيامة كل إنسان ألا وهي الموت، ولذلك قال بعض العلماء (منهم القرطبي وغيره): القيامة قيامتان: قيامةٌ صغرى وقيامةٌ كبرى؛ فالصغرى ما تقوم على كل إنسان وهي خروج الروح من البدن، أما الكبرى التي تعم الناس تأخذهم أخذةً واحدة.

وهي قيامة لأن الناس جميعاً من قبورهم يقومون بعد ما تعاد الأرواح في الأجساد، يقومون إلى رب العباد، مسرعين مهرولين حفاةً عراةً غرلاً. قال الله تعالى: (يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) [القمر:7]، وجاء الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (كما في مسلم): (يقوم الناس لرب العالمين، حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه).

قوله: فتعاد الأرواح إلى الأجساد؛ وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور نفخة البعث والنشور، قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ) [يس:51]، وإذا أطلق النفخ في الصور فالمراد نفخة البعث. والأرواح جمع روح، هو ما يحيا به الإنسان وهو من أمر الله كما قال سبحانه: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) [الإسراء:85]، وهذه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، ينتظر أن يؤمر).

وهذه البعث والنشور؛ على ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة في ذلك، حتى أهل البدعة والضلالة يتفقون على البعث والنشور، بل أيضاً أهل الملل الأخرى قد اتفقوا وأجمعوا على البعث والنشور، إلّا الدهريين وأمثال هؤلاء؛ قال الله تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [التغابن:7]. والمقصود بالبعث: هو إحياء الموتى؛ فخروج هؤلاء مسرعين إلى ربهم مهرولين من قبورهم. والمقصد بها إعادة الأرواح إلى الأبدان، وإعادة الأبدان ونشرها، ثم يحشرون جميعاً إلى ربهم جلَّ في علاه، لا يخالفه أحد، قال الله جلَّ في علاه (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم:94-95].

ودل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة؛ كما قال الله جلَّ في علاه: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء:104]، قال الله تعالى: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس:79]. جاء العاص ابن وائل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعظمٍ وفتته بيده ثم قال: يا محمد، يحي الله هذا بعدما أرم؟ قال: (نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم)، فنزلت الآيات: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) [يس:77-79]، وهذه تكون بعد النفخ في الصور.

فالنفخ في الصور على خلافٍ بين أهل السنة: بعضهم يقول ثلاث نفخات، وبعضهم يقول على نفختين وهو الراجح الصحيح وهو الظاهر.

◆ الذين قالوا بالنفخات الثلاثة؛ قالوا:

- نفخة الفزع التي يتغير بها العالم كقول الله تعالى: (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) [ص:15]، وقول الله تعالى: (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ) [النمل:87]، فالفزع هو هول ما يحدث من هذه.

- والنفخة الثانية نفخة الصعق، الجميع يصعقون. والصحيح أن الفزع والصعقة واحدة، وأن الجميع يموتون.

- ثم بعد ذلك نفخة البعث.

فنفخة الصعقة هي التي يكون فيها هلاك كل شيء كما قال الله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [الزمر:68].

في قول المصنف: فيقوم الناس من قبورهم، أي يقومون مهرولين مسرعين إلى ربهم جلَّ في علاه مستجيبين، كما قال تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [المطففين:6]. قال ابن عمر -والحديث رواه أصحاب الصحيح-: في قول الله تعالى: (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (يقوم الناس حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى نصف أذنه).

وفي البخاري ومسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب على المنبر يقول: (إنكم ملاقوا ربكم حفاةً عراةً غرلاً)، ولذلك قال في روايةٍ: (يا أيها ناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً) وقرأ قول الله جلَّ في علاه: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء:104].

عراة وغرلاً؛ يعني كل عضوٍ يرجع إلى الإنسان، حتى ما قطع منه يرد إليه، وهذه من قدرة الله جلَّ في علاه الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. ولذلك عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- تعجبت فقالت: (يا رسول الله، الرجال والنساء؟! قال: الرجال والنساء، قالت: ينظر بعضهم إلى بعض، قال: الأمر أشد من هذا يا ابنة الصديق). والأصل في الترتيب يكون البعث والنشور، ثم المحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، بعد ذلك ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين أو الشمال، ثم السؤال، ثم الحساب، ثم الميزان، وبعد ذلك الجنة أو النار.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق؛ أي تقرب منهم الشمس حتى تكون قدر ميل أو ميلين كما روى مسلم عن المقداد، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين، فتصهرهم الشمس، فيكونون في العرق قدر أعمالهم).

قد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الناس تتفاوت منازلهم في العرق، تدنو شمس من الرؤوس؛ فمنهم من يكون العرق إلى كعبيه، ومنهم من يكون العرق إلى ركبتيه، إلى حقويه، إلى صدره، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يلجمه العرق إلجاماً). وقد ورد عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- (وهذا في الصحيحين) عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ أذانهم).

وهذا في اليوم العظيم الذي فيه من الأهوال العظيمة التي قال فيها الله تعالى: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج:2].

انظروا إلى شدة هول هذا الموقف، وما من أحدٍ يستطيع أن يكون معيناً لأحد أو شفيعاً لأحد، كما وصف رب العباد: (الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) [الزخرف:67]، وأيضاً لقول الله جلَّ وعلا مبيناً أن الشفاعة له وحده: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ) [الأنبياء:28]. وكلٌ يقول: نفسي نفسي، كما قال الله تعالى: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس:34-37].

ثم قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وتنصب الموازين، وتوزن فيها أعمال العباد، (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) [المؤمنون:102-103]. قال: وتنصب الموازين، الكتاب قد أفصح عن الميزان، واختلف العلماء هل هي موازين لأنها عرصات وليست عرصة واحدة، أم هو ميزانٌ واحدٌ يجمع الجميع لأن الله قال: (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)، فجمع الميزان على موازين. والحق أن الميزان هو ميزانٌ واحد، وأن التوجيه في هذه الموازين هو لكثرة ما يوزن، ولأن الخلاف بين العلماء ما الذي يوزن، والصحيح الراجح أن الذي يوزن العمل ويوزن العامل ويوزن الصحف.

تواترت الأحاديث على مسألة الميزان، وأجمع أهل الحق على ثبوت ذلك، وأنه ميزان حقيقي حسي له لسان وكفتان؛ هناك حديث متكلمٌ فيه، حديث رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وحديث أيضاً أبي سعيد الخدري: (أن موسى -عليه السلام- قال: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى "لا إله إلّا الله"، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري في كفة و "لا إله إلّا الله" في كفة لرجحت بهن "لا إله إلّا الله").

وفي المسند أيضاً حديث البطاقة المشهور: (فيخرج له بطاقة فيها "لا إله إلّا الله"، فتوضع السجلات في كفة و "لا إله إلّا الله" في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة). وقد جاءت أدلة وآثار كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- تثبت الميزان، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان)، وقال: (كلمتان حبيبتان للرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). ولمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أثقل ما يكون في ميزان العبد، قال: (حسن الخلق). وهذه كلها دلالة على اعتقاد الصحابة الكرام بالميزان، وأن الأعمال توزن في هذا الميزان.

والحق أن نقول بأن الذي يوزن في الميزان: الأعمال والعامل والصحف؛

أمّا العامل فالحديث صريح: بأنه مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على الصحابة فسمعهم يضحكون، فلمّا سأل عن ذلك قالوا نضحك من دقة ساق ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنها في الميزان يوم القيامة لأثقل من جبل أحد)، دلالة أنه يوزن هذه السجلات توضع في كفة، وأيضاً البطاقة التي فيها "لا إله إلّا الله" توضع في كفة، فتكون رجحان كفة "لا إله إلّا الله".

والأعمال أيضاً توزن؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلمتان حبيبتان للرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان). إذاً حتى الأعمال تجسّم وتوضع، وهذه قدرة الله جلَّ في علاه. كما قال: (اقرأوا الزهراوين، اقرأوا البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان) أو (غيايتان) أو (فرقانٍ من طيرٍ صواف). فالأعمال أيضاً تجسّم، وليس هذا القرآن الذي يجسّم، الأعمال هي التي تجسّم فقط.

كما قلنا الترتيب في هذا الباب هو: البعث والنشور، ثم المحشر والقيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف، ثم السؤال مع تطاير الصحف "السؤال والحساب"، ثم ذلك الميزان.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثاني والستون: مما يكون يوم القيامة: الحساب، الحوض، الصراط

وصلنا إلى قول المصنف -رحمه الله تعالى-: وتنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال؛ فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله ومن وراء ظهره، كما قال سبحانه وتعالى: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) [الإسراء:13-14].

في قوله: وتنشر الدواوين؛ والدواوين: جمع ديوان وهي الدفاتر والكتب التي تكتب فيها أعمال العباد. والصحائف: هي جمع صحيفة وهي الورق التي يكتب فيها من الملائكة على أفعال العباد وأعمال العباد. وأن الله جلَّ وعلا أحصى كل شيء، قال الله جلَّ في علاه: (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق:18]، (وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) [الزخرف:80].

وقد قال الله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا * وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ

أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف:47-49].

ولذلك قال الله تعالى: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) [التكوير:10] يعني نشرت هذه الصحف للحساب؛ فيجب الإيمان بالكتب، ويجب الإيمان بالكتبة، ويجب الإيمان أيضاً بالصحف التي تنشر، ويجب الإيمان بالحساب والوقوف والمثول بين يدي الجبار سبحانه جلَّ في علاه. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فقال للملائكة: من همّ من عبادي بحسنة فعملها فاكتبوها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، ومن همّ بحسنةٍ فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائي، ومن همّ بسيئةٍ فعملها فاكتبوها له سيئة).

فتنشر الكتب وتؤخذ باليمين وبالشمال، كما قال: فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله؛ قال الله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا* وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا) [الإنشقاق:7-12]، والمعنى هنا بأنه سيأخذ كتابه بشماله وراء ظهره، وهذا للتحقير والتصغير وللإهانة، وأيضاً للعقاب والعذاب.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأمّا عرضة فجدال معاذير وعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله)؛ لكن الحديث هذا لا يصح، هذا حديثٌ ضعيفٌ لا يصح، فهو حديث الحسن عن أبي هريرة، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه وأخرجه البيهقي بسندٍ حسن عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-، وهو قال: بتطاير الصحف وآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله. لكن جاء موقوفاً عن ابن عباس، وإذا قلنا موقوفاً، فلا بد أن نقول موقوف له حكم الرفع لأن هذا لا يدخله الاجتهاد، وابن مسعود بالذات لم يأخذ من الإسرائيليات؛ يعني ابن مسعود ليس ممن يأخذ الإسرائيليات.

وروى أحمد والترمذي وأبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات؛ فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف. فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيراً، دخل الجنة. ومن أوتي كتابه بشمال دخل النار).

قوله: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) [الإنشقاق:10]، قال مجاهد: بشماله وراء ظهره؛ وكما قلنا هذا للتحقير وللشدة وللعذاب والعقاب، وأن يُنبأ بما حدث معه بأنه ينتظره العقاب الأليم.

قال تعالى: (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا) [الإسراء:13]؛ طائره: وهو ما طار عنه من عمله من خيرٍ أو شر، كما قال ابن عباس ومجاهد. والمعنى أن عمله الذي عمله لا بد أن يلصق به، وأنه يعرض عليه عمله الذي عمله من صغيرٍ أو كبيرٍ، دقيقٍ أو جليل، وأن الله جلَّ في علاه يحصي عليهم كل شيء ولا يظلم من عمله من شيء، لأن الله جلَّ وعلا قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء:40].

قال تعالى: (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق:18]، (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الانفطار:10-12]؛ (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) هذه على العموم، يعلمون فعل القلب؟ نعم يعلمون فعل القلب إلّا الإخلاص، الإخلاص لا أحد يعلمه. هناك خلاف: هل الملائكة تعلم أفعال القلوب أم لا؟ والصحيح أنهم يعلمون أفعال القلوب لحديث (من همّ بالحسنة)، لأن الهم فعل القلب.

قال الله تعالى: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا)؛ أي صحيفة الأعمال، بالحسنات والسيئات، يأخذه ولم يُظلم شيئاً. فإن كان سعيداً أخذه باليمين، وإن كان بئيساً تعيساً أخذه بالشمال، نعوذ بالله من الخذلان. وقوله تعالى: (يَلْقَاهُ مَنشُورًا) يعني يلقى الإنسان ذلك الكتاب منشوراً مفتوحاً، وهذه أيضاً ليعُلم الكرامة أو غير الكرامة، لأن كل غادر يعقد له لواء يوم القيامة عند إسته، يقال: هذه غدرة فلان. قال: (اقْرَأْ كِتَابَكَ) تقرير له، أي كتاب أعمالك، أنت الذي ستحكم على نفسك، وأنت لن تنكر شيئاً من المكتوب لأنه كله من فعلك. (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)؛ يعني كفى نفسك اليوم عليك حسيباً.

إذاً تتطاير الصحف، ثم بعدما تتطاير الصحف وبعدما يأخذ المكلف كتابه بيمينه أو كتابه بشماله، يقف بين يدي الجبار يحاسبه، وهذا قبل أن ينصرف من المحشر على الأعمال؛ إن كانت خيراً فخير، وإن كانت شراً فشر. والحساب ثابتٌ بالكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الحجر:92-93].

هناك الأدلة التي جاءت على السؤال وعدم السؤال؛ من الأدلة التي جاءت على السؤال: قال الله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) [الرحمن:39]، فهنا نفي السؤال. ثم بعد ذلك جاءت الأدلة كلها على إثبات السؤال، فكيف الجمع بينهما؟ الجمع بينهما أن السؤال لا يكون عن عدم علم، بل السؤال يكون على التقريع والتوبيخ والتقرير، قال الله تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ). (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا)، وقال الله تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ

هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)؛ فعدها وكتبها الملائكة وأثبتها عليهم، وبعد ذلك حاسبهم.

وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: (قال رسول الله ﷺ: من نوقش الحساب عُذِّب، فقلت: أليس يقول الله: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)، فقال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلّا هلك).

كيف تفهمون قول النبي -صلى الله عليه وسلم- مراجعاً عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: (إنما ذلك العرض)؟ والمعنى بأنه يقرره بما فعل؛ كما قال ابن عمر عندما سألوه: أيكم يحفظ المناجاة؟ فقال: (أنا أحفظ المناجاة، ما من عبدٍ إلّا وسيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فيقول: عبدي أتذكر ذنب كذا وكذا؟).

فهنا يقرره، فيكون هذا العرض تقرير فقط وبيان بفضل الله عليه، وأن الله غفر له ما فعل، فيدخله بعد ذلك الجنة. (فيقرره، فينظر المرء المسلم المؤمن أيمن منه فلا يجد إلّا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يجد إلّا النار فيظن أنه قد هلك، فيقول الله جلَّ في علاه: عبدي سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم). أمّا من نوقش الحساب وعدد له ما فعل، هذا العذاب.

قال المصنف: ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وُصِف ذلك في الكتاب والسنة. قال: ويحاسب الله الخلائق، هل هذا عام على عمومه أم لا؟ "الخلائق" الألف واللام على العموم، الخلائق جميعاً يحاسبون إلّا كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا سابقة عذاب)؛ السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب جلاهم بأوصافهم، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون). بل السبعون ألف كل واحدٍ منهم معه سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا سابقة عذاب، هؤلاء لا يحاسبون، هؤلاء الذين قد خصهم الله جلَّ في علاه، يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا سابقة عذاب.

قال: ويخلو بعبده المؤمن فيقرره؛ هذا حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-: (أن الله جلَّ وعلا يرخي كنفه على عبده فيقول: عبدي أتذكر ذنب كذا يوم كذا؟ وذنب كذا يوم كذا؟ فيقول: أي رب، أي رب. فينظر أيمن منه فلا يجد إلّا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يجد إلّا النار فيحسب أنه قد هلك)، ولكن الله كتب له النجاة، فيقرره ثم يقول: (سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)، ثم تطوى صحيفة حسابه.

وأمّا الآخرون (الكفار) فينادى بهم على رؤوس الخلائق: (هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [هود:18]؛ فأما الكفار فينشر أعمالهم أمام الجميع، وأمّا أهل الإيمان فيستر عليهم سبحانه جلَّ في علاه.

وأيضاً الأمر فيه ما فيه، وأهل الكفر لا يحاسبون، أهل الكفر لا حاسب عليهم فيه مناقشة، لذلك قال: أمّا الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته بسيئاته، هي مناقشة الحساب فقط، لأنهم إن عملوا الحسنات فليس لهم من الحسنات من شيء، فإن الله جلَّ في علاه قدّر بأنهم إذا أتوا بالحسنات أن الله جلَّ في علاه يكافئهم بها رزقاً في الدنيا وليس لهم في الآخرة من شيء. كما قال الله تعالى: (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) [الفرقان:23]، وقال الله جلَّ في علاه: (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) [الكهف:105].

فالكافر لا توزن له أعمال، ليس له أعمال، لأن الأعمال أصالةً لا تقبل إلّا بالإسلام لقول الله جلَّ وعلا: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) [النحل:97].

وكما قلنا قد وردت الآثار والحديث على أن الله جلَّ وعلا لا يظلم الناس شيئاً، من عمل صالحاً فلا بد أن يكافئ عليه ولو كان أكفر أهل الأرض. قال النبي: (إن الله لا يظلم المؤمن حسنةً يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأمّا الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى للآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها)، يأتيه الرزق بها في الدنيا، لكن في الآخرة يحاسب على ما هو عليه من الكفر، لأن أعماله لا تقبل، والله جلَّ وعلا قال: (وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) [التوبة:54].

فإن قلنا لا يحاسبون، كيف تفعلون بقول جلَّ وعلا: (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)، وأيضاً في قوله: (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)؟ القول هنا أنه تُحصى الأعمال ويقرر بها ويوقف على أعمالهم وينبأ بما عمل، فلا يستطيع أن يفعل شيء، فلا ينكر شيئاً إلّا وقد بيّن الله جلَّ في علاه بأنها من أعماله وأنها مكتوبة عليه، (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يونس:65].

قال: وفي عرصة القيامة الحوض؛ هي أكثر من عرصة، ليست عرصة واحدة، عرصات. وكل بقعة واسعة ليس فيها بناء تسمى عرصة من عرصات يوم القيامة، فيها مواقف من العرض والحساب، وأيضاً هي أكثر من عرصة كما قال ابن عباس: هي عرصات، ولذلك كانت الأحكام فيها مختلفة، لكن فيها عرض وفيها الحساب وأيضاً فيها الميزان.

قال: وفي عرصة القيامة الحوض المورود؛ الحوض: هو مجمع الماء، والمراد هنا هو حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو ثابتٌ بالإجماع وأحاديثه متواترة، وما أنكره أحد إلّا ضلّال أهل البدع من أهل الإسلام؛ فالذين أنكروا الحوض هم المعتزلة والخوارج، أسوأ خلق الله فكراً وضلالاً.

وقد تواترت الأحاديث -كما قلنا- في إثبات حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، الحوض الذي منحه الله جلَّ في علاه لرسولنا -صلى الله عليه وسلم-؛ وقد روى أحاديث الحوض أكثر من بضعةٍ وخمسين صحابياً منهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وأيضاً الذين أكثروا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- روايةً قد رووا أحاديث الحوض.

عن أنس -رضي الله عنه وأرضاه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن قدر حوضي ما بين أيلة إلى صنعاء اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن) أعطى أوصاف الحوض، والحق أن هذا ليس خاص بنبينا -صلى الله عليه وسلم-، بل هو عام لكل نبي. (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبداً)، وفي رواية قال: (حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء) يعني هو مربع (وماؤه أبيض من الورق) الورق يعني الفضة.

هنا ترى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن)، ترى المتعة في الورود على حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، والشرب من هذا الحوض. المتعة فيها: متعة معنوية ومتعة حسية؛ والمتعة الحسية وهي الماء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في روايةٍ: (أنه أحلى من العسل). ولونه يطيب له الخاطر والنفس، فتكون متعة معنوية (أبيض من اللبن)، وأيضاً الرائحة، يعني النفس تطيب باللون والرائحة، هذه من المتعة المعنوية. وفيها أيضاً (أن الكيزان كنجوم السماء)، كنجوم السماء متعةً، وكثرةً كنجوم السماء كثرةً لكثرة من يشرب من الحوض، وأيضاً هي تتلألأ فتكون فيها المتعة المعنوية.

فانظر كيف يطمئن قلوب المؤمنين بذلك، لأنهم يخرجون من القبور يعني على ظمأٍ شديد. ولا بد أن تعلموا أن الحوض قبل الصراط، لأنهم يخرجون من القبور كما قلت على شدة عطش، من شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا فرطكم على الحوض).

وفي قوله: في عرصة القيامة الحوض المورود؛ قلنا الحوض قبل الصراط، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيح: (إني فرطكم على الحوض، من مر عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً. وليردن عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم).

في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعرفهم ويعرفونني) تمسك به أهل البدع والضلالة، وأنت لا بد أن تعلم بأن الشيطان بخيله ورجله يأتي، وهناك تلبيسات.

الله جلَّ في علاه يجعل أمور فيها اختبار لعباد الله جلَّ في علاه، لأنك يمكن أن تسأل: لِمَ؟ يعني لِمَ في بعض البلاءات التي تقع على المؤمنين؟ هذا ليبتلي الله الصادقين، ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) [العنكبوت:3].

(إني فرطكم على الحوض، من مر عليّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً. وليردن عليّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم)، الرواية الأخرى قال: (أقول: أصحابي أصحابي) ورواية قال: (أصيحابي أصيحابي) ورواية قال: (أمتي أمتي) لتعم هنا هذه المسألة، لكن في قول النبي: (أعرفهم ويعرفونني) فهذه دلالة على بعض المنافقين الذين لم يعلمهم النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بعض أهل البدع والضلالة لمّا قال: (أعرفهم ويعرفونني)، قالوا: هؤلاء الصحابة قد ارتدوا. وهذا أيضاً كما تكلمنا عن أسوأ خلق الله ضلالاً في أهل الإسلام هم الخوارج، لكن في الراجح أنهم من أهل الإسلام. أمّا الروافض ليسوا من أهل الإسلام، وهؤلاء أسوأ وأسوأ وأضل وأخبث خلق الله، الروافض أضل وأضر على هذه الأمة من اليهود والنصارى.

فهنا في قوله: (أعرفهم ويعرفونني)، احتج بها الروافض الأخباث الأنجاس الذين قالوا بكفر الصحابة، وهذا ليس بصحيح. الصحابة منهم من شهد له النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه في الجنة، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجملة النبي -صلى الله عليه وسلم- قد مدحهم وزكّاهم الله من فوق سبع سماوات، إلّا القلة النادرة التي كانت على النفاق.

والدلالة على أن هناك من المنافقين من عرفهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن لم يعلم بأنهم على النفاق، الدلالة على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له الله في الكتاب: (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) [التوبة:101]. ولذلك الأسماء التي سماها النبي -صلى الله عليه وسلم- لحذيفة كان قد بيّنها الله جلَّ في علاه، وأطلع الله على هذه الأسماء النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن لا يعني كلية المنافقين، ليس كل المنافقين علمهم النبي -صلى الله عليه وسلم-. بل هناك من المنافقين كانوا في الأمة الإسلامية يعلمهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، يواكلونه ويشاربونه ولا يعلمهم، والآية صريحة بذلك: (لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) أنت لا تعلمهم ونحن نعلمهم.

ففي قوله: (أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم)، وقد يقال: بالعموم أعرفهم بسيماهم، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أمتي غرلاً محجلين) يعرف النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته من غيرهم، والمنافقون قد يصلون، لكن (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ) [التوبة:54] فتكون السمة بسبب الوضوء عليهم كما في المخلصين.

وفي رواية: (وليختلجن أقوامٌ من بين يدي، فأقول: ربي أصحابي أصحابي)، (أصيحابي أصيحابي)، (أمتي أمتي). (فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)؛ أمّا المنافقون فقد أحدثوا ردةً صريحة بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومنهم من ذهب ورجع وعبد الأصنام، وأيضاً أحدثوا في قوله: (أمتي أمتي). أحدثوا ابتدعوا في دين الله جلَّ في علاه، وطريقة البدعة موسع؛ أوله من قال: البدعة الحسنة والبدعة السيئة، هذا أوله. وأقصاه من قال: بأن البدعة يتناولها الأحكام الخمسة (الواجب والمستحب)، يعني هذا بابٌ واسع للضلال وللإضلال. ومع ذلك نقول: العز بن عبد السلام الذي قال بذلك عالمٌ نبيلٌ جليل، يغفر الله له، قد اجتهد فأخطأ فله أجر.

وهذا الحوض ليس خاصاً بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، بل كل نبي له حوض، وهذا صريح قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن لكل نبيٍ حوضاً، وهو قائم على الحوض بيده عصا يدعو من عرف من أمته، إلّا أنهم يتباهون أيّهم أكثر تبعاً، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً).

لا سيما من المعروف (أنه لما رفع له السواد قال: أمتي، قالوا: لا، هؤلاء أتباع موسى -عليه السلام-. ثم رفع سواد أعظم من السواد الأول، فقيل: هؤلاء أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا سابقة عذاب). قال: (ومنحني ربي مع كل واحد من السبعين ألف أن يدخل سبعون ألفاً بغير حساب ولا سابقة عذاب). فهم يتباهون بأكثرهم تبعاً، وهذا من فضل الله جلَّ في علاه.

وهذا قد تكون دليلا لمن يبحث عن النتيجة، والصحيح أن الداعي لا يبحث عن نتيجة، وحتى النبي لا يبحث عن نتيجة. قد قال الله جلَّ في علاه: (لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) [البقرة:272]، وقد قال الله جلَّ في علاه: (فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) [التغابن:12]، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) [المائدة:67]، قال: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) [آل عمران:128]. ومع ذلك فإن أكثر الأنبياء تبعاً هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهم يتباهون بذلك. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يأتي النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد)، وهو أكثرهم تبعاً وهذه لكرامة النبي على الله سبحانه جلَّ في علاه.

وكما قلت بأن الحوض يكون قبل الصراط، لأن الناس يخرجون من قبورهم على عطشٍ شديد، فيقدّم الحوض على الميزان وعلى الصراط. فالحوض قبل الصراط وقبل الميزان، وقد قال بعض العلماء: هما حوضان: حوضٌ قبل الصراط وقبل الميزان، وحوض بعدهم. وهذا فيه نظر الصحيح أنه الحوض "حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-" يكون قبل الصراط وقبل الميزان، وقد قال القرطبي: بأن الحوض الثاني هو في الجنة، وهذا فيه نظر يحتاج فيه الإنسان إلى دليل.

روى مسلم في الصحيح عن أنس قال: (بينما رسول الله بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفاً سورةٌ، فقرأ: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)، في رواية قرأ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ). (قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، وحوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة؛ آنيته كعدد نجوم السماء، يختلج العبد منهم فأقول: يا رب إنه من أمتي، فيقال: أما تدري ما أحدثوا بعدك؟) فالأهم أن نقول بالترتيب الصحيح، أن الحوض يكون قبل الصراط.

ثم قال: والصراط منصوبٌ؛ يعني هو الآن بعد ما ذكر الحوض، وهذا كما قلنا يستعد المرء لأن يرد هذا الحوض أن يكون أكثر الناس وضوءً، أعظم الناس إسباغاً للوضوء، وأعظم الناس اتباعاً للسنة، فكلّما حاد عن السنة كلما ابتعد عن الحوض.

أرأيتم خطر البدعة!! ولذلك كنا نقول لبعض لمن يؤجر عقله لغيره: الآن جاءتك السنة، يقول المجتهد الذي أتبعه يعلم هذه السنة، يعلمها أو لا يعلمها هو خفيت عليه، أخفاها الله عليه والله يؤتي فضله من يشاء. كيف تفعل؟ قيمة المذهب تعظيم السنة ليس تعظيم المذهب.

يعني من الطرح الذي جاءني في هذا الباب يعاتبونني، يقولون إننا لو فعلنا ما تفعل لأنك كل ما تأتي القوم وتأتي بالحديث تقول والراجح كذا، بترجيحك هذا المذهب ذهبت. أنا أقول: قيمة المذهب تذهب ولا قيمة السنة تذهب، كيف تعظمون سنة نبيكم -صلى الله عليه وسلم- عندما تجدون أن قول الإمام خالف قول النبي ثم بعد ذلك تقفون معظمين تقولون المذهب؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ملعون من قضى حاجته في مستظل الناس)، المذهب عندنا في الشافعية يقولون على الكراهة، يعني مكروه من يقضي حاجته في مستظل الناس، مكروه ويصل للعن، لعنه النبي، واللعن طرد من رحمة الله، يعني كبيرة من الكبائر. فهذه مسألة يعني عظيمة جداً جداً في هذا الباب، فالسنن لا بد أن تعظم.

ونحن كما قلنا بأنه في الحوض، كلّما حاد المرء وابتدع في دين الله جلَّ في علاه، يُرَد عن الحوض، وعمق التمذهب يفعل ذلك؛ لمّا واحد وهو متمذهب يقول لك ولا بد أن

تقول عند الوضوء: بسم الله نويت أن أتوضأ لصلاة الظهر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يفعل ذلك، وتعلمون الأئمة الثلاثة قالوا: كمال النية أن يتلفظ بها المرء: نويت أن أتوضأ لصلاة الظهر. طبعاً كره ذلك الإمام مالك وهو أسعد الناس بالدليل، لأن النبي لم يرد عنه ذلك. يا جماعة الخير النبي لم يرد عنه ذلك، وأنتم تقولون بأن هذه سنة مستحبة، أليس السنة المستحبة حكم شرعي؟ أين الدليل للحكم الشرعي؟ لا يوجد.

وبعدها ترى ضرب عشواء يقول لك: وقياساً على الحج، وطبعاً كل هذا ضعيف جداً في هذا الباب. لكن يقولون إن لم يكن الدليل فالتعليل، أين التعليل؟ لا يوجد تعليل، يصل المرء فيه لعدم تعظيم السنة وعدم العلم حقاً، والفقه هنا يفقد جوهرية الفقه، لأن أصل الفقه أن تعرف "قال الله، قال الرسول". إذاً من كان في هذا الطريق سيُرَد عن الحوض، لأنه لا بد ولا محالة سيبتدع في دين الله جلَّ في علاه، اللهم احفظنا بحفظك يا رب العالمين.

قال: والصراط منصوبٌ على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار؛ لا بد أن تتخيل عرصات يوم القيامة ماذا سيحدث؛ عندنا الصراط، يتلو الصراط القنطرة، يعني الصراط صعوبة المرور وعورة المرور، هناك كلاليب وحسك تخطف من كتب الله أن يكون في النار وهو يمر على الصراط، ولأن الصراط لمّا وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنه أدق من الشعر، وأحدّ من السيف، دحض مزلة). والصراط منصوب على متن جهنم في الآخرة، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يرده كل الأولون والآخرون، فيمرون عليه على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يسرع، ومنهم من يمشي، ومنهم من يحبو، ومنهم من يكون مكردساً، ومنهم من تخطفه الكلاليب.

في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يُضرب الصراط بين ظهري جهنم، ويمر المؤمنون عليه فرقاً؛ فمنهم كالبرق ومنهم كالريح ومنهم كالطير، وأشد الرجال، حتى يجيء الرجل لا يستطيع السير إلّا زحفاً. وفي حافتيه كلاليب مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوشٌ ناجٍ ومكردسٌ في النار). كما قال -صلى الله عليه وسلم-: (إن هذا الصراط دحض مزلة)؛ في المرور على الصراط، الأنبياء يقفون على جنبات الصراط وكل نبي يقول: اللهم سلم سلم، اللهم سلم سلم، اللهم سلم سلم.

وكلٌ يمر بحسب عمله، فإذا عبروا على الصراط كانت القنطرة، وهي جسر آخر. لكن القنطرة هذه للمؤمنين فقط، لأصحاب الجنة، لكن لا يدخلون الجنة إلّا بعد النقاء التام من المظالم، النقاء التام في القلب. يعني يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار (هذا كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-)، فيقتص لبعضهم من بعض مظالماً كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونقّاهم الله جلَّ في علاه، أذن الله

لهم في دخول الجنة. (فوالذي نفس محمدٍ بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا)، وهذا قول الله جلَّ في علاه: (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) [محمد:5-6].

لكن نقول كل هذا في المرور على الصراط، وأيضاً الوقوف عند القنطرة هذا قد يستثنى منه بعض المؤمنين. من الذي يستثنى؟ يستثنى من ذلك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، وأيضاً مع السبعين ألف مع كل واحدٍ منهم يدخل سبعون ألفاً أيضاً بغير حسابٍ ولا سابقة عذاب، فالقنطرة فقط لرد المظالم فيقتص لبعضهم من بعض.

بعد المرور وبعد ما يحدث من القصاص، قال: أُذِن لهم في دخول الجنة؛ يعني بعد التنقية أُذِن لهم في دخول الجنة. وسنبين إن شاء الله في الدرس القادم أن دخول الجنة مرهون باستئذان النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن يؤذن لهم ولا يؤذن لهم إلّا بعد شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثالث والستون: مما يكون يوم القيامة: دخول الجنة، والشفاعة

وصلنا في الواسطية إلى قول المصنف -رحمه الله تعالى-: وأُذِن لهم في دخول الجنة؛ يعني بعدما هم في القنطرة كما تكلمنا عنها قبل ذلك، قال: وأُذِن لهم في دخول الجنة، لا يمكن لأحدٍ أن يدخل في الجنة إلّا أن ينزع من صدره الغل، فهنا قال الله جلَّ في علاه: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) [الحجر:47]. وهذا قلنا بعد القنطرة، بعد إذابة المظالم، فالتطهير أمرٌ لازمٌ حتمي بين المؤمنين، سيدخلون كما وصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا إحن ولا شحن صدور).

فيؤذن لهم في الجنة، ولا يدخلون الجنة إلّا بعد شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال المصنف: وأول من يستفتح باب الجنة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته. وأول من يستفتح باب الجنة محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ يعني يطلب بقرع باب الجنة دخول الجنة، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت ألّا أفتح لأحدٍ قبلك) يعني بك لا بغيرك.

ونحن لا نحتاج إلى المفهوم، لأن ظهور المنطوق قد أنهى الأمر؛ (قال: بك أمرت ألّا أفتح لأحدٍ قبلك). ولذلك قال النبي: (أنا أول من يقرع باب الجنة)، وهذا أيضاً من الشفاعات التي ستأتي أنها خاصة بالنبي لا يشاركه أحدٌ فيها.

كما قلنا بأن هذه خاصة برسول الله تكريماً له، وأنه -بأبي هو وأمي- أول من يقرع باب الجنة، وأمته أول من تدخل الجنة، وهذه أيضاً كرامة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. فإن الله خصّه بكرامات، ومنها أنه الشفيع الأوحد الذي يشفع في عرصات يوم القيامة للقضاء كما سيأتي، وما من نبي إلّا يقول: لست لها لست لها، ويحيل على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وأمته أول الأمم دخولاً للجنة، قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته؛ هذا لفضل هذه الأمة، فقد بيّن الله كرامة هذه الأمة عليه وأنها أفضل الأمم على الإطلاق بقوله جلَّ في علاه: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110]، وقال الله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [البقرة:143]، وأيضاً لقول لله جلَّ في علاه: (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) [الجاثية:16]. وقد قال النبي الأمين: (نحن الآخرون الأولون)؛ يعني الآخرون خلقاً السابقون الأولون يوم القيامة، (بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم- في المسند، بحديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله)، ولذلك جعل الله جلَّ في علاه الصحابة الكرام خير طائفة صاحبت نبي هؤلاء، فهم خير الناس على الإطلاق خلا الأنبياء والمرسلين.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، فنحن أول من يدخل الجنة)، بل أكثر الأمم دخولاً للجنة هذه الأمة، النبي (لمّا رُفِع له السواد سد الأفق، قال: هذه أمتي؟ قالوا: لا، هذه أمة موسى. ثم رُفِع له سوادٌ آخر أعظم من هذا السواد سد الأفق فقيل: هذه أمتك) وليس الأمر على ذلك فقط (قيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا سابقة عذاب). وأعظم من ذلك أن النبي قال: (وأعطاني ربي مع كل واحدٍ (يعني من سبعين ألفاً) سبعين ألفاً يدخلون معه الجنة) مع كل واحد يدخل معه سبعون ألفاً آخرون.

لمّا قال النبي باجتماعه مع الصحابة: (أنتم ربع أهل الجنة، شطر أهل الجنة، ثلثا أهل الجنة)، يكبرون في كل مرة، ثم بشرهم بشارة هي أعظم البشارات قال: (ثم يحثو الرحمن بكفه ثلاثاً) يعني يحثو الرحمن من هذه الأمة في كفه ثلاثاً يدخلهم الجنة، فكبروا تكبيراً عالياً.

فهذه الأمة هي خير الأمم، ولذلك لمّا قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بأن الله يقول يا آدم: ابعث بعث النار، قال: ربي وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعةً وتسعين) ارتعب الصحابة (انقطع الدرس).

إذاً قلنا بأن دخول الجنة لا يكون إلّا بشفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه كرامة للنبي، وهي خاصة برسولنا لأن الملك أمر ألّا يفتح إلّا لرسول الله.

والشفاعة هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم؛ قال: له ثلاث شفاعات؛ أمّا الشفاعة الأولى فيشفع يوم الموقف. ذكر ثلاث شفاعات، هذه الشفاعات التي أراد أن يذكرها خاصة، هي شفاعات خاصة. الشفاعة جميعاً لله جلَّ في علاه، والله جلَّ وعلا لا يقبل بشفاعة أحد إلّا إذا توفر فيه شروط، ومن أعظم الشروط التي لا بد أن تتوفر: الرضا عن الشافع والمشفوع، والإذن للشافع أن يشفع.

ثلاثة خاصة بنبينا -صلى الله عليه وسلم-:

- الشفاعة الأولى: الشفاعة لقضاء الحساب، أن يأذن الله جلَّ في علاه سيقضي بين العباد، وهذه التي أحالها كل نبي إلى نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-. كله يقول: نفسي نفسي، لست لها اذهبوا إلى فلان، حتى يؤتى بها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول: (أنا لها، أنا لها. فيستأذن فيؤذن له، فيخر تحت العرش ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطى).

- ثم الشفاعة الثانية: شفاعة بعد القنطرة لدخول أهل الجنة الجنة، لا يدخلون الجنة قط إلّا بعد شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كلها خاصة بنبينا.

- الشفاعة الثالثة: الشفاعة في عمه، وهذه الشفاعة لعمه خاصة به، وإبراهيم لم تقبل شفاعته لأبيه، هذه خاصة برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. عندما قال: (لولا أنا لكان في ضحضاح من النار). ثم الشفاعات المشتركة: وهي الشفاعة لأهل الكبائر، والشفاعات لأهل النار، والشفاعات لرفع الدرجات.

تكلمنا عن الشفاعة، باب الجنة، وأول من يستفتح باب الجنة هو محمد -صلى الله عليه وسلم-. بعد ذلك دخل في كلامه على مسألة الشفاعة، وهي من الأهمية بمكان؛ قال: وله ثلاث شفاعات، وقال: يخرج الله له من النار أقواماً بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته.

والشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم؛ يعني الشفاعة: هي التوسط من وجيه لدفع مضرة أو جلب منفعة. وفي اللغة: جعل الوتر شفعاً، وهي مشتقة من الشفع، هي ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع.

والشفاعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، والأحاديث التي ذكرت الشفاعة أحاديث بلغت إلى حد التواتر؛ كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لكل نبيٍ دعوةٌ مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي)، وأيضاً قال: (لكل نبي دعوة يدعوها، فأريد أن أخبئ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة)، (لكل نبيٍ دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، واختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً).

وفي الصحيح أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: (أنا أول شافع وأنا أول مشفّع)، أيضاً قال: (لعله ينال) على عمه بشفاعته كذا وكذا، كما سيأتي. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خيره الله جلَّ في علاه بين أن يدخل شطر الأمة الجنة أو الشفاعة فاختار الشفاعة)؛ لأن الشفاعة أعم وأكمل، وهي تكون للمتقين وغير المتقين، حتى من كان في مآله في أول أمره دخول الجنة، ويكون في درجة أدنى من الدرجة التي كان يتمناها فإنه بشفاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- يرتقي درجة فوق هذه الدرجة.

والكتاب قد جاء بالشفاعة، لكن الكتاب أتى بشفاعةٍ ثابتة وبشفاعةٍ منفية، ووجهة الشفاعة الثابتة غير وجهة الشفاعة المنفية.

- الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكافرين كما قال الله جلَّ في علاه عنهم بأنهم قالوا: (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) [الشعراء:100-101]، وأيضاً في قول الله جلَّ وعلا: (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) [غافر:18]، وأيضاً قال الله تعالى عنهم: (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) [البقرة:48]، وقال: (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) [المدثر:48]، وقال: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) فكذبهم الله بذلك (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) [الزمر:44]. وهذه الشفاعة كما قلنا المنفية هي الشفاعة للكافرين.

بالنسبة لأهل السنة والجماعة والنظر إلى أهل الإسلام في النظر إلى الشفاعة، فأهل الإسلام أقروا جميعاً بالشفاعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنكرها المعتزلة والخوارج، هم ما أنكروا الشفاعة العظمى. والشفاعة العظمى: هي الشفاعة في فصل القضاء، فصل الخطاب بين أهل الموقف، وهذه ليس أحد من أهل البدع ولا من أهل السنة أنكر هذه الشفاعة، الجميع أقروا بها.

الشفاعة في العصاة أنكرها المعتزلة والخوارج، لأنها تهدم الأصل الذي بنوه على أن المؤمن إذا وقع في المعصية يكفر بذلك، وهم يكفّرون بالمعصية. وأمّا الشفاعة للكافرين فهي منفية عن جميع الخلق، حتى إبراهيم -عليه السلام- هو أبو الأنبياء، لكن استثني من ذلك أن النبي يشفع لعمه أبو طالب، لمّا سئل عن ذلك فقال: (هو في الدرك الأسفل في النار) أو قال: (لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار) وسيأتي إظهار ذلك عند تقسيم الشفاعات.

- والشفاعة المثبتة الله جلَّ وعلا ما جعلها شفاعة على الإطلاق، بل قيّد الشفاعة بقيدين ووصفين عظيمين:

- الأول الإذن؛ أن يأذن الله جلَّ وعلا لمن يشفع،
- والثاني الرضا عن الشافع والمشفوع؛

كما قال الله جلَّ وعلا: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة:255]؛ الشرط الأول الإذن، هذا القيد في الانتفاع بهذه الشفاعة. والشرط الثاني الرضا عن الشافع وعن المشفوع، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) [الأنبياء:28]. إذاً شرطا صحة الشفاعة التي من الله على نبينا بها كما قلت: الإذن والرضا عن الشافع والمشفوع. والأدلة بالكتاب كثيرة كما قلنا؛ قال: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)، (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى).

في قول المصنف -رحمه الله تعالى-: له ثلاث شفاعات؛ يعني للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاث شفاعات، هذه الشفاعات الثلاث خاصة برسول الله. لِمَ صدّر الباب بها؟ صدّر الباب بها لأنها خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، فأعظم شفاعة هي الشفاعة العظمى وهذه الشفاعة التي تراجع عنها الجميع، وأراد الله جلَّ وعلا بهذه الشفاعة إكرام النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-. فإن الأنبياء جميعاً يشفعون، ولا يقبل الله شفاعة أحد إلّا شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

عرصات يوم القيامة يحدث فيها ما فيها من الأهوال والعظائم كما وصفها الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج:1-2]، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً).

فيذهب الناس من شدة البأس في عرصات يوم القيامة يستشفعون بكل نبي، يذهبون إلى آدم ويقولون: أنت أبو البشر، أنت أبو الأنبياء، ومع ذلك يقول: نفسي نفسي إني أكلت من الشجرة، اذهبوا إلى نوح هو أول رسول إلى الأرض. فيقول: نفسي نفسي، إني

سألت ربي ما ليس لي به علم، اذهبوا إلى إبراهيم وهو أبو الأنبياء. فيقول -وهو أبو الأنبياء وهو خليل الرحمن-: نفسي نفسي، إني كذبت في جنب الله ثلاث كذبات، اذهبوا إلى موسى. وموسى كليم الله يقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى، وعيسى: يقول نفسي نفسي، اذهبوا إلى محمدٍ عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فيقول: فيأتونني فأقول: أنا لها أنا لها، فيستأذن فيؤذن له، فيخر ساجداً تحت العرش، فيحمد الله بمحامد علمه الله تعالى إياها في التو واللحظة، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطى واشفع تشفّع.

هذه الأولى وهي التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كان لكل نبي دعوة مستجابة، تعجلوا دعوتهم على أقوامهم)، النبي -صلى الله عليه وسلم- صبر على قومه صبراً أهّله لأن يشفع للجميع، قال: (لكل نبيٍ دعوة مستجابة، واختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي) وهو عندما يستأذنونه ويأتون إليه، يقول: أنا لها، أنا لها.

فكل نبيٍ دعا على قومه ومحمد -صلى الله عليه وسلم- صبر عليهم، حتى (لمّا جاءه ملك الجبال قال: أن أطبق عليهم الأخشبين؟ قال: لا، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحّد الله جلَّ في علاه)، هذه الشفاعة الأولى، وهذه خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لا ينازعه أحد فيها.

الشفاعة الثانية: وهي أن يشفع لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فإن باب الجنة لا يفتح قط إلّا بعد استفتاح النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قال أبو هريرة في حديث متفق عليه، وعن أنس أيضاً: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أول شفيعٍ في الجنة). لا يقبل الله أحداً يأتي لهذا المحل إلّا النبي -صلى الله عليه وسلم-، عندما يستأذن يسألونه، فإذا قال: محمد، أذنوا له؛ (يقول بك أمرت أن أفتح)، وهذه الشفاعة الثانية التي لا يملكها أحد.

وأمّا الثالثة: الخاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- هي الشفاعة لعمه وهذا أيضاً لا يشاركه أحد فيها، يعني هذه الشفاعة لا يشاركه أحد فيها "الشفاعة لعمه أبي طالب"، وهو كان من الكفار، لمّا جاء علي بن أبي طالب قال: مات الشيخ الضال، مات عمك الضال، قال: (اذهب فَوَارِه). النبي عندما جاءه العباس قال له: ماذا فعلت لعمك؟ كان ينصرك يعضدك يحوطك، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لولا أنا لكان في ضحضاحٍ من نار، إنه يلبس نعلين من نار يغلي بهما دماغه)، فهذه شفاعة أيضاً خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

فهذه الشفاعات الثلاثة لا يشارك النبي -صلى الله عليه وسلم- أحدٌ قط من الأنبياء، وهذه كرامة من الله لنبينا -صلى الله عليه وسلم- وإظهاراً لمكانته بين الأنبياء، فخصّه

بشفاعاتٍ ثلاثة؛ أعظم هذه الشفاعات الشفاعة لعمه، لأن إبراهيم -عليه السلام- لم يقبل شفيعاً في أبيه؛ (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) [التوبة:114]، وهو كان قد أعطاه العهد أن يستغفر له، فنهاه الله جلَّ في علاه ونهاه عن الشفاعة له، وهو لما تبيّن له ورأى أنه عدو لله جلَّ في علاه تبرأ منه. يأتي يوم القيامة إبراهيم -عليه السلام- يحج عن أبيه يريد أن يشفع، فيقال لإبراهيم: انظر تحت قدميك، فينظر فيجده كأنه ملطخاً بدماء الخنزير أو كانت على هيئة الخنزير فيتبرأ منه، عليه وعلى نبينا الصلاة وأزكى والتسليمات.

الشفاعة الرابعة: هذه مشتركة بين النبي والأنبياء، يعني لا ينفرد بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل أهل الإيمان والإسلام مع الأنبياء يشتركون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه، وهي الشفاعة فيمن استحق النار ألّا يدخلها. هي في عصاة الموحدين الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم، فيشفع فيهم فيدخلون الجنة من أول وهلة، وهذه كما قلنا فيها الإجماع من الصحابة وتواترت الأحاديث على أصل الشفاعة، ومنها هذه الشفاعة، أجمع عليها أهل العلم واتفقت الأئمة عليها، ومن أنكرها كان من أهل البدع والضلالة.

قال: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم؛ كما قلنا إنها مشتركة، روى ابن ماجة من حديث عثمان -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)؛ الله أكبر وهذا الترتيب أيضاً، ترتيب العلماء فوق الشهداء، مداد العلماء عند الله أعظم من دماء الشهداء.

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه وأرضاه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلّا أرحم الراحمين. فيقبض قبضةً من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط).

ومن الشفاعات أيضاً المشتركة، شفاعة للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يشفع لمن دخل الجنة أن يرتفع درجة من الدرجات، كما قال الله جلَّ في علاه: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:82]، (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ) [الطور:21]، وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ودعا لأبي سلمة: (ارفع درجته في المهديين).

وشفاعته في قومٍ حسناتهم تساوت مع سيئاتهم، فهذه شفاعة من باب أولى؛ الشفاعة التي كانت الأولى أنه شفع في أقوامٍ استحقوا النار فيشفع لهم فيدخلون الجنة من غير

حساب. وأيضاً يشفع لمن تساوت سيئاتهم مع حسناتهم أيضاً بدخول الجنة من غير سابقة عذاب.

- يشفع في أقوامٍ قد عذبوا وصاروا حمماً، فيخرجهم الله من النار بشفاعته.

- وأقوامٌ يشفع النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم بأن يدخلوا الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

كل هذه الشفاعات ليست خاصة بالنبي، بل هي مشتركة، والشفاعات الخاصة بالنبي:
◆الشفاعة العظمى فصل الخطاب ◆والشفاعة في عمه ◆والشفاعة لدخول الجنة.

أمّا الكفار -كما قلنا- أن الله جلَّ وعلا قال: (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)، (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)، لكن يقبل الله شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- في عمه، لأن النبي له مكانة عند ربه جلَّ في علاه وأيضاً لما فعل أبو طالب نصرةً لدين الله جلَّ في علاه.

ويخرج الله أقواماً من النار؛ إخراج الله جلَّ وعلا أقوام من النار لا بد أن نقول فيهم شرطٍ واحد أصيل وهو التوحيد، لأن الله قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]، وكتب الله جلَّ في علاه على أن من أشرك به يخلّد في نار جهنم. وأمّا دخول النار من أهل الجنان لا يخلّدون فيها لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خالداً مخلداً فيها)، لا يخلدون فيها، هو خالد بخلودها، فهي تفنى بعد خروجه، والله تعالى أعلى وأعلم في هذا.

قال: ويبقى في الجنة فضل عمّن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة؛ إذاً هنا الله جلَّ وعلا يخلق خلقاً جديداً للجنة، لأن الجنة سعتها عظيمة، قال فيها الله جلَّ وعلا: (عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) [آل عمران:133]، فهذا الأصل. فإذاً نقول بأن ينشئ الله جلَّ في علاه نشأً للجنة لتمتلئ، وأمّا النار فإنها (كلّما قالت: هل من مزيد؟ فيضع الجبار فيها قدمه فتنزوي وتقول: قط قط، قط قط). ونحمد الله على نبينا صلى الله عليه وسلم، وأنه الشفيع المشفّع.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الرابع والستون: يبقى في الجنة فضلٌ عمّن دخلها من أهل الدنيا

وقفنا عند قول المصنف -رحمه الله تعالى-: ويبقى في الجنة فضلٌ عمّن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة. وأصناف؛ يعني ثلاث أصناف، وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورةٌ في الكتب المنزلة من السماء، والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

قوله: ويبقى في الجنة فضلٌ؛ والمعنى أنه هناك زيادة في الجنة عمّن دخلها من أهلها، لأنها شاسعة، الله تعالى خلقها وجعلها واسعة. رغم أنك تعلم بأن كل واحد يكون له نصيبه وما يرثه عن الكافر الذي كان مكانه، ومع ذلك يبقى فيها موضع لنشأ، فينشئ الله جلَّ في علاه ويخلق الله جلَّ في علاه أقواماً للجنة، يدخلهم الجنة بفضله ورحمته.

فهؤلاء الأقوام ما كانوا في الدنيا، وهؤلاء الأقوام ما خلقهم الله إلّا للجنة، والله يفعل ما يشاء، (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [الأنبياء:23]، بمحض فضله وكرمه ونعمائه.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك -رضي الله عنه وأرضاه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنه الله جلَّ وعلا في فضل الجنة)، وفي روايةٍ: (يبقى من الجنة ما شاء الله أن يبقى، ثم ينشئ الله سبحانه وتعالى خلقاً فيسكنهم فضل الجنة).

هناك لفظة: "وينشئ الله للنار من يشاء فيلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟"، فهذا غلطٌ كبير، هنا انقلبت الرواية على الراوي لمّا يقول: "ينشئ الله للنار"؛ لا، ولا سيما وأن الله جلَّ وعلا ما خلق الخلق ليعذّبهم، وما خلق النار إلّا عقاباً للحكمة البالغة لمن عتى وطغى وتكبّر، فلا ينشئ الله نشأً يخلقه للنار ويضعهم في النار، تأبى حكمة الله ذلك وتأبى رحمة الله ذلك. بل ابن تيمية على ما نُقِل عنه بفناء النار، ما تمسك أكثر ما تمسك به؛ أن رحمة الله تأبى خلود هؤلاء في العذاب. قال الله جلَّ في علاه: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف:156]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قد كتب الله كتاباً هو عنده فوق العرش؛ رحمتي غلبت غضبي).

فهذا اللفظ فيه ما فيه من الغلط والانقلاب على الراوي، والرواية الصحيحة ونص القرآن على خلاف ذلك. فإن الله سبحانه وتعالى قد بيّن في كتابه في غير ما موضع أنه

يملأ النار بإبليس ومن اتبعه أجمعين، والله جلَّ وعلا لا يعذب أحداً إلّا بإقامة الحجة عليه، فكيف يخلق خلقاً للنار خاصة؟ أعوذ بالله.

قد قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) [التوبة:115]، قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:15]. وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ليس أحدٌ أحب إليه العذر من الله). فكيف ينشئ نشئاً ويخلقهم ليعذبوا؟ هذا بعيدٌ جداً، وهذا لفظ انقلب على الراوي. والرواية الصحيحة على أن الله ينشئ للجنة، وأمّا أهل النار الذين هم أهل النار في خلودٍ فيها، (وإن النار تقول: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ فيضع الجبار قدمه فيها حتى تنزوي وينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط، قط قط). قال الله جلَّ وعلا: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) [الملك:8]، لأن الله قال: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:15].

وأربع لهم الحجة على الله يوم القيامة:

- المجنون الذي جاءه يقول: جاءني رسولك ولم أعقل شيئاً،

- والهرم الخرف أيضاً يقول: ما أدركت الناس يقولون على قولٍ، ما أعرف شيئاً،

- وأيضاً الصبيان قد ورد فيها دلالة على ذلك،

- ومن أهل الفترة يقولون: ما آتانا من رسولك، فيختبرون يوم القيامة فيؤمرون بالنزول إلى النار، فإن نزلوها كانت برداً وسلاماً عليهم.

قال المصنف: وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب ومن العقاب؛ يعني ما اشتملت عليه الدار الآخرة. والدار الآخرة هي التي فيها الجنة والنار، تنقطع الدنيا عنها، وسمّيت الدار الآخرة لأنها التي تعقب الدنيا فتتأخر عنها. وقد كتب الله جلَّ في علاه أن الدار الآخرة هي التي فيها النعيم السرمدي الأبدي، فهي فيها الديمومة، وقال عن أهل الجنة إذا دخلوا فيها في الدار الآخرة: (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) [الكهف:108]. ما تضمنه الدار الآخرة من الحساب؛ الحساب قد سبق وبينا الميزان والصراط والوقوف على القنطرة، وأيضاً الكلام على الموازين: ميزان الكتب والصحف وميزان الأعمال وميزان العاملين.

قال: الثواب والعقاب؛ والثواب هو المثوبة والجزاء على الطاعة، والحق أن الثواب يطلق ويصح أن ينزل على ممدحة الطاعة وعلى عاقبة الطاعة وعلى عاقبة المعصية، لكنه يستعمل أكثر في عاقبة الطاعة. قال الله تعالى مبيناً أن الثواب والعقاب أو العقوبة والكرامة في الآخرة حين قال: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة:7-8]، قال الله تعالى: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) [المجادلة:6].

وقال الله جلَّ وعلا: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس:78-79]، وما أحياها إلّا للمثول بين يديه، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تحشرون حفاةً عراةً غرلاً، فيخرجون مهرولين إلى رب العالمين).

قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) [النجم:31-32]. وقال الله جلَّ في علاه في أشرف حديث عند أهل الشام: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه).

وقد جاءت الآيات تبيّن لنا أن الجنة جزاء لعمل الإنسان، والنار كذلك؛ كما قال الله جلَّ وعلا: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) [الزخرف:76]، وقال الله جلَّ وعلا: (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [الحج:10]، قال الله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم:41]. وقال: (أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الأعراف:43]، لكن ما الفرق بين الباء التي لأهل السنة والجماعة وباء المعتزلة؟ باء المعتزلة جعلوها مقابلة وأوجبوا على الله جلَّ في علاه الثواب والعقاب، والله جلَّ في علاه يقول: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ). أستغفر الله، إن الله لا مُكْرِه له سبحانه جلَّ في علاه، والجنة ليست مقابل للعمل، العمل حتى ما يوفي نعمة من نعائم الله جلَّ في علاه.

قلت قبل ذلك الحديث الضعيف؛ أن رجلاً صام النهار وقام الليل، فحشره الله جلَّ في علاه وقال: أدخل الجنة برحمتي، قال لا بعملي، قال: ننظر عملك ونعائمنا. أولاً قرره؛ من شق لك البحار والأنهار؟ قال: أنت، من أينع لك الثمار؟ قال: أنت، من قوّى بدنك وقلبك على القيام؟ أنت، فمن الذي أيقظك ليلاً أو نهاراً؟ أنت. فقال: قارنوا بين نعمة من نعائمنا وبين عمله؛ أخذت نعمة البصر وعمله في كفة فرجحت كفة البصر، فقال: إلى النار، فوقف على فوهة النار فقال: ما يبقيك؟ قال: أنتظر رحمتك، قال: أدخل الجنة برحمتي، قال: برحمتك، ودخل.

وهذا حق لأن النبي قال: (لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته). إن دخول الجنة بالرحمة، لكن الرحمة لابد لها من سبل، ما هي؟ هو أن يتخذ السبيل إلى أن يستحق ويستأهل أن يكون أهلاً للرحمة، هو أن يقدم

الطاعات؛ (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) [الأنفال:51]، (أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الأعراف:43]، قال (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الواقعة:24].

قال: والجنة والنار؛ الجنة هي ثواب المؤمنين المتقين، والنار هي عقاب الكافرين الظالمين الفاسقين. والجنة لغةً: هي البستان الذي فيه الأشجار الكثيرة المثمرة، وسمّيت جنة لاجتنانها وتسترها بالأشجار. والمراد بها هي الجنة التي جعلها الله مثوى المتقين، مآل المتقين، هذه الجنة كما بيّن الله جلَّ في علاه أنه خلقها، فهي مخلوقة رداً على المعتزلة، ولذلك هو قال: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) [آل عمران:133]، (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) [ق:31]. وقال عن النار: (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) [النبأ:21-22]، وقال أيضاً: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة:24].

وعن الجنة قال: (أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ) [الحديد:21]؛ لمّا خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فنظر إليها قال: أي رب وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحدٌ إلّا دخلها. ثم حفها بالمكاره ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب ونظر إليها ثم جاء فقال: أي رب لقد خشيت ألّا يدخلها أحد، فلمّا خلق النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: أي رب وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها، ثم حفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، قال: يا رب وعزتك وجلالك لقد خشيت ألّا يبقى أحدٌ إلّا دخلها.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة).

وفي الصحيح؛ لمّا انخسفت الشمس على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قالوا: رأيناك في الصلاة تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك تكعكعت، فقال: (إني رأيت الجنة وتناولت عنقوداً لو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أرَ منظرها كاليوم قط أفظع منها)، لأنه تقدم وتأخر فسألوه عن ذلك، ما تركوا شيئاً يفعله إلّا سألوا عنه. والنبي قال: (أعد الله الجنة لأوليائه والنار لأعدائه).

أمّا المعتزلة والقدرية هؤلاء أهل الضلالة، قالوا بأن الجنة لا فائدة أن تكون موجودة الآن، أعوذ بالله. وهذا دلالة على أنهم ما يؤمنون، لمّا قالوا ليست الجنة موجودة الآن؛ إيجادها اليوم أو الآن عبثاً، الله جلَّ وعلا سينشئها بعد الحساب. وهذا ضلال مبين، إن لم يكن كفرٌ مبين، وأيضاً فيه ما فيه من الخطأ واللغط، لمّا يقول بأنها ليس لها فائدة هذا عبث. هم يقولون إنشاؤها الآن عبث ليس لها فائدة، الرد عليهم:

- هناك غرس لهم في الجنة، يبنى له قصر وبيت في الجنة،

- والأمر الثاني أيضاً البرزخ، الحياة البرزخية، أليست روح المؤمن عموماً نسمة في حواصل طير تعلق بشجر الجنة؟

والجنة والنار لا تفنيان، فالنقل عن ابن تيمية أنه قال بفناء النار؛ كذّبه أحدهم وخطّأه أحدهم ووثّقه أحدهم؛ يعني الصنعاني يميل إلى أنه قال ذلك، والألباني أيضاً يميل إلى أنه قال ذلك، ابن القيم وسّط المسألة أنه ما قال ذلك هو قال إن نار الموحدين تفنى، على أساس أن حكمة الله جلَّ في علاه تأبى أن تخلو نار الموحدين وتبقى؛ هي تخلو لماذا تبقى؟ ما الفائدة ببقائها؟ هذا هو النظر.

ولذلك قال الله جلَّ في علاه عن الجنة: (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) [الرعد:35]، وقال عن أهلها: (لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) [الكهف:108]، وقال: (إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) [ص:54]، (وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ) [الحجر:48]. وقال في النار: (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) [المائدة:37]، وقال: (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) [الأحزاب:65] على التأبيد. وهذه كما قلنا فيها دلالة على تخطئة من قال بفناء النار، وهي لا تفنى، الحق لا تفنى، أمّا نار الموحدين فالله أعلم هي التي تفنى.

قال: والأثارة عن الأنبياء والمرسلين، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي؛ هو يقول: تفاصيل ذلك في الكتب المنزّلة. هو الحق الكلام على يوم القيامة، الكلام على الثواب والعقاب، عن الجنة والنار أتى به آدم ونوح. لأن هي قصة المرسلين أن يبيّنوا أولاً المطلوب منهم، ثم ثواب من فعل ذلك وحققه، وعقاب من حاد عن ذلك وكفر به وجحد به. فنقل عن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، كل هؤلاء كانوا يأمرون أممهم بتوحيد الله جلَّ في علاه وأن يبيّنوا لهم ثواب من وحّد الله حقاً وعقاب من أشرك بالله حقاً.

قال الله تعالى عن آدم حين أهبط إلى الأرض: (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) [الأعراف:24]، وقال في الدنيا: (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) [الأعراف:25]. ولذلك لمّا دعا إبليس (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) [الحجر:36-38]. ولذلك قال نوح لقومه: (وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) [نوح:17-18].

وقال إبراهيم: (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [الشعراء:82]، كل ذلك مأثور عن الأنبياء. وذكر الله جلَّ وعلا في الكتاب عنهم عندما قال مؤمن آل فرعون: (وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) [غافر:32]، وقال: (إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ

وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) [غافر:39]. والله قال لموسى: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) [طه:15]، ونقل ذلك للناس.

يقول: العلم المأثور عن الأنبياء هو العلم الشرعي؛ هو العلم النافع، هو العلم بالله والعلم بأمر الله ونهيه، وأيضاً العلم بثواب ذلك وعقاب هذا، هذا هو العلم. وما من آية جاءت يعني تمدح العلم وأهل العلم، وما من آية جاءت تمدح العلماء إلّا كان المقصود بها علم الشرع. ولذلك فإن الله جلَّ وعلا مدح أيما مدح في كتابه للعلماء ولأهل العلم؛ قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة:11]، وقال الله جلَّ في علاه: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الزمر:9].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنما العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، ولكن ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر)، وأيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، وأيضاً قال: (كفضلي أنا على أدناكم)، ولذلك قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم).

قال: وفي علم النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يكفي ويشفي؛ يعني شريعتنا جاءت واستوعبت كل شيء، بما أنزله الله تعالى في كتابه وبما أرسل به رسوله مبيناً لكتابه بسنته؛ (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، وأيضاً قال الله تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) [العنكبوت:51]، وقال: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء:82].

ولأهمية ذلك أمر بطلب العلم وقال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم). ولذلك قال الله جلَّ في علاه: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران:81]. وأيضاً لمّا دخل النبي على عمر بن الخطاب فوجد معه من التوراة ورقة، قال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني).

ثم قال: وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره، قال: الفرقة الناجية؛ فنتكلم على فرق أهل الإسلام ومن الفرقة الناجية، ولمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها الفرقة الناجية، هذا نبينه إن شاء الله ونفصّله بإذن الله تعالى.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس والستون: فصل في الإيمان بالقدر

وصلنا إلى قوله: وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره؛ من الفرقة الناجية؟ جاء الحديث في هذا الباب تصريحاً بالفرقة الناجية، قل هي الطائفة المنصورة التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)، وقد أيضاً يكون غير ذلك. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعون فرقة كلها في النار إلّا واحدة)؛ هذه الفرقة الناجية التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- ووصفها.

فالفرقة الناجية هي الطوائف المنصورة هي التي تبقى إلى آخر الزمان، ويجعل الله راية الإسلام على أيديهم، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفرقة الناجية: (من كان على ما أنا عليه أنا وأصحابي)، وهم الذين يمثّلون قول النبي: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم). لِمَ؟ لأنهم على الكتاب والسنة، فإنها تتمسك بالكتاب وبالسنة وتعض على ذلك إلى أن يأتي أمر الله جلَّ في علاه، وهم على ذلك لا يحيدون عمّا هم فيه ولا يحركهم عن طريقهم أحد بحال من الأحوال، يتمسكون بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك).

هذه هي الطائفة وهذه الفرقة التي نجت بحق لأنها اعتقدت ما اعتقده الصحابة، وهي التي تمسكت بما تمسك به الصحابة؛ هم على النهج الأول، الشمس التي أشرقت على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم أشرقت على الدنيا بأسرها، هذه هي الشمس التي يستنير بها أهل الصلاح وأهل نصرة الدين.

هذه هي الفرقة الناجية التي هي -كما قلنا- تكون على الكتاب والسنة؛ هؤلاء لا يشترط أن يكونوا العلماء فقط أو العبّاد فقط، بل هي متنوعة لكنها تجمعها نقطةٌ واحدة أو يجمعها طريقٌ واحد أو يجمعها خطٌّ واحد يجمعها، التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. يجمعها أنها على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنها مهما حدث من التقلبات فسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الحاكمة، وعند الخصومات؛ فالخصومات فرط نزاعها السنة الحاكمة فقط.

لذلك ارتقوا، ولذلك صارت طائفة -وإن كانت قليلة- على الحق. ولذلك أنت ترى في جموع من ادّعى السير على طريق الله جلَّ في علاه، قال حذيفة: السنة تجمّع والبدعة تفرّق؛ فكلٌ يقيس حاله وينظر في ذلك هل جمّع أم فرّق؟ هل اجتمع أم تفرق؟ هذه هي التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي عبيدة ابن جراح: (تطاوعا ولا تختلفا)، وهذه التي قال فيها الله جلَّ في علاه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران:105]، وأيضاً هي التي قال فيها الله جلَّ في علاه: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) [الأنفال:63].

قال: أهل السنة والجماعة؛ وجعلهم هم أهل السنة الذين يتمسكون بالسنة هم الجماعة، هذه أيضاً تبين لك أن الجماعة السنة، أنت الجماعة حقاً لو كنت وحدك إذا كنت على السنة.

لذلك قال: وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره؛ يعني هي تؤمن بالقدر خيره وشره. أنا قلت أيضاً نفهم من قوله: أهل السنة والجماعة؛ لا بد أن نعلم أن الجماعة لا تكون جماعة إلّا إذا كانت على السنة، هذا الأصل الذي لا بد أن نفهمه جيداً. كيف الربط بين السنة والجماعة؟ ما العلاقة بينهما؟ العلاقة بينهما أن الجماعة لا تكون جماعة إلّا إذا اجتمعت على الحق، فهي ليست جماعة معتبرة إلّا إذا كان اجتماعها على الحق. ولذلك الإجماع ما كان إجماعاً إلّا أنهم يجتمعون على الحق لقول النبي -وهذا الحديث جاء موقوفاً ومرفوعاً-: (لا تجتمع أمتي على ضلالة). وإذاً فأنت أنت الجماعة ولو كنت وحدك إذا كنت على السنة.

قال: وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره؛ يعني من أهم ما يكون إيماناً لهؤلاء "أهل السنة والجماعة" هو أنها تؤمن بالقدر خيره وشره. والإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان لقول الله جلَّ في علاه: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) [البقرة:285]؛ (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) في هذا عين الشرع، وعين القدر التسليم.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءه جبريل فسأله عن الإسلام وعن الإيمان، ذكر من الإيمان أركانه وقال: (تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره)، وفي روايةٍ ضعيفة: (حلوه ومره). والصاحب الجليل قال لابنه: يا بني أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن مت على غير ذلك فأنت في النار.

وأيضاً قد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الإيمان بالقدر واجبٌ من أركان الإيمان، حين قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال له رجل: يا رسول الله أرأيت فيما نعمل، أفي أمرٍ قد مضى وانقضى أم فيما هو أنف مستقبل؟ قال: (فيما مضى وانقضى)، قال: أفنتكل على ذلك؟ قال: (لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

فقال: بالقدر خيره وشره؛ والقدر هو قدرة الله جلَّ في علاه لا مدخل للعقل فيه بحال من الأحوال، ولذلك زلت الأقدام عندما تدخل فيه بعضهم بعقولهم، لذلك قال الإمام أحمد عن القدر -وهو دحض مزلة-: هو قدرة الله، سرٌ من أسرار الغيب. وهو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، وهو أصل من أصول الإيمان الستة كما بينا ذلك.

أول من قال بالقدر بأن الأمر أنف معبد الجهني، كما في صحيح مسلم عن ابن عمر قال: والذي نفسي بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ثم استدل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره)، وهذه فيها دلالة على أن ابن عمر قد كفّرهم على ذلك، قال: إني منهم براء وإنهم مني براء؛ للإيمان بالقدر لأنهم يقولون الأمر أنف.

وقال طاووس -رحمه الله-: أدركت ثلاثمئة من أصحاب رسول الله يقولون كل شيءٍ بقدر، حتى الضحك كما قال ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-، وقال أيوب السختياني: أدركت الناس وما كلامهم إلّا أن الله قضى وقدّر. وفي صحيح مسلم عن طاووس: أدركت أناساً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولون كل شيءٍ بقدر، وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (كل شيءٍ بقدر حتى العجز والكيس).

القدر مرتبط بأن الله جلَّ وعلا يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف سيكون؛ فعلم أعمال العباد ومكانات العباد، وقدّر أرزاق العباد، وكل شيءٍ قد انتهى، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (خرج بكتابين بكتاب عن يمينه وكتاب عن شماله؛ بكتاب عن يمينه فقال: هذا كتاب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم أجمل على ذلك، قال: وهذا كتاب فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وذرياتهم ثم أجمل على ذلك لا زيادة ولا نقصان، فرغ ربكم من العباد).

وفي قوله: خيره وشره؛ ما من شيء إلّا وهو بقدر الله جلَّ في علاه؛ الخير والشر، فقد خلقه الله جلَّ في علاه. لكن في قوله: (خيره وشره)، (حلوه ومره)؛ هذا الخير والشر إلى المفعولات لا إلى الفعل، ففعل الله جلَّ في علاه كله كمال. والشر في المفعولات، والخير في فعل الله وفي المفعولات، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك).

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السادس والستون: الدرجة الثانية: درجة المشيئة والقدرة

وصلنا مع الواسطية في الكلام عن القدر بقوله: وأمّا الدرجة الثانية؛ فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات وما في الأرض من حركةٍ ولا سكونٍ إلّا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيءٍ قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوقٍ في الأرض ولا في السماء إلّا الله خالقه سبحانه وتعالى، لا خالق غيره ولا رب سواه. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

هنا هذه الجزئية في الواسطية قال: وأمّا الدرجة الثانية؛ فهي مشيئة الله؛ المشيئة: هي الإرادة الكونية، ومشيئة الله جلَّ في علاه تعم، وأن ما شاء الله جلَّ في علاه كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يكون في الكون إلّا ما شاء الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [البقرة:253]. إرادة الله إرادتان: إرادة كونية وإرادة شرعية.

والإرادة الكونية لها ضابطان:

- ضابط الإرادة الكونية بأنها عامة؛ تعم فيما يحبه الله جلَّ في علاه وما لا يحبه الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)، فإن الله لا يريد لهم القتال شرعاً وأراده كوناً.

ضابط الإرادة الكونية العموم فيما يحبه الله وما لا يحب؛ إن الله لا يحب سفك الدماء، بل إن الله جلَّ في علاه قال: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)[النساء:93]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن)؛ فالله يبغض سفك الدماء، ومع ذلك الله جلَّ في علاه يفعل ما يريد، له حكم وشؤون في عباده، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ). فهي تعم فيما يحبه الله وما لا يحبه الله جلَّ في علاه؛ فيما يحبه الله: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ) [البقرة:185].

- وهي تقع لا محالة.

إذاً عندنا أمران ينضبط بهما الإرادة الكونية: العموم والوقوع.

والإرادة الشرعية لها أيضاً ضابطان:

- الضابط الأول أنها خاصة؛ وهذا الفارق بينها وبين الإرادة الكونية "المشيئة". ماذا يعني خاصة؟ خاصة فيما يحبه الله جلَّ في علاه ويرضاه فقط؛ نضرب بها مثلاً: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة:185]، (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا) [النساء:28].

- الضابط الثاني أنها قد تقع وقد لا تقع.

فإذاً لنا أن نقول بأن هذه المرتبة مرتبة من مراتب القدر "مرتبة المشيئة"؛ علم فكتب فأراد فخلق سبحانه جلَّ في علاه. وكما قلنا بأن الإرادة إرادتان: إرادة كونية وإرادة شرعية، فالقضاء: قضاءان قضاءٌ كوني وقضاءٌ شرعي، والإذن أيضاً: إذنٌ كوني وإذنٌ شرعي.

وكما قلنا إن مسألة الإرادتان مسألة من الأهمية بمكان، لأنهم قد يتفقان وقد يفترقان؛ الإرادة الكونية والإرادة الشرعية اتفقا في إيمان المؤمن، فإن الله يحب منه ذلك وإن الله أوقعه منه، فإيمان المؤمن اتفقت فيها الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

أمّا كفر الكافر فافترقت الإرادة الشرعية عن الإرادة الكونية، لأن كفر الكافر غير مراد شرعاً لكنه مراد كوناً. إيمان الكافر هذا مراد شرعاً غير مراد كوناً، أمّا كفر المؤمن هو غير مراد شرعاً وأيضاً غير مراد كوناً.

هذه بالنسبة لمسألة المشيئة وأن الإرادة إرادتان: إرادة كونية وإرادة شرعية؛ وهذه المرتبة الثالثة.

قال: وإن الله خالق؛ قلنا "علم فكتب فأراد فخلق"، وأنه جلَّ في علاه ما من مخلوقٍ في الأرض ولا في السماء إلّا وهو خالقه لا خالقٌ غيره سبحانه جلَّ في علاه، قد قال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]، (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الطلاق:12]. فهو الخالق سبحانه جلَّ في علاه، وهذه المرتبة يظهر فيها خلق أفعال العباد، وضل فيها أفهام وزلت فيها أقدام.

والله قد خلق أفعال العباد، ما من مخلوقٍ لله جلَّ وعلا إلّا والله خلقه، قال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ). والأدلة على خلق أفعال العباد؛ قال الله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]؛ أي خلقكم وخلق عملكم، على أن (مّا) مصدرية. (خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)؛ موصولة، أي والذي تعملون، وهذا الأصح وهو أبلغ.

انظر إلى الثمرة التي كانت في أيديكم الله خلقها؛ من الذي خلق أدواتها؟ من الذي ركّب فيك العقل ووفقك وجعل فيك الهمة والإرادة لفعل ذلك وصنع ذلك؟ في الحقيقة هو

صنع الله جلَّ في علاه، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الله خلق كل صانعٍ وصنعته). إذاً أفعال العباد مخلوقة لله جلَّ في علاه، ولذلك العبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله جلَّ في علاه، ليست مشيئة مستقلة؛ (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29].

هناك مسألة مهمة جداً خاتمة هذا الباب، وهي فعل العبد ينسب للرب وينسب للعبد، فإن قلت كيف؟ قلنا ينسب للرب خلقاً وإيجاداً، وينسب للعبد فعلاً واكتساباً. في سورة النساء قال الله تعالى عن أهل الكفر قالوا: (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) [النساء:78-79]، قال الله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم:41].

فينسب فعل العبد لله خلقاً وإيجاداً، لأنه لا يمكن أن يكون في الكون ما لا يرضاه الله جلَّ وعلا ولا يريده، فينسب للرب خلقاً وإيجاداً، وينسب للعبد فعلاً واكتساباً.

فما من مخلوقٍ في الأرض ولا في السماء إلّا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا رب سواه؛ هذا فيه رد على القدرية والجبرية. هذه المسألة مسألة من الأهمية بمكان، لأنها تتناول في هذا الباب أن الله جلَّ في علاه خلق كل شيء، ومن الشيء أفعال العبادة. وهذا رد على القدرية؛ الذين قالوا بأن العبد يخلق فعل نفسه.

المراتب الأربعة تذكيراً:

١- المرتبة الأولى مرتبة العلم، وأن الله أحاط بكل شيءٍ علماً، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. وأيضاً الخلق؛ فإن الله جلَّ في علاه قد خلق الخلق فأبدعه سبحانه جلَّ في علاه.

٢- الثانية الكتابة؛ وقلنا أن الله جلَّ وعلا كتب كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة).

وإن الكتابة مراتب:

- كتابة اللوح المحفوظ: وهذه فيها كل شيء، لا تتبدل ولا تتغير.

(ملاحظة: تم إعادة ترتيب الكتابات كما صححها فضيلة الشيخ)

والكتابة الثانية الكتابة العامية: وهي الكتابة التي تكون في ليلة القدر، كما قال الله عنها: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [الدخان:4]؛ قال ابن عباس في هذه الليلة: ليلة القدر؛ يكتب الحاج الذي يموت، والذي يولد، والذي يحيا، والذي يمرض، والذي يشفى، كل شيءٍ في العام يكتب في هذه الليلة. وهذه الكتابة بيد الملائكة، معرَّضة للتبديل والتغيير.

والكتابة الثالثة كتابة الملائكة: وهي الكتابة العمرية، عندما يتكون الجنين في بطن الأم فإن (الملك يقول: أي رب الرزق؟ أي رب الأجلّ؟ أي رب ذكر أم أنثى؟ أي رب شقي أم سعيد؟) وهذا في حديث ابن مسعود، ينبئ بعد مرور المئة وعشرين يوم. حديث حسان بن أسيد، فيه لفت الانتباه إلى أنه يمكن أن ينفخ في الروح بعد اثنين وأربعين يوم. لكن الأصل في الكلام في هذا الباب أن هذه الكتابة العمرية وهي كتابة الملك حين يكون الجنين في بطن أمه، وهذه الكتابة معرَّضة للتغيير والتبديل.

الكتابة الرابعة الكتابة اليومية؛ (فيكم ملائكة يتعاقبون عليكم بالليل والنهار يتقابلون في الفجر وفي العصر)، قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثم يعرج الذين باتوا فيكم بما كتبوا).

والدلالة على أن هذه الكتابات يكون فيها التغيير والتبديل قول النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-: (أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- يعلم بذلك.

وقبلها حديث آدم عندما ذكر: (لمّا نثر الله بين يديه ذريته، وجد منهم عبداً أعجبه وميض النور بين عينيه، قال: من هذا؟ قالوا: هذا داوود عبدٌ من عباد الله جلَّ في علاه من ذريتك. قال: كم عمره؟ قالوا: ستون (أو قالوا: أربعون)، فقال: أعطوه من عمري ستين (أو أربعين))؛ مع أنه مكتوب في اللوح المحفوظ على سنه وعمره، فلا بد من التوجيه في هذا الباب أنه مكتوب بأنه عمره أربعون ويأخذ من عمر آدم ستين فيتم المئة.

عمر بن الخطاب لمّا طاف بالبيت بكى وقال: اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً، ثم قرأ قول الله جلَّ في علاه: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39].

٣- المشيئة: ومشيئة الله نافذة عامة لا يكون في الكون إلّا ما شاء الله جلَّ في علاه، فما شاء الله كان ومن لم يشأ لم يكن. وللعبد مشيئةٌ؛ ومشيئة العبد تحت مشيئة الرب، تابعة لها. قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29]؛ إذاً أثبت له مشيئة، ولكنها مشيئة تابعة لله جلَّ في علاه، ليست مشيئة مستقلة، لأنه لا يمكن في كون الله جلَّ في علاه شيءٌ ما شاءه أبداً، -أعوذ بالله- لا غالب له، لا راد لقضائه سبحانه جلَّ في علاه.

٤- الخلق: فخلق كل شيء، ومن الشيء أفعال العباد؛ رداً على القدرية الذين جعلوا العباد خالقين مع الله جلَّ في علاه. قال: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]، و(كُلِّ) نص في العموم. وهذا قد فصلنا فيه القول الأسبوع الماضي.

قال: فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلّا الله خلقه سبحانه، لا خالق غيره ولا رب سواه. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن معصيته. هذه مسألة مهمة، هذا لفت انتباه لمسألة من الأهمية بمكان في أبواب القدر ما هي؟ ما هي المسألة المهمة التي يمكن أن نقول لفت الانتباه لها في قوله: ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسوله، ونهاهم عن معصيته؟ ثم قال: وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

الجواب: هذا لفت الانتباه لمسألة من الأهمية بمكان، هي عصب المسألة بأبواب القدر؛ وهي الجمع بين عين القدر وعين الشرع، وأنه لا تعارض بين القدر وبين الشرع بحال من الأحوال. لعل الله قضى بالمعصية، لكنه نهى عنها وهو لا يحبها ولا يرضاها، ولم يقضِ بالطاعة في زيد أو عبيد مع أنه يحبها منهم، يحب الطاعة منهم ويرضاها، لكنه ما قدّرها.

فلا يصح التعارض بين عين الشرع وعين القدر، فالجمع بين العينين هذا عصب باب القدر، وأنه لا يضرب بالقدر بالشرع، ولا شرع بالقدر بحال من الأحوال.

ونحن بين طائفتين منحرفتين ضالتين: القدرية والجبرية؛ هؤلاء (القدرية) يقولون لا قدر أصالةً، الأمر أنف، فالمعصية بمحض إرادة العبد والطاعة بمحض إرادة العبد، ولا مدخل للرب في ذلك، فكان في كونه ما لا يريد ولا يرضاه ولا يقضيه، وكذبوا والله بهذا. والجبرية يقولون كلٌ فعل الله جلَّ في علاه.

فهو قال بمعنى أنه قد قدّر المعصية ولا يحبها ولا يرضاها، ومع ذلك قدّرها لكنه ينهى عنها. وهذا حسن الجمع بين عين الشرع وعين القدر، وهذا يردنا إلى القول بأنه لا يمكن الاحتجاج بالقدر بحال من الأحوال، هذا سيأتي. لذلك قال: وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين؛ مع أنه قدر على بعض أناس لا إحسان ولا إيمان، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد؛ مع أنه قدر ذلك كوناً.

ولذلك كان في الأمر؛ قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) [النساء:64]، (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) [النساء:80]. ولذلك قال علماؤنا: من ادعى أن العارف (يعني بالله) إذا شهد الإرادة سقط عنه الأمر، كان هذا من الكفر. ولذلك أنت ترى الطوائف المبتدعة الذين يقولون أن سقطت التكاليف عندما بلغ مبلغاً معيناً، وهذا ضلال مبين وكفرٌ ظاهرٌ لائحٌ واضحٌ. وبيّن الله شرعاً أنه يحب المتقين، وأنه يحب أهل الطاعة، ويكره المعصية ويكره أهل المعصية.

قوله: والعباد فاعلون حقيقةً، والله خلق أفعالهم؛ هذا أصل أصيل، والعبد هو: المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، هذا صحيح. والعباد فاعلون حقيقةً، وقد أثبت الله فعل العباد، قال: (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [الحج:10]، قال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]، (أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [الأعراف:43]، وأيضاً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله). أثبت العمل له؛ (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم:41].

قال: والعباد فاعلون حقيقةً، والله خلق أفعالهم؛ لقوله: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]، (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]. قال: والعبد هو: المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم؛ يعني كل هؤلاء خلق الله أفعالهم، المعنى خلق أفعال الكافرين، بسكرهم بسببهم بشدهم بفجورهم.

قال: وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة؛ أثبت الله لهم الإرادة والمشيئة في قوله: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29]؛ فأثبت لهم المشيئة، لكنها تابعة لمشيئة الله، قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) [الأنبياء:73]، قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) [الزخرف:76]، وقال عن قوم فرعون: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) [القصص:41]، ولذلك قال الله تعالى: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة:7-8].

في قوله: وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخلق قدراتهم وإرادتهم؛ هذه أيضاً فيها دلالة على حرمة الاحتجاج بالقدر، يعني هذا الأصل فيها حرمة الاحتجاج بالقدر. لذلك قال علماؤنا هنا لا يجوز الاحتجاج بالقدر عن المعايب، وقد يجوز الاحتجاج بالقدر على المصائب.

جاء رجلٌ سارق إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- أراد أن يقطع يده، قال: مهلاً يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده ما سرقت إلّا بقدر الله، قال: ونحن لا نقطع يدك إلّا بقدر الله. وهذا بيّن له أنه يتنطع بهذا القول، يتفلسف، أنت لا تعلم القدر حتى تحتج به. فالاحتجاج بالقدر لا يصح على المعاصي، ومن احتج بالقدر على

المعاصي أو على الشرك فقد تقدّم عن يدي الله ورسوله، ورد الآيات على ربه؛ حيث رد الله جلَّ وعلا الاحتجاج بالقدر على المعاصي عندما قال: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [الأعراف:28].

وللعباد القدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خلقهم وخلق إرادتهم وقدرتهم؛ وهذه الدرجة من القدر يكذِّب بها عامةً القدرية، الذين سمّاهم النبي: مجوس هذه الأمة؛ لأن القدرية يقولون أن الأمر أنف، ويقولون بأن الله جلَّ وعلا لم يخلق أفعال العباد، والعباد فاعلون لأفعالهم خالقون لأفعالهم. سمّوا مجوس هذه الأمة لمضاهاة قولهم لقول المجوس؛ فالمجوس يثبتون خالقين: خالق الظلمة وخالق النور، والقدرية جعلوا جميع المكلفين خالقين مع الله جلَّ في علاه.

ورد عن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم)؛ وهذا حديث ضعيف، كل الأحاديث التي جاءت في المجوس والكلام عليه أن القدرية هم المجوس أحاديث ضعيفة. فروى أبو داوود عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر؛ ومن مات منهم لا تشهده ولا تصلي عليه، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال الذين يؤمنون به).

ولكن صح موقوفاً عن ابن عمر: (إن القدرية هم مجوس هذه الأمة)؛ لكن تعلمون أنه أيضاً كفّرهم، لأنه لما جاء معبد الجهني إلى ابن عمر، وجاء معه صاحبه يكتنفان ابن عمر، قال: إن عندنا أناس يقولون الأمر أنف -ألقاه باليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل بالماء-. الجبرية لا يرون فعلاً للعبد بحال من الأحوال، كله أفعال الله جلَّ في علاه، ليس للعباد فعل عندهم، هم أسوأ حالاً من القدرية.

وأيضاً في قوله: ويخرجون عن أفعال الله؛ هؤلاء الجهمية، يزعمون أن الله تعالى لا يفعل لعلة ولا لحكمة، نفات العلل والأحكام، إنما هو محض مشيئة وصرف إرادة مجردة عن الحكمة والرحمة، سبحان ربي العظيم. فالجبرية أيضاً ينفون التعليل والحكم؛ الجهم بن صفوان كان يقف على (*) فيقول: يا أرحم الراحمين أفعل مثل هذا؛ إنكاراً لرحمة الله والحكمة. وأدلة الكتاب والسنة تبطل هذا الهراء؛ (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء:165]، هذا التعليل.

والذي عليه أهل السنة والجماعة؛ إثبات العلة والحكمة في أفعاله سبحانه جلَّ في علاه، وأيضاً في قضائه وفي شرعه، وأن الله خلق الخلق لحكمةٍ عظيمة وهي العبادة، وركّب فيهم الإرادة، ولهم أفعال يفعلونها تنسب لهم فعلاً واكتساباً، وهي لله جلَّ في علاه تضاف خلقاً وإيجاداً.

ولذلك فإن الله أمرهم ونهاهم، ويحاسبهم على الأمر والنهي؛ قال: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون:115]، (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) [القيامة:36]، (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الدخان:38-39] وفي الآية الأخرى قال: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء:16-17].

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء:107]، قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبإ:28]؛ وجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن بأن الأمر في الثواب مرتب على الطاعات، والأمر في العقاب مرتب على المعاصي. فملخص القول بأن في القدر طوائف ثلاثة:

- طائفة نفت القدر، كالمعتزلة والجهمية،
- وطائفة توغلت في الإثبات أثبتوا القدر؛

فأما الطائفة الضالة الأولى قالوا: الأمر أنف، والعباد جميعهم يخلقون أفعال أنفسهم، وألزموا الله بالثواب والعقاب. والطائفة الثانية "طائفة الجبر"؛ قالوا: لا فعل للعبد قط، والكل فعل الرب، ونسبوا الظلم لله جلَّ في علاه والنقص والعيب، ونفوا الحكمة والتعليل.

- وطائفة وسطية بين هؤلاء وهؤلاء، أثبتوا القدر لله جلَّ في علاه، وأن الله قدر المقادير، وعلم كل شيء وخلق كل شيء وكتب كل شيء، وأن العباد جعل لهم إرادة ولهم أيضاً اختيار، والثواب المرتب على الأعمال، والعقاب مرتب على المعاصي، وقالوا: ما من حكمٍ إلّا وله علة، والله عليمٌ حكيم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السابع والستون: فصل في الإيمان

إلى الكلام على أصول أهل السنة، قال: ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قولٌ وعمل؛ هذه أصول أهل السنة والجماعة، هذا إجماع بأن الإيمان قول وعمل، المسألة مجمع عليها، وقال: قولٌ باللسان وعملٌ بالقلب واللسان.

عامةً الإيمان لغةً: هو التصديق، وهذا أيضاً -كما قلنا- قد خالف فيه كثير من العلماء في هذا الباب وقالوا: أن الإيمان لا يقال التصديق وحده، لكنه لا بد من الإقرار؛ يعني يكون له إقرار وليس تصديق. بعضهم قال: الإيمان الأفضل ألّا يقال التصديق، هو الإقرار، والأصل فيها قول الله جلَّ وعلا: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [يوسف:17].

والحق بأن الإيمان؛ يتعدى بنفسه، ويتعدى بالباء، ويتعدى باللام وكلها تلازم:

- يتعدى بنفسه يكون بمعنى الأمان، والإيمان يصل بالمرء إلى الأمان؛ (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:82]. فالأمان هو ثمرة الإيمان؛ قال: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش:3-4].

- ويتعدى بالباء ويكون بمعنى التصديق؛ آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، آمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) [البقرة:285]، ولمّا جاء رجلٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: (قل آمنت بالله، ثم استقم). وهذا يكون بمعنى التصديق، والتصديق لابد أن يجر إلى الاستسلام والانقياد؛ فآمنت بالله تجر إلى آمنت لله، والإيمان لله معناها الانقياد والخضوع والاستسلام؛ (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) [العنكبوت:26] يعني اتبعه وانقاد له لوط.

وفي الاصطلاح: هو التصديق المقترن بالانقياد والإذعان، وهو على اللسان والقلب والجوارح؛ يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، فقول القلب والتصديق والاعتقاد؛ (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) [الزمر:33]، (من قال "لا إله إلّا الله" صادقاً من قلبه دخل الجنة).

قول القلب وقول اللسان؛ وقول اللسان: هو النطق بالشهادتين (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا "لا إله إلّا الله")، في رواية (حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأني رسول

الله)، ولمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمه فقال: (يا عم قل كلمة أحاج لك بها عند الله، قل "لا إله إلّا الله").

عمل القلب أصله في ذلك الإخلاص والصدق والإنابة والرهبة والرغبة، كل هذه أعمال القلوب، وكلها ركن من أركان الإيمان لقول ربنا الرحمن في كتابه البيان قال: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [المائدة:23]، (وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [آل عمران:175]، فهذه شرطية وجود الإيمان: الخوف والتوكل على الله جلَّ في علاه.

وعمل الجوارح "عمل اللسان والجوارح"؛ اللسان الذكر، والجوارح العبادات كالصلاة والحج والصوم وغير ذلك من العبادات.

وهناك تلازم قول القلب يؤدي إلى قول اللسان، إن كان صادقاً في قول القلب يؤدي إلى ثمرته قول اللسان، وعمل القلب إن وجد في القلب يستلزم عملاً في الجوارح. انظروا إلى العلاقة بين الأربعة؛ قول القلب ثمرته قول اللسان إن كان صادقاً مصدقاً، وقول القلب يستلزم عمل القلب، وعمل القلب يستلزم عمل اللسان وعمل الجوارح، وعمل الجوارح على الراجح صحيح أنه شرطٌ في صحة الإيمان.

ليس كله طبعاً؛ يعني لو تكلمنا عن العمل، فالمحققون يرون أن العمل منه ما هو شرط صحة، ومنه ما هو شرط كمال، ولا يقال كله شرط كمال، ولا يقال كله شرط صحة. كالصلاة عند بعض العلماء أنها شرط صحة، ولذلك الحنابلة يرون كفر تارك الصلاة، واختلفوا في الحج، وأيضاً في الزكاة.

لكن لا بد أن نعقل شيئاً مهماً فات عن كثير من الذين يتصدرون، وهو مسألة جنس العمل؛ بأن ترك جنس العمل يكفر به صاحبه، ترك جنس العمل أخل بشرطٍ هو شرط بصحة الإيمان.

ما هو جنس العمل؟ يعني رجل وجد شوكة في الأرض تؤذي الناس فلم يعيرها اهتماماً وما نحّاها، هذا ترك جنس العمل الآن؟ هل تركه؟ صحيح أن نقول جنس العمل المقصود به المباني الخمسة، هذا هو جنس العمل؛ معنى ذلك أن من تشهد تلفظ بالشهادتين وترك الصلاة والزكاة والصوم والحج، ترك كل هذه المباني، قلنا له هذا لا يمكن أن يكون مسلماً؛ الصلاة عمود الدين، فانظر إلى العمود، العجز في الخيمة، إن سقط كيف تكون الخيمة؟ تسقط الخيمة. هذا معنى جنس العمل وتركه، وأنه شرط لصحة الصلاة.

اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة نقل عن البخاري، قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف بأن الإيمان قول وعمل،

يزيد وينقص. قال الأوزاعي: كان ممن مضى من السلف لا يفرّقون بين العمل والإيمان.

وفي صحيح البخاري أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن عدي: إذ أن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان. فإن أعش سأبينه لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص، المهم أنه قال بأن: الإيمان له شرائع وحدود وسنن.

قال ابن عباس كما في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: عندما جاء وفد عبد القيس، قال: (آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع؛ آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلّا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا الخمس من المغنم)، ففيه دلالة على أن الإيمان هو مجموع هذه الخصال، كما قال ابن القيم وغيره من القول والعمل.

والحق بأن الإيمان قولٌ وعمل، وهو أيضاً يزيد وينقص، وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة. وإن كان كما قلنا الأقوال الثلاثة في هذا الباب:

- أنه يزيد ولا ينقص،

- لا يزيد ولا ينقص،

- يزيد وينقص.

◆ لا يزيد ولا ينقص: هذا قول المرجئة الضالة، وهذا ضلال مبين مستحكم؛ قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، وقالوا: إيمان جبريل كإيمان آحاد الأمة كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، وهذه من أخبث الأقوال.

◆ وقول أنه يزيد ولا ينقص: وهذا القول هو قول الخوارج، عندهم نقصان الإيمان ضياع لأصله؛

وكما قلنا ضلت المرجئة والخوارج لأنهما يريان أن الإيمان شيءٌ واحد، ومع ذلك اختلفت أقوالهم؛ المشرب على التأصيل واحد لكن اختلفوا عند التطبيق، وهذا ضلالٌ مبين.

◆ والصحيح قول أهل السنة والجماعة: الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، والدلالة على الزيادة والنقصان كثير؛ قال الله تعالى: (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ) [الفتح:4]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) [الأحزاب:22]، (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) [مريم:76].

وأمّا الأحاديث فكثيرة؛ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً). والنقصان؛ قد قال النبي: (والإيمان بضع وسبعون) أو (ستون شعبة؛ فأفضلها "لا إله إلّا الله"، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان). كما قال الله جلَّ في علاه: (ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا) [النساء:137]، (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) [التوبة:125]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين، أذهب للب الراشد منكن).

وأيضاً من أصول أهل السنة والجماعة تفاوت درجات المؤمنين، وأنها تتفاوت، ولذلك قال النبي: (أكمل المؤمنين إيماناً). هذه أيضاً من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدعة والضلالة من المرجئة والخوارج. قال: ومع ذلك لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي؛ وهذا سيأتي إن شاء الله في الكلام على حكم أهل المعاصي، أهل الكبائر هل يكفرون؟ لا يكفرون؟ يقل إيمانهم؟ ما يقل إيمانهم؟

في قول المصنف في الواسطية: وهم مع ذلك لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج؛ بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه وتعالى: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) [البقرة:178].

بل قد أطلق عليه الإيمان، وصفه بالإيمان أيضاً مع وجود الفسق؛ فيكون مؤمناً بتوحيده، فاسقاً بكبيرته. في قوله: وهم مع ذلك لا يكفِّرون؛ يعني لا ينسبونهم للكفر، ولا يحكمون عليهم بالكفر ما دام من أهل القبلة ولم يأتِ شركاً، لأن الله جل في علاه قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو مسلم، له ما لنا وعليه ما علينا).

فأهل السنة والجماعة يرون أن صاحب الكبيرة على مشارف هلكة، لكنه في مشيئة الله جلَّ في علاه، إن شاء عذبه بكبيرته، وإن شاء غفر له وأدخله الجنة من أول وهلة. ولا يكفِّرون أحداً من أهل القبلة بذنبٍ وقع فيه إلّا الشرك، خلى الشرك. وافترق الناس على أهل السنة والجماعة على طائفتين؛ غلو وجفو:

- الخوارج والمعتزلة، قالوا بأن فاعل الكبير كافر، طبعاً الخوارج قالوا في الدنيا كافر وفي الآخرة مخلد في نار جهنم، والمعتزلة جبنوا فما قالوا كافر، لكن قالوا هو بمنزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة قالوا يخلد في نار جهنم.

فكانت المحصلة والثمرة واحدة، هي خروج فاعل الكبيرة من دائرة الإسلام والإيمان. يتمسكون بشبه كثيرة منها التصريح ببعض الأعمال التي سمّاها النبي -صلى الله عليه وسلم- كفراً؛ في قوله: (ثنتان بأمتي هما بهم كفر)، وأيضاً في قوله: (لا ترجعوا بعدي

كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، وأيضاً في قوله: (ليس منا من حمل السلاح علينا)، (من غشنا فليس منا)، (برئت الذمة ممن جلس بين أظهر المشركين).

على شاكلة هذه الأحاديث بأسرها يتمسكون بها، ويقولون هو يكفر بذلك، ما دام ليس منا إذاً هو ليس من أهل الإسلام فهو من أهل الكفران.

- الطائفة الثانية وهي طائفة الجفو وهي المرجئة؛ هم قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، وقالوا: بأن إيمان آحاد الأمة كإيمان جبريل، وقالوا إن هذه المعاصي لا تؤثر في مسألة الإيمان.

هو مؤمن بتوحيده، وهو في مشيئة الله جلَّ في علاه، والأدلة على ذلك كثيرة؛ حديث الصحيحين عن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه وأرضاه- قال: بايعنا رسول الله على السمع والطاعة، ثم قال: وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- المعاصي والكبائر قال: (فمن أخذ بهذه القاذورات من شيء "يعني وقع بهذه القاذورات من شيء"، فتاب تاب الله عليه) أو قال: (أقيم عليه الحد فهو كفارة له).

وما لا يقع في مشيئة الله، قال: (في مشيئة الله)؛ ولا يكون في مشيئة الله الكافر لأنه ليس له إلّا سبيل واحد وهو النار.

وأيضا قول الله جلَّ في علاه: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ) [الحجرات:9]، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين) يعني يتقاتلان؛ هذا كله رد على قول النبي: (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض). وأيضاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قال له أبو ذر: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، قال الثانية: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، قال: وإن زنا وإن سرق؟ في الثالثة قال: وإن زنا وإن سرق وإن شرب الخمر).

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة)؛ فهذه دلالة على ما يعتقده أهل السنة والجماعة من أن فاعل الكبيرة لا يكفر، وأيضاً لا يبقى إيمانه على ما هو عليه لأن النبي قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبةً وهو مؤمن)؛ قال ابن عباس: يرفع فوق رأسه كالظلة.

ولذلك قال المصنف: بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي لعموم قول الله جلَّ في علاه: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) [البقرة:178]. وقال: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا

الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) [الحجرات:9-10]؛ مع وجود القتل قال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)، فالأخوة هنا إخوة الإيمان.

والكبائر حدها بعضهم بعدد وبعضهم لم يحدها بعدد؛ وقد قال السبكي: كل المعاصي كبائر، وهذا خطأٌ بيّن لأنه مخالف لظاهر القرآن، قال الله تعالى (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) [النساء:31]، (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ) [النجم:32]. وللكبائر ضوابط؛ وضوابطها الوعيد الشديد بالنار، أو باللعن، أو بالتبرئة، أو الحدود. فقد ينجو المرء من الكبائر بأسباب عشرة كلها في الكتاب والسنة:

- أولها: التوبة فمن تاب تاب الله عليه؛ (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [النور:31].

- الثاني: الاستغفار لقول الله جلَّ وعلا: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) [نوح:10-11]، فمن استغفر غفر الله له.

- الثالثة: الحسنات الماحيات لقول الله جلَّ في علاه: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) [هود:114].

- الرابع: المصائب الدنيوية، لأن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه سخط.

- الخامس: عذاب القبر قد يكفر عن المرء حتى يأتي يوم القيامة نظيفاً أمام ربه جلَّ في علاه.

- السادس: الشفاعة؛ دعاء المؤمنين والاستغفار، لا سيما في صلاة الجنازة.

أهوال القيامة وشدتها تنخلع القلوب لها، هذه أيضاً مكفرات.

إهداء ثواب العمل الصالح، على الخلاف الذي فيها.

نكمل هذه الجزئية؛ ولا يسلبون الفاسق الملي (يعني الذي على ملة الإسلام) الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقول معتزلة؛ فقلنا من المعتزلة يقولون خالد في النار، وأيضاً الخوارج يقولون كافر خارج من الملة. يعني من أتى بحد من الحدود: شرب الخمر، زنى، قتل، سرق؛ هذا كله يكون فاسقاً، لكنه لا يسلبونه اسم الإيمان حتى بالقتل، (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا). لا يسلبونه الإيمان لا سيما على أن الذي يزني، الذي يسرق، الذي يشرب الخمر، مؤمنٌ بتوحيده فاسقٌ بكبيرته.

وهذا الذي كان فيه الجمع بين الدليلين، والنظر بعينين لا النظر بعين عوراء؛ لأن الخوارج نظروا للوعيد فقط فتكلموا به وأطلقوا الأحكام عليهم، ونظر المرجئة إلى الوعد فقط فتكلموا عليه، وكلٌ منهم عنده عور فلم يصل إلى حقيقة الأمر. وأهل السنة والجماعة جمعوا بين الأمرين، لم يخرجوه من الملة، وأيضاً لم يعطوه صفة الإيمان الكامل؛ بل هو مؤمنٌ بتوحيده فاسقٌ بكبيرته. ومراتب الدين: الإسلام، الإيمان، الإحسان.

قد ينزل المرء من الإحسان إلى الإيمان، وقد ينزل من الإيمان إلى الإسلام، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمنٌ ولا ينتهب نهبةً ذات شرفٍ يرفع الناس إليها فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمنٌ)، قال ابن عباس وهو يصف: أن إيمانه يكون فوقه كالظلة إن تاب عاد إليه.

لكن هل ينزل من درجة الإيمان إلى الكفر؟ هو ينزل من درجة الإيمان هذا الصحيح، لكنه لا يصل إلى الكفر، ينزل من الإيمان إلى الإسلام لأن عندنا مراتب أربعة: المرتبة الأولى الإسلام، الثانية الإيمان، الثالثة الإحسان، أنزل من الإسلام الكفر. فهو لا ينزل من الإحسان إلى الكفر، ولا ينزل من الإيمان إلى الكفر، ينزل متدرجاً.

فإذاً نحن نقول بالكبيرة، عندما تطلق على الكبيرة لا يسلب منه مطلق الإيمان، أيضاً لا بد أن نفهم الفارق بين مطلق الإيمان والإيمان المطلق؛ مطلق الإيمان هو أصله، الإيمان المطلق: هو الإيمان الكامل سواء الكامل الواجب أو الكامل المستحب.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ يقول وهذه من أصول أهل السنة والجماعة، ولأنها علامة فارقة بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والضلالة. والأصل: كل ما يبنى عليه، وفي الاصطلاح الأصول لها ستة معاني:

- وقد يقال: ما له فرع وله أصل الدليل؛ يعني تقول الأصل بالمسألة الكتاب والسنة، الأصل في تحريم الخمر الكتاب والسنة.

- وعلى الراجح أيضاً أن تقول الأصل بالكلام الحقيقة دون المجاز.

- وتكون أيضاً معنى القاعدة المستمرة؛ أن تقول بأن الميتة حرام وتحل حين الضرورة، أو أكل الميتة على خلاف الأصل.

- الرابع المقيس عليه.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثامن والستون: فضائل ومراتب الصحابة (1)

قال: ومن أصول أهل السنة سلامة قلوبهم؛ أي نقاء القلب وصفاء القلب وسلامة القلب من الغل والحقد والحسد والعداوة والبغض، سلامة الصدر وسلامة اللسان من الطعن في أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-، وكيف ذلك وهم الذين زكّاهم الله من فوق سبع سماوات؟

أولاً الصاحب: كل من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمناً به ومات على ذلك، ولا يشترط في ذلك طول الصحبة، فيكون صاحباً للنبي -صلى الله عليه وسلم-. والصحابة؛ أهل السنة والجماعة فيهم وسط أيضاً بين غلو وجفو. أمّا أهل السنة والجماعة فلا يطلقون ألسنتهم على صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل يقولون: هم خير الناس، زكّاهم الله من فوق سبع سماوات بقوله: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110].

وأيضاً بقوله: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]، وبقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح:29] ... إلى آخر الوصف الدقيق لفضل صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).

أمّا الخوارج؛ فتعلمون بأن الخوارج يحقدون على صحابة رسول الله ويكفِّرونهم، والروافض كذلك يكفِّرونهم. وأهل السنة والجماعة يعرفون مقامهم ومقدارهم، ويعلمون بأنهم هم الذين اختارهم الله جلَّ في علاه لصحبة نبيه ولنصرة دينه ولنشر دعوته؛ فهؤلاء القوم ارتضاهم الله جلَّ في علاه لصحبة نبيه، وجعل الراية في أيديهم، ومكّن لهم، وفتح لهم مشارق الأرض ومغاربها.

فالروافض يسبونهم ويرون أنهم استلبوا الخلافة من علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-، كذبوا في ذلك والله، وكفّروا الصحابة جميعاً إلّا بضعة عشر رجلاً، والروافض والخوارج كفَّروا الصحابة جميعاً بتأويلٍ بارد.

وأمّا أهل السنة والجماعة فإنهم بين غلوٍ وجفو؛ يعلمون مكانة الصحابة، وقلوبهم طاهرة تقية نقية لا تحمل حقداً ولا حسداً ولا بغضاً لصاحب من الصحابة، ويعلمون بأن كل الصحابة على درجة التزكية من الله جلَّ في علاه، وأن أي صاحب من الصحابة بأمة بعده، وأيضاً يتفاوتون في الدرجات والمكان عند الله جلَّ في علاه.

يقول ابن تيمية: قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر:10]؛ قال هنا: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ) فعرفوا لهم بالسبق، (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً)، وهنا نقاء القلب وسلامة الصدر من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لا يحملون لهم إلّا كل ودٍ وكل حبٍ، ويتأسون بهم، وقد قال الله جلَّ في علاه مبيناً أن من الأدب أن يدعو المرء ربه جلَّ في علاه: (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل لله جلَّ في علاه، والنصيحة لولاة الأمور، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)؛ فنقاء القلب سبيله إلى ثلاث:

- إخلاص العمل ينفي الحقد والغل والحسد؛ من أخلص لله لا ينظر إلى المزاحمة الدنيوية.
- والمناصحة لولاة الأمور، والمناصحة لجميع المسلمين، وأولى الناس لولاة الأمور.
- ولزوم الجماعة وعدم التفرق.

والثلاثة قد خالفهم الخوارج والروافض.

والأصل الاجتماع دون الافتراق، والأصل أن ينضوي الجميع تحت راية التوحيد؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مثل المؤمنين بتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تطاوعا ولا تختلفا).

وقال الله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران:105]، وقال: (فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول تحلق الدين)، وقال: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث). ولذلك في الدعاء قالوا: (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)؛ رأفةً بنا ورحمةً، وإلّا فمن حمل على أخيه أو حقد أو حسد فإنه إلى هلاك.

وقد قسّم الله الناس إلى ثلاث: المهاجرين، والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم؛ وكلهم على خير كما قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم). لذلك ترى الخوارج من أبعد الناس، بل الروافض أبعد منهم، من أبعد الناس عن الله جلَّ في علاه؛ أمروا أن يستقبلوا أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فذهبوا يسبونهم. جاءت رواية:

(لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها)؛ وهذه معناها أنهم في فتنٍ عظيمة، وأنهم بهذا في طريقهم إلى النار.

وأنت ترى الروافض أطلقوا ألسنتهم في خير من طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء والمرسلين؛ أطلقوا ألسنتهم في تكفير أبي بكرٍ، وتكفير عمر "الوزير الثاني" الذي قال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر)، ولذلك هم يقولون بأنه الصباح لا يكون فيه البركة إلّا بلعن الصنمين.

ولذلك عائشة قالت: أراد الله أن يكتب الأجر عنده موصولاً غير منقطع، فأطلق هؤلاء الرعاع الألسنة فيهم. قال الإمام مالك كلاماً من ذهب: من أصبح وفي قلبه بغضٌ لأحدٍ من صحابة النبي -صل الله عليه وسلم- فقد أصابته الآية؛ أي آية؟ مرعب كلام الإمام مالك يخرج من الملة، قال: لقد أصابته الآية؛ ما يقصد بالآية هو قول الله جلَّ في علاه: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) [الفتح:29]، قال: من حمل بغضاً في قلبه لأحدٍ (نكرة) من صحابة رسول الله فإنه له حظٌ ونصيب من قوله: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تسبوا أصحابي، فالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)؛ وهذا الكلام ما كان لعامة من جاء بعدهم، هذا الكلام بين المتأخرين منهم والمتقدمين؛ بين عبد الرحمن بن عوف وبين خالد بن الوليد، يقول لعبد الرحمن بن عوف: بكف دقيق أو حنطة أو تمر تصدق به بجبل أحد منكم ذهباً أو فضة.

هم الصحابة، يعني ليس الأمر على من جاء بعدهم. والمسألة على عمومها أن الصحابة الكرام كلهم هم أفضل الناس، وأفضل من جاء بعدهم. الذي يقول بأن هناك آحاد من التابعين أفضل من الصحابة أو من زمن من الأزمنة أفضل من الصحابة، هذا ضال مبتدع، والكلام الذي قاله ابن عبد البر مخطئ فيه. (لا تسبوا أصحابي)، وهذا فيه وعيد أكيد؛ ولذلك وردت بعض الأحاديث والآثار الضعيفة، لكنها تقوي أن من سب الصحابة أو لعن الصحابة أو كفّر الصحابة فله حظٌ ونصيب من الكفر في هذا الباب. لعن أي مسلم كبيرة من الكبائر، فلعن وسب الصحابة من أكبر الكبائر.

قال: ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع؛ فعندنا الروافض والنواصب لا يقبلون ذلك، والصحابة الكرام يقبلون ما جاء في الكتاب وما جاء في السنة وإجماع أهل السنة. الخوارج والنواصب لا يقبلون ذلك، ويكفِّرون الصحابة.

أثنى الله على نبيه وعلى الصحابة الكرام ووعدهم بالجنة، قال: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح:29]، وقال: (لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) [الفتح:18]، وقال: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ

وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) [الحديد:10].

والأحاديث التي جاءت في فضل الصحابة أعلى مما يكون؛ كما قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- قال: لا تسبوا أصحاب محمدٍ، فلمقام أحدهم ساعة مع النبي خير من عمل أحدكم أربعين سنة، بل قال وكيع: خيرٌ من عبادة عمرك. ففضائل الصحابة وشمائل الصحابة كثيرة، تأتي إن شاء الله تباعاً، وبيان حكم من سب الصحابة؛ سواء سبهم لدينهم أو سبهم لأمر من الدنيا أو لصفةٍ في سمات شخصيتهم، هذا يأتي إن شاء الله تباعاً.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع ومن فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح -وهو صلح الحديبية- وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل، ويقدّمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم).

هنا مسألة مراتب الصحابة وتفضيل الصحابة، وأن الصحابة -رضوان الله عنهم- لهم منازل ومراتب متفاوتة عند الله جلَّ في علاه، لا سيما من أنفق قبل الفتح وقاتل، ومن أنفق بعد الفتح وقاتل. والإجماع على أن من أنفق قبل الفتح وقاتل أعظم درجة ومرتبة عند ربه ممن أنفق بعد الفتح وقاتل بعد الفتح، والسبق له القدر عند الله جلَّ في علاه. الحديث الظاهر عندما حدثت المشادة بين عبد الرحمن بن عوف وبين خالد بن الوليد؛ عبد الرحمن عوف بن عوف هو من العشرة المبشرين بالجنة، وهو السابق من السابقين، وخالد بن الوليد من متأخرين بالإسلام، أسلم بعد الفتح.

اشتد خالد على عبد الرحمن ابن عوف، فكانت الشدة كلاماً، فأنكر النبي أيما إنكار على خالد بن الوليد، وقال لخالد: (أصحابي أصحابي)؛ مع أن خالد صاحب من الصحابة، بل هو من أماجد الصحابة. خالد قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (واستلم الراية سيفٌ من سيوف الله، سله الله على أعدائه)، ومع ذلك لمّا اشتد على عبد الرحمن بن عوف قال له النبي: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه).

هذا ليس بالمتأخرين، هذا فيمن سبق ومن تأخر. قال: جبل أحد ذهب لا يزن عند الله حفنة من تمر من هؤلاء، مد (ملء الكف) من هؤلاء ولو شعير أفضل من جبل أحد عند الله جلَّ في علاه، السبق له وزن.

ولذلك سهيل بن عمرو عندما أنكر أبو سفيان كيف يدخل عمر بن الخطاب بلالاً ويدع سهيل وأبا سفيان، قال له: سبق إلى الله فسبق الله إليه، وأسرع إلى الله فأسرع الله إليه.

السبق له قدر عند الله جلَّ في علاه، فلذلك قال: يفضلون؛ ففيها كما قلنا أولاً أصل التفضيل، وفيها أيضاً منازل الصحابة.

قال: ويقدّمون المهاجرين على الأنصار؛ والحق أن الله جلَّ في علاه هو قدّم المهاجرين على الأنصار. وهذا الذي احتج به أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- على الأنصار عندما كانوا في سقيفة بني ساعدة، أرادوا أن ينصبوا لهم أميراً، أبو بكر -ضي الله عنه وأرضاه- عندما قالوا: منا أمير ومنكم أمير، قال: لا؛ وكان فقيهاً، بعدما أجزل الإحسان والثناء على الأنصار قال: منا الأمراء ومنكم الوزراء، سمّانا الله في كتابه الصادقين وسماكم المفلحون وأمركم باتباعنا، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) [التوبة:119]، احتج أيضاً بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الإمارة في قريش، من نازعهم فيها ألقاه الله في النار). الغرض المقصود؛ الاتفاق أن المهاجرين أفضل من الأنصار.

ويؤمنون بأنّ الله قال لأهل بدر؛ قد قال علماؤنا: وأهل بدر العشرة المبشرين بالجنّة هم أفضل الصّحابة على الإطلاق، وبعدهم أهل بدر، ولأن (جبريل -عليه السلام- جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: هم خير الصحابة أهل بدر، فقال: ونحن نعد أهل بدر من الملائكة هم أفضل الملائكة عندنا)؛ حتى تفضيل الملائكة، الذين شهدوا بدراً في الملائكة أفضل الملائكة، والذين شهدوا بدراً في الصحابة هم أفضل الصحابة على الإطلاق، ولأن فيهم العشرة المبشرون بالجنة.

وهذه القصة مشهورة "قصة حاطب ابن أبي بلتعة" عندما جس على النبي -صلى الله عليه وسلم-، أراد ترجيحاً للمصلحة من أجل أن يحفظ أهله، فتكون له اليد فيحفظ بها أهله، وأخطأ في اجتهاده. لكن لمّا قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما هذا يا حاطب؟ قال حاطب -رضي الله عنه وأرضاه-: لا تعجل عليّ يا رسول الله، والذي نفسي بيده ما فعلت ذلك ردةً عن ديني، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر ابن الخطاب الذي قال: دعني اضرب عنق هذا المنافق، قال: (صدقك الرجل، ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم قد غفرت لكم).

وصلح الحديبية؛ طبعاً صلح الحديبية كان فتحاً، وهذا لقول الله جلَّ في علاه: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) [الفتح:1]؛ في قوله: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)، أنس قال: صلح الحديبية، والبراء قال: تعدون فتح مكة هو الفتح -هو فتح-، وكنا صحابة رسول الله نعد بيعة الرضوان فتحاً -هي الفتح-، (وسئل النبي ﷺ عن صلح الحديبية: أفتحٌ هو؟ قال: نعم). وهم يعدون أن هذه الآية: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) نزلت في صلح الحديبية؛ وتعلمون هذا أن الصلح الذي كان فيه الشروط التي شددوا بها على رسول الله، وقال: (مهما عرضوا عليّ خطة رشدٍ قبلتها).

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه وأرضاه- أن غلاماً للحاطب قال: ليدخلن حاطب النار، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- له: (كذبت، إنه شهد بدراً والحديبية). وفي الحديبية أيضاً قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لن يلج النار أحدٌ بايع تحت هذه الشجرة)، ولذلك قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وبأنه لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان الذين بايعوا أكثر من ألف وأربعمائة رجل، وهذا ترتيب فضل الصّحابة الكرام من المهاجرين والأنصار. وجاءت روايات كثيرة في فضل الأنصار، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد فتح مكة أنه تناول متأخري الإسلام من الطوائف وأعطاهم؛ فالأقرع بن حابس وأترابه قالوا: سيوفنا تقطر دماً منهم وتركنا وأعطاهم.

فجمعهم النبي -صلى الله عليه وسلم- جميعاً حتى سعد بن عبادة؛ العجيب أن النبي قال: إن قومك يقولون كذا، قال: نعم يقولون؛ هو يريد يسمع منه هو، أنت تقول ذلك؟ فكان مؤدباً مهذباً، ولكنه كان حاسماً فيما قال: المرء مع قومه؛ يعني أنا قلت بما يقولون يعني أنا أستغرب لِمَ تعطيهم وسيوفنا تقطر من دمائهم وتتركنا؟ فبيّن لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يتألّف هؤلاء الذين دخلوا متأخرين في الإسلام، ثم قال: (ألا ترتضون).

طبعاً هم بكوا بكاءً شديداً جداً عندما قال لهم: (أما كنتم ضلالاً فهداكم الله بي؟) وهم يقولون: نعم، يقرّون لله المنة ولرسوله، فقال: (لِمَ لا تقول جئتنا وحيداً شريداً فريداً فآويناك ونصرناك؟). بكوا بكاءً شديداً؛ النبل الآن في الكفرة أكثر من أهل الإسلام، يغفر الله لنا وللجميع. فقال النبي: (ألا ترتضون أن يذهبوا بالشاة وباللبن والإبل، وتذهبون أنتم برسول الله)، بكوا بكاءً عظيماً فقالوا: رضينا، فقال النبي: (لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار)، وقال: (الناس دثار والأنصار شعار، الأنصار عترتي وكرشي). يظهر فضل الأنصار ومكانة الأنصار، وأن النبي لا يضيع، يؤتي الفضل الفاضل؛ (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) [هود:3]. هذه مراتب الصحابة وفضل الصحابة.

قال: وثابت بن قيس؛ هو خطيب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ كما في البخاري في الصحيح عن أنس -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه لأنه افتقده وسأل عنه، فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ قال: شر كان يرفعه الأبعد (يعني عن نفسه)، كان يرفع صوته فوق صوت النبي فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فرجع إليه إلى المرة الأخيرة فأخبره ببشارة عظيمة، فقال: (اذهب إليه فقل إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة).

وبشر بلالاً، قال: (إني أسمع دف نعليك في الجنة، ماذا تفعل؟). وأيضاً قال النبي: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة). ولمّا (قالت المرأة لرسول الله: يا رسول الله ادعُ الله أن أكون منهم، قال: أنتِ منهم). وأيضاً في المسند قال النبي: (يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار، فلمّا سألوه عن ذلك، قال: بالثناء)؛ لأنه لمّا مرت جنازة أثنوا عليها خيراً فقال: (وجبت وجبت)، ولما مرت جنازة أثنوا عليها شراً فقال: (وجبت وجبت).

العقيدة الواسطية

الدرس التاسع والستون: فضائل ومراتب الصحابة (2)

قال: ويقرّون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وغيره؛ من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكرٍ، ثم عمر، ويثلّثون بعثمان، ويربّعون بعلي بن أبي طالب؛ كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة. أولاً ما الذي حدا بإمامنا شيخ الإسلام أن يتكلم عن فضائل عمر وأبي بكر بما تواتر عن علي؟ هو جاء عن عثمان وجاء عن الزبير، جاء عن عبد الرحمن بن عوف، جاء أيضاً عن أبي عبيدة بن الجراح!! لِمَ قدّم علي في هذا الباب؟

يقرّون؛ لها أسباب:

- السبب الأول الرد على الروافض؛ وهذا من الأهمية بمكان لأن الروافض هم أعظم أعداء الدين، أضل طائفة هي هذه الطائفة.

- الأمر الثاني رفع الغشاوة عن جهلة أهل السنة والجماعة، رفع هذا الالتباس على بعض أهل السنة المعمم عليهم بأن علي بن أبي طالب كان ينازع الشيخين. والحق أنه -رضي الله عنه وأرضاه- أبداً ما كان أبداً ينازع أحد، وأمّا الكلام على أنه قاطع البيعة لا، هو مالأ فاطمة عندما جاءت وقالت له: أريد سهمي فدك وخيبر، قال: لا سهم لكِ، إن النبي قال: (إنّا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة). قال كلمة والله تكتب بماء القلب: ولقرابة رسول الله أن أصل أحب إليّ وربي من قرابتي أن أصل. فالأمر الثاني هو درأ هذا الالتباس وأن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- ينازع الشيخين، أبداً والله. خطب في الكوفة: من قدّمني على أبي بكرٍ وعمر جلدته حدّ المفتري.

أفضل هذه الأمة بعد نبيها على الإطلاق أبو بكر، ثم عمر. وعمر تأخر إسلامه عن باقي العشرة، فسبحان ربي العظيم، هكذا القلوب تعمل بأصحابها. فالغرض المقصود قال: خير هذه الأمة أبو بكر؛ أبو بكر وما أدراك ما أبو بكر؟ أبو بكر هو خير الأمة بالنص من الكتاب ومن السنة وبالإجماع وبالعقل وبالقياس وبالذوق وبكل شيء؛ أوتي أخلاق النبي كليةً، صارت المسألة مطابقة، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يحب أحداً إلّا وهو طيب، قال: (لو كنت متخذاً من البشر خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً)، وقال: (ما طلعت الشمس ولا غربت بعد الأنبياء والمرسلين على خيرٍ من أبي بكر).

كفى أن نقول لأبي بكرٍ أن الله ذكره في القرآن بصيغة الجمع، قد قال الله تعالى: (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [التوبة:40]، فهنيئاً له أن قد سمّاه الله تعالى صاحباً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكره في القرآن بتلاوة القرآن، بقرآن يتلى إلى يوم الدين.

ولفضل أبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه- فقد ذكره الله في القرآن بصيغة الجمع؛ (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ) [النور:22]، عندما قال أبو بكر: لا أنفق مسطح؛ وكان السبب الرئيس أن مسطح تكلّم وخاض مع الفائضين، وقد قال الله تعالى: (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة:47]. لكنه كان بدرياً، لذلك دافعت عنه عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-. فقال أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-: لا أنفق عليه، فأنزل الله جلَّ وعلا: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ) [النور:22]، قال الله جلَّ في علاه مرققاً قلب أبي بكرٍ على مسطح حتى أعاد النفقة عليه، لكن الفضل في ذلك أنه قال: (أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ).

وذكر الله جلَّ في علاه تزكية أبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه- علانيةً عندما قال: (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) [الليل:17-21]. جماهير أهل التفسير قالوا إن هذه الآية نزلت أبي بكرٍ؛ أولاً وسمه الله جلَّ في علاه حين قال: (الْأَتْقَى) وإن اشتركوا جميعاً في التقوى، وهذا على كل صفة، تراها مُيّز بها صاحب عن الآخر فتكون من هذا الباب.

الحديث الشاذ الذي قال فيه: (أقرأهم (*) هو أشدهم حياءً)؛ فهذا يعني يشتركون جميعاً في أصل الصفة ويختلفون طبعاً في رفعتها. كلهم أتقياء، لكن أتقاهم هو أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، الله تعالى جعله منفرداً: (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ) [الليل:17-20]، ثم زكّى إخلاصه، هذا من أرقى ما يكون لأبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه- في قوله:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) [الليل:19-21].

وهذا هذا اسمه الرد على هؤلاء الرافضة أخبث خلق الله جلَّ في علاه، لأن الله قال: (وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) جزماً، فيها الدلالة الواضحة، رداً على هؤلاء الخبثاء أضل خلق الله الذين يكفّرون أبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه-.

أمّا السنة فكثير، والإجماع؛ قد أجمعت الصحابة جميعاً على أن أبا بكر هو أفضل الصحابة على الإطلاق. ففي السنة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- اشتد غضبه على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- عندما حدث ما حدث بينه وبين أبي بكرٍ، فقال له: (هلا تركت لصاحبي؟ قلتم كذبت وقال صدقت. صدوا عني كل خوخةٍ إلّا خوخة أبي بكر).

ولمّا حدث أيضاً الأمر بينه وبين ربيعة بن كعب الأسلمي، عندما جاءه فقال له: اقتص مني -بعدما اشتد عليه-، قال: لا. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قل يغفر الله لك يا أبا بكر، قل يغفر الله لك يا أبا بكر).

الغرض المقصود أن ربيعة كان من أفقه الناس بهذا، لأنه قال لأصحابه: اسكتوا عني، لا يراكم أبو بكر فيغضب، فيغضب النبي لغضب صاحبه، فيغضب الله لغضب نبيه فيهلك صاحبكم. كل ذلك لمكانة أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-.

وأنت تعلم بأن علي بن أبي طالب هو راوي الحديث؛ إن أبا بكر وعمر -رضوان الله عليهما- قال: (هذان سيدا كهول أهل الجنة). وإن أردت بيّنا لك كيف ذلك؟ الحق بأن أبا بكر -رضي الله عنه وأرضاه- نصر الإسلام بكلية وجمعية نفسه وماله وأهله، وهذا الذي قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (وواساني بنفسه وماله).

أنفق ماله، العشرة المبشرون بالجنة ستة منهم أسلموا على يد أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه، انظر هو ومعه ستة في حصيلته وهم أفضل الناس على الإطلاق، العشرة المبشرون بالجنة ستة منهم أسلموا على يد أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-. ونبلاء الصحابة ظهر فضلهم وكان سبب خلاصهم من التعذيب أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-؛ كان يقول عمر بن الخطاب: بلال سيدنا وأعتقه سيدنا. فترى كيف مكانة أبي بكر؛ لمّا قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب: ابسط يدك أبايعك، قال له: كيف أتقدّم قوماً فيهم مثل أبي بكر؟ لإن أتقدم فتضرب عنقي خيرٌ لي من أن أتقدّم قوماً فيهم مثل أبي بكرٍ.

وعمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- الوزير الثاني للنبي -صلى الله عليه وسلم- ؛ النبي ماذا قال؟ قال: (السمع والبصر) وأشار لسمعه وبصره، (السمع والبصر أبو

بكر وعمر). وعلي بن أبي طالب لمّا قُتِل عمر بكى وقال: ما تمنيت أن ألقى الله بعمل أحدٍ قط إلّا بمثل عمل عمر بن الخطاب، وكان يقول أبشر لأمير المؤمنين، أخذ بكتف ابن عباس وقال: لطالما سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، وجئت أنا وأبو بكر وعمر، فقال: إن الله سيحشر مع صاحبيه.

وقد كان، وكانت في بئر أريس الرؤيا التي ثبتت فيها الملتقى في الأماكن، لأن عند بئر أريس ذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل وأبو موسى الأشعري قال: لأكونن بواب النبي في هذه الليلة. فجاء أبو بكر فاستأذن، فقال: أبو بكر يستأذن يا رسول الله، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فأذن له وبشره بالجنة، فجاء فسلم على النبي وجلّس على جنبه الأيمن.

ثم جاء عمر؛ بالترتيب، انظر إلى تقدير الله؛ لا بد أن تعلم أن الله لمّا قدّر لك قدراً لا بد أن تجد رسمه في الظاهر، فهناك أمارات وعلامات على أقدار الله جلَّ في علاه. فجاء عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- فاستأذن، فقال أبو موسى: عمر يستأذن يا رسول الله، قال: ائذن له وبشره بالجنة، فأذن له وبشره بالجنة، فدخل فجلس على يسار النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثم جاء عثمان -لذلك هو الترتيب على إجماع المهاجرين والأنصار، ترتيب الفضل على ترتيب الخلافة، خلافاً للثوري ولأبي حنيفة وهم يرون أن علي يتقدم عثمان-. فعثمان -رضي الله عنه وأرضاه- استأذن، فقال أبو موسى أن يأتي أخي يكون له الخير، وكان يتمنى ذلك.

أتى عثمان بن عفان فاستأذن فقال: عثمان يستأذن، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه. فتمعّر وجه عثمان وقال: الله المستعان، فأذن له فدخل عثمان -رضي الله عنه وأرضاه-، فنظر فلم يجد بجانب النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ اليمين أبو بكر، عمر الشمال، عثمان كان أمامه. قالوا: هذا مكان عثمان في البقيع، عثمان أصلاً دفن في البقيع أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فعمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- هو الوزير الثاني للنبي -صلى الله عليه وسلم؛ عمر فضائله عظيمة جداً، وفي الكتاب يكفي أنه دخل ضمن التزكية العامة في قول الله جلَّ في علاه: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح:29].

(لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر بن الخطاب)، وقال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما رأيت عبقرياً يفري فرية). أمّا خصائله وخلاله سنتكلم عنها، وكيف نصرة عمر للدين، وأيضاً كيف تزكية أبي بكرٍ لعمر وهي التي مهدت لعمر بن الخطاب الفتوحات؛ يعني

ما فعله أبو بكر من حروب الردة، لنبيّن مكانة أبي بكر وعمر، حق هؤلاء علينا أمام هؤلاء الخبثاء أخبث خلق الله جلَّ في علاه.

ويقرُّون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وغيره؛ من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ويثلّثون بعثمان، ويربّعون بعلي. كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة؛ فهذا لفت الانتباه لأن الحق أن مسألة الإجماع في تقديم عثمان على علي غير واردة، الخلاف ورد في كلام الثوري وأيضاً أبا حنيفة.

هنا أتى بها؛ مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي -رضي الله عنهما- بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكرٍ وعمر، أيهما أفضل؟ فقدّم قوم عثمان، وسكتوا أو ربّعوا بعلي، وقدّم قومٌ علياً، وقومٌ توقفوا. لكن استقر امر أهل السنة والجماعة على تقديم عثمان على علي، وإن كانت هذه المسألة -مسألة عثمان وعلي- ليست من الأصول التي يضلّل المخالف فيها؛ كما يضلّل من قدّم علي على أبي بكر وعمر.

ليست من الأصول التي يضلّل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، ولكن التي يضلّل فيها مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين. لذلك قال: ومن طعن في خلافة أحد الأربعة، فهو أضل من حمار أهله.

هذه مسألة مهمة أيضاً تبيّن لنا كيف ترتيب الخلافة وكيف ترتيب الفضل، والحق ما قاله علماؤنا بأن ترتيب الفضل على ترتيب الخلافة.

تكلمنا نحن عن أبي بكر، وأن أبا بكر -رضي الله عنه وأرضاه- وخير الأمة على الإطلاق بلا منازعة، وهذا بالتنصيص وبالإجماع؛ أمّا في التنصيص فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (ما طلعت الشمس ولا غربت بعد الأنبياء والمرسلين على خيرٍ من أبي بكر) وقال النبي حين اشتد الغضب على عمر: (هلّا تركتم لي صاحبي؟ قلتم كذبت وقال صدق)، ثم قال: (صدو عني كل خوخة إلّا خوخة أبي بكر). وعُرِف قدر أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه- بين الصحابة أجمعين، فهذه مسألة ظاهرة في هذا الباب، وهي تقديم أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه- على الجميع.

ولذلك عبد الرحمن بن عوف يقول بإقرار جميع الصحابة: ما سبق أبو بكرٍ الناس بكثير صلاةٍ ولا صيام، ولكن بما وقر قلبه؛ البعض يرويه مرفوعاً وهذا موضوع، الصحيح موقوف على عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه وأرضاه-.

ولذلك لمّا قام أبو عبيدة بن الجراح وقال لعمر بن الخطاب: مد يدك أبايعك، قال: لو قالها غيرك! أتقدّم قوماً فيهم مثل أبي بكرٍ؟ لإن أتقدّم فتضرب عنقي خيرٌ لي من أن

أتقدّم قوماً فيه مثل أبي بكرٍ؛ فكان إجماعاً. ولذلك قال له علي بن أبي طالب بعدما بايعه في خطبة الجمعة: والله لا نقيلك ولا نستقيلك، رضيك لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا؟ لأن النبي قال: (مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناس). الإمام الشافعي قال: وخلافة أبي بكرٍ قضاها الله في السماء، ونطق بها النبي العدنان، ودخلت قلب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعقدوا عليها.

لذلك لمّا مالأ علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- فاطمة ولم يبايع أبا بكر وتأخر في البيعة، الناس ما تغيروا عنه من أجل فاطمة. فاطمة بنت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم يخشون لأن النبي قال: (فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها). طبعاً أبو بكر قال: لقرابة رسول الله أن أصل أحب إليّ من قرابتي؛ لكن الحق أحق أن يُتَّبع، قال لها قد قال النبي ﷺ: (إنّا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة).

فلمّا ماتت تغير الناس على علي بن أبي طالب، وعلم علي بن أبي طالب لِمَ أتغير الناس عليه، فدعا أبا بكر وقال: يا أبا بكر ما فعلنا ذلك نفاسةً عليك وإنا لنعلم سبقك وفضلك وخيرك، ثم قال: موعدنا الظهر، فبايعه على الملأ لأبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه- وذكر من فضل أبي بكرٍ.

لكنه كان أخذ مأخذاً وهو الذي قال فيه: إنك استأثرت بالأمر عنا؛ يعني المفروض ترجع لنا نحن آل البيت. لكن أبو بكر ما فعل ذلك، أبو بكر أراد رأب الصدع، وأراد لمّ الشمل، لمّا علم أنهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وكاد الأمر أن يكون بين الحيين: بين المهاجرين والأنصار، ولذلك قالوا منا أمير ومنكم أمير. هنا تدخّل أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، والجميع أذعنوا لأبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه-.

وخير الأمة بعد أبي بكرٍ هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-؛ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ذهبت أنا وأبو بكر وعمر. ولمّا (قال لهم: بقرة تكلمت؟ قالوا: بقرة تكلمت؟ قال: نعم، وأنا أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر). وقال عن أبي بكر وعمر: (هذان سيدا كهول أهل الجنة)، وقال: (إيهٍ يا عمر، والذي نفسي بيده لو سلكت فجاً لسلك الشيطان فجاً غير الفج الذي سلكته).

ولُقِّب بالفاروق؛ جعله الله فارقاً بين الحق والباطل، وكما قال ابن مسعود: كانت هجرته فتحاً وإمارته نصراً. وافق القرآن في غير ما موضع، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كان في الأمة ملهماً محدثاً لكان عمر)، وأعظم من ذلك ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كان نبيٌ بعدي لكان عمر).

وعمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- استخلفه أبا بكر، وأطبق الناس عليه، ولمّا روجع أبا بكر -رضي الله عنه وأرضاه-: كيف تستخلف علينا هذا الغليظ، قال: والذي نفسي بيده، لو سألني ربي لأقولن: استخلفت عليهم أتقاهم وأورعهم وأعلمهم.

وكان ترتيب الخلافة في الرؤيا التي قُصّت على النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى قال لعمر بن الخطاب: (ما رأيت عبقرياً يفري فرية). وهو من العشرة المبشرين بالجنة؛ غار حراء لمّا تحرك، وكان عليه النبي وأبو بكر وعمر، وكان عليه العشرة، قال النبي: (اثبت حراء، فما عليك إلّا نبي وصديق وشهيد)، وشهد للجميع بالشهادة، هنا وكان شهيداً -رضي الله عنه وأرضاه- عندما قتل.

وقد بشره النبي بالجنة عندما ذهب إلى بئر أريس وجلس ومد رجله في الماء، وكان أبو موسى الأشعري بواباً له، لمّا استأذن عمر، قال: عمر يستأذن، قال: ائذن له وبشره بالجنة. وقد أعطى أبا هريرة -في روايةٍ أخرى- نعله، وقال: (من رأيته أخلص التوحيد لله في علاه فبشره بالجنة)، فوجد عمر فبشره، فضربه حتى خر على أسته، فبكى وفر منه هارباً وذهب يبكي إلى النبي خشيةً من عمر. وعمر يأتي خلفه حتى أتى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أنت أمرته بذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، قال: يا رسول الله خلي الناس يعملون؛ لأنهم بالبشارة يمكن أن يتقاعسوا. قال: (خلي الناس يعملون)، وأخذ بقول عمر بن الخطاب.

ثم جاء الخلاف بعد ذلك في عثمان وعلي؛ والحق أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه- أفضل من علي بن أبي طالب، فترتيب الفضل بترتيب الخلافة.

عثمان بن عفان حيي هذه الأمة، أشدهم حياءً هو عثمان؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس وظهر فخذه، فاستأذن أبو بكر واستأذن عمر، أذنا ودخلا عليه وكلّماه وهو على نفس هيئته، ثم قيل عثمان يستأذن، فاستوى وغطى فخذه. فتعجبت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- وما كانت لتسكت، فقالت: يا رسول الله دخل أبو بكر فلم تهش ولم تبش ولم تغير من حالك، ودخل عمر فلم تهش ولم تبش ولم تغير من حالك، ودخل عثمان ففعلت الذي فعلت. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن عثمان رجلٌ حيي، لعله جاء لحاجة، فمن شدة حيائه لا يبلغها، لذلك فعلت ذلك)، وهذه الدلالة كما يستدل بها العلماء على أن الفخذ ليس بعورة هذا الصحيح.

كفى لعثمان بن عفان أيضا من العشرة البشريين في الجنة، كما قال النبي: (النبي في الجنة، أبو بكر في الجنة، عمر في الجنة، عثمان في الجنة). ولمّا كان في بئر أريس واستأذن عثمان الثالث، قال أبو موسى: عثمان يستأذن، قال: (ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه).

عثمان اشترى بئر رومة وجعله للمسلمين، لم يرتضِ اليهودي أن يبيعه له كاملةً، قال: أنت يوم وانا يوم. فكان الصحابة الكرام يجتمعون في يوم عثمان، فخلى البئر من الناس في يوم اليهودي، فباع بقيته لعثمان بن عفان فجعله لله وقفاً. ولمّا جهز جيش العسرة قلب النبي المال وكأنه قال: أفي الناس من يفعل ذلك؟ أفي الناس من يزهد في الدنيا هذا الزهد؟ ويدفع مثل هذا المال، حتى قال: (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم).

لُقِّب بذي النورين لأن عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه- تزوج الأولى بنت النبي صلى الله عليه وسلم، وتزوج الثانية. هناك حديث فيه ضعف ويتسامح بمثل هذه الأسانيد، أنه قال: لو عندي ثالثة لزوجتك إياها؛ لفضل عثمان -رضي الله عنه-. والحق أن الصحابة جميعاً أجمعوا على تفضيل عثمان وقدّموه على علي. ابن عمر -رضي الله عنه- قال: كنا نفاضل بين الصحابة فنقول: أبو بكر خير هذه الأمة، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نسكت بعد ذلك، وكان (*) ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقرّه.

ولمّا كان في الشورى الستة؛ ذهب عبد الرحمن بن عوف فسأل جميع الأنصار والمهاجرين، حتى الأبكار في خدورهن، ما قدّموا على عثمان أحداً. ولمّا ذهب عبد الرحمن بن عوف إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- فقال له: من أحق بالخلافة إن لم تصلك؟ قال: عثمان، هنا كلٌ ينزل الناس منازلهم. فذهب إلى عثمان قال: أحق بالخلافة إن لم تصل إليك؟ قال: علي بن أبي طالب؛ فانحصرت الخلافة بين عثمان وبين علي، فاختار المهاجرون والأنصار عثمان بن عفان.

فترتيب الخلافة لا خلاف فيه بحال من الأحوال، لا يخالف فيه إلّا المبتدعة الرافضة أهل الخبث. وترتيب الفضل قد قال به جماهير أهل العلم، إلّا ما كان من أبي حنيفة ومن الثوري؛ قدّما علي بن أبي طالب على عثمان.

لا سيما أن علي بن أبي طالب لم يقدّم عثمان على نفسه، عندما سأله أبو القاسم محمد بن الحنفية عن خير الناس، قال: خير هذه الأمة بعد نبي أبو بكر ثم عمر. فقال له: ثم أنت؟ قال: الله أعلم، إنما أبوك من آحاد الناس؛ لكن يقدّم عثمان على نفسه. وهو أيضاً قام خطيباً في الكوفة وقال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ومن قدّمني على أبي بكرٍ وعمر جلدته حدّ المفتري؛ إنصاف. فمسألة الخلاف الذي ظهر من أبي حنيفة والثوري في الفضل لا في الخلافة، مع أن جميع أهل السنة والجماعة ما اختلفوا في الخلافة على تقديم عثمان عن علي.

وهذه الخلافة التي وقفت عند علي بن أبي طالب هي الخلافة الراشدة، التي لها السنة المتبعة، وهي الخلافة التي على منهاج النبوة، لأن حديث سفينة الطويل: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)، قال سفينة في الحديث الرواية الأخرى: (نبوةٌ ورحمة، ثم

خلافة على منهاج النبوة ورحمة، ثم ملكٌ عضوض، ثم ملكٌ جبري، ثم خلافة على منهاج النبوة)، لكن هو قال: (نبوةٌ ورحمة، ثم خلافة على منهاج النبوة ورحمة). في حديث سفينة قال: (ثلاثون سنة)؛ ولو حسبت الخلافة إلى ثلاثين سنة: تكون خلافة أبي بكر تصل إلى سنتين وجزء، وبعدها إحدى عشر سنة عمر بن الخطاب أو أكثر، وعثمان نفس الأمر، وأربع سنوات علي بن أبي طالب، وستة أشهر وهي خلافة الحسن بن علي، وهذه هي التمام الثلاثين، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين).

فهي خلافة على منهاج النبوة، لذلك قال قالوا: بأن سنة علي سنة متبعة، سنة عثمان سنة متبعة، سنة عمر سنة متبعة، سنة أبا بكر سنة متبعة؛ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ).

الإمام أحمد وأيوب السختياني قالوا: من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار؛ وهذا الذي تمسك به ابن تيمية في هذا الباب، يقول: قد اجتمع المهاجرون والأنصار على تقديم عثمان على علي، فمن قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار.

وقد اتفقوا -كما قلنا- على تقديم أبا بكرٍ ثم عمر ثم عثمان، وكما قال المصنف أن مسألة التقديم علي على عثمان في الفضل مسألة لا تضليل فيها؛ التضليل يأتي بنفي خلافة أحد هؤلاء الأربعة أو تقديم خلافة أحد على أحد، كفعل الروافض أخبث أهل الأرض. قال: ومن طعن في خلافة واحد منهم، فهو أضل من حمار أهله. ويحبون أهل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله، حيث قال يوم غدير خم: (أذكركم الله في أهل بيتي). وقال: (والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتى يحبونكم، لله ولقرابتي). وهذا إن شاء الله يأتي تفصيله في الدرس القادم.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السبعون: ـ مسألة الخلافة

ـ آل بيت رسول الله

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء؛ وبعد إخوتي

الكرام، ما زلنا بفضل الله بمنه وكرمه مع الواسطية، ونحن على مشارف الانتهاء منها ولله الحمد والمنة.

طبعاً تكلم على الخلافة الراشدة وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-، هم أفضل الصحابة على الإطلاق؛ الخلفاء الراشدين الأربعة: أبو بكر، عمر، عثمان، علي. وهذا الترتيب ترتيبٌ في الخلافة، وترتيبٌ أيضاً في الفضل، وقلنا أن الخلاف عنا بين الثوري وأبا حنيفة والجمهور؛ وقدّموا علياً على عثمان. وأن علي بن أبي طالب لم يقدّم عثمان على نفسه عندما سأله محمد بن الحنفية: من أفضل الأمة؟ قال: أبو بكر، قال: ثم من؟ قال: عمر، قال: ثم أنت يا أبي؟ قال: خفت يقدِّم أحد على نفسه، فقال: ما أبوك إلّا رجلٌ من الناس.

علي بن أبي طالب أكثر الصحابة الذي جاء فيه أُثر على النبي -صلى الله عليه وسلم- في فضله وفي فضائله، ولعل الحكمة في ذلك لما علم مما سيحدث معه في خلافته، فبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- فضل علي بن أبي طالب. قال عن الحسن والحسين: (سيدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خيرٌ منهما). وأيضاً في خيبر قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أين علي؟ الجميع لم يفتح عليهم؛ أبو بكر لم يفتح عليه، عمر لم يفتح عليه، جميع الصحابة لم يفتح عليهم، حتى دب اليأس في صدور بعض الصحابة، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: أين علي بن أبي طالب؟ قالوا: يشتكي عينه، قالوا: ائتوني به؛ فلما جاء نفخ في عينه فرأى بها أفضل مما يرى بالأخرى. وكان قبلها قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله، ورسوله ويحب الله ورسوله)، حتى عمر بن الخطاب قال: ما تمنيت الإمارة قط في يومٍ ما إلّا عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال. (يحبه الله ورسوله)؛ فجزم بمحبة الله ورسوله، وقال: (يفتح الله على يديه).

عامةً علي بن أبي طالب نفسه هو الذي قال: من قدّمني على أبي بكرٍ وعمر جلدته حد المفتري، وكان يقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، ثم الله أعلم. الإمام قال: لكن التي يضلل المخالف فيها: مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي؛ يعني الضلال أن يقال بأن علي ابن أبي طالب هو أحق الناس بالخلافة، وهذا زيف الروافض وكذب الروافض، وهم يقولون بأن علي بن أبي طالب هو وصي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكيف يكون وصي النبي؟ حتى عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قد أنكرت ذلك وقالت: مات بين سحري ونحري، أين وصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ كذب.

ولذلك سأل الناس علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- فقالوا له: أخصكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشيء؟ فقال: لا ما خصنا بشيء إلّا فهماً يؤتيه الله

لعبدٍ في كتابه أو في سنة نبيه، قال: وإلّا ما في قبيعة السيف، قالوا: وما في قبيعة السيف؟ فأخرج من قبيعة السيف مكتوباً: المسلمون أو المؤمنون تتكافئ دمائهم، وهم يدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ولا يقتل مؤمن بكافر؛ هذا ما كان عند علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-.

ولذلك قال ابن تيمية: ومن طعن في خلافة أحدٍ من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله؛ الطعن في المخالفة هذه مخالفة صريحة لإجماع الصحابة، لأنهم أجمعوا على خلافة أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي. قال الإمام أحمد: من فضّل علياً على أبي بكرٍ وعمر، وقدّمه عليهما في الفضيلة أو في الإمامة دون النسب، فهو رافضي مبتدع فاسق؛ يعني يضللون بهذا، من قال بأن علي هو الوصي، من قال بأن علي هو أحق بالخلافة من أبي بكرٍ وعمر أو هو أفضل منهما، قال الإمام أحمد: هو رافضي مبتدعٌ فاسق. وتبرأ الإمام أحمد ممن ضلل واحداً منهم، وقال: ما لم يربّع بعلي في الخلافة فهو أضل من حمار أهله.

وطبعا خلافة علي بن أبي طالب خلافة راشدة لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- "حديث سفينة": (تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة، ثم يكون ملكاً عضوضاً، ثم ملكاً جبرياً)، في رواية فيها زيادة: (ثم تكون خلافة على منهاج النبوة). وعلي بن أبي طالب لو تحسب أربع سنوات في هذا هي بقية الثلاثين، مع ستة أشهر للحسن. وهذا خلافاً للرافضة هؤلاء الذين لا حظ لهم في الإسلام، وهؤلاء الشيعة أيضاً، حتى الذين يقدمون علي بن أبي طالب على أبي بكرٍ وعلى عمر، ويزعمون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نص على خلافة علي بن أبي طالب ووصى به. وهذا كذبٌ وافتراء وزور، وقد سئل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- عن ذلك فأنكر، لذلك قال الإمام النووي: ما تدعيه الرافضة من النص على ولاية علي بن أبي طالب وهو الوصي عليه، باطلٌ، لا أصل له بإجماع المسلمين.

وأول من كذّبهم بذلك هو علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-؛ روى البخاري عن أبي جحيفة: قلت لعلي بن أبي طالب: هل عندكم من الوحي شيء غير القرآن؟ قال: لا، والذي فلق الحب وبرأ النسمة، إلّا فهما يعطيه الله رجلاً في كتابه، وما في هذه الصحيفة؛ وتكلم على فكاك الأسير، وكما قلنا المؤمنون تتكافئ دمائهم على ما بينا في الرواية.

وكذب الرافضة لا ينتهي، وهذا أمر مدروس دسه الكافر اليهودي عبد الله بن سبأ من اجل إثارة الفتن على المسلمين. وأمّا أهل السنة والجماعة فدأبهم يحبون أهل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فهم يحبون أهل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث قال في يوم

غدير خم: (أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي). وقد قال أيضاً للعباس عمه -وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم-، فقال: (والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبونكم لله ولقرابتي).

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد وصى بآل بيته؛ عندما قال في غدير خم: (أما بعد أيها الناس، إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب) يعني الموت قريب، (وإني تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به). كما قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: بيننا كتاب الله، فحث على كتاب الله جلَّ في علاه والاستمساك به.

قال: (أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي) ثلاثاً، وفي رواية: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي)، وعترتي: أهل بيتي. وهنا يقول: (أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)، فقال حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم عليه الصدقة من بعده، قال: من هم؟ قال: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس -رضي الله عنهم-، قال: كل هؤلاء حُرم الصدقة؟ قال: نعم.

وطبعاً آل بيته؛ أزواج النبي من آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله جلَّ وعلا: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) [الأحزاب:33]، وعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: للنبي كيف وجدت أهلك؟، وقد قال النبي لأم سلمة: (ليس بكِ على أهلك هوان). فآل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- هم: بنو المطلب وبنو هاشم، كما قال زيد: آل بيت النبي؛ آل علي، آل عقيل، آل جعفر، آل العباس، هؤلاء الذين حرم الله عليهم الصدقة ولهم من الفيئة.

وفي قول المصنف: قول النبي: (أذكركم الله في أهل بيتي)؛ فيها أن يوقرهم وأن يحترمهم وأن يحبهم، وأن يبالغ في حبهم وفي تعظيمهم ومعرفة قدرهم، وهذا الذي قاله -كما في البخاري- أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-: (لقرابة رسول الله أن اصل أحب إليّ والله من قرابتي). لا سيما وأن أسماء بنت عميس زوج أبا بكر هي التي طببت فاطمة -رضي الله عنها وأرضاها-، لذلك فاطمة أوصت بأن يغسلها علي بن أبي طالب وأسماء بنت عميس.

وأيضاً ما رواه أحمد وغيره عن العباس بن عبد المطلب: قلت: يا رسول الله أن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا بوجوه لا نعرفها؛ فغضب النبي غضباً شديداً وقال: (والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجلٍ الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله)، في رواية: (لقرابتي)، ورواه أحمد في لفظة: (يا أيها الناس من آذى عمي

فقد آذاني، فإن عم الرجل صنو أبيه) أو قال: (فإن عم الرجل صنو الأب). والعباس هو عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف، كان أكبر من النبي -صلى الله عليه وسلم- بثلاث سنوات.

قال المصنف: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفاني من قريش)؛ هذا الحديث رواه مسلم ورواه أحمد عن واثلة بن الأسقع بلفظ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)، وفي روايةٍ قال: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة).

وهذه دلالة؛ يقول: (اصطفاني)، لأنه كان من أشرف الناس نسباً وأحسن الناس خلقاً، والله قدّمه على جميع الأنبياء، قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر). قال ابن عباس: إن الله فضّل محمداً على أهل السماء وأهل الأرض؛ يعني أهل السماء وعلى الأنبياء، قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء؛ رواه البيهقي، وهذه أيضاً فيها دلالة على أن إسماعيل النبي أفضل إخوته: إسحاق ويعقوب. وهذه فيها دلالة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- من ولد إسماعيل -عليه السلام-.

واعتقاد أهل السنة والجماعة حب آل البيت وعظيم آل البيت وتوقير آل البيت، لا سيما أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويتولونهم وينصرونهم ويقدمونهم على أنفسهم. قال المصنف: ويتولون أزواج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة؛ وهذا رد على الرافضة الخبثاء الذين يتكلمون في عرض النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويتهمون عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-. خسئوا وكفروا بما قالوا، وجحدوا بآيات الله ورسله. فأزواج النبي هم أمهات المؤمنين في الاحترام والتوقير والتعظيم، وتحريم النكاح على التأبيد، ولكن يعاملن معاملة الأجنبيات؛ فلا نظر ولا خلوة وغير ذلك، قال الله تعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) [الأحزاب:6]، توقيراً وتعظيماً واحتراماً.

وأيضاً من اعتقاد أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بأن أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- هن أزواجه في الآخرة؛ لا سيما أن أم سلمة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: يا رسول الله، إني امرأةٌ كبر سني ولا أرب لي في الرجال، وإني أريد أن أكون زوجاً لك في الآخرة، نوبتي لعائشة لكن لا تطلقني.

وفي صحيح البخاري لمّا بعث عليّ عماراً والحسن إلى الكوفة ليستنفرهم، خطب عماراً فقال: إني لأعلم أنها زوجته (أي عائشة) في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها. وعن ابن حبان من طريق سعيد بن كثير عن عائشة إن النبي -صلى الله عليه

وسلم- قال: (ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة)، وسودة أيضاً كما قلنا إن النبي ﷺ آثر ألّا يفارقها عندما أعطت نوبتها لعائشة.

وخديجة -رضي الله عنها وأرضاها- التي تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- بمكة، بأنها من أخص أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن أفضل أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، إن لم تكن هي أفضل أزواج النبي على الإطلاق. لأن جبريل جاء فقال: (أقرئ خديجة السلام من ربها وقل لها: إن الله يبشرك ببيتٍ من قصب (لؤلؤ) لا صخب فيه ولا نصب). والخلاف بين العلماء في هذا الباب وهو: من أفضل خديجة أم عائشة؟ وهذا سيأتي في خاتمة الباب؟

تزوج خديجة، وبعدما ماتت تزوج عائشة وسودة -رضي الله عنهما-، وتزوج أيضاً حفصة بنت عمر -رضي الله عنها وأرضاها-، وتزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان "رملة" -رضي الله عنها وأرضاها- وهي بأرض الحبشة والنجاشي هو الذي أصدقها، وتزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية، وتزوج النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً ميمونة، وتزوج زينب بنت جحش -رضي الله عنها وأرضاها- بعد ما طلقها زيد، كما قال الله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) [الأحزاب:37].

قال المصنف: خصوصاً خديجة أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه منزلة العالية. والصديقة بنت الصديق، التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام). ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة. اختلف العلماء فيهن اختلاف عريض؛ هل عائشة أفضل؟ أم خديجة أفضل؟

خديجة -رضي الله عنها وأرضاها- لها ما لها من المنزلة السامية الراقية عند نبينا؛ خديجة أحبها النبي من كل قلبه لأنها رافقت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتحملت معه المشقة والشدة واللأواء، أنفقت كل ما تملك من أجل دين الله جلَّ في علاه. وكانت أريبة لبيبة راقية من ذكائها وفطنتها، هي التي بشرت النبي بالنبوة، وهي التي قالت لنبينا -صلى الله عليه وسلم-: لا والله، لا يخزيك الله أبداً، إنك لتحمل الكل وتعين ذي الحاجة وتغيث الملهوف، وأخذته إلى ورقة ابن نوفل.

ثم بعد ذلك كانت من خير من كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- تعضيداً ونصرةً، وقفت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وقفات عظيمة، هو الذي قال بذلك. وكان منها الولد؛ لذلك لما قالت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: مالك في شمطاء عجوز شمطاء أبدلك الله خيراً منها؟ قال: (لا والله ما أبدلني خيراً منها)، وقال: (وكان لي منها الولد).

خديجة لها منزلة عظيمة؛ جاء جبريل -عليه السلام- للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (أقرئ خديجة من ربها السلام، وبشرها ببيت من قصب لا نصب فيه ولا صخب). كان من خديجة -رضي الله عنها- الولد، والنبي فرّق بينها وبين أزواجه أن الله جلَّ وعلا رزقه منها هي الولد، ولم يرزقه من غيرها الولد للنبي -صلى الله عليه وسلم-. وكما قلنا هي التي واسته بمالها وحالها، وكانت معه أماً وبنتاً وأختاً، فلنعم الزوجة هي -رضي الله عنها وأرضاها-.

لذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا تكلم على خديجة ظهر ذلك في وجه النبي ومن قلب النبي، وكان إذا ذبح الذبائح فرّقها في أصدقاء خديجة. وأيضاً لمّا دخلت هالة أخت خديجة قال: (اللهم هالة أخت خديجة)، من أجل مكانتها عند النبي -صلى الله عليه وسلم-. وقال عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها ولداً إذ حرمني أولاد النساء).

وأمّا عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- فهي التي قالت: والله ما غرت من امرأةٍ قط مثلما غرت من خديجة، لما سمعت ورأت من حب النبي -صلى الله عليه وسلم- لخديجة. فالصديقة بنت الصديق هي من أحب أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك اختلف العلماء اختلافاً عريضاً الصديقة أفضل أم خديجة أفضل؟ وإن كان بعض العلماء يرون بأن خديجة أفضل لأمور، يعني هم رجحوا ذلك ببعض الأدلة.

ومن الأدلة التي رجحوا فيها فضل خديجة على عائشة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له جبريل: (إن الله يقرئها السلام)، ولكن لما دخل النبي على عائشة جاء جبريل فأقرأها السلام، قال: (جبريل يقرئك السلام). قالوا هذه الرتبة أعلى لأن الله هو الذي أقرأها السلام، والحق أن جبريل لا يقرئ السلام إلّا إذا كان من الله جلَّ في علاه، لأنه قال: (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) [مريم:64].

وأيضاً احتجوا بفضل خديجة على عائشة، وهي البشارة بالبيت الذي في الجنة، واحتجوا أيضاً بفضل خديجة لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربع) وذكر منهن خديجة، لم يذكر عائشة معهن. وقالوا أيضاً بأن خديجة هي أول من أسلم من النساء بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

وهناك من قال عائشة أفضل؛ لأن النبي لمّا قال له عبد الله بن عمرو بن العاص: من أحب الناس إليك؟ قال: (عائشة)؛ صدّر الباب بعائشة -رضي الله عنها وأرضاها-. ولمّا كان في مرض موته كان يقول: (أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟) يعرّض بعائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، وهي قالت: مات بين سحري ونحري. وتعلمون كيف فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-.

والذي يبيّن الفضل أيضاً بأن النبي قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا أربع)؛ قال: (آسيا امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، خديجة)، ثم قال: (وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام). وتعلمون أن الثريد كان من أحب أو أشهى الأطعمة للعرب، قالوا: سيد إدام أهل الدنيا والآخرة اللحم؛ وقد ورد ذلك مأثوراً.

والحق ما قاله ابن تيمية في التفريق: بأن خديجة في أول الأمر (يعني في مكة) هي الأفضل وهي الأعظم، وحاجة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت أعظم، لذلك فضلها ظهر في مكة. وعائشة -رضي الله عنها- في المدينة أفضل، وفضلها ظهر لأنها كانت تبث حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عملاً بقول الله جلَّ في علاه: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34].

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الأول والسبعون:

- البراءة من طريقة الروافض والنواصب

- موقف أهل السنة والجماعة من الآثار المروية في مساوئ الصحابة

ويتبرؤون من طريقة الروافض؛ الروافض هؤلاء -أعوذ بالله- يسبون الصحابة رضوان الله عليهم، بل يكفِّرون الصحابة، وأشد سباً لأبي بكرٍ وعمر.

الروافض ثلاثة طوائف:

١- طائفة ألّهت علياً بن أبي طالب -رضي الله عنه- وهؤلاء الذين خد الأخاديد وألقاهم فيها عندما قال:

لمّا رأيت الأمر أمراً منكراً *** أججت ناري ودعوت قنبرة

وأيضاً لمّا جاء يحرقهم، ابعث إلي ابن عباس قال: لو كنت مكانه ما فعلت ذلك فإن النبي قال: (لا يعذب بالنار إلّا رب النار)، قال: صدقت، ولكنه فعل بهم ذلك لأنهم ازدادوا طغياناً وغياً.

٢- وطائفة أخرى الذين قدّموا علي بن أبي طالب على أبي بكرٍ وعمر، وقالوا هو الوصي، وقالوا أن الخلافة سرقت. قام علي بن أبي طالب في الكوفة فقال: أفضل هذه

الأمة أبو بكر ثم عمر، ومن فضلني عليهما جلدته حد المفتري، وطلب من كان يسب أبو بكر وعمر.

٣- الطائفة الثالثة التي أطلقت لسانها تسب أبا بكرٍ وعمر وتسب عائشة وتسب الصحابة، وتكفِّر الصحابة؛ هؤلاء أراد أن يقتلهم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالروافض أكثرهم كفرة، بمعنى الكفر حقاً من يخرج من الإسلام، هم يترسمون الإسلام فقط زعماً.

وأمّا طريقة النواصب (النواصب هم الخوارج)؛ هؤلاء الذين نصبوا لآل البيت العداوة، يسبون علي بن أبي طالب ويكفِّرونه، ويكفِّرون عثمان أيضاً، وهؤلاء أفرطوا جداً في التنقيص من قدر علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-.

أهل السنة والجماعة وسط بين فئتين عظيمتين من الضلال، فأهل السنة والجماعة وسط بين الروافض والنواصب؛ والنواصب هم يتبرؤون من آل البيت، وهم الذين يسبون علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- ويكفِّرونه، بل ويكفرون عثمان ومعاوية. فالنواصب هؤلاء على طريقة غير سوية، الذين يسبون آل البيت وينصبون العداوة لهم، والذين أيضاً يكفِّرون آل البيت، هؤلاء فيهم الغلو والطغيان، هؤلاء الخوارج.

والروافض الذين يسبون الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، ويكفِّرونهم أيضاً، ويزعمون بذلك حب آل البيت؛ هؤلاء كذبة وهؤلاء كذبة، هؤلاء أهل بدعة وضلالة وهؤلاء أهل بدعة وضلالة.

بين أهل البدعة والضلالة، بين الروافض والنواصب؛ فالروافض هم الذين يزعمون حب آل البيت كذباً وزوراً. فأهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الروافض وبين النواصب، والنواصب هؤلاء الذين ينصبون العداوة لآل البيت ويكفِّرون علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-.

وطريقة أهل السنة والجماعة يترضون عن جميع الصحابة، ويحبون قرابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمحبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فهم وسط بين النواصب الذين يؤذون آل البيت، ويتبرؤون من الروافض الذين يكفِّرون الصحابة. وأهل السنة والجماعة تترضى عن الصحابة جميعاً وتحبهم جميعاً، وتحب آل البيت جميعاً -رضي الله عن الجميع-.

قال: ويمسكون عمّا شجر بين الصحابة؛ كما قال بعض السلف: هذه المعارك وهذا القتال ما كان لنا فيه شيء، فلساننا لا يدخل فيه. يمسكون عمّا شجر بين الصحابة؛ لكنهم يعتقدون بأن الصحابة الكرام ما قاتلوا لعاعة الدنيا، ولا قاتلوا من أجل وجاهة أو

سلطان أو مال، بل هؤلاء الظن فيهم أنهم ما أرادوا إلّا الله جلَّ في علاه، وقد اجتهدوا جميعاً، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

لذلك هم يمسكون عما حدث مع الصحابة، (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [الحشر:10]. ولذلك هم يعملون بقول الله جلَّ في علاه: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [البقرة:134]، هذا الذي كان من هؤلاء المحسنين. ولذلك جاء عن عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال سئل عمّا وقع بين الصحابة، قال: تلك الدماء طهر الله منها يدي، فلا أحب أن أخوض فيها بلساني. ويقولون أن الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه، ومنها ما هو قد وجّه.

يحبون الصحابة ويترضون عنهم، ولسان حالهم يقول: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ)، فهم يباينون الروافض في تكفيرهم للصحابة، ويباينون النواصب في تنصيب العداوة لآل البيت. وهم يعلمون ولسان حالهم جميعاً جرى بين الصحابة تقوى لله، ويعلمون يقيناً بأن الصحابة يجتهدون؛ منهم من أصاب، ومنهم من أخطأ، يعني لهم من اجتهاد فقد اجتهدوا، ومنهم من أصاب في الاجتهاد فيما اجتهد فيه، ومنهم من أخطأ. هكذا عقيدتهم في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم وما وقع بينهم-، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين).

كما قلت هم يمسكون ألسنتهم عمّا وقع مع صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه- يعلمون أنه قتل مظلوماً شهيداً، لا سيما وأن النبي قد تنبأ بذلك وقال له: (إن الله يقمِّصك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه)؛ فلا توافقهم، وقتل شهيداً مظلوماً -رضي الله عنه وأرضاه-.

ويعلمون أن ما جرى بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان اجتهاد من الطرفين، وما جرى بين طلحة والزبير وعائشة وعلي بن أبي طالب كله اجتهاد؛ منهم من أصاب فيه، ومنهم من أخطأ. ويقولون كل الآثار المروية في مساوئ الصحابة كلها كذب: إما زيادةً أو نقصاناً، والصحيح منه فيه ما فيه ما هو معذورٌ فيه: مجتهدٌ مصيب، أو مجتهدٌ مخطئ. وما ورد من الكلام من النبي في أحدٍ منهم، فإن النبي قال: (اللهم اجعله رحمةً لهم).

ومع ذلك لا يعتقدون أن كل واحدٍ من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب جملةً وتفصيلاً؛ والمعنى من الصحابة من وقع في الكبيرة وكان من خيرة الناس، كماعز قال عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إني أراه يسبح في

أنهار الجنة)، وقال عن الغامدية: (والذي نفسي بيده إنها تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم). فهم لا يدّعون العصمة لأحدٍ، ويعلمون أن (كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون).

لكنهم يعلمون أنهم خير الناس، وأن الله قدّمهم على الناس، وأن خير صحبة صاحبت نبياً هم الذين صاحبوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ولذلك يعتقدون أن لهم السبق ولهم الفضل فيحفظون لهم ذلك، ويعلمون أن الله فضّلهم على الجميع بقوله جلَّ في علاه: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110]، وبقوله صلى الله عليه وسلم: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد. وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي) هذا مكان الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

هم يعلمون بأنهم خير الناس، وفضائلهم جمة على ما قال النبي: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، هذا كله في فضل الصحابة. وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم. ثم إذا كان قد صدّر من أحدهم ذنب، فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين هم أحق الناس بالشفاعة، أو ابتلي بلاءً في الدنيا كُفِّر عنه به. هنا تنوع ما يقع عليه فيه مخرج -كما سنبين-، يعني جعل الله لهم المخرج.

هنا المسألة من الأهمية بمكان لبيان فضل الصحابة الكرام، بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أظهر فضلهم، وأن الله جلَّ وعلا أظهر فضلهم؛ ومن ذلك أيضاً أن النبي قال: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه). ومع ذلك لا يدّعون لهم العصمة، معنى الكلام هنا هو أن هذه ليست مقارنة بأفعالنا وأفعالهم، لا أبداً. هذه مقارنة بين أفعال متأخري الصحابة في الإسلام ومتقدمي الصحابة في الإسلام، ليست المسألة مقارنة بين أفعالنا وأفعالهم.

قول النبي: (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً لم يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، هذا الكلام كان موجهاً لخالد بن الوليد من متأخري الإسلام، المشدة والحدة كانت بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- انتصر للمتقدمين، السبق له مكان. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، والسبق له مكانته.

ولذلك الذي يهدر السبق رجلٌ مغفل أو رجلٌ جاحد وحاقد، وفي الحالتين هو ملام ومذموم، لكن مع الحقد يكون الخسران والخذلان أعظم. فالحاصل أن النبي قال لخالد

هذا الكلام، فهنا المسألة على التفرقة بين متأخري الإسلام "مسلمي الفتح" وبين متقدمي الإسلام.

أيضاً بعد ما نقول بفضلهم الذي بيّناه، وأن النبي قال بأن: من أنفق مثل أحد من متأخري الإسلام ذهباً لم يبلغ نفقة أحدهم مداً من شعير أو من قمح. فانظر كيف كان السبق له الثقل في الوزن عند ربهم جلَّ في علاه، ومع ذلك لا ندّعي لأحدٍ منهم العصمة، ولا أحد يدّعي لهم العصمة. بل لا بد أن تعلم أن الله جلَّ في علاه ما أوجب على العباد جميعاً العصمة، لكن أوجب على العباد التوبة.

إذاً فهؤلاء لا بد أن تعلم أن الواحد منهم بأمة بعده، وقد أخطأ ابن عبد البر أنه قال: جملة الصحابة أفضل من جملة التابعين، لكن ممكن يكون في آحاد التابعين أفضل من آحاد الصحابة، كأويس وغيره. هذا باطل مرذولٌ مردود، والصحيح أن الصحابي بأمة بعده؛ ليلة واحدة رأى فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وجالسه هذه بأمة بعده.

فيقولون: ولا ندّعي لأحدٍ منهم العصمة، وإنهم يقعون في الذنوب. فإذا وقع في الذنوب قالوا: وأمّا إذا وقع في الذنوب، فهم يخرجون منها بأحد هذه الأسباب "أسباب الخروج من الذنب" أو بأحد الطرق التي جعلها الله جلَّ في علاه مخرجاً لأمثال هؤلاء؛

من هذا:

- أولاً التوبة والأوبة، لأنه إذا وقع فإنهم يتوبون، وحقاً أن من صفات ومن سمات الصحابة هم أسرع الناس توبة بعد ذنب. وأنت ترى ماعز وأيضاً الغامدية، وترى أبا ذر، يعني كثير من الصحابة -رضوان الله عليهم- لهم أمثلة كثيرة في هذا الباب، لكننا لسنا بصدد تفصيل، التفصيل يكون في مجال آخر في هذا الباب. فهم أسرع الناس التوبة بعد الذنب؛ المعنى نقول أنهم يقعون في الذنب؟ نعم يقعون في الذنب، وهذا الطريق الأول لمحو الذنوب التي وقعوا فيها.

- الأمر الثاني هم أعظم الناس حسنات، وأسرع الناس في منافسة في الخيرات وفي الصالحات؛ فنقول بأن هذا الذنب مغفور مغمور، وأن الحسنات يذهبن السيئات، لأن الله جلَّ وعلا قد ألهمهم بعد السيئة الحسنة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أسأت فأحسن؛ السر بالسر والعلانية بالعلانية، فالحسنات يذهبن السيئات).

(لمّا جاء رجل وقال: يا رسول الله، وقعت على امرأةٍ أعلمها وقد أتيت منها ما أتى الرجل من زوجه غير أنني لم أطأ، النبي -صلى الله عليه وسلم- سكت عنه، ثم بعدما صلى قال: أين السائل؟ قال: ها أنا ذا يا رسول الله، فقال له: صليت معنا؟ قال: نعم، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: اذهب فقد غفر الله لك. الرجل اندهش، فليزيل دهشته قرأ عليه قول الله جلَّ في علاه: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) [هود:114]. فلمّا قال ذلك، قال: ألي خاصة؟ قال: بل لأمتي عامة).

فهؤلاء القوم الله جلَّ في علاه اصطفاهم على الناس، لذلك ألهمهم الطاعات؛ فترى ابن مسعود يقول: لا أصوم لأنه يضعفني عن القيام، فكان يقوم الليل، حتى أن النبي مر مع أبي بكرٍ ومع عمر بن الخطاب واستوقفتهم قراءة ابن مسعود، ورفع يديه يدعو قال: (سل تجب، سل تجب، سل تجب).

ومنهم من كان يصوم النهار رغم الهواجر، ومنهم من كان يعني بابه الذي فتح له الصدقة، ومنهم من كان يصلح بين المتخاصمين، ومنهم من كان يسعى في قضاء الحاجات. فالله جلَّ وعلا فتح لهم ألوان شتى من ألوان الطاعة، وهذه الطاعة تكفِّر هذه الذنوب التي يقعون فيها، وممكن أيضاً أن يقال بأنها تغمر في بحر الحسنات التي قدموه. هم في الشدة واللأواء نصروا الدين ونصروا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولاقوا من الكفار ما لاقوا، لذلك فإن الله جلَّ في علاه رفعهم في عليين وفتح لهم الأبواب جميعاً، لذلك قلنا بأن هذه الحسنات تغمر في بحر سيئاتهم.

وإن دل على ذلك مما وقع من حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه وأرضاه-؛ أنه جس على النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى (قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما هذا حاطب؟ حتى عمر قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال حاطب: لا تعجل عليّ يا رسول الله، والذي نفسي بيده أنا لم أفعل ذلك ردةً عن ديني، ولكن أردت أن يكون لي يدٌ عندهم أحافظ بها على أهلي. فعمر قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: يا عمر صدقك الرجل)، ثم قال: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم قد غفرت لكم). هذا الميزان؛ ميزان الله جلَّ في علاه ليس كميزان العباد بحال من الأحوال.

فإذاً هي غفرت لهم هذه الذنوب بالسابقة أو بالحسنات الماحيات،

- أو بحسن النصرة للدين،

- وأيضاً يغفر لهم بشفاعة النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-، لأن النبي قال: (وأختبئ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)؛ أعظم الناس نفعاً بالشفاعة هم أصحاب رسول الله، هم أحق الناس بالشفاعة.

- أيضاً لهم باب آخر من الأبواب التي يكفِّر الله بها عنهم سيئاتهم، البلاء؛ تعلم أن أبي دعا ربه جلَّ في علاه يعني أن يصاب بالحمى فلا تبرحه لكن لا تعطله عن الجهاد، وقد كان، لأنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها مكفرات للسيئات والمعاصي. النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن السلام بين الأخ وأخيه تتحات الذنوب كما يتحات

ورق الشجر، وكذلك الحمى فإنها تكفِّر السيئات. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أصاب المرء من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍ ولا غمٍ حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارة له)، فهذا كله في الذنوب التي وقعوا فيها.

وهناك ذنوب ليست بذنوب، هي أخطاء وقعوا فيها بسبب الاجتهاد، فاجتهدوا فكان من اجتهادهم أن الله جل في علاه كفّر عنهم سيئاتهم بهذا الاجتهاد، لهم أجر وليس ذنب، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر).

ثم القول الذي ينكر من فعل بعضهم نزرٌ مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومحاسنهم؛ لأنهم جاهدوا في سبيل الله، وهاجروا في سبيل الله، ونصروا دين الله جلَّ في علاه. فانظر كيف أن الشرع ينظر إلى أهل الفضل بفضلهم، ولا يعجل عليهم.

ومن نظر في سيرة القوم بعلمٍ وبصيرة وما منّ الله عليهم به من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم صفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها؛ إذاً وصل المصنف هنا إلى أن الصفوة هم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، خيار الناس هم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هؤلاء الذين اختارهم الله لصحبة نبيه كما قال ابن مسعود: إن الله سبحانه نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء؛ وهذا رواه أحمد وأبو داود والطيالسي وأيضاً الدارمي.

وما قاله عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-، وتواترت به الأحاديث، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد. وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى الأمة ما توعد)، وقد قال الله تعالى عن هؤلاء: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) [النمل:59].

أول الناس دخولاً هم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأيضاً قد قال الله جلَّ في علاه: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) [فاطر:32]؛ فأمة محمد هي أعظم الأمم، وهم الذين أورثهم الله الكتاب، وحجبه عن اليهود والنصارى. وهذه الأمة قد قال فيها الله عموماً: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنتم توفون السبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله جلَّ في علاه).

لا سيما وأن نبيها -صلى الله عليه وسلم- قال: (نحن الآخرون الأولون)؛ نحن الآخرون خلقاً والأولون دخولاً الجنة، والأولون حساباً، والأولون مروراً على الصراط. فهذه الأمة بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها أفضل الأمم على الإطلاق على أنها الأمة المرحومة، وهي أمةٌ مبشرة؛ قال: (أمتي أمةٌ مرحومة، عذابها في هذه الدنيا الزلازل والمحن).

ثم بعد ذلك تكون الرحمة ويكون التمكين، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بشر هذه الأمة بالرفعة والسنة والتمكين إلى يوم الدين)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (أمتي كالمطر، لا يدرى الخير في أوله أم في آخره). أرأيت كيف هذه؟ ففيه دلالة واضحة جداً على تفضيل هذه الأمة، لا سيما أن أفضل هذه الأمة على الإطلاق هم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ولذلك وصى النبي -صلى الله عليه وسلم- بخيار هذه الأمة "بطلبة العلم"، وقال: (استوصوا بطلبة العلم خيراً)، كان أنس بن مالك يقول: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (إن العلماء هم ورثة الأنبياء).

فالأمة فيها ما فيها من الصفوة، وفيها ما فيها من الخيار، وفيها ما فيها ممن ينصر الله بهم الدين، لا سيما أن هؤلاء هم الذين يتأسون بصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. لذلك قال الإمام مالك: إن لم يكن في آخر الزمان هذا الدين الذي كان في أول الزمان، فلا يصلح أن يكون ديناً بحال من الأحوال. الدين في هؤلاء، والنصرة في هؤلاء، والاتساء بهم واجب وضرورة. تقدم الأمة بالتمسك بتلابيب ما كان عليه صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، الذين قال فيهم الله جلَّ في علاه: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]، وقال الله جلَّ في علاه: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح:29].

ختاماً لهذا الباب في الكلام على أفضلية صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأختم بالرد على ابن عبد البر، وأنه ليس أحد يقارب صحابة رسول الله. حديث أويس الذي يتمسكون به هو أدل الأدلة على أنه ليس أحد في وزن الصحابة؛ فابن عبد البر قال: ممكن من آحاد التابعين يكون أفضل من آحاد الصحابة، وهذا باطل مردود، والاحتجاج بحديث أويس عليهم ليس لهم. كيف؟ الصحيح هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أويس خير التابعين)، ما قارنه بالصحابة.

العقيدة الواسطية

الدرس الثاني والسبعون: كرامات الأولياء

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامة الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات؛ دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، والواقع يثبت ذلك. فإن السنة المتوترة أثبتت ذلك، ولأن الله جلَّ في علاه بيّن هذا كتابي؛ لا سيما فيمن يعتقد بأن الخضر ولي وليس بنبي، فما حدث مع الخضر لو كان ولياً حقاً كما يقولون -لكني أدين الله بانه نبي-، يكون هذا من عظيم كرامات الأولياء.

والسنة مليئة بذلك؛ ما حدث مع أبو مسلم الخولاني مع مسيلمة الكذاب، مسيلمة الكذاب قال له: أتؤمن بمحمد نبياً؟ قال: نعم، قال: تؤمن بي نبياً؟ قال: لا أسمع. فرد عليه وقال: تؤمن بمحمد نبياً؟ قال: نعم، قال: تؤمن بي نبياً؟ قال: لا أسمع. فقطع أذنه، ثم أضرم النار وألقاه فيها، ولكنه لم يحرق، هذه كرامة. عمر بن الخطاب أخذه يقبل فيه ويقول: الحمد لله الذي أراني في أمة محمد من يحدث معه مثل ما حدث مع إبراهيم -عليه السلام-.

ولا بد أن تفهم أصل أصيل هنا؛ الكرامة للأولياء توضع في ميزان معجزات الأنبياء، والكرامة والمعجزة وتلاعب الشيطان (الذي هو السحر). الكرامة والمعجزة يتفقان ويفترقان؛ يتفقان: في خوارق العادات، بهما خوارق العادات. ويفترقان: أن المعجزة تكون للنبي للتحدي، النبي يزهر ويجتهد في إظهارها ويتحدى بها، لأن الله أعطاه إياها ليتحدى بها وعلى مثلها يؤمن الناس. والكرامة يجب على صاحبها أن يخفيها، خوفاً من الرياء والسمعة، ولا يريد بذلك؛ فيخفيها لأن الناس تطلب الكرامة، والله يطلب الاستقامة، وبالاستقامة تكون الكرامة.

وقد حدث كثير من الكرامات لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قبلها في مسألة الخوارق العادات حدثت للأنبياء؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما نادى شجرتين، فأتت كل واحدة سريعة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، والتأما حتى قضى حاجته ثم ردهما إلى مكانهما. وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر جذعاً من النخل نزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورجع مرةً ثانية. ومن ذلك أيضاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما خطب، كان يستند الى عودٍ، والعود يئن، لأن النبي استند الى على المنبر يخطب على المنبر وما سكت حتى نزل النبي ووضع يده عليه. النبي هز خشبةً فانقلبت سيفاً، ومثل هزا كثير.

أمّا في الأولياء فانظر إلى ما حدث مع الصحابة:

- أول الصحابة كرامة تحدث مع أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، أن الطعام يأكلون منه ويزداد لا يقل، ويسمع تسبيح الطعام.

- ومن ذلك أيضاً ما حدث لعمر، وإن كان الحديث في ذلك ضعيف صراحةً، لكن يستأنس به. عندما قام يخطب فقال: الجبل الجبل يا سارية، الجبل الجبل يا سارية. تعجب عبد الرحمن ابن عوف، بعد ما نزل من على المنبر قال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين ما أحب، هنا العامة يسمعون لك، يقولون كيف خرج أمير المؤمنين من كذا إلى كذا؟ قال: والله ما أدري إني وجدت سارية ومن معه في مأزقٍ، وعلمت أن النجاة لهم أن ينحازوا إلى الجبل، فقلت: الجبل الجبل يا سارية، الجبل الجبل يا سارية. وسارية بعدها بشهر جاء فقال: كنا في حالةٍ لا يعلم بها إلّا الله جلَّ في علاه، فسمعنا صوت عمر يقول: الجبل جبل يا سارية؛ يعني الزم الجبل. قال: فحصتهم إلى الجبل، فأنجانا الله من يد الكافرين. الغرض المقصود أن هذه أيضا كرامة لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

- وأسيد بن حضير كان يقوم يصلي من الليل، فتنزل ظلة من الأنوار عليه "سرج"، فكان يتعجب. فذهب فسرد ذلك للنبي، فقال النبي: (تلك الملائكة نزلت تسمع قراءتك).

- في القادسية سعد بن أبي وقاص ومن معه، العجب العجاب أنه ما من خيرٍ إلّا وتأتي صخرة على الماء فيمشي عليها، فمشوا جميعاً على الماء. طبعاً هذا أيضا يحتاج إلى إثبات الأسانيد، لكن يستأنس بها في هذا الباب. ففتح الله لهم ما لم يفتح لغيرهم بحال من الأحوال.

- عمران بن حصين -رضي الله عنه وأرضاه- كان من اعظم الناس توكلاً على الله جلَّ في علاه، فكانت الملائكة تنزل من السماء فتسلم عليه حتى اكتوى، قال: فاكتويت فامتنع السلام. قال: فرجعت (رجعت عن ذلك) فرد الله السلام؛ يعني كانت الملائكة تسلم عليه.

وكل هذه كرامات لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وحدث مع التابعين أيضاً من الكرامات، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

في قوله: من خوارق العادات؛ قلنا خوارق العادات: معجزات وكرامات.

قوله: في العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات؛ فهنا الكرامات نوعان:

- علوم ومكاشفات،

-وقدرة وتأثيرات.

علوم ومكاشفات؛ هذه كالإلهام، من كان يؤمن بأن الخضر ولي قالوا: هذا إلهام، لأنهم يعتقدون أنه ولي، والصحيح أنه نبي وهذا وحي. لكن عمر بن الخطاب في التصريح من قول النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو كان في الأمة ملهم لكان عمر بن الخطاب). فهذا من العلوم والكاشفات.

وليس من العلوم والمكشفات الغلو فيه في قوله: حدثني قلبي عن ربي. في هذا الباب يكون إلهاماً، وتكون المقدمة مرتبطة بالنتيجة، فتظهر النتيجة بجلاء، فيكون يفتح له كما قلنا. وممكن أن أقول أنه يسمع أصواتاً لا يسمعها غيره، وممكن يرى أشياء لا يراها غيره؛ يعني يرى الملائكة، ممكن يسمع للملك. لكن كما قلت يسمع أموراً قد لا يسمعها غيره، قد يسمع الأموات يعذبون؛ وهذا حدث من ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-، بل رأى ملكاً يأخذ رجلاً ويضربه بالمزبة ويصعد إلى أعلى وينزل إلى أسفل. وسمع أيضاً أصواتاً. فقد يسمعه الله ما لا يسمع غيره كرامةً، وقد يريه الله ما لا يرى غيره كرامةً؛ هذا الذي قصد ابن تيمية فيه بالعلوم والمكاشفات.

وأنواع القدرة والتأثيرات؛ كما حدث من المعجزات للنبي بانشقاق القمر، (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) [القمر:1]، وتحويل الخشب "العصا" الى سيف، فيكون هذا الثاني من أنواع القدرة والتأثيرات كما قلنا في هذا الباب. أيضاً بانه يمكن أن يؤخذ من مكانٍ إلى آخر في التو والحين؛ أنت رأيت كيف قال له الجني؟ قال: (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) [النمل:39].

هذه هي الكرامة على القسمين: العلوم والمكاشفات، القدرة والتأثيرات. وهي في خوارق العادات: للمعجزات للأنبياء وكرامات للأولياء.

تكون وتحدث خوارق العادات لمن لم يكن على السوية، ولم يكن على الجادة، فيكون من خدمة الشيطان له من أجل أنه يصرف له العبادة من دون الله جلَّ في علاه؛ (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا) [الأنعام:128].

لذلك علمائنا قالوا مع أن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بالكرامات، وأنها تكون للأولياء، والصفة معلومة لمن. وأيضاً من أهل السنة والجماعة ما لهم من إثبات هذه الخوارق لأهل الإيمان والاعتدال، وأيضاً أهل لأهل الحيدة والعصيان، لكن يقولون إنها من تلاعب الشيطان. لذلك قالوا: أن الكرامات إن وجدناها، وجب علينا أولا أن نتوقف فننظر فيمن حدث له الكرامة. فإن وجدناه منقاداً متبعاً موحداً حقاً فاعلم أن هذه الكرامة من الرحمن، وإن وجدناه مبتدعاً ضالاً حائداً عن الطريق فاعلم أنه من تلاعب الشيطان. وهنا يأتي كلام أمامنا إمام المذهب "الإمام العلم الإمام الشافعي"، وهو يقول: إن رأيت الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضه على

الكتاب والسنة، فإن وافق فاعلم أنها كرامة من الرحمن، فإن خالف فاعلم أنه من تلاعب الشيطان.

والولي هو الذي قام بالواجبات وانتهى عن المحرمات كما قلنا في هذا الباب، قال الله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يونس:62-63]. وهنا ضرب أمثلة، قال: كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين قرون الأمم، وهي موجودة إلى يوم القيامة؛ وكما قلنا أن الكرامات موجودة إلى يوم القيامة، ولا بد أن تتوافر فيها الشروط الذين التي تكلم عنها العلماء، وأنه يكون متبعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- منقاداً لكتاب الله جلَّ في علاه. فالكرامات لا تنتهي بحال الأحوال إلى يوم الدين، حتى تقوم الساعة على أناس لا يقولون في الأرض: الله الله. قال: ثم من طريق أهل السنة والجماعة اتباع أثار النبي.

العقيدة الواسطية

الدرس الثالث والسبعون: اتباع آثار الرسول ظاهراً وباطناً

قال المصنف: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

هذه المسألة من الأهمية والمكان، لأن فيها أولاً: الأصل التوحيد؛ إذ التوحيد توحيدان: توحيد الله جلَّ في علاه، وتوحيد الاتباع؛ توحيد العبادة، وتوحيد الاتباع. ولذلك لمّا تكلم هنا شيخ الإسلام قال: طريقة أهل السنة والجماعة؛ وهذه فيها دلالة واضحة على التفريق بين طرق أهل السنة وطرق أهل البدعة.

قال: ثم من طريقة أهل السنة والجماع اتباع آثار رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. والآثار هي سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، والمعنى أن سبيل ومنهاج أهل السنة هو اتباع آثار النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والسنة لغةً: هي الطريقة. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه. فقالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال: فمن؟) يعني من غير هؤلاء؟

اصطلاحاً هي تأتي على تعريف عند أهل الاعتقاد، والمتأخرون جميعاً يقوقعون السنة في هذا؛ يجعلون السنة ضد البدعة، على أساس اعتقاد النبي واعتقاد الصحابة الكرام.

فيقولون: السنة ضد البدعة؛ يعني يجعلونه ويخصون السنة بكل ما يتعلق بالاعتقاد. والسنة عند المحدثين وعند الأصوليين وعند الفقهاء تفترق وتختلف وتأتلف، فتتوافق وتتفارق.

- فالسنة عند أهل الاعتقاد: هي ضد البدعة؛ والأصل فيها أنها جملة أصول الدين، والمخالف فيها على خطرٍ عظيم.

- والسنة عند الأصوليين: هي كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، قالوا هذه هي السنة.

♦ كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأم سلمة: (ليس بكِ على أهلك هوان، إن شئتِ سبّعت لكِ وسبّعت للأخريات، وإن شئتِ ثلّثلت لكِ ثم درت عليكن)، هذه سنة قولية مع السنة الفعلية، لكن الأظهر فيها سنة قولية.

في حديث أنس أن النبي قال لأم سلمة: (ليس بكِ على أهلك هوان، إن شئتِ سبّعت لكِ)، وكان قد تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- وله زوجات، وهذا القصد من (إن شئتِ سبّعت لكِ)؛ والمعنى: فإن سبّعت لكِ سبّعت للأخريات، (وإن شئتِ ثلّثلت لكِ ثم درت)، يعني لك حقٍ خالص وهو الثلاثة ثم أدور. هذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ، من قوله يؤخذ منه الحكم على أنه لو تزوج ثيباً فلها ثلاثة أيام أو ثلاث ليالي في القسم، ثم يدور بقسمة العدل، أو يسبّع له فيفردها بالتسبيع، فإن سبّع لها كان حقاً للأخريات التسبيع.

♦ وفعل النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ كما قالت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: (كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقوم جنباً من جماعٍ لا من احتلام، فيتم صومه ثم يغتسل فيصلي). فكانت هذه فعلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- يثبت أن الطهارة ليست شرطاً في صحة الصيام، فإن قام جنباً فإن صيامه يصح، يتم صومه. المشكلة أنه يريد الصلاة فلا بد من الطهارة، فالطهارة شرط في صحة الصلاة، لا في الصوم.

♦ وأمّا التقرير؛ فهو أن يرى النبي -صلى الله عليه وسلم- فعلاً أو يسمع قولاً لصحابي فيقرُّه بذلك. كما أن نقول نما لأسماع النبي قول جابر -رضي الله عنه وأرضاه-: إنا كنا نعزل والقرآن ينزل، فأقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، فهذه سنة تقريرية.

فالسنة كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، هذا تعريف أهل الأصول.

- تعريف أهل الفقه؛ السنة عندهم مقابل الواجب، فال المستحبة أو المندوبة. فعند الفقهاء: كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ لا على وجه الإلزام.

السؤال المطروح: ما الفرق بين السنة عند الأصوليين وعند الفقهاء؟ عند الأصوليين على الإطلاق؛ يدخل فيها الواجب والمندوب، وينشغلون بالقواعد الكلية، سواء كان على الإلزام أو على الاستحباب. الفقهاء لا يرون إلّا ما كان مستحباً، لذلك قالوا: لا على وجه الإلزام.

- والسنة عند المحدثين: هي كل ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفة خَلْقية أو صفة خُلُقية. أوسع الناس تعريفاً للسنة هم أهل الحديث: أيام النبي، وأفعال النبي، سكنات النبي، حركات النبي. إذاً لا بد أن نفهم لأنهم وسعوا الطريق جداً في هذا الباب؛ جعلوا سنن وأيام النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحركات النبي، وسكنات النبي -صلى الله عليه وسلم-. يعني أدخلوا أوسع جداً في مسألة السنة؛ قالوا: طريقة النبي. لو قلنا في اللغة: طريقة النبي؛ طريقة النبي في الطعام، في الشراب، في النوم. كما قال ابن عباس: (كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا نام نفخ)، يعني كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا نام استغرق، فإنما نفخ.

هنا لا يقصد شيخ الإسلام بالسنة التي يقصد بها المتأخرون الكلام على أصول الاعتقاد فقط، أراد أن يظهر الطريقتين. ولذلك ابن تيمية هنا كلامٌ من ذهب لا بد من الوقوف معه طويلاً، لأنه يرد أيضا على الذين يتوغلون في التمذهب. أقول هنا يقصد بها أن نسميها في هذا الباب الكلام على طريقة السلف، وأن النجاة بذلك عليه. إذاً أوسع تعريفات السنة عند أهل الحديث، ولذلك أهل الحديث هم أولى الناس برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأهل الحديث هم أولى الناس بقول علمائنا المتقدمين والمتأخرين "أهل السنة والجماعة".

فأهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طريقتهم هذه، فإذا قصد بأهل السنة فهم أهل التمسك بما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في كلية أمره، حتى في صفاته الخَلْقية. وأقصد بصفاته الخَلْقية، في سنن العادات والتصرفات في الجوانب الحياتية، النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا يؤتسى به، ولابد أن ينشر أمره في ذلك معرفةً لعظام قدره ومكانته عند ربه، أراد الله ذلك.

وهذا الفارق بين تعظيم النبي -صلى الله عليه وسلم- وتعظيم غيره، لذلك قلنا كل من توغل في مسألة التمذهب مع معرفة السنة والتنحي عنها، إن هذا بأسره يشوش على تعظيم النبي -صلى الله عليه وسلم-. ليس صادقاً من عظّم النبي -صلى الله عليه وسلم- وعظّم مذهباً، وليس من اعتلى كرسياً لإمام من الأئمة، ثم لاح في أفقه حديث النبي .

-صلى الله عليه وسلم-، ثم قال: إمامي أعلم به مني، فلم يأخذ بالحديث. هذا الذي أراده ابن تيمية عندما قال: ثم من طريق أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باطناً وظاهراً.

ثم ثنّى بهذا الأمر الجلل: واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين من الأنصار، واتباع وصية رسول الله. "واتباع السابقين الأولين"؛ هذه ما سنبيّنها بأنه من لم يكن في زمانهم دين فليس اليوم ديناً. لكن حُق لنا إذا تكلمنا في هذه المسألة وتعرضنا للسنة، أن نتكلم عن حجية السنة، وعن أهمية السنة، وعن أن السنة وحي كما أن القرآن وحي، لتعلم الدنيا بأسرها أننا ملزمون بسنة النبي، فلا يتلاعب علينا أحد تلاعباً من جهله بتقييد مطلقٍ أو تخصيص عمومٍ أو تأويل مختلفٍ أو صرف نصٍ عن ظاهره. فإنه تلاعبٌ بالشريعة في نهاية أمره، وإنها محاربة للسنة لا محالة، وإن تلطف بها صاحبها، وإن أظهر أنه ناصرٌ للسنة.

حجية السنة المطهرة هي حجةٌ شرعية؛ السنة والقرآن صنوان يتلازمان لا يفترقان، فهي شقيقة القرآن في الحجية والاعتبار. والأدلة متفقٌ عليها بالكتاب والسنة بحجية السنة، بل والإجماع؛ فقد أجمعت الأمة على أن السنة حجة ملزمة، وليس لأحدٍ أن يأتي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- فينظر تحريفاً ظنه تأويلاً، أو بقول إمام فيرده، أو يتكلم بجهلٍ مطبق على عدم قدسية السنة.

قال الله في كتابه المبين: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) [المائدة:92]؛ (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) هذا هو الشاهد ووجه الدلالة، قرن الله طاعة النبي بطاعته، وجعل طاعة النبي طاعةً مستقلة كالقرآن جنباً بجنب. ولمّا قال: (وَاحْذَرُوا) ضمت الأمرين والطاعتين، يعني احذروا من عدم الطاعة. (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)، وهذا تهديدٌ شديد ووعيدٌ أكيد من ربنا المجيد على عباده للالتزام بهذا الطريق المجيد الذي يصل بعد ذلك إلى رضوان الله جلَّ في علاه، في المتعة، في الزمان البعيد المديد. وقال عز وجلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) [النساء:59].

هناك لفتة بيانية ولفتة حكمية بين الآيتين، ما هي؟ أين هي؟ وهذه صراحةً فيها ما فيها من القوة. قال في الأولى: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) [المائدة:92]، أمّا ثانية فقد قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) [النساء:59]. ما الفرق بين الآيتين من توافق وتلازم؟

إن عظّمتم الرسول -صلى الله عليه وسلم- عظّم الله قدركم في قلوب الناس، وعظّم الله دعوتكم، وفاقت وارتقت وسمت وانتصرت. والله ما هزلت إلّا أنها تباعدت عن شمس النبوة، وجعلت أشخاصاً وإن كانوا كراماً لكنهم أوقفوهم صدً وسداً بين بينهم وبين سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ما الفرق بين الآيتين؟ من اللفتات المهمة جداً في هذا الباب منها:

أولاً: هو جعل طاعة الله طاعة مستقلة، وجعل طاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طاعة مستقلة. (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)، طاعة مستقلة لله وطاعة مستقلة للرسول ولم يدخل معهما أحداً، وطبعاً بيّن التحذير الشديد في مسألة التولي. جعل في الثالثة طاعة ولي الأمر، وطاعة ولي الأمر لم تكن مستقلة، جعل طاعة ولي الأمر طاعة تابعة لطاعة الله وطاعة الرسول. لكن أردت لفت الانتباه لأمور؛ أنه بعد ما جعل الطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر، قال: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)، جعل المتنازع فيه يرد إلى الله ورسوله فقط، ولا دخل لأحدٍ قط في هذا الباب. المتنازع فيه والمتخاصم فيه حله في كتاب الله أو في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

يبقى لنا إشكال، لأن هناك قاعدة عند علمائنا وهي قاعدة معتبرة: أن ولي الأمر يرفع الخلاف. كيف نوفق بين هذا وذاك؟ والآيتان فيهما الطاعة المستقلة لله وللرسول، والتحذير الشديد واللهجة الشديدة من مخالفة الله والرسول؟ لا يخرج علينا من يتكلم في البخاري ويلمح به بجهلٍ وجهالات، ولا حتى الذي يثبت السنة ثم يدور حولها، ولا الذي يقول قيمة المذهب تقدّم على قيمة السنة وهو لا يستطيع أن يقول ذلك، لكن لسان حالي ينادي بهذا، فالمتنازع فيه حله في كتابي والسنة.

إذاً هذه قاعدة لا خلاف فيها، هذا الأصل الأصيل؛ كل متنازع فيه يرجع فيه إلى الله والرسول، والسنة حاكمة، والسنة أتبع والسنة ألزم -وهذا سنشبعه ونبيّن أئمة المذاهب المنصفون كيف يفعلون ذلك-. فيكون هنا القاعدة ليس فيها أي خلاف؛ لأن القاعدة: ولي الأمر يرفع الخلاف إن لم يكن هناك نص، والنص لا دخل لأحدٍ فيه بحال. والخلاف عريض بين العلماء في القياس هل يخصص ويقيد أم لا؟ فضلا عن الأعراف، هل العرف يخصص أم لا؟ والمصالح المرسلة تخصص أم لا؟ والحق أنني لا أنفي مطلقاً، ولا أقر مطلقاً، والمسألة على القواعد المحتفة، وهذه تأتي تفصيلها إن شاء الله في الأصول. إذاً هذه الآية؛ وإن جعل لها لولي الأمر طاعة، لكن جعلها طاعة مقيدة بطاعة الله ورسوله، وعند الخلاف. وإن تدخل ليرفع الخلاف، هذا فيما لا ترد فيه النصوص.

وقد قال الله جلَّ علاه مبيناً أن الإيمان منوطٌ بالتصديق والتسليم لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه من أعظم الآيات بياناً لحجية السنة، مؤكدات ثلاث في الآية: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]؛ فجعل الأمر على التحكيم لله وللرسول فيما ظهر من النزاع والخلاف، ولا بد من التصديق ولا بد من التسليم، قال: (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)، وهذه الآية هي أعظم الآيات بياناً ووضوحاً جلياً على حجية السنة الملزمة لجميع الخلق.

وقال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ) [النور:62]، هذا فيه التعظيم والتوقير، لكن ما وجه الدلالة على حجية السنة في هذه الآية؟ هو الحق أن يقال هنا مسألة القياس الأولى في هذا الباب؛ الإذن، بأنه لا يذهب حتى يستأذن، وأن الاستئذان علامة الإيمان. فإن كان الله جلَّ وعلا جعل من علامات الإيمان الاستئذان من الرسول العدنان -صلى الله عليه وسلم-، فلأن يكون من علامات الإيمان التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- من باب أولى، فقياس الأولى في هذا الباب.

والآيات الكثيرة التي تبيّن أن الضلال المبين في ترك السنة، كما قال الله تعالى: (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء:113]، مع قوله جلَّ في علاه: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [آل عمران:164]، فكان رفع الضلال بالتمسك بسنة النبي العدنان.

لذلك لمّا قيل لابن مسعود على مسألة المواريث للبنت النصف وللأخت النصف الآخر، التعصيب مع الغير، قال: إن قلت بهذا القول إذاً فأنا في ضلالٍ مبين، ثم قال: وما أنا من المهتدين، عندي فيها سنة. فالسنة يعني ترفع الضلال. كل من تكلم بمذهبٍ وظهرت السنة بخلافه فلم يأخذ السنة، فهو في ضلالٍ مبين. ومن هذه الأدلة أيضاً على ذلك ما جعله الله علامة المحبة، وهي الآية الممتحنة: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31].

أمّا السنة فكثير؛ فالسنة أثبتت حجية السنة مع استقلالها لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا ألفين أحدكم شبعان على أريكته، يأتيه الأمر من أمري فيقول: ننظر في كتاب ربنا، فما وجدناه حلالاً أخذنا به وما وجدناه حراماً حرمناه)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- راداً عليهم زاجراً: (ألا وإني قد أوتيت القرآن ومثله معه، ألا وإنما حرم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما حرم الله).

ولذلك في حديث العرباض بن سارية قال: (أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته، يظن أن الله لم يحرّم شيئاً إلّا ما في هذا القرآن. ألا إني قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء

إنها مثل القرآن أو أكثر). ونحن نقول: بل أكثر. نعوذ بالله أن يكون هذا كلام زيادة على النبي، أستغفر الله. يعني نقول: وعظ وأمر بمثل ما في القرآن، قال: (أو أكثر)؛ فنقول نعم، (أو أكثر) هذه فيها دلالة على "بل أكثر"، يعني "أو" هنا بمعنى "بل". لأن السنة استوعبت وأتت بأحكام مستقلة وهذا الذي سنبينه؛ حرمة الزواج من المرأة وخالتها وعمتها ما جاءت إلّا في السنة، يعني جاءت على غرار ما في القرآن لكن جاءت بأحكام جذرياً لم يأتِ بها الكتاب.

قام النبي خطيباً في غزوة تبوك، أثنى على الله ما هو أهل له، ثم قال: (يا أيها الناس إني ما آمركم به إلّا ما أمركم به الله جلَّ في علاه، ولا أنهاكم إلّا عمّا نهاكم الله عنه. فأجملوا في الطلب، فوالذي نفس أبي القاسم بيده إن أحدكم ليطلبه رزقه كما يطلبه أجله، فإن تعثر عليكم منه شيء فاطلبوه بطاعة الله عز وجلَّ).

وأجمعت الأمة على حجية سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأنها حجة على الجميع. فقد قال النبي: (من أطاعني أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الدين بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي)، في روايةٍ قال: (الذين يحبون سنتي من بعدي ويعلمونها للناس). عامةً هذا الحديث عظيم جداً لنا جميعاً أن نتشرف به ونلتمس بركته.

هل يصح؟ هل هناك من يحب أن يعلم الناس سنة النبي فيعلمهم مذهباً دون السنة؟ أو يرتب لهم ترتيباً يقف به في نهاية أمره صاداً السنة؟ إن والله هذا لبعيد. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنتي)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني).

وقلنا بأن الإجماع قد انعقد لأهل السنة والجماعة على أن التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ملزمٌ الجميع، وحجة على الجميع. لذلك قال ابن المنذر في كتابه -وهذا من اعظم الكتب نفعاً، وهو كتاب مصغر عن الأوسط، وهو كتاب الإشراف-: ونص النبي لا يقوّضه إلّا نص النبي، ولا يصح تقييد المطلقات ولا تخصيص العمومات إن كان وحياً إلّا بوحي، وغير ذلك لا يكون.

الكلام والنزاع بين الأصوليين في مسائل ثلاثة: القياس، والمصالح المرسلة، والأعراف. أمّا مسألة المصلحة والعرف فهي أضعف ما تكون، ومسألة القياس النزاع فيها عظيم، ولا يمكن أن يؤخذ بالقياس أن يخصص عموماً إلّا إذا كان جلياً. قال الإمام ابن حزم: قد قال الله تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)، فالأمة مجتمعةٌ على أن هذا الخطاب متوجهٌ إلينا وإلى كل

من يخلقه الله جلَّ في علاه، ويركب في جسده الروح إلى يوم القيامة من الجنة والناس. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي)؛ فأمرٌ لمن معه، وهو أمرٌ لكل من جاء بعده. فأجمعت الأمة كما قلنا على حجية السنة، وأنها ملزمة للجميع.

هناك أدلة كثيرة على أن السنة وحي كما أن القرآن وحي، لكن نكتفي في الواسطية بقول ابن تيمية في هذا الباب: ثم من طريق أهل السنة والجماعة اتباع آثار النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيها دلالة على المنطوق والمفهوم، والمعنى أن من طريق أهل البدعة والضلالة التنحي عن اتباع آثار الرسول -صلى الله عليه وسلم-. ولذلك لمّا أعيتهم السنن حاربوها، حرفوها، أوّلوها. ومنهم من دخل في امرٍ هو اعظم ما يكون عليه ضلالاً وهو أمر الاعتقاد؛ حرّف الاعتقاد وجعله كالفقه مختلفٌ فيه، وقال بذلك، لا سيما أبواب الأسماء والصفات، وخالف طريقة الصحابة الذين أنزل الله عليهم الكتاب والسنة وكانوا هم أفهم الناس للكتاب والسنة.

ومن قال بأن: من جاء متأخراً فهمه يتقدم على فهم أبي بكرٍ وعمر، بل على فهم عبد الله ابن عمرو بن العاص او العبادلة الأربعة "أصغر الصحابة"، فهو ضالٌ مضل، وفيه ما فيه من الجهالات. وهذا الذي ابن تيمية تأسيساً قال: باطناً وظاهراً واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؛ هذا اسمه اقتباس، لترى فحولة هذا العالم المتضلع للعلم، هو اقتبس من كتاب الله جلَّ في علاه في علاه، لقول الله جلَّ في علا عن السابقين الأولين المهاجرين والأنصار: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) [التوبة:100].

تأتي الأدلة تباعاً إن شاء الله بأن السنة وحي والقرآن وحي. لكن أختم بسؤالٍ مهمٍ جداً: ما الفائدة أن ندلل بدلالات من الكتاب والسنة والإجماع على أن السنة وحي؟ ما الثمرة التي تفيدنا بأن السنة وحي في الأحكام الفقهية والعقدية؟ سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا اله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الرابع والسبعون: - اتباع سبيل السابقين الأولين

- التحذير من الابتداع في الدين

قال: ثم من طريق أهل السنة والجماعة اتباع آثار الرسول -صلى الله عليه وسلم- باطناً وظاهراً؛ وقلنا "باطناً وظاهراً" فيها الإخلاص في العمل، وكل عملٍ لا يراد به وجه الله جلَّ في علاه لا يُقبل. قال الله تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) [الزمر:2]، وقال الله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن شرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رآى رآى الله به، ومن سمّع سمّع الله به).

قال: واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؛ وهذه فيها دلالة على ما تكلمنا وبينا، فيه المنهج السديد الصحيح، هو اتباع الكتاب والسنة على فهم هؤلاء "أهل السنة والجماعة" الذين قد ميّزهم الله على جميع الخلق؛ بأنهم تربوا على يد النبي -صلى الله عليه وسلم-، واصطنعهم الله لنفسه، وصنعهم على عينه سبحانه جلَّ في علاه. ففهمهم هو الفهم الثاقب، واتباعهم هو الإتباع الصحيح، وإن على الراجح الصحيح أن أفعالهم أو أقوالهم حجة ما لم يختلفوا؛ فإن اختلفوا فلا حجة لأحدٍ على أحد إلّا بالأدلة، إلّا إذا كان من الخلفاء الراشدين المهديين الأربعة الذين قد جعل لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- سنة مستقلة متبعة.

ففي قوله: واتباع سبيل السابقين؛ يعني سلوك طريق هؤلاء والسير على منهاجهم وطريقتهم وعلومهم، فمن أصول أهل السنة والجماعة اتباع سبيل السلف، من أصول أهل السنة والجماعة اتباع سبيل من سبق. لا سيما بأن الله جلَّ في علاه خصّهم من العلم والفضل والفقه والتزكية من فوق سبع سماوات ما ليس لغيرهم؛ فقد شهدوا التنزيل، وسمعوا التأويل، وتلقوا عن الرسول الأمين -صلى الله عليه وسلم-، فهم أحق بالإصابة وأجدر باتباع الكتاب والسنة. هؤلاء هم أهل الخير، قال فيهم الله جلَّ في علاه: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) [التوبة:100]. ولذلك كان ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- يقول: من كان منكم مستناً فليستن بمن مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

أولئك أصحاب محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- أبر الناس قلوباً وأعمق الناس علماً وأقل الناس تكلفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم- وإقامة دينه، فعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. ولذلك قال الإمام أحمد: من أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وهذا اعتقاد الفرقة الناجية؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- :(افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة. قالوا: من يا رسول الله؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

هذه من الأهمية بمكان، لذلك أنا قلت دائماً الذين يترسمون خطى المتأخرين أين هم من العلم؟ المتأخر في نهايته ظل لرأس، فالعلم في المتقدمين لا في المتأخرين. ولذلك أنت ترى بدع القول تأتي من المتأخرين، وبدع الأفعال من المتأخرين، حتى الانحرافات العقدية التي ظهرت من المتأخرين.

العلم حقاً في المتقدمين، قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم)، النبي -صلى الله عليه وسلم- يحددها، وهذا تحديدٌ بديعٌ جداً؛ لتعلم أنه ما لم يكن في يوم الناس هذا دين، لم يكن في يومنا ديناً بحال من الأحوال. ولنعم ما قال الإمام مالك: ولا يصلح آخر هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها.

وجمهور أهل العلم يرون بأن أقوال الصحابة حجة يجب اتباعها، وهذا مسألة خلافية في الأصول نبيّنها الآن إن شاء الله؛ بعدما نبين أن الله جلَّ في علاه قد بيّن فضل هؤلاء، وأن هؤلاء هم أفضل الناس على الإطلاق، وأن هؤلاء هم الذين تشرئب لهم الأعناق، وهم الذين يؤتسى بهم ويقتدى بهم، لا سيما وأن الله زكّاهم من فوق سبع سماوات. هم خير الناس على الإطلاق، وخير صحبةٍ صاحبت نبياً، هم هؤلاء الأخيار الأبرار الأماجد الأماثل الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه).

قال الله جلَّ في علاه وهذه من أرجى ومن أعظم الآيات مدحاً فيهم، (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]، كانوا محلاً قابلاً.

انظر هؤلاء الكبراء والأغنياء، وهؤلاء الرفعاء الذين ماتوا على الكفر، لم يكن فيهم واحد محلاً أو أهلاً للخير أو للتوحيد ليموت عليه. لذلك لمّا تعجبوا من الفقراء الذين اتبعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا منكرين: (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) [الأنعام:53]، قال الله جلَّ في علاه: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام:53]. ولذلك

لمّا قالوا: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف:31]، قال الله تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ) [الزخرف:32]. وعندما قالوا: (لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) [الأنعام:124].

لذلك قال الله تعالى عن الصحابة الأخيار: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]. وقال الله جلَّ في علاه: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ) [التوبة:100]، وقال الله جلَّ في علاه: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح:29].. إلى آخر الآيات المادحة لهؤلاء، وهم أول الناس دخولاً في قوله: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي)، وقال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، واختلفوا في القرن الرابع. وقال مبيّناً فضل الصحابة على الأمة بأسرها: (النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت أتى السماء ما توعد. وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى الأمة ما توعد)، لذلك يُفتح لهم لمّا يعرف أن فيهم من صاحب النبي -صلى الله عليه وسلم- كما صحت الآثار بذلك.

أمّا الكلام على قول الصاحب هل هو حجة أم لا؟ جماهير المحققين يرون أن قول الصاحب حجة ما لم يخالفه غيره، لأنه الأعلم والأتقى، ولأن الله زكّاهم من فوق سبع سماوات. أمّا إذا اختلفوا فليس لحجة لواحدٍ على آخر، إلّا أن تأتي القرينة المبيّنة لذلك. والأشاعرة يرون أن قول الصاحب ليس بحجة، الأشاعرة والمعتزلة جمهور هؤلاء يرون أنه ليس بحجة.

والصحيح أن سنة الخلفاء الراشدين سنة متبعة وحجة على جميع المسلمين، لأن النبي قال: (فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة). ولا أحد يقول كل خليفة يكون راشداً؛ قلنا: لا، لمّا وصفهم بالرشد علمنا، أن لهم حقبة من الزمن، وجاء هذا في حديث سفينة جلّاها لنا تجليةً عظيمة عندما قال: (الخلافة ثلاثون سنة)، وعندما قال: (وخلافة على منهاج النبوة، ثم ملكٌ عضوض). لذلك أول ملوك الأرض معاوية -رضي الله عنه وأرضاه-، لكن الخلافة الراشدة ثلاثون سنة هي: خلافة أبي بكرٍ ثم عمر ثم عثمان ثم علي، وهناك ستة أشهر تمام الثلاثين سنة للحسن -رضي الله عنه وأرضاه-.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكاً)، هذا رواه أحمد وغيره كما يقول من حديث سفينة. والله جلَّ وعلا بيّن أنهم على الهدى، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ولا بد أن تتبينوا وتعلموا لِمَ تأتسون بهم؟ لأنهم على الهدى

وهم على الأثر، قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين الذين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ).

إذاً لا بد من اقتفاء أثر الصحابة -رضوان الله عليهم-؛ لذلك قلنا يا جماعة الخير أنتم قلتم: نفعل كذا، ونفعل كذا، ونفعل كذا، والدبوسي قال، الشربيني قال، والرملي قال. قلنا لكم: هل فعل الصحابة ذلك أم لا؟ فإذا قالوا: ولِمَ تنيط الأمر بالصحابة؟ قلت: لست أنا الذي أنطت الأمر بالصحابة، فإن الله جلَّ في علاه هو الذي أناط الأمر بالصحابة، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الذي أناط الأمر بالصحابة وقد قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). فما لم يكن ديناً في وقتهم، فليس في وقتنا ديناً بحال من الأحوال.

ولذلك الغفلة تصيب جداً الناس عندما تصيبهم أنت بأمرٍ المقتضي الفعل والمانع منتفي ولم يفعل الصحابة، ثم تقول لهم لم يفعلوا، أنتم لستم بأسبق للخير منهم وإلّا أنتم تكذّبون الكتاب، لأن الكتاب زكّاهم هم ولم يزكّيكم أنتم. فإذاً لا بد من النظر إلى فعلهم، والنظر إلى قولهم، والنظر إلى ما ذهبوا إليه، هذا مفاده التزكية التي جاءت من فوق سبع سماوات.

ثم جاء المصنف قال: واتباع وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالة)، وفي رواية النسائي فيها زيادة قال: (وكل ضلالةٍ في النار).

والبدعة: كل طريقةٍ مستحدثة؛ ولا بد أن تفهم البدعة قد تكون في الأمر الدنيوي والأمر الآخروي، وضابطها عندنا الكلام عن الأمر الآخروي، لأنها طريقة في الدين مخترعة، لا في الدنيا. يعني لا يقال يقولون: لا بد من السقايا، من الزير، ومن القلل، الثلاجة حرام، السيارة حرام، الطيارة حرام وبدعة ضلالة.

فالأمر على الدين، والبدعة ضابطها التعبد لله بما لم يشرعه الله، هذا قريب جداً من تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: كل عبادةٍ لم يشرعها الله جلَّ في علاه فهي بدعة، انظر هذا من أدق ما يكون تعريفا للبدعة. والشاطبي قال: هي طريقة في الدين مخترعة يضاهى بها الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه. وجملة ذلك -كما قلنا- التعبد لله بما لم يشرعه الله، هذه هي البدعة.

الله جلَّ في علاه قال: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27]، فكل ما يُتعبد به لله جلَّ في علاه لم يكن عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا الخلفاء الراشدون فهو بدعة، لعموم قول النبي -صلى الله

عليه وسلم- هنا واستند به المصنف: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعةٍ ضلالة).

وليس من الدين البدعة الحسنة والبدعة السيئة، ولو قالها الشافعي، الشافعي نفسه قال: لو وجدتم قولي خالف قول رسول -صلى الله عليه وسلم-، فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-. فليس بالدين بدعة حسنة وبدعة سيئة، كل بدعةٍ سيئة، لذلك قال ابن عمر: كل بدعةٍ ضلالة ولو رآها الناس حسنة. وهذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (كل) و "كل" أصولياً نص في العموم، (كل بدعةٍ ضلالة).

وأمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سنّ سنةً حسنةً في الإسلام، ومنّ سن سنة سيئة) يعني من أحيا سنةً، لأنه جاء في الرواية الأخرى بالتصريح: (من أحيا سنةً). فليس في الإسلام سنة حسنة وسنة سيئة، أو بدعة حسنة وبدعة سيئة، هذا كلام مخالف لتصريح قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل بدعةٍ ضلالة)، وأيضاً لأفهم الناس للبدعة ابن عمر قال: كل بدعةٍ ضلالة ولو رآها الناس حسنة، لذلك قال: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالة).

ولو لم يكن مذمة لأهل البدع إلّا في قول الله جلَّ في علاه: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27] لكفى. هناك حديث يرعب كل صاحب بدعة، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته). بل وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- إنه ليزدان عن حوضه أناس ليسوا منهم، ثم قال: (وليختلجن من بين يدي أقوام، أقول: ربي، أصحابي أصحابي)، في رواية قال: (أصيحابي أصيحابي)، في رواية قال: (أمتي أمتي). (يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول النبي: بعداً بعداً لمن بدّل بعدي، سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي).

لو لم يكن في المبتدع إلّا أنه منازع لربوبية الله جلَّ في علاه لكفى؛ لأن التشريع حقٌ محضٌ لله جلَّ في علاه، والمبتدع هذا يشرّع للناس، وقد قال الله جلَّ في علاه: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]. الله جلَّ وعلا قال: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، التشريع هو حق لله جلَّ في علاه حقٌ محض، (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) [يوسف:40]. فمن قام يشرّع للناس عبادات لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن عليها الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإنها بدعة ضلالة وفيها تشريع للناس، وفي التشريع منازعة لربوبية الله جلَّ في علاه.

ولو لم يكن في المبتدع إلّا أنه يتهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتقصير لكفى؛ لأن الله جلَّ وعلا قال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دِينًا) [المائدة:3]. أنت الآن كأنك تكذِّب هذا وترده تقول: لا الدين لم يكتمل. لذلك انظر أن مالك وفقه مالك عندما قال له: إن النبي أحرم من المسجد، قال: أحرم من كذا، فقال له: لا تفعل، قال: ولِمَ لا أفعل؟ زيادة الخير خيرات، قال له: لا تفعل، ترى أنك تقدّمت بأمرٍ تأخر عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أتممت أمراً قصّر فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

فالمبتدع متهم للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والمبتدع منازع في الربوبية. لذا إن لم يتب المبتدع فهو في هلكةٍ وهو يستحق اللعن؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعن الله من أحدث فيها حدثاً، لعن الله من آوى فيها محدثاً). ومحاربة البدع وإعلاء كلمة السنن من أعظم الجهاد في سبيل الله، هذا الكلام على البدعة الأصلية والبدعة الإضافية.

فلذلك كل عبادة لابد أن يكون لها الدليل؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) باطل، وقال: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد). ولذلك دائماً كان يذكِّر الناس بذلك في خطبته يقول: (إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة) وزيادة النسائي قال: (وكل ضلالةٍ في النار)، نعم وربي الهوى -أعوذ بالله- يصل بالإنسان إلى الردى، وقد قال ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم.

قال الإمام الأوزاعي: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول. سبحان ربي العظيم، أليس هذا هو الذي يؤول به المتمذهب غلواً في هذا الباب، عندما يقال له: قال رسول الله، يقول: وقيمة قول العالم إمام المذهب. قال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول. لذا أصدق الناس حقاً عبودية، أصدقهم اتباعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، هذا يأتي إن شاء الله في الدرس القادم لنختم الواسطية.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الخامس والسبعون: - أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، ويؤثرون كلام الله جلَّ في علاه على غيره من كلام أخيار الناس.

قال هنا: ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله؛ طبعاً لابد أن تعلم أن الله جلَّ وعلا كلامه في كتابه سبحانه جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]. سواء كان أمراً أو نهياً أو خبراً أو إنشاءً، فهو كلام الله، ويعلمون أن كلام الله هو أصدق الكلام. قال الله تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) [الأنعام:115]، وقول الله جلَّ في علاه: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) [الزمر:33].

وعن جابر بن عبدالله -رضي الله عنه وأرضاه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشٍ، يقول: (صبحكم ومساكم)، ويقول: (أمّا بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثةٍ بدعة). وهنا يكون الإيمان بالتصديق في وعد الله جلَّ في علاه، كما قلنا لا بد من التصديق خبراً وإنشاءً، وأن يعلم بأن الكلام كلام الله. فإذا أثبت الكلام لله جلَّ في علاه، فوجب عليه تصديقه؛ (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا). لذلك أصدق ما يصل به المرء إلى ما يتبناه ويصبو إليه أن يصدق في كتاب الله جلَّ في علاه، وأن يبني ما يريد هدفاً لله جلَّ في علاه.

قال: ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-؛ الهدي لغةً: هو السمت والطريقة والسيرة، والمعنى هنا هم يعلمون أن خير الدين وخير السنن هو دين الله جلَّ في علاه وسنن على سائر الأديان والسنن فدينه -صلى الله عليه وسلم-، هو أكمل الأديان على الإطلاق، وشريعته أفضل الشرائع على الإطلاق. إن الله جلَّ وعلا قد فضّل هذه الأمة بذلك؛ (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110]. فخيّر الله هذه الأمة على غيرها من الأمم بالكتاب الذي أنزله، وبالنبي الذي أرسله، فقد أرسل إليهم أفضل رسول، خاتم النبيين والمرسلين، وأرسل إليهم وأنزل عليهم أفضل الكتب، كتابه الكريم الذي تكلم به وسمعه جبريل إلى نبينا

الأمين -صلى الله عليه وسلم- وحياً، ولذلك شريعته أيضاً هي أفضل الشرائع، وهي ناسخة لجميع الشرائع

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر بن الخطاب وهو يأخذ ورقة فيها التوراة: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفس محمدٍ بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، هذه فيها دلالة على دين الإسلام وتقديم دين الإسلام عن الأديان جميعاً إن صح التعبير. وإلّا فهو دينٌ واحد، إذ قال الله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) [آل عمران:19] وهو الحق، وقد قال الله تعالى: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) [آل عمران:85]. ولذلك هنا لا بد من الاعتراف بأن دين النبي -صلى الله عليه وسلم- هو خير أديان البرية ديناً، وشريعته خير الشرائع، لذلك قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله)، قال: (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت (أي الشريعة) به إلّا كان من أصحاب النار).

وقد اتفق الجميع أن دين الإسلام وشرائع الإسلام هي محاسن الشرائع، وأن دين الإسلام هو أعظم الأديان ديناً، حوت الأحكام والأخبار والقصص والعبر والمواعظ، بل والأخلاقيات والأدبيات؛ قال الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، ابن عباس قال في قول الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ): وإنك على دين عظيم، وهذه أيضاً تدل على أن ديانة المرء تعرف بحسن خلقه.

لمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي شيءٍ أثقل في ميزان العبد؟ قال: (تقوى الله وحسن الخلق)، بل سئل أيضاً: أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: (تقوى الله وحسن الخلق)، وأن المرء بحسن خلقه يبلغ درجة الصائم القائم. قال: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء فغيّر بأخلاق الجاهلية، وأتى بعظيم الأخلاقيات من الصفح والتواضع والسماحة والحياء والشجاعة والحلم والجود والكرم، فهذا كله كان من النبي -صلى الله عليه وسلم- بلسان الحال وبلسان المقال. وأيضاً التيسير الذي أتى به النبي -صلى الله عليه وسلم- دلالة على سماحة هذا الدين، وأيضاً دلالة على فضل هذه الشريعة على جميع الشرائع التي سبقت.

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وأن خير الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- ويعلمون بأنه لا يقبل المرء عند ربه إلّا أن يكون متبعاً اتباعاً تاماً للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويعلمون أيضاً يقينا بأن العبادة لا تقبل عند ربهم جلَّ في علاه إلّا ما جاءت وفق الشرع. قال المصنف -رحمه الله تعالى-: قال الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى).

قال: ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أخيار الناس؛ يقدِّمون كلام الله على كل الخلق كائناً من كان، ولا يعدلون عن كلام ربهم جلَّ في علاه، ولا يعارضونه بالهوى ولا بالوجد ولا بالذوق ولا بشيء، بل ينصاعون وينقادون، ولا يعترضون على كلام الله جلَّ في علاه بتقليد الآباء ولا بالهوى ولا بالذوق ولا بالوجد ولا بالآراء والأقيسة. فإنه إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وأيضاً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني).

قال: ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أخيار الناس؛ وكلام الله جلَّ في علاه فيه العز وفيه التمكين وفيه السعادة وفيه الرفعة، قال عمر ابن الخطاب لمّا علت الأصوات واللغط في حضرة النبي -صلى الله عليه وسلم-: كتاب الله بين أيدينا. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً؛ كتاب الله وسنتي)، وقد قال الله جلَّ في علاه: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء:82]، وقد قال الله تعالى: (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) [الأنبياء:10]؛ شرفكم وعزكم وتمكينكم في هذا الكتاب. ففيه التوحيد والجماعة، وفيه التعرف على الله بالأسماء الحسنى والصفات العلى، فيه أيضاً الأمر باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قد قال الله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران:105]، وسيأتي الكلام على الفرقة في الكلام على أهل الجماعة.

وقد قال الله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) [آل عمران:103]، قال جمهرة من المفسرين: إن حبل الله هنا هو القرآن، وهذا الذي فسره أيضاً أبو بكر في الرؤيا أو فسره بالإسلام. وقد قال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- مرفوعاً: (إن هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن اتبعه).

وصحيحٌ عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (جاء مرفوعاً وموقوفاً، والصحيح أنه موقوف)، قال في القرآن: (هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هدي إلى صراطٍ مستقيم). وترجمان القرآن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- يقول: جمع الله في هذا الكتاب علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وعلم وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، والعلم بالخالق أمره وخلقه.

كما قلنا هذا الكتاب حوى: أولاً التعرف على الله جلَّ في علاه، والكلام على قضية الكون الكبرى، وثواب من يتمسك بها ويعض بالنواجذ عليها، وعقاب من خالفها، وفيه الأخبار، وفيه المواعظ، وفيه الحكم، وفيه الأوامر والنواهي. قد سمّى الله هذا الكتاب العظيم الروح لتوقف روح القلب عليه؛ قال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال:2]، قال الله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى:52]، وقال تعالى عن القرآن: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) أمّا على الكافرين قال: (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) [فصلت:44].

وقال الله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10]، وقال: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:59]، وقد قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36]. وقد قال الإمام الشافعي: ما من نازلةٍ إلّا وفي كتاب الله حلها، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

وقال: ولا ويقدِّمون هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- على هدي أي أحد؛ وهذه مهمة جداً صراحةً هذه من الأهمية بمكان، أي يقدِّمون شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ودينه، ويقدِّمون سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهذا عجب من الأئمة العلماء؛ أرأيت ما قاله الشافعي عندما قالوا له: يا إمام أتقول بهذا؟ وكان قد ذكر الحديث أمامه، قال: وما لي لا أقول به، أرأيتني خرجت من كنيسة؟ أرأيت في وسطي زنارة؟ إنه يقول قال رسول الله، فما لي لا أقول بما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فأولياء الله يعرفون بشدة التحري للتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لذلك هم سمّوا بأهل الكتاب والسنة. قال: وبهذا سمّوا بأهل الكتاب والسنة؛ يأخذون بالكتاب ويأخذون بالسنة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى).

ولذلك ترى كانوا من أشرس الناس مخالفةً لمن يخالف السنة عندما قال ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه: أوشكت السماء أن تمطر عليكم حجارة، أقول لكم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتقولون قال أبو بكر وعمر؟!!. وابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا قال لابنه: إن النبي يقول: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)، قال: نمنعهن في وجهة فقهية، قال: ما كلمتك ما حييت. وسالم لمّا قالوا له: أبوك يقول أن يستخدم الطيب عند الإحرام بعد الغسل لأنه يستديم، فقالوا: أبوك ينهى عن ذلك، قال: أمرنا

باتباع النبي لا باتباع أبي. فكانوا يعظِّمون سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لذلك ابن عبد البر لمّا اختلفوا أن ابن عباس رجع عن الدرهم بالدرهمين والدينار بالدينارين أم لم يرجع؟ قال: رجع ابن عباس أو لم يرجع الحجة في سنة النبي، ولا حجة لاحدٍ كائناً من كان مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فهم أهل الكتاب والسنة؛ أي لأنهم يتبعون الكتاب ويتبعون السنة، لا يحيدون عن الكتاب والسنة بحالٍ من الأحوال، يعضون بالنواجذ على الكتاب وعلى السنة. وأن الله جلَّ في علاه رفع ذكرهم بذلك، وأنهم أسعد الناس بصحبة النبي وأسعدهم يوم القيامة بشفاعته، وأنهم وفقوا بعظيم التمسك بالكتاب والسنة.

أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- ما ارتقى وما كتب له التوفيق والتسديد إلّا بشدة التحري في التمسك بالسنة؛ لمّا قال لأبو بكر: إن في سيف خالد رهقاً، اعزله. قال: والله لا أغمد سيفاً سله الله على أعدائه. ولمّا قيل له في قيادة أسامة للجيش، قال: لأنفذن جيش أسامة وإن إمارته لحق، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك. فكان يستمسك بسنة النبي، لمّا جاءته فاطمة -رضي الله عنها وأرضاها-، ولتعلموا أن أبا بكر هو القائل: لقرابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحب إليّ من أن أصل قرابتي. لكن جاءته فاطمة -رضي الله عنها وأرضاها- تسال عن إرث أبيها في سهم خيبر وفدك، فقال لها أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-: قد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة).

ولمّا قام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- ينكر على أبي موسى الأشعري، كان يريده، جاء فاستأذن ثلاثاً لم يأذن له فمشى، قال: كيف تمشي وتعلم أني أريدك؟ قال إن النبي قال: (الاستئذان ثلاث، فإن لم يؤذن لك فارجع)، قال: والله لا أتركك حتى تأتي من يشهد لك. فذهب فزعاً إلى مجلس الأنصار، فقال أبي: ما بك؟ ما الذي أفزعك؟ قال: قال عمر كذا وكذا، قال: والله لا يذهب معك إلّا أصغرنا. وبعثوا بأبي سعيد الخدري -رضي الله عنه وأرضاه-، فوافق أبا موسى الأشعري على ما قال.

كانوا يحرصون حرصاً شديداً على السنة وعلى العمل بالسنة؛ لمّا جاء حذيفة إلى عمر ابن الخطاب يقول له: استحر القتل في القراء، أدركوا القراء اجمعوا القرآن. ارتعدت فرائسه وقال له: كيف نفعل أمراً لم يفعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فلمّا قال بذلك، بقي خلفه حذيفة لأن هذا من المصالح المرسلة. فلمّا قال له ذلك، تمت القناعة، فذهبا إلى أبي بكرٍ فماذا قال؟ قال؟ كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟

وانظر إلى ابن عمر وفطنته، قال: إن عمر ابن الخطاب في مرض موته قال: لئن استخلفت فقد استخلف من هو خيرٌ مني، ولئن لم استخلف فإنه لم يستخلف من هو خيرٌ

مني، قال: فلما سمعت قال ذلك، علمت أنه لن يعدل عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. لأن النبي لم يستخلف صريحاً لكن جعل الأمر إشارة، وهو فعل ذلك عمر ابن الخطاب، قال: الأمر في هؤلاء الستة، من تختارون منهم فهو يكون أميركم. الغرض المقصود هم اتبع الناس والزم الناس بالكتاب والسنة، وأهل السنة حقاً، هم الذين يتمسكون بالكتاب والسنة.

- الإجماع

وصلنا إلى قوله: ويقدمون هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- على هدي كل أحد، وبهذا سمّوا أهل الكتاب والسنة، وسمّوا أهل الجماعة لأن الجماعة هي للاجتماع وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين.

قال: وسمّوا أهل الجماعة لاجتماعهم؛ وهذه من أعظم المنن التي كانت للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد امتن الله بها على رسولنا -صلى الله عليه وسلم- حيث قال الله جلَّ في علاه: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) [الأنفال:63]. والنبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بالاجتماع ونهى عن الفرقة، وما كانت وسيلة للاجتماع إلّا أمر بها، وما كانت وسيلة للفرقة إلّا نهى عنها بأبي هو وأمي. قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) [الأنعام:159]، وقال الله جلَّ في علاه عن اليهود وأهل الكفر والشرك: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ) [الحشر:14]، قال الله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) [آل عمران:103].

كما قلت حث النبي -صلى الله عليه وسلم- على الاجتماع؛ عندما بعث السرية إلى عمرو بن العاص علم أنه قد يحدث بعض الخلاف، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تطاوعا ولا تختلفا)، وأيضاً امر النبي -صلى الله عليه وسلم- من كانوا في سفرٍ أن يؤمّروا عليهم أحدهم حتى تجتمع كلمتهم ولا تختلف. ولمّا جاء المهاجر فقال: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة)، فالجماعة رحمة والفرقة عذاب. وقد ورد موقوفاً عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-، وجاء مرفوعاً: (من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة).

وأيضاً فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاردة القاصية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد). وقد قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا صلى خلف عثمان أربعاً، وكان يصلي خلف النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبي بكرٍ وعمر ركعتين في الحج، قال: نكتفي بركعتين سنةً، ثم قال: الخلاف شرٌ كله. النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما نزلوا معه في سفرةٍ

يستظلون بالشجر فتفرقوا، فأنكر عليهم أيما إنكار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما لي أراكم عزين متفرقين، إن تفرقكم هذا من عمل الشيطان).

ولذلك كما قلت ما من وسيلةٍ تصل إلى الفرقة والنزاع إلّا حسمها النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ نهى عن يخطب الرجل عن خطبة أخيه، ونهى أن يبيع على بيع أخيه، ونهى عن النجش، ونهى عن الغرس، ونهى عن تلقي الجلب، ونهى عن بيع الحاضر للباد، كلها مواد للنزاع فنهى عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والنزاع يؤدي إلى الفرقة، وليس كل خلافٍ يؤدي إلى الفرقة؛ الخلاف المعتبر يحتمل، أما الخلاف غير المعتبر هو الذي يؤدي إلى التنازع، والتنازع يؤدي إلى الاختلاف ويؤدي إلى الفرقة، وهذه يبغضها الله جلَّ في علاه.

قلت من أعظم المنن أن الله ألّف بين قلوبهم، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- مخبراً منكراً: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة)؛ والواحدة هي التي يحدث مع الاجتماع والإجماع، لأنهم لمّا سألوه من هؤلاء؟ جلي لنا صفات هؤلاء؟ قال: (من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي). لذلك حذيفة قال: السنة تجمع والبدعة تفرّق. فالأصل في باب الاعتقاد الاجتماع لا الفرقة؛

تأبى الرماح إذا اجتمعنا تكسراً *** وإذا افترقنا تكسرت آحاداً

واختلاف التضاد الذي يؤدي إلى النزاع هذا المذموم، والاختلاف المعتبر ليس مذموماً بل هو رحمة من الله جلَّ في علاه، وهو سنة كونية. فشعار هذه الأمة الاجتماع، ولن تجتمع هذه الأمة إلّا على السنة كما قال حذيفة: السنة تجمع والبدعة تفرّق. والإجماع يطلق على العزم كما قال سبحانه وتعالى: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) [يونس:71].

وفي قوله: والإجماع هو الأصل الثالث؛ هو مدرك من مدارك الأحكام، والأصل الثالث الذي يكون حجة على الجميع، يُعتمد عليه في العلم والدين. فالإجماع: هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة على مسألةٍ من مسائل العلم. الإجماع هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة؛ فيخرج من ذلك المخلدة، ويخرج من ذلك من كان عالماً في غير الشرع، لا يدخل حتى في اللغة، لا يدخل في الأصول في خلاف. والإجماع حجةٌ ملزمة، ولا يجوز تعديه ولا يجوز خرق الإجماع؛ قال الله جلَّ في علاه: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء:115]، وهذه دلالة على حجية الإجماع. وورد عن ابن مسعود وعن ابن عمر -موقوفاً ومرفوعاً-: (لا تجتمع أمتي على ضلالة).

لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة أبداً، على التأبيد، لا يجمعهم الله جلَّ في علاه إلّا على الخير. وعن أنس: لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، فإن رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم؛ الحق وأهله. السواد الأعظم: هم أهل اجتهاد هذه الأمة، أهل السنة والجماعة قال: الحق وأهله. والحق قد جاء في الكتاب، جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- بالحق بالكتاب، وما ينطق إلا بالحق؛ (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى) [النجم:4]. فالكتاب والسنة هو الحق؛ (ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

وقد قال أبو ذر -رضي الله عنه وأرضاه-: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من فارق الجماعة شبراً فقد خلع رفقة الإسلام من عنقه)، وهذا حديث في المسند، ورواه أبو داوود أيضاً عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-. ما رآه المسلمون حسناً فهو حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء؛ وهذا لم يصح مرفوعاً عن ابن مسعود، موقوف، وفيها دلالة على أن الله لا يجمع الأمة إلّا على حق. وكما قلنا الإجماع حجةٌ ملزمة، خلافاً للمعتزلة الذين ينكرون الإجماع، والإجماع ممكنٌ في عصر الصحابة وبعد عصر الصحابة.

في قوله: وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس؛ الأصول الثلاثة: الكتاب والسنة والإجماع، ولأن الإجماع لا يكون إلّا عن كتابٍ أو سنة، ويضمن ذلك مدرك القياس: وهو المعنى، وهي إلحاق النظير بالنظير. فالمعيار عند أهل السنة والجماعة بمقياس أي أحد ينظرون إليه، في تعامله مع الكتاب والسنة والإجماع. فانظر هنا؛ فكان القبول أو الرد في هذا الباب: كيف هو بالنسبة لهذه الأصول؛ الكتاب والسنة والإجماع؟ فتقديم الكتاب والسنة على كل شيء هذا الأصل، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، وهذا فعل أهل السنة والجماعة.

العلم قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً *** بين الرسول وبين قول فقيه

فهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين؛ قيد يخرج أمور الدنيا نعم، لكنهم يقيسون الناس بالتزامهم بالكتاب والسنة والإجماع.

قال: والإجماع جميع ما عليه الناس، له تعلق بالدين. والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة. الإجماع جميع ما عليه الناس؛ يعني ما عليه الناس درج من المعاملات والعبادات التي انتشرت بين الناس، والعامة بأسرهم قد اتفقوا عليها. وقوله: مما تعلق بالدين؛ كما قلنا قيد يخرج كل الأمور الدنيوية.

والإجماع الذي ينضبط هو إجماع السلف، وإجماع السلف محدود. والصحيح الراجح أننا في عصرٍ الآن يصح أن نقول كل إجماعٍ يصح أن يظهر من مجتهد الأمة في جميع الأمصار، فإنه ينتشر بين الناس وأصوله إلى أبعد أنحاء المعمورة، هذا وارد. فلذلك لا نقول كما قال بعضهم بأن الإجماع هو إجماع الصحابة فقط، أو نّوه بعضهم أنه لا يصح إجماع إلّا إجماع الصحابة، وهذا خطأٌ بيّن. والإجماع أصلٌ من أصول الأحكام، مدرك من مدارك الأحكام. فقط نقول أن البعض نقل إجماعات كثيرة: كالنووي، ابن قدامة في المغني، طبعاً ابن عبد البر عنده الإجماع، وعند أيضاً ابن المنذر إجماع. وابن المنذر يعني أعدل الإجماعات، ويليه ابن عبد البر، وإجماعات النووي ضعيفة جداً جداً جداً، وهذا طبعا فيه تفصيل ليس الأمر على إطلاقه، ويليه الإجماعات التي نقلها ابن قدامة في المغني.

قال: ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، على ما توجبه الشريعة؛ وهذا أصل الدين. فأصل الدين وأصل إقامة الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عماد الدين، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (سيكون عليكم أمراء تعرفونهم وتنكرون. من أنكر فقد سلم، ومن كره فقد برئ، إلّا من رضي وتابع، إلّا من رضي وتابع). وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يرفع أحدكم يده يدعو الدعاء فيرده أو لا يقبله).

فهي عمدة الدين؛ قال الله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) [التوبة:71]، وقال الله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) [آل عمران:110]، وقال الله تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران:104].

وقد ورد في الصحيح عن أبي سعيدٍ الخدري -رضي الله عنه وأرضاه- مرفوعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان). واليد غالباً لا تكون إلّا من ولاة الأمور، لأنه لو فعل ذلك من لا سلطة له على الناس، فإنها تحدث مفاسد عظيمة جداً لا يعلم بها إلّا الله جلَّ في علاه، والعالم يبيّن ذلك بالدليل وهذا من باب التبليغ؛ (بلّغوا عني ولو آية)، (نضر الله امرئً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم).

ولا بد للذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: أولاً أن يطلع على مقاصد الشريعة، وأن يعلم أين المفاسد وأين المصالح، وإذا اعترضت المصالح فبما يقدِّم، وإذا تعارضت

المفاسد أيهما يرتكب. فلا بد من فقيه في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الباب، ولا بد أن يتحمل الأذى والخصام ووغر الصدر. سعيد بن المسيب قال: ما ترك الأمر بالمعروفٌ والنهي عن المنكر من صديق. رأيت رجل من بني إسرائيل عندما مر على أخيه ونهاه، ثم يؤكله ويشاربه، فنهى الله جلَّ وعلا عن ذلك وقال: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) [المائدة:78]، فبيّن أنهم (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [المائدة:79].

والأمر بالمعروف والنهي عن منكر له آداب وضوابط ليس هذا محلها، لكن لابد أن تعرف لا بد أن تكون تحت طوق الشرع، ولذلك قال: على ما توجبه الشريعة؛ أنه يجب أن يكون مستبصراً عالماً، وواضعاً الشريعة نصب عينيه، قال الله تعالى: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108]. ولابد من حلمٍ وعلمٍ، ولابد من رفقٍ ولين؛ (ما كان الرفق في شيءٍ إلّا زانه، وما نزع من شيءٍ إلّا شانه)، (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على غيره). قال الله تعالى لموسى -عليه السلام- عندما أمره بالذهاب إلى أكفر أهل الأرض: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) [طه:44].

ويقال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الولاة التي تؤدي للخروج، فهذا أيضاً لا يجوز، هو لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكن ليس بما يؤدي إلى الخروج، الذي يؤدي إلى مفاسد لا يعلم بها إلا الله جلَّ في علاه؛ إلى دماءٍ تسيل، وإلى تخريبٍ. والله فساد مستشري في هذا الباب، مع أنه يجب عموماً أن ينهى المرء؛ عن الخمر، عن الربا، عن الزنا، عموماً ولكن أيضاً يتجنب كل ما يؤدي إلى الخروج.

الفوائد المستنبطة:

- من أعظم مقاصد الشريعة الاجتماع دون الافتراق، الوحدة يعني، الجماعة.
- السنة تجمّع والبدعة تفرّق.
- الإجماع حجةٌ ملزمة.
- خيرية الأمة مرهونةٌ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السادس والسبعون: سمات أهل السنة والجماعة (1)

إلى الواسطية هذا الكتاب الماتع لشيخ الإسلام ابن تيمية، وأنا قلت الانحراف العقدي يؤدي إلى الانحراف في كل العلوم، من لم يكن مستقيم العقيدة لا يستطيع أن يكون مستقيم العبادة، وأيضاً لن يكون ضابطاً للعلم؛ العقيدة تضبط للإنسان قلبه، وبالقلب يحدث علو الفهم.

مداخلة: أنا سأقول لكم شيئاً عن نفسي أسأل الله أن يكون إخلاصاً لوجه الله الكريم تحديثاً، بفضل الله ونعمة الله عليّ أنا كنت أنزل من دبي على دوراتٍ أجعلها للإخوة في الإسكندرية، فكان أيضاً في كل يوم من العصر إلى العشاء في هذه الدورات - بفضل من ربنا ونعمة- يعني حوالي سبعة عشر دورة إن لم يكن أقل أو زيادة، ما أذكر الآن العدد بالضبط. لكن في أيام كنت أمرض فيها، فكنت طريح الفراش وأنا أيضاً في بعض الأوقات يأتيني مرض ما أدري ما هو، يشتد عليّ جداً يقعدني تماماً في هذا الباب. لكن في وقت الدرس يأتونني بالسيارة يحملونني، أجلس على الكرسي، عندما أقول: إن الحمد لله، ما أشعر بأي شيء.

وفي ذات مرة كنت كذلك فانتهيت من الدرس قاربت أن يغمى علي في هذا الباب، ما استطعت حتى أتحرك، فحملوني إلى الطبيب. وهذا ما كان في التدريس فقط كان أيضاً في الطلب، أنا كنت في مجلس من مجالس سيدي، وهو من سادات المسلمين، العجب أنا بيوم قلت له أنت أسد الإسلام أو أسد السنة، عنفني بكلمة قتلتني، هو الشيخ أبو إسحاق. ما كان يعرف بما حدث لي واتصل فيّ قارب النصف ساعة يكلمني، أنا وجدت أن روحي خرجت من جسدي جزاه الله كل خير وأحسن الله إلينا. وأنا ما زلت اعتقد أن هذا الرجل محفوظٌ محفوف برعاية الله لتمسكه وعضه بالنواجذ على السنة، فكان يكلمني حتى من معي قالوا لي نريد نسمع صوته فقط، كان فيّ شيء من التعب فأنا فتحت السبيكر، كادوا يهلكون من البكاء عندما يسمعون صوت الشيخ.

فكنت في مجلسه، وأنا في مجلسه تعالى الأمر عليّ تعباً بالعصب في الدرس، وتعالى جداً، فأنا ما شعرت بأي شيء من تعبي وأنا جالس في مجلس التحديث، وهو كان يشرح على السبورة الكلام على مسألة بحث في الأسانيد، عندما وضع القلم وانتهى الأمر، أغمي عليّ في المجلس حتّى جاءت الإسعاف حملتني. فأنا هذا الذي يحدث ليس منّي، الّذي يحدث أو التّدريس أنتم لا تدرون ما بي، سأصور لكم ما بي بعض الشيء؛ في طبيب أخذ الإشاعات وأخذ ما بي يعني فقال أنا لا أتصور هذا الشخص

كيف يحتمل هذا الألم ولو ساعة ليس أربعين يوم. فالمسألة فيها ما فيها من الشدة، فأنا لذلك أقول لما يطول الوقت يشتد الألم بي، يتعبني أخشى أن أنا أقلل في الدروس، وإلّا أنا كيف أترك دروس الليل؟ لأن ما بي روح، ما بي نفس، أستطيع أن اكمل دروس التي هي كانت تعطى لا سيما كتاب التوحيد، لا سيما عقيدة السلف، لا سيما كتاب الفقه التنبيه، لكن ما في تبقى انتهى الأمر.

لذلك لمّا يستطال الوقت عليّ أخشى من هذا الباب، والله جلّ وعلا هو الذي يعطي القوة، أنا في أوقات يعلم الله جلَّ في علاه كيف أقعد وأقوم وأنا أعطي في الدرس. وعامةً هذه ليست لتزكية النفس أو لأن الإنسان تكون له من السمات، هذه محض فضل من الله جلَّ في علاه لا دخل للبشر فيه بحال من الأحوال. ورب جبريل وميكائيل وإسرافيل، ورب محمد -صلى الله عليه وسلم- ليس فيه ثمة شيء من الإنسان، هو محض فضل من الله جلَّ في علاه. هنا أنا أذكر نفسي وبالناس جميعاً أن هذا من الله، فإذاً نحتاج إلى الشكر، ونسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين، ونعوذ بالله أن نكون من الجاحدين، اللهم آمين يا رب العالمين.

ما زلنا في الواسطية مع شيخ الإسلام ابن تيمية؛ قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ويرون إقامة الحج والجهاد والجمعة مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً؛ وهذه مسألة عظيمة عند اعتقاد أهل السنة والجماعة في النظر إلى ولاة الأمور، هذا ميزان الاعتقاد لنرى كيف أن الفكر الضال أو الفكر المنحرف أو البدعة قد تودي بالأمة إلى ويلات لا يعلم بها إلّا رب الأرض والسماوات. قال: ويدينون بالنصيحة للأمة؛ هذا أمرٌ آخر.

فالأمر الأول يتكلم فيه هنا هو التعامل مع ولاة الأمور؛ ويرون إقامة الحج، يعني يعتقدون ذلك اعتقاداً بأن هذا من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أنه يصدِّر الكلام بالكلام على أهل السنة والجماعة، وهو أنهم يرون إقامة الحج مع ولاة الأمور. انظروا إلى الحجاج بن يوسف الثقفي؛ هذا رجل نحن نتقرب إلى الله ببغضه كما قال الذهبي، نحن نتقرب إلى الله ببغضه مما كان يفعل في المسلمين وفي صحابة رسول الله، لا سيما الصحابة؛ أهين أبو هريرة وأنس، وهو السبب في قتل ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- وقتله عنوةً، وقتل عبدالله بن الزبير -رضي الله عنه وأرضاه-، فانظر كيف الجرأة على صحابة رسول الله، والجرأة على الكعبة بيت الله.

فلذلك ترى كان يقول له حسنات تغمر في بحر سيئاته، ومع ذلك ابن عمر يعني ائتمر بأمره وكان تحت رايته في الحج، لكن بعث عليه عبد الملك بن مروان قال: لا تخطو خطوة إلّا أن ترجع إلى ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-. ولذلك حقد عليه وحسد وتسبب في قتله -رضي الله عنه وأرضاه-، لينال الشهادة كما نال أبوه الشهادة -رضي الله عنهم أجمعين-.

فولاة الأمور وإن كانوا على ظلمٍ على فسقٍ على بدعةٍ، فإننا لا نتابع لا على فسقٍ ولا على ظلمٍ ولا على بدعةٍ، ونسمع ونطيع ونقيم الحج والجهاد والصلوات خلفهم، ونجاهد تحت رايتهم ما داموا لم يكفروا، ما داموا على الإسلام. لأن الله جل في علاه قد أمر أمراً جزماً في كتابه سبحانه جلَّ في علاه، وهو الأعلم بما ينفع مما يضر، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) [النساء:59]. لا بد أن تفهم لأنه قال: (وَأُولِي الْأَمْرِ)، ما قال: وأطيعوا أولي الأمر، وسيأتي مغزى ذلك.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال وبيّن: (إن المرء لا يزال على خيرٍ ما دامت في رقبته البيعة، من نزع يداً من طاعة كانت ميتته ميتة جاهلية) كما ورد عن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث عرباض ابن سارية في الموعظة البليغة؛ لمّا قالوا: عظنا أو أوصنا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي)، لا يتسم بسمةٍ ولا يتصف بصفةٍ واحدة من الصفات التي اتفق العلماء فيها على أن تكون في ولاة الأمور؛ عبد، والعبد لا يملك وقتاً ولا نفساً ولا مالاً، العبد جعلوه جمهور الفقه كالسلعة فكيف يترأس الأمة الإسلامية التي تترأس الدنيا بأسرها؟

فهنا لا بد أن يُفهم هذا الباب فهماً جيداً؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي رأسه كأنه زبيبة)، هو لم يتوفر فيه شرط من شروط الولاية، وفيه الظلم، وفيه الجهل، وفيه الفسق، وفيه البدعة ومع ذلك (عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي رأسه كأنه زبيبة، وإيّاكم ومحدثات الأمور) إذاً الخروج من محدثات الأمور.

هذا أمر جلل أمر يتجلى بالعقيدة وربي، ويعلم الله أنني ابرئ ساحتي أمام ربي بهذا الدين، أدين الله به أمام الجميع ولست محابياً ولست مقرباً، ولست أتقرب إلى أحد، انتهى الأمر. وإني على موتٍ محقق، ويعلم ربي بما أعيش له، فهذه عقيدة السلف وكل من خالف عقيدة السلف فإنه على خطرٍ عظيم.

قال: (عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي رأسه كأنه زبيبة)؛ وإن رأيت إنه قد امتلأ ظلماً وفسقاً وفجوراً، بل وبدعةً واعتزالاً فلا يجوز الخروج عليه، لا يجوز بحال من الأحوال الخروج عليه، ويجب له السمع والطاعة، طبعاً في غير معصية الله جلَّ في علاه. ويجب له السمع والطاعة؛ (أدي ما عليك وسل الله ما لك)، هذا الذي قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ولذلك جاء في الحديث، والحديث فيه ظهور من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها)؛ وهذا أين؟ هذا في قرون الخيرية، فكيف

بآخر الزمان!! (إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم). هذا قول النبي، من أراد أن يعارض فليعارض النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هنا العين العوراء عندما تأتي، تأتي لنا بالعظائم، ثم بعد ذلك نرى تسفيه العلماء، ونرى السخرية مما يتبناه أهل العلم كاعتقاد السلف، ونرى الطعن في نواياهم، ونرى الاتهام بالنفاق. وتنقسم الأمة انقساماً لا يعلم به إلّا الله جل في علاه، ثم بعد ذلك ما ترى إلّا التناحر، إلّا التخاصم، إلّا وغر الصدور، إلّا التنازع، بعد ذلك الثمرة الفشل، (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال:46].

وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني). وقد ورد عن أم سلمة -رضي الله عنها وأرضاها- بأنها قالت: (يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد سلم). ولا بد من الإنكار على ولاة الأمور، لكن كيف بالضوابط العلمية؟ هذا الذي لا بد أن نتكلم فيه بضوابطه العلمية. قال: (فمن أنكر فقد سلم ومن كره فقد برئ)، ثم قال: (إلّا من رضي وتابع، إلّا من رضي وتابع، إلّا من رضي وتابع).

وإن كنا أهل المعصية فإننا لا نرضى بالمعصية، وإن كنا نتجاوز الحد ونتعدى حدودنا مع الرب ولا نرضى بأحد أمامنا أن يفعل. والله كنت في معصيةٍ فمشيت في الشارع فوجدت رجلاً يقترف في هذه المعصية التي أنا اقترفتها قبله، فوقفت أمامه وعيوني يعلم الله بها وأنا أراجع نفسي أقول كيف تفعل هذا؟ فقلت هذا غباءٌ مستحكم وجهلٌ مركب، وأراد الله اختباري بذلك. وعلى شاربي الكؤوس أن يتناصحوا وإلّا فالإثم إثمان، والذنب ذنبان. فلا أعطل علماً ولا أقترف ذنباً بجهالةٍ، فإن اقترفت الذنب بجهالةٍ فلا أعطل علماً. ولله الحمد والمنة كنت أعلم أنه ممكن ما يتقبل مني أي إنكار، وأنا ما أسكت حتى في الشوارع في هذا الباب، أفعل ذلك. فأوقفته وتكلمت معه بكلام معين، فوجدته يقبله كالماء البارد، وهذا عجيب!! ما أدري هي من الله جلَّ في علاه!! لكن أقصد في هذا الباب وإن كنا على معصية، وإن كنا على انحرافٍ وحيدةٍ، وإن كنا على تجاوزٍ في حدود ربنا، لكننا لا نسكت عليها، وأيضاً لا نرضى بها ولا نتابع، فلا نرتكب الإثم مرتين.

أيضاً قد ورد عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- في سنن أبي داوود مرفوعاً: (الجهاد واجبٌ عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً)، والحديث قد جاء: (إن الله لينصر الدين بهذا الرجل الفاجر). وقد ورد في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)، وورد أيضاً عن أبي ذر -رضي الله عنه

وأرضاه- قال: إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدّع الأطراف. وعن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-، وهذا في صحيح مسلم: (من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية)، وهذا كما قلت أخرجه مسلم عن نافع عن ابن عمر -رضي الله عنه-.

وقد جاء أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- "وهذا مرفوع، وهو في الصحيح": (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات، مات ميتةً جاهلية). نعوذ بالله من الخذلان، ونعوذ بالله من أن ننحرف عن عقيدة السلف الصالح الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل بعد ما قال: (وتفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

(من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية) هذا عن ابن عباس، وكان حديث أبي هريرة -كما قلنا- بأنه قال: (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية). لكن هنا كان التصريح في حديث ابن عباس: (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية)، وكلها أدلة ظاهرة جداً وتحرم الخروج على ولاة الأمور، لا سيما في حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة في المنشط والمكره وفي عسرنا ويسرنا وأثرةً علينا)، قال: (وألّا ننازع الأمر أهله).

والخروج منازعة للأمر أهله، وهل الإنكار منازعة؟ لا، ليست منازعة بل يجب شرعاً الإنكار، لكن بضوابطه الشرعية التي لا تؤدي إلى الإفساد والفساد. فقال: (وألّا ننازع الأمر أهله)، لكنه أيضاً ما تركها مطلقة، قال: (وألّا ننازع الأمر أهله إلّا أن تروا كفراً بواحاً لكم فيه من الله برهان). فالخروج على ولاة الأمور من فعل الخوارج ليس من فعل أهل السنة والجماعة؛ وهذه الطاعة ليست طاعة مطلقة، بل هذه الطاعة طاعة مقيدة، وهذه الطاعة المقيدة مقيدة بطاعة الله جلَّ في علاه، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة. (ولا ينزعن يداً من طاعة)، ولا يفسد.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الطاعة في المعروف)، و"إنما" أسلوب حصر وقصر. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ابن عمر: (لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق)، حديث أبي هريرة أنه قال: (على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلّا في معصية الله جلَّ في علاه فلا سمع ولا طاعة)، (ولا ينزعن يداً من طاعة). لأن هذا كما قلنا يفسد، ويأتي بالمفاسد تلو المفاسد.

ولذلك قال علماؤنا كما قال ابن تيمية وغيره: والطاعة لولاة الأمور إذا أمروا بطاعة الله، فإن في طاعة ولاة الأمور من المنافع والمصالح ما لا يحصيه إلّا الله جلَّ في علاه، ففيه سعادة الدين وانتظام مصالح العباد في معاشهم، ويستعينون بها على إظهار الدين وإقامة السنة وطاعة الرب جلَّ في علاه. هذا قاله علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-: إن الناس لا يصلحهم إلّا إمام برٌ أو فاجر، هذا كلام علي بن أبي طالب، وله سنة مستقلة متبعة، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). فقال علي بن أبي طالب: إن الناس لا يصلحهم إلّا إمام برٌ أو فاجر؛ إن كان فاجراً عبد المؤمن ربه (يعني لا يسمع له)، وحمل الفاجر فيها إلى أجله.

فالسمع والطاعة هو اعتقاد السلف؛ وقال الحسن في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمساً: الجمعة والجماعة والعيد والثغور والحدود، والله ما يستقيم الدين إلّا بهم وإن جاروا وإن ظلموا. والله ما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، لكن في رعونة وجهل وعاطفة جياشة وصدق نوايا لكنها غير منضبطة بعلم، فتفعل ما تفعل هكذا، وتقسم الأمة انقسامات وتأتي بالمفاجع على هذه الأمة. لكن سنبقى مع قول حذيفة: إيّاكم والتلون، والتمسك بالسنة نجاة وعصمة. قد جاءت بعض الآثار لم تصح ولكنها يستأنس بها في الباب؛ ستون سنة مع إمامٍ جائرٍ (يعني ظالم) خيرٌ من ليلةٍ واحدة بلا إمام.

قد ورد عن عمرو بن العاص -رضي الله عنه وأرضاه- أوصى ابنه وقال: يا بني اعلم، إمامٌ عادل خيرٌ من مطرٌ وابل، وأسدٌ خطوم خيرٌ من إمامٍ ظلوم، وإمامٌ ظلوم غشوم خيرٌ من فتنةٍ تدوم. قال عبدالله بن مبارك بأبيات يتكلم بها على الخلافة، والحق أن في كتاب معرفة السنن والآثار للإمام الشافعي يتكلم ويقول: فإن انضبط الأمر بالإمام المتغلب وانسدت الفتنة وانقطع انسياب الدماء كان له السمع والطاعة، استحكمت الأمور وانسدت الفتنة كان لابد من السمع والطاعة. وهذا كلام الشافعي: في الأم، وفي كتاب السير، وكتاب قتال أهل البغي، وفي معرفة السنن والآثار نقل أيضاً الإمام البيهقي عن الشافعي ما قاله.

ولذلك أجمع العلماء على تنصيب الإمام ولو تجزأ، وهذا كلام المعتزلة في مسألة تجزئة الولاة؛ يعني كل قطر كل ولي خاص به. الأصل أنه خليفة عام، والولاة يكونون وكلاء له، لكن مؤخراً حتى من المتأخرين من أهل السنة والجماعة قالوا: وإن لم ينتظم الأمر إلّا بأن كل جزئية يكون لها ولي خاص بها، صح ذلك. وهذا قاله المعتزلة، يعني يقولون بالتجزئة، المعتزلة يقولون بها ووافقوا أهل السنة والجماعة بذلك من باب مقاصد الشريعة، فيجب تنصيب ولاة الأمور.

وتنصيب ولاة الأمور بأمور ثلاثة:

- بالتنصيص: وهذا الذي لا خلاف فيه؛ كعمر بن الخطاب نص على خلافته أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-.

- أو باتفاق أهل الحل والعقد، لا كل الناس؛ كل الناس لا يعرفون شيئاً، يهرفون بما لا يعرفون، ليس لهم نظر في اختيار أو ترك اختيار. الحق أن المسألة تتفق على أهل والحل والعقد، لكن لم يكن لهم صوتاً، أقول هذا نوع تغلب. فالغرض المقصود الأمر الثاني باجتماع أهل الحل والعقد، كما حدث مع عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه-، أجمعوا عليه. وهنا الذين يستدلون به على مسألة الأمم الكثيرة؛ أن عبد الرحمن بن عوف قال لعلي ابن أبي طالب: حتى النساء في خدرها ما عدلت بعثمان بن عفان أحداً.

لكن الأصل في الباب قال: الأمر في هؤلاء الشورى الستة؛ لذلك عبد الرحمن بن عوف لمّا ذهب، ذهب لأصحاب الشورى أولاً، ذهب لعلي قال: إن لم تكن الراية عندك من أحق الناس بها؟ قال: عثمان، ذهب لعثمان قال: إن لم تكن عندك من أحق الناس بها؟ قال: علي بن أبي طالب، فمر على أهل الشورى.

- والأمر الثالث وهو أن تغلب، صار ولياً للأمر له السمع والطاعة، هذا الحق الذي لا بد أن يؤدى له.

وعليه أن يتقي الله ربه في الرعية، وأن يقيم الدين، وأن ينصر السنة، وأن يتقي الله في الرعية. فإن أدى ما عليه فقد نجا، وإن لم يؤدِ فالحساب عند ربنا عسير، حتى العجول في بطون الأمهات سيسأل عنها، حتى الجنين في بطن الأم سيسأل عنه، ولّاه الله الأمر فسيسأل عن الجميع.

لذلك ابن عباس قال: لمّا مات عمر دعوت الله سنة كاملة أرى ما حدث في عمر، فبعد عامٍ رأيته يتصبب عرقاً، قال: الآن انتهيت من الحساب. من السؤال بس فقط مع أنه من المبشرين بالجنة، لكن هو يُسأل عن الرعية الآن، كيف فعلت فيما وكلتك؟ فيما أنعمت عليك به؟ والإمارة وإن كانت فيها ما فيها من التشريف لكنها في حقيقة أمرها تكليف، لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (نعمت المرضعة وبئست الفاطمة) ليست بالهينة.

فقلت لا بد من السمع والطاعة كانوا أبراراً أو كانوا فجاراً، وهذا الأصل كما بينا في رواية أبي هريرة: (أمرنا بالجهاد مع كل برٍ وفاجر). وأمّا الخروج على ولاة الأمور فلا يجوز.

الفوائد المستنبطة:

- وجوب تنصيب خليفة.
- سعادة الأمة في السمع والطاعة لولاة الأمور في الطاعة، ومعصيتهم في المعصية دون نزع يدٍ من طاعة.
- التمسك بالسنة نجاة.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس السابع والسبعون: سمات أهل السنة والجماعة (2)

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد:

قال: ومن سمات وصفات أهل السنة والجماعة أنهم يدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً).

فهم يدعون إلى مكارم الأخلاق، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن مقياس الناس عند رب الناس "الخلق"؛ قال: (أثقل ما يكون في ميزان العبد حسن الخلق)، وسئل عن أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: (تقوى الله وحسن الخلق)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن المرء ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم). فهو يدعو إلى مكارم الأخلاق، ولذلك جاء يعظّم نبل ما كان فيه من أهل الجاهلية من بعض الأخلاقيات السامية، أقرها وعظّم شأنها، وأيضاً ألغى كثير من أخلاقيات الجاهلية التي تخالف تعاليم الإسلام ومكارم الأخلاق.

قال: ومحاسن الأعمال؛ يعني جميل الأعمال من الكرم والشجاعة والصدق والأمانة والشهامة والمروءة، وهذه من الصفات التي إذا اتصف بها المؤمنون كانت لهم زينة. في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- مرفوعاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خصلتان لا يجتمعان في منافق: حسن السمت والفقه في الدين). فأنت إن وجدت أن الله جلَّ وعلا قد منح عبداً فقه في الدين ورزقه حسن الخلق، فاعلم أنه لا

يمكن أن يكون منافقاً. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خصلتان لا يجتمعان في منافق: حسن سمتٍ وفقهٌ في الدين)، وهذا حديث رواه الترمذي وسنده حسن.

قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)، وقال: (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلة يوم القيامة مساويكم أخلاقاً). ولذلك الله جلَّ وعلا قد أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- وهو يتعامل مع أهل مكة ويدعوهم إلى الله جلَّ في علاه، أن يعاملهم بمكارم الأخلاق: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف:199]. ولذلك قال بعض العلماء إن هذه الآية أجمع ما يكون لمكارم الأخلاق؛ (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) ولا تتعداه، (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ).

وفي الصحيح عن أبي ذر -رضي الله عنه وأرضاه-، سأل أخاه لمّا رجع من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ما رأيت؟ قال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق. وقد جاءت الرواية كما قلنا في التصريح: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) كما في مسند أحمد، وقد جاءت في روايةٍ أخرى: (لأتمم حسن الأخلاق).

وأعظم حسن الخلق: الشهامة والمروءة وإغاثة الملهوف وإعانة ذي الحاجة وطلاقة الوجه بالهشاشة والبشاشة، كل ذلك هو حسن الخلق. ولذلك جاء الدين يأمر بالصبر والعفة والشجاعة والعدل والحكمة وكظم الغيظ، كل ذلك من الأخلاقيات التي يتصف بها أهل السنة والجماعة، ويتصف بها النبي -صلى الله عليه وسلم- سابقاً ومن معه من الصحابة الكرام؛ ففيهم ما فيهم من العدل والوسطية، وفيهم ما فيهم من الخير، وفيهم ما فيهم من الخلق الحسن، من نبل الأخلاق بالشهامة والمروءة والعفة والشجاعة والصبر والعدل والحكمة، وهم أبعد الناس عن القبائح والرذائل.

وفي قوله: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)؛ وبيّن أن علامة حسن الخلق حسن العشرة مع الزوجة، وهذه وردت من قول ومن فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك قال: (ليس بخيركم من يضرب النساء). ورد أبا جهم ولم يقبله من أجل أنه كان لا يترك العصا من على عاتقيه، وهذا فيه إجحاف في التعامل مع المرأة. وقد قال الله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [النساء:19]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الله الله في النساء، اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم).

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- سئل عن أكثر ما يدخل الجنة، قال: (تقوى الله وحسن الخلق)، (فإن المرء يدرك بحسن خلقه درجات الصائم القائم). وقد وردت بعض الروايات -وإن كان فيها كلام-: (إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم، ولكن سعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق). والحق كما قلنا التأسي برسول الله يكفي بحسن الخلق؛ (لَّقَدْ

كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الأحزاب:21]، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7].

ولذلك في حديث أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما من شيءٍ يوضع في ميزان العبد أثقل من حسن الخلق)، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة الصائم "صاحب الصوم والصلاة". وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً).

قال: ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك؛ يعني أهل السنة والجماعة من أخلاقهم التي يدعون إليها بلسان الحال قبل لسان المقال، بأنهم يندبون إلى أن تصل من قطعك، وهذه الشهامة والمروءة والإحسان، (ليس الواصل بالمكافئ). ولذلك لمّا جاء الرجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: يا رسول الله، لي أقرباء أصلهم ويقطعوني، فقال: (إن كان كما تقول فإنك تسفهم المل)، وفيه ما فيه من الخير لأنه يدفع السيئة بالحسنة.

فقال: أن تصل من قطعك؛ فإذاً يدعون ويحثون ويرغبون في الوصل، ولأن القطع مآله إلى النار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل الجنة قاطع رحم)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اجتنبوا السبع الموبقات) وذكر منها قطع الرحم. هذا الجفاء من هذا الباب؛ ولذلك قال: (بُلّوا أرحامكم ولو بالسلام)، وقال لأقربائه: (لكم علي رحم أبلها ببلالها)، (أفضل الفضائل؛ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك) وهذا ورد في مسند أحمد عن أنس بن مالك، هذه الأحاديث يستسهل في أسانيدها بعض الشيء. وخرّج الحاكم من حديث عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك).

لو زعم زاعمٌ أن الجفاء هو الذي يمنع الوصل، قلنا هذا مغفل وفيه جهل، لأن الجفاء يمحى بالوصل، إن كان الذي جفى قد أساء، فالذي وصل قد أحسن، ودفع السيئة بالحسنة من أصول الدين، وهذا الذي أمر بها رب العالمين في الكتاب المبين، قال: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت:34]. لا سيما أن قطع الجفاء بالوصل يعتبر من نبل الخلق، ولا بد للإنسان أن يرتقي إلى المعالي، ولا يرضى لنفسه بالدون. فلو كان قد قابل الجفاء بالجفاء، فقابل الدون بالدون فلن يرتقي.

واعتقاد أهل السنة والجماعة، وأفعال أهل السنة والجماعة، وأخلاق أهل السنة والجماعة، هذا الذي نبحثه ويبحثه شيخ الإسلام في أخلاقيات أهل السنة والجماعة؛ بأنه أفضل ما يكون هو الوصل، قال: (يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا

والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك)، وهذه إن دلت دلت على الشهامة والمروءة ونقاء القلب، وما اجتمعن في أحدٍ إلّا كان من أعلى الناس منزلةً وأرفع الناس درجةً عند رب العباد.

قال الله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف:199]، قال جبريل للنبي الأمين عندما نزلت هذه الآية: (والمعنى أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك)، أن تبادل السيئة بالحسنة، وهذا هو فعل الأخيار الأبرار. أرأيتم الشجرة تضرب بالحجارة؟ كيف هي تعطي؟ قال: (وأن تعفو عمن ظلمك)، وهذا معناه العفو والصفح والتجاوز، وأيضاً الإحسان دون التثريب. انظر إلى يوسف -عليه السلام- عندما قالوا: (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا) [يوسف:91]، ماذا قال؟ (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) [يوسف:92].

جاء الرجل الذي أراد أن يراجع النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال له علي بن أبي طالب: ادخل عليه فقل له: تالله لقد آثرك الله علينا، فإن النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يرتضي بأحد أن يسبقه إلى الله جلَّ في علاه. فلما قال يوسف ذلك، فإنه لا يمكن أن ينزل عن فعل يوسف، فقال له: يا محمد -صلى الله عليه وسلم-، تالله لقد آثرك الله علينا، قال: (اذهب لا تثريب عليك اليوم يغفر الله لك). ولذلك يوسف قال: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ). فأنت لا تنتصر لنفسك، وما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينتصر لنفسه، وهذه من أفضل الخلافيات أهل الإيمان، لا يكون الانتصار إلّا للدين، لا ينتصر المرء لنفسه.

ورد عن ابن عمر -بأسانيد كما قلنا يتسامح فيها-: ابتغوا الرفعة عند الله؛ تحلم عمن جهلك وتعطي من حرمك، لأنك قابلت السيئة بالحسنة كما أمر ربك جلَّ في علاه. عن أنس الجهني عن أبيه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذِّه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء). ولذلك قلنا من أرفع المنازل ومن أرقى السمات والصفات لأهل السنة والجماعة هو وصل من قطعك؛ لذلك ورد في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها). وجاء عن عمر بن الخطاب -في المُصنَّف موقوفاً-: (ليس الوصل أن تصل من وصلك، ذلك القصاص، ولكن من الوصل أن تصل من قطعك).

وأيضاً الجود والكرم والعطاء من صفات أهل السنة والجماعة، (وأن تعطي من حرمك)؛ يعني من منعك ما هو لك، فإن منعك ما هو لك أعطيه ما له. ولأن مقام الإحسان إلى المسيء ومقابلة الإساءة بالإحسان، هذه من أرفع درجات أهل الإيمان،

وهذه يحبها الرحمن الديان، كم غفر الكثير من الزلل وأعطى الجزيل من الثواب على القليل من العمل.

وجماع حسن الخلق مع المكلفين أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام، والدعاء والاستغفار، والثناء عليه والزيارة، وتعطيه الهدية ترقق قلبه، وأن تعلمه ما يجهله، وتعفو عمن ظلمك في دمٍ أو مالٍ أو عرض. هذا كله لا يتأتى إلّا من أصحاب الأخلاقيات النبيلة، فهذا من أفضل الأعمال وأشرف الأخلاق.

قال الله تعالى: (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) [آل عمران:134]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) [الشورى:37]. إن الله عفوٌ يحب العفو، ولذلك كانت عائشة تدعو بهذا الدعاء: (اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني)؛ فهنا قال علماؤنا: كيف ما تكون معاملتك مع عباد الله تكون معاملة الله لك. حديث أبو هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلّا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلّا رفعه)، وهذه كلها من حسن خلق أهل السنة والجماعة.

ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام؛ بر الوالدين من أعظم الطاعات، (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [الإسراء:23]، قرن البر بالوالدين بتوحيد الله وهي قضية الكون الكبرى، دلالة على أهميتها، وقال: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) [لقمان:14]. وصعد النبي المنبر فقال: (آمين، آمين، آمين)، فلمّا سئل عن ذلك قال: (أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرئٍ أدرك أبويه أو أحدهما ولم يدخل فيهما الجنة، قل آمين، قلت: آمين. قال: ورغم أنف امرئٍ أدرك رمضان ولم يغفر له، قل آمين، قلت: آمين. قال: ورغم أنف امرئٍ ذكرت عنده ولم يصلِّ عليك -صلى الله عليه وسلم-).

عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة في أول وقتها) وهذه اللفظة فيها ضعف، واللفظة الصحيحة: (الصلاة على وقتها، قال: قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين). ولذلك العقوق من أعظم الكبائر، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا أخبركم بأكبر الكبائر، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور).

وأعظم ما يكون صلةً للرحم، الإحسان للغير؛ بأن تقضي له حاجته، وأن تسد خلته، وأن تقضي دينه، وأن تطعمه خبزاً، وأن تذهب تسعى في حاجته، وأن ترفع عنه جهلاً، وأن تحسن إليه، كل ذلك من أبواب الخير. وصلة الأرحام والإحسان للغير، هذا كان من اعتقاد أهل السنة والجماعة، ومن أخلاق أهل السنة والجماعة.

فمن أعظم أخلاق أهل السنة والجماعة الإحسان للغير، وأن تغض الطرف عن المعايب، وأن تغفر الكثير من الزلل، وأن تكون ممن يبادر بالخيرات ويسعى إليها، وإذا أخطأ أو زل أو تعدى بأن يتراجع وأن يراجع نفسه، وأن يتوب ويؤوب إلى الله جلَّ في علاه.

وأيضاً بالإحسان إلى الغير قال الله تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ) [محمد:22-23]، فقطيعة الرحم من أكبر الكبائر، يبغضها الله جلَّ في علاه. في الصحيحين من حديث جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل الجنة قاطع رحم)، وفي الصحيحين عن أنس أيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه)؛ فصلة الأرحام سبيلٌ إلى زيادة الأعمار، وصلة الأرحام سبيلٌ إلى البركة في الأرزاق. ورحم العلم أعظم من رحم النسب، ويطبق فيها كل ما قيل.

قال المصنف: ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار، حسن الجوار بإيصال دروب الإحسان إليهم بحسن الطاقة؛ كالهدية والسلام وطلاقة الوجه، هذا حسن الجوار. وإذا طبخت فأن تبعث إليه بمرق طعامك، ومن أعظم مكارم الأخلاق أن تهش وأن تبش وأن تسد له حاجته، وأن تكون أباً لأولاده وأن تكون أخاً له معيناً، وأن تكون ممن يسد خله.

والجار؛ قال الله تعالى: (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ) [النساء:36]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)، وفي الصحيحين قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)، وفي الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهم أجمعين- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره).

والخيرية هنا كما قلت هو أن تحسن لمن أساء إليك، وأن تصل من قطعك، وأن تقطع جفائه بإحسانك ولينك وسؤالك. وعن أبي شريح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قلنا: من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه). ولذلك من كبائر الذنوب عظم الإيذاء للجار، النبي -صلى الله عليه وسلم- حين سئل: (أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك).

والجيران لهم مراتب:

- جار له حق واحد: وهو المشرك، له حق الجوار.
- وجار له حقان: المسلم، له حق الجوار وحق الإسلام.
- وجار له ثلاثة حقوق: هو المسلم القريب، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم. وطبعاً إذا كانت المسألة على التزاحم فالأقرب والأقرب، أدناك ثم أدناك.

قال: والإحسان إلى اليتامى والمساكين؛ هذه من عقيدة أهل السنة والجماعة، نقف عندها لأن باب الإحسان باب واسع عظيم جداً، نبيّن فيه ارتباط الإحسان برقة القلب، (لا يدخل الجنة إلّا صدوق اللسان مخموم القلب). اللهم اجعلنا منهم جميعاً يا رب العالمين، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثامن والسبعون: سمات أهل السنة والجماعة (3)

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد:

كما قلنا هو يتكلم على صفات أهل السنة والجماعة، وهذه سمات وصفات الذين كتب الله لهم التمكين والقيادة والسيادة والريادة والنجاة يوم القيامة، هذه من سمات وصفات أهل السنة والجماعة، منه ما ذكرناه أنه قال: ويؤمنون ببر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الجوار. أيضاً من السمات والصفات التي يتحلى بها أهل السنة والجماعة: الإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، هذا كله من الرحمة والرأفة ومن البر والإحسان.

قال: والإحسان إلى اليتامى؛ الإحسان مطلوب في كل شيء، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة)، وأيضاً قد أمر الله جلَّ في علاه بالإحسان إلى جميع الخلق، وأعظم الإحسان "الإحسان إلى الوالدين"، قال الله جلَّ في علاه: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ) [النساء:36].

قال: والإحسان إلى اليتامى؛ كما قلنا الإحسان عام، والإحسان كتبه الله على كل شيء، حتى عند الذبح فطلب الله من العبد الإحسان. وأعظم الإحسان أن يحسن المرء في معاملته مع ربه جلَّ في علاه، ثم يحسن بعد ذلك في معاملته مع الخلق لا سيما اليتامى

والمساكين، هؤلاء أحوج ما يكونون إلى الإحسان والبر، ووضع الشيء في موضعه من أعظم الحكمة.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث سهل بن سعد: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بإصبعه السبابة والوسطى). وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا الحديث في السنن: (من مسح على رأس يتيم لم يمسح إلّا لله (يعني مخلصاً لوجه الله جلَّ في علاه) كان له بكل شعرة تمر عليها يده عشر حسنات، ومن أحسن ليتيم كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقارن بين إصبعيه). الظاهر في هذه الأحاديث وإن كان فيها شيء من الضعف، لكنها يستأنس بها في هذا الباب لأنها لها تأصيلات عامة ترجع إليها.

وإلّا فقد بين النبي -صلى الله عليه وسلم- الرفق أحب الأشياء إلى الله جلَّ في علاه، وأن الله أمر بالإحسان وأمر بالبر وأمر بالرفق، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على غيره). وأيضا قد قال الله جلَّ في علاه: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ) وقد ورد في السنن -ويتسامح في إسناده-: (إذا أردت أن يلين قلبك فاطعم المسكين وامسح على رأس اليتيم)، لأنك إذا دخلت هذه مسكنة مطلوبة من العبد أن يكون هكذا رقيق القلب رفيق العمل، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني مع زمرة المساكين).

واليتامى كذلك؛ واليتامى أحوج ما يكونون إلى الرفق والإعانة والإحسان والبر، فقد والديه. واليتيم: الذي فقد أباه، واليتم يكون قبل البلوغ، لا يتم بعد البلوغ. فهو أحوج ما يكون إلى من يحنو عليه، وأن يعطف عليه، وأن يرفق به، وأن يحسن إليه. لذلك بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من أعظم الصالحات والطيبات هي الإحسان إلى اليتيم أو كفالة اليتيم؛ وكفالة اليتيم ليس أن تضع درهماً أو درهمين يكفيه مؤونة شهر أو شهرين، كفالة اليتيم الأصل فيها أن تجعله واحداً من أهلك.

يعني لا تكون كافلاً لليتيم حق الكفالة ولا تستحق أن تكون بالمرافقة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما وصف بإصبعيه، إلّا أن تكون قد أخذته ولداً من أولادك، والمعنى أن تجعله في بيتك وتجعل زوجتك محرماً له أو أماً له من الرضاعة، يعني تدخله على أولادك على أنه ولدٌ لك وتعامله نفس المعاملة؛ يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، وأن تحسن إليه ثياباً وطعاماً وإحساناً ورفقاً. والثمرة ليست بالهينة، النتيجة: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين).

قال: الإحسان إلى اليتامى والمساكين؛ والمساكين جمع مسكين، المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا: فالمسكين هو من يملك ما يسد بعض الحاجات، لا كل

الحاجات، ويبقى له حاجة لم يسدها، ويكون أيضاً المسكنة هنا عنده ولكن لا يكفيه ما عنده، فيحتاج إلى الكفاية، والكفاية تكون منك أنت بإعطائه. المسكين -كما قلنا- يدخل تحته الفقير في هذا الباب، لأنهم إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

وقد حث الله واستنهض الهمم على الإحسان إليه، قال: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ)، وهنا الحديث رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)، وفي رواية قال: (كالقائم الذي لا يفتر والصائم لا يفطر)؛ هذا الساعي على الأرملة والمسكين. ولذلك يستحب الإنسان الذي أراد أن يتزوج، أن يتزوج امرأة معها أطفال فيدخلون في كنفه.

قد علمت أخاً كريماً رأيته يعدد، فقلت له: أنت تقيم السنة؟ قال: نعم، لكني اشترط أني لا أتزوج إلّا امرأة معها أولادها فيدخلون تحت راية أبنائي فيكونون سواء. فهو يريد أن يصل إلى الله جلَّ في علاه بعملٍ لا يجعله يفارق النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفردوس الأعلى لا سيما والعمل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)، فهذا من عظيم الصلاح هو أن يكفي امرأةً تحتاج إلى ظل رجل ويكفي أولادها أيضاً، فيكون قد كفل اليتيم حقاً وأحسن إلى المرأة.

أرأيت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (من كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها ثم تزوجها له أجره مرتين)، فالله أعطاه الأجر مرتين في هذا الباب. كذلك الذي يكفي المرأة وأن يتزوجها ويعفها به، وأيضاً يربي أولادها، يكون قد دخل في هذا الباب.

قال: والإحسان لليتامى والمساكين وابن السبيل؛ وابن السبيل: هو المسافر المنقطع، انقطع به السبيل ولو كان من أغنى الأغنياء في بلده، ولو كان رجلاً له المهابة والمكانة والوجاهة والمال ولكنه انقطعت به السبل، هنا يكون ملهوفاً. وإغاثة الملهوف من أفضل الطاعات ومن أصلح الصالحات ومن أحسن الحسنات، فهذا يُكرم وتحسن ضيافته ويعطى من الزكاة ما يبلغ به إلى مأربه.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت (هذه علامات الإيمان)، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه). وفي رواية قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام وما كان وراء ذلك فهو صدقة، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

قلنا بأن مسألة الضيافة مسألة واجبة، حق الضيافة واجبة عندما قال أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه وأرضاه-: فينا راقي ولن نرقي حتى تضربوا لنا سهماً؛ كان هذا من باب الأخذ بالحق، فالضيافة واجبة ولا يجوز حبسها عن صاحبها.

ومن سمات هؤلاء الأبرار الأخيار أهل السنة والجماعة؛ أنهم يحسنون إلى الغير: اليتامى والمساكين وهذه من أجلى سماتهم، والرفق بالمملوك؛ الرفق: لين الجانب، وهو دال على الرأفة والرحمة وعظيم الإحسان. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله رفيقٌ يحب الرفق ويعطي عن الرفق ما لا يعطي على غيره)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما كان الرفق في شيءٍ إلّا زانه، وما نزع من شيءٍ إلّا شانه). والرفق بالموالي وبالمماليك قد جاءت الأدلة الكثيرة من النبي -صلى الله عليه وسلم- يستنهض الهمم إلى ذلك، بل ويؤكّد عليه، حتى لا يتعالى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد، والكبر مهلكة.

قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) [النساء:36]، ولذلك كان آخر ما وصى به النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قال ابن عباس وغيره: (الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم)؛ الصلاة لأنها عماد الدين، هذا رواه أحمد والنسائي وأصحاب السنن. جاء عن ابن عباس وعن ابن عمر وعن أم سلمة: قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الصلاة وما ملكت أيمانكم) يعني هي أهم ما تهتمون بها.

إذاً قال: من سمات هؤلاء الإحسان إلى اليتامى والمسكين وابن السبيل والرفق بالمملوك، وقد قال في المملوك أنه: (إذا ولي طعامه فليأخذ بيده وليأكل معه أو يعطيه اللقمة واللقمتين)، إحسان له، وأن يلبسه مما يلبس وأن يحسن إليه. أرأيت عندما أعطى النبي -صلى الله عليه وسلم- عبداً لبعض أصحابه وقال: (رأيته يصلي؟ أوصيك به خيراً، فقال ما خير من وصاية النبي -صلى الله عليه وسلم- إلّا العتق)؛ يعني ما من خيرٍ يكون على ما أوصى النبي -صلى الله عليه وسلم- إلّا بالعتق، وأعتقه ولم يستفد منه.

وأنت ترى العظة ومكانة المملوك أيضاً لمّا جاء معاوية بن الحكم السلمي لمّا صفع الجارية، فجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أفأعتقها تكفيراً عمّا فعلت؟ (قال: ائتني بها، فلمّا شهدت بالإيمان قال: أعتقها). وقد ورد عن ابن عمر في ذلك أن عتق المملوك، هذه كفارة لما يكون في الوقوع فيه.

قال: وينهون عن الفخر، والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق. وينهون عن الفخر؛ لا بد أن نعلم بأن مسألة الافتخار لأن عندنا من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ولا فخر)، مسألة الافتخار نوعان: محمودٌ ومذموم.

فالمذموم هو أن يظهر رتبته على الناس، وأن ينظر إليهم على أنهم أصغر منه، وأن يحتقر شأنهم وأن يتكبر عليهم. هذا هو الافتخار المذموم؛ يفتخر، يتعالى على الناس، وهذا مذموم وهو سلم العجب، والكبر مهلكة ليست بعدها مهلكة.

وأمّا الافتخار الذي يكون محموداً، هو إظهار المكانة حمداً لله جلَّ في علاه وتحديثاً بفضل الله عليه وشكراً له على ما صنع له وقدّمه على غيره. كما قال الله جلَّ في علاه عن داوود وسليمان عندما قال: (وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا) [النمل:15]؛ (فَضَّلَنَا) هنا التفاخر بفضل الله، (الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ) [النمل:15-16]، هذا كله تفاخر لكن تفاخر محمود أو لينسب النعمة لباريها، والأمر الثاني يبيّن تفضل الله عليهم برضوانه وأنه أنعم عليهم بذلك ثم بعد ذلك شكر الله على هذا.

وهذا أصله ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)، أنا لا أتفاخر ولا أتكبر، بل أحدّث بفضل الله عليّ، بل أحمد الله على هذه النعمة. (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافعٍ وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من رمى بسهمٍ في سبيل الله).

قال: وينهون عن الفخر؛ فهم لا يفتخرون استطالةً وتعالياً واستكباراً على خلق الله جلَّ في علاه، وإن ظهر منهم الافتخار يكون الافتخار من باب التحديث بفضل الله ونعم الله ونسبة النعمة لباريها دون التعالي على الناس، ويكون في ذلك التعبد لله جلَّ في علاه من باب: (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم:7]، قال الله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [الضحى:11].

لا سيما وأن الفخر الذي يصل بالإنسان إلى الكبر هو في مهلكةٍ، قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [لقمان:18]؛ المختال المتكبر المتعاظم، شمخ بأنفه، وهذا فيه شيء من التعالي واحتقار الناس. وقد قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) [النجم:32]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يفخر أحدٌ على أحد، ومن تواضع لله هكذا رفعه الله هكذا).

وينهون عن الفخر والخيلاء؛ والخيلاء هذا أيضاً سبيل الكبر، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن: (رجلٍ مشى يتبختر كالطاووس حتى خسف الله به الأرض يتجلَّجلَّ فيها إلى يوم القيامة). قال الله تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [لقمان:18]، ولهذا قال الله تعالى: (وَلَا تَمْشِ

فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) [الإسراء:37-38].

فالخيلاء العجب الذي هو وسيلة إلى الكبر، ولذلك أنت ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة)، وقال: (ما أسفل الكعبين ففي النار)، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل ما شئت واشرب ما شئت (لا تحجير عليك في أن تأخذ حظك مما أباح الله لك وخلق لك) ما أخطأتك اثنتان (خصلتان، خلتان): سرفٌ ومخيلة)، وقال: (لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً).

وينهون عن الفخر، والخيلاء، والبغي؛ والبغي: هو العدوان، ركوب الناس، هو التجاوز في حدود التعامل مع الناس، العدوان على حقوقهم. والبغي في أصله هو مجاوزة الحد، ففيه إثمٌ كبير. ومجاوزة الحد يرجع إلى من يتعالى على الناس ويتكبر، ثم يتجاوز الحدود فيأخذ من حقوقهم ما ليس حقاً له، ويتعدى على ممتلكاتهم، قال الله تعالى: (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم) [يونس:23].

والبغي ظلمٌ بيّن، وقد قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء:40]، وقال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا)، قال تعالى: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) [الشورى:42]. فهذه كلها صفات مذمومة، صفاتٌ ينأى أهل السنة والجماعة على أن يتحلى أحدٌ منهم بها، فكل صفةٍ منفردة مهلكة فكيف إذا اجتمعت هذه الصفات وهذه الخلات التي يبغضها رب الأرض والسماوات؟ صاحبها يكون في تيهٍ وتخبطٍ وفي ذلةٍ ومهانةٍ، وينتظر عقوبة أليمة من رب البرية سبحانه جلَّ في علاه.

روى الترمذي في سننه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من ذنبٍ أحق أن يعجّل الله جلَّ في علاه لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر الله له في الآخرة (يعني من العقوبة) من البغي وقطيعة الرحم)، فأعجل العقوبات عقوبات البغي.

قال: وينهون عن الفخر، والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بحقٍ أو بغير حق؛ فالاستطالة على الخلق بحق أو بغير حقٍ أن يترفّع عليهم متكبراً وأن يتجاوز في حقهم، وأيضاً أن يستطيل بحقٍ، حتى ولو كان له حق لا يتطاول عليهم، بل يأخذ الحق دون تجاوز ودون تعدي ودون إهانة ودون تحقير. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد، ولا يثرّب) انظر إلى الأخلاقيات النبيلة الراقية. قال: (فإن زنت فليجلدها الحد ولا يثرّب)، قال: (فليبعها بضفير حبلٍ).

قال: ويأمرون بمعالي الأخلاق؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في نفسه: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، ولأن أعظم أخلاق المؤمنين المعالي، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن المرء يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم).

ومعالي الأخلاق هي النبل، ولها مراتب عظيمة من حسن الخلق: كالصدق والأمانة والشجاعة والجود والكرم والحلم، ودفع السيئة بالحسنة، والتماس الأعذار، وعدم تتبع عورات المسلمين. كل هذا من نبل الخلق، وخلاف ذلك تكون من مساوئ الأخلاق، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلةً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلةً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً).

قال: وينهون عن سفسافها؛ هذه أيضاً من سمات أهل السنة والجماعة، لا يهتمون بالضئيل الحقير المستحقر الرديء: كالبخل والجبن والغيبة والنميمة والتجسس، كلها أخلاقيات رذيلة حقيرة تثبت دناءة صاحبها.

عن سهل بن سعد مرفوعاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله كريمٌ يحب الكريم ومعالي الأخلاق ويكره سفسافها)، وقد جاء أيضاً عن جابر مرفوعاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن: (الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها)، وفي الشعب "شعب الإيمان" عن طلحة بن عبيد الله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن الله جواد كريم يحب الجود ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها).

فكل أمر حقيرٍ دنيءٍ فإن الله يكرهه؛ التجسس وهذه من أعظم صفات الدناءة والخسة، فهذه أيضاً خسة وسفاسف الأمور، وفيها أيضاً الكذب واعتياد الكذب والبخل، هذه أيضاً من أحقر الصفات، والجبن فهذه أيضاً كذلك. فالمؤمن لا يكون هكذا، المؤمن يكون شجاعاً جواداً كريماً سخياً نبيلاً رفيع الخلق حسن الفعال.

قال: ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون على سفاسفها، وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة؛ هذا يرجع إلى عظيم ما مدح به هؤلاء الأخيار الأبرار، أحسن الناس فعالاً هم سادات الناس، أنهم أعظم الناس اتباعاً للكتاب والسنة. ولذلك زكّاهم الله من فوق سبع سماوات على أنهم ينقادون وأنهم من أعظم الناس اتباعاً، ولذلك قال: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا) [الفتح:26]. فهم الذين يتبعون النبي الرسول النبي الأمي؛ يقتفون أثره ويعلون بسنته، ويحققون ما أمروا به في الكتاب أو في السنة، فكل ما يفعلونه أو يقولونه لا بد له من دليل كما قال الإمام الثوري: لا تحكن رأسك إلا بأثر.

قال: وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً؛ هذا يأتي إن شاء الله عند ختام الدرس، ولله الحمد والمنة ختام الكتاب وهذا في الدرس القادم إن شاء الله، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس التاسع والسبعون: أهل السنة والجماعة متبعون للكتاب والسنة

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد:

بلغنا إلى قول المصنف -رحمه الله تعالى-: وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم-، لكن لمّا أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أمته ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة. وفي الحديث عنه أنه قال: (هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

قوله: وطريقتهم دين الإسلام؛ يعني سبيلهم مذهبهم شرعهم القويم الإسلام، والمقصود بالإسلام هنا محض الاستسلام لرب العباد سبحانه جلَّ في علاه، إذ لا نجاة لهم ولا رفعة لهم إلّا بتمام الانقياد والاستسلام لرب العباد، (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) [الأنعام:153].

والإسلام هو دين الحق وغيره باطل؛ قد الله جلَّ في علاه: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) [آل عمران:19]، وقد قال الله جلَّ في علاه: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [آل عمران:85]. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الأنبياء إخوةٌ لعلات، دينهم واحد وشرائعهم شتى)، ومع ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن من لم يؤمن بهذه الشريعة فليس له إلّا النار خالداً مخلداً فيها، كما في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ما يسمع بي من يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله).

فمذهبهم فطريقتهم الإسلام، في قول المصنف: طريقتهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم-؛ فالنجاة والعز والتمكين بهذا الدين، ولا يحسبن أحد وهو في زمان الفتن والتخاذل الذي نحن فيه والتراجع الظاهر أن الإسلام أو هذه الأمة تموت، الأمة لا تموت، هذه الأمة ستتقدم وسيجعل الله لها القيادة والسيادة والريادة،

والله عليمٌ حكيم. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

وأخبر النبي بافتراق هذه الأمة؛ أمر الافتراق وأمر الاختلاف يقع لا محالة وهو من السنن الكونية، لكن النظر في هذا الباب هل الشرع يقره أم ينكره؟ ليس لنا أن نخالف الشرع ونحتج بالقدر، فالخلاف مذمومٌ في كل أحواله. وقد ثبت عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة)، والترمذي أيضاً قال بهذا الحديث حسنٌ صحيح.

وعن معاوية -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قام فقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام فينا فقال: (ألا إن من كان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلها في النار إلّا واحدة في الجنة وهي الجماعة)، فقال النبي: (كلها في النار إلّا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)؛ "اليوم" يومه هو، هذه فيها دلالة واضحة جداً على أن المسألة واقفة على الفهم السديد لهؤلاء القرون التي قد بيّن الله فضلها على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم).

والحق أن هذه الأمة بأسرها سيقع فيها الفرقة، ويقع فيها الاختلاف، ويصل إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة. وأصل وأساس الفرق المختلفة المفترقة خمسة، وقيل ستة: الروافض أخبث خلق الله، والنواصب، الخوارج والمعتزلة معهم، الجهمية، والمرجئة. هؤلاء هم أساس الفرق المختلفة، وتشعبت هذه الفرق؛ ولذلك الروافض افترقوا على ما يقرب من ثلاثين فرقة، والخوارج على سبع فرق، والجهمية والمرجئة على خمس فرق، وبلغوا هذا العدد ثلاثٍ وسبعين فرقة.

وفي الشرع إن الافتراق مذموم، والاجتماع مطلوب ورغب فيه محثوث عليه مندوبٌ له، قال الله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران:105]، وقال الله جلَّ في علاه: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال:46]. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تطاوعا ولا تختلفا)، وقال: (فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول تحلق الدين)، وقد قال: (المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه).

ولمّا سمع الأنصاري يقول: يا للأنصار، والمهاجري قال: يا للمهاجرين، قام النبي مغضباً قال: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، دعوها فإنها منتنة). بل قال لمن أخذ بأسباب الفرقة أن يهان ويعاقب، قال: (من سمعتموه يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهنّ أبيه ولا تكنوا).

فالفرقة منبوذة، وكل حزبٍ يتحزب ليفرّق الأمة، وبلسان حاله ولسان مقاله يقول: من وافقنا فهو معنا ومن خالفنا فهو عدونا. هذا مبتدعٌ ضال يعمل الفرقة في الأمة، وكل حزبٍ يفعل ذلك ويفرّق بين الناس ويصنفهم ويوالي ويعادي على جماعته أو بيعته أو حزبه فهذا مبتدعٌ ضال، وهذا يتسبب بالفرقة، وهذا له حظٌ ونصيب من قول الله جلَّ في علاه: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) [الأنعام:159]، ولذلك عامة المختلفين هالكين.

فعلى الأمة أن تأخذ بسبب الاجتماع والجماعة، ونبذ الفرقة والاختلاف، إلّا الاختلاف الذي لا يفسد للود قضية ويحتوي صاحبه ويحتمل. أمّا كل اختلافٍ أدى إلى التنازع والتشرذم والتناحر والتداحر والتباغض، فهذا خلافٌ بدعي وتحزبٌ يمزق الأمة، قال النبي: (لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً).

وفي قول النبي: (وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)؛ رأى العلماء بأنها كلها من أهل الإسلام، لأنه قال: (أمتي). وعند التحقيق والنظر نقول أصول هذه الفرق: منها من يخرج من الملة كالروافض، ومنهم من يخرج من الملة من المعتزلة المعطلة الذين ينفون العلم والمشيئة، ومن الجهمية الذين يعبدون عدماً. فالمسألة تحتاج إلى تفصيل، لكن عند التأصيل العام أنه قال: (تفترق أمتي)، فمن قال أن جميع هذه الفرق تخلد في النار، فقد خالف الكتاب والسنة، لكنهم على خطرٍ عظيم وعلى بدعةٍ وضلالة.

قال: صار المستمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة؛ لا بد أن نقول إن الفرقة ناجية هي التي اتصفت بهذه الأوصاف التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي). لا خير في الابتداع، والكلام على ما كان سلفاً وما كان من هؤلاء الصحابة الكرام، الذين يترسمون خطى النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فهؤلاء هي الفرقة الناجية، هم أهل السنة والجماعة الذين تمسكوا بالإسلام المحض واستسلموا وانقادوا لله وللرسول، فانقادوا لأمره وتمسكوا بسنة نبيه.

فأهل السنة والجماعة الذين التزموا الكتاب والسنة، هم المستمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوائب البدعية، وعن الطرق الصوفية المخالفة لما كان عليه النبي وكان عليه الصحابة الكرام. فقد تمسكوا بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً، وعندما يظهر الخلاف، وعندما تكون الخصومة يردون الأمر لله ولرسوله؛ كما قال الله تعالى: (وَمَا

اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10]، وقال: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:59].

فهم عند الاعتقاد تمسكوا بالإسلام الذي لا يشوبه التحريف ولا التعطيل، فأثبتوا ما أثبت الله لنفسه وأثبته له رسوله؛ من غير تكييفٍ ومن غير تشبيهٍ ومن غير تعطيلٍ ولا تحريف. وعند العمل لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله، فهم يأتسون بالنبي، ولا يتحركون إلّا بالدليل والأثر. وفي العمل هم بين الغلو والجفو، وسطيةٌ في كل شيء، وهذا هو الحق، وهذا هو اتباع الهدى الذي أمر الله به: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) [طه:123].

أمّا باقي الفرق المبتدعة؛ فكل فرقةٍ جعلوا صوتها على الساحة وفي الساحة أن الحق معهم؛

وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى *** وليلى لا تقر لهم بذاك

إذا اشتبكت دموعٌ في الخدود *** تبين من بكى ممن تباكى

ما الحق إلّا اتباع الهدى، والهدى في الكتاب والسنة؛

والعلم إلّا قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً *** بين الرسول وبين قول فقيه

ثم قال المصنف: وفيهم الصديقون والشهداء، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى وأولو المناقب المأثورة والفضائل المذكورة؛ قال: وفيهم، أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية، وفيهم الصديقون والشهداء. هذه إن دلت، دلت على أن مراتب أهل الإيمان وأهل الإسلام متفاوتة كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفرق بين أهل جنان في الفردوس الأعلى؛ أهل الغرف يُنظر إليهم كأنما يُنظر إلى النجوم في علياء السماء، فقد فاضل الله بين عباده حتى بين الأنبياء، فقدّم رسولنا -صلى الله عليه وسلم- على جميع الأنبياء، وقال: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر).

وقد جعل الله للمؤمنين مراتب؛ عمر بن الخطاب وهو يتنافس مع أبي بكرٍ -رضي الله عنه وأرضاه- قال: والله مثلك لا يسابق، ما في منافسة معه، نزل القدر بعلو كعلو أبي بكرٍ وأنه خير البشر بعد الأنبياء والمرسلين كما قال النبي الأمين: (ما طلعت الشمس ولا غربت بعد الأنبياء المرسلين على خيرٍ من أبي بكر).

وفيهم الصديقون؛ الصديقية في أبي بكرٍ وليست خاصة فيه، ولكن هذه أيضاً تثبت أن الصديقية مراتب، وكلما كان المرء مصدِّقاً بالقلب والاعتقاد، صادقاً باللسان والفعل كان بلغ مرتبة من أفخر مراتب الصديقية. صادق اللهجة واللسان، مصدِّق القلب

والاعتقاد، مصدِّق العمل. فعمله يصدق اعتقاده، واعتقاده صح في ربه وصدقه، ولسانه لا ينطق إلّا بالحق والصدق، وسيد هؤلاء هو أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-. والشهداء؛ هم أعظم خلق الله قدراً عند الله جلَّ في علاه بعد الصديقين وبعد الأنبياء والمرسلين، لذلك تمنى عمر بن الخطاب الشهادة، وقد بُشِّر بها عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيد) وكان عمر معه، ولذلك قتله أبو لؤلؤة المجوسي -عليه من الله ما يستحق من لعنة-.

والشهيد: هو شهيد ساحة الوغى، هذا الشهيد الذي له أحكامٌ خاصة، وهو أرقى منازل الشهداء؛ لا يغسّل ولا يكفّن وبثيابه ودمائه يدفن، والأرض محرّمٌ عليها أن تأكل جسده. ولمّا سئل لِمَ يعصم من الفتان؟ قال: (كفى ببوارق السيوف فتنة).

لكن الشهادة لا تقف عند هؤلاء؛ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سأل الله الشهادة بصدق نال الشهادة ولو على سريره). والنبي عندما سألهم عن الشهداء، قالوا: شهداء المعركة، قال: (إذاً شهداء أمتي لقليل)، قال: (ميت الغرق شهيد، والهدم شهيد، والمبطون شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيد)، فهذه كلها شهادة.

فقال يريد أن يبيّن أن أهل الجنة أهل السنة والجماعة، هم خير الناس؛ فيهم النبلاء والرفاع، فيهم الصديقون والشهداء، ومنهم أعلام الهدى المنارات التي يستضاء بها ويهتدى بها في الطرق الوعرة. أنت تعلم أن الخنساء لمّا كانت ترثي أخيها قالت فيه كلاماً عظيماً:

وإن صخراً لتأتم الهداة به *** كأنه علمٌ في رأسه نار

ولذلك العلماء أعلام، وسمّي العالم علماً لأنه يهتدي به ويقتدى به ويقتفى أثره، فالناس يهتدون بعلمه، ولذلك يقولون: فلان جبلٌ في العلم والهدى والدلالة والإرشاد. فالعلماء خير الناس وطوق نجاة الأمة بهم، فهم الذين يهدون الناس إلى الطريق المستقيم وإلى شرع الله القويم، وهذه الهداية هداية الدلالة والبيان؛ ليست هداية القلوب، حتى النبي الأمين لا يملكها. قال الله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) يعني هداية القلوب (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [القصص:56]، لكن قال في حقه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى:52].

قال: مصابيح الدجى أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة؛ وهذا الكلام في فضل العلماء، وهذا يأتي إن شاء الله في الدرس القادم نبيّن فضل العلماء ومكانة العلماء. وقوله: وفيهم الأبدال؛ ما معنى الأبدال؟ هل هي الأبدال عند أصحاب الطرق والتصوف أم المسألة فيها تفصيل؟

الفوائد المستنبطة:

- الفرقة من السنن الكونية ووجب دفعها، هي من قدر الله ووجب دفعه، هذا من القدر الذي يجب دفعه. ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم)، والذين من قبلنا افترقوا لذلك جاء الشرع بإنكار ذلك. كان النبي يقول: (لا تكونوا أمثالهم، فلا تفترقوا كما افترقوا، فينالكم ما نالهم).

- لا نجاة إلّا بتنصب طريق الصالحين السلف الأخيار الأبرار الذين انتهجوا نهج النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- كلها في النار إلّا واحدة؛ (من كان على ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي)، وقوله: (اليوم) فيها دلالة واضحة جداً على وجوب اقتفاء أثر هؤلاء.

- نجاة الأمة منوطٌ بوجود بالعلماء.

شرح العقيدة الواسطية

الدرس الثمانون: السنة والجماعة فيهم الصديقون والشهداء والصالحون

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، لا سيما النبي المجتبى والأمين المصطفى، وعلى صحابته الكرام وآل بيته العظام المستكملين الشرفاء، وبعد:

سنختم الكلام على كتاب الواسطية، انتهاء من الكتاب كليةً بفضل من ربنا ونعمة، وهو كتاب الواسطية كتاب الاعتقاد.

المصنف -رحمه الله تعالى- يتكلم عن أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية، هم الطائفة المنصورة، قال: وفيهم الصديقون والشهداء؛ وتكلمنا عنهم وقلنا بأن أرقى الناس منزلةً بعد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- الصديقون، وسيدهم هو أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه-.

والشهداء تتلوها هذه المنزلة، لأن الشهداء الله جلَّ وعلا رفعهم؛ (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا) [آل عمران:169]، وأيضاً بأن الله جلَّ وعلا حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الشهداء كما حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء. وأيضاً فإنهم لا يُسألون في القبر؛ يعني وقاهم الله فتنة القبر، ولمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (كفى ببوارق السيوف فتنة).

وهذه دلالة واضحة جداً على المنزلة العظيمة لما بذلوا المهج وأرخصوا واسترخصوا النفس من أجل نصرة دين الله جلَّ في علاه، فكانت المكافأة أن الله جلَّ في علاه وقاهم عذاب القبر ووقاهم فتنة القبر. وهي فتنة عظيمة؛ اشتد الأمر على الصحابة الكرام عندما علموا بهذه الفتنة، فأنزل الله جلَّ في علاه مطمئناً لقلوبهم قال: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) [إبراهيم:27].

قال: وفيهم الصديقون والشهداء، ومنهم أعلام الهدى مصابيح الدجى أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة. قال: ومنهم أعلام الهدى؛ وهذا الكلام هم ورثة الأنبياء، قد سمّي العالم علماً لأن الناس يهتدون به. وهذه من أشرف المنازل وأرقى المراتب، أن يكون العالم مقتدياً بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، الوريث الأصيل لمنهاج النبوة الوريث الأصيل للوحي.

قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة:11]؛ تفاوت منازل عليا في هذا الباب. وقال الله جلَّ في علاه عندما أظهر الذين يعملون بعلمهم -عثمان كان هو سبب نزول هذه الآية-: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر:9]، الإجابة: لا يستوون. قال الله جلَّ في علاه: (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) [العنكبوت:43].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (العلماء هم ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر)، لاسيما وان النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وفضل العالم على العابد كفضلي أنا على أدناكم). هذه مسألة من الأهمية بمكان، معرفة الفضل لأهل الفضل معرفة، مكانة العلماء. لذلك وهو يشرف الأمة بأسرها بمن فيها ممن تتشرف بهم الأمة، وهم هؤلاء أعلام الهدى.

وقلنا يسمّى علماً لأن الناس يهتدون به؛ والحق بأن طريق الهداية للعلماء هي طريق الإرشاد والدلالة، وبيان إقامة الحجة والبراهين على وجود الله جلَّ في علاه وعلى ربوبيته وعلى استحقاقه لإفراده بالعبادة، وعلى تنصيب الكلام على نصرة الدين، وبيان الطريق الذي يصل به المرء إلى ذلك. هذا الذي فيه البيان الواضح الجلي من علمائنا، على ما قاله نبينا -صلى الله عليه وسلم- في فضل العلم وأهل العلم -وهذا الحديث جاء موقوفاً ومرفوعاً والموقوف أصح-: (إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة).

الحق لا بد أن تعلم أنه وإن كان جاء موقوفاً ومرفوعاً، قد ورد عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- في الصحيح أنه قال: (النجوم أمنة السماء، إذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد. وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنةٌ لأمتي).
وقد قال أبو الدرداء -رضي الله عنه وأرضاه-: العلماء نجوم السماء؛ فهم أمنة للسماء والأرض، ولذلك العقاب لا ينزل من السماء إن وجد في الأمة العلماء.

العلماء الذين وصفهم الله جلَّ في علاه بالعلماء الربانيين، قال الله تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا) [آل عمران:79-80]. إذاً العلماء نجوم السماء، والعلماء الأمة بأسرها تهتدي بهم وتقتدي بهم وتأتسي بفعالهم، ولأنهم الذين يظهرون ويجلّون للأمة بأسرها الشرع، ويجلّون أحكام الله جلَّ في علاه، وينقلون للناس ما أثر على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

قال: منهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى؛ على العلماء، وكما قلنا والعلماء هم أفضل الناس على الإطلاق وأشرف الناس منزلةً وأكرم الناس عند رب الناس. كفى أنه وريث النبي -صلى الله عليه وسلم-، كفى أنه يجلّي لك أحكام الله جلَّ في علاه، كفى أن النبي عندما قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)؛ فقال الإمام أبو حنيفة: الفقهاء هم أولياء الله، والإمام الشافعي قال: العلماء هم أولياء الله، إن لم يكن العلماء هم أولياء الله فلا أعلم لله ولياً.

فهذه مسألة من الأهمية بمكان، لذلك قال: منهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى؛ أنت تخيل الدنيا بأسرها بدون علماء، أظلمت الدنيا وهاج وماج الناس وعاشوا في أهوائهم، والعاطفة تحركهم تارة، والهوى يحركهم تارة، وعدم الشيطان يأتي بهم تارة. ويكونون لقمة سائغة في هذا الباب -كما قال العلماء- على كثير من الطرق التي فيها المضلات والظلمات، فيكون لقمة سائغة للشيطان يأكلها كيفما شاء، وأيضاً يجعلهم من السبب الرئيس في نزول البلاء عليهم.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن سقف النجاة لهذه الأمة وجود النبي، فإن لم يوجد نبي وريث النبي، والدلالة على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تقوم الساعة حتى يُرفع العلم ويظهر الجهل). قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يَبقَ عالمٌ (لم يُبقِ عالماً)، اتخذ الناس رؤوسا جهّالاً، فسئلوا بغير علم فضلوا وأضلوا).

قال: أولوا المناقب المأثورة والفضائل المذكورة؛ أي أصحاب المناقب، أصحاب المكانات، أصحاب الرفعة، أصحاب الديانة، أصحاب الهداية. فلهم مفاخر، وأنهم يمسكون بدين الله جلَّ في علاه وينشرونه، ويأخذون براية النبي -صلى الله عليه وسلم- يرفعونها، فلهم فضائل عظيمة. ولذلك أنت ترى بأن الله جلَّ وعلا جعل صيتاً عظيماً للعلماء الذين يحملون أثر النبي -صلى الله عليه وسلم-. فالغرض المقصود أن العلماء الله جلَّ في علاه جعلهم منارات، ولهم مناقب عظيمة.

كفى بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس في مجلس التحديث مع أصحابه وهو يقول: (فضل العالم على العابد كفضلي أنا على أدناكم)، وهذا كلامٌ ظاهرٌ جداً في فضل العلماء. ولذلك كان علماؤنا يحترزون من التعامل مع العلماء، ويحاولون قدر الإمكان إنزال الناس منازلهم، فيعرفون لهم فضلهم ويعاملونهم على ما يحملون من شرع الله جلَّ في علاه.

المسألة ليست لشخصهم، المسألة لما يحملون؛ فهم يحملون شرع الله جلَّ في علاه، يحملون الكتاب والسنة، يحملون الآثار التي وردت عن الصحابة الكرام، فلذلك هم يوقرون. وهذا الذي حدا بمعاذ بن جبل أن يقول: وحبهم دين ندين الله به؛ يعني حب العلماء. هؤلاء هم ورثة الأنبياء حقاً، الذين يحملون شعار الدين، الذين يُظهرون للناس أحكام الله وأحكام رسوله -صلى الله عليه وسلم-، الذين يحملون الأمة بأسرها إلى محط النجاة وهم يزيحون عنهم مواطن الهلاك. هكذا فعل العلماء، هكذا هم الذين قد حياهم الله جلَّ في علاه، الذين هم قد أحيا الله الأمة بهم، الذين هم قد أناط الله نجاة الأمة بهم. ولذلك أنت ترى كيف جعل الله لهم ذكراً في الآخرين، وشكر لهم ما فعلوا.

أنت لو ترى الكلام الذي قاله ابن تيمية عن الأئمة الأربعة لمّا كتب الله لهم القبول في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الله جلَّ في علاه جعل لهم مذاهب متبعة، قال ابن تيمية: أنا أشهد أن الأئمة الأربعة في الجنة؛ وهذا كلام عجيب لأننا لا نشهد لأحدٍ بالجنة ولا بالنار، اعتقاد أهل السنة والجماعة: لا نشهد لأحدٍ بالجنة ولا بالنار إلا من دل الدليل على أنه في الجنة أو في النار.

وهذا منهج أحمد، يعني هذا الكلام من رواية أحمد، وهو مستخرج ومستند لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما مرت جنازة أثنوا عليها خيراً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وجبت وجبت) يعني وجبت له الجنة، ثم مرت جنازة أخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: (وجبت وجبت)، فقال عمر: يا رسول الله ما وجبت وجبت؟ قال: (أنتم شهداء الله في الأرض، لمّا أثنيتم على هذا خيراً، قلت: وجبت وجبت، ولمّا أثنيتم على الآخر شراً، قلت: وجبت وجبت)، فمن شهد له الناس بالخير فهو في الجنة، ومن شهد له الناس بالشر فهو في النار.

فسبحان ربي العظيم، طبعاً هذا على عدم اتباع الهوى، والله جلَّ في علاه هو الذي يملك القلوب ويملك الألسن، فنسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا منهم وأن يجعلنا من طلبة العلم المهتدين، وأن يجعلنا من الذين يعملون لدين الله جلَّ في علاه، اللهم آمين يا رب العالمين، اللهم آمين يا رب العالمين.

قال: وفيهم الأبدال؛ كلمة "الأبدال" هذه كلمة قد تكون تحمل حقاً وتحمل باطلاً، لكن كلمة الأبدال كما فسرها أحمد وغيره: بل إن الله يجعل منهم البدل. وهكذا وهذه سنة الله الكونية؛ أنتم تعلمون بأن الإمام الشافعي ولد يوم موت أبي حنيفة، وكذلك مالك، وكذلك ابن عيينة، فكل عالمٍ كان -سبحان ربي العظيم- يولد عند موت عالم. ولذلك ابن عباس لمّا دُفِن زيد بن ثابت قال للناس: أنتم تسألونني كيف يذهب العلم؟ هكذا يذهب العلم، ذهاب العلم بذهاب العلماء. ولذلك أبو هريرة لمّا دُفِن زيد وقف عند قبره يبكي بكاءً طويلاً، قال: هنا قد دفن علمٌ كثير، ولعل الله يجعل في ابن عباس خلفاً له.

والأمة ولّادة، من قال بأنه لا اجتهاد في الأمة هذا رجل فيه شيء من الضلال والزيغ، وهو معارض لعمومات ما جاء عن الله وجاء عن الرسول -صلى الله عليه وسلم-. لا بد أن يفهم في هذا الباب أنه معارض لهذا، هو معارض لقول الله جلَّ في علاه: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ) [النساء:83].

وليس المسألة واقفة عند الرسول فقط، وأيضاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أمتي كالمطر لا يدرى الخير في أوله أم في آخره)، ولقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم). فهذه أيضاً فيها دلالات واضحات باهرات على أن هذه الأمة ولّادة، وأن الاجتهاد في الأمة لا ينقطع بحال من الأحوال.

الأبدال هنا: أنه إذا مات عالم جعل الله بدلاً له في هذه الأمة. كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، أمّا هذه الأمة رفعها الله جلَّ في علاه لشدة انقيادها ورجوعها لربها جلَّ في علاه، إن الله جلَّ في علاه جعل فيها العلماء، إذا مات عالم جاء بدله، أبدل الله هذا العالم. ولذلك أنت ترى كل عالمٍ نبيل إذا مات، يقول الآخر: اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلف لنا خيراً منها. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن هذا العلم يحمله من كل خلف عدوله، فهنا الله تعالى يجعل في الأمة من يخرج مكان العلماء الذين ولوا، وهؤلاء الأبدال.

وهناك أحاديث كثيرة جاءت في الأبدال، وجاءت في الأقطاب، وكلها لا تصح بحال من الأحوال. وقلنا الفهم الدقيق لكلمة البدل هو: أن الله جلَّ وعلا إذا قبض عالماً جعل بدله عالماً، لكن في آخر الزمان قال: (حتى إذا لم يَبقَ عالمٌ (لم يُبقِ عالماً)، اتخذ الناس

رؤوساً جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم). هؤلاء الذين يقطعون دابر الشرك، الذين يصمون آذان المبتدعة.

فترى العلماء هم أولياء الرحمن، عداة على الشيطان وعلى أولياء الشيطان، الأمة لا تنجو بحال إلّا بهؤلاء الأمة، لا نجاة للأمة إلّا بوجود العلماء. وإذا أراد الله بأمةٍ شراً قبض علماءها، وإذا أراد الله بالدنيا إلى أفول قبض علماءها. فالله المستعان، نسأل الله جلَّ في علاه أن يرحمنا، ونسأل الله جلَّ في علاه ألّا يعاملنا بما نحن أهلٌ له، اللهم آمين يا رب العالمين.

قال: وفيهم أئمة الدين؛ أي أهل السنة والجماعة هم أئمة الدين، وهم الأئمة الذين يحتذى بهم، هم الأئمة الذين يؤتسى بهم، هم الأئمة الذين أسسوا العقيدة الصحيحة، وهم الأئمة الذين فندوا العلم والأحكام والشريعة، وهم الأئمة الذين تصدوا للنوازل ففندوها، وهم الأئمة الذين جعلهم الله جلَّ في علاه هداةً ونجوماً وجعلهم الله رجوماً للشياطين.

ولذلك أنت لو نظرت إلى التاريخ تجد الأئمة العظام الكرام، فجعلهم الله جلَّ في علاه غصة في حلوق الشياطين والمبتدعة الضالة، فنصروا سنة النبي ونصروا دين الله جلَّ في علاه؛ كالأئمة الأربعة: الإمام مالك "مالك النجم"، كما قال الشافعي: إذا ذكر حديث فمالكٌ النجم. وأيضاً أبو حنيفة الذي قال فيه الإمام الشافعي: الفقهاء عيال على أبي حنيفة، فانظر إلى هذه المكانة. الإمام الشافعي لمّا يقول أحمد: الشافعي للناس كالشمس للدنيا والعافية للبدن، هل تجد لها من خلف؟ انظر عندما يعرف أهل الفضل الفضل لأهل الفضل، يا رب ارزقنا هذا ووسع لنا مداركنا، واجعلنا نحترم ونهاب العلماء ونضعهم في مصفهم الصحيح، ونعوذ بالله ممن يلوك بلسانه أعراض هؤلاء، فإنها حفرة من حفر النيران. اللهم هذب نفوسنا وأنت أرحم الراحمين.

قال النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الحديث مختلف فيه والراجح الصحة: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)، فهم -كما قلنا- نصرةً لدين الله جلَّ في علاه، علماؤنا الذين أسسوا للتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ونبذ التقليد، هم أنفسهم الذين نبذوا التقليد وأثروا في الأمة على الاتباع.

وكل عالمٍ من علمائنا يقول: عليكم بالأثر والدليل، كما قال الإمام أحمد: عجبت لقومٍ عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان وفلان. قال الله تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور:63]، ولذلك قال الإمام مالكٌ: كل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب هذا القبر. وأيضاً قد قال الإمام الشافعي: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وقال الإمام أبو حنيفة: إذا وجدتم قولي عارض قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول النبي

صلى الله عليه وسلم. هؤلاء هم أئمة الهدى، جروا الناس على الكتاب والسنة، إذ لا علم إلّا بالكتاب والسنة.

ما العلم إلّا قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً *** بين الرسول وبين قول فقيه

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وهم الطائفة المنصورة، نصرهم الله جلَّ في علاه؛ (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)، (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) [الحج:38]، (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [الروم:47]. وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة). قال: (طائفة) يقللها، ليسوا كثير، لأن النبي قال في آخر الزمان: (أنتم اليوم كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل). فالطائفة التي يجعل الله جلَّ في علاه نصرة الدين على أيديهم، ويجعل الراية المتينة الراية الراقية السامية التي تتلألأ في سماء دنيانا، جعلها راية هؤلاء الطائفة الذين تمسكوا وعضوا بالنواجذ على الكتاب والسنة.

قال: وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة)؛ لهم الغلبة ولهم الحجة ولهم البرهان، مهما تكالب عليهم أهل الكفر وأهل النفاق وأهل الفسق وأهل الفجور، فإن الله جلَّ في علاه ناصرهم لا محالة. والساعة لا تقوم إلّا على شرار الخلق ولذلك قال: (حتى تقوم الساعة)، حتى يأذن الله جلَّ في علاه فيقبض العلماء جميعاً، فبقبض العلماء تأتي الساعة، لأن النبي قال: (حتى إذا لم يَبقَ عالمٌ (لم يُبقِ عالماً) اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا).

وهذه معجزة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن هذه الطائفة موجودة، وقد قال النبي مبيّناً على رجوع الأمة مرةً ثانية إلى القيادة والسيادة والريادة عندما قال: (بشر هذه الأمة بالرفعة والسنا إلى يوم الدين)، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ).

يدعو الله شيخ الإسلام، قال: فنسأل الله أن يجعلنا منهم، وألّا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، (اللهم آمين) ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-. وهذا دعاء، وقال: نسأل الله؛ وهذا من باب التوسل والدعاء، قال: فنسأل الله أن يجعلنا منهم، وألّا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ختم الأمر بالتوحيد، بالتوسل لرب العبيد، طلب منه أن يثبت القلب وأن يرزقه من لدنه رحمة. والحق أن أعظم رحمة يرزقها الله جلَّ في علاه لعباده هو تمام التوحيد، وكمال التوحيد في القلب، وأن يمتلئ القلب بحب الله جلَّ في علاه، وأن يجعل الله وازعاً في القلب أن يبيع المرء نفسه رخيصةً لنصرة دين الله جلَّ في علاه، فإنهم يرتقون إلى المعالي إن فعلوا ذلك.

فلذلك دعا ربه وعملاً بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من لم يسأل الله يغضب عليه)، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله حييٌ كريم يستحي أن يرفع العبد يديه فيردهما صفراً) أو (خائبتين)، وأيضاً قد قال الله جلَّ في علاه: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر:60]. اللهم ارزقنا من لدنك إخلاصاً وصدقاً، اللهم اجعلنا من العلماء العاملين، واجعلنا من الذين يجاهدون في سبيلك ينشرون دينك يقمعون البدعة وينشرون السنة يقيمون راية التوحيد ويهدمون كل رايات الشرك، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا من الصادقين المصدقين والمخلِصين المخلَصين، وأن يجعلنا لربنا وحده لا شريك له ثم يقبضنا على الإسلام وعلى التوحيد، ختم الله لنا هذا الباب العظيم.

قال: أن يجعلنا منهم؛ يعني من الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، الذين نصرهم الله جلَّ في علاه وثبت الإيمان في قلوبهم وجعلهم من هداة الناس. قال: وألّا يزيغ قلوبنا؛ (إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، إذا أراد ان يقيم قلباً أقامه، وإذا أراد أن يزيغ قلبه أزاغه)، لذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). وأيضاً فإن النبي كان من أكثر ما يقسم به: (لا ومقلب القلوب) وهو يراجع نفسه في ذلك. حتى يعلم المرء أنه لا هداية له ولا تثبيت له إلّا بالله جلَّ في علاه، (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]. وكان يدعو النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرّف قلبي على طاعتك).

ونسأل الله الوهاب كثير العطايا الكريم المنان الرحيم الواحد الديان أن يجعلنا بكرامةٍ وبسعادةٍ، وأن يجعلنا بجواره يوم القيامة، وأن يدخلنا جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر. اللهم اجعلنا في رتبة النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا تنزلنا منها، وما هو إلّا طمع في كرمك وأنت أرحم الراحمين. اللهم إنا نختم هذا الكتاب حمداً لك وشكراً لهذا الدعاء، اللهم إنا نسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد ومرافقة النبي محمد في جنة الخلد، اللهم إنا نسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد ومرافقة النبي محمد في جنة الخلد، اللهم آمين.